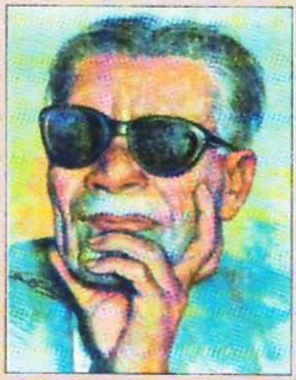


طه حسين

١

الفتنة الكبرى

عثمان

دار المعارف

اهداءات ٢٠٠٢

أ.د/ مصطفى الصاوى الجوينى

الاسكندرية

طه حسين

الفتنة الكبرى

١

عثمان

الطبعة الثانية عشرة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١

هذا حديث أريد أن أخلصه للحق ما وسعنى إخلاصه للحق وحده . وأن أتحرى فيه الصواب ما استطعت إلى تحرى الصواب سبيلا ، وأن أحمل نفسى فيه على الإنصاف لا أحيد عنه ولا أمالئ فيه حزباً من أحزاب المسلمين على حزب . ولا أشايع فيه فريقاً من الذين اختصموا فى قضية عثمان دون فريق : فلست عثمانى الهوى ، ولست شيعة لعلى ، ولست أفكر فى هذه القضية كما كان يفكر فيها الذين عاصروا عثمان واحتملوا معه ثقلها وجنوا معه أو بعده نتائجها .

وأنا أعلم أن الناس ما زالوا ينقسمون فى أمر هذه القضية إلى الآن كما كانوا ينقسمون فيها أيام عثمان رحمه الله : فمنهم العثمانى الذى لا يعدل بعثمان أحداً من أصحاب النبى (صلى الله عليه وسلم) بعد الشيخين ، ومنهم الشيعى الذى لا يعدل بعلى رحمه الله بعد النبى أحداً ، لا يستثنى الشيخين ولا يكاد يرجو لمكانهما وقاراً ؛ ومنهم من يتردد بين هذا وذاك ، يقتصد فى عثمانيته شيئاً أو يقتصد فى تشيعه لعلى شيئاً ، فيعرف لأصحاب النبى كلهم مكانتهم ، ويعرف لأصحاب السابقة منهم سابقتهم ، ثم لا يفضل بعد ذلك أحداً منهم على الآخر . يرى أنهم جميعاً قد اجتهدوا ونصحوا لله ولرسوله وللإسلام والمسلمين ، فأخطأ منهم من أخطأ وأصاب منهم من أصاب ، ولأولئك وهؤلاء أجرهم لأنهم لم يتعمدوا خطيئة ولم يقصدوا إلى إساءة . وكل هؤلاء إنما يرون آراءهم هذه يستمسكون بها ويذودون عنها ويتفانون فى سبيلها ؛ لأنهم يفكرون فى هذه القضية تفكيراً دينياً ، يصدرون فيه عن الإيمان ، ويبتغون به ما يبتغى المؤمن من المحافظة على دينه والاستمساك بيقينه ، وابتغاء رضوان الله بكل ما يعمل فى ذلك أو يقول .

وأنا أريد أن أنظر إلى هذه القضية نظرة خالصة مجردة : لا تصدر عن

عاطفة ولا هوى ، ولا تتأثر بالإيمان ولا بالدين ، وإنما هى نظرة المؤرخ الذى يجرد نفسه تجريداً كاملا من النزعات والعواطف والأهواء مهما تختلف مظاهرها ومصادرها وغاياتها .

وقد قضى جماعة من المسلمين بل من خيار المسلمين نحبهم قبل أن تحدث هذه القضية وتثار حولها الخصومة ، فلم ينقص هذا من إيمانهم ولا من أقدارهم ، وإنما عصمهم من الشبهة وجنبهم مواطن الزلل ، فقضوا بخير ما كتب الله للمسلمين ، ونجوا من شر ما كتب عليهم ؛ وعاش قوم من أصحاب النبي حين حدثت هذه القضية وحين اختصم المسلمون حولها أعنف خصومة عرفها تاريخهم ، فلم يشاركوا فيها ولم يحتملوا من أعبائها قليلا ولا كثيراً ، وإنما اعتزلوا المختصمين وفروا بدينهم إلى الله ؛ وقال قائلهم سعد بن أبى وقاص رحمه الله : لا أقاتل حتى تأتونى بسيف يعقل ويبصر وينطق فيقول : أصاب هذا وأخطأ ذاك !

فأنا أريد أن أذهب مذهب سعد وأصحابه رحمهم الله ، لا أجادل عن أولئك ولا عن هؤلاء ، وإنما أحاول أن أتبين لنفسى وأبين للناس الظروف التى دفعت أولئك وهؤلاء إلى الفتنة وما استتبعت من الخصومة العنيفة التى فرقتهم وما زالت تفرقهم إلى الآن ، وستظل تفرقهم فى أكبر الظن إلى آخر الدهر . وسيرى الذين يقرءون هذا الحديث أن الأمر كان أجل من عثمان وعلى وممن شايعهما وقام من دونهما ، وأن غير عثمان لو ولى خلافة المسلمين فى تلك الظروف التى وليها فيها عثمان لتعرض لمثل ما تعرض له من ضروب المحن والفتن ، ومن اختصام الناس حوله واقتتالهم بعد ذلك فيه .

وأكاد أعتقد أن الخلافة الإسلامية ، كما فهمها أبو بكر وعمر ، إنما كانت تجربة جريئة توشك أن تكون مغامرة ، ولكنها لم تنته إلى غايتها ، ولم يكن من الممكن أن تنتهى إلى غايتها ، لأنها أجريت فى غير العصر الذى كان يمكن أن تجرى فيه ، سبق بها هذا العصر سبقاً عظيماً .

وما رأيك فى أن الإنسانية لم تستطع إلى الآن ، على ما جربت من تجارب

وبلغت من رقى ، وعلى ما بلغت من فنون الحكم وصور الحكومات ، أن تنشئ نظاماً سياسيًّا يتحقق فيه العدل السياسى والاجتماعى بين الناس على النحو الذى كان أبو بكر وعمر يريدان أن يحققاه !

وقد ذهبت الإنسانية فى الحكم مذاهبها المختلفة ؛ فكان فيها حكم الملوك الذين كانوا يرون أنفسهم آلهة ، وكان فيها حكم الملوك الذين كانوا يرون أنفسهم ظلالاً للآلهة ، ثم كان فيها حكم الملوك الذين كانوا يرون أنفسهم ظلالاً لإله واحد . وهؤلاء الملوك جميعاً كانوا يرون مخلصين أو غير مخلصين أن سلطانهم لا يأتيهم من الناس ، وإنما يأتيهم من آبائهم الآلهة إن رأوا أنفسهم آلهة ، ويأتيهم من الإله أو من الآلهة الذين اتخذوهم لأنفسهم ظلالاً واستخلفوهم على عبادهم من الناس ؛ فكان هؤلاء الملوك يصدرون فيما يأمرون وما ينهون وفيما يأتون وما يدعون عن أنفسهم ، لا يعنيهم أن يرضى الناس أو يسخطوا . فليس للناس أن يرضوا أو يسخطوا ، وإنما عليهم أن يذعنوا ؛ وليس من شأن رضاهم أو سخطهم أن يغير من سيرة ملوكهم شيئاً ، فأنت تستطيع أن ترضى عن الشمس حين تضىء ، وتسخط عليها حين تحتجب . فلن يغريها رضاك بالإشراق ، ولن يمنعها سخطك عن الاحتجاب .

عرفت الإنسانية حكم هؤلاء الملوك فسعدت به قليلا وشقيت به كثيراً ، وحاولت أن تغيره فأتيح لها هذا التغيير فى بعض الظروف ، فعرفت حكم القلة الأرستقراطية التى تستأثر بالعدل فيما بينها من دون الناس . وعرفت حكم الطغاة الذين أقبلوا لينقذوا الشعب من ظلم هذه القلة واستئثارها ، وليشيعوا العدل بين الناس جميعاً لا يفرقون بين الأقوياء والضعفاء ، ولا بين الأغنياء والفقراء ، ولا بين القادرين والعاجزين . فلم يتح لهم إلا أن يشيعوا الظلم بين الناس جميعاً ، وأن يذلوا القلة مع الكثرة ويردوها من الضعة والهوان إلى مثل ما حاولت أن تخرج منه أو إلى شر مما حاولت أن تخرج منه .

ثم عرفت الإنسانية بعد ذلك نظاماً من نظم الحكم ظنت أنه من خير النظم

وأرقاها وأقومها وأمثلها وأجدرها أن يحقق العدل السياسي والاجتماعي بين الناس ، وهو هذا النظام الذي يرد إلى الشعب أمور الشعب يصرّفها كما يشاء ويدبرها كما يحب ؛ ولكن الإنسانية جربت هذا النظام فنالت به قسطاً من العدل ، ولم تنل به العدل كله ، بل لم تنل به من العدل إلا أيسره وأهونه شأناً ؛ فلم يتح للناس إلى الآن أن يتفقوا على رأى ولا أن يجتمعوا على هوى ، ولا أن تتحد لهم كلمة أو يلتئم لهم شمل ؛ وهم من أجل ذلك يرون أمر الشعب إلى الشعب فى ظاهر الأمر ثم لا يصنعون من ذلك شيئاً فى حقيقة الأمر : يستفتون الشعب فى أمره ؛ فإذا كان الاختلاف — ولا بد من أن يكون الاختلاف — أنفذوا أمر الكثرة وأهدروا أمر القلة . وأتاحوا بذلك للأكثرين أن يستذلوا الأقلين ، أو أن يحكموهم على غير ما يريدون ؛ ولو قد ضمن للأكثرين أن يحكموا أنفسهم ؛ وأن يحكموا الأقلين لكان هذا النظام مقارباً للعدل مباعداً للظلم المنكر إلى حد ما ؛ ولكن الأكثرين لا يحكمون بأنفسهم ولا سبيل إلى أن يحكموا بأنفسهم ؛ فهم يكلون أمر الحكم إلى ممثلين لهم يختارونهم لذلك اختياراً ، ويكلفونهم بذلك تكليفاً . وقد يخلص هذا الاختيار فى نفسه من العنف والإغراء ، ومن الرغب والرهب ، ولا يخلص . ولكن ليس من شك فى أن هؤلاء الممثلين الذين تكل الكثرة إليهم أمور الحكم ، ناس من الناس ، فيهم القوة وفيهم الضعف ، وفيهم الشدة وفيهم اللين . وفيهم القناعة وفيهم الطمع ، وفيهم الإيثار وفيهم الأثرة ؛ فهم معرضون لأن يجوروا عن القصد ، وينحرفوا عن الطريق ، ويحملوا أنفسهم ويحملوا الناس معهم على غير الجادة ، ويتورطوا كما تورط الملوك المستبدون ، وكما تورطت الأرستقراطية المستأثرة ، وكما تورط الطغاة المستعلون فى الظلم والجور .

هذا كله ولم نتجاوز العدل السياسي ؛ فكيف إذا قصدنا إلى العدل الاجتماعي الذي يراد منه ألا يجعل الناس سواء أمام الحاكم فحسب ، وإنما يجعلهم سواء أمام الثمرات التي قدر للناس أن يعيشوا عليها ؛ فقد عجزت نظم الحكم التي عرفتها الإنسانية ، على اختلاف العصور والبيئات والظروف ، عن أن تحقق هذا العدل الاجتماعي تحقيقاً ينتهى بالناس إلى اطمئنان لا يشوبه

قلق، ورضاً لا يشوبه سخط ، وأمن لا يشوبه خوف ؛ والإنسانية المعاصرة ترى من ذلك ما لا يحتاج إلى أن نطيل القول فيه ؛ فالديمقراطية قد ضمنت للناس شيئاً من حرية وقليلا من مساواة أمام القانون ، ولكنها لم تكد تضمن لهم من العدل الاجتماعى شيئاً ؛ والشيوعية قد ضمنت للناس قليلا أو كثيراً من العدل الاجتماعى ، فألغت ما بينهم من الفروق ، وأتاحت للعاملين منهم أن يعملوا وينتفعوا بثمرة أعمالهم ، وأتاحت للعاجزين منهم أن يعيشوا غير معرضين لذلة أو ضعة أو هوان . ولكنها ضحت فى سبيل ذلك بحريتهم كلها فلم تدع لهم منها شيئاً ، أو لم تكد تدع لهم منها شيئاً ؛ والفاشية قد ضحت بالحرية والعدل جميعاً ؛ فاستذلت الناس لسلطان الدولة استذلالا بعيد المدى ، واستغلتهم لقوة الدولة أبشع استغلال وأشنعه ، ثم لم ترد عليهم من نتائج عملهم شيئاً ، ولم تحفظ عليهم من حريتهم قليلا ولا كثيراً .

سلكت الإنسانية فى سبيل الحكم الصالح كل هذه الطرق : وجربت كل هذه النظم ، فلم تنته إلى غاية ، وما زالت تشكو الظلم والجور ، وتضيق بالاستذلال والاستغلال ، وتبحث عن النظام القويم الذى يضمن للناس الحرية والعدل جميعاً. وهذا النظام القويم هو الذى حاولت الخلافة الإسلامية لعهد أبى بكر وعمر أن تنشئه ، فمات أبو بكر رحمه الله ولم يكد يبدأ التجربة : وقتل عمر رحمه الله وقد خطا بالتجربة خطوات واسعة ، ولكنه لم يرض عنها أولا — فقد روى عنه أنه كان يقول فى آخر خلافته : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ، لأخذت من الأغنياء فضول أموالهم فرددتها على الفقراء » . فقد رأى عمر إذن أنه لم يبلغ من تحقيق العدل الاجتماعى ما كان يريد ، فكيف ولم يعرف المسلمون ولا غير المسلمين أميراً حاول من العدل ما حاول عمر وحقق منه ما حقق عمر . ولم يرض الناس عن تجربة عمر فى أيامه ثانياً — فقد كانوا يهابونه ويشفقون من سلطانه ، ويعطيه أكثرهم خوفاً ورهباً ؛ وكان أشد الناس حبّاً لعمر وأشد الناس حبّاً إلى عمر يبتغون إليه الوسيلة ليرفق بنفسه وبهم وبعامة الناس فلا يبلغون منه شيئاً ؛ لأنه كان يؤثر العدل على كل شىء — ثم لم يرض المغلوبون عن هذه التجربة

آخر الأمر ، فقد كانوا يرون أنهم يكلفون ما لا يحبون وفوق ما يطيقون ، وكانوا يرون أنهم أصحاب سابقة فى الحضارة ، وأن العرب طارئون على هذه الحضارة ؛ وأن مما يخالف أهواء نفوسهم أن يتسلط البادون على الحاضرين ؛ وقد قتل عمر رحمه الله نتيجة لهذا السخط ؛ قتله أحد هؤلاء المغلوبين الذى شكا إليه شدة سيده المغيرة بن شعبة ؛ فلما حقق شكاته لم يُعتبه . فكانت نتيجة ذلك أن طعن وهو يستقبل الصلاة .

على أن من الإسراف أن نقضى فى هذه التجربة الجريئة بهذه السرعة السريعة ، فمن حقها علينا أن نقف عندها وقفة فيها شىء من تمهل وأناة ؛ لنرى أكان من الممكن أن تبقى ؛ ولنرى أكان من الممكن أن تنجح وتبلغ غايتها ؛ فقد تحقق بهذه الوقفة المتمهلة المستأنية ما أخذنا به أنفسنا من الإنصاف أولا ؛ وقد تعيننا هذه الوقفة المتمهلة المستأنية على أن نفقه هذه المشكلات الكثيرة التى ثارت من نفسها ، أو أثيرت أيام عثمان ، لا لأن عثمان كان هو الخليفة ، بل لأن الوقت كان قد آن ليثور بعض هذه المشكلات من تلقاء نفسه ؛ وليثير الناس بعضها الآخر .

٢

كانت القاعدة الأساسية التي أقام أبو بكر وعمر عليها نظام حكمهما : هي أن يسيرا سيرة النبي في المسلمين ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً . وسيرة النبي في المسلمين معروفة إلى أبعد حد ممكن . وكان قوام هذه السيرة تحقيق العدل الخالص المطلق بين الناس ، وما نحتاج فيما نظن أن نقيم على ذلك دليلا ؛ وحسبنا أن نذكر من لا يذكر أن الإسلام إنما جاء قبل كل شيء بقضيتين اثنتين : أولاهما التوحيد ، وثانيتهما المساواة بين الناس ، والله عز وجل يقول : « يا أيها الناسُ إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » . وكان أغيظ ما غاظ قريشاً من النبي ودعوته أنه كان يدعو إلى هذا العدل وإلى هذه المساواة ؛ ولم يكن يفرق بين السيد والمسود ، ولا بين الحر والعبد ، ولا بين القوى والضعيف ، ولا بين الغنى والفقير ، وإنما كان يدعو إلى أن يكون الناس جميعاً سواء كأسنان المشط ؛ لا يمتاز بعضهم من بعض ، ولا يستعلي بعضهم على بعض ؛ وقد يقال إنه لم يلغ الرق ولم يمنع الناس من أن يملك بعضهم بعضاً . ولكن الذين يفقهون الإسلام ويعرفونه حق معرفته لا ينكرون أن هذه الخطوة الهائلة التي خطاها الإسلام حين سوى بين الحر والعبد أمام الله كانت وحدها حدثاً خطيراً في تاريخ الناس ، وحدثاً خطيراً له ما بعده لو مضت أمور المسلمين على وجهها ولم يعترضها ما اعترضها من الفتن والمحن والخطوب ؛ فالله قد فرض الصلاة على الأحرار والرقيق ، كما فرض عليهم الصوم ؛ وكما فرض عليهم أن يخلصوا قلوبهم له ؛ والله قد عصم دماء أولئك وهؤلاء على السواء ؛ والله قد شرع دينه واحداً لأولئك وهؤلاء ، لم يشرع بعضه للأحرار وبعضه للعبيد . وهذا وحده خليق لو مضت الأمور على

وجهها أن يمحو الرق محواً ويحرمه تحريماً ؛ فكيف وقد جعل الله فك الرقبة وإعتاق الرقيق من الأمور التي يتنافس فيها المسلمون يدخرون بها الأجر من الله والمثوبة عنده ، وكيف والله قد فتح في الدين أبواباً كثيرة لا يكاد يلجها الرقيق حتى يعتق ، والله قد مد في أسباب الإعتاق والتحرير لمن شاء أن يتصل بها ، فجعل الإعتاق كما قدمت آنفاً من الأعمال الصالحات التي يقصد إليها المسلم ، وجعل الإعتاق كفارة لبعض الخطايا ، ولم يدع وسيلة تيسر الإعتاق وتغرى به وتعين عليه وتفرضه على الناس فرضاً إلا دعا إليها ورغب فيها وشرعها للمسلمين .

وقد سخطت قريش أشد السخط وأعنفه على النبي لما أظهر من ذلك ، حتى لأكاد أعتقد أنه لو قد دعاها إلى التوحيد دون أن يعرض للنظام الاجتماعي والاقتصادي ، ودون أن يسوى بين الحر والعبد وبين الغني والفقير وبين القوى والضعيف ، ودون أن يلغي ما ألغى من الربا ، ودون أن يأخذ من الأغنياء ليرد على الفقراء — أقول لو قد دعاهم النبي إلى التوحيد وحده دون أن يمس نظامهم الاجتماعي والاقتصادي لأجابته كثرتهم في غير مشقة ولا جهد ؛ فما كانت قريش مؤمنة بأوثانها إيماناً خالصاً ، ولا كانت قريش حريصة على آلهتها حرصاً صادقاً . وما كانت قريش إلا شاكة ساخرة ، تتخذ الأوثان وسيلة لا غاية ، وسيلة إلى استهواء العرب واستغلالها — أو لأجابه من قريش من أجاب . وامتنع عليه منها من امتنع . دون أن يلقى في ذلك مشقة أو عنتاً . إلا أن يكون حرص قريش على آلهتها نتيجة حرصها على مكانتها من العرب وانتفاعها بما كان يجلب إليها من الثمرات . ومهما يكن من شيء فقد سخطت قريش على النبي لأنه عرض لنظامها الاجتماعي ، وفرض عليها نوعاً من العدل لا يلائم منافع سادتها وكبرائها ، أكثر مما سخطت عليه لأنه عاب آلهتها ودعاها إلى أن تلغى الواسطة بينها وبين الله .

والناس جميعاً يعلمون أن النبي (صلى الله عليه وسلم) ربما رفق ببعض السادة من قريش طمعاً في أن يستميله إلى الإسلام فيكون ذلك قوة للدعوة الجديدة ، وربما دعاه

هذا الرفق إلى شيء من الإعراض عن بعض المستضعفين . فلامه الله فى ذلك أشد اللوم وأعنفه ؛ وأنزل الله فى ذلك قرآناً . وما زال الناس يقرءون ما أنزل الله فى قصة ابن أم مكتوم من قوله عز وجل : « عبس وتولى . أن جاءه الأعمى . وما يُدريك لعله يَزّكى . أو يذكر فتنفعه الذكرى . أما منَّن استغنى . فأنت له تصدى . وما عليك ألا يزكى . وأما من جاءك يسعى . وهو يخشى . فأنت عنه تَلهى . كلا إنها تذكرة . فمن شاء ذكره . فى صحف مكرمة . مرفوعة مطهرة » .

فالتسوية بين الناس إذن هى مظهر أحد الأساسين اللذين قام عليهما الإسلام ، وهما التوحيد والعدل ؛ وقد سار النبى فى أصحابه بمكة ثم بالمدينة سيرة قوامها العدل فى الجليل من أمرهم والخطير ، حتى استقر فى نفوس المسلمين أن العدل ركن أساسى من أركان الإسلام ، وأن الانحراف عنه انحراف عن الإسلام ، والإخلال به إخلال بالدين ؛ ومن أجل ذلك لم يتردد بعض المسلمين فى أن ينكر على النبى نفسه بعض ما رأى ؛ ولم يفهم حين كان النبى يقسم الغنائم بعد حُنين ، ويتألف بعض من كان يتألف من العرب فيعطيهم أكثر من حقهم فى الغنيمة ، فقال له : اعدلْ يا محمد فإنك لم تعدل . وقد أعرض النبى (صلى الله عليه وسلم) عنه أول الأمر ، ولكنه أعاد كلمته وأعادها . فظهر الغضب فى وجه النبى وقال : ويحك ! فمن يعدل إذا لم أعدل ؟

وهمّ بعض المسلمين أن يبطشوا بهذا الرجل ولكن النبى كفهم عنه لأنه كان يحفظ لأصحابه حريتهم وحقهم فى المشورة والاعتراض والنقد . والنبى مع ذلك لم يتألف من تألف من العرب إلا عن وحى من الله وإذن فى القرآن ؛ فالله قد أذن له فى سورة « براءة » أن يتألف قلوب بعض الناس من أموال الصدقة . وجعل تألف بعض القلوب مصرفاً من مصارف الصدقة .

فهو إذن لم يجر عن القصد حين أعطى من الغنيمة جماعة من هؤلاء الذين أذن الله له فى أن يتألف قلوبهم ؛ وليس أدل على أن النبى مضى فى رعاية العدل إلى أبعد حد ممكن ، من هذه السنة التى استنها فى نفسه فأحب الخلفاء أن يسنوها

بعده في الناس فلم يبلغوا من ذلك ما أرادوا ؛ فقد أقص النبي من نفسه ، وزعم عمر أثناء خلافته أن أي عامل آذى بعض رعيته بغير الحق فهو عرضة لهذا القصاص ، ويقال إن بعض الرعية شكا إلى عمر في الموسم أن عامله قد ضربه بغير الحق ، فلما استبان ظلم العامل لعمر قضى بأن يقتص منه شاكيه ، وفزع العمال إلى عمر يطلبون إليه أن يقيل هذا العامل من هذا القصاص ؛ لأنه يغض من هيبة السلطان ، ويطمع الرعية في أمرائها ؛ فلم يقبل منهم عمر على كثرة ما ألحوا ، ثم رضى آخر الأمر أن يعفى العامل من هذا القصاص إذا أرضى شاكيه ، وقد استطاع هذا العامل أن يرضى شاكيه فلم يتعرض لهذا القصاص ؛ وكانت حجة عمر أن النبي قد أقصّ من نفسه وهو خير أمته ؛ فلا على غيره من الخلفاء والولاة أن يُقصّوا من أنفسهم عن رضا أو أن يقص منهم السلطان وهم كارهون . وقد احتج خصوم عثمان عليه بإقصاص النبي من نفسه، وبما أراد عمر من إقصاص الرعية من ولاتها ، وطلبوا إليه أن يقص من نفسه ، فلم يجبهم إلى ما أرادوا . والذين قرءوا سيرة النبي وسنته يعلمون أنه لم يكن يؤثر نفسه بخير دون أصحابه ، إلا أن يؤثره الله بهذا الخير في أمر يوحيه إليه في القرآن ؛ فهو كان يشاورهم وينزل عند مشورتهم ، وهو كان يحارب معهم إذا حاربوا ويسالم معهم إذا سالموا ، وهو كان يبني معهم المسجد ويحفر معهم الخندق ويتغنى معهم وهم يتغنون، يستعينون بالغناء على مشقة الحفر والبناء، وهو كان يحمل معهم الأحجار والتراب ، يرى نفسه واحداً منهم قد آثره الله بالوحي والنبوة ، فلم يؤثر نفسه بأكثر مما آثره الله به ، والسيرة والسنن تروى أنه حين مرض مرضه الذي خرج به من الدنيا سأل عن شيء من ذهب كان قد بقي عنده من مال المسلمين ، فلما جيء به أخرجه إلى الناس ولم يُبق منه شيئاً ، وتوفى وهو لا يملك من الدنيا بيضاء ولا صفراء . وقد اشتد على نفسه في ذلك ، واشتد الله عليه فيه أيضاً ، إذ كان لا ينطق عن الهوى ، فلم يكتف بالارتفاع عن أن يؤثر نفسه بشيء من دون أصحابه ، وإنما أبى إلا أن يسير في أهله سيرته في نفسه ، فقال : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ؛ ما تركناه صدقة » . وقد جاءت فاطمة رحمها الله تطلب إلى

أبي بكر ميراث أبيها : فَدَك . فلم يجبها إلى ما طلبت وروى لها هذا الحديث .

فقد قامت سيرة النبي إذن على العدل بين الناس فيما يكون بينهم وبين أنفسهم . وعلى العدل بين الناس وبين نفسه . وعلى العدل بين الناس وبين أهله أيضاً ؛ واجتهد صاحباه من بعده أن يذهبا مذهبه ويسيرا سيرته ما استطاعا إلى ذلك سبيلا ؛ بل همّ أبو بكر أن يكلف نفسه فوق ما تطيق . فأراد أن يكون إماماً للمسلمين ينظر فى أمرهم ويقف عليهم وقته وجهده . وأن يسعى مع ذلك ليكسب قوته وقوت أهله . ورآه المسلمون ذات يوم يحمل بعض العروض يسعى بها إلى السوق ليبيع ويشترى كما كان يفعل قبل أن يستخلف . وكما كان المسلمون يفعلون من حوله ؛ ولكن المسلمين أشفقوا عليه من ذلك . أو أحس هو العجز عن أن يكون كاسباً وخليفة فى وقت واحد . على اختلاف فى الروايات ؛ فرزقه المسلمون من بيت المال ؛ ولم ييسروا عليه فى الرزق ؛ وإنما أعطوه ما يقيم أوده وأود أهله .

وقد سار أبو بكر سيرة النبى نفسه : فتحرج أن يموت وعنده من أموال المسلمين شيء ، وأوصى آل أبي بكر أن يردوا على عمر هنات كانت عنده من أموال المسلمين ؛ وقد ردت هذه الهنات على عمر فبكى وهمّ أن يقبلها . فأنكر عليه عبد الرحمن بن عوف ذلك . ولكن عمر أبى إلا أن يتحرج فى ذات صاحبه كما تحرّج هو فى ذات نفسه . وكره أن يلقى أبو بكر ربه فيسأله عما بقى عنده من هذه الهنات . وكره أن يقول أبو بكر لربه : ردها أهلى وأبى عمر أن يقبلها .

وكذلك بلغ حرص النبي وأبى بكر على العدل أن يتأثما مما لا إثم فيه . وأن يتحرجا مما لا تتحرج منه ضمائر الأتقياء ؛ ولو قد طالت خلافة أبى بكر لرأينا منه فى ذلك الأعاجيب . ولكن خلافة عمر جاوزت عشر سنين . فأرانا من ذلك ما لا تكاد تصدقه النفوس . ومن الناس من يزعم أن الرواة قد تكثّروا على عمر . وأضافوا إليه من الشدة أكثر مما كان فيه ؛ ولكن الذين يقرءون سيرة عمر

فى كتب السنن والطبقات والتاريخ يفرقون فى غير مشقة بين ما يمكن أن يكون الرواة قد تكلفوه وبين ما يلائم سيرة عمر وطبعه ومزاجه من الأحداث والواقعات؛ فقد كان عمر شديداً على الناس إلى أقصى حدود الشدة فى ذات الله ، ولكنه كان على نفسه أشد منه على الناس . وما أعرف أن التاريخ الإنسانى كله يستطيع أن يجد لعمر نظيراً فى هذا الضمير الحى الحساس المتحرج المتأثم الذى يخاف على نفسه ما لا يُخاف ؛ وينكر من نفسه ما لا ينكر ، ويأخذ نفسه من ضروب الشدة والعنف بما لا يأخذ الرجل به نفسه إلا أن يكون من أولى العزم . والناس يعلمون أن عمر رأى الشدة التى نزلت بالمسلمين فى عام الرمادة ، فأبى إلا أن يشارك الناس فى شدتهم . وأبى إلا أن يشارك من الناس فى هذه الشدة أعظمهم حظًّا من الفقر والضيق .

عرف أن عامة الناس من حوله لا يجدون السمن ، فحرّم السمن على نفسه وصبرها على الخبز الجاف والزيت ؛ ثم شق عليه الزيت ، فخيل إليه أنه لو طُبخ لانكسرت حدته ولكان أيسر إساغة وهضماً ، فتقدم إلى مولاه فى أن يطبخ له الزيت ، فلما طعمه مطبوخاً كان أوجع له وأشد عليه ، وقد أثر ذلك فى صحته فتغير له لونه ، وعرف المسلمون ذلك فلم يستطيعوا أن يردوه عنه ؛ لأنه أبى أن يخصب حتى يخصب عامة المسلمين .

ولم يؤمن عمر قط فيما بينه وبين نفسه بأنه مدبر هذه الدولة الضخمة ذات الآفاق الواسعة والفتح البعيد . وإنما كان فيما بينه وبين نفسه يرى ولايته عجباً من العجب وغريبة من الغرائب ، ويقول لنفسه إذا خلا إليها : بخ بخ يا بن الخطاب ؛ أصبحت أمير المؤمنين ! وما يزال يذكر أنه كان قبل الإسلام ترعية يرعى على أبيه الخطاب غُنيمة . يحدّث الناس بذلك ويحدثهم بالمكان الذى كان يرعى فيه ، ويحدثهم بما كان يلقى من الخطاب فى عمله ذاك من الشدة والجهد . ولم يكن عمر يبخل بنفسه على عمل من أعمال المسلمين مهما يكن عسيراً شاقًّا ، وقد رئى ذات يوم فى حظيرة إبل الصدقة يحصى هذه الإبل

ويصفها وصفاً دقيقاً مستقصى ، يقول ذلك لعلى ويؤدى على عنه ذلك إلى عثمان ، فيكتبه عثمان فى الصحف . حتى أعجب علىٌّ منه بذلك فتلا ما جاء فى القرآن على لسان ابنة شعيب فى موسى : « يا أبت استأجره إنّ خير من استأجرت القوىّ الأمين » ، ثم قال : هذا هو القوى الأمين . ورأى الناس عمر يطلى إبل الصدقة بالقطران يهنأ منها مواضع النقب ، كما يفعل الرعاة والمستضعفون من الناس : لا يجد فى ذلك مشقة ولا يرى منه بأساً ؛ وكان بعد شدته هذه العنيفة على نفسه يشتد على أهله حتى يرهقهم من أمرهم عسراً ، وكان إذا نهى الناس عن شىء وحذرهم العقوبة إن فعلوه ، جمع إليه أهله وقال لهم : إنى قد نهيت المسلمين عن كذا وحذرتهم العقوبة إن أتوه ، وإن الناس ينظرون إليكم لمكانكم منى ؛ فلا أعرفن أن أحدكم قد أتى ما نهيت عنه الناس إلا أضعفت له العقوبة .

وكان فى عام الرّمادة يتتبع طعام أهله تتبعاً دقيقاً . فإن رأى عند أحدهم يسراً أوسعة رده عن ذلك رداً عنيفاً ، ثم كان بعد أن يعنف بنفسه وبأهله هذا العنف لا يتحرج فى أن يأخذ الناس بسياسته تلك التى وصفها حين قال : « شدة فى غير عنف ، ولين فى غير ضعف » .

روى أنه كان يقسم مالا بين المسلمين ذات يوم وقد ازدحم الناس عليه ، فأقبل سعد بن أبى وقاص رحمه الله ، ومكانه من النبى مكانه ، وبلاؤه فى فتح فارس بلاؤه ، فزاحم الناس حتى زحمهم وخلص إلى عمر ؛ فلم يكن من عمر إلا أن علاه بالدرّة ، وقال : لم تَهبْ سلطان الله فى الأرض ، فأردت أن أعلمك أن سلطان الله لا يهابك !

كذلك كان حرص عمر على أن يسوى بين الناس وبين أنفسهم . وعلى أن يسوى بين الناس وبين نفسه وأهله . كل هذا بالقياس إلى سيرته الخاصة التى كان يسيرها فى كل يوم .

ولكن هذه الناحية من حياة عمر أيسر النواحى وأهونها على ما فيها من الشدة والجهد ؛ فهناك السياسة العامة التى أخذ عمر نفسه بها وجعلها لخلافته شريعة

ومنهاجاً ؛ وأول ذلك سياسته لهؤلاء النفر من كبار الصحابة وأعلام المهاجرين والأنصار ؛ فهؤلاء هم أصحاب السابقة فى الإسلام وأصحاب المكانة الممتازة من النبى ، إليهم الحل والعقد فى كل أمور المسلمين ، يؤدى إليهم عمر حسابه عن تصرفه فى كل أمر من الأمور العامة ، ويستشيرهم فى الجليل والخطير من المصالح ، ويرى أنه قد ولى عليهم وليس خيرهم ؛ فما عسى أن تكون سيرته فيهم مع ذلك ؟ ما عسى أن تكون سياسته لهم ؟ أخذهم بالحزم والرفق جميعاً ، فجعلهم نظراءه وخاصته وأصفياءه وذوى مشورته ؛ ولكنه خاف عليهم الفتنة ، وخاف منهم الفتنة أيضاً : فأمسكهم فى المدينة لا يخرجون منها إلا بإذنه ، وحبسهم عن الأقطار المفتوحة لا يذهبون إليها إلا بأمر منه . خاف منهم أن يفتتن بهم الناس ، وخاف عليهم أن يغرهم افتتان الناس بهم ؛ وخاف على الدولة أعقاب هذا الافتتان. وما من شك فى أن هذا قد شق على كثير من أصحاب النبى ومن المهاجرين منهم خاصة.

وآية ذلك أن عثمان لم يكد يتولى أمر المسلمين حتى فك عنهم هذا العقال وأذن لهم ، فتفرقوا فى الأرض ، فرضوا عنه كل الرضا ، ثم لم تمض أعوام حتى ضاقوا به أشد الضيق . وكانت الفتنة التى خشى عمر أن تكون . ثم كان عمر قد فرض لكل واحد من أصحاب النبى عطاءه على مكانتهم وسابقتهم فى الإسلام ؛ وعلى منازلهم وقرابتهم من النبى ؛ وكان عمر يرى أن فيما فرض لهم من العطاء ما يغنيهم ويكفيهم السعى والاكتساب ، ولكنهم مع ذلك اكتسبوا واتجروا ؛ وكان منهم من ضارب ، فعظم ثراؤهم وكثرت أموالهم ، فتوسعوا فى الغنى وتوسعوا فى العطاء أيضاً ، ولم يستطع عمر أن يمنعهم من ذلك أو يردهم عنه ؛ فهم كانوا يتجرون ويكتسبون أيام النبى فلم يردهم النبى عن التجارة ولا عن الاكتساب ، ولكن عمر رأى ثراءهم وثراء غيرهم من المسلمين ، بفضل ما أفاء الله عليهم من غنائم الفتح ، وبفضل هذه الأعطيات التى كانت توزع عليهم كل عام ، فلم يرض عن ذلك ، ولم تطب به نفسه ، حتى كان يقول : لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ، لأخذت من الأغنياء فضول أموالهم فرددتها على الفقراء . ولو قد

مُد لعمر فى أسباب الحياة لكان من الممكن أن يرى التاريخ الإسلامى منه فى ذلك عجباً .

وقد كثرت أموال المسلمين بفضل الفتح أيام عمر . فوقف من كثرتها موقف الحيرة أولا وشاور أصحابه ؛ فأما على فأشار عليه بما يلائم السنة الموروثة ولا يلائم تطور الحياة ، فقال له : تقسم ما يرد من الأموال ؛ حتى إذا حال الحول لم يبق فى بيت المال درهم ولا دينار إلا ذهب إلى مستحقه ؛ وأما عثمان فقال له : أرى مالا كثيراً ، وإذا لم يضبط خشيت أن ينتشر الأمر . ثم انتهى عمر فى القصة المعروفة إلى أن دوّن الدواوين ؛ وفرض للناس أعطياتهم ؛ وأمسك فى بيت المال لمصالح المسلمين العامة ما يتجاوز هذه الأعطيات .

ولم تلبث الحوادث أن أظهرت صواب هذا الرأى الذى أشار به عثمان والذى كان يلائم طبيعة الأشياء فى دولة متحضرة أو تريد أن تتحضر ؛ فلما كان عام الرمادة وجد عمر فى بيت المال ما أتاح له أن يقيم أمر الناس حتى يأتيه الغوث من الأقاليم ؛ وكان يقول : نطعم المسلمين من بيت المال ، حتى إذا لم نجد فيه شيئاً أدخلنا على كل أهل بيت من الأغنياء مثلهم من المحتاجين ، وما نزال نفعل ذلك حتى يطعم المسلمون جميعاً .

على أن هذا النحو من سياسة المال كان أيسر ما ذهب إليه عمر . وهو على ذلك قيّم له حظه العظيم من إيثار العدل والرفق بالناس ؛ ولكن هناك مذهباً لعمر فى سياسة المال ذهب إليه ومضى فيه إلى مدى بعيد ؛ ويخيل إلىّ أن الأمم المتحضرة تحاول الآن أن تذهب إليه ، فلا يتاح لها ذلك إلا فى مشقة شاقة ، وعسر عسير .

فقد كان عمر يرى ويعلن أن هذا المال الذى يأتى من الفىء ومن جباية الجزية والخراج ، ملك للمسلمين جميعاً ؛ لا يستأثر به واحد دون الناس ؛ ولا يستأثر به فريق من الناس دون غيرهم من الرعية ؛ وكان يرى أنه المسئول الأول والأخير عن حفظ هذا المال أولا ، وعن رده إلى أهله ثانياً ؛ وكان يقول :

لو ندّ جمل من إبل الصدقة فى أبعد الأرض أو أصابه مكروه لخشيت أن يسألنى الله عنه يوم القيامة . وكان يقول : إن عشت ليأتين الراعى فى جبل صنعاء نصيبه من هذا المال .

وكان قد فرض للناس أعطياتهم من هذا المال : للرجل عطاؤه ، وللمرأة عطاؤها ، وللطفل عطاؤه ، وللشيخ الفانى وذى العاهة عطاؤه . وكان يحسب أنه بذلك قد بلغ من العدل ما أراد ، ولكنه مر ذات ليلة فسمع صبيًّا يبكى فمضى لشأنه ، ثم مر به ثانية فسمعه يبكى . فسأل أمه عن ذلك فأجابته جواباً ما ، ولكنه مر الثالثة فسمعه يبكى ، فلما ألح على أمه فى السؤال أنبأته بأنها تريغه عن الرضاع : لأن عمر لا يفرض للأطفال إلا حين يفطمون . فلما سمع عمر ذلك جزع له جزعاً شديداً . ثم أصبح فأمر من أذّن فى الناس : لا تعجلوا بفطام أطفالكم ؛ فإنا نفرض لأطفال المسلمين منذ يولدون .

وكان عمر ينفذ أمر الله فى أخذ الصدقات ، ولكنه كان يتحرج فى أخذها وتوزيعها تحرجاً شديداً ؛ والناس يعلمون أن أعرابيًّا سأل النبى ذات يوم : آلله أمرك أن تأخذ هذه الأموال من أغنيائنا فتردها على فقرائنا ؟ فقال له النبى : اللهم نعم .

فكان عمر رحمه الله يعزم على سعاته أن يتحروا العدل فى أخذ الصدقة من كل حى من أحياء العرب ، وأن يردوا صدقة كل حى على فقرائه حتى يستغنوا عن المسألة ، وأن يعودوا عليه بفضل ذلك ؛ فإذا عادوا عليه بهذا الفضل حبسه على المصارف التى فرضها الله فى القرآن . فأعان بها الفقير والمسكين وابن السبيل والغارمين ، وما إلى ذلك من هذه المصارف التى ذكرها الله فى آية الصدقات .

وما أذكر الاشتراكية وما أذكر الشيوعية ؛ فلم يكن عمر صاحب اشتراكية ولا شيوعية ، لأنه أقر الملك كما أقره النبى والقرآن . ولأنه أذن فى الغنى كما أذن فيه النبى والقرآن ؛ ولكن أذكر العدل الاجتماعى الذى يستطيع أن يتحقق فى غير إلغاء للملك ولا تحريم للغنى ، والذى تحاول بعض الديمقراطيات الحديثة

أن تحققه محتفظة للمالكين بما يملكون ، وللأغنياء بكثير مما يجمعون .

وأذكر مشروع بيفردج الذى حاول أن تكفل الدولة للناس حياتهم وصحتهم وحاجتهم وكرامتهم ، دون أن تضطرهم إلى أن يُستذلوا أو يُستغلوا ، ودون أن تغريهم بالتبطل والفراغ .

أذكر طموح الديمقراطية فى هذا العصر وقصورها عن تحقيق ما تطمح إليه ، ثم أذكر ما حاول عمر من ذلك وما حقق ، فلا أتردد فى أن الشاعر الذى رثاه إنما أثنى عليه بالحق حين قال :

جزى الله خيراً من إمام وباركت ... يد الله فى ذاك الأديم الممزق
فمن يجر أو يركب جناحي نعامة ... ليدرك ما أدركت بالأمس يُسبق
قضيت أموراً ثم غادرت بعدها ... بوائق فى أكمامها لم تفتق

ثم لم يكن عمر رفيقاً بعماله وولاته ولا مسمحاً لهم ، وإنما كان يراقبهم أشد المراقبة ، كان لا يولى عاملا إلا أحصى عليه ماله حين التولية وأحصاه عليه حين العزل ، فإن وجد فرقاً قاسم العامل هذا الفرق ، فترك له شطراً ورد الشطر الآخر إلى بيت المال ، ثم كان يتتبع سيرة هؤلاء العمال فى الرعية من قريب جدًّا ، ويعزم عليهم سرًّا وإعلاناً ألا يؤذوا المسلمين فى أنفسهم ولا فى أبشارهم ولا فى أشعارهم ولا فى أموالهم ، وكان يلوم بعض ولاته فى بعض ذلك فيقول : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً .

وكان يشاور من عنده فى المدينة من أصحاب النبي فيما يلم من الخطوب كل يوم ، ويضرب لعماله موعداً إذا كان الموسم ، فيحج بالناس ويسمع من العمال فى أمر الرعية ومن الرعية فى أمر العمال ، ويرد الأمر فى ذلك كله إلى نصابه ، وأكاد أعتقد أن عمر لو قدمت له أسباب الحياة لنظم الشورى فى أمر المسلمين نظاماً مستقرًّا باقياً ، يعصمهم من الفتنة والاختلاف ، ويكف الولاة عن الظلم والاستعلاء .

ولم أتحدث عن بلاء عمر رحمه الله فيما دبر من أمور المسلمين . حتى فتحوا الأقطار ومصروا الأمصار وأنشئوا هذه الدولة العربية الإسلامية الضخمة ؛ فأنا لم أحاول أن أكتب تاريخ عمر ولا أن ألم بحياته إلماماً يسيراً . وإنما أردت إلى أن أبين أن السيرة التي سارها النبي واجتهد صاحباه من بعده في أن يتبعاها ، إنما كانت سيرة قوامها العدل الخالص المطلق الذي لا يخشى في الحق لومة لائم ؛ والذي يعلم أن الله يراقبه من جهة في كل لحظة من لحظات الليل والنهار ، يراقب منه ما ظهر ويراقب منه ما خفي ويسأل منه عن كل شيء ؛ ويعلم من جهة أخرى أن الناس يراقبونه مراقبة شديدة أذن لهم فيها ؛ بل فرضت عليهم فرضاً ، فهم مكلفون أن يطيعوا الخليفة ما استقام . وأن يقوموه إن أعوج ، وأن يسألوه عما يلتبس عليهم من سيرته ليتبعوه عن علم ، ويشيروا عليه عن بصيرة ويخالفوه عن عزيمة وإعذار .

فهل كانت هذه السيرة التي سارها النبي ، واجتهد صاحباه في أن يسيراها ما استطاعا إلى ذلك سبيلا ، ملائمة لما فطر الناس عليه من الأثرة والطمع والحرص على المنافع العاجلة ؟ وهل كانت هذه السيرة قادرة على أن تبقى حتى تغير من طباع الناس فترقى بهم إلى المثل العليا التي دعا إليها النبي وصاحباه ؟

٣

وأول ما ينبغي أن نتبينه لنستطيع الإجابة عن هذا السؤال هو طبيعة هذه الحكومة التي حكمت المسلمين منذ أسست الدولة حين هاجر النبي وأصحابه إلى المدينة إلى أن قتل عمر واستخلف عثمان : فقد يظن بعض الذين تخدعهم ظواهر الأمور أن هذه الحكومة ، أو بعبارة أدق أن نظام الحكم في هذا العهد القصير . قد كان نظاماً تيوقراطياً يعتمد قبل كل شيء وبعد كل شيء على الدين . ولذا كان الدين في هذه البيئة الخاصة ديناً سماوياً منزلاً . فقد يظن أصحاب هذا الرأي أن الحكومة التي كانت تحكم المسلمين في هذا العهد إنما كانت تستمد سلطانها من الله . ومن الله وحده : لا ترى أن للناس شأناً في هذا السلطان . ولا ترى أن من حقهم أن يشاركوا فيه . أو يعترضوا عليه . أو ينكروا منه قليلاً أو كثيراً . وقد يخيل إلى الذين يذهبون هذا المذهب أن من أصرح الدلائل على ذلك وأصدقها أن النبي هو الذي أسس هذه الدولة بأمر من الله عز وجل : فالله أمره أن يهاجر إلى المدينة ، والله دعا المسلمين من أهل مكة إلى أن يهاجروا معه : والله أوحى إلى النبي بمجملات ومفصلات من الحكم : والله قال في سورة النجم : « ما ضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى » . والله أمر المسلمين أن يطيعوا الله ورسوله . وبين لهم أنهم لن يؤمنوا حتى يحكموا النبي فيما شجر بينهم : وقد يضيفون إلى ذلك أن أبا بكر كان خليفة رسول الله . وأن عمر كان خليفة أبي بكر : فقد تنزل الحكم إذن من النبي إلى هذين الإمامين الراشدين : والنبي إنما تلقى السلطان من الله عز وجل : فنظام الحكم إذن في هذا العهد إنما هو النظام التيوقراطي الإلهي لا أكثر ولا أقل . ولا أشك في أن هذا الرأي أبعد الآراء عن الصواب . فقد كان الإسلام وما زال

ديناً قبل كل شيء وبعد كل شيء ، وجه الناس إلى مصالحهم في الدنيا وفي الآخرة بما بين لهم من الحدود والأحكام التي تتصل بالتوحيد أولاً ، وبتصديق النبي ثانياً ، وبتوخي الخير في السيرة بعد ذلك ، ولكنه لم يسلبهم حريتهم ولم يملك عليهم أمرهم كله ، وإنما ترك لهم حريتهم في الحدود التي رسمها لهم ، ولم يحص عليهم كل ما ينبغي أن يفعلوا ، وكل ما ينبغي أن يتركوا ، وإنما ترك لهم عقولا تستبصر ، وقلوباً تستذكر ، وأذن لهم في أن يتوخوا الخير والصواب والمصلحة العامة والمصالح الخاصة ما وجدوا إلى ذلك سبيلا .

وقد أمر الله نبيه أن يشاور المسلمين في الأمر ، ولو قد كان الحكم متنزلاً من السماء لأمضى النبي كل شيء بأمر ربه لم يشاور فيه أحداً ولم يؤامر فيه وليًّا من أوليائه ؛ فكيف والله يقول له : « ولو كنت فظًّا غليظَ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر » . ومن قبل هذه الآية التي نزلت فيما نزل من القرآن بعد محنة أحُد . قبل النبي مشورة أصحابه في غزوة بدر حين نزل بهم منزلا فسأله بعضهم : أعن أمر من الله نزل بهم هذا المنزل ، أم هو الرأي والمكيدة ؟ فقال : بل هو الرأي والمكيدة . فأشير عليه حينئذ أن يمضي بالمسلمين عن هذا المنزل الذي لم يكن يلائم خطط الحرب حتى ينزل بهم في المنزل الملائم قريباً من الماء . ثم قبل رأي أصحابه بعد وقعة بدر فيما كان من أمر الأسرى . وتعرض في ذلك لما أصابه من اللوم الذي نزل به القرآن في قول الله عز وجل : « ما كان لنبيٍّ أن يكون له أسرى حتى يُثخنَ في الأرض تريدون عَرَضَ الدنيا والله يريد الآخرة » . وكان النبي يرى حين بلغه مسير قريش إليه في وقعة أحد أن يقيم في المدينة ولا يخرج بأصحابه للقاء قريش بالعراء ، وأن يذود قريشاً إن هاجمت المدينة ، ولكن أصحابه . والأنصار منهم خاصة : ألحوا في الخروج إلى عدوهم . فنزل النبي عند رأيهم ، ثم دخل ليلبس لأمته ، وندم المسلمون أثناء ذلك لأنهم استكرهوا رسول الله على ما لم يحب ، فلما خرج إليهم في سلاحه اعتذروا إليه واستأذنوه في الرجوع إلى رأيه ، فأبى ومضى على عزيمته ؛

ولو كان الحكم إلهيًّا يتنزل دائماً من السماء لما استطاع المسلمون أن يستكرهوا رسول الله على ما لا يريد . ولما قبل النبي منهم ذلك مهما تكن الظروف . وعن المشورة والاعتماد على رأى أصحابه صدر النبي حين أمر بحفر الخندق فى غزوة الأحزاب .

فى هذه المواطن كلها وفى مواطن أخرى شاور النبي أصحابه وقبل رأيهم عن رضاً أو نزل عند رأيهم إيثاراً لرضاهم ؛ فلما كان يوم الحديبية شاور النبي أصحابه بعد أن عرضت عليه قريش ما عرضت من الرجوع عن مكة عامه ذاك دون أن يزور البيت ، فكره أصحابه إجابة قريش إلى ما طلبت ، وألح النبي فى ذلك . وضاق بعض أصحابه بهذا الإلحاح ، حتى قال له عمر : لِمَ نعطى الدنية فى ديننا؟! هنالك ظهر الغضب فى وجه النبي ، وقال : أنا رسول الله وعبده . فعلم المسلمون أن الأمر ليس أمر مشورة ومفاوضة ، وإنما هو أمر قد نزل به الوحى من السماء . فتابوا إلى الله وثابوا إلى نبيهم ، وأنزل الله فى ذلك : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » إلى آخر الآية .

ولو أردنا أن نستقصى المواطن التى شاور فيها النبي أصحابه لطال بنا الحديث إلى أبعد مما نريد . ولكن فى هذه الأحداث اليسيرة التى رويناها ما يكفى لإثبات أن الحكم فى أيام النبي لم يكن يتنزل من السماء فى جملته وتفصيله . وإنما الوحى كان يوجه النبي وأصحابه إلى مصالحهم العامة والخاصة دون أن يحول بينهم وبين هذه الحرية التى تتيح لهم أن يدبروا أمرهم على ما يحبون فى حدود الحق والخير والعدل . وربما كان من أصدق الأدلة وأقطعها على ما نذهب إليه أن القرآن لم ينظم أمور السياسة تنظيماً مجملاً أو مفصلاً . وإنما أمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغى . ورسم لهم حدوداً عامة . ثم ترك لهم تدبير أمورهم كما يحبون على ألا يتعدوا هذه الحدود . وأن النبي نفسه لم يرسم بسنته نظاماً معيناً للحكم ولا للسياسة ولم يستخلف على المسلمين أحداً من أصحابه بعهد مكتوب أو غير مكتوب حين ثقل عليه المرض . وإنما أمر أبا بكر فصلى

بالناس . وقال المسلمون بعد ذلك : رضيه رسول الله لأمور ديننا فما يمنعنا أن نرضاه لأمور دنيانا ؟! ولو قد كان للمسلمين نظام سياسى منزل من السماء لرسمه القرآن أو لبين النبي حدوده وأصوله . ولفرض على المسلمين الإيمان به والإذعان له فى غير مجادلة ولا مناضلة ولا مماراة .

وأخرى تدل على أن نظام الحكم فى أيام النبي وصاحبيه لم يكن إلهيًّا منزلا من السماء ، وهى البيعة التى سنها رسول الله للمسلمين حتى فى أيامه هو ؛ والناس جميعاً يعلمون أنه استنفر أصحابه لوقعة بدر ولم يأمرهم بها أمراً ؛ وإنما دعاهم إليها ورغبهم فيها ووعدهم بأمر الله إحدى الحسنيين ؛ وكان العهد بينه وبين الأنصار ألا يخرجهم لقتال ، وأن يدافعوا عنه إذا تعرض للأذى ؛ فلما كانت غزوة بدر شاور أصحابه وانتظر أن يدلوا إليه بآرائهم ، ولم يمض بهم إلى القتال حتى قال له زعماء الأنصار : لو سلكت بنا هذا البحر لاتبعناك ؛ فعرف أنهم يرضون أن يخرجوا معه للقتال . والناس جميعاً يعلمون أنه لم يأمر أصحابه بقتال قريش حين بلغه أنها مكرت بعثمان يوم الحديبية ، وإنما ندبهم لذلك فبايعوه على الموت ؛ ولو قد شاء أحدهم ألا يبايع لكان له مخرج ، ولكنهم بايعوه جميعاً ؛ لأنهم كانوا يؤمنون به وبالله الذى أرسله ويستجيبون إذا دعاهم . وقد أنزل الله فى هذه البيعة من سورة الفتح : « إنّ الذين يُبَايعونك إنما يُبايعون الله يدُ الله فوق أيديهم » . وفى القرآن آيات كثيرة ترغب المؤمنين فى الجهاد وتدعوهم إليه ، وتذكر الذين تخلفوا عن الجهاد فعذرهم الله ورسوله . والذين تخلفوا وتكلفوا الأعذار فلم يقبل منهم . ولكن النبي مع ذلك لم يعاقبهم ولم يعرض لهم بما يكرهون ، وإنما ترك أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم وإن شاء تاب عليهم .

وليس أقل من هذا خطراً أن أمر الخلافة كله قام على البيعة ، أى على رضا الرعية ، فأصبحت الخلافة عقداً بين الحاكمين والمحكومين . يعطى الخلفاء على أنفسهم العهد أن يسوسوا المسلمين بالحق والعدل ، وأن يرعوا مصالحهم ، وأن يسيروا فيهم سيرة النبي ما وسعهم ذلك ، ويعطى المسلمون على أنفسهم العهد أن

يسمعوا ويطيعوا وأن ينصحوا ويعينوا .

وما من شك فى أن خليفة من خلفاء المسلمين ما كان ليفرض نفسه وسلطانه عليهم فرضاً إلا أن يعطيهم عهده ويأخذ منهم عهدهم . ثم يمضى فيهم الحكم بمقتضى هذا العقد المتبادل بينه وبينهم ؛ ومن أجل ذلك لم يورث السلطان عن النبى وراثة ، لم يرثه عنه أهل بيته ، ولم يرثه عنه أبو بكر نفسه ؛ وإنما تلقى هذا السلطان من الجماعة التى بايعته به وائتمنته عليه ؛ ثم لم يرث أبناء أبى بكر عنه الخلافة ، ولم يرثها عنه عمر نفسه ؛ وما كان استخلاف أبى بكر لعمر إلا مشورة على المسلمين ، وآية ذلك أن عهد أبى بكر لم ينفذ ولم يصبح عمر خليفة إلا بعد أن بايعه المسلمون رضاً برأى أبى بكر وقبولاً لمشورته ، وآية ذلك أيضاً أن عثمان خرج بعهد أبى بكر إلى الناس مختوماً وأبو بكر لم يمت بعد ، فقال لهم : أتبايعون لمن فى هذا الكتاب ؟ قالوا : نعم . لأنهم كانوا يثقون بأبى بكر ويرضون رأيه ويرون أنه لهم ناصح وبهم رءوف . ولم يرث أبناء عمر عنه الخلافة . وكره عمر أن تكون الخلافة بعده فى أحد من ولده ، وأشرك ابنه عبد الله فى الشورى على ألا يكون له فى الأمر شىء ؛ ومن أجل ذلك أيضاً سخط عامة المسلمين على توريث السلطان فى أيام معاوية ، وقال قائلهم : إنه جعلها هرقلية أو كسروية . فإذا دل هذا كله على شىء فإنما يدل على أن الحكم أيام النبى لم يكن مفروضاً من السماء لا رأى للناس فيه ؛ وإذا كان الأمر كذلك أيام النبى الذى كان يتنزل عليه الوحى ، فأحرى أن يكون الأمر كذلك أيام صاحبيه بعد أن تقطع عن الناس خبر السماء .

والذين يظنون أن نظام الحكم فى هذا الصدر من حياة المسلمين كان إلهياً يُخدعون عن رأيهم هذا بما يجدون فى أحاديث الخلفاء وخطبهم ، وفى أحاديث الناس عنهم وإليهم من ذكر الله وأمره وسلطانه وطاعته ؛ يحسبون أن هذا كله يدل على أن نظام الحكم منزل من السماء . مع أنه لا يدل فى حقيقة الأمر إلا على شىء يسير خطير فى وقت واحد ، وهو أن الخلافة عهد بين المسلمين

وخلفائهم ، وأن الله أمر المسلمين بأن يوفوا بعهد الله إذا عاهدوا سواء أكان هذا العهد متصلا بشؤون الحكم أم متصلاً بالعلاقات الخارجية أم متصلاً بما يكون بين الأفراد من العهود والمواثيق ؛ فالله يأمر باحترام العهود ، والله شاهد على ضمائر الناس حين يوفون بالعهود أو ينكثونها ، والله يثيب من وفى بالعهد ويعاقب من نكثه عقاباً شديداً .

فليس بين الإسلام وبين المسيحية مثلاً فرق من هذه الناحية . فالإسلام دين يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويوجه إلى الخير ويصد عن الشر ، ويريد أن تقوم أمور الناس على العدل وتبرأ من الجور ؛ ثم يخلى بعد ذلك بينهم وبين أمورهم يدبرونها كما يرون ما داموا يرعون هذه الحدود ؛ ولا تزيد المسيحية على هذا ولا تنقص منه ، ولأمر ما قال عيسى عليه السلام للذين جادلوه من بنى إسرائيل : « أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » . وما أشك فى أن عيسى عليه السلام لم يرد أن يعطى ما لقيصر لقيصر بغير حقه ، أو أن تقوم الصلة بين قيصر وبين الناس على الظلم والجور والخوف .

وسنرى فى غير هذا الموضع من هذا الحديث أن من المسلمين من أنكر على بعض العمال أيام عثمان قولهم : إن ما كان يأتى من الفىء ويجبى من الخراج مال الله ، وقالوا : هو مال المسلمين ، وتعرضوا فى سبيل ذلك لبعض الأذى ؛ ولو قد فهم المسلمون نظام الحكم فى ذلك الصدر من حياتهم على أنه نظام إلهى لما أنكروا أن يقال مال الله . الذلك اعتذر معاوية من هذا التعبير حين أنكر عليه ، بأن الناس وما ملكوا لله : فهم عباد الله ومالهم مال الله .

لم يكن نظام الحكم إذن أيام النبى تيوقراطية مقدسة ، وإنما كان أمراً من أمور الناس ، يقع فيه الخطأ والصواب ، ويتاح للناس أن يعرفوا منه وأن ينكروا وأن يرضوا عنه ويسخطوا عليه .

ويظن آخرون أن نظام الحكم أيام النبى وصاحبيه قد كان نظاماً ديمقراطياً . وهذا تجوز فى الألفاظ وخروج بها عن الدقائق من معانيها ؛ وقد ينبغى أن نتبين

معنى الديمقراطية بالدقة قبل أن نقول إن نظام الحكم هذا كان أو لم يكن ديمقراطيًّا . والديمقراطية لفظ يدل به على حكم الشعب بالشعب وللشعب : أى على أن يختار الشعب حكامه اختياراً حرًّا ، ويراقبهم مراقبة حرة ، ليتبين أنهم يحكمونه لمصلحته هو لا لمصلحتهم هم ؛ ويعزلهم إن لم يرض عن حكمهم ولم يطمئن إلى الثقة بهم .

كذلك فهمت الديمقراطية فى العصور القديمة عند اليونان ؛ وكذلك تفهم الديمقراطية فى العصور الحديثة عند الأمم التى تصطنع هذا النظام . على اختلاف مع ذلك فى فهم كلمة الشعب ؛ فهذه الكلمة كانت تضيق فى أيام اليونان مثلا : حتى لا تدل إلا على جماعة ضئيلة من المواطنين لهم وحدهم جميع الحقوق يستوون فيها أمام القانون . على حين لا تستمتع الكثرة الكثيرة من هذه الحقوق بشىء ولا تساهم من أمور الحكم بنصيب ؛ وكان هذا اللفظ يتسع بعد الثورة الفرنسية إلى حيث يشمل عدداً ضخماً من المواطنين يكون لهم الاستمتاع بالحقوق السياسية ولكنه لا يشملهم جميعاً ؛ فهو محدد بملك مقدار من المال . أو أداء مقدار معين من الضرائب ، أو تحصيل قدر معين من الثقافة ؛ ثم اتسع فى آخر القرن الماضى حتى شمل المواطنين جميعاً من الرجال منذ يبلغون الرشد ؛ ثم اتسع فى هذا القرن حتى شمل المواطنين من الرجال والنساء منذ يبلغون الرشد . والديمقراطية بعد ذلك ؛ سواء أكانت ضيقة أم واسعة . نظم مقررة تكفل استمتاع الشعب بحقوقه واختياره لحكامه ومراقبته لهؤلاء الحكام .

فإذا فهمت الديمقراطية على هذا المعنى الدقيق ، فليس من شك فى أن نظام الحكم فى الصدر الأول من حياة المسلمين لم يكن ديمقراطيًّا ؛ فالشعب لم يكن يختار حكامه بهذا المعنى الدقيق ، وليس الشعب هو الذى اختار النبى ليبلغه رسالات ربه وليقيم الأمر فيه بالقسط والعدل ؛ ولكن الله أرسل رسوله فاتبعه من اتبعه وخالف عنه من خالف عنه ؛ وإذا قلنا إن الذين اتبعوا النبى من أصحابه قد اختاروه ليكون لهم حاكماً ، فهم لم يختاروه على النحو الذى يختار عليه الحكام

فى النظام الديمقراطى ، وهم لم يكونوا يراقبونه ولا يحاسبونه ، وإنما كان النبى يستشيرهم فيشيرون عليه ، وكانوا يشيرون عليه حسبة أحياناً ، وكان يقبل منهم أو لا يقبل . وليس من الدقة فى شىء أن يقال إن حكم أبى بكر وعمر قد كان حكماً ديمقراطياً بالمعنى الدقيق ، فليس كل المسلمين قد اختاروا أبا بكر وعمر لأمر الخلافة ، وإنما اختارهما فريق بعينه من المسلمين ، وهم أولو الحل والعقد من المهاجرين والأنصار ، على ما كان بينهم فى ذلك من اختلاف أول الأمر .

ولم يُستأمر العرب الذين مات النبى وهم مسلمون من أهل مكة والطائف والبادية فى اختيار أبى بكر أو عمر ، وإنما اختارهما أهل المدينة فسمع لهما سائر المسلمين وأطاعوا ؛ ولذلك لم يكن غريباً قول من قال من أصحاب الردّة :

أطعنا رسول الله ما كان بيننا فيا لعباد الله ما لأبى بكر

ثم لم يكن للشعب . بل لم يكن لهذا الفريق من المهاجرين والأنصار ، نظام معين مقرر محدد يراقبون به سيرة الخلفاء ويحاسبونهم على ما يأتون وما يدعون ، وإنما كان الخلفاء يستشيرونهم فيشيرون عليهم ، يستشيرونهم مجتمعين حيناً ومتفرقين حيناً آخر ؛ وكان لمن شاء من المهاجرين والأنصار أن يشير على الخليفة حسبة فيقبل الخليفة منه أو لا يقبل ؛ وإذن فلم يكن نظام الحكم فى ذلك الصدر من حياة المسلمين نظاماً ديمقراطياً بمعناه الدقيق فى الفقه الدستورى عند القدماء أو المحدثين .

فإذا أطلق لفظ الديمقراطية على هذا المعنى العام الذى يفهم منه حاجة الحكام إلى رضا الشعب عنهم وثقة الشعب بهم ، وأخذ الحكام أنفسهم بأن يسيروا فى الشعب سيرة تقوم على العدل والمساواة ، وتبرأ من التسلط والاستعلاء ، فأنت تستطيع أن تقول إن نظام الحكم فى الصدر الأول للإسلام قد كان نظاماً ديمقراطياً بهذا المعنى العام الذى ليس له مقاييس ولا معايير ولا حدود ؛ وسترى أثر ذلك فيما عرض للمسلمين من أمور الفتنة أيام عثمان .

وقوم آخرون قد يظنون أن نظام الحكم فى ذلك الصدر من الإسلام قد كان

نظام السلطان الفردى العادل ؛ فلم يكن للنبى ولا لصاحبيه من بعده شركاء فى الحكم ، وإنما كان لهم من أصحابهم مشيرون لا يلزمون بمشورتهم أحداً . ولكن النبى وصاحبيه كانوا على ذلك يتوخون العدل ولا يتوخون غيره . وهذا النحو من التفكير يقرّب نظام الحكم إلى حد ما من النظام الذى عرفه الرومان أيام الملوك والقياصرة ؛ فقد كان ملوك روما وقياصرتها لا يتوارثون الحكم حتماً . وإنما ينتخب أكثرهم له انتخاباً ، وكان أحدهم إذا انتخب ولى الأمر حياته كلها إلا أن تخلعه منه ثورة أو انتقاض . وكل ما يكون من الفرق بين هذا النظام الرومانى وبين النظام الإسلامى أيام النبى وصاحبيه ، هو أن العدل كان وحده قوام الحكم فيما عرف المسلمون من هذا النظام ، على حين كان ملوك الرومان وقياصرتهم يتجاوزون العدل والقسط فى كثير من الأحيان . وليس هذا الرأى أكثر دقة من الرأيين السابقين .

فنحن نعلم أن قد كان للدين سلطانه فى اختيار الملوك والقياصرة عند الرومان . وفيما يكون من سيرة هؤلاء الملوك والقياصرة . ولكن الفرق بين النظام الرومانى والإسلامى هو الفرق بين دين ودين ، كما أنه الفرق بين جنس وجنس وبين بيئة وبيئة ؛ فلم يكن للدين الذى سيطر على ملوك الرومان خاصة وعلى قياصرتهم إلى حد ما ، من النقاء والسمو ما يشبه نقاء الديانات السماوية من قريب أو بعيد ؛ إنما كان دين الرومان يقوم على العيافة والزجر واستطلاع ضمائر الغيب بطرق نقرؤها الآن فنبتسم لها ونضحك منها . وكان تطور الشعب الرومانى من حياته الساذجة الأولى إلى حياته المعقدة مباعداً كل البعد لتطور الشعب العربى من جاهليته إلى إسلامه ؛ فقد كان التطور الرومانى مادياً ، إن صح هذا التعبير . نشأ من تقدم الحضارة قليلاً قليلاً ، على حين كان التطور العربى معنوياً . نشأ من تغير النفس العربية بتأثير الإسلام . فكأنه كان تطوراً من داخل إلى خارج ، تغيرت النفس العربية فتغيرت الحياة المادية للعرب . على حين كان التطور الرومانى من خارج إلى داخل ، تغيرت ظروف الرومان الخارجية فتطورت نفوس الرومان وضمائرهم .

والبيئتان من بعد ذلك مختلفتان بمقدارما يكون الاختلاف بين إيطاليا والحجاز : فليس غريباً ألا يكون هناك تشابه بين نظام الحكم الرومانى أيام الملوك وأيام القياصرة ، ونظام الحكم فى الصدر الأول للإسلام .

وأكاد أتصور تشابهاً بعيداً أو قريباً بين نظام الحكم الرومانى أيام الجمهورية ونظام الحكم الإسلامى بعد وفاة النبى ؛ فقد كان الرومانيون يختارون قناصلهم على نحو يوشك أن يشبه اختيار المسلمين لخلفائهم ؛ وإلى شىء من ذلك نحا الأنصار حين قالوا للمهاجرين : منا أمير ومنكم أمير . ثم كان سلطان القنصل بعد اختياره يشبه فى عمومه وشموله سلطان الخلفاء ؛ إلا أن سلطان القنصل كان موقوتاً بسنة واحدة ، وكان سلطان الخلفاء يمتد مدى الحياة بعد اختيار الخليفة ؛ وكان سلطان القنصل مقيداً بالقوانين التى تصدرها جماعة الشعب والقرارات التى يصدرها مجلس الشيوخ ، كما كان سلطان الخليفة مقيداً بالحدود التى رسمها الدين ، وبما يرى كبار الصحابة من رأى ، وبما تميل إليه أو تنحرف عنه عامة المسلمين . ولكن هذه كلها وجوه للتشابه يظهر فيها التكلف والتصنع والإبعاد ؛ فإذا أضفنا إليها مظاهر الحكم التى كانت تحيط بالقنصل ولم يكن يحيط منها بالخليفة شىء ؛ وإذا أضفنا إلى ذلك بعض النظم التى اقتضتها ظروف الجمهورية الرومانية لتقييد سلطان القنصل وحماية العامة من تحكمه ، كنظام الزعماء الذين كان العامة تنتخبهم ليكفوا عنها جور القنصل إن هم القنصل بشىء من الجور — أقول إذا أضفنا هذه الفروق إلى وجوه الشبه تلك المتكلفة : كان من الواضح أن ليس هناك صلة قريبة أو بعيدة بين نظام الحكم العربى فى ذلك العهد القصير وبين نظم الرومان فى عهد الملوك أو عهد الجمهورية أو عهد القياصرة .

ليس من شك فى أن المسلمين قد اقتبسوا كثيراً من نظم القياصرة والأكاسرة فى السياسة والإدارة والحرب ، ولكن هذا الاقتباس جاء متأخراً جداً عن العصر الذى نتحدث فيه ؛ فلننصرف إذن عن هذا التشابه الذى لا يقوم على أساس متين .

لم يكن نظام الحكم الإسلامى فى ذلك العهد إذن نظام حكم مطلق، ولانظاماً ديمقراطياً على نحو ما عرف اليونان، ولا نظاماً ملكياً أو جمهورياً أو قيصرياً مقيداً على نحو ما عرف الرومان ، وإنما كان نظاماً عربياً خالصاً بيّن الإسلام له حدوده العامة من جهة ، وحاول المسلمون أن يملئوا ما بين هذه الحدود من جهة أخرى .

وقد قلت فى بعض أحاديثى عن نشأة النثر عند العرب إن القرآن ليس شعراً ولا نثراً ، وإنما هو قرآن له مذاهبه وأساليبه الخاصة فى التعبير والتصوير والأداء . فيه من قيود الموسيقى ما يخيل إلى أصحاب السذاجة أنه شعر ، وفيه من قيود القافية ما يخيل إليهم أنه سجع ، وفيه من الحرية والانطلاق والترسل ما قد يخيل إلى بعض أصحاب السذاجة الآخرين أنه نثر ؛ ومن أجل هذا خدع المشركون من قريش ، فقالوا إنه شعر ، وكذبوا فى ذلك تكذيباً شديداً ؛ ومن أجل هذا خدع كذلك بعض المتتبعين لتاريخ النثر فظنوا أنه أول النثر العربى ، وتكذبهم الحقائق الواقعة تكذيباً شديداً ، فلو قد حاول بعض الكتاب الثائرين — وقد حاول بعضهم ذلك — أن يأتوا بمثله لما استطاعوا إلا أن يأتوا بما يضحك ويثير السخرية .

قلت ذلك بالقياس إلى القرآن . وأريد أن أقول شيئاً قريباً منه بالقياس إلى نظام الحكم العربى الإسلامى فى ذلك العهد ؛ فهو لم يكن ملكاً ، ولم يكن يؤذى النبى وصاحبيه شىء كما كان يؤذيهم أن يظن بهم الملك ؛ وهو لم يكن جمهورياً ، فلم نعرف فى نظم الجمهورية نظاماً يتيح للرئيس المنتخب أن يرقى إلى الحكم فلا ينزله عنه إلا الموت ؛ ولم يكن قيصرياً بالمعنى الذى عرفه الرومان ، فلم يكن الجيش هو الذى يختار الخلفاء ؛ فهو إذن نظام عربى إسلامى خالص لم يسبق العرب إليه ، ثم لم يقلدوا بعد ذلك فيه ؛ وهذا لا يعفينا مع ذلك من أن نحلله ونتبين دقائقه لنرى أكان قادراً على البقاء أم كان خليقاً أن يتغير متى تغيرت الظروف التى أحاطت بنشأته ثم بتطوره .

وأول ما نلاحظ من العناصر التى كان هذا النظام يأتلف منها ، العنصر الدينى ؛ فلم يكن هذا النظام ، كما قلت آنفاً ، نظاماً سماوياً . وإنما كان

نظاماً إنسانيًّا ، ولكنه على ذلك تأثر بالدين إلى حد بعيد جدًّا . لم يكن الخليفة يصدر عن وحى أو شىء يشبه الوحى فى كل ما يأتى وما يدع ، ولكنه على ذلك كان مقيداً بما أمر الله به من إقامة الحق وإقرار العدل وإيثار المعروف واجتناب المنكر والصدود عن البغى .

وهذا الوحى الذى اتصل ثلاثة وعشرين عاماً يصابح المسلمين ويماسيهم ، ينزل قرآناً مرة ، وينطق به النبى حديثاً مرة أخرى ، ويجريه النبى بسيرته العملية سنة متبعة مرة ثالثة . قد أيقظ فى نفوس المسلمين من خاصة النبى ضميراً دينيًّا قويًّا دقيقاً حيًّا إلى أبعد غايات القوة والدقة والحياة ؛ فلم يكن من الممكن أن يتخلص منه المسلم فى قول أو عمل أو تفكير ، بل لم يكن من الممكن أن يخلص منه فى يقظة أو نوم ؛ فصلته بالرعية إن كان حاكماً ، وبالحاكم إن كان رعية ، وبنظرائه فى حياته اليومية ، متأثرةٌ دائماً بهذا الضمير ؛ وهذا هو الذى يخيل لكثير من الناس أن نظام الحكم فى ذلك الوقت قد كان نظاماً يتنزل من السماء إلى الأرض ، وليس الأمر كذلك ، وإنما هو يدور مع مقدار ما يكون لضمير الخليفة ورعيته من التأثر بالدين .

أما العنصر الثانى من العناصر التى ائتلف منها هذا النظام ، فهو عنصر الأرستقراطية التى لا تعتمد على المولد ولا على الثروة ولا على ارتفاع المكانة الاجتماعية بمعناها الشائع العام ، وإنما تعتمد على شىء آخر أهم من هذا كله وهو الاتصال بالنبى أيام حياته والإذعان لما كان يأمر به وينهى عنه فى غير تردد ولا شىء يشبه التردد ، والإبلاء بعد ذلك فى سبيل الله فى أوقات السلم والحرب جميعاً .

هذه الخصال أنشأت منذ ظهر الإسلام طبقة ممتازة من الناس ، لم تستأثر من دونهم بحق من حقوق الدنيا ، ولم تجن لنفسها منفعة عاجلة أو آجلة ، وإنما آثرها النبى بحبه وأعلن إليها وإلى الناس أن الله قد آثرها بحبه أيضاً ؛ فالذين سبقوا إلى الإسلام ، والذين عذبوا فى الله ، والذين هاجروا بدينهم إلى بلاد الحبشة ثم إلى المدينة ، والذين آووْا ونصروا ، والذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم

فى سبيل الله ، والذين لزموا النبي يسمعون له ويكتبون عنه — كل أولئك كوّنوا هذه الطبقة التى أحبها الله ورسوله وأكبرتها عامة المسلمين . وهذه الطبقة لم تكن ترى نفسها أحق بالامتياز ولا أجدر بالاستعلاء ، وإنما كانت ترى نفسها كغيرها من الناس ، وكان تواضعها نفسه يزيدها حبًّا عند رسول الله ، ويرفعها درجات عند الله ، ويعلى مكانتها فى نفوس عامة الناس؛ ولم تكن هذه الطبقة مؤلفة من ذوى المولد الممتاز والنسب الصريح والثراء العريض وحدهم ، وإنما كانت مؤلفة من بعض هؤلاء ومن آخرين كان منهم العبد الذى فتن فى دينه حتى صادف من المسلمين من اشتراه وأعتقه ، وكان منهم الضعيف الذى أقبل مستجيراً بمكة يعيش فى حمى حلف عقدها مع هذا الحى أو ذاك من أحياء قريش ومع هذا العظيم أو ذاك من عظمائها ، وكان منهم من أقبل على مكة ذات يوم فوجد فيها أمناً ومكسباً فأقام ؛ ثم كان منهم من صرح نسبه وحسن مولده ، ولكنه كان قصير اليد قليل المال ، فهو فى عزة من قومه ولكنه فى ضيق من عيشه يكسب حياته كما يستطيع .

كان منهم كل هؤلاء ، وكل هؤلاء سوّى بينهم الإسلام فى الحقوق والواجبات ، ولم يفرق بينهم إلا فى حظوظهم من حسن البلاء فى سبيل الإسلام ، والصبر على المكروه حين يلم المكروه ، ومؤازرة النبي بنفسه وماله حين يحتاج النبي إلى المؤازرة بالأنفس والأموال .

ولم يكد الإسلام ينتشر حتى امتازت هذه الطبقة فى نفوس المسلمين امتيازاً طبيعيًّا ، وحتى أعطاها المسلمون من الحقوق ما لم تكن هى تعطى نفسها ؛ فأعضاؤها كانوا يعلمون الناس دينهم ، ويشيرون عليهم فيما يلم بهم من الأمر . وما أكثر ما كانت أحياء العرب تطلب إلى النبي أن يرسل إليها من يفقهها فى الدين ، فيختار لها من هؤلاء معلماً وفقيهاً وإماماً ؛ ثم لم تكد الشهور تمضى على هجرة النبي حتى كانت غزوة بدر التى رفعت مكانة الإسلام فى بلاد العرب وجعلت له شوكة ترهب وتخاف ؛ ولا يكاد الزمن يمضى حتى يصبح الذين شاركوا فى هذه الغزوة طبقة ممتازة بين المسلمين ؛ فإذا أتيح لهم أن يشهدوا غيرها

من المشاهد مع النبي ، فهم أشد امتيازاً . فإذا أتيح لهم أن يثبتوا فى القلة التى ثبتت مع النبي يوم أحد ، فهم أشد امتيازاً أيضاً ؛ فإذا أتيح لهم أن يثنى النبي عليهم ، ويجعلهم لغيرهم قدوة وإماماً ، ويبشرهم بالجنة ، ويعلن أنه عنهم راض ، فقد بلغوا أرقى درجات الامتياز . وليس فى شىء من هذا كله غرابة أو عجب ، فهذا كله ملائم لطبيعة الأشياء . وإنما المهم هو أن هذه الطبقة الممتازة من أصحاب النبي على ما يكون بينها من تفاوت فى الامتياز : قد أصبحت بعد وفاة النبي صاحبة الحل والعقد فى أمور المسلمين كلها بعد أن مضى النبي إلى ربه وانقطع الوحى وعاد ما بين السماء والأرض إلى البعد بعد القرب .

فمن هذه الطبقة وحدها يختار من يخلف النبي فى أمته . وعلى هذه الطبقة وحدها يعتمد الخليفة فى أن يسمع له الناس ويطيعوا . وإلى هذه الطبقة وحدها يلجأ الخليفة حين يحتاج إلى التشاور وإدارة الرأى .

على أن الأمر لم يقف عند هذا بعد وفاة النبي ؛ فلم تكد تمضى أيام بل ساعات على وفاة النبي حتى عرف الإسلام نوعاً جديداً من الأرستقراطية يتصل بالحكم نفسه اتصالا شديداً ، وذلك حين تحدث المسلمون فى أمر الخلافة ، فقال الأنصار : منا أمير ومنكم أمير ، وروى أبو بكر عن النبي أنه قال : الأئمة من قريش . ثم قال للأنصار : نحن الأمراء وأنتم الوزراء . وقبل الأنصار ذلك لم يكادوا يعارضون فيه ، ولم يأبه منهم إلا سعد بن عبادة رحمه الله .

منذ ذلك الوقت نشأت فى الإسلام أرستقراطية قوامها القرب من رسول الله ؛ فأصبح الحكم إلى قريش وحدها ، وأصبحت المشورة إلى الأنصار . والمشورة حق عام لكل مسلم ، فلقريش أن تحكم . ولقريش أن تشير . وللأنصار وغيرهم من العرب أن يشيروا ، وليس لهم أن يحكموا ؛ ومع ذلك فقد ينبغى أن نستأنى فى تحقيق هذه الأرستقراطية كما فهمها أبو بكر وأصحابه من المهاجرين وكما فهمتها قريش بعد ذلك ؛ فما من شك فى أن أبا بكر وعمر وأبا عبيدة بن الجراح لم يفكروا فى إطلاق الإمامة لقريش كلها بغير تحديد ، وأكبر الظن أنهم إنما فكروا فى

المهاجرين الذين سبقوا إلى الإسلام ، فآمنوا قبل أن يؤمن غيرهم ، وآزروا النبي بأنفسهم وأموالهم على نشر دعوته فى مكة أيام الجهد والشدة والضيق ؛ فالكثرة العظمى من هؤلاء المهاجرين قرشية ، والمهاجرون يذكرون مع الأنصار فى القرآن والحديث وعلى ألسنة الناس ، فيبدأ بهم ويثنى بالأنصار ؛ وما أرى إلا أن أبا بكر إنما قصد إلى هذه الطبقة الممتازة من قريش ، طبقة الذين سبقوا إلى الإسلام وجاهدوا مع النبي أثناء الفتنة فى مكة ، ثم جاهدوا معه وجاهد معهم الأنصار أثناء القوة فى المدينة .

ولو أن أبا بكر وعمر وأبا عبيدة فكروا فى قريش من حيث إنها الحى الذى يتصل نسبه بنسب رسول الله ، أى من حيث القرابة من النبي . لاقتضاهم هذا التفكير أن يؤثروا بالخلافة أقرب قريش من رسول الله ، وأن يرشحوا لها العباس عمه أو علياً ابن عمه وصاحب صهره وربيبه حين كان صبياً ؛ فأبو بكر وأصحابه إذن لم يفهموا من قريش إلا هذا المعنى الذى يتصل بالمهاجرين . وبأصحاب السبق والفضل من المهاجرين خاصة ؛ ومن أحق الحمق أن يقول قائل إن أبا بكر وأصحابه فكروا فى قرابة قريش من النبي ، وجعلوا هذه القرابة مصدر امتياز قريش بالإمامة ، فلو قد كان هذا لكان الطلقاء من قريش أحق بالإمامة عند أبى بكر وعمر وأبى عبيدة من الذين آووا ونصروا ، ولكان أبو سفيان أو صفوان بن أمية أو الحارث بن هشام ، أحق بالإمامة من أعلام الأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان ؛ ولكن قريشاً فهمت قول أبى بكر على غير ما أراده هو وعلى غير ما فهمه أصحابه فى ذلك الوقت . فاستيقنت أن الإمامة حق لها لا ينبغى أن يعدوها إلى غيرها ، وأنها حق لها لمكانها من النبي . وقد كانت قريش فى هذا الفهم خاطئة متكلفة ما فى ذلك شك ، ولو قد صح فهمها وتأويلها لظهرت عليها حجة بنى هاشم . ولكان بنو هاشم أحق المسلمين بالإمامة ما استطاعوا أن ينهضوا بأعبائها .

ذلك إلى أن الإسلام لم يقدم أحداً على أحد بمولده ولا بمكانه الاجتماعى .

وإنما فاضل بين الناس عند الله بالتقوى ، وفاضل بين الناس عند الناس بالتقوى والكفاية وحسن البلاء .

ويدل على صواب ما نذهب إليه أن عمر حين طُلب إليه أن يستخلف قال : لو كان أبو عبيدة حيًّا لاستخلفته . ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حيًّا لاستخلفته . وسالم مولى أبي حذيفة لم يكن قرشيًّا ، بل لم يكن له نسب في العرب ، وإنما جلب صبيًّا من إصطخر . فأعتقته امرأة من الأنصار كانت تملكه . وتولى هو ولاء أبي حذيفة من قريش ؛ وقد كان المسلمون يقدمونه في أمور دينهم أيام النبي ؛ فهو كان يؤم المهاجرين في الصلاة ، وفيهم عمر ، أثناء انتظارهم لمقدم النبي على المدينة . وقد قتل باليمامة في حرب الردة في خلافة أبي بكر .

وما ينبغي أن يؤبه لما قيل من أن سالماً كان قرشيًّا بالولاء ، فلو قد عاش واستخلفه عمر لما خرجت الإمامة من قريش . فهذا كلمة كلام لا يستقيم ؛ ونحن نعلم أن الولاء على ما كان يعقد بين الموالي من الصلات لم يكن ليرفع الموالي إلى طبقة الذين يتولونهم من الأحرار . ولم تكن العرب تعرف لسالم نسباً ، حتى إنهم كانوا يدعون زيد بن حارثة لأبيه حين أمر الله أن يدعى الموالي إلى آبائهم ، وكانوا يقولون إن سالماً من الصالحين لأنهم لم يكونوا يعرفون له أباً بعد أن ألغى الإسلام تبني أبي حذيفة إياه ؛ فقد كان عمر إذن يود لو استخلف على المسلمين رجلا ليس من قريش ، بل ليس من العرب إلا بالولاء ، لا يرى بذلك بأساً ؛ وكان عمر مصيباً في مذهبه هذا موافقاً لأصول الإسلام الذي لا يفضل أحداً على أحد بالنسب والمولد . وإنما يفاضل بين الناس بالكفاية والتقوى وحسن البلاء ؛ وقد كان سالماً تقيًّا كافياً حسن البلاء .

ومهما يكن من شيء فقد نشأت هذه الأرستقراطية القرشية فجاءة على غير حساب من الناس ، وكانت أرستقراطية قد غُلط بها : أراد أبو بكر أن تكون الإمامة في المهاجرين ما وجد بينهم الكفء القوي على النهوض بها . فحولت قريش ذلك فيما بعد إلى منافعها وعصبيتها . وخرجت بذلك عن أصل خطير من

أصول الإسلام وهو المساواة بين المسلمين .

ولم تكد قريش تخطو هذه الخطوة حتى اتبعتها خطوة أخرى كان لها أبعد الأثر فى حياة المسلمين ، وهى تفضيل العرب على غيرهم من الذين اعتنقوا الإسلام ، ولم يكن لهم فى العرب نسب صريح . والناس جميعاً يعلمون أن استئثار قريش بالخلافة جر على المسلمين كثيراً من الفتن ، وأن استئثار العرب بالسلطان والفضل أدال من بنى أمية لبنى العباس بفضل من ناصرهم من الموالى .

فلنظام الحكم فى هذا الصدر فى الإسلام عنصران متميزان إذن : أحدهما معنوى وهو الدين الذى يأمر بالعدل والمعروف يفرضهما على الرعاة والرعية جميعاً ، والآخر هذه الأرستقراطية الخاصة التى قام أمرها على الكفاية والتقوى وحسن البلاء والاتصال برسول الله ، والتى انحرفت بها قريش بعد ذلك عن طريقها ؛ وواضح جداً أن هذين العنصرين لم يكن من شأنهما أن يطاولا مر الدهر ، وتقلب الخطوب وتتابع الأحداث ؛ فأما أولهما وهو هذا الضمير الدينى القوى اليقظ الحى ، فشىء يتاح لأصحابه ، وليس من المكفول ولا من المحتوم أن يرثه عنهم الأبناء والحفدة ؛ فالذين اتصلوا برسول الله اتصالا قريباً وتعلموا منه وتأدبوا بأدبه ، خليقون أن يتأثروه فى سيرته وأن يتمثلوه كلما عملوا أو قالوا أو فكروا ؛ فأما الأجيال التى تأتى بعدهم من الأبناء والحفدة فقد يتأثرون بهم وقد لا يتأثرون ، وهم لم يتصلوا بالنبى إلا قليلا أو لم يتصلوا به أصلا ؛ فليس غريباً ألا يتاح لضمائرهم الدينية من اليقظة والقوة والحياة ما أتيح لخاصة النبى وصفوة أصحابه الأقربين .

وأخرى لا ينبغى أن تفوتنا ، وهى أن أمور الحكم إنما تستقيم حين يكون التعاون والتضامن بين الحاكمين والمحكومين فى الأصول التى يقوم عليها النظام ؛ فليس يكفى أن يكون الحاكم يقظ الضمير مؤثراً للعدل مصطنعاً للمعروف حريصاً على رضا الله كافياً بعد ذلك لمشكلات السياسة خرّاجاً منها إذا ادلهمت ؛ وإنما يجب أن يكون لرعيته حظ من هذا الضمير الحى اليقظ ، ومن حب العدل وإيثار المعروف والحرص على رضا الله .

وهذه هى المشكلة الأولى التى واجهت نظام الحكم الجديد ، فلم يكن العرب كلهم أصحاب رسول الله ، بل لم تكن كثرة العرب قد صاحبت النبى واتصلت به ، وإنما كان أصحاب رسول الله كالشعرة البيضاء فى الثور الأسود ، أو كالشعرة السوداء فى الثور الأبيض ، ولم يكن إيمان العرب بالدين الجديد مطابقاً أو مقارباً لإيمان هذه الطبقة من أصحاب النبى . وإنما كان من العرب من حسن إيمانه ، ومنهم من أسلم ولم يؤمن ، كما جاء فى القرآن : « قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم وإن تُطيعوا الله ورسوله لا يَلِتكم من أعمالكم شيئاً إن الله غفور رحيم » .

بل كان من العرب من جرت كلمة الإسلام على لسانه ولكنه احتفظ بجاهليته كاملة فى قلبه ونفسه وضميره ، والله يقول فى بعض هؤلاء : « الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدرُ ألا يعلموا حدودَ ما أنزل الله » .

فلم يكن هناك توازن بين الحاكم والمحكوم . ولم يكن هناك تضامن صحيح بين الخليفة والكثرة الضخمة من رعيته العربية ، وإنما كان التضامن والتوازن قائمين بين الخليفة وهذه الطبقة الممتازة من أصحاب النبى ، وبفضل هذا التضامن والتوازن استطاع أبو بكر أن يعيد العرب إلى الإسلام بعد أن ارتدوا . وأن يشغلهم بعد ذلك بما وجههم إليه من الفتوح . وأخرى لا ينبغى أن ننساها ولا ينبغى أن يضيق بها المتحرجون الذين يغلون فى حسن الظن بالإنسان ، وهى أن هذا الضمير الدينى الحى اليقظ قد يتعرض للفتنة والمحنة ، وقد يلقى أخطاراً كثيرة من الأحداث والخطوب ؛ فما أكثر ما يخلص الإنسان نفسه وقلبه وضميره للحق والخير والعدل والإحسان ، ثم تلم به أسباب الفتنة وتلح عليه وتسرف فى الإلحاح حتى تضطره إلى أن يتأول فى بعض الأمر ، ثم ما يزال ينتقل من تأول إلى تأول ومن تعلل إلى تعلل ومن تحلل إلى تحلل ، حتى ينظر ذات يوم فإذا بينه وبين الإخلاص الأول أمد بعيد . ومن أجل هذا ألح القرآن وألح النبى وألح الخلفاء والصالحون فى تحذير الناس من الدنيا وغرورها ومما تمد لهم من أسباب الفتن وما تعرضهم له من ضروب

المحن ، ومن هذه السيئات التي تذهب بالحسنات ، ومن بعض النيات والأعمال التي تأكل الصالحات كما تأكل النار الحطب ؛ فليس من الغريب في شيء أن يتعرض كثير من الصالحين ومن أصحاب النبي أنفسهم لأسباب الفتن ودواعي الغرور ، وأن يطرأ عليهم من الأحداث والخطوب ما يباعد بينهم وبين عهدهم الأول حين كان الإسلام غضاً ، وحين كانوا يتصلون بالنبي مصبحين وممسين ، وحين كانوا إذا ذكروا الله وجلت قلوبهم . وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون .

وسنرى أن أسباب الفتن ودواعي الغرور كانت كثيرةً قويةً خلابة ، لا يثبت لها إلا أولو العزم ، وأولو العزم قلة في كل زمان ومكان .

وما أريد أن أتزيد ولا أن أتكلف ، ولا أن أوذي بعض الضمائر ، ولا أن أحفظ بعض الصدور ، ولكني مع ذلك ألاحظ أن جماعة من أصحاب النبي قد حسن بلاؤهم في الإسلام حتى رضي النبي عنهم وبشرهم بالجنة أو ضمنها لهم ، ثم طال عليهم الزمن واستقبلوا الأحداث والخطوب ، وامتحنوا بالسلطان الضخم العظيم، وبالثراء الواسع العريض ، ففسدت بينهم الأمور . وقاتل بعضهم بعضاً ، وقتل بعضهم بعضاً ، وساء ظن بعضهم ببعض إلى أبعد ما يمكن أن يسوء ظن الناس بالناس ، فما عسى أن يكون موقفنا نحن من هؤلاء ؟ لا نستطيع أن نرضى عن أعمالهم جميعاً ، فلا نلغي عقولنا وحدها وإنما نلغي معها أصول الدين التي تأمر بالعدل والإحسان وتنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ، ولا نستطيع أن نحكم بالخطيئة على من نظن أنه قد خطئ ، لمكانهم من النبي أولا . ولما بشرهم به النبي من الجنة ورضا الله ثانياً ، ولحسن ظنهم بالله ورسوله وثقتهم بما وعد الله ورسوله ، وإيمانهم بالجنة التي بشروا بها ؛ وما نحب أن نذهب في أمرهم مذهب الذين عاصروهم من خصومهم وأنصارهم ، فنحكم على بعضهم بالخير ، ونحكم على بعضهم الآخر بالشر ؛ فالذين عاصروهم من الأنصار والخصوم كانوا شركاءهم فيما ألم بهم من الفتنة ، فكانوا يرضون أو يسخطون حسب مكانهم من

أولئك أو هؤلاء ؛ أما نحن فلسنا نعاصرهم ولا نشاركهم فيما شجر بينهم من الخلاف ، وليس من المعقول لذلك أن نقحم عواطفنا فى أمرهم إقحاماً ؛ وإنما سبيلنا أن ننظر فى أعمالهم وأقوالهم من حيث صلتها بحياة الناس وأحداث التاريخ ، وأن نخطئ من نخطئ ونصوب من نصوب منهم من هذه الجهة وحدها دون أن نقضى فى أمر دينهم بشىء ، فإن الدين لله ؛ ودون أن نستبيح لأنفسنا أن نقول كما كان يقول أنصارهم وخصومهم : هؤلاء مؤمنون وهؤلاء كافرون ، وهؤلاء فى منزلة بين بين ، وهؤلاء فى الجنة وهؤلاء فى النار ، ذلك شىء لا نخوض فيه وليس لنا أن نخوض فيه ، وإنما أمره إلى الله وحده ، فأما الذى إلينا فهو أن نتبين من أعمالهم وأقوالهم وسيرهم ما يلائم الحق والعدل والصواب وما لا يلائمها ؛ وهذا فى نفسه كثير ، ولكن لا بدّ مما ليس منه بد .

فالعنصر الأول إذن من عنصرى نظام الحكم فى ذلك الصدر من الإسلام ، وهو الضمير الدينى اليقظ الحى ؛ معرض كما رأيت لكل هذه الأخطاء ؛ ولو قد عصم أصحاب النبى جميعاً من الخطأ وأمنوا التعرض للفتنة واستقامت لهم أمورهم على ما يلائم تلك العصمة وهذا الأمن ، لما كان بدّ من أن يتعرض أبناؤهم وحفدتهم لضروب الفتن والمحن والغرور .

فلم يكن بد إذن من أن يصل المسلمون فى ذلك العصر إلى ما يمكنهم من ألا يتركوا أمورهم إلى حساب الضمير وحده ، أو إلى ما بين الخليفة وبين الله ، إلى ما يمكنهم من أن يضعوا النظام المقرر المكتوب الذى يبين حدود الحكم جملة وتفصيلا ، ويبين للخلفاء ما يجب عليهم أن يفعلوا ، وما يجب عليهم أن يتركوا ، وما يجوز لهم أن يترخصوا فيه ؛ ويبين للشعب حقوقه وواجباته مفصلة ، والوسائل التى يختار بها الخليفة ويراقبه بها بعد اختياره ويعاقبه بها إن حاد عن الطريق ؛ كان المسلمون فى حاجة إلى أن ينشئوا لأنفسهم فى حدود القرآن والسنة دستوراً مكتوباً مبين الحدود والأعلام يعصمهم من الفرقة والاختلاف ؛ ولو قد فعلوا لما تعرضوا لما تعرضوا له من الشر أيام عثمان . وانظر إلى هذا المثل الذى يقف الناس

أمامه حائرين يرضى منهم الراضي ويسخط منهم الساخط . فقد كُلِّم عثمان فيما أعطى لذوى قرابته من بيت المال فقال : « إن عمر كان يحرم قرابته احتساباً لله . وأنا أعطى قرابتي احتساباً لله . ومن لنا بمثل عمر ؟ » فقد كان عمر إذن محسناً حين كان يحرم ذوى قرابته مال المسلمين ، وكان عثمان محسناً حين كان يصل أرحامه من مال المسلمين لأن الله أمر أن توصل الأرحام .

فهذا كلام قد يستقيم عند الذين يحاولون أن يتأولوا فى الفقه ، فأما المصالح العامة فلا تحتمل هذا التأول . فالأموال العامة إما أن تكون للشعب فلا يحل للإمام أن يتصرف فيها إلا بإذنه ، وإما أن تكون للإمام فلا يحل للشعب أن يعترض عليه إن تصرف فيها ؛ فأما أن يتقرب بعض الأئمة إلى الله بحفظها على المسلمين ، وأن يتقرب بعضهم الآخر إلى الله بصلة رحمه منها ، فهذا شيء لا يستقيم ؛ وواضح أنا نذهب فى ذلك مذهب عمر ؛ لأنه وحده يلائم الحق والعدل وما ينبغى للأئمة من التعفف ، ويلائم فقه الأمور العامة كما نفهمه الآن .

ومثل آخر يرويه المؤرخون ، وما ندرى أنقف منه موقف الإعجاب أم نقف منه موقف العجب ، فقد قال عثمان لخصومه حين اشتد عليه الحصار : « إن رأيتم فى كتاب الله أن تضعوا رجلى فى القيد فافعلوا » . أقال هذا معتباً ثم نازلا عند حكم الله فى كتابه ؟ وإذن فأين هذا الحكم الذى يبيح للمسلمين أن يضعوا رجلى إمامهم فى القيد ؟ أم قال هذا متحدياً لأنه يعلم أن ليس فى كتاب الله نص يبيح للمسلمين أن يضعوا رجلى إمامهم فى القيد حين يخطئ أو حين ينحرف عن الجادة عن عمد . لأن القرآن لم يعرض لشيء من هذا ؟ وإذن فقد كان عثمان على هذا الفرض يرى أن ليس لخصومه عليه سبيل من كتاب الله ؛ وأن له أن يفعل ما فعل دون أن يكون قد قارف ذنباً أو تورط فى إثم . ولو قد كان للمسلمين هذا النظام المكتوب لعرف المسلمون فى أيام عثمان ما يأتون من ذلك وما يدعون دون أن تكون بينهم فرقة أو خلاف .

وربما كان من أوضح الأمثلة على حاجة المسلمين فى ذلك الوقت إلى هذا

النظام المكتوب ما يروى من أن عليًّا حين عرض عليه عبد الرحمن بن عوف أن يبايعه على أن يلزم الكتاب والسنة وسيرة الشيخين لا يحيد عن شيء من ذلك ، أبى أن يعطى ما طلب إليه من العهد وقال : « اللهم لا . ولكن أجتهد فى ذلك رأيى ما استطعت » يريد أنه لا يستطيع أن يلتزم مالا سبيل إلى التزامه . فالقرآن مكتوب محفوظ فى الصدور ، ولكنه لم يعرض لسياسة الحكم فى تفصيلها ووقائعها اليومية .

وسنة النبى معروفة فى جملتها ، ولكن منها ما يجهله الحاضر ويحفظه الغائب . ومنها ما ذهب مع من ذهب من أصحاب النبى فيما كان من حرب الردة والفتوح ؛ وسيرة الشيخين كسنة النبى منها المعلوم ومنها ما قد يكون النسيان عرض له ؛ ولعلىٍّ بعدُ الحق كل الحق فى أن يخالف عن سيرة الشيخين إن تغير الزمن أو رأى فى المخالفة عن هذه السيرة منفعة للرعية ونصحاً للمسلمين ؛ فلما عرض عبد الرحمن هذا العهد على عثمان قبله وأعطى مثله وقال : « اللهم نعم ! » يريد أنه سيجتهد فى إنفاذ كتاب الله وسنة نبيه وسيرة الشيخين ، وأنه متى اجتهد فى ذلك مخلصاً فقد التزم الكتاب والسنة ونهج الشيخين . وقد أصاب علىٌّ ما فى ذلك شك ، ولم يبعد عثمان ؛ ولكن انظر إلى ما حدث بعد أن مضت أعوام على إمرة عثمان : ذهب فى أموال المسلمين مذهباً مخالفاً لمذهب عمر وسيرته ؛ فأما الذين بايعوه على التزام هذه السيرة فيما التزم فقد رأوا أنه خالف عنها ولم يف بالعهد كاملا ، وأما هو فرأى أنه لم يخالف بحال من الأحوال ؛ لأن قوام سيرة عمر إنما هو التقرب إلى الله ، وهو قد وصل رحمه تقرباً إلى الله ؛ فهو يتقرب إلى الله كما كان عمر وأبو بكر يفعلان ، ولا عليه أن تختلف وسائل هذا التقرب إلى الله ؛ ولو قد كان للمسلمين فى ذلك الوقت نظام مكتوب بين الحدود واضح الأعلام ، لما أبى علىٌّ أن يبايع على هذا الدستور ، ولما احتاج عثمان إلى أن يبايع ثم يتأول ، ولما انقسم الناس بعد ذلك فريقين : فريقاً يشتد ويتحرج كما تحرج علىٌّ ومن لاموا عثمان ، وفريقاً يتأول كما تأول عثمان .

نعم ! ولكن ينبغى ألا ننسى أن عمر قد قتل سنة ثلاث وعشرين للهجرة ،

أى قبل أن يمضى على الهجرة وتأسيس الدولة ربع قرن . وأن هذه المدة القصيرة لم تنفق فى حياة هادئة مطمئنة قد استقرت فيها الأمور وفرغ فيها البال . وإنما أنفق منها عشرة أعوام فى حمل العرب على الإسلام ، ثم أنفق منها عام وبعض عام فى رد العرب إلى الإسلام بعد أن انتقضوا عليه ، ثم أنفق سائرها فى دفع العرب إلى نشر الإسلام فى أقطار الأرض : فى الإدالة من الفرس ، وإخراج الروم من الشام ومصر ، ثم فى تمصير الأمصار وتجنيد الأجناد ، ووضع النظم الأولى لسياسة الحرب والسلم ، وللإدارة خارج بلاد العرب وداخل بلاد العرب ؛ فليس من العدل ولا من الإنصاف أن يقال إن المسلمين فى صدرهم ذاك قد قصروا أو تخلفوا أو تركوا ما كان يمكن أن يفعلوا دون أن يفعلوه .

فإذا أضفت إلى ذلك أن الشيخين إنما كانا يبتكران ما كانا يقبلان عليه من تنظيم أمور الحكم ابتكاراً فى هذه البيئة العربية البدوية التى لم تكن لها سابقة ذات خطر فى الإدارة أو السياسة أو الحضارة بوجه عام ، ثم لم يكونا يبتكران فحسب ، وإنما كانا يسوسان قوماً لم يتعودوا أن يساسوا . ويحضران قوماً لم يتحضروا من قبل ؛ عرفت أن من الشطط أن يقال إن الشيخين لم يضعا للمسلمين من النظم السياسية ما كان ينبغى أن يضعا . وقد كان عمر رحمه الله يجتهد فى ذلك ما وسعه الاجتهاد ، لا يكاد يعرف من نظم الأمم التى سبقت إلى الحضارة شيئاً إلا استقصاه واستخلص منه ما يلائم المزاج العربى ، وما يلائم الإسلام ، وما يلائم هذه الدولة الناشئة التى أسرعت إلى النمو والانتشار إسراعاً عظيما سبقت به تفكير المفكرين وتدبير المدبرين .

أما العنصر الثانى من عناصر هذا النظام السياسى وهو هذه الأرستقراطية الممتازة من أصحاب النبى ، فقد كان بطبعه معرضاً للزوال حين يمضى الزمن ويبلغ الكتاب أجله ، وتنشأ أجيال جديدة ليس لها ما كان لهذا الجيل من الامتياز . وقد كان من الطبيعى أن يوضع لهذه الأجيال النظام الذى يعلمها كيف تختار خلفاءها وكيف تراقبهم وتحاسبهم وتعاقبهم إن تعرضوا لما يقتضى العقاب ،

ولو قد وضع هذا النظام لما تفرّق أمر المسلمين بعد مقتل عثمان على النحو الذى عرفه التاريخ ، ولما ذهب فريق من المسلمين مذهب المحافظة الهوجاء على سنة النبي والشيخين وهم الخوارج . وفريق آخر مذهب المحافظة على أن تكون الإمامة فى آل بيت النبي ، وفريق ثالث على أن تستحيل الخلافة ملكاً قيصريًّا أو كسرويًّا ، وفريق رابع إلى أن يكون الأمر شورى بين المسلمين دون أن يعرفوا لهذه الشورى نظاماً ولا حدوداً ؛ ولكن ما قلناه بالقياس إلى العنصر الأول نقوله بالقياس إلى هذا العنصر الثانى ؛ فلم يتح للشيخين وأصحابهما من الوقت ولا من الفراغ والدعة ولا من التطور والاتصال بأسباب الحضارة ما كان من شأنه أن يمكنهم من وضع هذا النظام ؛ إنما السبيل على الذين جاءوا بعدهم فأتيحت لهم السعة والدعة والفراغ . ولم يفكروا مع ذلك لا فى أن يضعوا نظاماً لتداول الحكم ، ولا فى أن يضعوا نظاماً يكفل رعاية العدل السياسى والاجتماعى ، وإنما أهملوا ذلك إهمالا وآثروا أنفسهم بالحكم والغلب والاستعلاء .

وبعد فهؤلاء أيضاً خليقون ألا يلاموا ؛ فقد ينبغى أن نسأل أنفسنا متى عرف العالم وضع الدساتير ؟ وقد ينبغى أن نلاحظ أن وضع النظم السياسية المكتوبة ذات الأعلام الواضحة والحدود البينة ظاهرة حديثة لم يكد العالم يعرفها إلا فى عصور متأخرة جدًّا . وأنا أعلم أن قد كانت للمدن اليونانية القديمة نظم سياسية مكتوبة . وأعرف كذلك أن قد كانت لروما نظم سياسية مقررة ؛ ولكنى أعرف أن الملك فى الشرق والغرب قد ألغى هذه الدساتير وباعد بينها وبين الناس ؛ حتى نسيتها الإنسانية نسياناً يوشك أن يكون تامًّا ، ولم تستكشفها إلا قليلا قليلا بعد النهضة فى هذا العصر الحديث .

على أن من الحق أن نلاحظ شيئاً أشرت إليه فى بعض هذا الحديث ، وهو أن عمر رحمه الله قد كان يلقى عماله وأهل أقاليمه فى الموسم من كل عام ، فيسمع من العمال فى أمر الرعية ، ويسمع من الرعية فى أمر العمال ، وقد جعل هذا نظاماً مقرراً . فكان يحج بالناس طول خلافته ليلقى المسلمين فى موسمهم ،

لا نستثني من ذلك إلا العام الأول لخلافته. فلو قد مدت أسباب الحياة لعمر لكان من الممكن، وهو من نعرف في حدة الذكاء وتوقد الذهن ونفاذ البصيرة وبعد الرأي والنصح للمسلمين، أن يتطور هذا الاجتماع الموسمي بين عمال الأقاليم والحجيج من أهل هذه الأقاليم إلى نظام ثابت إلا يكن هو النظام البرلماني الذي عرفه القدماء أو الذي استنبطه المحدثون، فهو قريب منه قرباً شديداً. ولم يكن عمر رحمه الله يكتفي بهذا الاجتماع الموسمي، وإنما كان يستقصي أمور الناس ما وسعه الاستقصاء: يستقصي ذلك بنفسه في المدينة وما حولها وحين يلقى أهل الأقاليم في موسم الحج، ويستقصي ذلك بوساطة عماله وأمنائه الذين كان يرسلهم بين حين وحين لتتبع أمور العمال، ويستقصي ذلك بما كان يرفع إليه من أمور الناس، يرفعه إليه العمال حيناً والرعية أحياناً؛ ثم كان رحمه الله يفكر في آخر أيامه في زيارات تفتيشية للأقاليم. فكان يتحدث بأن لو عاش لتنقل فأقام في كل مصر شهرين، ويرى بنفسه كيف يعمل الولاة وكيف رضا الرعية عما يعملون. ولكن الموت أعجله عن هذا كله؛ ولم يكد رحمه الله يوارى في قبره مع صاحبيه حتى سلكت سياسة المسلمين طريقاً غير الطريق التي سلكوها.

وقد يكون من الإنصاف إذا أردنا أن نستوفي هذا البحث أن نلاحظ سياسة عمر لهذه الطبقة الممتازة من أصحاب النبي. فهو قد أمسكها في المدينة كما قلنا آنفاً، لم يأذن لها في أن تتفرق في الأرض، خوفاً عليها وخوفاً منها. فكان راشداً في هذه السياسة كل الرشد؛ ولم لا نسمي الأشياء بأسمائها؟ أو لم لا نترجمها بلغة العصر الحديث فنقول إن عمر إنما أمسك هذه الطبقة الممتازة في المدينة ضناً بها وضناً بالمسلمين على ما نسميه في هذه الأيام باستغلال النفوذ؛ فقد استقامت أمور المسلمين وأمور هذه الطبقة نفسها ما أمسكها عمر في المدينة ووقفها عند حدود معينة من الحركة والاضطراب. فلما تولى عثمان وخلى بينها وبين الطريق لم تلبث الفتنة أن ملأت الأرض شراً؛ لا لأن هذه الطبقة أرادت الشر أو عمدت إليه، بل لأنها استكثرت من المال والأنصار من جهة. ولأن الناس افتتنوا بها

من جهة أخرى ؛ فكان لكل واحد من زعمائها مواليه وأنصاره وشيعته . ولم يكن عمر يحب أن يعطى من أموال المسلمين فلاناً أو فلاناً صلة منه له أو عناية منه به أو تألفاً منه إياه . وإنما كان يفرض لكل واحد منهم ومن الناس عطاء ويبيح لهم ما باح الله لهم من الاكتساب ؛ لا يضيق عليهم فى ذلك إلا بهذا المقدار الذى عرفناه . فلما استخلف عثمان لم يفتح لهم الطريق إلى الأقاليم فحسب ، وإنما وصلهم أيضاً بالصلات الضخمة من بيت المال . فيقال إنه أعطى الزبير ذات يوم ستمائة ألف ، وأعطى طلحة ذات يوم مائتى ألف ، وإذا كثر المال على هذا النحو لفريق بعينه من الناس . وأتيح لهم أن يشتروا الضياع فى الأقاليم ، ويتخذوا الدور فى الأمصار ويتخذوا القصور فى الحجاز ، ويستكثروا من الموالى والأتباع والأشياع فى كل مكان ؛ فقد فتحت لهم أبواب الفتنة على مصاريعها ، وكان من أعسر العسر عليهم أن يتجنبوا الولوج فى هذه الأبواب . وقد تجنبها منها متجنبون : تجنبها سعد بن أبى وقاص الذى لم يشارك فى فتنة وإنما اعتزل الناس حين أخذهم الشر . وتجنبها عبد الرحمن بن عوف الذى يقال إنه ندم على ما كان من اختياره لعثمان ، والذى أقام فى دار الهجرة مصرفاً تجارته فى الأقاليم متصدقاً بكثير من ريعه ، كما كان يفعل أيام النبى وأيام الشيخين . وتجنبها على رحمه الله ، فلم نعلم أنه اتجر أو اتخذ الضياع والدور فى الأقاليم . وإنما أقام فى المدينة حيث بوأه رسول الله . وكان له مال فى ينبع يذهب إليه من حين إلى حين . . . ولكن لعلى قصة أخرى كما يقول القائلون .

ومغزى هذا كله أن عمر قد حمى هذه الطبقة الممتازة وحمى المسلمين من استغلال النفوذ . وأمسك عليهم جميعاً دينهم . وحال بينهم جميعاً وبين الفتنة ، واتخذ من خاصة أصحاب النبى مجلساً يوشك أن يكون مجلس شوراه ؛ ولو مد له فى العيش لكان خليقاً أن يضطرهم إلى أن يرضوا بهذه المنزلة فيكونوا أصحاب الحل والعقد ، يشيرون على الخلفاء دون أن يدخلوا فى أمور الحكم التفصيلية من قريب أو بعيد .

فهذه واحدة ؛ والثانية أن عمر رحمه الله حين أحس أنه ميت قد اقتدى بالنبي فلم يستخلف شخصاً بعينه ، واقتدى بأبي بكر فلم يترك المسلمين دون أن يشير عليهم وينصح لهم ؛ فاختار أصحاب الشورى لمكانهم من رضا النبي عنهم ، ولمكانهم من زعامة المهاجرين ، ولمكانهم من زعامة قريش ، ثم لمكانهم من رضا المسلمين عنهم وثقة المسلمين بهم ، ثم ترك لهم أن يختاروا من بينهم خليفة .

وسنرى أن نظام الشورى هذا كما وضعه عمر لم يكن كافياً ولا مقنعاً ، ولكن المهم هو أن عمر فكر فى الشورى واتخذها أصلا لاختيار الخلفاء ، وليس هذا بالشىء القليل . ولا ينبغى أن ننسى أن عمر إنما وضع نظام الشورى هذا بعد أن طُعن ، وضعه فى هذا الوقت الذى كان يخرج فيه من الدنيا ويدخل فيه إلى الآخرة ، ويعانى فيه ما يعانى المطعون من الألم ، ويعانى فيه ما يعانى المشرف على الموت حين يكون له ضمير يقظ حى دقيق كضمير عمر من خوف الله ، والإشفاق من حسابه ، ومن حساب نفسه على ما قدم بين يديه من الجليل والخطير ، ثم يعانى فيه بعد ذلك ما يعانى من تدبير أمر نفسه وأهله والاحتياط لهم من أن يحتملوا من الأعباء مثل ما احتمل ، والاحتياط لنفسه من أن يلقى الله وفى ذمته شىء من مال المسلمين ، ثم هو يعانى بعد هذا كله ما يعانى من التفكير فى الاحتياط لقبره ؛ فقد كان حريصاً على أن يدفن مع صاحبيه ، وعلى أن يدفن معهما بإذن من عائشة صاحبة البيت الذى دفن فيه ، وعلى أن يطمئن إلى أنها قد أذنت له فى ذلك قبل أن يموت . وعلى أن يطمئن إلى أن عبد الله بن عمر سيستأذن عائشة فى إدخاله بيتها بعد أن يموت — فى أثناء هذا كله فكر عمر فى نظام الشورى ، فاحتاط للمسلمين ما وسعه الاحتياط .

وكان المسلمون خليقين بعد أن مات عمر ، وبعد أن اختاروا خليفتهم أن يفكروا فى نظام الشورى هذا ، فيقيموه على أساس ثابت مضطرد متين ، يؤمنهم الفرقة أولا ، ويؤمنهم أن تعجل الأحداث خليفتهم عن أن يعهد لهم كما عهد أبو بكر ، وعن أن يشير عليهم كما أشار عمر ؛ ولكن الغريب أنهم لم يفكروا فى شىء من ذلك ،

وإنما استخلف عثمان . فلم يكد يستخلف حتى زاد فى العطاء . ويسر على الناس ما كان عسر عليهم عمر . وأذن لهم فتفرقوا فى الأرض . ثم أذن لهم فاستكثروا من المال الأنصار .

ونظن أن هذا الحديث الذى قد تراه طويلا ، وما أراه إلا قصيراً مسرفاً فى القصر ، قد مهد لما ينبغى أن نعرض له الآن من الحديث عن عثمان ، وما أثير فى خلافته من فتنة . وما أثير حوله من جدال ؛ وما نظن إلا أن هذا الحديث ، على طوله فيما قد ترى وعلى قصره فيما أرى ، يدل منذ الآن على أن الأحداث التى حدثت والنتائج التى ترتبت عليها كانت أكبر وأوسع وأضخم من الأشخاص الذين شاركوا فيها من قريب أو بعيد ، فما ينبغى أن يلام فيها هذا أو ذاك ، وإنما ينبغى أن تلام فيها الظروف إن كان من الممكن أو من المعقول أن تلام الظروف .

وعثمان كغيره من أصحاب النبي : ذهب الصدر الأول من حياتهم في الجاهلية على التاريخ فلم يكد يحفظ منه شيئاً ؛ ولم يخلقهم الإسلام خلقاً جديداً من حيث حياة نفوسهم وعقولهم وقلوبهم فحسب ؛ وإنما خلقهم خلقاً جديداً في تاريخهم أيضاً ؛ فجبّ ما كان من حياتهم قبل أن يسلموا ، حتى كأنهم ولدوا حين أسلموا . وكان يقال إن عثمان ولد في العام السادس بعد وقعة الفيل ؛ وكان يقال كذلك إنه ولد بالطائف ؛ ولعل هذا كل ما حفظ من تاريخه الأول على غير ثقة من الذين رووه . وليس أدل على ذلك من الاختلاف في سنه حين قتل ؛ فقد كان قوم يرون أنه قتل وهو ابن خمس وسبعين سنة . وكان قوم آخرون يرون أنه قتل وهو ابن تسعين أو ثمان وثمانين أو ست وثمانين سنة ؛ وكان آخرون يرجحون أنه قتل في الثانية أو الثالثة والثمانين من عمره ؛ ولو أنهم عرفوا تاريخ مولده بالضبط لما اختلفوا في سنة هذا الاختلاف ؛ بل لما قال قائل منهم إنه قتل وهو ابن ثلاث وستين سنة . يريد بذلك أن يلحقه بالنبي وخليفتيه ؛ فقد اختارهم الله لجواره في هذه السن ، مع بعض الاختلاف في ذلك بالقياس إلى عمر .

ولا يعلم الرّواة من أمر عثمان في جاهليته إلا نسبه ؛ فهو ابن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي ؛ فهو يلتقي مع النبي في عبد مناف من قبل أبيه ، ولكنه يلتقي مع النبي من قبل أمه لقاء أقرب من هذا ؛ فأمه أروى بنت كريز ، وأم أروى هي البيضاء بنت عبد المطلب بن هاشم ؛ فقد كانت أروى إذن بنت عمة النبي .

وقد تعلق الأمويون فيما بعد على عليّ وأصحابه من بني هاشم بهذه الرحم ، فلاموا

عليًّا لأنه خذل ابن عمته وابن عمه؛ وهو ابن عمته لما رأيت ، وهو ابن عمه لالتقائه مع بني عبد المطلب في عبد مناف الذي ولد هاشماً جد الهاشميين وعبد شمس جد الأمويين . وكان عفان ، كما كان أبوه ، وكما كان بنو أمية جميعاً ؛ بل بنو عبد شمس ، بل كثرة قريش . صاحب تجارة يخرج فيها إلى الشام . وقد مات في إحدى خرجاته وترك لابنه ثراء حسناً . وذهب عثمان مذهب أبيه ، بل مذهب قومه جميعاً في التجارة ، فأفاد منها مالاً كثيراً .

وعاد من الشام ذات يوم ، فسمع بالدعوة الجديدة التي كان النبي قد أخذ يدعوها : سمع بذلك في أهل بيته في حديث طويل يرويه المحدثون وأصحاب السير ، فقد زعموا أن خالته سعدى أنبأته بأمر النبي ورغبته فيه وكانت كاهنة ، وزعموا كذلك أنه أنبئ بأمر النبي أثناء عودته من الشام مع طلحة بن عبيد الله ، سمع وهو بين النائم واليقظان منادياً ينبئ بخروج أحمد في مكة . فلما عاد إلى مكة أنبئ النبأ فوقع في قلبه منه شيء . والذي يتفق عليه الرواة هو أنه لقي أبا بكر فتحدث إليه وسمع منه ، ودعاه أبو بكر إلى الإسلام فمال قلبه إليه ، ثم صحب أبا بكر إلى النبي . فدعاه النبي ووعظه فاستجاب له ولم يقم عنه إلا بعد أن أسلم ؛ ويقال إن طلحة أسلم معه في ذلك المجلس ، ويقال إنهما أسلما ، في أثر الزبير بن العوام ؛ ومهما يكن من شيء فقد كان عثمان من السابقين إلى الإسلام ، كان أحد العشرة الرابعة من الرجال الذين سبقوا إليه ؛ وكان إسلامه قبل أن يستقر النبي بدعوته في دار الأرقم .

ثم أصهر عثمان إلى النبي فتزوج ابنته رقية ، وأصبح بعد هذا الصهر من أقرب الناس إليه وآثرهم عنده ؛ ثم كانت المحنة ، فأصابته كما أصابت غيره من المسلمين ؛ فقد قيل إن عمه الحكم بن أبي العاص لما علم بإسلامه عنفه تعنيفاً شديداً وأوثقه ، وأقسم لا يضع عنه وثاقه حتى يعود إلى دين آبائه ، فلما رأى تشدد عثمان في دينه رد إليه حريته ؛ ويقال كذلك إن أمه أعرضت عنه إعراضاً شديداً ، فلما لم يغن عنها ذلك شيئاً ثابت إليه . ولما أذن النبي لأصحابه في الهجرة

إلى الحبشة هاجر عثمان ومعه زوجه ، ثم عاد بها ، ثم هاجر معها الهجرة الثانية إلى الحبشة أيضاً ، ثم هاجر إلى المدينة حين اتخذها النبي للإسلام داراً ؛ فلما خرج النبي بأصحابه إلى بدر لم يخرج معه عثمان ، كانت زوجه رقية مريضة فأقام على تمريضها ، وأنزل الله نصره على المسلمين يوم بدر ، فأسهم له النبي مع الذين شهدوا الموقعة وعده منهم . وماتت رقية فجزع لموتها جزعاً شديداً لانقطاع الصهر بموتها بينه وبين النبي ، ولكن النبي زوجه أختها أم كلثوم . فلم تلبث عنده إلا قليلا حتى ماتت .

وقال النبي فيما يروى أصحاب السير : لو كانت عندنا أخرى لزوجناها عثمان . وكانت رقية قد ولدت له عبد الله ، ولكنه مات فى السادسة من عمره . وكذلك كاد عثمان أن يعقب من إحدى بنات النبي . ولو قد عاش ابنه عبد الله لكان له ولأبيه شأن أى شأن ، ولكان أمره غير بعيد من أمر الحسن والحسين ابنى فاطمة : رحمهم الله جميعاً .

وشهد عثمان مع النبي أحداً ، ولكنه لم يثبت مع القلة التى ثبتت معه . وإنما فر مع كثرة المسلمين التى تولت فأنزل الله عفوه عنها فى الآية الكريمة : « إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم » .

ثم شهد المشاهد كلها مع رسول الله كما شهدها غيره من كبار أصحابه ، ولكنه كان كريماً سخى النفس واليد بماله فى سبيل الله ، فعل من ذلك ما لم يفعله غيره من أغنياء المسلمين حينئذ ، فهو اشترى بئر رومة من ماله بألوف كثيرة وجعلها للمسلمين يدلى فيها كما يدلون ، ووعده النبي بخير منها فى الجنة ؛ وهو كذلك اشترى أرضاً وسع بها النبي المسجد حين ضاق بالناس ووعده النبي خيراً منها فى الجنة ؛ فلما كانت غزوة تبوك واشتد العسر وندب النبي الناس إلى الإنفاق فى سبيل الله ، قام عثمان بتجهيز الجيش ، فقيل إنه حمل المسلمين على ما احتاجوا أن يحملوا عليه من الإبل والخيل ، وقيل إنه أقبل بألف دينار فوضعها

فى حجر النبى واستعان النبى بها على تجهيز الجيش ؛ ودعا لعثمان أن يغفر له الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر ووعده بالجنة .

وكان عثمان أبر الناس بالناس، وأرفق المسلمين بالمسلمين وأحرصهم على صلة الرحم وأسخاهم يداً وأسمحهم نفساً وأعظمهم حلماً ؛ وكانت الخصلة التى ميزه بها النبى فيما روى المحدثون وأصحاب السير ، صدق الحياء ؛ وكان النبى يقول : إن الملائكة لتستحيي من عثمان . وكان النبى يلقى أصحابه متفضلا غير متكلف ، فإذا أذن لعثمان احتشم وقال : كيف لا نستحيي من رجل تستحيي منه الملائكة ؛ وكان النبى يعلل احتشامه حين يأذن لعثمان بأنه إن لم يفعل استحيا عثمان أن يثبت بين يديه وأن يبلغه حاجته ويأخذ حظه من التحدث إليه . ولما كان يوم الحديبية اختار النبى عثمان سفيراً إلى قريش ، لمكانه من بنى أمية ، ولمنزلته من قريش ، ولينه وسماحة خلقه وحسن تأتيه لما كان يراد من الأمر ؛ فلما جاء الخبر إلى النبى بأن قريشاً قد كادت لعثمان ، بايع أصحابه على الجهاد لنصره ؛ وأنزل الله فى ذلك قرآناً : « إن الذين يُبايعونك إنما يبايعون الله يدُ الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما » . وبايع النبى بإحدى يديه عن عثمان . وقد روى المحدثون وأصحاب السير أحاديث كثيرة ، منها الصحيح الظاهر الصحة ، ومنها الموضوع الذى يظهر وضعه ؛ ومنها ما يتعرض لشك قليل أو كثير ؛ وكلها تحدث بأن عثمان كان عند النبى محبباً إلى نفسه مقرباً إليه بين المقربين إليه من خاصة أصحابه ؛ وبأن النبى قد بشر عثمان بالجنة غير مرة ؛ وأنبأه برضا الله عنه غير مرة أيضاً . وقد تحدث عبد الله ابن عمر رحمه الله بأن المسلمين كانوا فى أيام النبى يقدمون أبا بكر وعمر وعثمان ، ثم لا يفاضلون بين أصحاب رسول الله ؛ فهؤلاء النفر الثلاثة إن صح هذا الحديث كانوا فى طليعة أصحاب النبى فى أيام النبى نفسه ؛ ومهما يكن من شيء فقد كان السلف يسمون عشرة ضَمِن النبى لهم الجنة ، وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلىّ وسعد بن أبى وقاص وطلحة بن عبد الله والزبير بن العوّام وعبد الرحمن بن عوف

وأبو عبيدة بن الجراح وسعيد بن زيد بن نفيل .

فقد كان عثمان إذن أحد هؤلاء العشرة ، وليس من المسلمين إلا من عرف لعثمان سابقته فى الإسلام ، وإصهاره إلى النبى مرتين ، وحسن بلائه فى الجهاد بنفسه وماله فى سبيل الله .

ولما انتقل النبى إلى جوار ربه ، وكانت البيعة لأبى بكر ، كان عثمان من الذين أسرعوا إلى هذه البيعة ونصحوا للخليفة ، وهو الذى كتب عهد أبى بكر إلى المسلمين باستخلاف عمر ؛ أملى أبو بكر وكتب عثمان ؛ ويقال إن أبا بكر أخذته أثناء الإملاء إغماءة وقد وصل إلى قوله : « إنى استخلفت عليكم » فأتم عثمان جملة أبى بكر وسمى عمر ؛ فلما أفاق أبو بكر من غشيته طلب إلى عثمان أن يقرأ عليه ما أملى فقرأ حتى أتى على اسم عمر ؛ فكبر أبو بكر وجزاه خيراً عن الإسلام والمسلمين وقال : خشيتَ ألا أفيق فسبقتَ إلى ما أريد . وإنك لها لأهل . فلما بويع عمر كان عثمان من أول الذين بايعوه . وأنفق أيامه ناصحاً له مشيراً عليه ، حتى إذا طعن عمر وطلب إليه المسلمون أن يعهد لهم ، لم يرد أن يعهد ولم يرد أن يتركهم بغير مشورة عليهم . فاقترح عليهم نظام الشورى وجعلها فى هؤلاء الستة الذين مات النبى وهو عنهم راض ، ولم يرد أن يضم إليهم ابن عمه سعيد بن زيد بن نفيل ؛ مع أنه من العشرة الذين كان الناس يرون أن رسول الله قد ضمن لهم الجنة ، لأنه كره أن تكون الخلافة فى عدىّ مرتين ؛ ولم يحضره الشورى لأنه خاف أن يميل إليه بعض أهل الشورى لرضا النبى عنه ولمكانه من عمر . وأحضر ابنه عبد الله الشورى ولم يجعل له من الأمر شيئاً ؛ لأنه كره أن يليها من آل الخطاب رجلان من جهة . ولأنه كان يرى فى ابنه ضعفاً عن النهوض بأعباء الخلافة من جهة أخرى .

وأحسب أن أبا بكر لو عُمِّر وأدرك ما أتيح لعمر أن يدرك من الفتح واتساع رقعة الدولة وتشعب أمورها وتعقد المصالح فيها ، وهذه المشكلات الكثيرة الخطيرة التى كانت تنشأ فى كل يوم ، يتصل بعضها بشئون السياسة ، ويتصل بعضها بشئون

الإدارة ويتصل بعضها بالمحافظة على حقائق الدين ودقائقه مع هذا التطور العنيف الذى كان يطرأ على أمور المسلمين بين يوم ويوم — أقول : لو قد عُمِّر أبو بكر وشهد من هذا كله ما شهد عمر ، لكان خليقاً أن يقف الموقف الذى وقفه عمر وأن يتردد بين الاستخلاف وترك الاستخلاف كما تردد ، ولعله كان خليقاً أن يقترح نظاماً يشبه النظام الذى اقترحه عمر لانتخاب الخليفة شبهاً قوياً أو ضعيفاً ؛ فقد مات أبو بكر رحمه الله وأمر المسلمين قريب من حالهم التى تركهم عليها النبى : قد أعاد العرب إلى الإسلام بعد أن ارتدت عنه ، ثم رمى بها إلى الأقطار الخارجية فبدأت الفتح ولكنها لم تمعن فيه ؛ أما فى أيام عمر فقد بدأ المسلمون سيرة جديدة من كل وجه . أمعنوا فى الفتح إمعاناً عظيما ، فأخرجوا الروم من الشام والجزيرة ومصر ، ونقضوا سلطان الفرس فى بلادهم نقضاً ، احتلوا جزءاً عظيماً جداً من هذه البلاد ؛ ونظروا فإذا هم مضطرون بحكم الإمعان فى الفتح إلى أن يزدادوا فيه إمعاناً ، يشددون ضغطهم على الروم حتى يخرجون من الساحل الشرقى للبحر الأبيض : وحتى ينشئوا بينهم وبينهم حدوداً يمكن الاطمئنان إليها ، بل حتى يبلغوا قسطنطينية ويزيلوا ملك الروم كما أزالوا ملك الفرس ، ثم يمضوا فى فتحهم بلاد الفرس حتى يحسموا أمرهم حسماً ، وحتى يبعدوا حدود الدولة فى الشرق إلى أقصى ما كان يمكن أن تصل إليه الجيوش ؛ وقد اضطرهم هذا إلى أن تكون لهم سياسة حربية مستقرة مطردة تلائم التوسع فى الفتح والانتشار فى الأرض ؛ فقد يجب أن ينشئوا لهذا الفتح المتصل أداته الدائمة ، وهى الجيوش التى تمضى للغاية التى رسمت لها ؛ وهذه الجيوش يجب أن تأتلف من هذه المادة الغريبة التى لم تألف الحرب المنظمة المعقدة بعدُ ، من هؤلاء العرب البادين الذين عرفوا الغارات وأتقنوها ، ولكنهم لم يعرفوا مقابلة الجيوش المنظمة المدربة فى أرض لا علم لهم بها ولا خبرة لهم بما يكون فيها من المصاعب والعقاب .

ونحن نقرأ تاريخ الفتح الإسلامى فنعجب به ، ويبهرنا ما أتيح للعرب فيه من قوة وسرعة ومضاء ، ثم نريح أنفسنا من البحث والتحليل والاستقصاء ، فنرد أمر هذا كله إلى تصديق الوعد الذى قدمه الله للمسلمين فى القرآن ، وإلى الإيمان

الذى استقر فى قلوب المسلمين فدفعهم إلى مواجهة المصاعب عن ثقة بالله واطمئنان إلى تصديق وعده وإنزال نصره عليهم فى المواطن كلها .

وما من شك فى أن هذا كله حق ، وفى أن المسلمين قد اندفعوا إلى فتوحهم بهذا الإيمان القوى الذى يقهر المصاعب ، ويذلل العقبات ويحل المشكلات ، ولكن لكل شىء أسبابه ووسائله ، وهذه الأسباب والوسائل قد احتاجت إلى كثير من الجهد ، وإلى كثير من التدبير والتقدير وإعمال الرأى لتجتمع هذه القلوب المفترقة أولا ، ولتندفع إلى مغامراتها خارج بلاد العرب ثانياً ، ولتهاجم هذه القوى الهائلة المنظمة بقوى هائلة منظمة أيضاً ؛ فلم يكن من الأمور السهلة ولا من المشكلات اليسيرة، إنشاء هذه الجيوش القوية الضخمة المنظمة التى رمى أبو بكر وعمر بها أقطار العالم القديم ، ولم يكن من السهل ولا من الهين إمساك هذه الجيوش فى مواقفها بعد المواقع وبعد الانتصار أعواماً متصلة ، مع ما نعلم من عادة العرب فى غاراتها وحروبها القديمة ؛ فقد كانت تحارب لتنتصر وتغنم ، ثم لتعود بعد ذلك مسرعة إلى منازلها فتنعم بالغنيمة والسلم ؛ فأما أن تقدم على حرب تعرف أولها ولا ترى آخرها ، وهى بعد ذلك لا تشبه ما ألفت من حروبها فى الجاهلية ومن غزواتها مع النبى ، بل من حروبها أيام الردة ، فهذا هو الشىء الجديد الذى احتاج إلى جهد لا نكاد نتصوره . وقد بذل عمر وأصحابه وقادته هذا الجهد مقدمين غير محجمين ، وحازمين غير مترددين ، فكتب لهم ما تمنوا من التوفيق ويكفى أن نتصور تمصير الأمصار وإنزال الجيوش فيها وتنظيم المناوبات بين هذه الجيوش التى استقرت فى هذه الأمصار ، وأن نتصور أن هذه الجيوش قد ألفت من قوم بادين لم يألفوا الحضارة أو لم يألف كثير منهم الحضارة — يكفى أن نتصور هذا كله لنقدر بعض المشكلات الحربية الخطيرة التى نفذ منها عمر وأصحابه نفوذاً حقاً .

ونحن كذلك نقرأ فى التاريخ تدوين الدواوين فنمر به مسرعين معجبين ،

ولو قد وقفنا عنده وقفة قصيرة وتبينا أن هذه الكلمة القصيرة لا تدل على أقل من إحصاء دقيق للمحاربين وقبائلهم ومنازلهم من هذه القبائل وأسرهم التى يعولونها أو ينبغي أن تعولها الدولة عنهم — أو قد فعلنا هذا لعرفنا أن هذا التجديد الخطير فى حياة أمة بادية لم تعرف من قبل كتاباً ولا حساباً ولا إحصاء ، لم يكن من الأشياء الهينة التى يمر الناس بها مسرعين ؛ فإذا صحبنا هذه الجيوش فى مسيرها إلى الحرب ، ثم فى استقرارها بالأمصار بعد أن كانت المصادمات الكبرى بينها وبين جيوش الفرس والروم ، ثم فكرنا فى هذا النظام الرائع الذى وضعه عمر عن استشارة أصحابه لتنظيم المناوبة بين هذه الجيوش المستقرة فى الأمصار بحيث لا يغيب الرجل فى الغزو أو فى الحرب العامة عن أهله أكثر من ستة أشهر . حتى أصبح التجمير (وهو تجاوز هذه المدة بالمحاربين) إثماً لا يصح للسلطان أن يتورط فيه — عرفنا مقدار ما كان ينبغي للخليفة وأعوانه أن ينفقوا من الجهود المادية والمعنوية المتصلة الملحة ليواجهوا مشكلات السياسة الحربية .

ولم تكن مشكلات هذه السياسة وحدها هى التى تشغل الخليفة وأعوانه ومشيريه ، فقد كانت هناك مشكلات إدارية ليست أقل منها خطراً ولا أهون منها شأناً . فهذه البلاد التى فتحت على المسلمين كانت بلاداً لها سابقة فى الحضارة ، وتفوق فى العمران ، ولها نظمها المألوفة التى تتباين فيما بينها بتباين الأقطار والأقاليم ، ولم يكن بد لهذه البلاد من أن تدار بعد الفتح كما كانت تدار قبل الفتح ؛ فلم يكن الفتح الإسلامى فتح تخريب وتدمير . وإنما فتح تأمين وتعمير ؛ ولم يكن من الممكن أن يصبح العرب فجأة مهرة فى الإدارة متقنين للسياسة قادرين على أن يكفوا عن أنفسهم شر المغلوبين من ورائهم ، ويؤمنوا هؤلاء المغلوبين على أنفسهم وأموالهم ومرافقهم ، ويأخذوا من هؤلاء المغلوبين ما يمكنهم من إقرار الأمن والمضى فى الحرب والاتساع فى الفتح ؛ فلم يكن لهم بد إذن من أن يحتفظوا بالإدارات التى وجدوها فى تلك البلاد حين أخضعوها لسلطانهم ، ومن أن يراقبوا هذه الإدارت مراقبة دقيقة متصلة تكفيهم ما يمكن أن تقدم عليه من غش لهم

أو مكر بهم أو تأليب عليهم ؛ وليس شيء من هذا كله بالأمر اليسير .

ثم هناك مشكلات أخرى تتصل ببلاد العرب نفسها ؛ فقد ينبغي للسلطان أن يجد السياسة التي يضبط بها هذا الشعب البادي الذي لم يألف الطاعة ولم يتعود الخضوع ، وأن يضبطه في الوقت الذي يأخذ فيه شبابه وأولي القوة من رجاله ليرسلهم إلى أماكن نائية قد يعودون منها وقد لا يعودون ؛ ونحن نقرأ في غير مشقة أنباء التعبئة العامة حين تفرضها الظروف على هذا الشعب الحديث أو ذاك ، فنعجب لذلك ونُعجب به ، ولكنا لا نتعمق دقائق التعبئة العامة ومشكلاتها . ولا نقدر أن لهذه التعبئة في الشعوب الحديثة نُظماً مقررة متقنة لم ترتجل ارتجالا ، وإنما صنعت صنعاً بعد التجربة الدقيقة والمراس الطويل ، فكيف بأمة بادية ليس لها في الحروب العظيمة سنة ، وليس لها بالتعبئة المنظمة عهد . وإنما هي تواجه هذا كله للمرة الأولى من غير تجربة ولا مغالاة ولا معاناة ولا اختبار !

هذه ألوان يسيرة من المشكلات التي واجهت عمر ، وكانت خليقة أن تواجه ابا بكر لو مدّت له أسباب الحياة ، وكان من الطبيعي أن تواجه الخلفاء الذين يأتون بعد عمر . فأي غرابة في أن يشقى عمر بخلافته شقاء عظيماً ! وأي غرابة في أن يحزم أمره ويمضي عزمه ويشمر عن جد هائل فلا ينام ولا ينيم ! ثم أي غرابة بعد ذلك في أن يلتمس بين أصحابه ومعاصريه من يستطيع أن يعهد إليه بمواجهة هذه المشكلات وما هو أعسر منها عسراً وأشد منها تعقيداً . فلا يكاد يظفر به أو يطمئن إليه !

والمشكلة بعد ذلك ليست مشكلة إدارة وسياسة وحرب ليس غير ، ولكنها مشكلة تتعقد بهذا التراث الديني الذي يجب أن يقوم الخليفة عليه ليحميه ويحفظه ويصونه ، ويمضي به في الطريق التي مضى فيها النبي بأمر من ربه ؛ فلو قد كان الأمر أمر فتوح وإدارة وسياسة ليس غير ، لمضى فيها العرب كما مضى غيرهم من الأمم التي خرجت من البداوة إلى الحضارة ، ومن الضعف إلى القوة ، ومن الخضوع إلى التسلط والاستعلاء ؛ ولكن الأمر أمر فتح في حدود معينة قد رسمها الإسلام ،

وقوامها رفع المغلوبين إلى مكانة الغالبين بإذاعة العدل الكامل الشامل فيهم من جهة ، وبينهم وبين الذين قهروهم من جهة أخرى ؛ فلم يكن الفتح كما صوره الإسلام وكما تصوره النبي وصاحباه فتح تغلب وجباية ، وإنما كان فتح إصلاح وهداية .

فلم يكن بد للخليفة إذن من أن يجمع إلى كفايته فى أمور السياسة والإدارة والحرب كفايةً أخرى هى أشق منها مشقة وأعسر منها عسراً ، وهى الكفاية فى حماية الدين وحياطته وصيانته من أن يكيد له المغلوب أو يستغله الغالب أو يفتر فيه القائمون عليه الذين يجب عليهم ألا يخشوا فى حياطته لومة لائم مهما يكن .

أضف إلى هذا كله تراثاً آخر لم يكن بد لعمر من أن يفكر فيه ومن أن يلائم بينه وبين مصالح الناس وحقائق الدين ، وهو هذه الأرستقراطية الجديدة التى أتيحت للعرب فى هذه الطبقة الممتازة من أصحاب النبى أولا ، وفى هؤلاء القواد المظفرين ثانياً : أرستقراطية جاءت من الدين لفريق من الناس ، وأرستقراطية جاءت من الدنيا لفريق آخر ، وأرستقراطية جاءت من الدين والدنيا جميعاً لفريق ثالث .

هذا الصحابى الذى سبق إلى الإسلام وهاجر الهجرتين ، وشهد المشاهد مع النبى ، ثم أقام بعد ذلك فى المدينة ، له أرستقراطيته الدينية ؛ وهذا القرشى أو العربى الذى أسلم بأخرة ثم أبلى فى الفتح بلاء حسناً وامتاز بين الفاتحين ، له أرستقراطيته الدنيوية ؛ وهذا الصحابى الذى سبق إلى الإسلام وهاجر لله ولرسوله وشهد المشاهد مع النبى وامتاز بعد ذلك فى الفتح ، له أرستقراطية الدين والدنيا جميعاً . ولا بد للخليفة إن أراد أن يعهد ويستخلف من أن يلائم بين هذه المصالح المختلفة ، ويخرج من هذه المشكلات المعضلات إلى حل يرضى مصالح الدين والدنيا وآراء الناس فى أنفسهم وفى نظرائهم ؛ فليس العجيب ألا يستخلف عمر ، وليس العجيب أن يتردد حين يطلب إليه الاستخلاف ، وإنما العجيب هو نقيض هذا ؛ وقد اجتهد عمر ما وسعه الاجتهاد ، واجتهد فى أيام حرج وضيق ،

وأعجله الموت عن أن يطيل التفكير ويشاور من حوله من كبار الصحابة وزعماء المسلمين .

وما من شك فى أن النظام الذى وضعه للشورى قد كان نظاماً لا يخلو من نقص ، ولعله لا يخلو من نقص شديد ؛ وأول ما نلاحظه على هذا النظام ضيق مجلس الشورى ؛ فقد ائتلف هذا المجلس من سبعة أحدهم يشير وليس له فى الأمر شىء وهو عبد الله بن عمر ، فكان هو المشير الوحيد الذى لا مطمع له فى شىء ؛ ولم يكد المشيرون يجتمعون حتى تبينوا الآفة الخطيرة التى كانت توشك أن تذهب بمجلسهم غير مذهب ، وهى أن ستة منهم كانوا مشيرين ، وكانوا جميعاً مرشحين للخلافة ؛ فلم يكن لهم بد من أن يحملوا أنفسهم على ما لم تتعود النفوس أن تحمل عليه ؛ لا لأنهم كانوا يؤثرون أنفسهم بالسلطان حبًّا للسلطان وحده ، بل لأنهم كانوا يؤثرون أنفسهم بالسلطان نصحاً للإسلام والمسلمين : يرى كل واحد منهم مخلصاً أنه أقدر على احتمال العبء وأجدر أن يرعى ما ينبغى له من حق ؛ وقد فوجئ المسلمون الذين كلفوا حراسة هؤلاء المشيرين مفاجأة أليمة حين رأوا هؤلاء المشيرين يختلفون فى غير ائتلاف . ويتنافسون فى غير وفاق ، حتى قال أبو طلحة رئيس الحرس : لقد كنت من أن تدافعوها أخوف منى من أن تنافسوها .

كان رحمه الله فى سذاجته وطهارة قلبه يرى كما كان يرى عمر أن الخلافة عبء ثقيل ينبغى ألا يُطمع فيه ، بل ينبغى أن يرغب الرجل عنه إيثاراً للعافية فى دينه ودنياه ؛ ولكن المشيرين لم يكونوا يرون هذا الرأى ، وإنما كانوا يرون أن الخلافة واجب يجب أن يتنافس المتنافسون فى النهوض بأعبائه مهما تثقل ، تقرباً لله إن حسنت بهم الظنون ، ويجب أن تحسن بهم الظنون ؛ ورفقاً بالناس إن صدقت فيهم الآراء ، ويجب أن تصدق فيهم الآراء . وكان أسرع المشيرين إلى التنبه لهذه الآفة ومحاولة الطب لها ، عبد الرحمن بن عوف ، فقد عرض على أصحابه أن يخلع أحدهم نفسه من الأمر وأن يختار بعد ذلك للمسلمين ، فأسكتوا

جميعاً ، أو قل أسكت منهم أربعة . هم على وعثمان وسعد والزبير ؛ ولم يُسكت طلحة ولم يتكلم لأنه كان غائباً لم يحضر الشورى ؛ فلما رأى عبد الرحمن أنهم قد أسكتوا ، وأنهم لا تطيب نفس واحد منهم عن هذا الأمر ، خلع هو نفسه منه على أن يختار للمسلمين من هؤلاء الخمسة ناصحاً لله وللمؤمنين . ولم يكن من اليسير أن يرضى الأربعة منه بما عرض عليهم ؛ فقد كان عليّ يخاف أن يميل عبد الرحمن إلى عثمان لصهر كان بينهما ، وكان غير عليّ يخاف أن يميل عبد الرحمن إلى سعد لقرابة كانت بينهما ؛ ولكن القوم تعاطوا العهود والمواثيق على ألا يألو عبد الرحمن المسلمين نصحاً ، وعلى ألا يميل مع الهوى ولا يتأثر بقرابة أو صهر ، وعلى أن يقبل القوم من يختاره لهم من بينهم .

ولو قد وسّع عمر مجلس الشورى وأكثر فيه من أمثال عبد الله بن عمر من أولئك الذين يحضرون الشورى ويشاركون فيها ولا يكون لهم من الأمر شيء ، لكان من الممكن ألا يتعرض مجلس الشورى لما تعرض له من الشك والاختلاف . وأكاد أعتقد أن الخير قد كان يكون لو تصور عمر مجلس الشورى لا على أنه مجلس مؤلف من المرشحين أيهم انتخب فهو خليفة ، بل على أنه مجلس مؤلف من المشيرين الذين تعرض عليهم أسماء هؤلاء الستة ليختاروا من بينهم رجلا يستخلفونه ؛ ولم يخطر لعمر رحمه الله ولم يخطر للمسلمين من بعده أن الأنصار كانوا خليقين أن يشهدوا الشورى ، وأن يكون لهم أن يقولوا رأيهم ويشاركوا فى الاختيار بين المرشحين ؛ فقد نعلم أن الإمامة فى قريش ما دام المسلمون قد اتفقوا على ذلك ، ولكن لا نعلم أن معنى هذه القاعدة أن قريشاً وحدها هى التى تختار الإمام ؛ فليس الإمام إماماً لقريش وحدها ولكنه إمام للمسلمين جميعاً ؛ فالمسلمون جميعاً ولاة هذا الاختيار على أنهم مقيدون بأن يكون الإمام الذى يختارونه من قريش ؛ وقد استقر فى نفوس المسلمين لذلك العهد وبعد ذلك العهد أن الاختيار إنما يكون لأهل الحل والعقد ؛ وما نعلم أن الحل والعقد قد كانا إلى قريش وحدها أيام أبى بكر وعمر ، وقد قال أبو بكر للأنصار : نحن الأمراء

وأنتم الوزراء . فجعلهم من أهل الحل والعقد . لأن الوزراء فيما نعتقد يحلون ويعقدون . كان من الطبيعي إذن أن يشهد الأنصار مجلس الشورى ويشاركوا في اختيار الإمام ؛ بل كان من الطبيعي أن يأتلف مجلس الشورى من جماعة تتجاوز قريشاً والأنصار وتشمل قوماً غيرهم من زعماء العرب وقواد المسلمين في الحرب وكبار الولاة والعمال . فلو قد ائتلف مجلس الشورى على هذا النحو لكان خليقاً أن يجنب المسلمين كثيراً مما تعرضوا له من الشر . .

وآفة أخرى نراها في تنظيم الشورى على هذا النحو . وهي أن سلطان المشيرين كان سلطاناً موقوتاً حدد له عمر ثلاثة أيام وقبل المسلمون منه هذا التحديد ؛ وكان من الطبيعي أن يختاروا من بينهم رجلا وأن يستخلفوه ؛ وأن يبايعه من حضر من المسلمين ؛ وأن يكتب ببيعته إلى الأمصار . أو بعبارة أدق . أن يكتب هو ببيعته إلى الأمصار وينفذ فيها أمره ونهيه بحق الخلافة التي استمدها من هؤلاء الذين بايعوه .

ومعنى هذا كله أن أهل المدينة كانوا وحدهم بمقتضى هذا النظام هم الذين إذا بايعوا ألزموا المسلمين في جميع أقطار الأرض . وعلة ذلك أن المدينة كانت مستقر أصحاب النبي من المهاجرين والأنصار ومواطن أهل الحل والعقد ؛ وعلة ذلك أيضاً أن الانتظار الطويل في اختيار الإمام كان خليقاً أن يثير القلق ويحدث الأحداث ؛ ولكن ليس من شك في أن بعض أصحاب النبي من أولي الرأي والبصيرة كانوا قد تفرقوا في الأمصار ومواطن الحرب بأمر عمر أو عن إذنه ، وكانوا خليقين لو استشيروا أن يشيروا وينصحوا .

على أن الخطر كل الخطر لا يأتي من هذه العجلة التي قد تدعو إليها المصلحة ، وما نشك في أن عمر قد قدر هذه المصلحة فأحسن تقديرها ، وإنما يأتي الخطر من أن هذا المجلس قد كان موقوتاً ينحل متى تم اختيار الإمام ؛ ولو قد وسع مجلس الشورى أولاً وجعل نظاماً دائماً بعد ذلك ؛ بحيث يصبح مجلس مراقبة للإمام في عمله من جهة ؛ ومجلس اختيار للأئمة كلما احتاج المسلمون إلى

اختيار الإمام من جهة أخرى ، لكان المسلمون قد سبقوا إلى النظام البرلمانى ، وهم كانوا خليقين أن يسبقوا إليه ؛ فقد رأيت من سيرة عمر أنه كان يسعى إلى هذا النظام سعياً حثيثاً . ولكنى أعيد ما قلته آنفاً من أن عمر قد أعجل عن التفكير فى هذا النظام ، ولو قد مدّت له الحياة لكان من الممكن جدًّا أن يفرغ لهذا الأمر وأن يشاور فيه ، وأن ينتهى إلى نظام يشبه هذا الذى صورناه ؛ إذن لما حدثت الأحداث ، ولما نشأت هذه المشكلة الخطيرة التى نشأت بين عثمان وبين الذين ثاروا به وخرجوا عليه ، وهى : أيجوز للمسلمين أن يخلعوا إمامهم إن أنكروا سيرته أم لا يجوز ؟ بل أيجوز للإمام نفسه أن يخلع نفسه إن ضاقت به الرعية أم لا يجوز ؟

ومهما يكن من شىء فقد جعل المشيرون أمرهم إلى عبد الرحمن ثم تفرقوا فأقاموا فى بيوتهم ، وجعل صُهيب يصلى بالناس كما أمر بذلك عمر ، وقام أبو طلحة وأصحابه على باب عبد الرحمن ينتظرون به انتهاء الأيام الثلاثة ليختار للمسلمين إماماً . وقيل إن عبد الرحمن لم يكتف بتفكيره وتقديره واستخارته الله للمسلمين . وإنما جعل يشاور الناس يسعى إليهم ويدعوهم إليه ، لا يستشير الرجال منهم خاصة ، وإنما يستشير ذوات الفضل من النساء وفى طليعتهن أمهات المؤمنين ؛ حتى إذا كاد يستوفى الأيام الثلاثة أرسل إلى علىّ وعثمان فدعاهما إليه وخلا بهما واحداً فى إثر صاحبه . وسأل عليًّا قائلا : أرأيتك لو لم أولك فمن تشير علىّ أن أختار ؟ فقال له : عثمان . ثم ألقى السؤال نفسه على عثمان حين خلا به فقال : علىّ . وإن كان هذا موضع شك ، فلم يشهد أحد ما كان من الحديث بين عبد الرحمن وصاحبيه . وعلى كل حال فقد خلا عبد الرحمن إلى صاحبيه أحدهما فى إثر الآخر ، ثم أمر فنودى فى الناس : الصلاة جامعة ، فازدحم الناس إلى المسجد حتى اكتظ بهم ، وصعد عبد الرحمن إلى منبر النبى وجلس منه حيث كان النبى نفسه يجلس . وكان أبو بكر قد نزل عن مجلس النبى درجة ، وكان عمر قد نزل عن مجلس أبى بكر درجة أخرى ، فلما استخلف

عثمان قال : إن هذا يطول ، ثم جلس مجلس النبي .

رقى إذن عبد الرحمن المنبر وجلس مجلس النبي . وقد اعتم بعمامة كان النبي قد عممه بها في إحدى خرجاته ، ثم وقف فأطال الوقوف ، ودعا دعاء لم يسمعه الناس ، ثم قال : هلم إلىّ يا علىّ . فقام على فسعى إليه ، فبسط عبد الرحمن يده فأخذ بيد علىّ ثم قال له : هل أنت مبايعى على كتاب الله وسنة رسوله وفعل أبى بكر وعمر ؟ قال علىّ : اللهم لا ، ولكنى أحاول من ذلك جهدى وطاقتى . فأرسل يده ، وقال : هلم إلىّ يا عثمان ، فأقبل عثمان حتى وقف عند المنبر ، وبسط عبد الرحمن يده فأخذ يد عثمان وقال له : هل أنت مبايعى على كتاب الله وسنة رسوله وفعل أبى بكر وعمر ؟ قال عثمان : اللهم نعم . قال عبد الرحمن : اللهم اشهد ، اللهم اشهد ، اللهم اشهد . ثم قام الناس فبايعوا عثمان .

وبايع على فيمن بايع لم يتردد ، ويقال إنه تردد ، فقال عبد الرحمن : يا علىّ ، لا تجعل على نفسك سبيلا ، ثم تلا الآية : «فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً» . فأقبل على فبايع . وأكاد أقطع بأن عليًّا لم يتردد ولم يحتج إلى من يذكره بالعهد الذى أعطاه على نفسه ، فعلىّ أوفى بالعهد وأكرم على نفسه من أن يحتاج إلى مثل هذا التنبيه ، وسيرته كلها تنبئنا بذلك .

ولم ينقض هذا اليوم ، وهو اليوم الأخير من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين ، حتى كان عثمان إماماً يستقبل بخلافته المحرم سنة أربع وعشرين فى أثبت ما روى المؤرخون .

٥

وكان أول ما عرض لعثمان من الأحداث قبل أن يستتم اليوم الأول من أيام خلافته . قصة عبيد الله بن عمر الذى قتل الهرمزان وجفينة وبنت أبى لؤلؤة . وهى قصة امتحن بها المسلمون امتحاناً عسيراً . فأبو لؤلؤة هو قاتل عمر ؛ طعنه بخنجر ذى رأسين حين كان يتقدم للصلاة ؛ فتكاثر الناس على أبى لؤلؤة فأخذوه ؛ ولكنه قتل نفسه قبل أن يسأل فى ذلك أو يجيب . وقال بعض الناس : إنه رأى أبا لؤلؤة والهرمزان ، وكان قد أسلم ، وجفينة وكان نصرانيًّا ؛ قد خلصوا نجيًّا وفى أيديهم هذا الخنجر يقلبونه ؛ فلما أقبل عليهم قاموا وسقط الخنجر من أيديهم . فلما مات عمر أقبل ابنه عبيد الله شاهراً سيفه حتى أتى الهرمزان فقتله ؛ فيقول الرواة إنه لما أحس عض السيف قال : لا إله إلا الله . ثم أتى جفينة فقتله فيقول الرواة إنه لما أحس الموت صلب بين عينيه . ثم أتى منزل أبى لؤلؤة فقتل ابنته . وبلغ الخبر صهيباً وكان على صلاة الناس ؛ فأرسل إليه من يكفه من المسلمين وقد انتهى إليه سعد بن أبى وقاص فساوره وما زال به حتى أخذ منه السيف ؛ ثم حبس حتى يقضى الخليفة فى أمره .

فلم تكد بيعة عثمان تتم حتى شاور المسلمين الذين حضروه فى أمر عبيد الله هذا الذى ثأر لنفسه بنفسه وثأر لنفسه عن غير بينة ، فقتل رجلاً مسلماً وقتل ذميين بغير الحق ودون أن يخوّله السلطان قتلهما . فأما أهل البصيرة والفقه وفيهم علىّ فأشاروا بالقود ؛ لأن عبيد الله قد تعدى حدود الله كما رأيت . وقال قوم كثير من المسلمين : يقتل عمر أمس ويقتل ابنه اليوم ؛ وزعموا أن عمرو بن العاص قال لعثمان : قد أعفاك الله من هذه القضية ؛ فقد حدث ما حدث وليس لك على المسلمين سلطان .

وقد اختلفت الرواة فى الحكم الذى أمضاه عثمان فى هذه القضية : فقوم يزعمون أن عثمان قضى بالقود ودفع عبيد الله إلى ابن الهرمزان ليقتله بأبيه . وأكثر المؤرخين يزعمون أن عثمان قال : أنا ولىّ الهرمزان وولىّ من قتل عبيد الله . وقد عفوت وأدفع دية من قتل من مالى إلى بيت مال المسلمين . وهذا أشبه بسيرة عثمان. فما كان عثمان ليستفتح خلافته بقتل فتى من فتيان قريش وابن من أبناء عمر . وما كان عثمان ليهدر دم مسلم وذميين . وهو من أجل ذلك آثر العافية . فأدى دية القتلى من ماله الخاص إلى بيت مال المسلمين ، وحقن دم عبيد الله بن عمر . وفى إمضائه الحكم على هذا النحو سياسة رشيدة لو نظر الناس إلى القضية نظرة سياسية خالصة . فلم يبعد من قال من المسلمين : يقتل عمر أمس ويقتل ابنه اليوم ؛ ولو قد قتل عثمان عبيد الله بن عمر فى القصاص لغيّر على نفسه قلوب آل الخطاب خاصة وبنى عدىّ عامة ؛ بل لغير قلوب قريش كلها وقلوب كثير من غير قريش . ولو قد عفا ولم يعقل القتلى لفتح باباً من أبواب الفوضى لا سبيل إلى إغلاقه .

ولكن هذه القضية ليست قضية سياسية فحسب ، وإنما هى قضية دين أولاً ، ثم قضية سياسة بعد ذلك . ومن حق الإمام أن يعفو بشرط ألا يعطل عفوه حدّاً من حدود الدين .

ومن هنا نفهم أن كثيراً من المسلمين المتشددين لم يرضوا عن قضاء عثمان هذا ؛ فكان من الأنصار من لبث يذكر عبيد الله بقتل الهرمزان وينذره بالاقتصاص منه ، وكان زياد بن لبيد البياضى كلما لقيه قال له :

ألا يا عبيد الله مالك مهرب	ولا ملجأ من ابن أروى ولا خفرْ
أصبت دماً والله فى غير حله	حراماً . وقتلُ الهرمزان له خطر
على غير شىء غير أن قال قائل	أتتهمون الهرمزان على عمر
فقال سفيهٌ والحوادث جمة	نعم أتهمه قد أشار وقد أمر
وكان سلاح العبد فى جوف بيته	يقلبه والأمر بالأمر يعتبر

فلما كثر ذلك من زياد شكاه عبيد الله إلى عثمان ، فدعا عثمان زياداً فنهاه عن ذلك فلم ينته ، وإنما قال فى عثمان نفسه :

أبا عمرو عبيدُ الله رهنٌ — فلا تشكك — بقتل الهرمزان

فإنك إن غفرت الجرم عنه وأسبابُ الخطا فرسا رهان

لتعفو إذ عفوت بغير حق فما لك بالذى تخلى يدان

فغضب عثمان وزجر زياداً حتى انتهى . ولكن قوماً من المسلمين لم يرضوا قضاء عثمان . ويقال إن عليًّا كان من هؤلاء . ويقال إنه لو قدر على عبيد الله أثناء خلافته لأقاد منه ، ولكن عبيد الله خرج مع الغاضبين لعثمان وقاتل مع معاوية بصفين فقتل هناك . والذى أسخط هؤلاء المسلمين مراعاتهم لظاهر النص القرآنى أولا ، وتحرجهم بعد ذلك من أن يعفى عن عبيد الله لأنه ابن خليفة ، ولأنه قتل مسلماً أعجميًّا حديث عهد بالإسلام وآخرين من أهل الذمة . فنى هذا العفو ما يشبه أن يكون تمييزاً بين المسلمين ، تمييزاً بين العربى وهو عبيد الله ، وبين الأعجمى وهو الهرمزان . والله لم يفرق بين المسلمين فيما ضمن لهم من حرمة دمائهم وأموالهم وأعراضهم مهما يكن آباؤهم ومهما تكن أجناسهم . وفى هذا العفو ما يشبه أن يكون إهداراً لدماء أهل الذمة على ما تقرر لهم فى الدين من الحرمة ورعاية الحقوق ولو ترك الأمر على هذا النحو وأبيح لأبناء الخلفاء وأمثالهم من أبناء كبار الأنصار والمهاجرين أن يثأروا لأنفسهم بأنفسهم ، يتبعون فى ذلك شهواتهم ونزواتهم ، ولا يرفعون أمرهم إلى السلطان . ولا يقيمون البينة على أصحاب ثأرهم ، لفسد الأمر وضاع العدل . وكانت الفوضى وطمست آيات الدين

ونعود فنقول إن عثمان كان ولى أمر المسلمين . وله بحكم هذه الولاية أن يعفو . ونزيد على ذلك أنه حين عفا لم يعطل حدًّا من حدود الله ولم يهدر دم الهرمزان وصاحبيه ، وإنما أدى ديتهم من ماله لبيت مال المسلمين الذى كان يرثهم وحده . ولكن هذا النحو من العفو لا يخلو مما يريب المتشددين فى الدين .

فعبيد الله لم يعاقب على شيء مما أتى ؛ وإنما احتمل العقوبة عنه عثمان حين أدى الدية من ماله هو . ولو قد عفا فحقن دم عبيد الله ، ثم فرض عليه وعلى أسرته دية القتلى ؛ لأقام الحد في غير ريبة ؛ ولما استطاع أحد أن ينكر من قضائه شيئاً. ولو أنه إذ أدى الدية من ماله رفقاً بآل الخطاب أمسك عبيد الله في السجن تعزيراً له وتأديباً ، حتى يتوب إلى الله من إثمه ، ويندم على إراقة الدم في غير حقه ، وعلى الاستخفاف بالسلطان استجابة للحفيظة الجاهلية — لو قد فعل ذلك لكان له مخرج من هذا الحرج ، ولأعلم فتيان قريش من أمثال عبيد الله أن دماء المسلمين والذميين أعظم حرمة عند الله وعند السلطان من أن تراق بغير الحق ثم لا يعاقب من أراقها عقاباً يسيراً أو خطيراً ، وإنما يخلى بينه وبين الحياة يحياها آمناً . ويخلى بينه وبين طيبات الحياة يستمتع بها في غير رهب ولا خوف .

ومهما يكن من شيء فقد استقبل عثمان خلافته بهذا النحو من السياسة الذي يصور رحمته ورأفته وإيثاره للعافية . وتجنبه لما يحفظ القلوب ، قلوب العرب خاصة ، وقلوب هذه الطبقة الممتازة من المهاجرين وأبناء المهاجرين بنوع أخص . فرضي عن هذه السياسة قوم وسخط عليها آخرون ؛ وكان بدء خلافة عثمان محاطاً بشيء من هذا الشك والاختلاف . ولو قد كان عمر مكان عثمان وقدم إليه فتى من فتيان قريش مهما يكن أبوه ومهما تكن عشيرته ، لقام في هذا الأمر مقام صاحب الحد الذي لا تأخذه في حدود الله لومة لائم . وما من شك في أن قضاء عثمان في هذه القضية قد رسم خلافته بما يميزها تمييزاً تاماً من خلافة عمر ؛ وهو الرفق واللين .

وعلى ذلك فإن الناس لم يعجلوا بالحكم على عثمان . وما كان لهم أن يعجلوا وهم أنفسهم قد انقسموا في هذه القضية ؛ لمكان عمر في قلوبهم . ولما كانوا يرونه من رعاية حقه في أهله وبنيه . وقد أمر النبي أن تدرأ الحدود بالشبهات . فلعل عثمان قد درأ هذا الحد عن عبيد الله بالشبهة التي تأتي من غضبه لأبيه واندفاعه مع شهوته الجامحة . والله قد حبب إلى المسلمين العفو حين يقدرون وجزاهم عليه خيراً .

وقد روى المؤرخون أن عثمان لم يكد يستقبل خلافته حتى أصدر إلى الأقاليم كتباً . منها ما وجه إلى العمال . ومنها ما وجه إلى قواد الحرب . ومنها ما وجه إلى عامة الناس ، وأقل ماتوصف به هذه الكتب أنها تصور السياسة التى كان عثمان يريد أن يأخذ بها المسلمين والتى أخذهم بها صدراً من خلافته : فيما يقول المؤرخون . فمن حق هذه الكتب أن تروى ؛ وأن نقف عندها وقفة ما ؛ لنتبين إلى أى حد تم عثمان ما رسم لنفسه فيها من خطة .

كتب إلى عماله فيما روى الطبرى فى أحداث سنة أربع وعشرين للهجرة يقول : « أما بعد . فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ؛ ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة . وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة لم يخلقوا جباة . وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة . فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء . ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا فى أمور المسلمين وفيما عليهم . فتعطوهم ما لهم وتأخذوهم بما عليهم ، ثم تثنوا بالذمة فتعطوهم الذى لهم وتأخذوهم بالذى عليهم . ثم العدو الذى تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء » . فهذا الكتاب الموجز اليسير الذى كتب أو أملى فى غير تكلف ولا تأنق ولا تمكير فى غير العدل الذى فرض على المسلمين ، يأمر العمال بخصال أربع : الأولى أن يكونوا رعاة ولا يكونوا جباة ؛ أى أن تكون غايتهم من الحكم الرفق بالمحكومين لا إغناء الحكومة ، ولا إرضاء حاجة الحاكمين إلى الغنى . يلح عثمان فى هذه الخصلة إلحاحاً شديداً فيكرر كلمتى الرعاة والجباة تكريراً يصور هذا الإلحاح . ولا غرابة فى ذلك ؛ فهو يريد أن يبين الغاية الأساسية التى قصد إليها الإسلام حين دفع العرب إلى الفتح . وهو الإصلاح قبل كل شىء . فليس الفتح الإسلامى كما قدمنا فتح غلب وتسلط ؛ وإنما هو فتح رعاية ورفق وإصلاح .

وعثمان يقرر أن الأئمة فى صدر هذه الأمة كانوا رعاة لا جباة ؛ وهؤلاء الأئمة هم النبى وأبو بكر وعمر . وهو يشفق بعد ذلك من أن يصبح الأئمة جباة لا رعاة ، فينقطع الحياء وتقوم مقامه القحة التى تضيع الحق وتدفع إلى الإصرار

على الباطل والاستهتار بالإثم . وتنقطع الأمانة ويقوم مقامها الغش الذى يضيع حقوق الأئمة والرعاة جميعاً ؛ ويشكك بعض الناس فى بعض ؛ ويسىء ظنون بعضهم ببعض ، ويقيم الأمر بينهم على المخادعة والرياء لا على المصارحة والإخلاص . وينقطع الوفاء ويقوم مقامه الغدر الذى يدفع الناس إلى شر لاآخر له ، وإلى أثرة منكرة ، فلا يرعى أحد لأحد حرمة ولا يرجو أحد لأحد وقاراً . ليس من شك فى أن هذا الهدى هو هدى النبى وصاحبيه .

الخصلة الثانية ليست إلا تفصيلا لما تقدم فيه عثمان إلى عماله . وهى رعاية العدل فيما يكون من الصلة بين المسلمين وبين أئمتهم وأمرائهم . فلا ينبغى أن يظلم المسلمون إرضاء للحكومة ، ولا ينبغى أن تظلم الحكومة إرضاء لعامة المسلمين . وإنما ينبغى أن يؤخذ من المسلمين ما عليهم وأن يرد إليهم ما لهم . فلا ظلم فى الحكم ، ولا إسراف على الناس فى أخذ الصدقات وجباية الخراج . ولا تسلط على الناس فى أى أمر من أمورهم ؛ وإنما هو القسط الذى لا يضار فيه حاكم ولا محكوم .

والخصلة الثالثة هى الخصلة الثانية نفسها ؛ ولكنها تخص المعاهدين من أهل الذمة ؛ فهم كالمسلمين فى استحقاقهم للعدل ، لهم ما للمسلمين من حق . وعليهم ما على المسلمين من واجب . إذا نصحوا وأخلصوا وأوفوا بما عاهدوا عليه ؛ فلا ينبغى أن يؤخذ منهم أكثر من الحق فيظلموا ؛ ولا ينبغى أن يترك لهم أكثر من الحق فيقع الظلم على المسلمين .

والخصلة الرابعة تتصل بالعدو الذى يواجه عمال المسلمين فى أمصارهم ؛ وهى من أروع ما أوصى به الأئمة ؛ لم يبتكره عثمان من عنده . ولم يكن عثمان يحب الابتكار كما سترى ، وإنما اتبع فيه ما أنزل من القرآن فى سورة « براءة » وفى غيرها ، فهو يأمر عماله أن يستفتحوا عليهم ولكن بالوفاء . فليس لهم أن يغدروا حتى بالعدو ؛ وإنما عليهم أن يعرضوا الدعوة فإن أجابوا إليها فذاك : وإن يعرضوا الصلح فإن أجابوا إليه فذاك ، وإن لم يجيبوا أذنوا على سواء .

فهذه السياسة التى رسمها عثمان لعماله هى نفس السياسة التى نزل بها القرآن ورسمها الأئمة قبل عثمان لأنفسهم وللمسلمين . وكتب عثمان إلى عماله على الخراج : « أما بعد ، فإن الله خلق الخلق بالحق فلا يقبل إلا الحق . خذوا الحق وأعطوا الحق . والأمانة الأمانة ، قوموا عليها . ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم . والوفاء الوفاء ، ولا تظلموا اليتيم ولا المعاهد فإن الله خصم لمن ظلمهم » .

وهذا الكتاب الذى يمتاز بإيجازه الرائع يلح فيما ألح فيه الكتاب الأول ، ويحرص على ما حرص عليه . ولكنه يؤدى ذلك فى شىء من القوة والشدة لا نكاد نجدهما فى كتابه الأول . فالله قد خلق الخلق بالحق فهو لا يقبل إلا الحق ؛ فما ينبغى للأئمة والعمال إلا أن يتقربوا إلى الله بما يحب ؛ فيأخذوا الحق لا يزيدون عليه ولا ينقصون منه . ويعطوا الحق لا يضيفون إليه ولا ينحرفون عنه . وإذا لزموا الحق على هذا النحو . فأول ما يجب عليهم أن يرعوه إنما هى الأمانة فيما يجبون من الناس . وفيما ينفقون على مرافقهم . وفيما يؤدون بعد ذلك إلى الإمام لينفق فى المرافق العامة للدولة كلها . وعثمان يحذّر عمال الخراج من أن يكونوا أول من ينحرف عن الأمانة فيحملوا إثم انحرافهم عنها وإثم من يذهب بعدهم مذهبهم فى هذا الانحراف . ثم يأمرهم عثمان بعد الأمانة بالوفاء ، ويشدد عليهم فيه كما شدد عليهم فى الأمانة ؛ ثم ينهاهم عن ظلم اليتامى وأهل الذمة ؛ ويحذّرهم عقاب الله الذى هو خصم لمن ظلمهم .

وهذه السياسة أيضاً هى التى أنزلها الله فى القرآن وسار عليها النبى وصاحباه من بعده . فعثمان لا يزيد فى هذا الكتاب كما لم يزد فى الكتاب الأول على الوفاء بما بايع عليه عبد الرحمن بن عوف من كتاب الله وسنة رسوله وفعل أبى بكر وعمر . وكتب عثمان إلى أمراء الحرب فى الثغور : « أما بعد ؛ فإنكم حماة المسلمين وذادتهم . وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا بل كان عن ملأ منا . ولا يبلغنى عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم . فانظروا كيف

تكرهون ، فإنى أنظر فيما ألزمنى الله النظر فيه والقيام عليه » .

فانظر إلى ما فى هذا الكتاب من الشدة والحزم اللذين يلائمان ما ينبغى أن يكتب إلى أمراء الحرب . وانظر بنوع خاص إلى التزام عثمان سيرة عمر فيما رسم لأمراء الحرب من نظام؛ لأن عمر لم يرسم هذا النظام إلا عن ملأ من المسلمين من المهاجرين والأنصار. وقد حضر عثمان رسم هذا النظام وشارك فيه بالرأى والمشورة . وهو يعزم على الأمراء ألا يغيروا ولا يبدلوا مما رسم عمر شيئاً ، وينذرهم بالعزل والعقوبة إن غيروا أو بدلوا ؛ لأنه مكلف أن ينظر فيما ألزمه الله النظر فيه والقيام عليه . فعثمان إذن محافظ على سيرة عمر فى الإدارة وفى سياسة المال وفى سياسة الحرب . وهو كذلك محافظ على سياسة عمر فيما كان يأخذ به عامة المسلمين من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والتزام السنة الموروثة واجتناب التكلف والابتداع . يشهد بذلك كتابه الذى أصدره ليقرأ على الناس فى الأمصار والأقاليم وهو : « أما بعد ، فإنكم إنما بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتباع ؛ فلا تلفتنكم الدنيا عن أمركم ؛ فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم : تكامل النعم ، وبلوغ أولادكم من السبايا ، وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن . فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الكفر فى العجمة ؛ فإذا استعجم عليهم أمر تكلفوا وابتدعوا » .

فعثمان فى هذا الكتاب ليس أقل محافظة من عمر على السنة الموروثة ، وليس أقل تهيباً من عمر للابتداع والتكلف ؛ فهو ينبه المسلمين إلى أنهم لم يبلغوا ما بلغوا من سعة الفتح وضخامة السلطان إلا بالاقتداء والاتباع ، وهو يحذرهم من أن تلفتهم الدنيا عن أمرهم ، ويخاف عليهم ثلاثة أشياء : أن يبطرهم تكامل النعم وازدياد حظهم بين يوم ويوم من الرخاء وبسطة العيش ، وأن يفسد عليهم أمرهم بلوغ أولادهم من السبايا ؛ فهذا الجيل الناشئ الذى لم يخلص دمه للعرب وإنما امتزج بدمه العربى دم الأمهات الأجنبيات ، خليق أن يؤثر الابتداع والتجديد على الاقتداء والاتباع . الثالث أن يدخل على الدين ما ليس منه ، وأن يشاب

العلم السمح اليسير بالجهل والتكلف اللذين يأتيان من إقبال الأعراب والأعاجم على الإسلام وقراءتهم للقرآن . وعجزهم بعد ذلك عن أن يفهموا النص على وجهه، واضطرارهم بعد ذلك إلى التكلف والتزيد . وما أعرف أن أحداً صور الآفات التي تعرّض المسلمون لها بعد الفتح كما صورها عثمان في هذا الكتاب . فقد كثرت النعمة، فتعرّض المسلمون للبطر والأشر والطمع . ونشأ هذا الجيل المولد، فكان التكلف والابتداع والتجديد وركوب الأحداث العظام . وأقبل على الإسلام قوم لم يفقهوا القرآن على وجهه ، فكان الإسراف في التهاون من جهة ، والإسراف في التشدد من جهة أخرى، وضاع الحق أو كاد يضيع بين المتهاونين والمتشددين .

وهؤلاء العمال الذين كتب إليهم عثمان إنما كانوا عمال عمر أقرهم عثمان على أعمالهم عاماً بوصية من عمر نفسه . ولم يكن أرشد من هذه التوصية ولا أدنى منها إلى الحزم والرفق جميعاً . فقد أشفق عمر من أن يتعجل الإمام بعده الاستمتاع بالسلطان ، فيعزل ويولي ويقطع بذلك ما استأنف العمال من أعمالهم، ويضطرب لذلك أمر المسلمين في الأمصار والثغور . وقد أجاز عثمان هذه الوصية والتزمها ، وألزم العمال في عهده أو في العام الأول من عهده السياسة التي كان عمر يأخذهم بها ، وهؤلاء هم العمال الذين وجدهم عثمان على أعمالهم فاحتملهم عاماً كاملاً ، وعلق سلطانه في الولاية والعزل تعليقاً أثناء هذا العام .

فقد كان على مكة نافع بن عبد الحارث الخزاعي وهو غير قرشي كما ترى، وكان على الطائف سفيان بن عبد الله الثقفي وهو أيضاً غير قرشي ، والطائف مدينة ثقيف ، وعلى صنعاء يعلى بن منية وليس قرشياً صليبة وإنما هو حليف لبني نوفل ابن عبد مناف ، وعلى الجند عبد الله بن أبي ربيعة وهو قرشي من مخزوم ، وعلى الكوفة المغيرة بن شعبة وهو ثقفي ، وعلى البصرة أبو موسى الأشعري وليس قرشياً ولا مضرياً ولا عدنانياً ، وإنما هو يمني ، وعلى مصر عمرو بن العاص وهو قرشي من بني سهم ، وعلى حمص عمير بن سعد وهو أنصاري ، وعلى دمشق

معاوية بن أبي سفيان وهو قرشي من بني أمية ، وعلى فلسطين عبد الرحمن بن علقمة وهو كناني . وعلى البحرين وما والاها عثمان بن أبي العاص الثقفي .

فكثرة هؤلاء العمال كما ترى ليست من قريش ، وليس فيهم واحد من عدى رهط عمر . ولم يقصر عمر توليته على المضرية ولا على العدنانية ، وإنما اختار عماله من العرب الذين حسن إسلامهم وثبتت له كفايتهم ، وكان يراقبهم كما علمت في أمور الدين والدنيا جميعاً . فلم يكن للعصبية إذن أثرها فيما كان عمر يمارس من التولية والعزل .

وقد وجد عثمان هؤلاء العمال على أمصارهم وولاياتهم ، ووجد الوصية بإبقائهم في مناصبهم ، ففعل ولم يباشر تولية ولا عزلاً في العام الأول من خلافته ، ولكنه باشر ما عدا ذلك من شئون السلطان العامة . وأول ما فعل من ذلك ، بعد القضاء في أمر عبيد الله بن عمر والهرمزان ، وبعد إصدار ما أصدر من الكتب إلى عمال الصلاة والخراج والحرب وإلى عامة المسلمين ، زيادته في أعطيات الناس ؛ فقد زاد الناس في أعطياتهم مائة مائة ؟ ولم يكن قد طرأ ما يوجب هذه الزيادة بين موت عمر واستخلافه ، أى في أيام لا تكاد تبلغ الأسبوع . فقد أراد عثمان بهذه الزيادة إذن أن يستهل خلافته بالتوسعة على الناس . ولست أدرى أكان عثمان خليقاً أن يفعل هذا وأن يحمل بيت المال هذه النفقات يقتطعها من الإنفاق على المرافق العامة دون أن يطرأ على الناس ما يزيد حاجتهم إلى رفع العطاء ، أو دون أن يطرأ على بيت المال من الدخل ما يدعو الخليفة إلى أن يوسع على الناس من فضوله .

وأقل ما توصف به هذه الزيادة أن فيها شيئاً ولو يسيراً من الانحراف عن سياسة عمر في الإبقاء على بيت المال ، وفي ألا ينفق منه إلا بمقدار الحاجة إلى الإنفاق . وقد يكون في هذه الزيادة ما يكاد يشعر بأن عثمان كان يرى تشدداً في سياسة عمر المالية ، وكان ينكر هذا التشدد فيما بينه وبين نفسه ، وكان يرى أن في بيت المال ما يسع الناس أكثر مما وسعهم أيام عمر ؛ فهو نقد غير مباشر لسيرة عمر في سياسة بيت المال .

وما لنا لا نسمى الأشياء بأسمائها ولا نقول إن عثمان قد تقرّب بهذه السياسة الجديدة إلى عامة الناس . وتقرب إليهم على حسابهم : فبيت المال لم يكن بيت مال الخليفة، وإنما كان بيت مال المسلمين . وواضح جداً أن عثمان لم يتجاوز حقه فى ذلك . فما دام المسلمون قد عرفوا للخليفة الحق فى أن يفرض لهم العطاء ، فهم يعرفون له الحق فى أن ينقص هذا العطاء إن اقتضت سياسة بيت المال نقصه . وأن يزيد هذا العطاء إن وجد فى بيت المال سعة . ولكن من الواضح أيضاً أن هذه الزيادة من العطاء قد فتحت باباً لم يكن إلى إغلاقه من سبيل ، فما دام الخليفة يستطيع أن يوسع على الناس فالتوسعة على الناس لا حد لها . وهو إذا وسع على عامة الناس اليوم فقد يستطيع أن يوسع على خاصتهم غداً . وما هى إلا أن ينشأ الإيثار وتكون المحاباة ، وينشأ فى أثرهما التنافس والتزاحم والتطامع إلى أموال العامة . وقد كان عثمان سخيّاً بماله ينفق منه بغير حساب فى سبيل الله ، وينفق منه بغير حساب فى صلة الرحم وبر الأصدقاء . وليس عليه فى ذلك حرج ولا جناح ، بل له فى ذلك ثواب الله وحسن جزائه . ولكن مال عثمان لم يكن يسع عامة الناس فلم يكن يستطيع أن يزيد عطاءهم من صلب ماله ، فليزد عطاءهم من أموالهم ؛ وليفتح على نفسه وعلى الناس باباً يعرفون كيف يدخلون منه ؛ ولكنهم لا يعرفون كيف يخرجون .

فليس صحيحاً إذن أن عثمان قد لزم سيرة عمر لزوماً دقيقاً فى الصدر الأول من خلافته ؛ فليس فى زيادة العطاء فجاءة — لا لشىء إلا لأنه تولى الخلافة — لزوم سيرة عمر . وطبيعى ألا ينكر الناس على عثمان زيادته فى أعطياتهم ؛ فهو قد برّهم بهذه الزيادة ووسع عليهم فى الرزق . والناس لا يكرهون أن يزاد حظهم من الخير ، بل طبيعى أن يتنفس الناس الصعداء حين يتولى عثمان أمورهم ويبدأ خلافته بزيادة العطاء . فيعفيهم من شدة عمر ، ويأخذهم بالسعة ، لا أقول بعد الضيق — فلم يكن عمر يضيق على المسلمين فى العطاء — وإنما أقول يأخذهم بالسعة الواسعة بعد أن كان عمر يأخذهم بالسعة المقتصدة . وقد كان عمر

يتمثل فيما يظهر فى كل لحظة من لحظات حياته هذه الآية الكريمة من القرآن : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً ».

ثم لم يكتف عثمان بزيادة العطاء . وإنما وفد الأمصار لأول مرة فيما يقول المؤرخون . ومعنى ذلك أنه دعا الأمصار إلى أن توفد إليه وفودها للعطاء والإجازة . فكان هذا توسعاً فى الإنفاق لم يكن عمر يعمد إليه أو يفكر فيه . وكان عمر قد جعل للناس من أهل المدينة عطاء خاصًّا : درهماً درهماً فى كل يوم من أيام الصوم ، ولأزواج النبى درهمين درهمين ، يوسعون بها العطاء على أنفسهم وعلى عيالهم ، وفضل عمر ذلك على إطعام الناس على الموائد العامة ؛ إذ رأى فى خطته تلك رعاية لكرامتهم وتيسيراً لهم فيما يحبون من البر بمن يعولون . فلما استخلف عثمان وأقبل شهر الصوم أجرى العطاء الذى كان يجريه عمر ، ولكنه مد الموائد بعد ذلك للطارئين وذوى الحاجة .

وما من شك فى أن هذا إمعان فى البر والرفق . ولكن ما من شك أيضاً أن فى هذا إطماعاً للناس فى الأموال العامة ، وإغراء لكثير منهم بالتزيد فى الانتفاع بهذه الأموال . فليس كل الناس قادراً على أن يتعفف فلا يغشى الموائد العامة إلا حين لا يكون له من غشيانها بد . بل إن كثيراً من الناس لا يكرهون أن يضيفوا عطاء الصوم إلى عطائهم العام ثم يغشون بعد ذلك الموائد العامة فيطعمون كما يطعم الطارئون وذوو الحاجات .

كل هذا كان توسعة من عثمان على الناس قد يكون فيها الخير ، ولكنها لا تخلو من بعض ما يخاف على السياسة والأخلاق جميعاً . ثم هى لا تخلو مما يدعو إلى شىء من سوء الظن بل من سوء الحديث ، فمن ذا الذى كان يستطيع أن يمنع النقاد من أن يقولوا لأنفسهم ويقولوا للناس إن فى هذه التوسعة نوعاً من أنواع الإذاعة يتحبب بها الإمام إلى رعيته ليكتسب قلوبهم بهذا السخاء ؟

على أن سخاء عثمان لم يقف عند هذا الحد ؛ إذ لم تكد الأيام تتقدم بخلافته حتى أخذ يصل الأعلام من أصحاب النبى بالصلات فوق ما كان لهم من العطاء

المفروض . فهو - فيما يروى ابن سعد ، قد وصل الزبير بن العوّام بستمائة ألف ، ووصل طلحة بمائتى ألف ونزل له عن دين كان عنده . ويقول ابن سعد إن الزبير حين قبض هذه الصلة جعل يسأل عن خير المال ليستغل صلته ، فدل على اتخاذ الدور فى الأمصار والأقاليم .

ولم يقف عثمان عند هذا الحد من تجاوز سيرة عمر فى سياسته العامة ، وإنما خالف عن هذه السيرة مخالفة أشد من هذا كله خطراً ، فأذن لكبار الصحابة فى أن يتفرقوا فى الأرض ويخرجوا من الحجاز ويلموا بالأقاليم ؛ وكان عمر يحبسهم فى المدينة ويأبى عليهم الخروج إلى الأقاليم إلا بإذن خاص منه . وكان يقول إنه واقف لقريش بشعاب الحَرّة فآخذٌ بحجزها فحائل بينها وبين الفتنة. فقد ألغى عثمان هذا الحجر .

وإذا زاد عثمان فى العطاء ، ثم تجاوز ذلك إلى الجوائز والصلات ؛ ثم أذن لأصحاب هذه الجوائز والصلات أن يتفرقوا فى الأرض ويتصلوا بالجند الغالبين وبالرعية المغلوبين ، فأى غرابة فى أن يعظم ثراء هؤلاء الناس من جهة ، ويكثر أتباعهم وأشياعهم من جهة أخرى . ويصبح كل واحد منهم رئيس حزب من الأحزاب يراه أحق الناس بولاية أمور المسلمين ، وينتهز الفرصة ليمكنه من ولاية أمور المسلمين ؟

ما عسى أن يكون مصدر هذا الانحراف عن سيرة عمر وأبى بكر فى العمل بعد أن التزمها عثمان فى كتبه التى رويناها آنفاً ؟ الشىء المحقق هو أن عثمان لم يدهن فى دينه . والشىء المحقق أيضاً هو أن عثمان لم ير فى سياسته تلك مخالفة خطيرة أو غير خطيرة لسيرة الشيخين ؛ فهو لم يتعمد الجور ولا المحاباة ، وإنما وسع على الناس من أموالهم ، رأى فى بيت المال غنى فآثر الناس به ولم يغلُ فى الادخار . وأى حرج فى أن يصل أصحاب النبى بشىء من هذا المال قليل أو كثير وهم أئمة الإسلام وبناة الدولة وأصحاب البلاء الحسن أيام النبى ، وهم قد احتملوا من الشدة والحرمان شيئاً كثيراً ؛ وقد صدق الله وعده وأكثر الخير ، فأى

الناس أحق من هؤلاء المهاجرين أن يستمتعوا بشيء من هذا الخير الكثير !

نعم ! لم يشكّ عثمان فى أنه لم يخالف عن السنة المأثورة . وإنما جرى على طبعه السخى من جهة ، ووسع على المسلمين من جهة أخرى . ووصل أصحاب رسول الله من جهة ثالثة . وليس فى شيء من ذلك مأثم ، وإنما هو الخير والبر والمعروف .

ولم ير الناس — فيما يظهر — بشيء من ذلك بأساً ، خيرٌ جاءهم فلم يكرهوه ولم يردّوه . وليس منهم من يرى بأساً بأن يوصل السابقون الأولون من المهاجرين وذوو المكانة من أصحاب النبي . وأحسب أن عثمان لو وقف عند هذا الحد من السخاء والتوسعة على الناس وإجزال الصلات للأعلام من أصحاب النبى لما أنكر الناس عليه شيئاً . وهذا هو السر الذى يفسر ما يقول المؤرخون مجمعين عليه غير مختلفين فيه من أن الصدر الأول من خلافة عثمان كان صدر رضا وطمأنينة ، ومن أن المسلمين أحبوا خلافة عثمان للينها ويسرها وسخائها وإسماحها أكثر مما أحبوا سياسة عمر لشدتها وقسوتها وحزمها الذى كان يحتاج إلى كثير من الصبر وحمل النفوس على ألا تطيق إلا بالجهد والعنف العنيف .

وقد يكون من الخير أن ندع عثمان فى العام الأول أو فى الأعوام الأولى من خلافته يباشر سياسته هذه اليسيرة السمحة التى حببته إلى الناس ، وأن ننظر إلى هؤلاء الناس الذين تألفهم عثمان بهذه السياسة الرقيقة الرفيقة ، لنرى أكان من الممكن أن يتألفوا بهذه السياسة دون أن ينتهى أمرهم إلى الاختلاط والانتشار .

٦

تحدّث الطبرى عن السرّى عن شعيب عن سيف عن عمارة بن القعقاع عن الحسن البصرى قال : « كان عمر بن الخطاب قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج فى البلدان إلا بإذن وأجل . فشكوه ، فبلغه فقام فقال : ألا إنى قد سننت الإسلام سنّ البعير ، يبدأ فيكون جذعاً ثم ثنياً ثم رباعياً ثم سديساً بازلاً . ألا فهل ينتظر بالبازل إلا النقصان ، ألا فإن الإسلام قد بزل . ألا وإن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده . ألا فأما وابن الخطاب حىّ فلا ، إنى قائم دون شعب الحرّة آخذ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا فى النار » .

قال الطبرى متحدثاً عن السرى عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة قالا : « فلما ولى عثمان لم يأخذهم بالذى كان يأخذهم به عمر ، فانساحوا فى البلاد . فلما رأوها ورأوا الدنيا ورآهم الناس . انقطع من لم يكن له طول ولا مزية فى الإسلام فكان مغموراً فى الدنيا وصاروا أوزاعاً إليهم وأملوهم وتقدموا فى ذلك ، فقالوا يملكون فنكون قد عرفناهم وتقدّمنا فى التقرب والانقطاع إليهم ، فكان ذلك أول وهن دخل على الإسلام وأول فتنة كانت فى العامة ليس إلا ذلك » .

وتحدث الطبرى أيضاً عن السرى عن شعيب عن سيف بن عمر وعن الشعبى قالا : « لم يمت عمر رضى الله عنه حتى ملته قريش وقد كان حصرهم بالمدينة فامتنع عليهم ، وقال : إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم فى البلاد . فإن كان الرجل ليستأذنه فى الغزو وهو ممن حبس بالمدينة من المهاجرين — ولم يكن فعل ذلك بغيرهم من أهل مكة — فيقول : قد كان لك فى غزوك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبلغك . وخير لك من الغزو اليوم ألا ترى الدنيا

ولا تراك . فلما ولى عثمان خلى عنهم فاضطربوا فى البلاد وانقطع إليهم الناس ؛ فكان أحب إليهم من عمر »[١] .

فنريد أن نبدأ من رعية عثمان بقريش ؛ وأن نترجم إلى لغتنا الحديثة ما روى من سيرة عمر فيها . فعمر لم يخف الفتنة من أحد كما خافها من قريش ؛ ولم يخف الفتنة على أحد كما خافها على قريش ؛ لأنه كان يعرف هذا الحى من العرب حق المعرفة ؛ وكان يعرف بنوع خاص مواطن القوة القوية فيه كما كان يعرف مواطن الضعف الضعيف . فقد كانت قريش التى نشأ فيها عمر قبل أن تدعى إلى الإسلام ممتازة بالقوة والضعف جميعاً . وكانت قوتها تأتيها من مكانها حول البيت ، واستئثارها بمناسك الحج تقيمها للعرب وتتسلط عليهم بها وتتحكم عليهم فيها ؛ وترى لنفسها بذلك امتيازاً لا يشاركها فيه غيرها من الناس ؛ فهى تزعم لنفسها أرستقراطية متفوقة ، وقد اعترف لها العرب بهذه الأرستقراطية فى جملتهم . لا لتفوقها فى الحرب ولا لتسلطها بقوة السيف . فلم تكن قريش قبيلة محاربة ؛ بل لاستئثارها بأمر الدين وامتيازها فى الجليل والخطير منه . ثم كانت القوة تأتيها من تجارتها الضخمة التى تفوقت على كل تجارة فى العرب أو التى تسلطت على كل تجارة فى العرب . أتاح لها ذلك أمنها فى الحرم واستقرارها حول البيت . ومنحها ذلك من الذكاء والدهاء ونفاذ البصيرة وبعد الهمة ما لم يتح لغيرها من قبائل العرب لا نستثنى منها إلا ثقيفاً . فقد كانت قريش صلة بين الشرق البعيد والشرق القريب فى التجارة ، وكانت بذلك صلة بين الشرق والغرب ، أو قل بين الروم والهند . وقد أفادت من ذلك مالاً كثيراً ، وأفادت من التجربة أكثر مما أفادت من المال . وعلمتها كثرة المال الحرص وحسن المحافظة ودقة التدبير والبراعة فى الاستثمار . وعلمتها التجربةُ المتصلة وممارسة الأمم المختلفة وزيارة الأقطار النائية مهارةً فى مواجهة المشكلات والنفوذ منها والتغلب عليها ؛ فكانت قبيلة ماهرة ماكرة أمكر العرب وأمهرهم من غير شك .

---

(١) تاريخ الطبرى فى أحداث سنة خمس وثلاثين .

وقد دفعها هذا كله إلى بعد الهمة وامتداد أسباب الطمع إلى غير حد ، والصبر على المكروه حتى تظهر عليه ، والسخر من العقاب حتى تذللها . بل دفعها هذا كله إلى ما هو أشد من ذلك خطراً . وهو ازدراء القيم المقررة ، والاستهزاء بما تواضع الناس عليه من العقائد والتقاليد ، واستباحة كل شيء في سبيل المنفعة القريبة والبعيدة ، وسعة الحيلة التي أتاحت لها أن تظهر للعرب أمينة على الدين ، وليست من الدين في شيء . فقد كان السادة من قريش على أقل تقدير ينظرون إلى الدين على أنه وسيلة لا غاية ، وإلى هذه الأوثان المصوبة على أنها أسباب لكسب الرزق وبسط السلطان لا أكثر ولا أقل . وكان السيد من قريش رجلاً أثراً شديد الطمع بعيد الهم عظيم المكر داهية . كلما حزبته المشكلات عرف كيف يستقبل ما حزب من الأمر ، وكيف يخرج منه سالماً معافى موفوراً .

عرف عمر هذا كله في قريش : فلم تستطع أن تخدعه عن نفسها ، بل لم يستطع إقبالها على الإسلام وإذعانها لسلطانه أن يغيرا رأيه فيها . وهو من أجل هذا آثر الاحتياط كل الاحتياط في سياستها ؛ فلم يلن لها ولم يرفق بها ، ولم يخل بينها وبين طمعها الشديد ، وهمها البعيد واعتدادها بنفسها ، وازدرائها لغيرها من الناس .

ولعل عمر أن يكون قد عرف للمهاجرين ما عرف لهم رسول الله من الفضل ، فأنزلهم منازلهم ، واختصهم بكثير من عنايته ورعايته ، ولكن هذا كله لم يدفعه إلى الاطمئنان والهدوء والتخلية بين هؤلاء المهاجرين وبين ما كانوا يريدون حين استخلف على أمور المسلمين وليس أدل على ذلك من سيرته هذه في قريش وقيامه عند شعب الحرة آخذاً بحلاقيمها وحجزها أن تتهافت في النار ، وقوله لمن كان يستأذنه في الغزو من المهاجرين : لقد كان لك في غزوك مع رسول الله ما يبلغك ، وخير لك من الغزو ألا ترى الدنيا ولا تراك . وربما كان من أدل الدلائل على ذلك ما كان من شدته على خالد بن الوليد رحمه الله وعزله إياه ومراقبته له ، مع ما أبلى خالد من البلاء الحسن أيام النبي وأيام أبي بكر في حرب العرب والروم جميعاً . ليس لهذا مصدر إلا علمه بقريش وسوء ظنه بحسن استعمالها لما أبيح لها من قوة .

وبحسن انتصارها على ما فرض عليها من ضعف . فقد كانت هذه القوة التي صورناها مصدر ضعف لقريش ؛ لأنها كانت تدفعها إلى أن تغالى بنفسها فتتورط فى الكبرياء ، ولأنها كانت تدفعها إلى حب المال والحرص عليه فتتعرض لأخذه بغير حقه ، ولأنها كانت تدفعها إلى إيثار أنفسها بالخير فتتعرض للانهزام أمام المنافع العاجلة وأمام اللذات القريبة التي لا تخلو من الإثم أحياناً . وكانت تدفعها إلى الطمع الذى لا حد له فتعرّضها لتجاوز الحد والطموح إلى ما لا ينبغى الطموح إليه ، كما تعرضها للظلم والاستعلاء . وإذا أشفق عمر من هذا كله بالقياس إلى المهاجرين الذين طالت صحبتهم للنبي وحسن بلاؤهم فى المواطن كلها ، فأحرى أن يشفق منه بل أن يشفق من أكثر منه بالقياس إلى من أسلم بأخرة من قريش ، من هؤلاء الشيوخ والفتيان الذين لم يسلموا عن رغبة ولا عن رضا ، وإنما أسلموا إما طمعاً حين تبينوا أن كفة الإسلام راجحة ، وإما قهراً حين دُخلت عليهم مكة من أقطارها . وأولئك وهؤلاء لم ينظروا إلى الإسلام على أنه دين يتصل بالقلوب والضمائر ، وترعى فيه حرمات الله وحقوقه ، وإنما نظروا إليه على أنه صفقة خطيرة من تلك الصفقات التي كانوا يباشرونها ، ومغامرة جريئة من تلك المغامرات التي كانوا يغامرونها داخل بلاد العرب وخارجها . وقد ذكروا حين أسلموا أو حين هموا بالإسلام أن النبي كان قد وعد قريشاً حين دعاها إلى الدين الجديد ملك الدنيا وحسن ثواب الآخرة . ففكروا جميعاً فى ملك الدنيا ، وفكر بعضهم فى ثواب الآخرة ، ودفعهم هذا التفكير إلى أن يسلموا . ثم إلى أن يحتملوا من أثقال الجهاد والفتح ما احتمل غيرهم من الناس أو أكثر مما احتمل غيرهم من الناس .

وأراد كثير منهم عن نية صادقة أو غير صادقة أن يعوضوا بحسن البلاء فى الفتوح ما فاتهم من حسن البلاء مع النبي فى غزواته . ومن أجل ذلك لم يبطئوا حين دفعت العرب إلى الفتح ، وإنما نفروا خفافاً وثقالاً ، كثير منهم يريدون عرض الدنيا ، وقليل منهم يريدون الآخرة . وكان زعماؤهم وسادتهم يحسون أنهم الطلقاء ، وأنهم أقل درجة من الذين سبقوا إلى الإسلام وأبلوا فيه بلاء حسناً ؛

فكان ذلك يغيظهم ويحفظهم ويشعرهم بشيء يشبه ما نسميه تعقيد النقص أو مركب النقص . ثم كانوا يعرفون رأى عمر خاصة فيهم ، فكان ذلك يغيظهم من عمر . ويدعوهم إلى أن يحسنوا البلاء فى الجهاد ، ليظهروا لعمر أن رأيه فيهم جائر عن القصد ، وليظهروا ذلك للناس ، وليظهروا ذلك لأنفسهم قبل أن يظهروه للناس .

وهذا هو تأويل ما روى من أن خالد بن الوليد أتى بعكرمة بن أبى جهل ، وقد صرع فى يوم من أيام الشام . فوضع رأسه على فخذه وجعل ينظر إليه ويقول : زعم ابن حنتمة أننا لا نستشهد ، وابن حنتمة هو عمر .

كان عمر إذن يسوس قريشاً هذه السياسة العنيفة على علم بدخائل نفوسها . وبعد همها وحرصها على الاستمساك بما بلغت والوصول إلى ما لم تبلغ ، حتى ولو خاضت إليه الغمرات خوضاً . وقد روى أن النبى رخص لعبد الرحمن بن عوف فى لبس الحرير لحكة كانت به فيقبل عبد الرحمن ذات يوم على عمر ومعه فتى من بنيه قد لبس قميصاً من حرير ، فينظر إليه عمر ثم يقول : ما هذا ؟ ثم يدخل يده فى جيب القميص فيشقه إلى أسفله . قال عبد الرحمن : ألم تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رخص لى فى لبس الحرير ؟ قال عمر : بلى ! لشكوى شكوتها ، فأما لبنيك فلا .

وعلى هذا النحو كان عمر يشفق على المهاجرين أن يتوسعوا فيما رخص لهم فيه النبى ، ويشفق على غير المهاجرين من قريش أن يتوسعوا حتى فيما لم يرخص فيه النبى . وقد قام عمر دون معاوية يأبى عليه غزو البحر إشفاقاً على المسلمين من هوله . وأكبر الظن أنه كان يرى غزو البحر هذا الذى كان معاوية يلح فيه مغامرة من هذه المغامرات التى لا تتردد قريش فى ركوبها ، كان يرى أن الحق عليه للمسلمين أن يجنبهم مغامرات فتيان قريش . وقد قدمت أن خلافة أبى بكر أتاحت لقريش أرستقراطية مفاجئة جديدة عوضتها من أرستقراطيتها القديمة ، فكان عمر يشفق من هذه الأرستقراطية ويضرب لها الحدود ، ويأبى أن تندفع إلى غير مدى.

هؤلاء بعض الرعية التى ابتلى عثمان بولاية أمرها . وكان على عثمان أن يسلك إحدى سبيلين لا ثالثة لهما : فإما أن يشتد كما اشتد عمر فيمسك زعماء المهاجرين فى المدينة ، ويظهر لعامة قريش ما كان يظهر لها عمر من سوء الظن بها . ويقف فتيان قريش وكهولهم كما كان يقفهم عمر عند حدود لا يتعدونها ، ويجعل أمور الحكم والولاية كما كان يجعلها عمر شائعة بين العرب بل بين المسلمين ، لا ينهض بها منهم إلا القادرون على احتمال أعبائها ؛ وإما أن يلين فيخلى بين قريش وبين الطريق تمضى فيها إلى غير غاية ، لا حد لطمعها ولا لجشعها ولا لمغامراتها ولا لإيثارها نفسها بالخير . وسنرى أن عثمان قد اختار الثانية راضياً عنها أو مكرهاً عليها .

الفريق الثانى من رعية عثمان الأنصار . ومكانهم فى الإسلام معروف ، وثناء الله عليهم فى القرآن محفوظ ، وأمر النبى برعايتهم موروث . وقد رأيت أن الخلافة قد صرفت عنهم حين روى أبو بكر أن الإمامة فى قريش . وأن أبا بكر قال لهم : نحن الأمراء وأنتم الوزراء ، وقد كان أبو بكر يستشيرهم كما يستشير غيرهم من المهاجرين ، وكان عمر يستشيرهم كذلك . ولم يقصر عثمان فى استشارتهم . ولكن هؤلاء الأئمة الثلاثة إنما كانوا يستشيرون أصحاب النبى من الأنصار ، فأما الشباب الناشئون الذين لم يكن لهم خطر يذكر أيام أبى بكر وقد أخذوا يعقلون أنفسهم أيام عمر ، ثم عرفوا أنفسهم حق معرفتها أيام عثمان — فلم يكن لهم شأن يميزهم من سائر الناس . وقد سن عمر فى تولية الولاة واستعمال العمال ألا يلتمسهم عند قريش وحدها ، وإنما يلتمسهم فى العرب كافة . وكان خليقاً لو عاش أن يظهر لهؤلاء الشباب من أبناء الأنصار أنهم كغيرهم من الناس لا تقصر الدولة بهم عن بعض حقهم ، وعن حقهم فى الولاية والحكم خاصة . وما من شك فى أن شيوخ الأنصار وذوى المكانة منهم قد أخلصوا الرضا برأى أبى بكر وبسيرة عمر . ولكن ما من شك فى أن عامة الأنصار والشباب منهم خاصة قد ضاقوا بهذه الأرستقراطية القرشية الجديدة . وهم الذين ضربوا قريشاً على الإسلام فى بدر ،

وهم الذين دخلوا مع المهاجرين مكة من أقطارها . وكان يعزيهم عن هذا أن عمر كان يشتد على قريش ولا يؤثرها بشيء من دون المسلمين . فكان موقف الأنصار بعد أن استخلف عثمان رهيناً بسيرة الخليفة فى قريش ؛ فإن سار فيها سيرة عمر نال الأنصار حظهم من شئون الدنيا كما يناله غيرهم من سائر المسلمين ، وإن آثرهم وحاباهم عرف الأنصار أنها الأرستقراطية الجامحة المستأثرة ، وأن مكانهم من قريش مكان المغلوبين لا مكان الذين يشاركونهم فى غير الإمامة من الأمر شركة سواء . وسترى أن عثمان آثر قريشاً راضياً أو كارهاً ، وأن إيثاره لقريش وقع من نفوس الأنصار موقعاً أليماً كان له أثره الخطير فى الفتنة ، ثم فيما استتبعته الفتنة من الأحداث .

الفريق الثالث فى رعية عثمان عامة العرب ، أولئك الذين أسلموا طوعاً أو كرهاً ، ثم دفعهم أبو بكر وعمر إلى الفتح فبلغوا منه ما بلغوا ، ثم استقروا فى أمصارهم وثغورهم ردءاً للمسلمين يذودون عنهم العدو من جهة ، وجنداً للمسلمين يفتحون عليهم أرض العدو من جهة أخرى ؛ وهؤلاء العرب قد وعدهم الإسلام المساواة التامة بينهم ، لا فضل لأحد منهم على آخر إلا بالتقوى والكفاية وحسن البلاء .

وهم بعد هذا مادة الإسلام كما كان عمر يقول ، وهم الذين فتحوا الأرض ، وأذلوا العدو ، ونشروا دين الله فى الآفاق ؛ فلهم بهذا كله الحق فى ألا يستأثر بالأمر من دونهم أحد . ثم هم بعد هذا كله حديثو عهد بالإسلام وقريبو عهد بالجاهلية ، لم ينسوا ما كان بينهم من خصومة وعصبية وتفاخر وتكاثر بالأحساب والأنساب ، وقد أضافوا إلى مفاخرهم التى حفظوها عن جاهليتهم مفاخر جديدة أعظم منها خطراً وأرفع منها شأناً . فالسياسة الملائمة لهؤلاء الناس هى التى تنسيهم عصبيتهم الجاهلية أولاً ، وتنشئهم تنشئة إسلامية خالصة ثانياً ، وتصدق لهم ما وعدهم الله من المساواة بينهم والعدل فيهم . وقد سلك عمر هذه الطرق كلها . فقاوم العصبية ما وسعته مقاومتها حتى أخاف الشعراء الذين كانوا يذكرون مآثر الجاهلية فيما

كانوا ينشئون ويتناشدون ، وجعل فى الأمصار معلمين من أصحاب النبى يقرئون أهلها القرآن ويبصرونهم بالسنة ويفقهونهم فى الدين ، وينشئونهم هذه التنشئة الإسلامية الخالصة . ثم لم يميز منهم فريقاً على فريق ، ولم يؤثر بأمور السلطان منهم حيًّا دون حى ، وإنما أشاع فيهم المساواة والعدل الحازم . واختار ولاته من مضر وربيعة واليمن ، وراقب هؤلاء الولاة جميعاً أشد المراقبة . وقد رأيت فيما رويناه من كتب عثمان أنه قد أخذ نفسه وولاته فى هذه الكتب بسيرة عمر . ولكنك سترى أن وصية عمر بإقرار العمال على أعمالهم عاماً ، لم تكد تبلغ أجلها حتى أقبل عثمان على سياسة أخرى راضياً عنها أو مكرهاً عليها ، وإذا قريش تميز من العرب وتسلط عليهم ، وتستأثر من دونهم بأجل الأمصار خطراً وأرفع المناصب شأناً .

الفريق الرابع من رعية عثمان هم هؤلاء المغلوبون من أهل البلاد التى فتحت على المسلمين . والسنة الإسلامية فى سياستهم معروفة ، وهى أن يؤخذوا بما عليهم من الحق ، فإن أدوه فلهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين . وقد عرف عثمان هذه السيرة وأخذ نفسه وولاته بها فيما روينا من كتبه آنفاً .

ولم يظهر أثناء خلافته لأهل الذمة شأن فيما كان من الاختلاف ، لا لأن السياسة المرسومة قد اتبعت فيهم ولم يكن عنها انحراف ، بل لأنهم كانوا مغلوبين لم يتح لهم بعد أن يشاركوا فى السياسة مشاركة ذات خطر ، وإلا فقد نحب أن نفهم ما كان بين عثمان وعمرو بن العاص من الحوار ذات يوم حين قال عثمان لعمرو : « قد درّت تلك اللقاح بعدك يا عمرو » . فأجابه عمرو : « نعم وهلكت فصالها » . فليس لهذا الحديث إلا معنى واحد وهو أن خراج مصر قد عاد على بيت المال أيام ابن أبى سرح بأكثر مما كان يعود به أيام عمرو بن العاص ، هذا معنى ما قال عثمان ، وأن زيادة الدخل هذه لم تأت إلا عن إرهاق المعاهدين من أهل الذمة أيام ابن أبى سرح ، هذا ما أراد إليه عمرو بن العاص . وليس من هذا مخرج إلا إحدى اثنتين : الأولى أن يكون عمرو بن العاص قد كان يحتجز لنفسه شيئاً من الخراج دون بيت المال . الثانية أن ابن أبى سرح كان

يأخذ من المعاهدين أكثر من الحق . وكلا الأمرين شر . ثم لا يقف الأمر فى سياسة الرعية عند هذه الحدود التى رسمناها ؛ فقد كان عمر شديداً على قريش كلها يسوى بينها وبين العرب لا يميزها منهم ، ثم لا يميز حيًّا من أحيائها على غيره . ولم يستطع عثمان أن يحتفظ بهذه المساواة . فآثر قريشاً من دون العرب عن عمد أو غير عمد . ثم لم يستطع أن يسوى بين قريش نفسها ، فآثر فريقاً منها على فريق راضياً بذلك أو كارها له . ويقال إن عمر قد خاف شيئاً من هذا الإيثار ، فتقدم إلى عثمان إن ولى أمور المسلمين فى ألا يحمل بنى أمية وبنى أبى معيط على رقاب الناس ، وتقدم إلى على إن ولى أمور المسلمين فى ألا يحمل بنى عبد المطلب وبنى هاشم على رقاب الناس . ولم يستطع عثمان أن يستجيب لعمر ، فحمل بنى أمية وآل أبى معيط على رقاب الناس ، ما فى ذلك شك . وقيل إن عليًّا نفسه حين ولى الخلافة لم يستجب لعمر ، فولى ثلاثة من بنى عمه العباس : البصرة ومكة واليمن ، حتى قال مالك الأشتر : ففيم قتلنا الشيخ إذن ! ولكنى على ذلك أفرق أشد التفرقة بين ما صنع عثمان وما صنع علىٌّ ؛ فقد لام علىٌّ نفسه عثمان فى أمر الولاة ، فاحتج عثمان بأن عمر قد ولى المغيرة بن شعبة الكوفة ، والمغيرة بن شعبة ليس هناك ، وبأن عمر قد ولى معاوية . فقال له علىٌّ : إن عمر كان يراقب ولاته ويخيفهم ، وإن ولاتك يستبدون بالأمر من دونك ، ويصدرون الأمر من عند أنفسهم ويحملونه عليك فلا تستطيع له تغييراً . فسيرة علىٍّ مع ولاته من بنى عمه هى سيرة عمر ، كان شديداً عليهم مراقباً لهم ، لا يتحرج من عزلهم إن قصروا أو انحرفوا دون أن يكرهه على هذا العزل أحد ، على حين لم يعزل عثمان والياً من بنى أمية وآل أبى معيط إلا حين أكرهته الأمصار على ذلك إكراهاً .

ومهما يكن من شىء فقد كانت رعية عثمان هى رعية عمر ، لم تكد تتغير إلا قليلا حتى تقدم الزمن بعثمان . وكانت سياسة عمر هى السياسة الوحيدة التى كانت تصلح لضبط هذه الرعية وتدبير أمرها وحملها على الجادة .

ولكن الناس كلهم لا يستطيعون أن يسيروا سيرة عمر ؛ لأنهم لم يركبوا كما

ركب ، ولم يتح لهم ما أتيح لعمر من هذه الشدة التي لا تعرف هوادة فى الحق ، ولا تأخذها فى العدل والمساواة لومة لائم . وكان عثمان نفسه يعرف ذلك حق المعرفة ! فكان مرة يقول لمحدثيه إذا حضروا طعامه اللين : ومن ذا يطيق ما أطاق عمر ! وكان مرة يقول للائميه فى صلة رحمه من بيت المال : ومن لنا بمثل عمر ؛ وكان مرة أخرى يقول لعاتبيه من فوق منبر النبي : لقد وطئكم ابن الخطاب برجله وضربكم بيده وقمعكم بلسانه ، فخفتموه ورضيتم منه بما لا ترضون منى ؛ لأنى كففت عنكم يدى ولسانى . فهناك فرق خطير بين الرجلين فى الطبيعة والمزاج وفى السن أيضاً ؛ ولكن هذا الفرق أو هذه الفروق لم تكن وحدها مصدر الشر والفرقة ، وإنما كان للشر والفرقة مصادر أخرى لم يكن عثمان يستطيع لها تغييراً . وسنرى بعض هذه المصادر فيما سنستأنف من الحديث .

٧

فلم يكد عثمان ينفق العام الأول من خلافته ويخرج مما التزم من وصية عمر بإقرار العمال عاماً على أعمالهم ، حتى باشر سلطته الطبيعية فى التولية والعزل . وكان فى مباشرته لهذه السلطة شىء من العجلة . وكثير مع ذلك من الأناة . فهو أولاً لم يلق بالاً إلى العمال الذين كانوا ينهضون بالأمر فى الولايات التى لم يكن لها خطر فى سياسة أو إدارة أو حرب ، وإنما ترك عمال عمر فى هذه الولايات : ولم يغير منهم إلا قليلاً حين دعت الحاجة إلى هذا التغيير . ولم يحتفل لهذا التغيير كثير احتفال : وإنما سارت فيه سيرة هينة سواء . وقد كانت الولايات تختلف فيما بينها اختلافاً شديداً ، لبعضها خطر فى السياسة والإدارة والحرب ، وهى الولايات التى فتحت على المسلمين ، واقتطع بعضها من الروم وغلب الفرس على سائرها . وكانت هذه الولايات الخطيرة أربعاً : الشام ومصر والكوفة والبصرة . وكانت أمام كل واحدة من هذه الولايات ثغور يجب أن تحمى ، ودار حرب يجب أن يمعن فيها المسلمون . فكان البحر وبلاد الروم نفسها أمام الشام ، وكان البحر وشمال إفريقية بإزاء مصر ، وكان ما فتح وما لم يفتح بعدُ من بلاد الفرس أمام المصرين العراقيين : الكوفة والبصرة . وكانت هذه الولايات الأربع موطن القوة الإسلامية ، فيها الجند المقيمون ، وبإزائها الثغور التى يقيم فيها ويخرج منها ويسعى إليها الجند المحاربون . وكانت هذه الولايات الأربع مصدر ثراء المسلمين ؛ فيها الحضارة المستقرة المترفة ، وفيها الأرض الخصبة التى تغلّ ما شاء الله أن تغل من الثمرات ، وتؤتى ما شاء الله أن تؤتى من الخراج . وفيها المعاهدون الذين يؤدون الجزية . ثم هى بعد ذلك وجوه الفتح ومصادره ؛ إليها تجلب الغنائم التى يغنمها الفاتحون فى كل عام . ومنها ترسل الأخماس إلى المدينة . فإذا

كان العرب مادة الإسلام ومصدر قوته العسكرية فقد كانت هذه الولايات مادة الإسلام ومصدر قوته المالية . فلا غرابة فى أن يعنى بها الخليفة عناية خاصة لا تقاس إليها عنايته بغيرها من الولايات التى لم يكن لها من الخطر والامتياز وارتفاع الشأن ما كان لهذه الولايات . فمكة والطائف واليمن ولايات لها مكانتها ولها قدرها ، ولكنها لا تواجه ثغوراً للحرب ، ولا تغلّ كثيراً من مال ؛ وليست هى مواطن القوة والأيد التى تعتز بها الدولة الناشئة .

كان لها خطرها العظيم قبل أن تفتح حين كان النبى يجدّ فى إخضاع بلاد العرب كلها للإسلام . فلما افتتحت وعُبد الله فيها وأمن الإسلام شرها ، أصبحت ولايات ثانوية بالقياس إلى تلك الولايات الجديدة التى تكلف المسلمون فى فتحها وتمصيرها من الأنفس والأموال والجهود ما لا يقاس إليه ما تكلفوا فى فتح تلك الولايات العربية الأولى .

ومن أجل ذلك كله نرى المسلمين إذا أرادوا أن يخرجوا من المدينة لم يفكروا فى الذهاب إلى مكة أو الطائف أو اليمن ؛ أو لم يفكر أكثرهم فى الذهاب إلى هذه البلاد . وإنما فكروا فى الذهاب إلى العراق أو الشام أو مصر . فى هذه البلاد كان الصالحون منهم يلتمسون ثواب الآخرة بالتزام الثغور والإمعان فى الفتح ، وكان المكتسبون منهم يبتغون عرض الدنيا ؛ يتاجر منهم من يتاجر ، ويزارع منهم من يزارع ، ويتقلبون فى ضروب الكسب والغنى على اختلافها .

وقد مات عمر وعلى الكوفة المغيرة بن شعبة الثقفى ، وعلى البصرة أبو موسى الأشعرى ، فأقرهما عثمان عامه الأول . فلما انقضى هذا العام عزل المغيرة عن الكوفة وولى عليها سعد بن أبى وقاص الزهرى عن وصية من عمر الذى تقدّم إلى الخليفة من بعده إن أخطأت الخلافة سعداً أن يستعين به ؛ قائلا : إنى لم أعزله عن خيانة . ولكن سعداً لم يقم فى الكوفة إلا عاماً وبعض عام حتى اضطر عثمان إلى عزله .

وقد تحدّث المؤرخون بأن عثمان قد اضطر إلى عزل سعد اضطراراً ، حدث

بينه وبين صاحب بيت المال عبد الله بن مسعود خلاف أغضب عثمان عليهما جميعاً ، فهمّ بهما ، ثم كف عنهما واكتفى بعزل سعد .

وكان أصل هذا الخلاف غريباً حقاً ، فقد قيل إن سعداً اقترض شيئاً من بيت المال وأعطى به على نفسه صكاً . فطلب إليه عبد الله بن مسعود أن يؤدى دينه . ولم يتيسر هذا المال لسعد ، فطلب النظرة إلى ميسرة ، وأبى ابن مسعود ، واستعان كل من الرجلين على صاحبه بجماعة من أهل الكوفة : يريد ابن مسعود أن يستعين بأصحابه على سعد ليؤدى دينه ، ويريد سعد أن يستعين بأصحابه على ابن مسعود لينظره إلى ميسرة . ثم يلتقى الرجلان ومع كل واحد منهما أصحابه . فيتلاحيان . ويهمّ سعد ، فيما يقول الرواة ، أن يدعو على ابن مسعود ، فيجزع ابن مسعود من ذلك ويولى مسرعاً لعلمه بأن النبي كان قد دعا الله أن يستجيب لسعد كلما دعاه . قال الرواة : إن سعداً رفع يديه وقال : اللهم رب السموات والأرض . فقال له ابن مسعود : ويلك ! قل خيراً . ثم ولى مسرعاً . وارتفع الأمر إلى عثمان فغضب عليهما جميعاً ، وهمّ بهما . ثم كف ، وعزل سعداً وأخذ منه ما كان عليه ، وترك ابن مسعود على بيت المال ، وأرسل إلى الكوفة والياً جديداً .

والرواة متفقون على هذه القصة ، ولكني أقف منها موقف التحفظ الشديد ؛ ففيها أمور تدعو إلى هذا التحفظ . فقد تقدم عمر إلى الخليفة من بعده أن يولى سعداً وقال إنه لم يعزله عن خيانة . وأيسر ما تصور لنا هذه القصة أن سعداً قد اقترض من بيت المال ثم التوى بدينه أو ماطل فى أدائه . وما هكذا يكون من اختاره عمر للشورى ورشحه للخلافة وتقدّم إلى الخليفة من بعده إن صرفت الخلافة عن سعد أن يستعين به . ولم يعرف أحد عن عمر أنه أمر أو نهى ليؤثر أحداً بخير من دون الناس ، وإنما أمر ونهى دائماً ليؤثر عامة المسلمين بالخير . فهو حين تقدم إلى الخليفة فى تولية سعد لم يكن يريد أن يرضى سعداً ولا أن يحابيه ولا أن يقدّمه على غيره من أصحابه ، وإنما نصح للخليفة وللمسلمين وأمرهم أن يستعينوا بكفاية سعد ، وبكفايته فى أمور الحرب خاصة . فلم تكن أمور بلاد

الفرس على خير ما يحب المسلمون . قد أزيل سلطانها جملة ولكن شوكتها لم تخضد بعد . فكسرى يزدجرد قد انهزم ، ولكنه لم يقتل ولم يؤسر ولم يخرج من بلاده ، وإنما هو مقيم فيها يتنقل بالفلول بين أقاليمها ومدنها ودساكرها . وفى هذه البلاد مدن كثيرة ، بعضها لم يصل إليه المسلمون بعد ، وبعضها قد صالح المسلمين ولكن على دخل ، فهو ينتهز الفرصة وينتقض كلما وجد إلى الانتقاض سبيلا ؛ فقد بدئ فتح بلاد الفرس وتقدم مسرعاً إلى غايته . ولكنه لم يبلغ هذه الغاية بعد . وسعد بن أبى وقاص هو بطل القادسية . وهو قاصم دولة الأكاسرة ؛ فليس غريباً أن يفكر فيه عمر ليتم من الفتح ما بدأ . وأكبر الظن أن عمر لو عاش لرد سعداً إلى الكوفة وأمره بالمضى إلى عدوه حتى يتم الله الفتح على يديه ؛ وسعد صاحب السابقة المعروفة فى الإسلام ، حتى إنه كان يقول : والله لو كنت أرانى ثلث الإسلام . يريد أنه أسلم بعد أبى بكر فكان ثالث ثلاثة ، أولهم النبى ، وثانيهم أبو بكر ؛ أو أنه أسلم بعد أبى بكر وزيد بن حارثة ؛ فكان ثالث ثلاثة سبقوا بالاستجابة إلى دعوة رسول الله ، وسعد ، فيما اتفق عليه الرواة والمحدثون ، أول من رمى بسهم فى سبيل الله حين خرج فى سرية عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب إلى بطن رابغ .

وسعد هو الذى فداه رسول الله بأبيه وأمه يوم أحد ، ولم يجمع لأحد بين أبويه غيره ، وذلك حين ثبت بين الذين ثبتوا مع رسول الله وجعل ينضح عنه بسهامه ، وكان أرمى الناس بسهم ، فكان النبى يقول له : « إرم سعد فداك أبى وأمى » . فمن أتيح له أن يكون ثالث ثلاثة فى الإسلام ، وأول رام بسهم فى سبيل الله ، وأن يفديه رسول الله بأبيه وأمه ، وأن يرضى عنه رسول الله ويجعله فى العشرة الذين ضمن لهم الجنة ، وأن يقصم دولة الفرس وينتصر يوم القادسية ، وأن يحضره عمر الشورى ويرشحه للخلافة ، ويتقدم فى توليته إن صرفت الخلافة عنه — من أتيح له هذا الفضل كله لا يمكن أن يلتوى على بيت المال بدين قل أو كثر ، ولا أن يشك فيه ابن مسعود هذا الشك ، ولا أن يغضب عليه عثمان فيهم به ثم يعفو عنه بعد أن يأخذ منه ما كان عليه . وأكبر الظن أن عمر لم يتقدم إلى

الخليفة من بعده فى تولية سعد ولاية ما ؛ وإنما تقدم إليه فى تولية سعد الكوفة خاصة ؛ لأنها كانت المصر الذى كان يجب أن يستقر فيه سعد ؛ وأن يتجه منه إلى إتمام الفتح فى ذلك الوجه من وجوه الحرب . وإنه لغريب حقًّا أن يسوء ظن ابن مسعود بسعد وهو يعلم سابقته ومكانه من النبى ومن صاحبيه ورأى النبى فيه . فقد كان ابن مسعود من ألزم الناس للنبى ؛ وأرواهم عنه للسنة ؛ وأحفظهم عنه للقرآن ، وأعلمهم برأيه فى أصحابه . وأغرب من ذلك أن يشك فيه ويلح عليه فى أداء دينه . حتى إذا همّ سعد بالدعاء عليه أخذه الإشفاق والجزع ؛ فترضاه وولى مسرعاً . إنما لزم سعد موقف الحياد حين كانت الفتنة ؛ وأبى أن يقاتل مع أولئك أو هؤلاء من المختصمين ؛ حتى يأتوه بسيف مبصر عاقل ناطق ينبئه بأن هذا مسلم وهذا كافر ؛ فكان موقفه هذا مصدراً لهذه القصة الغريبة . ولو قد انحاز سعد لأنصار علىّ لدافعت عنه الشيعة ؛ ولو قد انحاز لأنصار عثمان لدافعت عنه العثمانية ؛ ولكنه وقف من المختصمين موقف المعتزل . فوقف المختصمون منه هذا الموقف نفسه .

وأكاد أعتقد أن وجه الحق فى عزل سعد أن بنى أمية وآل أبى معيط كانوا يتعجلون الولاية ويحتالون فى الوصول إليها ، ويلحون على عثمان فى أن يمهد لهم إليها الطريق . وآية ذلك فيما أظن أن عثمان حين عزل سعداً لم يول على الكوفة أحداً من كبار أصحاب النبى . لا من المهاجرين ولا من الأنصار : لم يرسل إليها طلحة ولا الزبير ولا عبد الرحمن ولا محمد بن مسلمة ولا أبا طلحة ؛ وإنما أرسل إليها الوليد بن عقبة بن أبى معيط . ولم يكن المسلمون يطمئنون إلى الوليد بن عقبة ؛ لأنه غش النبى وكذب عليه ؛ وكفر بعد إسلام . وأنزل الله فيه قرآناً فقال : « يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » . كان ذلك حين أرسله النبى مصدقاً فى بنى المصطلق ، فعاد إلى النبى يزعم أنهم منعوه الصدقة . فخرج النبى إليهم غازياً ؛ ثم تبين كيد الوليد وأنبأه الله بجلية الأمر . وقد عاد الوليد إلى إسلامه حين لم يكن بد من العودة إلى

الإسلام ، وأصلح من سيرته ما استطاع . وقيل إن عمر قد استعمله على صدقة بني تغلب في الجزيرة . والفرق بين أن يرسله عمر أو وال من ولاة عمر إلى صدقة حيّ من نصارى العرب البادين في الجزيرة ، وبين أن يوليه عثمان مصراً من أعظم أمصار المسلمين وأكثرها ثغوراً ، وأن يوليه مكان سعد بن أبي وقاص ، هذا الفرق عظيم جدًّا .

فالذين أنكروا تولية الوليد على الكوفة مكان سعد لم يبعدوا ؛ فليس من شك في أن هذه التولية كانت أمراً عظيما .

وهناك سبب آخر يدعو إلى الشك في هذه القصة التي حملت عثمان على عزل سعد وتولية الوليد ، وهو أن عثمان نفسه قد سار في بيت المال بالمدينة سيرة أعظم خطراً مما نسب إلى سعد ؛ فهو قد أعطى رجلا من ذوى قرابته مقداراً ضخماً من بيت المال ، واستكثر عامله على بيت المال هذا المقدار فلم يخرجه ؛ فألح عثمان فأبى الخازن ، فلامه عثمان وقال له في قصة سنعرض لها في إبانها : « ما أنت ! إنما أنت خازن لنا » . قال صاحب بيت المال : « ما كنت أرى أني خازن لك ، وإنما خازنك أحد مواليك ، لقد كنت أراني خازناً للمسلمين » ، ثم أقبل بمفاتيح بيت المال فعلقها على منبر النبي وجلس في داره . فإذا سار عثمان في بيت المال هذه السيرة ، فغريب أن ينكر على سعد ما يقال من أنه اقترض من بيت المال شيئاً وطلب النظرة في أداء ما كان عليه من دين . وكما أن عمر لم يعزل سعداً عن خيانة ، فقد نرى أن عثمان لم يعزل سعداً عن خيانة ولا عن شيء يتصل بالخيانة من قريب أو بعيد ، وإنما أنفذ وصية عمر ، ثم عزل سعداً ليجعل مكانه رجلا من آل أبي معيط . ويجب أن نقرر أن الوليد قد سار أثناء ولايته على الكوفة سيرة فيها كثير جدًّا من الغناء وحسن البلاء . فهو لم يقصر في سد الثغور والإمعان في الفتح ، وإنما بلغ من ذلك غاية عرفت له وتحدث بها الناس في حياته وبعد موته . وهو قد ساس أهل الكوفة سياسة حزم وعزم ومضاء ، فأقر الأمن ، وضرب على أيدى المفسدين من الأحداث والذين لا يرعون للنظام حرمة ولا

يرجون للدين وقاراً . عدا نفرٌ من الشباب على فتى من أهل الكوفة فقتلوه ، فأخذهم الوليد وأقام عليهم الحد فقتلهم على باب قصر الإمارة . ويقول بعض الرواة إن هذا أحفظ عليه آباء هؤلاء القاتلين المقتولين ، فأخذوا يتلمسون أغلاطه ويتكلفون اتهامه ويشككون فيه الناس . ثم ما زالوا به ، حتى دخل عليه منهم داخل فسمر عنده وتأخر ، فلم ينصرف حتى نام الوليد ، فقام فاستل خاتمه من أصبعه وذهب مع صاحب له بالخاتم إلى عثمان فشهدا عنده على الوليد بشرب الخمر .

والتكلف فى هذه القصة أظهر من أن نحتاج إلى تبيينه وإطالة القول فيه . فما أمير ينام وعنده سماره ، ثم يمعن فى النوم حتى يستل خاتمه من أصبعه دون أن يحس ذلك أو يحسه أحد من خدامه وحجابه وشرطه ! ! وإذا كان الأمر من التهاون والاستخفاف بحيث يستل منه خاتمه الذى يمضى به الأمر والنهى ويمضى به كتبه إلى الخليفة وإلى قواده فى الثغور ، فما هو من الحزم والعزم والفطنة فى شيء . وإنما الأشبه ما قاله خصوم الوليد من أنه كان يعاقر الخمر مع صديقه وشاعره أبى زبيد ، ذلك الذى عرفه فى تغلب حين كان مصدِّقاً فيهم ، فأنصفه من أخواله بنى تغلب وآثره بمودته . وكان أبو زبيد طائى الأب تغلبى الأم ، وكان نصرانيًّا . فلما ولى الوليد أمر الكوفة كان هو يفد عليه ، فيقيم عنده ويأخذ جوائزه . وما زال به الوليد حتى أسلم فقرب ما بينهما . وما أرى إلا أن إسلام أبى زبيد كان رقيقاً كإسلام الوليد . ويدل على صحة هذا المذهب فى هذه القصة أن عثمان أقام الحد على الوليد ، والحدود تدرأ بالشبهات . فلو قد رأى عثمان فى شهادة هذين الشاهدين شبهة قوية أو ضعيفة لتحرج من إقامة الحد عليه . وليس البأس على عثمان فى أن يدرأ الحد بالشبهة ، وإنما البأس كل البأس فى أن يقيم الحد والشبهة قائمة مهما يكن حظها من الضعف .

والناس يختلفون فيمن أنفذ أمر عثمان بإقامة الحد على الوليد . فقوم يرون أن عليًّا هو الذى ضرب الوليد إنفاذاً لأمر عثمان حين نكل كثير من الناس عن ضربه .

فإن صحت هذه الرواية — وما نراها تصح — فعلىٌّ أعلم بالدين وأحفظ للسنن وأشد إيثاراً لرضا الله وإنفاذ أمره من أن يقيم الحد والشبهة قائمة . وزعم أكثر الرواة أن الذى ضربه هو سعيد بن العاص الأموى . وسعيد قريب القرابة من عثمان ومن الوليد ، وهو صاحب عصبية واعتداد بمكان الخليفة ورهطه الأدنين والأبعدين . فلو قد رأى شبهة لكان خليقاً أن يراجع عثمان فى قضائه . ولكان خليقاً إذ لم يفلح أن يعتذر من ضرب الوليد . ولكنه ضربه ، وأورث هذا الضرب عداوة متصلة فى أعقاب الرجلين .

وقد زعم خصوم الوليد — وما نحسبهم إلا متزيدين — أن الوليد أصبح ذات يوم سكران ، فصلى الصبح بالناس ثلاثاً أو أربعاً ، ثم التفت إليهم وقال : إن شئتم زدناكم . فشتمه من شتمه وحصبه من حصبه من الناس ، واستعفوا عثمان منه فأعفاهم . وشاعت فيه هذه المقالة حتى تندّر به المتندرون ، وقال فيها الشعراء ، فقال الحطيئة فيما زعموا :

شهد الحطيئة يوم يلقى ربه	أن الوليد أحق بالعذر
نادى وقد نفدت صلاتهم :	أأزيدكم ؟ ثملاً ولا يدرى
ليزيدهم خيراً ولو قبلوا	منه لزادهم على عشر
فأبوا أبا وهب ولو فعلوا	لقرنت بين الشفع والوتر
حبسوا عنانك إذ جريت ولو	خلوْا عنانك لم تزل تجرى

وهذه القصة مخترعة من أصلها فيما أعتقد . فلو قد زاد الوليد فى الصلاة لما تبعته جماعة من المسلمين من أهل الكوفة ، وفيهم نفر من أصحاب النبى ، وفيهم القراء والصالحون ، ولما رضى المسلمون من عثمان بما أقام عليه من حد الخمر ، فإن الزيادة ، فى الصلاة ، والعبث بها أعظم خطراً عند الله وعند المسلمين من شرب الخمر .

وهذا الشعر لم يقله الحطيئة ، وإنما قال الحطيئة شعراً آخر يمدح به الوليد مدح محب له حريص على رضاه . وهو :

شهد الحطيئة حين يلقى ربه أن الوليد أحق بالعذر
خلعوا عنانك إذ جريت ولو تركوا عنانك لم تزل تجرى
ورأوا شمائل ماجد متبرع يعطى على الميسور والعسر
فنزعتَ مكذوبًا عليك ولم تردَدْ إلى عوزَ ولا فقر

وقد عارض بعض الشيعة بهذا الشعر ، شعر الحطيئة فى مدح الوليد .

وليس من شك فى أن الحطيئة لم يقل أيضًا هذه الأبيات الأخرى :

تكلم فى الصلاة وزاد فيها علانية وجاهر بالنفاق
ومجّ الخمر عن سنن المصلى ونادى والجميع إلى افتراق
أزيدكم على أن تحمدونى فما لكم وما لى من خلاق

فهذا الشعر ليس إلا تزيداً من خصوم الوليد . وللحطيئة بعد ذلك شعر جيد يمدح به الوليد أثناء إمارته ، وقبل أن يفكر أحد فى الائتمار به والتشنيع عليه ، وهو :

عفا توءمٌ من أهله فجلاجله وردُ تّ على الحىّ الجميع جمائله
وعالين عقلا فوق رقم كأنه دمُ الجوف يجرى فى المذارع واشله
كأنّ النعاجَ الغرّ وسط بيوتهم إذا اجتمعت وسط البيوت مطافله
أبى لابن أروَى خلتان اصطفاهما قتالٌ إذا يلقى العدوّ ونائله
فتى يملأ الشيزى ويروَى بكفه سنانُ الردَينىّ الأصمّ وعامله
يؤمّ العدوّ حيث كان بجحفل يصمّ العدوّ جرْسه وصواهله
ترى عافيات الطير قد وثقت لها بشبع من السخل العتاق منازله
إذا حال منه منزل الليل أوقدت لأخراه فى أعلى اليفاع أوائله
يظلّ الرداء العصْبُ فوق جبينه يقى حاجبيه ما تثير قنابله
نفيت الجعاد الغر عن عقر دارهم فلم يبقَ إلا حية أنت قاتله
وكم من حصان ذات بعل تركتها إذا الليلُ أدجى لم تجد من تباعله

وإنى لأرجوه وإن كان نائباً رجاء الربيع أنبت البقل وابله
لزُغب كأولاد القطا راثَ خاتها على عاجزات النهض حمر حواصله

وربما كان من التكلف ما روى من أن الوليد أتى بساحر ، فاستفتى فيه ابن مسعود ، فلما تحقق ابن مسعود إيمانه بالسحر أمر بقتله ، وتعجل رجل من أهل الكوفة فقتله عن غير أمر الوليد ، ثم ذهب أهل الكوفة يشكون الوليد إلى عثمان فردّهم وقال : تقتلون الناس بالظن !

وما أستبعد أن يكون الوليد قد أتى بهذا الساحر فنظر إلى لعبه ، وغضب لذلك المتزمتون من أهل الكوفة ، فعدوا على ذلك المشعوذ المسكين فقتلوه . وغضب لذلك الوليد وغضب لذلك عثمان ؛ فما ينبغى للناس أن يريقوا الدماء عن غير أمر السلطان ولا أن يريقوها بالظنة .

وجملة القول أن الوليد إنما كان رجلا من قريش أسلم إسلاماً ظاهراً واحتفظ بجاهليته كلها . فليس هو أول من شرب الخمر فى هذا العصر من أمثاله الذين أسلمت ألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم إيماناً خالصاً وإنما ترددت بين الكفر والإيمان . وليس هو بدعاً من حب الدعابة والعبث والمجون يستتر به ولا يظهره . وما أستبعد أن يكون قد لَهِىَ بلعب هذا الساحر ، وأن تكون القصة التى زعمت تدخل ابن مسعود فى أمره قد اخترعت تكلفاً للدفاع عن الوليد . على أنى أعتقد أن شرب الخمر إن كان هو السبب المباشر لعزل الوليد . فإن لعزله أسباباً أخرى لعلها أن تكون أعمق أثراً وأبعد مدى من شرب الخمر ومن اللهو بلعب الساحر . وهى تتصل بسياسته العامة لأهل الكوفة وسيرته فيهم . فقد كان معظم أهل الكوفة من اليمانية ولم تكن المضرية فيهم إلا قلة . وكان الوليد رجلاً قرشياً معتداً بقرشيته وبمكانه من عثمان ، وقد كان أخاه لأمه . فما أستبعد أن هذه الكثرة اليمانية قد ضاقت بهذا الأمير القرشى المضرى الذى لم يكن يخفى اعتداده بنفسه واستعلاءه على غيره ، فتنكروا له قليلاً قليلاً . وأحس هو منهم هذا التنكر فلم يحتمله إلا كارهاً ولعل الوليد قد نافس هذه الأرستقراطية فيما كانت ترى أنه مصدر عز

وفخرهم . فقد روى أن جماعة من أشرافهم كانوا ينادون : ألا إن من نزل الكوفة وليس له بها منزل فمنزله عند بنى فلان . كانوا يتنافسون فى ذلك فيما يظهر ، يحيون به سنة عربية متوارثة ، هى التنافس فى استقبال الضيف والاستباق إلى إيوائهم وقراهم . فأنشأ الوليد عن أمر عثمان أو من تلقاء نفسه دار الضيافة ، وأغلق على هؤلاء الأشراف باباً من أبواب التنافس والتفاخر والعصبية (١) . وكان أبو زبيد يقبل فينزل دار الأضياف هذه ، ثم يتصل بالوليد ويكثر الاختلاف إليه . ومن يدرى ! لعل هذا الشاعر عاد مرة أو غير مرة إلى مثواه وقد أخذت منه الخمر ، فلم يحسن أن يمسك لسانه . فنبههم ذلك إلى التجسس على الوليد .

ثم كان الوليد — وقد أحس تنكر الناس له وتنمرهم عليه — يستأنف سياسة ظاهرها الرفق وإشاعة الخير والمعروف ، وباطنها التحبب إلى العامة والتقوّى بالدهماء ؛ ففرض للرقيق أعطيات يتوسعون بها : ثلاثة دراهم لكل واحد منهم كل شهر ، دون أن ينقص ذلك من أعطيات سادتهم ومواليهم ، إنما كان يؤدّى إليهم ذلك من فضول الأموال . فقد كان للأموال إذن فضول يمكن أن تردّ على أصحاب الأعطيات من الذين قاتلوا على هذا المال وأفاء الله على أيديهم هذا الفىء . ولم يكن الوليد يردّ هذه الفضول على هؤلاء الناس ، وإنما كان يوسع بها على العبيد والإماء ، فكان إذن يردّ بعض الفىء على بعضه ؛ فلم يكن العبيد والإماء إلا شيئاً من هذا الفىء ، فهم أسارى قد قسموا بين الفاتحين كما قسم بينهم الذهب والفضة وغير الذهب والفضة من الغنائم . والذى يعرف النفس العربية التى احتملت الكثير من جاهليتها ولم يخالطها الإسلام إلا مخالطة ظاهرة ، لا يرى من العجب أن يضيق هؤلاء اليمانية بهذا القرشى الذى يأخذ من فيئهم ليردّه على فيئهم ، ويأخذ فضول الأموال ليوسع بها على العبيد والإماء فيتقرب إليهم بذلك ويستأثر بحبهم له وانحيازهم إليه ، ويوشك أن ينشئ منهم لنفسه قوة تعينه على سادتهم ، أو تعين السلطان على هؤلاء السادة ، إن احتاج السلطان إلى بعض

(١) انظر الطبرى فى أحداث سنة ثلاثين .

المعونة . ويتحدث الرواة بأن الإماء والعبيد قد اتخذوا الحداد حين عزل الوليد ، وكانت الولائد تنشج فيما روى الطبري بهذا الرجز :

يا ويلتا قد عزل الوليدُ وجاءنا مجوّعاً سعيــدُ
ينقص في الصاع ولا يزيد فجوّع الإمــاء والعبيدُ

وما أظن إلا أن هذا الرجز منحول متكلف ، اخترعه القصّاص من أنصار الوليد ؛ فلم يكن الإماء والعبيد من أسرى الفرس في الكوفة قد بلغوا من حذق العربية وإتقانها أن يرجزوا بالوليد وسعيد ، كما كان العرب أنفسهم خليقين أن يفعلوا . ولكن هذا الرجز يدل على أن الرقيق والأحرار من الفرس كانوا يؤثرون الوليد ويحبونه ؛ لأنه يؤثرهم ويستهويهم . ولذلك قال الرواة إن أهل الكوفة كانوا فريقين في الوليد : كانت العامة معه ، وكانت الخاصة عليه .

وليس لهذا معنى إلا أن الوليد قد خفض جناحه للعامة ، ووطئ الخاصة وطئاً شديداً . ولو قد سار الوليد في ذلك سيرة عمر لما أنكر عليه منه شيء. فقد كان عمر يرفق بالعامة ويغلظ على الخاصة ، يقاوم في هذه الخاصة نزعتها إلى الأثرة واحتفاظها بالعصبية الجاهلية وطموحها إلى الاستعلاء ، وما أرى الوليد ذهب إلى شيء من ذلك ، وإنما طاولته الأرستقراطية فطاولها ، وقاومته فقاومها ، ودخل بينها وبين رقيقها من العبيد والإماء .

ومهما يكن من شيء فقد عزل الوليد وذوو الرأي في الكوفة ضيقون به ساخطون عليه ، يبغضه السادة لما قدمنا من تنكره لهم ومقاومته إياهم ومحاولته أن يفسد عليهم رقيقهم . وينكره القراء وأصحاب الصلاح والفقه لسيرته تلك الجاهلية التي لم تخل من عبث ومجون وتعدّ لحدود الله .

٨

وقد وفق عثمان حين عزل الوليد ولم يتشدد فى استبقائه ، وحين أقام عليه الحد ولم يحمه ، ولكنه كان خليقاً أن يردّ أمر الكوفة إلى رجل من أصحاب النبي وأهل الكفاية من المهاجرين والأنصار ، ولو قد فعل ذلك لاستصلح هذا المصر ولم يدفع أهله عامة فى الفرقة والخلاف. ولكنه عزل عن أهل الكوفة رجلا من آل أبى معيط ، وأرسل إليهم رجلاً من بنى أمية ، وقد حذّره عمر من أن يحمل أولئك وهؤلاء على رقاب الناس . وما من شك فى أن أهل الكوفة كانوا يعلمون بما تقدّم فيه عمر إلى عثمان من ذلك . وهم بعدُ قد عرفوا من أصحابِ النبي نفراً صالحين رضوا عن سيرتهم وأحبوا حكمهم . وقد تبين لعثمان أنهم ضاقوا بالوالد بن عقبة بن سعد بن أبى وقاص ، وقد كان خليقاً أن يرسل إليهم رجالا فى منزلة سعد لا فى منزلة الوليد . وكان سعيد بن العاص فتى من فتيان بنى أمية ، معتدلا مستقيم الخلق ، أبلى فأحسن البلاء فى فتح الشام ، كما أبلى بنو أبيه فأحسنوا البلاء أيضاً . وقد كان عثمان يربّيه ويرعاه قبل أن يستخلف . وسأل عنه عمر حين كان يتفقد قريشاً فأُنبئ بأنه عند معاوية ، وبأنه مريض مشرف على الموت ؛ فأرسل إلى معاوية فى أن يحمله إليه فى رفق وعناية . ولم يكد الفتى يبلغ المدينة حتى استرد قوة وصحة وعافية ، وقد تلقاه عمر لقاء حسناً ، فرقّ له وعطف عليه . وما زال به حتى زوجه وجعله فى مرتبة نظرائه من شباب قريش وأشرافها . ولكنه على ذلك كان قريشياً أموياً قريب المكان من عثمان . كان رجل صدق ما فى ذلك شك ، ولكنه كان يعتدّ بقريش عامة ، وببنى أمية خاصة . وقد ذهب إلى الكوفة مصمماً على أن يصلح ما أفسد الوليد ، حتى قيلت فى ذلك الأقاويل ؛ فزعم بعض القصّاص أنه غسل المنبر تحرجاً من آثام الوليد ، وآذى بذلك بعض القرشيين .

والشيء المحقق هو أن أهل الكوفة قد أحسنوا استقباله ، وأحسن هو سياستهم أول الأمر ، فدرس شؤون المصر من قريب ، واختار سماره وذوي خاصته من بين السادة والقرّاء الذين أغضبهم الوليد . ولكنه لم يقم في الكوفة إلا قليلاً حتى بصر بحقيقة الأمر وأنبأ بها عثمان . وكان فيما بعث إلى عثمان من ذلك تصوير دقيق لا لحال الكوفة وحدها ، بل لحال غيرها من الأمصار كذلك . فهو قد رأى أن الكوفة إنما تتعرض للفتنة لسببين : أحدهما تضاؤل أصحاب السابقة وضعف أمرهم بمرور الزمن . وأصحاب السابقة هؤلاء هم السادة الذين سبقوا إلى الفتح واستقروا في المصر حين مُصِّر ، وفيهم الشريف الذي كانت له الرياسة في قومه ، وفيهم القارئ الذي كانت له المكانة الدينية لاتصاله بالنبي أو بأصحابه . وقد أخذ الموت ينتقص منهم في الحرب والسلم جميعاً .

والآخر تزايد الطارئين والناشئين جميعاً . فما أكثر الذين كانوا يطرءون على المصر من هؤلاء الأعراب الذين يقبلون من تلقاء أنفسهم أو يرسلهم الخليفة مادة للجند ! وما أكثر الطارئين من هؤلاء الأسرى الذين كان الفاتحون يأخذونهم في المواقع ويقتسمون بينهم مع الغنيمة ويعودون معهم إلى المصر ليقيموا فيه ! وما أكثر هذا الجيل الجديد الذي كان يولد في المصر من الحرائر وأمهات الأولاد ، ثم الذين كانوا يولدون من أبناء الأحرار غير العرب ومن أبناء العبيد ! وكل هذه الناشئة قد أخذت تنمو ويظهر أمرها ويكون لها أثرها في حياة المصر .

فالطارئون من الأعراب والطارئون من الأعاجم والناشئون من أولئك وهؤلاء قد كثروا في المصر حتى زحموا أهل السابقة ، وكادوا يستأثرون من دونهم بالأمر . وكلهم حظه من الجهل أكثر من حظه من العلم ، ونصيبه من الغلظة والجفوة أعظم من نصيبه من الرقة واللين . والأعراب يقبلون بما حفظوا من غلظهم وجفوتهم وعصبيتهم وجهلهم . والأسرى يقبلون بما ورثوا من حضارتهم ، وبما تستتبعه الحضارة في أعقاب أمرها من الضعف والفساد ، وبما تستتبعه الهزيمة والرق من انكسار النفوس وذلتها ، وحسرتها على ما مضى ، ويأسها مما يقبل ،

وبغضها لسيدها وخوفها منه ومكرها به وكيدها له . والناشئون بين أولئك وهؤلاء يأخذون بحظوظهم من أخلاق أولئك وهؤلاء . فتختلط الأمور عليهم ، ويكونون مصدراً لاختلاط الأمور على غيرهم من الناس . وبهذا كله تتعقد أمور السياسة تعقداً شديداً . ويجد الأمراء والولاة أنفسهم أمام مشكلات كلما حاروا منها طرفاً نجم طرف آخر .

بشيء من هذا كتب سعيد إلى عثمان لينبئه بحقيقة الأمر فى مصره . فتقدم إليه عثمان فى أن يؤثر الخير والعافية ما استطاع ، وفى أن يجنب نفسه والناس الفتنة ما وجد إلى ذلك سبيلا . وفى أن يقدم أصحاب السابقة وما يتصل بأسبابهم على غيرهم . ثم ينزل الناس بعد ذلك منازلهم بالحق . لا يؤثر ولا يظلم ولا يجور .

ولكن عثمان شعر منذ ذلك الوقت بأن أمور الناس قد تغيرت ، وبأن الفتنة قد أخذت تظهر ، وبأن الاحتياط من هذه الفتنة قد أصبح شيئاً ليس منه بد . وقد خطب عثمان الناس فى المدينة ، فأنبأهم من ذلك بما علم ، وحذرهم الفتنة وخوفهم منها ؛ واستشارهم فيما تقدم فيه إلى سعيد من السيرة السياسية فأقروه عليه . لكنه اقترح أمراً خطيراً فرح الناس من أهل المدينة به حين سمعوه ؛ وابتهجوا له ابتهاجاً عظيماً ، وظن هو أنه سيصلح بعض ما فسد . ويجمع بعض ما انتشر ، لكنه أدى إلى النتائج العكسية لما أراد عثمان . وهذا الأمر الذى اقترحه هو أن ينقل إلى الناس فيئهم حيث أقاموا من بلاد العرب ؛ فلا يقيم فى الأمصار إلا من كان له فى الإقامة فيها أرب ؛ ما عدا الجند بالطبع . فليس من إقامتهم فى الأمصار بد .

وقد دهش أهل المدينة حين سمعوا هذا الاقتراح من عثمان ، فقالوا له : كيف تنقل إلينا ما أفاء الله علينا من الأرض ؟ قال عثمان — وهذا هو لب الاقتراح — : نبيعها ممن شاء بما كان له بالحجاز . ففرحوا وفتح الله عليهم به أمراً لم يكن فى حسابهم ؛ فافترقوا وقد فرجها الله عنهم به[1] . معنى ذلك أن عثمان

(١) الطبرى أحداث سنة ثلاثين .

عرض على أهل الحجاز أولا ثم عمم ذلك فى بلاد العرب كلها فيما بعد ، أن يستبدلوا بما كان لهم فى العراق وفى الأقاليم من الأرض أرضا فى الحجاز أو فى غيرها من بلاد العرب . فإذا فعلوا ذلك قاموا فى بلادهم لم ينتقلوا عنها ، وأقام معهم أهلهم وذوو أسبابهم ، فخف الضغط على الأقاليم ، وقلت هجرة الأعراب إليها . وسيحتاج هؤلاء ، الذين يشترون أرض الحجاز وبلاد العرب مكان أرض الأقاليم ، إلى كثير من الأيدى العاملة لاستصلاحها واستثمارها والقيام عليها ، فيكثر اجتلاب الرقيق والموالى إلى بلاد العرب ، ويخفف الضغط على الأقاليم من هؤلاء الأسارى الذين كانوا يطرءون على الأمصار فى غير انقطاع .

وليس من الغريب أن يفرح الناس بذلك ويبتهجوا له ؛ فأرض الحجاز أحب إلى أهل الحجاز من أرض العراق ، وأرض اليمن أحب إلى أهل اليمن من أرض الشام ومصر ؛ هى منهم قريب ، فهم يستطيعون أن يقوموا عليها فى غير مشقة ولا كلفة ولا احتياج إلى السفر القصير أو الطويل ، ولا إلى الهجرة من أرض الآباء والأجداد .

وقد كتب عثمان بذلك فى الآفاق ، ففتح على الناس بابا عظيما كان له أبعد الأثر فى حياتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعقلية جميعاً .

ولنضرب لذلك بعض الأمثال : ففريق من كبار الصحابة كانوا يملكون كثيراً من المال السائل والجامد فى الحجاز ، فما أسرع ما أنفقوا مالهم هذا سائله وجامده فى شراء الأرض فى الأقاليم ؛ لأنهم كانوا يعلمون أن أرض الأقاليم أخصب تربة وأكثر ثمرة وأيسر استغلالا من أرض الحجاز فطلحة بن عبيد الله كان قد جد واجتهد ودأب حتى اشترى عامة أسهم خيبر من الذين شهدوا فتحها مع النبى أو من ورثتهم . فلما فتح عثمان هذا الباب باع طلحة كل ما كان يملك من أسهم خيبر لأهل الحجاز ممن شهد فتح العراق بما كانوا يملكون هناك . ثم كان له مال آخر كثير . فاشترى به من بعض أهل الحجاز أرضهم فى العراق ، وباع هو نفسه أرضا كان يملكها فى العراق بأرض كان هو يملكها فى الحجاز . وفعل الناس فعله ، فكل من كره الهجرة من الحجاز ليقيم بأرضه فى الأقاليم باع

أرضه تلك واشترى مكانها ارضاً فيا يليه . ونشأ عن ذلك أولاً أن ظهرت الملكيات الضخمة فى العراق وغيره من الأقاليم . فالذين استطاعوا أن ينتفعوا بهذا الاقتراح إنما هم أصحاب الأموال الضخمة الذين كانوا يستطيعون أن يشتروا من أصحاب الملكيات الصغيرة ما يملكون ، فاشترى طلحة ، واشترى الزبير . واشترى مروان ابن الحكم ، وكثر النشاط المالى فى ذلك العام من بيع وشراء واقتراض واستبدال ومضاربة . ثم لم يقتصر ذلك على الحجاز والعراق ، وإنما شمل بلاد العرب كلها من جهة ، والأقاليم المفتوحة كلها من جهة أخرى . وجدت الإقطاعات الكبيرة الضخمة ، والضياع الواسعة العريضة من جهة ، وقام فيها العاملون من الرقيق والموالى والأحرار من جهة أخرى ، فظهرت فى الإسلام طبقة جديدة من الناس هى طبقة البلوتقراطية التى تمتاز إلى أرستقراطيتها التى تأتيها من المولد بكثرة المال وضخامة الثراء وكثرة الأتباع أيضاً .

ونشأ عن ذلك ثانياً أن الذين اشتروا الأرض فى بلاد العرب عامة وفى الحجاز خاصة قد أرادوا أن يستغلوا أرضهم ، فاجتلبوا الرقيق وأكثروا من اجتلابه . ولم يمض وقت طويل حتى استحال الحجاز إلى جنة من أجمل جنات الأرض وأخصبها وأحسنها ثمراً وأعودها على أهلها بالغنى وما يستتبع الغنى من الترف والفراغ . وما هى إلا أن تنشأ فى الحجاز نفسه ، فى مكة والمدينة والطائف ، طبقة من هذه الأرستقراطية الفارغة التى لا تعمل شيئاً ، وإنما يعمل لها ما جلبت من الرقيق ، والتى تنفق وقتها فى فنون اللهو والعبث والمجون .

ونشأ عن هذا بعد ذلك أن جلبت الحضارة جلباً إلى الحجاز وغيره من بلاد العرب ، فكان الترف والتبطل ، وكانت الفنون التى تنشأ عن الترف والتبطل ، فكان الغناء والإيقاع والرقص والشعر الذى لا يصور جداً ولا نشاطاً ، وإنما يصور بطالة وفراغاً وتهالكاً من أجل ذلك على اللذة أو عكوفاً من أجل ذلك على النفس وتعمقاً لما ينتابها من الهم . وإلى جانب هذه الطبقة الأرستقراطية الفارغة عاش الرقيق الذين كانوا يملكون سادتهم ويدبرون حياتهم . وما يكون فى هذه

الحياة من النشاط الباطل وما يكون فيها من العواطف والأهواء . ثم إلى جانب السادة الأرقاء ، والأرقاء السادة ، عاشت طبقة أخرى من العرب البادين المحرومين لم تملك قط أرضاً فى الحجاز لتبيعها بأرض فى العراق ، ولم تملك قط أرضاً فى العراق لتشترى بها أرضاً فى الحجاز .

ولم يخطر لعثمان رحمه الله حين فكر فى هذا الاقتراح أو فكر له فيه خاصته ومشيروه، شىء من هذه النتائج البعيدة ؛ وإنما رأى شرًّا فأراد حسمه . أراد أن يخفف الهجرة على الأمصار ، ويمسك الأعراب فى بلادهم ، ويجلب الأسرى والرقيق إلى بلاد العرب ، ويستخلص لأهل الحجاز من أصحاب الملكيات الصغيرة فى الأقاليم ما لهم ليشتروا به الأرض التى تليهم ويقوموا عليها من قريب . ولكنه لم يبلغ من ذلك ما أراد ، وإنما أضاف شرًّا إلى شر وفساداً إلى فساد . فلست أدرى أوفق لصرف الأعراب عن الهجرة إلى الأمصار أو لوقف هذه الهجرة وقتاً ما ، أم لم يوفق ؛ فالتاريخ لا يحدثنا بشىء من ذلك . بل أنا أشك فى أن التاريخ قد فطن لما أراد عثمان ومشيروه بهذا الانقلاب الخطير فى الحياة الاقتصادية للمسلمين . وما أشك فى أنه لم يوفق فى تخفيف الضغط على الأمصار من هؤلاء الرقيق والأسارى الذين كان عددهم يزداد من حين إلى حين ؛ لأن الفتوح لم تقف أيام عثمان ، وإنما مضت فى طريقها عازمة حازمة غير مترددة كما سنرى ، ولأن أربعة أخماس الغنائم كانت تقسم بين الفاتحين ؛ وهؤلاء الفاتحون مستقرون فى أمصارهم لا يخرج أحدهم إلى الثغر الذى يليه إلا مرة كل أربعة أعوام ؛ ولا يقيم فى الثغر إلا ستة أشهر أو أقل منها قليلا أو أكثر منها قليلا، فهذه الغنائم إذن وفيها الرقيق كانت تثوب مع أصحابها إلى الأمصار ، فكان عدد الرقيق فى ازدياد متصل . ولم يكن بد من ذلك إلا أن يوقف الفتح وتعيش الدولة فى ظل سلم متصل ، وهذا ما لم يتح لها أيام عثمان . فقد كان التنافس شديداً بين ولاة الأمصار أيهم يكون أبعد من أصحابه أثراً فى الفتح . وكان التنافس شديداً بين قواد الثغور أيهم يسبق صاحبه إلى لقاء العدو فى هذا الميدان أو ذاك ؛ وإلى احتلال هذه المدينة أو تلك ، وإلى احتياز الغنائم التى تملأ يديه فتسر جنده من جهة ؛

وتسر أميره على المصر من جهة أخرى ؛ وتسر الخليفة ومن حوله من أصحاب النبي في المدينة من جهة ثالثة . لم يستطع عثمان إذن أن يخفف ضغط المستعربين والمغلوبين على الأمصار عامة وعلى المصرين العراقيين خاصة ، ولم يتح للذين باعوا أرضهم في الأمصار واشتروا بها أرضاً في الحجاز ، أن ينظموا أمورهم ويجلبوا ما يحتاجون إليه من الأيدي العاملة فيقل عدد الرقيق في الأمصار . فقد أحدث عثمان هذا الانقلاب الاقتصادي سنة ثلاثين وقتل سنة خمس وثلاثين ؛ واضطربت الأمور بين هاتين السنتين فلم يؤت الانقلاب ثمرته التي كانت ترجى منه في هذا الوقت القصير ، وإنما آتى ثمره البغيض الخطير في أقصر وقت ممكن ؛ لأن رءوس الأموال كانت تنتظره في الحجاز متشوفة إليه متهالكة عليه . ولم يكن عمر حين احتبس قريشاً في المدينة قد احتبس أشخاصها فحسب . وإنما كان قد احتبس مع هؤلاء الأشخاص رءوس أموالهم أيضاً إلى حد بعيد . فهم كانوا يتجرون بين الحجاز والأقاليم تجارات عظيمة واسعة تغل عليهم مالاً كثيراً سائلاً ، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون أن يستغلوا هذا المال السائل الذي لم يكن سيله ينقطع ؛ لم يكن من اليسير عليهم أن يوظفوه في الأعمال الكبرى ، كما يقول المحدثون . وإنما كان المال يجتمع إلى المال والنقد يضاف إلى النقد ؛ وكان الفقراء وأوساط الناس يرون ذلك فيعجبون له ويعجبون به ؛ وقد تنطلق فيه الألسنة فيضطر الأغنياء إلى أن يكفروا عن ثرائهم بالصدقات والعطاء ؛ يبتغي الأخيار منهم بهذا رضا الله ورضا الناس ، ويتقي غيرهم بهذا ما يكون من الحسد والحقد في بعض النفوس .

لم يمنع عمر إذن قريشاً من أن تكسب المال فلم يكن له إلى ذلك سبيل ، ولكنه استيقن أن الأغنياء يكسبون من المال أكثر مما ينبغي لهم أن يكسبوا . ولذلك قال في آخر حياته : « لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت من الأغنياء فضول أموالهم فرددتها على الفقراء » . وقد روى أن أهل المدينة أصبحوا ذات يوم فسمعوا رجة عظيمة ، فسألت عائشة عن هذه الرجة ؛ فقيل لها إنما هي

عير لعبد الرحمن بن عوف قد أقبلت وعليها تجارة له . قالت عائشة : أما إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : كأنى بعبد الرحمن بن عوف على الصراط يميل به مرة ويستقيم أخرى حتى يفلت ولم يكد . فبلغ ذلك عبد الرحمن بن عوف فقال : هى وما عليها صدقة . قال الرواة : وكان ما عليها أفضل منها . وكانت العير خمسمائة راحلة[١] .

وتحدث ابن سعد عن سليمان بن عبد الرحمن الدمشقى عن خالد بن يزيد ابن أبى مالك عن أبيه عن عطاء بن أبى رباح عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يأبن عوف إنك من الأغنياء ولن تدخل الجنة إلا زحفاً فأقرض الله يطلق لك قدميك . قال ابن عوف : وما الذى أقرض الله يا رسول الله ؟ قال : تبدأ بما أمسيت فيه . قال : أمن كله أجمع يا رسول الله ؟ قال : نعم . قال : فخرج ابن عوف وهو يهم بذلك ، فأرسل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن جبريل قال : مر ابن عوف فليضف الضيف ، وليطعم المسكين ، وليعط السائل ويبدأ بمن يعول ، فإنه إذا فعل ذلك كان تزكية ما هو فيه »[١] .

هذه كانت ثروة عبد الرحمن أيام النبى ، وقد زادت أضعافاً مضاعفة بعد النبى بالتثمير والتوسع فيه من جهة ، وبما أفاء الله على المسلمين من جهة أخرى. وقيل إنه أوصى فى سبيل الله بخمسين ألف دينار ذهباً ، وترك ميراثاً عظيما ، فكان له ألف بعير وثلاثة آلاف شاة ؛ وكان يزرع فى الجرف على عشرين ناضحاً ، وترك أربع زوجات ؛ فكان نصيب كل واحدة منهن من الثمن يقوّم بما بين الثمانين ألفاً إلى مائة ألف . قال الرواة : وترك عبد الرحمن ذهباً قطع بالفؤوس حتى مجلت أيدى الرجال منه . ولم يكن عبد الرحمن فذاً فى ذلك ، وإنما كان أمره فيه كأمر غيره من كبار الصحابة وسادة قريش . فلما أحدث عثمان هذا الانقلاب الاقتصادى أتاح لهؤلاء الأغنياء أن يوظفوا أموالهم ، فأصبحوا

---

(١) طبقات ابن سعد ، طبع لندن ، الجزء الثالث ، القسم الأول صفحة ٩٢ .

رجال مال وأعمال معاً . وما هي إلا أن تنشأ الملكيات الضخمة كما قلنا ، ويحدث في أول صدر الإسلام ما حدث في آخر الجمهورية الرومانية من هذه « اللاتيفونديا » التي أضاعت الجمهورية . فاللاتيفونديا التي أضاعت الجمهورية الرومانية هي بعينها التي أضاعت الخلافة الإسلامية ، ملكت قلة قليلة من الرومانيين أرض إيطاليا ، فانقطع الناس إليها وأصبحوا أحزاباً وشيعاً . وملكت قلة قليلة من المسلمين أرض الأقاليم ، فانقطع الناس إليها وانقسموا بينها شيعاً وأحزاباً. ونتيجة هذا كله أن هذا النظام الذي استحدثه عثمان عن رأيه هو ، أو عن رأي مشيريه ، لم تكن له نتائجه السياسية وحدها ، من نشأة هذه الطبقة الغنية المسرفة في الغنى ، التي استهوت الناس وفرقتهم أحزاباً وتنازعت السلطان فيما بينها بفضل هذه التفرقة ، وإنما كانت له نتائجه الاجتماعية أيضاً ، فقد بلغ نظام الطبقات غايته بحكم هذا الانقلاب ، فوُجدت طبقة الأرستقراطية العليا ذات المولد والثراء الضخم والسلطان الواسع . ووجدت طبقة البائسين الذين يعملون في الأرض ويقومون على مرافق هؤلاء السادة . ووجدت بين هاتين الطبقتين المتباعدتين طبقة متوسطة هي طبقة العامة من العرب ، الذين كانوا يقيمون في الأمصار ويغيرون على العدو ، ويحمون الثغور ، ويذودون عمن وراءهم من الناس وعما وراءهم من الثراء . وهذه الطبقة المتوسطة هي التي تنازعها الأغنياء ففرقوها شيعاً وأحزاباً . والذي يتتبع تاريخ المسلمين يلاحظ أن الصراع الأول إنما كان بين الأغنياء ثم بين هذه الطبقة الوسطى وهؤلاء الأغنياء . فأما الطبقة الثالثة ، طبقة العاملين في الأرض والقائمين على المرافق المختلفة ، فلم يظهر أمرها إلا بعد ذلك ، ولها قصة أخرى .

فالفتنة إذن إنما كانت عربية ، نشأت من تزاحم الأغنياء على الغنى والسلطان ، ومن حسد العامة العربية لهؤلاء الأغنياء . ولم يكد نظام عثمان هذا يذاع ويسرع الأغنياء إلى الانتفاع به ، حتى ظهر الشر ، وظهر في الكوفة قبل أن يظهر في أي مصر آخر ، وظهر في مجلس سعيد بن العاص نفسه . وقد كان ذلك سنة ثلاث وثلاثين . فقد كان سعيد ، كما قدمنا ، تخير وجوه الناس وقراءهم وذوي الصلاح منهم ليدخلوا عليه إذا لم يجلس للعامة ، وليسمروا عنده

إذا كان الليل . فقال ذات يوم أو ذات ليلة : إنما السواد — سواد الكوفة — بستان لقريش . فتغاضب القوم ، وكانت كثرتهم من اليمانية ؛ وردّوا عليه فى ذلك ردًّا غليظاً ، وقالوا له : إنما السواد فىء أفاءه الله علينا . وما نصيب قريش منه إلا كنصيب غيرها من المسلمين . وغضب صاحب شرطة سعيد ؛ لأن القوم ردوا على الأمير ردًّا غليظاً فزجرهم ؛ فقاموا إليه فضربوه حتى أغمى عليه . فقطع سعيد سمره واحتجب عن هؤلاء الناس ؛ فلزموا مجالسهم وأنديتهم ، وأطلقوا ألسنتهم فى سعيد وفى عثمان وفى قريش ؛ وتسامع الناس بهم واجتمع بعض الناس إليهم . فكتب سعيد إلى عثمان ينبئه بأمرهم ، ويذكر أنه يخافهم أن يفتنوا الناس . فأجابه عثمان أن يسيرهم إلى الشام ، وكتب إلى معاوية يأمره بلقائهم واستصلاحهم. وزعم رواة آخرون أن سعيداً جلس للناس وحضر مجلسه هؤلاء النفر من الوجوه والقراء . فتحدث الناس فى جود طلحة بن عبيد الله . فقال سعيد : من كان له ثراء طلحة ومثل ما يملك من الأرض خليق أن يكون جواداً . ولو كان لى مثل ما لطلحة لأعشتكم فى رغد . فقال غلام مضرى من بنى أسد : وددت لو كانت للأمير أرض كذا على الفرات — وكانت هذه الأرض ملكاً للدولة ؛ فكانت إذن من فىء المسلمين — فغضب هؤلاء النفر وزجروا الغلام وتقاول الناس ، فقام هؤلاء النفر إلى الغلام فضربوه وضربوا أباه حتى أغمى عليهما ؛ فغضبت لذلك بنو أسد . وحاول سعيد أن يرد الأمر إلى العافية فلم يفلح . وألح عليه أهل الكوفة فى أن يخرج هؤلاء الناس . فأخرجهم بأمر عثمان إلى الشام .

والشىء المهم هو أن سعيداً قد نفى هؤلاء الناس عن أرضهم . ولست أدرى إلى أى حد يجوز للأمير أن ينفى المسلمين من أرضهم سواء كان هذا النفى من عند نفسه أو بأمر من الخليفة . فإخراج المسلمين عن أرضهم إنما يجوز إذا قامت البينة عليهم بأنهم حاربوا الله ورسوله وسعوا فى الأرض فساداً ، فهنالك يجوز للإمام أن يقتلهم أو يصلبهم أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفيهم من الأرض .

ولم تقم بينة على أن هؤلاء الناس من القراء والصالحين وأصحاب البلاء فى الفتح ،

قد حاربوا الله ورسوله أو سعوا فى الأرض فساداً ؛ فهم لم يخلعوا يداً من طاعة ، ولم ينكروا سلطان عثمان ولا سلطان واليه عليهم ، وإنما كانوا يشهدون الصلاة مع هذا الأمير ويؤدون ما عليهم من الحق . وكل ما يمكن أن يأخذوا به هو أنهم نقدوا سيرة الأمير أو بعض قوله ، وتجاوزوا حدهم فضربوا ذاك الغلام أو ضربوا صاحب شرطة الأمير . فأما نقدهم أعمال الأمير وأقواله فحق لهم لا ينازعهم فيه منازع ؛ وكان الشيخان يطلبانه إلى الناس قبل عثمان ، فما ينبغى أن يعاقبوا عليه . وأما ضربهم الغلام أو صاحب الشرطة فاعتداء يمكن أن يعاقبوا عليه بأيسر التعزير ؛ باللوم أو بالسجن أو بإقصاص الرجلين منهم ؛ فأما نفيهم من الأرض فأمر عظيم . وقد قال قائلون فى العصر القديم : إن عمر قد نفى من المدينة نصر بن حجاج حين خوف منه الفتنة على النساء . فجائز لعثمان أو لعامله أن ينفى هؤلاء النفر من الكوفة حين خاف منهم الفتنة على المسلمين . ولكن نفى نصر بن حجاج لم يكن نفياً بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، لم يكن عقوبة . فنصر بن حجاج لم يقترف إثماً ؛ ولم يمنح قدّه ما منحه الله من الاعتدال ، ولم يسبغ على وجهه ما أسبغ الله من جمال ؛ ولم يغر النساء بأن يتبعنه ويفتتنّ به . وما أرى إلا أن عمر حبب إليه الخروج من المدينة ودعاه إليه وأعانه عليه بالمال . وتقدّم إليه فى ذلك بلهجته الحازمة التى تشبه العنف وليست عنفاً ؛ وليس كل الناس قد رضى عن إزعاج عمر لهذا الفتى عن أرضه . وأعود فأقول إن عمر لم ينف هذا الفتى ولم يعاقبه . وإنما أغراه بالخروج وأعانه عليه .

فأما سعيد فإنه لم يغر هؤلاء القوم بالخروج عن الكوفة ولم يعنهم على ذلك ، وإنما أخرجهم من أرضهم بقوة السلطان ، وأرسلهم إلى دار غربة لا يطمئنون إليها ، ولا يسكنون إلى أهلها . وأسلمهم هو أو أسلمهم عثمان إلى معاوية يمسك عليهم حريتهم ، وليستصلحهم كما يرى استصلاحهم . فهو قد أخرجهم من مصرهم وأزعجهم عن أهلهم ونقلهم من ديوانهم وسلبهم حريتهم . وليس له فى ذلك حق قليل أو كثير . وقد يقال : إنه لم ينفهم من الأرض بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ؛

فهو قد أخرجهم من دار إسلام إلى دار إسلام . والأرض الإسلامية كلها دار للمسلمين كلهم .

ولكن الذين عاصروا عثمان من أصحاب النبي ومن التابعين أنكروا هذا التسيير على كل حال ، ورأوه نفياً لا يجوز . ومهما يقل القائلون فإن للإمام أن يعاقب ، ولكن ليس له أن يتجاوز بعقوبته حدود العرف المألوف . وسنرى أن ولاة عثمان أسرفوا على أنفسهم وعلى إمامهم وعلى الناس بالنفي والتسيير .

وقد تلقى معاوية هؤلاء النفر فأنزلهم فى كنيسة ، وأجرى عليهم ما يقيم أودهم ، وجعل يسعى إليهم مرة ويدخلهم عليه مرة أخرى . يناظرهم ويؤامرهم ويعظهم فلا يبلغ منهم شيئاً . ناظرهم فى فضل قريش على العرب فلم يعرفوا لقريش على العرب فضلاً . والإسلام لا يعرف لقريش فضلاً على العرب ولا على غيرهم من الناس إلا أن يكون هذا الفضل هو أن النبي قد بعث منهم . ولكن انبعاث النبي من قريش لا يبيح لها أن تتحكم فى رقاب الناس، ولا أن تمتاز من سائر المسلمين كما جعلت تمتاز فى أيام عثمان . وهو على كل حال لا يبيح لأمير قرشى أن يقول : إنما السواد بستان لقريش . وناظرهم فى الطاعة للإمام وولاته فلم يبلغ منهم شيئاً ؛ لأنهم لم ينكروا الطاعة للإمام ما أقام العدل وأمضى الحق وأحيا السنة وأمات البدعة ، وإنما أنكروا طاعة الإمام وولاته إن جاروا عن القصد وانحرفوا عن الطريق . وناظرهم فى نفسه فلم يبلغ منهم شيئاً ، أنكروا عليه أن يعظهم وأن يسير فيهم سيرة الأمير ، وطلبوا إليه أن يعتزل الإمارة ليليها من هو أقدم منه بالإسلام عهداً ، وأكرم منه أباً ، وأجدر منه أن يقيم حدود الإسلام .

ويظهر أن معاوية لم يستيئس من إصلاح هؤلاء النفر فحسب ، وإنما خافهم أيضاً على أهل الشام . وكان معاوية كثير الخوف على أهل الشام ، فكتب إلى عثمان يستعفيه من إقامتهم عنده ، فأعفاه ، وتقدم إليه فى أن يردهم إلى مصرهم ؛ فلم يكادوا يعودون إلى الكوفة حتى أطلقوا ألسنتهم فى سعيد وفى معاوية وفى عثمان ، وحتى انتشرت دعوتهم شيئاً ما . فأعاد سعيد الكتابة إلى عثمان يستعفيه من إقامة

هؤلاء الناس فى مصرهم ، فأعفاه عثمان وأمره أن ينفيهم مرة أخرى إلى الجزيرة عند عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وكان أميراً لمعاوية على حمص والجزيرة . فأرسلوا إلى عبد الرحمن ، وتلقاهم أشد لقاء وأعنفه ، وجعل يسومهم الخسف ، ويعظم لهم أمر نفسه وأمر أبيه وأمر قريش ، لا بالمناظرة والحجاج ، بل بالقول الغليظ والسيرة التى هى أغلظ من القول ، وجعل لا يركب إلا أمشاهم حول ركابه ، يؤنبهم ويزجرهم ويذلهم ويجعلهم للناس نكالاً ؛ فلما شق عليهم ذلك أظهروا الطاعة وأعلنوا التوبة واستقالوه ، فأقال عثرتهم ، وأرسل الأشتر واحداً منهم بتوبتهم وطاعتهم إلى عثمان . وأقبل الأشتر على عثمان فقال له وسمع منه . وأذن له عثمان فى أن ينزل من الأرض حيث يشاء ، فآثر الرجوع إلى أصحابه والإقامة عند عبد الرحمن . ولكن هذه الإقامة لم تطل ؛ فقدم سعيد على عثمان واستخلف على الكوفة ، فوثب أصحاب المنفيين أو المسيرين وأجمعوا أمرهم أن يحولوا بين سعيد وبين الرجوع إليهم ، وكتبوا إلى أصحابهم يستقدمونهم فأقبلوا مسرعين حتى بلغوا الكوفة ، وأقسموا لا يدخلها عليهم سعيد ما حملوا سيوفهم . ثم خرجوا فى جمع منهم يقودهم الأشتر حتى بلغوا الجرعة ، فانتظروا سعيداً حتى ردوه ، وأكرهوا عثمان على أن يعزله عنهم ويولى عليهم غيره ، واختاروا أبا موسى الأشعرى ، فلم يجد عثمان بداً من توليته عليهم . وكذلك أكره على أن يعزل عامله على الكوفة مرتين : عزل الوليد لأنه لها وعبث واستعلى وشرب الخمر ، وعزل سعيداً لأنه اشتد وقسا وأسرف فى تمييز قريش . ولم يقترح عليه أهل الكوفة أحداً حين عزل الوليد ، فولى عليهم سعيداً ، فلما أكرهوه على عزل سعيد لم يتركوا له اختيار الأمير ، وإنما اختاروه هم . واختاروا رجلاً من أصحاب النبى وهو إلى ذلك يمان ، فولى أمرهم أبو موسى الأشعرى ، وثابوا إلى شىء من الاستقرار ، ولكنه استقرار لم يدم إلا قليلاً .

وكان أبو موسى الأشعرى عامل عمر على البصرة ، فأقره عليها عثمان أعواماً ، يقول بعض الرواة إنها ثلاثة ، ويقول أكثرهم إنها ستة . والكثرة من أهل البصرة مضرية . وفيهم ربعيون كثيرون ، وفيهم قلة يمانية . ولأمر ما أحب عمر أن يولى رجلا من اليمن على البصرة وكثرة أهلها مضرية ، وأن يولى ثقفياً هو المغيرة بن شعبة على الكوفة وكثرة أهلها يمانية . وأن يولى قرشيين مضريين على الشام ومصر ، وكثرة العرب فيهما يمانية أيضاً ، يريد بذلك فى أكبر الظن أن يقاوم العصبية حتى يزيلها ، فيخالف بين عصبية الولاة وعصبية الرعية . وقد استقامت أمور البصرة فى عهد أبى موسى أيام عثمان أعواماً ، لم ينكر أهلها شيئاً من أميرهم ولم ينكر الأمير شيئاً من رعيته . وكان أبو موسى رجلا من أصحاب النبى مقدّماً فيهم ، كريم السيرة جميل الهدْى ممعناً فى الفتح . ولكن العصبية ظهرت أيام عثمان ، وجعل كل حى من أحياء العرب ينظر إلى نفسه وإلى حظه . نظرت قريش وقرابة عثمان خاصة ، فإذا ثلاث من الولايات الأربع الكبرى يليها أمراء من قريش : الوليد بن عقبة فى الكوفة وبعده سعيد ، ومعاوية بن أبى سفيان فى الشام ، وعمرو بن العاص فى مصر وبعده عبد الله بن سعد بن أبى سرح .

فلم يبق إلا مصر واحد من هذه الأمصار الكبرى لم يل أمره أموى ولا قرشى ولا مضرى ، وإنما وليه رجل من أهل اليمن . فكان مركز أبى موسى بين هؤلاء الولاة غريباً شاذاً ، هو اليمنى الوحيد الذى يلى مصراً ذا خطر ، ومصراً كثرة أهله مضرية . وما من شك فى أن قريشاً تنبهت لذلك. وتنبّهت له قرابة عثمان، وتنبّهت له المضرية نفسها فى البصرة . فيقول بعض الرواة إن رجلا مضريًّا من بنى ضبة ، هو غيلان بن خرشة الضبى ، خرج إلى عثمان بن عفان فقال : أما لكم صغير

وفتستشبّوه فتولوه البصرة ؟ حتى متى يلى هذا الشيخ البصرة ؟ يعنى أبا موسى ، كان وليها بعد موت عمر ست سنين ، فعزله عثمان . ويقول آخرون : إن بعض الكور المفتوحة انتقضت على أبى موسى ، فخطب الناس فرغبهم فى الجهاد وحبب إليهم أن يسعوا إلى عدوهم راجلين. فقبل بعضهم ، وتلبث بعضهم حتى يرى ما يصنع الأمير . فلما خرج أبو موسى نظر الناس فإذا هو راكب وقد حمل أثقاله على أربعين من البغال ، فأقبلوا عليه فقالوا له : احملنا على هذا الفضول ؛ فزجر الناس حتى ارتدوا عنه ، ولكنهم أرسلوا وفداً إلى عثمان يستعفيه من أبى موسى . فلما سألهم عمن يحبون لم يقترحوا أحداً ، وإنما قالوا : من شئت فوله ؛ فإن فى أى الناس اخترته عوضاً منه . وقالوا : ما كل ما نعلم نحب أن نقول ! واتهموا أبا موسى بأنه يأكل أرضهم ويطعم رهطه من الأشعريين ، فعزله عثمان ، واختار لولاية البصرة ابن خاله عبد الله بن عامر بن كريز ، فدخل البصرة والياً عليها وهو ابن خمس وعشرين سنة .

وبلغ أبا موسى تولية هذا الفتى فلم يحرج صدره لذلك ، وإنما قال للناس : « يأتيكم غلام خرّاج ولاّج كريم الجدّات والخالات والعمات يجمع له الجندان »[١] .

ولم يخطئ الشيخ ، فقد كان عبد الله بن عامر فتى من فتيان قريش خرّاجاً ولاّجاً ، ذا حزم وعزم وقوة وبأس ونفوذ من المشكلات ، شغل نفسه وشغل الناس معه بالفتح . ونافس فيه سعيد بن العاص فسبقه ، وسار فى الناس سيرة جد وكرم ومضاء ، فلم يلق من أهل البصرة ما لقى الوليد وسعيد من أهل الكوفة ، وما لقى عبد الله بن سعد بن أبى سرح من أهل مصر . ومصدر ذلك فى أكبر الظن سيرته وحزمه وبعد رأيه من جهة ، وأن الكثرة الكثيرة من رعيته كانت مضرية يلى أمرها مضرى ، فلم ينكروا ولم يشكوا . ومع ذلك لم يسلم مصر عبد الله بن عامر من بعض الشر . وآية ذلك أن فريقاً من أهل البصرة شاركوا فى الخروج على

---

(١) الطبرى فى أحداث سنة تسع وعشرين .

عثمان وكانوا أقل من غيرهم . ولكن هذا يدل على أن المصر لم يكن كله راضياً لا عن عثمان ولا عن واليه . ولم تخل البصرة من بعض ما شكت منه الكوفة ؛ فقد سير بعض أهلها إلى الشام كما سير إلى الشام بعض أهل الكوفة . ولكن تسيير من سير من أهل البصرة كان ظلماً صارخاً أخذ فيه بالظنة ، ولم يلبث معاوية أن تبين ما فيه من جور . فقد سعى ساع إلى عبد الله بن عامر بأن عامر بن عبد القيس يخالف المسلمين فى أمور أحلها الله لهم ؛ فهو لا يأكل اللحم ، ولا يرى الزواج ، ولا يشهد الجمعة . وكتب فيه عبد الله بن عامر إلى عثمان . فقد قال بعض الرواة : إن عثمان استقدمه إلى المدينة ، فلما تبين أنه مكذوب عليه رده إلى مصره موفوراً . وقال آخرون إن عثمان كتب إلى عامله على البصرة أن يسيره إلى معاوية ، فلما أدخل على معاوية وجد عنده طعاماً فشارك فيه حين دعى إليه ، ورآه معاوية يأكل اللحم فتبين الكذب عليه ، وامتحنه فيما اتهم به ، فقال : إنه أمسك عن أكل اللحم من ذبائح القصابين منذ رأى قصاباً يعنف بشاة فى ذبحها وأنه يشهد الجمعة فى مؤخر المسجد ويخرج فى أول الناس ، وإنه أخرج من البصرة حين كان يخطب عليه لتزويجه . فأراد معاوية أن يرده إلى مصره ، ولكنه أبى أن يعود إلى بلد يستحل أهله الوشاية والسعاية والنفى ؛ فأقام بالشام ، ومضى فى زهده ونسكه . وأحبه معاوية . فكان لا يراه إلا سأله عن حاجته ، فيجيب : لا حاجة لى . فلما أكثر عليه معاوية ، قال له عامر : اردد على بعض حر البصرة ؛ فإن الصوم يخف على فى بلدكم . وما أرى أن عثمان قد أتيح له وال استطاع أن يكفيه من قبله من الناس إلا عبد الله بن عامر فى البصرة ومعاوية فى الشام .

فلندع العراق بعد أن رأينا من أمر مصريه ما رأينا . ولننتقل إلى الشام بعد أن نلاحظ أن الناس لم ينقموا من عبد الله بن عامر إلا قرابته من عثمان وحداثة سنه ، وأنه جاء بعد أبى موسى ، وأنه سار فى الناس سيرة قرشية لعلها لم تكن تلائم هدى أصحاب النبى ، ولكنها لاءمت عصبية المضريين وطموحهم إلى الفتح وشرههم إلى الغنيمة .

وكأن عبد الله بن عامر قد كان يعرف ما ينقم الناس من أمر توليته ، فحرص على أن يبين للناقمين أنه كان للولاية أهلا وبها جديراً . ولعله أسرف بعض الإسراف في أمور الدين . فقد قيل إنه أمعن في الفتح وبلغ منه ما أراده مرة . فقيل له . لم يبلغ أحد من الفتح ما بلغت فقال : لا جرم لأجعلن شكرى لله على ذلك أن أحرم بالعمرة من حيث انتهيت . ولامه عثمان على أن أحرم من أعماق فارس على حين أن للإحرام أماكن معلومة لا يحرم قبلها إلا مسرف على نفسه . وهذه القصة نفسها تدل على مقدار ما كان عبد الله بن عامر يبذل من الجهد ليحمد الناس سيرته في الدين والدنيا جميعاً .

وكان معاوية أعظم الولاة حظاً من كل شيء أيام عثمان وكان والياً لعمر على دمشق، فلما مات أخوه يزيد بن أبي سفيان وكان والى عمر على الأردن، ضم عمر إلى معاوية عمل أخيه، وشكر ذلك له أبو سفيان: ولكن عمر لم يحاب معاوية ولم يرد أن يعزى أبا سفيان عن موت ابنه بضم عمله إلى أخيه، وإنما رضى عن معاوية ورأى فيه كفاية وعزماً وحزماً: فاستكفاه الأردن فكفاه وقد مات عمر ومعاوية على هذين الجندين، فأقره عثمان عليهما، كما أقر عمال عمر جميعاً عامه الأول. ولكن عبد الرحمن بن علقمة الكنانى عامل عمر على فلسطين يموت، فيضم عثمان فلسطين إلى معاوية. ثم يمرض عمير بن سعد الأنصارى عامل عمر على حمص ويستعفى عثمان من عمله، فيعفيه ويضم حمص إلى معاوية. فتخلص له أرض الشام كلها. ويصبح أعظم العمال خطراً وأعلاهم قدراً أيام عثمان. فهو قد اجتمعت له الأجناد الأربعة، وأصبح بحكم مركزه الجغرافى قوياً إلى حد غير مألوف. وقد وقعت ولايته بين الحجاز وفيه أمير المؤمنين ومركز الخلافة. ومصر، وهي الولاية التي تكاد تدانى ولايته قوة وبأساً وإن زادت عليها خصباً وثراء. وهو على ساحل بحر الروم وعلى حدود الروم أيضاً يستطيع إن شاء الله أن يستمد الخليفة، ويستطيع إن شاء الله أن يمد الخليفة، ويستطيع كذلك أن يستمد مصر ويمدها. ثم أمامه بابان عظيمان من أبواب الجهاد: البحر من جهة، وثغور الروم فى البر من جهة أخرى. فهو يستطيع أن يرفع شأن الدولة ويرفع شأن نفسه، وأن يعلى كلمة الإسلام، ويبنى لنفسه مجداً لا يستطيع أحد من العمال أن يطاوله.

وقد طال عهد معاوية بالشام، فعرفه أثناء خلافة عمر كلها وأيام خلافة

عثمان كلها وقد أحب أهل الشام وأحبه أهل الشام ورضى عنه الخليفتان جميعاً وأصبح لطول ولايته وحسن مدخله إلى نفوس رعيته أشبه بالملك منه بالوالى. فليس تاريخ الخلافة يعرف والياً أتيح له من طول الولاية واتصالها واستقرارها وتدرجها فى الاتساع مثل ما أتيح لمعاوية. وليس غريباً أن يرضى معاوية عن نفسه وحظه حين يرى العمال من حوله يعزلون بين حين وحين أثناء خلافة عمر وعثمان، ويرى نفسه مستقرًّا لا يريم، والولايات تضم إليه واحدة فى إثر الأخرى. ولو قد كان معاوية مقصراً فى عمله أو جائراً على رعيته لما أقرّه عمر ولا أعفاه من العزل. بل من العقوبة إن اقتضى الأمر أن يعاقب. وأكبر الظن أنه لم يغير سيرته فى أهل الشام بعد وفاة عمر واستخلاف عثمان. رضى عن سيرته حين كان الخليفة متشدداً متحرجاً، فلم ير بالإقامة عليها بأساً حين أصبح الخليفة هيناً ليناً سمحاً. ولهذا لم يشارك أهلُ الشام فيما شارك فيه أهل الأمصار الأخرى من اتهام عمالهم والتشهير بهم والخلاف على عثمان. فالذين حاصروا عثمان وفدوا من الكوفة والبصرة ومصر ولم يكن بينهم شامى واحد. ولهذا أيضاً كان عثمان إذا أراد أن يسير أحداً من المخالفين عليه والمنكرين على عماله نفاه إلى الشام، لا يستثنى من ذلك أهل المدينة أنفسهم. فسترى أنه حين ضاق بأبى ذرّ أمره أن يلحق بديوانه فى الشام، وكان أبو ذرّ قد خرج إلى الشام غازياً فكتب اسمه فى الديوان هناك، فرده عثمان إلى الشام خوفاً على أهل المدينة من لسانه أو من عودته. فقد كان حزم معاوية إذن هو الملجأ الذى كان عثمان يلجأ إليه إذا أراد تأديب الذين يسرفون عليه وعلى عماله فى المعارضة. ويجب أن نعترف بأنّ معاوية كان حازماً حتى على عثمان نفسه. فهو قد كان يتلقى المنفيين الذين يرسلهم إليه ويحاول إصلاحهم، فإذا أعياه ذلك طلب إلى عثمان أن يعفيه من نزولهم عليه، ولم يكن عثمان يرد له طلباً.

ولم يقصر معاوية فى انتهاز ما أتيح له من حظ، فهو لم يقم فى الشام وادعاً مطمئنًّا يدبر أمر ولايته ولا يزيد على ذلك، وإنما كانت نفسه تنازعه إلى الفتوح نزاعاً شديداً، وكان فى أيام عمر أشبه شىء بالفرس الذى يعض شكيمته تحرقاً

إلى العدو ، ولكن عمر كان يمسكه ويأبى عليه . وكان البحر يدعو معاوية دعاء ملحاً . وكان معاوية يتوسل إلى عمر فى أن يغزيه البحر ، فيشتد عمر فى رفض ما كان يطلب إليه ، حتى حذره مرة من أن يعود إليه بحديث البحر . فلما استخلف عثمان طلب إليه معاوية ما كان يطلب إلى عمر ، فأذن له على ألا يختار هو الغزاة ولا يقرع بين الجند بل يخير الناس ، فمن اختار منهم غزو البحر قبله وأعانه ، ومن لم يختر أقام من أمره على عافية . وما هى إلا أن يتخذ معاوية أسطولاً ويغزو فى البحر خمسين غزاة أو أكثر ، فيثير ذلك غيرة الوالى على مصر عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، فيصنع صنيع معاوية ؛ حتى يقول المؤرخون : إن معاوية غزا قبرص من الشام وغزاها ابن أبى سرح من مصر ، فالتقى الجيشان فى الجزيرة .

وكانت إلى معاوية حماية الثغور البرية مما يلى بلاد الروم ، فكان يغير على العدو فى الشتاء والصيف . وكان هذا كله يتيح له من الغنائم والفىء ما يسر الجيش ويسر بيت المال .

وليس من شك فى أن عثمان هو الذى مهد لمعاوية ما أتيح له من نقل الخلافة ذات يوم إلى آل أبى سفيان وتثبيتها فى بنى أمية . فعثمان هو الذى وسع على معاوية فى الولاية فضم إليه فلسطين وحمص ، وأنشأ له وحدة شامية بعيدة الأرجاء ، وجمع له قيادة الأجناد الأربعة ، فكانت جيوشه أقوى جيوش المسلمين . ثم مد له فى الولاية أثناء خلافته كلها كما فعل عمر ، وأطلق يده فى أمور الشام أكثر مما أطلقها عمر . فلما كانت الفتنة نظر معاوية فإذا هو أبعد الأمراء بالولاية عهداً وأقواهم جنداً وأملكهم لقلب رعيته .

وقد كان عثمان يستطيع ، لو أراد أن يحتفظ بسيرة عمر ، أن يقر معاوية على دمشق والأردن ، ويحتفظ بحمص وفلسطين ولايتين تتبعان المدينة مباشرة . ولو قد فعل ذلك لاحتفظ بسيرة عمر أولاً ، ولأتاح للتابعين من شيوخ الصحابة وشباب العرب أعمالاً تحول بينهم وبين الفراغ وتحول بينهم وبين السخط ،

وتحول بينهم وبين الغضب والثورة أو التحريض على الثورة . ولو قد فعل ذلك لحال بين معاوية وبين ما أقدم عليه من الاستئثار حين أضرمت نار الفتنة ، ولأتاح للمسلمين أن يحتفظوا بالأمر شورى بينهم ؛ ولكن هذا الملك الضخم الواسع المتصل مكن لمعاوية فى الأرض ، ويسر له أن يرسل إلى مصر من يقطعها عن عاصمة الخلافة ، وأن يرسل إلى الحجاز ثم إلى بلاد العرب من يحتازها من دون علىّ ، وأن ينظر علىّ ذات يوم فإذا معاوية قد استأثر من دونه بخير ما فى الدولة من الأمصار والأقاليم . وليس لذلك مصدر إلا مهارة معاوية أولاً ، وضخامة ولايته ثانياً .

١١

فإذا تركنا الشام ومضينا نحو الغرب انتهينا إلى مصر . وكان عمر قد ترك عمرو بن العاص والياً عليها ؛ فأقره عثمان كما أقر غيره من عمال عمر وقتاً ما . ولكن العام الأول من ولاية عثمان لم يكد ينقضي حتى جعلت قرابة عثمان تنظر إلى مصر نظرة لا تخلو من طمع فيها وطموح إليها . والناس يختلفون في عزل عمرو عن مصر وتولية عبد الله بن سعد بن أبي سرح عليها : فقوم يزعمون أن المصريين شكوا عمراً إلى عثمان فعزله عنهم . وآخرون يزعمون أن عمراً لم يعزل لسخط المصريين عليه أو ضيقهم به ؛ وإنما هو الكيد عزل أميراً وولى مكانه أميراً آخر . والشيء البين من أحاديث الرواة هو أن عثمان كان يرشح عبد الله بن سعد بن أبي سرح أخاه من الرضاعة لأمر عظيم . فهم يقولون إن عمراً كان قد أغار على إفريقية فأصاب شيئاً من غنيمة ثم رجع . فكان من الطبيعي أن يخلي عثمان بين واليه على مصر وبين ما قبله من الثغور يغير عليها إغارة استطلاع ثم إغارة فتح ، كما كان الشأن بالقياس إلى غيره من العمال في الكوفة والبصرة والشام . ولكن عثمان كف عمراً عن هذا الغزو ، وأرسل إلى إفريقية جيشاً لا يذعن لسلطان الوالي في مصر ، وإنما يتصل مباشرة بالمدينة متخطياً عمراً على غير المألوف ، وأمّر عثمان على هذا الجيش عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وقال له : إن فتحت عليك إفريقية فلك خمس الخمس من الغنيمة .

وطبيعي أن يغضب لذلك عمرو بن العاص ، لأن عثمان خصّ به نظرائه من العمال . فلم يكن عثمان يرسل الجيوش من قبله مباشرة إلى الثغور ، وإنما كان ذلك إلى العمال ، يغزو معاوية الروم ويغزو عامل البصرة والكوفة بلاد الفرس ، يؤامرون الخليفة في ذلك ، ولكن لهم الرياسة والإشراف ، لا يتخطون ولا يفتات عليهم .

وقد احتفل عثمان لفتح إفريقية فرمى عبد الله بن سعد بن أبى سرح بالرجال وسرّح معه نفراً من أصحاب النبى وجماعة من شباب قريش وعدداً غير قليل من الأنصار ، وأمره إذا فرغ من إفريقية أن يرسل فريقاً من جيشه لغزو الأندلس من قبل البحر . وقد أتيح لابن أبى سرح فتح إفريقية ، وأتيحت له غنائم كثيرة قسمها بين الناس ، وأخذ لنفسه خمس الخمس وأرسل سائره إلى عثمان . وقيل إن مروان بن الحكم اشترى خمس الخمس بمائة ألف دينار أو مائتى ألف ، وأدّى بعض الثمن ووهب له عثمان سائره . قال الرواة : فسخط الجيش لما آثر عثمان به عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وأرسلوا إلى عثمان وفداً يراجعه فى ذلك . فقال لهم عثمان : أنا نفلته ما أخذ ، فإن أقررتموه فذاك ، وإن سخطتم فهو ردٌّ . قال القوم : قد سخطنا . قال عثمان : فهو ردٌّ إذن . قال القوم : فاعزله عنا ، فلن تحسن الصلة بينه وبيننا بعد الذى كان . فأجابهم عثمان إلى ما أرادوا ، وكتب إلى عبد الله يأمره برد ما أخذ ويعزله عن إفريقية . وعاد عبد الله بعد ذلك إلى مصر وفى نفسه شىء من الحسرة وخيبة الأمل ، فقد فتح الله على يديه إقليما ذا خطر ، ثم رُدّ هو عن هذا الإقليم الذى فتحه ، ولم يتح له حتى أن يحتفظ بالنفل الذى نفله عثمان إياه . وما من شك فى أن قرابة عثمان غضبت لعبد الله بن سعد ، وأبت إلا أن تعوّضه مما فقد خيراً منه ، فما زالت بعثمان حتى ولاّه خراج مصر ، وترك لعمرو صلاتها وحربها . ولم يكن بدٌّ من أن يكون الخلاف بين هذين العاملين . فجائز أن يكون عمرو قد أغرى بعبد الله وحرض عليه حتى استرد الخليفة منه ما قد نفله وعزله عن إفريقية . ومهما يكن من شىء فقد ثار الخلاف بين الرجلين ، فكتب عبد الله إلى عثمان أن عمراً قد كسر علىّ الخراج . وكتب عمرو إلى عثمان أن عبد الله قد أفسد علىّ حيلة الحرب . وكان عثمان خليقاً أن يدعو عبد الله إلى المدينة ويترك لعمرو ولاية مصر ؛ فقد مات عمر وهو راض عن ولايته . فإذا لم يكن بد من التغيير فقد كان عثمان خليقاً أن يعزل الرجلين جميعاً ويجعل أمور مصر إلى غيرهما من قريش أو من غير قريش . كان ذلك أحرى أن يخفف من حفيظة عمرو ، وأن يؤجل انقسام قريش . ولكن عثمان

عزل عمراً وجمع لعبد الله صلاة مصر وحربها إلى ما كان يلي من الخراج ، فاتخذ لنفسه من عمرو علواً .

ثم لم يقف أمر عثمان مع عمرو عند هذا الحد ؛ فقد اتهمه فى أمانته معرّضاً مرة ومصرحاً مرة أخرى . دخل عليه عمرو ذات يوم وعليه جبة محشوة ، فقال له عثمان : ما حشو جبتك ؟ قال : حشوها عمرو . قال عثمان : ما عن هذا سألتك فقد علمت أنك فيها ؛ إنما سألتك أحشوها قطن أم غيره ؟

وأرسل عبد الله بن سعد بن أبى سرح إلى عثمان من مصر مالاً كثيراً ، فدخل عمرو على عثمان حين وافى هذا المال ، فقال له عثمان : هل تعلم أن تلك اللقاح قد درّت بعدك يا عمرو ؟ قال عمرو : وقد هلكت فصالها . أراد عثمان أن عمراً كان يحتجن المال من دونه . وأراد عمرو أن عامل عثمان يكلف أهل مصر فوق ما يطيقون .

ولم يكن عبد الله بن سعد بن أبى سرح رجل صدق ، ولم يكن المسلمون يرضون عنه ؛ فهو كان من الذين اشتدوا على النبى وأسرفوا فى السخر منه ، وقد نزل القرآن بكفره وذمه . فقد كان عبد الله يقول ساخراً من القرآن : سأنزل مثل ما أنزل الله .

وقد أهدر النبى دم عبد الله بن سعد بن أبى سرح يوم الفتح . ولكن عثمان جاء به مسلماً إلى النبى ، فلم يجد النبى عليه سبيلاً . وما من شك فى أن سيرة عبد الله فى مصر لم تكن رضاً لأهلها ؛ فهو كان يكلفهم فوق ما يطيقون ، كما عرّض بذلك عمرو بن العاص . وهو كان فى أكبر الظن يظهر من الغطرسة والكبرياء على غير قريش من عرب مصر ما أحفظهم وأضجرهم ، حتى شكوه إلى عثمان ، وحتى كتب إليه عثمان ينذره ويأمره أن ينزع عما تكره الرعية . فلم يحفل بذلك ، وإنما عاقب الذين شكوه وضرب منهم رجلاً حتى قتله (١) هنالك لم يغضب المصريون وحدهم ، وإنما غضب معهم أصحاب النبى ، واشتدوا على

(١) أنساب الأشراف للبلاذرى ، طبعة القدس صفحة ٢٦ .

عثمان فى ذلك حتى عزله ، وكتب بعهد مصر لمحمد بن أبى بكر ، وأرسل معه جماعة من المهاجرين والأنصار ليحققوا ما بين عبد الله بن سعد وبين المصريين . فقد كان على طلب إليه أن يعزله أولا ، وأن يحقق ما اتهم به من القتل ثانياً ؛ فإن ثبتت عليه التهمة أقاد منه . وكانت تولية عثمان لهذا الرجل مصر شؤماً على جماعة المسلمين ؛ فمن مصر خرج الثائرون الأولون على عثمان واجتمع إليهم بعد ذلك غيرهم من أهل المصريين الآخرين فى العراق . ومع ذلك فقد كان عبد الله ابن سعد شجاعاً جريئاً مقداماً موفقاً فى الفتح ؛ فهو قد أخرج الروم من إفريقية ، وشارك فى غزو قبرص ، وهزم أسطول الروم فى ذات الصوارى ، ولكنه كان صاحب دنيا ولم يكن صاحب دين .

١٢

ولن يتم الحديث عن سياسة عثمان وعامله لمصر حتى نذكر فتيين من فتيان قريش كان لهما فيما انتهت إليه هذه السياسة من الثورة أثر أى أثر ، وهما محمد ابن أبى حذيفة ومحمد بن أبى بكر . فأما محمد بن أبى حذيفة فقد كان فتى شريفاً لأب شريف كريم النسب فى قريش عظيم المكانة بين زعمائها ؛ فأبوه عتبة ابن ربيعة أبو هند زوج أبى سفيان وأم معاوية . وقد كان أبو حذيفة من السابقين إلى الإسلام : أسلم قبل أن يدخل النبى دار الأرقم ويدعو فيها ، وهاجر بامرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو إلى بلاد الحبشة . ثم هاجر إلى المدينة مع غيره من المهاجرين . وهو إلى سابقته وهجرته إلى الحبشة ثم إلى المدينة أحد الذين أبلوا فى الدين أحسن البلاء وأكمله ؛ فقد شهد بدراً . وشهدها فى حماسة ويقين وإيمان ، حتى دعا أباه فى الموقعة إلى المبارزة . ثم هو قد شهد المشاهد كلها مع النبى . ثم هو بعد ذلك قد مات شهيداً فى موقعة اليمامة أيام أبى بكر . وقد ولد له ابنه محمد فى الحبشة ؛ فكان إذن حديث السن حين مات عنه أبوه : ولم يكن قد بلغ الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة بعد .

وقد كفله عثمان بعد موت أبيه فكان ربيبه ، ثم تعهده أثناء شبابه . فلما استخلف عثمان ظن الفتى أن سيصيبه شىء من الولاية كما أصاب غيره من فتيان قريش . ومن ذوى قرابة عثمان بنوع خاص . ولكن الفتى : فيما يقول الرواة ، لم يكن شديد الاستمساك بدينه ؛ فقد يقال إنه شرب الخمر . وإن عثمان أقام عليه الحد . قد يثبت هذا وقد لا يثبت . ولكن المهم أن الفتى طلب ذات يوم إلى عثمان أن يوليه عملاً . فأبى عليه عثمان ذلك ؛ وقال له : لو عرفت فيك كفاية لوليتك . ولكنك لست هناك . قال الفتى فأعطنى إذن على الخروج والاضطراب

فى الأرض ، فأعانه عثمان وأعطاه مالاً ، وأذن له أن يذهب إلى حيث شاء كغيره من الناس. فذهب الفتى إلى مصر . وما من شك فى أنه خرج من عند عثمان مغاضباً له . إما لأنه أقام عليه الحد إن كان قد فعل ، وإما لأنه أبى عليه الولاية التى لم يبخل بها على الوليد وسعيد وعبد الله بن عامر . ولم يكد يصل إلى مصر حتى أظهر المعارضة لسياسة عثمان والشغب على عبد الله بن سعد بن أبى سرح .

وأما محمد بن أبى بكر فحسبه شرفاً أن يكون ابن الصديّق وأخا عائشة أم المؤمنين . وهو بعد هذا كله فتى قرشى يعتز بما كانت قريش تعتز به ؛ ويعتد بمكانته من أبيه الذى كان آثر الرجال عند النبى ، ومن أخته التى كانت آثر النساء عند النبى أيضاً . وما من شك فى أنه كان يطمع فى أن يعرف له عثمان هذه المكانة ويرعى حرمة أبيه وأخته . ويكرمه ببعض الولايات التى كان يكرم بها قوماً من ذوى قرابته لم يكونوا أعز منه نفراً ولا أسبق منه سابقة ، ولكن عثمان لم يلتفت إليه ولم يحفل به . وما كان عثمان يستطيع أن يولى شباب قريش جميعاً ، ولا كان يستطيع أن يولى الكثرة من شباب قريش ؛ فالأعمال محدودة وطلابها كثيرون . ولكن عثمان أثار فى نفوس هؤلاء الشباب من قريش ضروباً من الموجدة والغيرة والحسد حين آثر فريقاً منهم دون فريق . فخرج محمد بن أبى بكر إلى مصر كما خرج إليها محمد بن أبى حذيفة والتقيا فيها أو فى طريقهما إليها . ولم يكادا ينزلان مصر حتى أحس عبد الله بن سعد أنهما لم يقبلا لخير ، فأنذرهما وحذّرهما . ولكنهما لم يحفلا بنذير ولا بتحذير . وكان محمد بن أبى حذيفة أكثرهما صراحة فى النقد . وأشدهما معارضة للخليفة وواليه ، بل كان لا يتردد فى أن يواجه الوالى بما يكره ، ويواجهه بذلك على ملأ من الناس . فقد قال الرواة إنه كان يجهر بالتكبير بعد أن يفرغ الأمير من صلاته ؛ ليلفت الناس إليه من جهة ، وليتحدى الأمير من جهة أخرى . ويقال إن عبد الله بن سعد دعاه فنهاه عن ذلك فلم ينته ؛ فحمقه وأنذره بأن يقارب بين خطوه ؛ فلم يظهر الفتى عناية به أو التفاتاً إليه . وخرج عبد الله للقاء الروم فى ذات الصوارى ؛

فخرج معه المحمدان ، ولكنه أشفق منهما على الجيش ، فاضطرهما إلى أن يبحرا فى سفينة ليس فيها أحد من المسلمين غيرهما ، وإنما فيها معهما الأقباط ، ويقال إن محمد بن أبى بكر مرض فأقام بمصر ولم يخرج وخرج محمد بن أبى حذيفة . وأكبر الظن أن أحدهما أقام ليفسد الأمر من وراء عبد الله ، وأن الآخر خرج لينشر دعوته فى الجيش .

وقد كتب النصر فى هذه الموقعة للمسلمين ، وعاد عبد الله ظافراً بقهر أسطول الروم . ولكنه عاد وقد أفسد عليه ابن أبى حذيفة جيشه بما أظهر من النكير عليه وعلى خليفته ، وبما كان يقول للمحاربين من أنهم يسعون إلى الجهاد ، والجهاد وراءهم فى المدينة حيث يقيم عثمان فيسوس الأمة على غير كتاب الله وسنة رسوله وسياسة صاحبيه ، ويعزل أصحاب النبي عن العمل ويولى أمور المسلمين جماعة من الفساق وأصحاب المجون . وانظروا إلى واليكم وقائدكم إلى الجهاد ، إنه رجل نزل القرآن بكفره ، وأهدر النبي دمه ، ولكن عثمان يوليه أمركم على ذلك لأنه أخوه فى الرضاعة . وانظروا إلى سيرته فيكم ، أترونه يهتدى فيها بهدى النبي وصاحبيه ؟ أترونه لا يغير ولا يبدل ولا يكلفكم من أموالكم وأعمالكم ما لا تطيقون ؟ كان ابن أبى حذيفة يذيع هذا فى الجيش ، وكان ابن أبى بكر يذيع هذا فى المصر . وقد أخذ المصريون بعد عودة الجيش يجتمعون إليهما ويسمعون منهما . فأشفق منهما عبد الله بن سعد ، وشكاهما إلى عثمان واستأذنه فى البطش بهما . ويقال إن عثمان أرسل عمار بن ياسر إلى مصر ليعلم له علم هذين الفتيين ، ولينصح لهما ويردهما إلى الهدوء ، وليعلم له علم عبد الله بن سعد نفسه. فلم يكد عمار يصل إلى مصر حتى انضم إلى هذين الفتيين فيما يقول الرواة ، وجعل يحرض معهما على عثمان ، حتى ضج من ذلك عبد الله بن سعد ، وكتب إلى الخليفة يلح عليه فى البطش بثلاثتهم . فكتب إليه عثمان ينذره ويلومه ويأمره بأن يرفق بعمار ويرده إلى المدينة مكرماً موفوراً ، وبأن يترك محمد بن أبى بكر لأبيه الصديق وأخته أم المؤمنين ، وبأن يترك محمد بن أبى حذيفة فهو ابنه وربيبه وفرخ قريش .

وأكاد أقطع بأن عماراً لم يرسل إلى مصر ولم يشارك هذين الفتيين فيما كانا بسبيله من التحريض ؛ وإنما هي قصة اخترعها العاذرون لعثمان فيما كان بينه وبين عمار قبل ذلك أو بعده ، مما سنراه بعد حين . ولكن الشيء المحقق هو أن المحمدين نزلا مصر وحرّضا فيها على عثمان وعامله ؛ وهمّ عثمان أن يترضاهما بالرفق . فيقال : إنه أرسل إلى محمد بن أبي حذيفة مالاً وكسوة ، فعرض الفتى ذلك في المسجد وقال : انظروا يا معشر المسلمين إلى عثمان ؛ يريد أن يخدعني عن ديني بالرشوة .

وما زال المحمدان بالمصريين يذيعان فيهم دعوة المعارضة ، حتى استجاب لهما خلق كثير ، وحتى كان المصريون أشد الناس خلافاً لعثمان وانتقاضاً عليه . وليس لسخط هذين الفتيين مصدر فيما نعلم إلا ما أثار عثمان في نفوس كثير من الشباب القرشيين وغير القرشيين من الغيظ والموجدة حين آثر فريقاً من الشبان دون فريق ، وحين قصر بذوي المكانة والكفاية وحسن البلاء عن المناصب والأعمال ، واختص بالمناصب والأعمال قوماً آخرين ، مهما تكن مكانتهم وكفايتهم فهم ليسوا من أصحاب السابقة ولا من ذوي المكانة الممتازة والسيرة الحميدة دائماً . ويكفي أن تقرأ هذا الكتاب الذي أرسله الأشتر إلى عثمان حين ردّت الكوفة سعيد بن العاص وكتب عثمان إلى أهلها يعظهم ويبصرهم ويسألهم عما يريدون — يكفي أن تقرأ هذا الكتاب لترى مبلغ سخط الناس والشباب منهم خاصة على عثمان ؛ لأنه آثر بالأمور العامة فريقاً من ذوي قرابته لا يمتازون من غيرهم بقليل أو كثير .

كتب الأشتر إلى عثمان يقول : « من مالك بن الحارث إلى الخليفة المبتلى الخاطئ الحائد عن سنة نبيه النابذ لحكم القرآن وراء ظهره .

أما بعد ، فقد قرأنا كتابك ؛ فانهَ نفسك وعمالك عن الظلم والعدوان وتسيير الصالحين ؛ نسمح لك بطاعتنا . وزعمت أنا قد ظلمنا أنفسنا ، وذلك ظنك الذي أرداك فأراك الجور عدلا والباطل حقاً . وأما محبتنا فأن تنزع وتتوب وتستغفر الله من تجنيك على خيارنا ، وتسييرك صلحاءنا ؛ وإخراجك إيانا من ديارنا ، وتوليتك الأحداث علينا . وأن تولي مصرنا عبد الله بن قيس وأبا موسى الأشعري

وحذيفة ، فقد رضيناهما . واحبس عنا وليدك وسعيدك ومن يدعوك إليه الهوى من أهل بيتك إن شاء الله . والسلام »[1] .

فأنت ترى أن الأشتر لم يخلع طاعة عثمان ولم ينكر إمامته ، وإنما اتهمه بالجور والانحراف عن السنة ونبذ القرآن وراء ظهره ، وتولية الأحداث ، ونفى من نفى من المسلمين . وطلب إليه أن يكف عن هذا كله ، وأن يولى على صلاة الكوفة وحربها أبا موسى الأشعرى وعلى خراجها حذيفة بن اليمان ، فإن فعل فله طاعة أهل الكوفة .

وانظر إلى قوله : « واحبس عنا سعيدك ووليدك ومن يدعوك إليه الهوى من أهل بيتك إن شاء الله » ؛ فإنه يصور ما أحفظ أهل الكوفة وغاظهم من إيثار عثمان لأهل بيته ، وتنحيته ذوى المكانة من أمثال أبى موسى وحذيفة . قال الرواة : فلما قرأ عثمان هذا الكتاب ؛ قال : اللهم إنى تائب . وكتب إلى أبى موسى وحذيفة : أنتما لأهل الكوفة رضاً وانا ثقة ، فتوليا أمرهم وقوما به بالحق غفر الله لنا ولكما ووصل إلى عثمان قول عتبة بن الوغل :

تصدق علينا يا بن عفان واحتسب   وأمر علينا الأشعرى لياليا

فقال : نعم ! وأشهراً إن بقيت[2] .

(١) أنساب الأشراف للبلاذرى صفحة ٤٦ طبع القدس .
(٢) أنساب الأشراف للبلاذرى صفحة ٤٧ طبع القدس .

١٣

وهناك قصة أكبر الرواة المتأخرون من شأنها وأسرفوا فيها ، حتى جعلها كثير من القدماء والمحدثين مصدراً لما كان من الاختلاف على عثمان ، ولما أورث هذا الاختلاف من فرقة بين المسلمين لم تمح آثارها بعد ، وهى قصة عبد الله بن سبأ الذى يعرف بابن السوداء . قال الرواة : كان عبد الله بن سبأ يهودياً من أهل صنعاء حبشى الأم ، فأسلم فى أيام عثمان ، ثم جعل يتنقل فى الأمصار يكيد للخليفة ويغرى به ويحرض عليه ، ويذيع فى الناس آراء محدثة أفسدت عليهم رأيهم فى الدين والسياسة جميعاً . قالوا إنه ذهب إلى البصرة ، فلم يكد يستقر فيها حتى رُفع أمره إلى عبد الله بن عامر فأخرجه عنها . فذهب إلى الشام ، وهناك لقى أبا ذر ، فلام عنده معاوية فى قوله عن مال المسلمين : إنه مال الله . وتأثر أبو ذر بحديث ابن السوداء ، فكلم معاوية . ثم لقى عبادة بن الصامت ، وأراد أن يتحدث إليه بمثل ما تحدث به إلى أبى ذر ، فتعلق به عبادة وقاده إلى معاوية وخوفه شره على الشام ، فأخرجه معاوية من الشام . فذهب إلى مصر وفى مصر وجد أرضاً خصبة لكيده ومكره وبدعه ؛ فكان يتحدث إلى الناس بأن النبى محمداً أحق بالرجعة من عيسى بن مريم ويذكر قوله عز وجل : « إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد » . وكان يتحدث إليهم بأن لكل نبى وصياً ، وبأن وصى النبى محمد هو على . وبأن علياً خاتم الأوصياء كما أن محمداً خاتم الأنبياء ، وإلى ابن السوداء يضيف كثير من الناس كل ما ظهر من الفساد والاختلاف فى البلاد الإسلامية أيام عثمان . ويذهب بعض إلى أنه أحكم كيده إحكاماً ، فنظم فى الأمصار جماعات خفية تستتر بالكيد وتتداعى فيما بينها إلى الفتنة ؛ حتى إذا تهيأت لها الأمور وثبت على الخليفة . فكان ما كان من الخروج والحصار وقتل الإمام .

ويخيل إلى أن الذين يكبرون من أمر ابن سبأ إلى هذا الحد يسرفون على أنفسهم وعلى التاريخ إسرافاً شديداً . وأول ما نلاحظه أنا لا نجد لابن سبأ ذكراً فى المصادر المهمة التى قصّت أمر الخلاف على عثمان؛ فلم يذكره ابن سعد حين قص ما كان من خلافة عثمان وانتقاض الناس عليه ، ولم يذكره البلاذرى فى أنساب الأشراف ، وهو فيما أرى أهم المصادر لهذه القصة وأكثرها تفصيلا . وذكره الطبرى عن سيف بن عمر ، وعنه أخذ المؤرخون الذين جاءوا بعده فيما يظهر .

ولست أدرى أكان لابن سبأ خطر أيام عثمان أم لم يكن . ولكنى أقطع بأن خطره ، إن كان له خطر ، ليس ذا شأن . وما كان المسلمون فى عصر عثمان ليعبث بعقولهم وآرائهم وسلطانهم طارئ من أهل الكتاب أسلم أيام عثمان ، ولم يكد يسلم حتى انتدب لنشر الفتنة وإذاعة الكيد فى جميع الأقطار . ولو قد أخذ عبد الله بن عامر أو معاوية هذا الطارئ الذى كان يهودياً فلم يسلم إلا كائداً للمسلمين ، لكتب أحدهما أو كلاهما فيه إلى عثمان ، ولبطش به أحدهما أو كلاهما . ولو قد أخذه عبد الله بن سعد بن أبى سرح لما أعفاه من العقوبة التى كاد ينزلها بالمحمدين لولا خوفه من عثمان . والذى يكتب إلى عثمان يستأذنه فى البطش بابن أبى بكر وابن أبى حذيفة وعمار بن ياسر فى بعض الروايات ، خليق ألا يعفى من عقوبته رجلاً من أهل الكتاب قد اتخذ الإسلام وسيلة لإثارة الفرقة بين المسلمين . وتشكيكهم فى إمامهم بل فى دينهم كله . ولم يكن أيسر من أن يتبع الولاة هذا الطارئ ومن أن يأخذوه ويعاقبوه وهم كانوا مهرة فى تتبع المعارضين وإخراجهم من ديارهم وإرسالهم إلى معاوية أو إلى عبد الرحمن بن خالد ابن الوليد .

ومن أغرب ما يروى من أمر عبد الله بن سبأ هذا أنه هو الذى لقن أبا ذر نقد معاوية فيما كان يقول من أن المال هو مال الله . وعلمه أن الصواب أن يقول إنه مال المسلمين . ومن هذا التلقين : إلى أن يقال إنه هو الذى لقن أبا ذر مذهبه كله فى نقد الأمراء والأغنياء وتبشير الكانزين للذهب والفضة بمكاو من نار تكوى بها

جباههم وجنوبهم وظهورهم – لا يوجد أمد بعيد . وما أعرف إسرافاً يشبه هذا الإسراف . فما كان أبو ذرّ فى حاجة إلى طارئ محدث فى الإسلام ليعلمه أن للفقراء على الأغنياء حقوقاً ، وأن الله يبشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بعذاب أليم . وأن المال الذى يكسبه المسلمون حين يظهرون على العدو ، أو الذى يؤديه المسلمون إلى بيت المال زكاة أو خراجاً ، أو الذى يؤديه الذميون إلى بيت المال جزية أو خراجاً ، هو مال المسلمين يجب أن يضاف إليهم فى القول وأن يردّ عليهم بالفعل . لم يكن أبو ذر بحاجة إلى هذا الطارئ ليعلمه هذه الحقائق الأولية من حقائق الإسلام ، وأبو ذر سبق الأنصار جميعاً وسبق كثيراً جدّاً من المهاجرين إلى الإسلام ، وهو قد صحب النبي فأطال صحبته ، وحفظ القرآن فأحسن حفظه ، وروى السنة فأتقن روايتها ، وشهد سيرة النبي وسيرة صاحبيه فى الأموال والحقوق ، وعرف من الحلال والحرام ما عرف غيره من أصحاب النبي الذين لزموه فأحسنوا لزومه .

فالذين يزعمون أن ابن سبأ قد اتصل بأبى ذر فألقى إليه بعض مقاله يظلمون أنفسهم ويظلمون أبا ذر ، ويرقون بابن السوداء هذا إلى مكانة ما كان يطمع فى أن يرقى إليها .

والرواة يقولون : إن أبا ذر قال ذات يوم لعثمان بعد رجوعه من الشام إلى المدينة : لا ينبغى لمن أدّى الزكاة أن يكتفى بذلك حتى يعطى السائل ويطعم الجائع وينفق من ماله فى سبيل الله . وكان كعب الأحبار حاضر هذا الحديث فقال : من أدى الفريضة فحسبه . فغضب أبو ذر وقال لكعب : يا بن اليهودية ! ما أنت وهذا ؟ أتعلمنا ديننا ! ثم وجأه بمحجنه . فأبو ذر ينكر على كعب الأحبار أن يعلمه دينه ، بل أن يدخل فى أمور المسلمين حتى بإبداء الرأى . مع أن كعب الأحبار مسلماً أبعد عهداً بالإسلام من ابن سبأ ، وكان مجاوراً فى المدينة يصبح ويمسى بين أصحاب النبي . وكان معاشراً لعمر وعثمان ، ثم لا يتحرج من أن يتلقى من عبد الله بن سبأ أصلا من أصول الإسلام وحكماً من أحكام القرآن ! فاعجب لرجل من أصحاب النبي ينكر على كعب أن يجادل فى

الدين ، ثم يتلقى الدين نفسه عن عبد الله بن سبأ !

وأكبر الظن أن عبد الله بن سبأ هذا — إن كان كل ما يروى عنه صحيحاً — إنما قال ما قال ودعا ما دعا إليه بعد أن كانت الفتنة وعظم الخلاف ، فهو قد استغل الفتنة ولم يثرها . وأكبر الظن كذلك أن خصوم الشيعة أيام الأمويين والعباسيين قد بالغوا فى أمر عبد الله بن سبأ هذا ؛ ليشككوا فى بعض ما نسب من الأحداث إلى عثمان وولاته من ناحية ، وليشنعوا على على وشيعته من ناحية أخرى ، فيردوا بعض أمور الشيعة إلى يهودى أسلم كيداً للمسلمين . وما أكثر ما شنع خصوم الشيعة على الشيعة ! وما أكثر ما شنع الشيعة على خصومهم فى أمر عثمان وفى غير أمر عثمان !

فلنقف من هذا كله موقف التحفظ والتحرج والاحتياط ، ولنكبر المسلمين فى صدر الإسلام عن أن يعبث بدينهم وسياستهم وعقولهم ودولتهم رجل أقبل من صنعاء وكان أبوه يهودياً وكانت أمه سوداء، وكان هو يهودياً ثم أسلم لا رغباً ولا رهباً ولكن مكراً وكيداً وخداعاً ، ثم أتيح له من النجح ما كان يبتغى ، فحرض المسلمين على خليفتهم حتى قتلوه ، وفرقهم بعد ذلك أو قبل ذلك شيعاً وأحزاباً .

هذه كلها أمور لا تستقيم للعقل ، ولا تثبت للنقد ، ولا ينبغى أن تقام عليها أمور التاريخ .

وإنما الشىء الواضح الذى ليس فيه شك هو أن ظروف الحياة الإسلامية فى ذلك الوقت كانت بطبعها تدفع إلى اختلاف الرأى وافتراق الأهواء ونشأة المذاهب السياسية المتباينة . فالمستمسكون بنصوص القرآن وسنة النبى وسيرة صاحبه كانوا يرون أموراً تطرأ ينكرونها ولا يعرفونها ، ويريدون أن تواجه ، كما كان عمر يواجهها ، فى حزم وشدة وضبط للنفس وضبط للرعية . والشباب الناشئون فى قريش وغير قريش من أحياء العرب كانوا يستقبلون هذه الأمور الجديدة ، فيها الطمع وفيها الطموح ، وفيها الأثرة وفيها الأمل البعيد ، وفيها الهم الذى لا يعرف حداً يقف عنده ، وفيها من أجل هذا كله التنافس والتزاحم لا على

المناصب وحدها بل عليها وعلى كل شيء من حولها . وهذه الأمور الجديدة نفسها كانت خليقة أن تدفع الشيوخ والشباب إلى ما دفعوا إليه . فهذه أقطار واسعة من الأرض تفتح عليهم ، وهذه أموال لا تحصى تجبى لهم من هذه الأقطار ، فأى غرابة فى أن يتنافسوا فى إدارة هذه الأقطار المفتوحة والانتفاع بهذه الأموال المجموعة ؟ وهذه بلاد أخرى لم تفتح وكل شيء يدعوهم إلى أن يفتحوها كما فتحوا غيرها ؛ فما لهم لا يسبقون إلى الفتح ؟ وما لهم لا يتنافسون فيما يكسبه الفاتحون من المجد والغنيمة وإن كانوا من طلاب الدنيا ؛ ومن الأجر والمثوبة إن كانوا من طلاب الآخرة ؟ ثم ما لهم جميعاً لا يختلفون فى سياسة هذا الملك الضخم وهذا الثراء العريض ؟ وأى غرابة فى أن يندفع الطامعون الطامحون من شباب قريش إلى هذه الأبواب التى فتحت لهم ليجلوا منها إلى المجد والسلطان والثراء ؟ وأى غرابة فى أن يهم بمنافستهم فى ذلك شباب الأنصار وشباب الأحياء الأخرى من العرب ، وفى أن تمتلىء قلوبهم موجدة وحفيظة وغيظاً إذا رأوا الخليفة يحول بينهم وبين هذه المنافسة ، ويؤثر قريشاً بعظائم الأمور ويؤثر بنى أمية بأعظم هذه العظائم من الأمور خطراً وأجلها شأناً ؟

والشىء الذى ليس فيه شك هو أن عثمان قد ولى الوليد وسعيداً على الكوفة بعد أن عزل سعداً . وولى عبد الله بن عامر على البصرة بعد أن عزل أبا موسى . وجمع الشام كلها لمعاوية وبسط سلطانه عليها إلى أبعد حد ممكن بعد أن كانت الشام ولايات تشارك فى إدارتها قريش غيرها من أحياء العرب . وولى عبد الله ابن أبى سرح مصر بعد أن عزل عنها عمرو بن العاص . وكل هؤلاء الولاة من ذوى قرابة عثمان ، منهم أخوه لأمه ، ومنهم أخوه فى الرضاعة . ومنهم من يجتمع معه فى نسبه الأدنى إلى أمية بن عبد شمس .

كل هذه حقائق لا سبيل إلى إنكارها . وما نعلم أن ابن سبأ قد أغرى عثمان بتولية من ولى وعزل من عزل . وقد أنكر الناس فى جميع العصور على الملوك والقياصرة والولاة والأمراء إيثار ذوى قرابتهم بشؤون الحكم . وليس المسلمون الذين

كانوا رعية لعثمان بدعاً من الناس ؛ فهم قد أنكروا وعرفوا ما ينكر الناس ويعرفون فى جميع العصور .

والشيء الذى ليس فيه شك آخر الأمر هو أن عصر عثمان شهد لوناً من المعارضة لم يشهده عصر عمر . وكانت هذه المعارضة تكون فى الأمصار البعيدة ، وهى التى صورناها لك إلى الآن ، وكانت هذه المعارضة تكون فى المدينة نفسها قريباً من عثمان ، وهى التى لم نصورها لك بعد ، ونريد أن نصورها فيما سنستقبل من الحديث بعد أن طوفنا معك فى الأمصار ذات الخطر ، وعلمنا معك علمها وعلم أهلها وجملة ما حدث فيها من الأحداث . والسؤال الذى ينبغى أن يلقى وأن نجتهد فى الإجابة عنه هو : أين نشأت المعارضة لسياسة عثمان : أنشأت فى المدينة مستقر الخلافة ، أم نشأت فى الأمصار ؟ وبعبارة أدق : أنشأت المعارضة بين أصحاب النبى من المهاجرين والأنصار ثم انتقلت عنهم إلى الجند المرابطين فى الأمصار ، أم نشأت فى الجند ثم انتقلت منهم إلى أصحاب النبى فى المدينة ؟

وواضح جداً أن للإجابة عن هذا السؤال خطراً أى خطر . فإن نشأة المعارضة فى المدينة معناها أن أصحاب النبى قد كانوا أول من أنكر على عثمان بعض سياسته فتبعهم الناس ، منهم من اقتصد ومنهم من أسرف فى هذا الاتباع . ونشأة المعارضة فى الأمصار معناها أن الجند هم الذين سبقوا إلى الخلاف ، ثم أقحموا فيه وفى نتائجه أصحاب النبى ، منهم من رضى عن هذا الإقحام ، ومنهم من سخط عليه . وسترى أنا نقف فى الإجابة عن هذا السؤال موقفاً وسطاً ، وأن نرى المعارضة لم تنشأ فى المدينة وحدها ، وإنما نشأت فيها وفى الأقاليم ، بل لعلها نشأت فى المدينة ثم فى أطراف الأقاليم حيث الثغور التى تواجه فيها المسلمون عدوهم . وإذا صح ما نذهب إليه — وما نراه إلا صحيحاً — فقد يكون هذا دليلا على أن هذه المعارضة — سواء أنشأت فى المدينة أم فى الأمصار — إنما كانت ظاهرة طبيعية محتومة دعت إليها ظروف الحياة الاجتماعية أولا ، وظروف الحياة السياسية ثانياً ، وظروف الملاءمة بين أصول الدين وحقائقه وبين طبيعة الحضارة التى اضطر المسلمون إلى لقائها وممارستها آخر الأمر . وما كان لعثمان أن يقاوم

طبيعة الحياة ولا أن يقهر هذه الظروف . فليس من سبيل إلى أن يوجد سلطان ضخم كهذا السلطان الذى أتيح للمسلمين ، ثم لا يكون فيه حكم ومعارضة لهذا الحكم ، ثم لا يكون فيه صراع بين ذلك الحكم وهذه المعارضة ، ثم لا يكون فيه آخر الأمر ما كان من الاصطدام الذى انتهى بالمسلمين إلى أن يسلكوا الطريق التى سلكتها الأمم من قبلهم ومن بعدهم . لأن تطور النظم السياسية والاجتماعية لم يكن قد بلغ أجله بعدُ . وهو لم يبلغ أجله إلى الآن . ولأن العقل لم يكن قد بلغ حظه الأوفى من الرقى . وهو لم يبلغه إلى الآن . والذين يرون ما يحدث الآن من الصراع بين النظم الاجتماعية والسياسية خليقون ألا ينكروا ما كان من الصراع حول النظم السياسية والاجتماعية أيام عثمان فى القرن الأول للهجرة وفى القرن السابع للمسيح .

فلنعد إلى المدينة بعد هذه السياحة الطويلة فى الأمصار ، ولنقم بين عثمان وأصحابه وقتاً ما ، لنرى كيف كانت سيرته فيهم ، وماذا كان رأيهم فيه .

١٤

وأول ما نلاحظ من ذلك ما كان من الصلة بين عثمان وبين هؤلاء النفر الخمسة الذين اختاروه للخلافة وكانوا أول من بايعه بها ، وهم الذين شاركوه فى مجلس الشورى بعهد عمر . وكلهم سبق إلى الإسلام فكان من السابقين الأولين ، وكلهم أبلى فى سبيل الله فأحسن البلاء ، وكلهم رضى عنه النبي حياته كلها ومات وهو عنه راض ، وكلهم كان من العشرة الذين شهد النبي لهم بالجنة . ثم هم يختلفون بعد ذلك فى منازلهم من قريش وقرابتهم من النبي ومكانتهم بين الناس وحظوظهم من الدنيا ونظرهم إليها . وأولهم فى رأى عمر وفى رأى عامة الناس وفى رأيهم هم أنفسهم عبد الرحمن بن عوف ، وكان قريب المكانة من النبي من قبل أمه آمنة بنت وهب ، فهو مثلها من بنى زهرة . وكان يسمى فى الجاهلية عبد عمرو أو عبد الكعبة ، فسماه النبي عبد الرحمن . وكان فى الجاهلية صاحب تجارة بارعاً فيها . وظل بعد إسلامه صاحب تجارة بارعاً فيها . حسن التدبير للمال : ماهراً أى مهارة فى التماسه والظفر به ، ثم فى استثماره والإنفاق منه فى وجوه الخير . ولما هاجر إلى المدينة نزل على سعد بن الربيع الأنصارى . فقال له سعد : أنا أكثر أهل المدينة مالا ، فانظر إلى شطر مالى فخذه ؛ ولى زوجتان فانظر إلى أيهما أعجب إليك فأطلقها لك . قال عبد الرحمن بارك الله لك ! ولكن إذا أصبحت فدلونى على سوقكم . فلما أصبح غدا على السوق ، فباع واشترى وربح وعاد مع المساء ومعه سمن وأقط . وأقام فى المدينة وقتاً ما ، ثم أقبل ذات يوم على النبي وعليه ثياب مزعفرة ، فلما سأله النبي عن ذلك قال : تزوجت . قال النبي « فما أصدقت ؟ » قال : « وزن نواة من ذهب » قال النبي : « فأولم ولو بشاة » . وكان عبد الرحمن يقول : « لقد رأيتنى وما أرفع حجراً إلا ظننت

أنى سأجد تحته ذهباً أو فضة » . ومعنى ذلك أنه كان موفقاً فى السعى إلى المال مسدداً فى التماسه . ثم لم تتصل إقامته فى المدينة حتى أصبح من الأغنياء . وقد قدمنا ما روى من قول النبى له : « إنك غنى وما أراك تدخل الجنة إلا زحفاً ، فأقرض الله قرضاً حسناً يطلق لك قدميك » . وقدمنا كذلك ما روى من حديث عائشة حين أنبئت بمقدم عير عبد الرحمن وما كان من تصدقه بالعير كلها وما حملت . وقدمنا كذلك ما روى من أن عبد الرحمن قد ترك ميراثاً ضخماً كان منه ألف بعير وثلاثة آلاف شاة ومائة فرس وأرض كانت تزرع على عشرين ناضحاً، ومن أن إحدى نسائه الأربع أخرجت من نصيبها وهو ربع الثمن، بمال بين الثمانين ألفاً ومائة الألف . فكل هذا إن صور شيئاً فإنما يصور ثروة ضخمة نامية لم تنقصها الصدقة الدائمة والبر المتصل دائماً لأزواج النبى ، ثم لذوى قرابته من بنى زهرة ، ثم لغيرهم من عامة المسلمين .

ولم يكن عبد الرحمن على هذا كله مفرطاً فى المال ، وإنما كان يدبره ويثمره ويحرص عليه كأحسن ما يكون التدبير والتثمير والحرص . وقد روى ابن سعد بإسناده فى ترجمة عمر أن عمر احتاج إلى شىء من المال ، فأرسل إلى عبد الرحمن يستقرضه منه . فقال للرسول : قل له يقترض من بيت المال . ولقيه عمر بعد ذلك فلامه فى دعابة قاسية ، وقال أردت أن أقترض من بيت المال فإذا أدركنى الموت ولم أرد ما اقترضت جعلتم تقولون : دعوه لعمر وآل عمر .

وكان عبد الرحمن رفيقاً بنفسه آخذاً بحظه مما أباح الله للمسلمين من طيبات الحياة ، يؤدى للدين حقه كأحسن ما يكون أداء الحق ، ولكنه بعد ذلك رجل من قريش يعيش كما كانت قريش تحب أن تعيش ، لا يشتد على نفسه فى الزهد، ولا يأخذها بالحياة الخشنة . وقد استأذن النبى فى لبس الحرير لحكة كان يشكوها ، فأذن له النبى فى ذلك . وهمّ أن يستبيح الحرير لنفسه ولبنيه ، ولكن عمر كفه عن ذلك ، وشق ثوباً من حرير كان عبد الرحمن قد ألبسه لأحد بنيه كما قدمنا . ثم كان عبد الرحمن كغيره من معاصريه كثير الزواج كثير الولد .

وقد أحصى له بن سعد بضع عشرة امرأة غير أمهات الأولاد ، وكلهن ولدن له البنين والبنات . ومات وعنده أربع نسوة أو ثلاث نسوة . على اختلاف فى ذلك بين الرواة .

ولكن عبد الرحمن لم يكن يتزوج فى حى بعينه أو حيين أو ثلاثة من أحياء العرب ، وإنما كان يُصهر إلى كثير من القبائل ، فهو قد أصهر إلى غير حى من أحياء قريش ، وأصهر إلى غير حى من أحياء اليمن ، وأصهر إلى ربيعة فى غير حى من أحيائها . فكان له من البنين والبنات من يعدّ أخواله فى قريش . ومن يعد أخواله فى الأنصار . ومن يعد أخواله فى اليمانية المقيمة باليمن . ومن يعد أخواله فى اليمانية المقيمة بين الشام والعراق ، ومن يعد أخواله فى تميم من مضر أو فى بكر وتغلب من ربيعة .

ونظرة يسيرة إلى أنساب النساء اللاتى تزوجن عبد الرحمن بن عوف ، كما رواها ابن سعد ، تكفى لإثبات أن عبد الرحمن قد أصهر إلى أكثر أحياء العرب قوة وأشدها بأساً . فكان خليقاً لو نهض بالأمر بعد عمر أن يجمع حوله عصبيات كثيرة ، وأن يلائم بين هذه العصبيات ملاءمة حسنة ، ولعله أن يقرب منها بين ما كان متباعداً أشد التباعد . وكان خليقاً كذلك لو نهض بالأمر بعد عمر أن يقوم على الأموال العامة . كما كان يقوم على أمواله الخاصة . فيدبرها ويثمرها ولا يعطى منها إلا بالحق . وقد وضعه عمر فى الشورى . وميزه من سائر أصحابه حين قال : « إن كان ثلاثة وثلاثة فاختاروا صفّ عبد الرحمن بن عوف » . ويوشك عمر أن يكون قد جعل عبد الرحمن رئيساً لمجلس الشورى ما دام قد جعل رأيه مرجحاً عند تساوى الأصوات . وكان بين أصحاب النبى من كان يرشحه للخلافة . ويرى فى استخلافه اتقاء لكثير من الشر ، وتجافياً للفرقة التى كانت تنتظر أن ينهض بالأمر على أو عثمان . ويظهر أن بين أعضاء الشورى أنفسهم من لم يكن يرى باستخلافه بأساً . ولو خير لآثره على عثمان لمكان عثمان من بنى أمية .

ولو خير عثمان لآثره على علي لمكان علي من بني هاشم . وكان بين عبد الرحمن وعثمان صهر ؛ فهو تزوج أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط أخت الوليد بن عقبة ، ثم كان بين عبد الرحمن وبين العبشميين صهر : فهو قد أصهر إلى عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ؛ فكانت عنده إذن خالة معاوية . ثم أصهر إلى شيبة بن ربيعة بن عبد شمس . وهو قد أصهر كذلك إلى الأنصار . وأمه من بني أمية . وهو من بني زهرة . فكان خليقاً أن يجمع عصبية قريش والأنصار جميعاً إلى عصبيات القبائل الأخرى التي أصهر إليها . ولكنه على ذلك لم يرشح نفسه للخلافة ، ولم يسمع لمن ألح عليه في هذا الترشيح : وإنما أسرع فأخرج نفسه من الأمر إخراجاً ، وأراد أن يكون حكماً بين المتنافسين . وقد قبل المتنافسون حكمه بعد أن أخذ عليه علي موثقاً من الله ليلزمن الحق غير محارب لصهر أو قرابة. فأعطى هذا الموثق عن رضا . واستقبل الأمر على النحو الذي وصفنا فيما مضى . وكان يقول : « لأن توضع حربة على حلقي حتى تنفذ من الجانب الآخر أحب إلي من أن ألي هذا الأمر » .

فهو إذن قد رفع نفسه عن الحكم وما يحيط به من الظنة والشبهات : وأعفى نفسه من التبعات ، وآثر أن يكون رجلا من الناس ، يفرغ لدينه ، ويفرغ لدنياه ، على أن تكون دنياه سبيله إلى دينه . وكان من الطبيعي بعد أن أصدر حكمه ورشح عثمان وأخذ له البيعة من أعضاء الشورى ، وحمل الناس على مبايعته أن يكون رقيباً عليه من قريب .

ولم يكن عبد الرحمن في أول خلافة عثمان معارضاً له ، وإنما كان يؤيده ويرقبه ، حتى تكلم الناس فسمع لهم وتشدد في مراقبته . ونظر الناس ذات يوم فإذا هو أحد المعارضين لعثمان في أمور الدين والسياسة جميعاً . ثم نظروا ذات يوم فإذا هو لا يقف عند المعارضة ، وإنما يقاطع عثمان فلا يزوره ولا يكلمه . وقد يغلو بعض الرواة فيزعم أنه ندم على توليته ، وأنه قال لعلي ذات يوم : إن شئت فخذ سيفك وآخذ سيفي حتى نجاهده ، وأنه قال لبعض من حضره قبيل موته :

عاجلوه قبل أن يسرف عليكم وعلى نفسه . ولكن هذه الأخبار خليقة ألا تخلو من التكلف . والشيء الذى ليس فيه شك هو أنه عارض عثمان فى أمور الدين حين أتم الصلاة حيث كان النبى وصاحباه يقصرونها ، وعارضه فيما أعطى لقرابته من الأموال .

١٥

وكان سعد بن أبي وقاص زهريًّا كعبد الرحمن ، وقال النبي عنه ذات يوم وقد رآه مقبلا : هذا خالي . وقد قدّمنا أن سعداً سبق إلى الإسلام فيمن سبق ؛ حتّى كان يقول : لقد رأيتني وإني لثلث الإسلام ، وحتّى كان يقول : لقد أسلمت وما فرض الله الصلوات . وقد أبلى فأحسن البلاء كغيره من أصحابه ، وكان أول من رمى بسهم في سبيل الله . وفداه النبي بأبويه جميعاً يوم أحد . وكان يتحدث بقصة أخيه عمير بن أبي وقاص الذي هاجر إلى المدينة غلاماً حدثاً ، فلما استعرض النبي الخارجين معه إلى بدر رأى سعد أخاه عميراً يستخفي . فسأله عن ذلك فقال : أخشى أن يراني رسول الله فيستصغرني فيردني ، وأنا أحب الخروج لعلي أن أستشهد . وقد رآه النبي فاستصغره فردّه . وبكى الغلام فأذن له النبي في الخروج ؛ وكان سعد يعقد له حمائل سيفه لصغره ؛ وقد رزق الشهادة التي طلبها ، فقتل فيمن قتل من المسلمين يوم بدر .

وكان سعد أثيراً عند رسول الله ؛ مرض بمكة بعد الفتح فعاده النبي ودعا الله أن يشفيه حتّى لا يموت في الأرض التي هاجر منها ؛ وتحدث إليه في مرضه ذاك بحديث الوصية الذي يأمر بألا يوصي الإنسان بأكثر من ثلث ماله . وتركه في مكة وخلف عليه رجلا من أصحابه وقال له : إن مات سعد بعدي فادفنه ها هنا ؛ وأشار إلى طريق المدينة . وقال لسعد : « إني لأرجو أن يرفعك الله فينفع بك قوماً ويضر آخرين » . ويقال إن النبي تمنى على الله أن يستجيب لسعد إذا دعا . وقد استجاب الله دعاء النبي ؛ فبرئ سعد من مرضه ذاك ، وعاش حتّى نكأ الله به قوماً ونفع آخرين ؛ فهو بطل القادسية ، وهازم جند كسرى .

وقد جعله عمر بين الستة الذين جعل إليهم الشورى فى أمر الخلافة ؛ فكان مرشحاً للخلافة إذن ، ولكن عبد الرحمن خلعه منها كما خلع نفسه .

وقد كانت لسعد زوجات كثيرات ، ولكنهن كن متفرقات فى قبائل العرب. ولم يتزوج من قريش إلا امرأة واحدة زهرية مثلة . وكأن قوماً كانوا يشكّون فى نسبه ويؤذونه بذلك ، حتى أقبل ذات يوم على النبى فقال يا رسول الله : من أنا؟ فقال له النبى : « أنت سعد بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة ، من قال غير ذلك فعليه لعنة الله » . وهذا فيما أرجح هو الذى قلل إصهاره إلى قريش . ويزعم بعض الرواة أن سعداً كان هواه مع علىّ أثناء الشورى ، وأنه تحدث فى ذلك إلى عبد الرحمن . ولكن هذا قد يصح وقد لا يصح . وقد أوصى عمر الخليفة من بعده إن صُرفت الخلافة عن سعد أن يوليه ؛ فإنه لم يعزله عن خيانة . وقد أنفذ عثمان هذه الوصية ، فولى سعداً الكوفة عاماً وبعض عام ، ثم عزله وولى الوليد . وقد قدمنا رأينا فيما يروى من القصة التى دعت إلى عزل سعد . ونضيف إلى ما قدمنا أن الخلاف بين سعد وابن مسعود ، على ما كان سعد قد اقترض من بيت المال ، يروى أنه وقع بين الوليد بن عقبة وبين عبد الله بن مسعود . فأكبر الظن أن الذين أضافوا هذه القصة إلى سعد قد خلطوا بين الرجلين عن عمد أو عن خطأ . ومهما يكن من شىء فقد كان سعد وفيًّا ببيعته لعثمان . وسواء أغضب لعزله إياه أم لم يغضب فلم يكن عنيفاً فى معارضته ؛ بل لم يكد يشارك فى هذه المعارضة إلا حين كانت رفيقة لا تتجاوز النصح والأمر بالمعروف . فلما خرجت المعارضة عن طورها وقاربت أن تكون ثورة ، كفّ سعد ولزم الحياد . ولم يشارك فى الفتنة ولا فى أعقابها . وكان إذا كلم فى ذلك وسئل لم لا تقاتل ؟ قال : حتى تأتونى بسيف ينطق فيقول هذا مؤمن وهذا كافر . وكأن سعداً تحرج من أن يظهر النكير على عثمان فيتهم بأنه إنما يفعل ذلك لأنه ينقم من عثمان عزله عن الكوفة .

ومهما يكن من شىء فقد لزم سعد السيرة التى سارها أيام النبى . فجاهد

ما عرف الجهاد مع النبي وأيام عمر ؛ فلما أشكل الأمر عليه اعتزل وترك الناس وماهم فيه . ولما مات سنة خمسين أوسنة خمس وخمسين ، طلب أزواج النبي أن تمر جنازته عليهن ، فمرّ به فى المسجد وصلين عليه . ولم يترك سعد ثروة ضخمة حين مات بالقياس إلى أصحابه ، وإنما ترك بين مائتى الألف وثلاثمائة الألف . وليس هذا بالشيء ذى الخطر كما رأيت وكما سترى .

١٦

كانت قرابة الزبير بن العوام قريبة من النبي . فهو ابن عمته صفية بنت عبد المطلب ؛ ومن خديجة أم المؤمنين فهو الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصيّ ؛ فخديجة عمته . . فكان هو ابن عمة رسول الله ، وكانت فاطمة بنت عمته . وقرابة الزبير من أبي بكر قريبة أيضاً ؛ فهو قد أصهر إليه ، فتزوج ابنته أسماء ذات النطاقين ، فزاد ذلك من قرابته من النبي ؛ أصبح سلفه ؛ فعائشة أم المؤمنين وأسماء بنت أبي بكر أختان . وبذلك كان الزبير يوشك أن يكون من آل بيت النبي ، وكان من الغريب أن يقول له عثمان : وقد اختصما ذات يوم فقال الزبير : أنا ابن صفية ، فقال عثمان : هي أدنتك من الظل ؛ ولولاها لكنت ضاحياً . فهي أدنته من الظل ما في ذلك شك ، ولكنه لولاها لم يكن ضاحياً .

وقد عرف الزبير منذ طفولته بالقوة والبأس والإقدام ؛ ثم كان من السابقين إلى الإسلام ؛ وشهد بدراً ثاني فارسين اثنين شهدا هذه الموقعة ، ثم هو شهد المشاهد كلها مع النبي . وكان النبي يدعوه حواريه ، فدعاه المسلمون منذ ذلك الوقت حواري رسول الله .

ولسنا نعرف كيف بدأت ثروة الزبير ؛ ولكنا نعلم أنها لم تكن محدثة . فقد رأيت أنه كان أحد فارسين اثنين في غزوة بدر ، وقد لزم المدينة بعد وفاة النبي ؛ فلم يخرج منها أيام أبي بكر وعمر إلا بإذن من عمر أو للحج . وقد وضعه عمر في الشورى فكان مرشحاً للخلافة ؛ ولم يظهر ميلا إلى أحد المتنافسين عليّ وعثمان ؛ وإنما أسلم الأمر إلى عبد الرحمن في غير جهد . وقد كان عثمان يؤثره بعد أن استخلف . ويروى ابن سعد أنه أعطاه ستمائة ألف ، فجعل يسأل عن أحسن

المال ، فقيل له الأرض ، فاشترى أرضاً فى العراق فى المصرين جميعاً ، واشترى أرضاً بمصر . ويقول ابن سعد إنه لم يكن يحب أن يودع الناس عنده الودائع ، وإنما كان إذا أراد أحد أن يودعه مالا قال : إنما هو قرض . كان يخاف على الوديعة أن تضيع من جهة ، ويستبيح لنفسه بذلك استثمار هذه القروض من جهة أخرى . ولذلك عظمت ثروته حتى أصبحت مضرباً للأمثال ، وعظم دينه كذلك . وأوصى ابنه عبد الله يوم الجمل أن يؤدى عنه دينه من ماله ؛ فإذا فرغ من ذلك أخذ ثلث الميراث لولده ، ثم قسم سائره بين الورثة ، وتقدم إليه إن تعسر عليه أداء شيء من الدين أن يستعين الله . فكان عبد الله بن الزبير يستعين الله مولى الزبير كلما وجد شيئاً من مشقة فى أداء دين أبيه .

وهم كثير من الدائنين أن يتركوا دينهم للورثة ، ولكن عبد الله أبى وأدى الدين كله إلى أصحابه ، وكان يبلغ مليونين ونصف مليون من الدراهم . والناس يختلفون فى مقدار ما قسم على الورثة من تركة الزبير بعد أن لبث عبد الله أربعة أعوام ينادى فى الناس بالموسم من كان له عند الزبير دين فليرفعه إلينا : فالمقللون يقولون إن الورثة اقتسموا فيما بينهم خمسة وثلاثين مليوناً ، والمكثرون يقولون إنهم اقتسموا اثنين وخمسين مليوناً ، والمعتدلون يقولون إنهم اقتسموا أربعين مليوناً . ولا غرابة فى ذلك ؛ فقد كانت للزبير خطط فى الفسطاط وخطط فى الإسكندرية وخطط فى البصرة ، وخطط فى الكوفة ، وإحدى عشرة داراً فى المدينة ، وكانت له بعد ذلك غلات وعروض أخرى .

وواضح أن الزبير لم يشتد فى معارضة عثمان أول الأمر ؛ فقد كان عثمان يؤثره ويعطيه على خصومه كانت بينهما وقتاً ما . وكان عثمان يحب عبد الله بن الزبير ويؤثره ، وقد أمّره على الدار حين كان محاصراً ، وأعطاه وصيته ليؤديها إلى أبيه ، وكان عثمان قد أوصى إلى الزبير . وإنما شارك الزبير أصحاب النبى فيما كانوا يوجهون إلى عثمان من نقد ويسوقون إليه من نصح ؛ ولا نعرف أنه اشتد عليه إلا أن يكون فى ذلك شريكاً لغيره من أصحاب النبى .

١٧

وكان طلحة بن عبيد الله تيمياً من رهط أبى بكر ، وكان فى جاهليته تاجراً ، وكان صديقاً لعثمان ، وكانا قد خرجا معاً فى التجارة إلى الشام فى العام الذى أسلما فيه . وقد كان طلحة من السابقين الأولين كأصحابه ؛ ولم يصرفه الإسلام عن تجارته ، وإنما كان يخرج إلى الشام بها . وقد لقى النبى فى طريقه إلى المدينة مهاجراً ومعه أبو بكر وكان هو عائداً من الشام . فأهدى إليهما ؛ وأنبأهما بأن المسلمين فى المدينة يستبطئون النبى . فأغذ رسول الله السير ليخفف عليهم من هذا الانتظار . ومضى طلحة إلى مكة ؛ فأصلح أمره فيها ؛ ثم لحق برسول الله فى المدينة ، فأقام معه بين أصحابه المهاجرين .

وقد شهد بدراً وأحداً والمشاهد كلها مع النبى ، وأبلى فأحسن البلاء ؛ ودافع فى أحد عن النبى دفاعاً حسناً ، وتلقى عنه سهماً بيده فأصاب إصبعاً من أصابعه فشلت ؛ وأصابته فى أحد جراحات فى جسمه كله ، حتى كان النبى يقول : « من سره أن يرى رجلا يمشى على الأرض بعد أن قضى نحبه فلينظر إلى طلحة ابن عبيد الله » . يريد أن طلحة أشرف على الموت يوم أحد فكان حكمه حكم الشهداء . ويشير فى أكبر الظن إلى الآية الكريمة : « منَ المؤمنين رجالٌ صَدَقوا ما عاهدوا اللهَ عليه فمنهم مَنْ قضى نَحبه ومنهم مَنْ ينتظر وما بَدلوا تبديلا » . فكأن النبى أراد أن يلحق طلحة بمن استشهد من المسلمين يوم أحد ومنهم حمزة ومصعب بن عمير .

وقد مضى طلحة فى تجارته ؛ لم يصرفه عنها إلا ما كان يكون من شهوده الغزو مع النبى . وأقام فى المدينة أيام أبى بكر وعمر كما أقام فيها غيره من أعلام المهاجرين . ووضعه عمر فى الشورى ولكنه لم يشهدها ، كان فى بعض ماله غائباً

عن المدينة حين مات عمر . وقد أرسل أصحابه إليه يتعجلون مقدمه ، فأقبل مسرعاً ، ولكنه بلغ المدينة وقد تمت البيعة لعثمان . وقد أغضبه أن يتم أصحاب الشورى أمرهم من دونه ، فجلس فى داره وقال : مثلى لا يفتات عليه . ويقال إن عبد الرحمن بن عوف سعى إليه فطالبه بالبيعة لعثمان وحذره عاقبة الخلاف . ويقال إن عثمان نفسه سعى إليه وقال له : إن شئت أن أردّ الأمر رددته . قال طلحة : أوَ تفعل ؟ قال عثمان نعم ! قال طلحة : فإنى لا أرد الأمر ، فإن شئت بايعتك فى مجلسك هذا ، وإن شئت بايعتك فى المسجد .

وكان بنو أمية يشفقون أن يتلكأ طلحة ببيعته ، فلما بايع اطمأنوا . وكان عثمان يصل طلحة فيحسن صلته . قالوا إن طلحة كان اقترض من عثمان خمسين ألفاً . فقال له ذات يوم : قد حضر مالك ، فأرسل من يتقبضه . قال عثمان : هو لك معونة على مروءتك . ويقال إن عثمان وصل طلحة بمائتى ألف . وكانت بين طلحة وعثمان مبايعات : يبيع طلحة ويشترى عثمان فى الحجاز ، ويبيع عثمان ويشترى طلحة فى العراق . وكان طلحة كثير الصدقة ، لا يحب أن يجتمع فى داره المال السائل ، فكان إذا اجتمع فى داره منه شىء كثير ، لم يسترح حتى يتخفف منه بتقسيمه فى ذوى قرابته من تيم ، وفى ذوى مودته من قريش والأنصار . وكان أسرع الناس معونةً لمن يحتاج إلى المعونة ، وأداء عمن يثقل عليه الدين . وكان أعطى الناس للمال والكسوة ، وأسخاهم بالطعام . وكانت ثروته بعد هذه النفقات الضخمة واسعة جدًّا ، حتى كان الحديث عن ثرائه وعطائه مصدر اختلاف على سعيد بن العاص فى الكوفة كما قدمنا .

وطلحة فيما يقول الرواة أول من استنبت القمح فى أرض الحجاز . ولما مات كانت تركته ثلاثين مليوناً من الدراهم ، كان النقد منها مليونين ومائتى ألف درهم ومائتى ألف دينار ، وكان سائرها عروضاً وعقاراً[١] .

وكان طلحة كما رأيت معارضاً لعثمان منذ اليوم الأول لخلافته ؛ لأن البيعة

---

(١) طبقات ابن سعد الجزء الثالث طبع لندن صفحة ١٥٨ القسم الأول .

نمت وهو غائب ولكن عثمان ترضاه فاستقامت الأمور بينهما ، ثم وصله فازدادت الأمور استقامة ، فلما ظهر الخلاف على عثمان كان طلحة من المسرعين إليه ، فيما يقول الرواة . ولما اشتد الخلاف كان طلحة من المؤلبين . ولما حوصر عثمان كان طلحة من المشاركين فى الحصار ، ولما قتل عثمان كان طلحة من الذين عجبوا لحزن علىّ على مقتل عثمان . ولما بويع على كان طلحة من المبايعين مع الزبير ، ثم خرج مع الزبير مطالباً بدم عثمان ، ناقضاً بيعته لعلىّ وقد قتل فى يوم الجمل ، قتله فيما يقول الرواة ، مروان بن الحكم ، رماه بسهم فأصابه ، فقال مروان : والله لا طالبت بعده بدم عثمان أبداً . كان مروان يرى أن طلحة أشد المحرضين على قتل عثمان . ولما أصيب طلحة وجعل دمه ينزف قال : هذا سهم أرسله الله ! اللهم خذ لعثمان منى حتى ترضى . فكان طلحة إذن يمثل نوعاً خاصاً من المعارضة ، رضى ما أتاح الرضا له الثراء والمكانة ، فلما طمع فى أكثر من ذلك عارض حتى أهلك وهلك .

١٨

وقرابة عليّ بن أبي طالب من النبي أظهر من أن نبينها . ومكانته عنده ممتازة ما في ذلك شك ، فعطف أبي طالب على النبي معروف . وقيامه دونه يحميه ويحمي دينه من قريش مستفيض . وكان أبو طالب قد كفل النبي في صباه . وكان النبي قد كفل علياً في صباه حين كثر الولد على أبي طالب وضاقت ذات يده . وبُعث النبي وعلي عنده صبي ، فأسلم عليّ وهو ابن تسع سنين أو ابن إحدى عشرة سنة . وظل بعد إسلامه في حجر النبي يعيش بينه وبين خديجة أم المؤمنين . وهو لم يعقل الأوثان قط ، دخل في الإسلام قبل أن يعقلها ، فامتاز بين السابقين الأولين بأنه نشأ نشأة إسلامية خالصة ، وامتاز كذلك بأنه نشأ في منزل الوحي بأدق معاني هذه الكلمة وأضيقها . ثم استخلفه النبي حين هاجر إلى المدينة على ما كان عنده من الودائع ليردها إلى أصحابها . فأقام في مكة ثلاثة أيام ، ثم لحق بالنبي فأدركه قبل أن يتحول عن قباء .

ويقول رواة السيرة إنه نام في فراش النبي ليلة ائتمرت قريش به لتقتله . ولما هاجر إلى المدينة وآخى النبي بين المهاجرين ثم بينهم وبين الأنصار ، آخى بين عليّ وبين نفسه ، ثم آخى بين عليّ وبين سهل بن حنيف .

فعلي إذن هو ابن عم النبي في النسب وربيبه ، ثم هو بعد ذلك أخوه في الهجرة . وقد زوجه النبي ابنته فاطمة . فكان منهما عقبه إلى الآن . وكان عليّ صاحب لواء النبي في مشاهده كلها أثناء القتال . وكان شجاعاً مقداماً جريئاً قوياً قوة غير معهودة في الرجال . ولما خرج النبي لغزوة تبوك استخلفه في أهله ، فكره على ذلك أو خاض فيه الناس ، فقال النبي لعليّ : « أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ! إلا إنه لا نبي بعدي » . ومات النبي ولم يبين عن

أمر الخلافة بشيء من نص صريح . وإنما قال أثناء مرضه : « مروا أبا بكر فليصل بالناس » . فقال الذين اختاروا أبا بكر للخلافة : رضيه رسول الله لديننا أفلا نرضاه نحن لدنيانا ! وما أريد أن أدخل فيما أثير من الخلاف بين الشيعة وخصومهم حول بيعة أبي بكر وعمر . وإنما أسجل أن عليًّا بايع هذين الخليفتين مخلصاً ، ونصح لهما صادقاً ، وأشار عليهما كلما احتاجا إلى مشورته . ولو قد قال المسلمون بعد وفاة النبي : إن عليًّا كان أقرب الناس إليه . وكان ربيبه وكان خليفته على ودائعه ، وكان أخاه بحكم تلك المؤاخاة . وكان ختنه وأبا عقبه . وكان صاحب لوائه ، وكان خليفته في أهله ، وكانت منزلته منه بمنزلة هارون من موسى بنص الحديث عن النبي نفسه — لو قد قال المسلمون هذا كله واختاروا عليًّا بحكم هذا كله للخلافة لما أبعدوا ولا انحرفوا . ويقال : إن العباس بن عبد المطلب همّ أن يبايع عليًّا فأبى عليّ وكره الفرقة . ومضت الأمور على هذا النحو أثناء خلافة الراشدين أبي بكر وعمر . ثم وضعه عمر في الشورى ولم يعهد إليه خاصة ، مع أنه قال : لو ولوه لحملهم على الجادّة .

ولم يعهد عمر إلى عليّ لخصلتين : إحداهما أنه لم يرد أن يتحمل أمر المسلمين حيًّا وميتاً كما قال . والأخرى أن الكثرة من قريش كانت تصرف هذا الأمر عن بني هاشم مخافة أن يبقى فيهم وراثة . فلا يصيب حيًّا من أحيائهم إلى آخر الدهر . فكان بنو هاشم قد أبعدوا عن هذا الأمر عمداً ، أبعدتهم عنه مخافة قريش أن تظل لبني هاشم رعية ، وألا تكون الخلافة في حيّ آخر من أحيائها .

لم يعهد عمر إلى عثمان لخصلتين أيضاً : إحداهما الإشفاق من أن يحمل أمر المسلمين حيًّا وميتاً . والأخرى خوفه أن يستأثر بنو أمية بالخلافة دون غيرهم من أحياء قريش . وقيل إن العباس أشار على عليّ ألا يدخل في الشورى . وضمن له إن فعل ألا يختلف عليه الناس . ولكن عليًّا لم يقبل هذه المشورة . وقبل عهد عمر كما قبله غيره من المسلمين ، فوفى ببيعته لعمر حيًّا وميتاً . وكان كل شيء

يرشح علياً للخلافة بعد موت عمر : قرابته من النبي ، وسابقته في الإسلام ، ومكانته بين المسلمين ، وحسن بلائه في سبيل الله ، وسيرته التي لم تعرف العوج قط . وشدته في الدين ، وفقهه بالكتاب والسنة ، واستقامة رأيه في كل ما عرض من المشكلات .

ولئن تحرّج المسلمون من تقديمه على أبي بكر لأنه كان رفيع المكانة عند النبي وثاني اثنين في الغار ، ولأنه خلف النبي على الصلاة بالناس ، ولئن تحرج المسلمون من تقديمه على عمر لمكانة عمر أولا ولعهد أبي بكر بالخلافة إليه ثانياً ، لقد كان المسلمون يستطيعون أن يختاروا علياً للخلافة لا يجدون بذلك بأساً ولا يلقون فيه حرجاً . فعمر قد رشحه ، ومكانته ترشحه ، ثم هو كان بعد ذلك من قوة العصبية في العرب عامة وفي قريش خاصة بالمنزلة التي كان فيها عبد الرحمن ابن عوف ، فهو قد أصهر إلى قريش ، وأصهر إلى ربيعة ، وأصهر إلى اليمانية ، وكان له بنون من نسائه على اختلاف قبائلهن . فلو قد ولي الخلافة قبل أن يفترق الناس لكان خليقاً أن يقارب بين العصبيات المتباعدة ، وأن يجمع الناس على طاعته ، وأن يحملهم على الجادّة ، كما قال عمر .

ولكن المسلمين لم يختاروه لأمرين : أحدهما خوف قريش أن تستقر الخلافة في بني هاشم إن صارت إلى أحد منهم . وقد بينت الحوادث أن علياً لم يكن لينقل الخلافة بالوراثة ؛ فهو قد سار سيرة النبي وسيرة عمر ، فلم يعهد لأحد من بعده .

والآخر أن علياً لم يقبل ما عرضه عليه عبد الرحمن من أن يبايع على كتاب الله وسنة رسوله وفعل أبي بكر وعمر لا يحيد عن شيء من ذلك تحرّج علي ، من أن يعطى هذا العهد مخافة أن تضطره الظروف إلى أن يقصر عن الوفاء به كاملا ، فعرض أن يبايع على أن يلزم كتاب الله وسنة رسوله وسيرة الشيخين بقدر جهده وطاقته . وكان تحرجه هذا خليقاً أن يعطف الناس عليه ويرغبهم فيه ويدفعهم إلى حسن الظن به وجميل الثقة بإخلاصه ؛ لأنه لم يرد أن يلتزم إلا ما أطاق . ولكن عبد الرحمن كان كغيره من المسلمين دقيق الحس في كل ما يتصل بشؤون

الخلافة ، فكأنه أشفق أن يكون تحفظ عليّ مظهراً لشيء من الأثرة . فلما أعطاه عثمان العهد على التزام كتاب الله وسنة رسوله وفعل الشيخين لا يحيد عن شيء من ذلك ، بايعه مطمئنًّا . وقد أظهرت الحوادث فيما بعد أن عثمان لم يطق ما أطاق الشيخان ، ولم يستطع أن يلزم سيرتهما . كما أظهرت الحوادث أيضاً أن عليًّا قد أطاق أثناء خلافته القصيرة ما أطاق الشيخان وأشد مما أطاق الشيخان. فهو قد سار سيرة عمر مع رعية أشد وأعسر وأرغب فى الدنيا من رعية عمر . وهو قد سار سيرة عمر مع افتراق الشمل واختلاف الرأى وانشقاق العصا وكثرة الفتن وما استتبعت من الحروب .

وقد عاش عليّ قبل الفتوح كما عاش بعد الفتوح ، عيشة هى إلى الخشونة والشظف أقرب منها إلى الرقة واللين . فلم يتجر ولم يتسع ، وإنما اقتصر على عطائه يعيش منه ويرزق أهله ، ويستثمر فضوله فى مال اشتراه بينبع ، ثم لم يزد عليه . ولما مات لم تحص تركته بالألوف فضلا عن عشراتها أو مئاتها أو الملايين ، وإنما كانت تركته كما قال الحسن ابنه فى خطبة له : سبعمائة درهم ، كان يريد أن يشترى بها خادماً .

وكان عليّ أثناء خلافته القصيرة يلبس خشن الثياب والمرقع منها ، ويحمل الدرة ويمشى فى الأسواق ، فيعظ أهلها ويؤدبهم كما كان يفعل عمر . فكان هذا دليلا على أن عمر كان صادق الفراسة حين قال : لو ولَّوْا الأجلح لحملهم على الجادة .

وواضح أن عليًّا كان بطبيعة مركزه معارضاً فى جعل الخلافة إلى غير بنى هاشم ، ولكنه كان ديمقراطيًّا بأدق المعنى الحديث لهذه الكلمة . فالخلافة لم تكن عنده شيئاً يورث ، وإنما كانت تكليفاً يتلقاه الخليفة من أولى الحل والعقد بين المسلمين عن تراض بينهم وبينه . فلما لم يقدم أولو الحل والعقد إليه الخلافة وقدموها إلى أبى بكر ثم إلى عمر ، نزل عند رأيهم وبايع الشيخين ووفى لهما ومحضهما النصح وأخلص لهما فى المشورة . وهمّ أن يلفت الناس إلى نفسه بعد

موت عمر حين كان أصحاب الشورى يأتمرون ، ولكنه فعل ذلك على استحياء شديد ، ثم لم يلبث أن كف وجعل نفسه كغيره من الناس ، فأخذ موثق عبد الرحمن على النصح للمسلمين وأعطى موثقه على السمع والطاعة . ويقول المتكلفون من الرواة إنه تلكأ فى بيعة عثمان حتى حذره عبد الرحمن وأنذره . ولكن رواة آخرين يقولون ما هو أشبه بسيرة علىّ وأشد ملاءمة لخلقه ، يقولون إنه حين أبى أن يعطى عبد الرحمن العهد الذى طلبه وحين أعطى عثمان هذا العهد ، قال لعبد الرحمن : قد أعطاك أبو عبد الله الرضا فبايعه . ولو قد تلكأ علىّ بالبيعة ولم يعطها إلا كارهاً لكان خليقاً أن يلزم داره وأن يقاطع عثمان وأهل الشورى وقتاً يقصر أو يطول . ولكنه لم يلزم داره ، وإنما شهد مجلس عثمان فى أمر بيعته ، وأشار عليه فى قصة عبيد الله بن عمر بأن يقتص منه لمقتل الهرمزان .

كان علىّ معارضاً للخلفاء الثلاثة ، ولكن الشيخين لم يأتيا ما يدعو إلى النقد الرفيق فضلا عن النقد الشديد ، فلم تظهر معارضة علىّ لهما ، وإنما كان ينصح مع الناصحين ويشير مع المشيرين ، ويسمع بعد ذلك ويطيع : كما كان يفعل غيره من المهاجرين والأنصار . فلما استخلف عثمان اشتدت معارضة علىّ شيئاً ما أثناء الشورى ثم ثاب إلى سيرته مع الشيخين ، فنصح وأشار وسمع وأطاع . ولكن سياسة عثمان دفعته إلى شىء من الشدة فى المعارضة ، فهو لم ير ما رآه عثمان من العفو عن عبيد الله بن عمر . ثم لم تلبث الحوادث أن دفعته إلى معارضة جعلت شدتها تزداد شيئاً فشيئاً ، ولكنها على كل حال لم تخرج قط عن طور المعارضة الرشيدة التى تلين وتعنف ، ولكنها تلزم حدود النصح والمشورة والتخويف من عقاب الله . وما زالت الأحداث تشتد وتتفاقم حتى اضطر علىّ ذات يوم أن يواجه عثمان بشىء من المقاومة على ملأ من الناس ، كان ذلك حين أعلن عثمان فى غير تحفظ أنه سيأخذ من هذا المال حاجته وإن رغمت أنوف الكارهين لذلك .

فقال له علىّ إذن تُمنع من ذلك . وعلى كل حال لم يخرج علىّ قط فى سيرته مع عثمان عن النصح والمشورة والنقد الشديد أحياناً . وهو كان يتوسط بين عثمان وبين الناقمين منه والخارجين عليه ، يبصر عثمان بالحق ، ويرد الناس عن

الفتنة . حتى إذا استيأس من مقاومة عثمان لأهل بيته ، لزم داره ولم يتوسط بينه وبين الناس . ثم هو مع ذلك ظل باراً بعثمان أثناء الحصار ، فأنفذ إليه الماء وأرسل ابنيه لمقاومة المحاصرين . وما ينكر أحد أن التنافس بين علىّ وعثمان قد اتصل أثناء خلافة عثمان كلها . ولكن الشيء الذى لا شك فيه هو أن قرابة عثمان ما زالت به حتى أخافته من علىّ إلى أبعد حد ممكن . ولو قد سار عثمان سيرة عمر ، ولو لم تدخل قرابة عثمان بينه وبين الناس ، لكان من غير المشكوك فيه أن يسير معه على سيرته مع الشيخين من قبل . ولكن لو سار عثمان سيرة عمر ولو لم تدخل قرابته بينه وبين الناس ، لما كانت الفتنة ، ولما احتجنا إلى إملاء هذا الكتاب .

والدليل على أن قرابة عثمان هى التى أفسدت الأمر بينه وبين علىّ حتى هم ذات يوم أن يبطش به ما رواه البلاذرى فى « أنساب الأشراف » بإسناده من أن العباس توسط بينهما ، فقال لعثمان : أذكرك الله فى أمر ابن عمك وابن خالك وصهرك وصاحبك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقد بلغنى أنك تريد أن تقوم به وبأصحابه . فقال : « أوّل ما أجيبك به أنى قد شفّعتك . إن علياً لو شاء لم يكن أحد عندى إلا دونه ، ولكنه أبى إلا رأيه » . ثم قال لعلىّ مثل قوله لعثمان ، فقال علىّ : « لو أمرنى عثمان أن أخرج من دارى لخرجت »[1] .

ولكن هذه الوساطة لم تغن شيئاً ، فقد مضى عثمان فى سياسته ، ومضى علىّ فى معارضته ، ومضت قرابة عثمان فى إفساد الأمر بينهما ، حتى اشتد الحرج . فروى البلاذرى بإسناده أيضاً عن عبد الله بن عباس : « أن عثمان شكا علياً إلى العباس ، فقال له : يا خال إن علياً قطع رحمى وألب الناس ابنُك . والله لئن كنتم يا بنى عبد المطلب أقررتم هذا الأمر فى أيدى بنى تيم وعدىّ ، فبنو عبد مناف أحق ألا تنازعوهم فيه ولا تحسدوهم عليه . قال عبد الله بن العباس : فأطرق أبى طويلا ، ثم قال : يا ابن أخت لئن كنت لا تحمد علياً فما نحمدك

(١) أنساب الأشراف للبلاذرى صفحة ١٤ طبع القدس .

له ؛ وإن حقك فى القرابة والإمامة للحق الذى لا يُدفع ولا يُجحد . فلو رقيت فيما تطأطأ أو تطأطأتَ فيما رقى تقاربتما ، وكان ذلك أوصل وأجمل . قال : قد صيرت الأمر فى ذلك إليك ، فقرب الأمر بيننا . قال : فلما خرجنا من عنده دخل عليه مروان فأزاله عن رأيه . فما لبثنا أن جاء رسول عثمان بالرجوع إليه . فلما رجع قال : يا خال أحب أن تؤخر النظر فى الأمر الذى ألقيت إليك حتى أرى من رأيى . فخرج أبى من عنده ثم التفت إلىّ فقال : يا بنىّ ليس إلى هذا الرجل من أمره شىء ، ثم قال : اللهم اسبق بى الفتن ولا تُبقنى إلى مالا خير لى فى البقاء إليه . فما كانت جمعة حتى هلك » (١) .

فقد سفر العباس إذن سفارة الخير بين الرجلين فوفق للنجح . وهمّ عثمان أن يسفره للمرة الثانية ، وكان خليقاً أن يصيب من النجح ما أصاب فى المرة الأولى ، ولكن مروان صرفه عن هذا الرأى ، فجعلت الأمور تمضى من فساد إلى فساد حتى كانت الفتنة التى توقعها العباس .

وقد رأيت فى هذه الفصول الخمسة الأخيرة أطرافاً من سيرة أصحاب الشورى ومن موقفهم بإزاء عثمان بعد استخلافه . ولعل خير ما نختم به هذه الفصول مايروى من رأى عمر فى هؤلاء النفر . وسواء أصحت بذلك الرواية عن عمر أم لم تصح ؛ فإن هذا الرأى يصور ما استقر فى نفوس الناس وفى نفوس الرواة والمؤرخين وأصحاب الحديث خاصة من صوَرهم .

روى البلاذرى بإسناده عن ابن عباس قال : « قال عمر : لا أدرى ما أصنع بأمة محمد ، وذلك قبل أن يطعن . فقلت : ولم تهتم وأنت تجد من تستخلفه عليهم؟ قال : أصاحبكم ؟ (يعنى علياً) قلت نعم ، هو أهل لها فى قرابته برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصهره وسابقته وبلائه . فقال عمر : إن فيه بطالة وفكاهة . فقلت : فأين أنت عن طلحة ؟ قال : فأين الزهو والنخوة؟ قلت : عبد الرحمن بن عوف؟ قال : هو رجل صالح على ضعف . قلت : فسعد ؟ قال : ذاك صاحب

(١) أنساب الأشراف للبلاذرى صفحة ١٣ – ١٤ طبع القدس .

مِقْنَب وقتال ، لايقوم بقرية لو حمّل أمرها . قلت : فالزبير ؟ قال : لقيس مؤمن الرضا ، كافر الغضب شحيح . إن هذا الأمر لايصلح إلا لقوىّ فى غير عنف ، رفيق فى غير ضعف ، جواد فى غير سرف . قلت : فأين أنت عن عثمان ؟ قال : لو وليها لحمل بنى أبى معيط على رقاب الناس ، ولو فعلها لقتلوه »[١].

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذرى صفحة ١٦-١٧ طبع القدس .

١٩

على أن معارضة هؤلاء النفر من أصحاب الشورى لعثمان لم تكن إلا أيسر المعارضة ؛ فقد كان له معارضون آخرون من أصحاب النبي بل من أعلام الصحابة ، وكانت بينه وبينهم خطوب حفظها التاريخ ، وتكلم فيها الناس فأكثروا الكلام ، واختلفوا فأكثروا الاختلاف . من هؤلاء المعارضين عبد الله ابن مسعود الهذلى حليف بنى زهرة . وكان عبد الله حين لقى النبي لأول مرة غلاماً يرعى غنماً لعقبة بن أبى معيط. فأتاه النبي وأبو بكر ذات يوم فاستسقياه . قال الغلام : لا أسقيكما ؛ فإنى مؤتمن. قال النبي : فهل عندك شاة لم ينزُ عليها الفحل؟ فدفع الغلام إليه شاة ؛ فمسح النبي على ضرعها فاحتفل ؛ وجاءه أبو بكر بصخرة متقعرة ، فاحتلب منه وشرب أبو بكر . ثم قال النبي للضرع اقلصْ فعاد كما كان . ومنذ ذلك الوقت أسلم ابن مسعود ولزم النبي . وكان أحفظ أصحابه للقرآن وأرواهم له وأشدهم له إظهاراً بمكة . وهاجر ابن مسعود إلى بلاد الحبشة ثم إلى المدينة ، فآخى النبي بينه وبين الزبير بن العوام من المهاجرين ، وآخى بينه وبين معاذ بن جبل من الأنصار . وشهد ابن مسعود بدراً وأحداً والمشاهد كلها مع النبي . وهو الذى احتز رأس أبى جهل بعد أن صرع يوم بدر . ولزم ابن مسعود النبي لزوماً متصلا فى سفره وإقامته ، حتى كاد يعد من أهل بيته . فكان أثناء إقامة النبي صاحب إذنه . وكان إذا قام النبي ليخرج ألبسه نعليه ومشى بين يديه بالعصا . فإذا بلغ مجلسه خلع نعليه فوضعهما فى كمه ودفع إليه العصا وقام على إذنه . وكان فى السفر صاحب فراش النبي وصاحب وضوئه . وكان النبي يحبه حبًّا شديداً ويوصى بحبه . ورآه أصحاب النبي يرقى شجرة ذات يوم ، فضحكوا من دقة ساقيه . فقال النبي : «إنهما لأثقل فى الميزان يوم -

القيامة من جبل أحد » . ولما توفى النبى ودفع المسلمون إلى الفتح خرج ابن مسعود غازياً إلى الشام ورابط فى حمص . فنقله عمر إلى الكوفة ، وأوصى أهل الكوفة أن يأخذوا عنه ، وقال : إنى آثرتكم به على نفسى .

وقد شهد ابن مسعود مقتل عمر والبيعة لعثمان ، ثم أسرع إلى الكوفة . فلما بلغها خطب الناس فقال : إنا اخترنا خير من بقى ولم نألُ . ثم حثهم على البيعة لعثمان .

وتولى ابن مسعود بيت المال فى الكوفة حين كان سعد بن أبى وقاص والياً عليها . فلما عزل سعد عن الكوفة ظل ابن مسعود على بيت المال صدراً من أيام الوليد بن عقبة . ثم استقرض الوليد شيئاً من بيت المال فأقرضه ابن مسعود ، وكان هذا شيئاً مألوفاً . فلما حل الأجل طلب ابن مسعود إليه الأداء ، فالتوى . فألح عليه . فكتب الوليد إلى عثمان يشكو ابن مسعود . وكتب عثمان إلى ابن مسعود : إنما أنت خازن لنا ، فلا تعرض للوليد فيما أخذ من بيت المال . . فغضب ابن مسعود وألقى مفاتيح بيت المال ، وأقام فى داره يعظ الناس ويعلمهم . ومنذ ذلك الوقت بدأت معارضة ابن مسعود لعثمان فى أمور السياسة وفى أمور المال ، ثم ازدادت معارضته تعقداً حين وحَّد عثمان المصحف وجعل كتابته إلى نفر من المسلمين عليهم زيد بن ثابت ، وتقدَّم فى إحراق غيره من المصاحف . فأنكر ابن مسعود وأنكر معه كثير من الناس ما كان من تحريق المصاحف . واشتد نقد ابن مسعود لعثمان ، وكان يخطب الناس يوم الخميس من كلِّ أسبوع ، وكان يقول فيما يقول : إن أصدق القول كتاب الله ، وأحسن الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر الأمور مُحدثاتها ، وكل مُحدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار . فكتب الوليد بذلك إلى عثمان وقال : إنه يعيبك ويطعن عليك . فكتب إليه عثمان يأمره بإشخاصه إلى المدينة . فأشخص إليها . وخرج معه أهل الكوفة مشيعين ومودعين أحسن التشييع وأحرَّ التوديع . وبلغ ابن مسعود المدينة ، فدخل المسجد وعثمان يخطب على منبر النبى . فلما رأى

بأن يؤديه إلى أم كلثوم لأنه ملكها. ولكنه تحرّج من ذلك لأنه حمل إليها فى بريد المسلمين ، فأمره برده إلى بيت المال ، وأدى إلى امرأته ما أنفقت فى هديتها لملكة الروم ، ونحن نعلم أن هذه السيرة الشديدة التى كان عمر يسيرها فى نفسه وفى أهله قد ثقلت على الناس ، وزهدت الفتيات والنساء فى التزوج من عمر ، وحملت بعضهن على رد خطبته ، ثم نقيس هذه السيرة إلى سيرة عثمان حين حلى بعض أهله بجوهر كان فى بيت المال ، فلما كلم فى ذلك قال : « لنأخذنّ حاجتنا من هذا الفىء وإن رغمت أنوف أقوام » .

وقد يشق علينا أن نلاحظ أن هذا المذهب الذى ذهبه عثمان فى الخلافة هو نفس المذهب الذى عرضه زياد فى خطبته المشهورة حين قال : « أيها الناس ! إنا قد أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ، ونذود عنكم بفىء الله الذى خوّلنا » . ومن هنا لا نرى غرابة فيما رُوى عن عثمان من قوله : « إن أبا بكر وعمر كانا يظلمان أنفسهما وقرابتهما تقرباً إلى الله ، وأنا أصل رحمى تقرباً إلى الله » . اجتهد أبوبكر وعمر فظلما أنفسهما وقرابتهما ، واجتهد عثمان فوصل رحمه وقرابته ولم يظلم نفسه . ولسنا بعد ذلك فى حاجة إلى أن نناقش فى صحة ما جاءت به الرواية من أنه أعطى مروان بن الحكم خمس الغنيمة التى غنمها المسلمون فى أفريقية أو خمس الخمس ، أو وهب له ما بقى عليه من ثمن الخمس ، ومن أنه أعطى الحكم عمه ، وأعطى ابنه الحارث ثلثمائة ألف ، وأعطى عبد الله بن خالد بن أسيد الأموى ثلثمائة ألف ، وأعطى كل واحد من الذين وفدوا مع عبد الله بن خالد مائة ألف مائة ألف ، حتى أبى عبد الله بن الأرقم صاحب بيت المال أن ينفذ الأمر واستقال من عمله ، وأعطى عبد الله بن الأرقم هذا بعد استقالته ثلثمائة ألف ، فلم يقبلها تورعاً وزهداً ، وأعطى الزبير ابن العوام ستمائة ألف ، وأعطى طلحة بن عبيد الله مائة ألف ، وأعطى سعيد بن العاص مائة ألف ، وزوّج ثلاثاً أو أربعاً من بناته لنفر من قريش فأعطى كل واحد منهم مائة ألف دينار .

فقد كان عثمان يرى لنفسه الحق فى هذا العطاء، ولم يكن يبيح لصاحب بيت المال أن يعصى أمره أو يجادل فيه. وإذا استباح عثمان لنفسه هذا السخاء فأولى أن يستبيح لنفسه أن يقترض من بيت المال، حتى إذا أيسر قضى. وواضح أن عمال عثمان قد ساروا فى المال سيرة إمامهم، فأعطوا واقترضوا والتوى بعضهم بالدين، فاستقال عبد الله بن مسعود فى الكوفة، كما استقال عبد الله بن الأرقم فى المدينة. وإذا أطلق الإمام يده وأطلق العمال أيديهم فى الأموال العامة على هذا النحو، لم يكن غريباً أن يحتاج الجند إلى المال فلا يجدوه، وأن يضطر الإمام أن ينفق على الحرب من أموال الصدقة، فيعرّض نفسه لما تعرّض له من الإنكار الذى أشرنا إليه آنفاً، والذى إن دل على شىء فإنما يدل على أن سياسة المال أيام عثمان لم تكن دقيقة ولا محكمة.

وإذا أطلق الإمام يده فى الأموال العامة وأطلق العمال أيديهم فيها على هذا النحو، لم يكن غريباً أن تمتد هذه الأيدى إلى أموال الصدقة، لا للإنفاق على الحرب بل للعطاء وصلة الرحم، كما روى أن عثمان أرسل الحارث بن الحكم مصدّقاً على قضاعة، فلما جاء بصدقاتهم وهبها له. بل إذا امتدت الأيدى إلى الأموال العامة على هذا النحو، لم يكن غريباً أن يحتاج بيت المال إلى ما يواجه به نفقات الحرب والسلم وسخاء الإمام والعمال، فيدعو ذلك إلى التشدد على الرعية والعنف بها فى جباية الخراج والجزية والزكاة. وهذا يفسر لنا ما رُوى من أن المصريين شكوا من ظلم عبد الله بن سعد، ومن قول عمرو بن العاص لعثمان: وهلكت فصالها. كما يفسر لنا ما رُوى من أن عمال الصدقة كانوا يظلمون أهل البادية، وينسب ظلمهم إلى عثمان ويبلغه ذلك فلا يغير منه. على أن عطاء عثمان لم يقتصر على السائل من المال، وإنما تجاوزه إلى الجامد أيضاً؛ فقد نقم الناس من عثمان أنه كان يقطع القطائع الكثيرة فى الأمصار لبنى أمية؛ وقد دافع أهل السنة والمعتزلة عن هذا الإقطاع بأن عثمان إنما أقدم عليه استصلاحاً لهذه الأرض فنصح بذلك للمسلمين، وردّ الشيعة عليهم بأن عثمان نفسه لم يدافع عن نفسه

هذا الدفاع ؛ وكان من الممكن أن يردّ الشيعة أيضاً بأن بنى أمية لم يكونوا إخصائيين من دون قريش فى استصلاح الأرض ، وبأن قريشاً لم تكن إخصائية من دون العرب فى استثمار الضياع ، وبأن العرب لم يكونوا إخصائيين من دون سائر المسلمين فى إحياء الأرض بعد موتها . وإنما جرت الأمور على ما قدّمنا من تصور عثمان لحق الإمام وسلطانه ، وتصرفه طبقاً لهذه الأصول التى اقتنع بها ، واقتنع بها عماله أيضاً .

وقد قدّمنا الحديث عن ذلك الانقلاب الاقتصادى الذى أحدثه عثمان حين أذن لمن أراد من أهل بلاد العرب أن يبيعوا فيهم فى الأمصار ويشتروا مكانه أرضاً فى جزيرة العرب ، وبينا أن هذا الانقلاب قد أنشأ الملكية العقارية الضخمة فى الإسلام . فإذا أضفنا إلى ذلك سخاء الإمام وعماله بالأموال العامة لبنى أمية ولقريش كلها ، وأن هذا السخاء قد أتاح لكثير من القرشيين أن يشتروا الأرض فى الأمصار ، دل هذا كله على أن السياسة المالية لعثمان كانت تنتهى إلى نتيجتين كلتاهما شر : الأولى إنفاق الأموال العامة فى غير حقها ، وما يترتب على ذلك من الاضطراب المالى ومن ظلم الرعية ، والأخرى إنشاء هذه الطبقة الغنية المسرفة فى الغنى التى تستجيب لطمع لا حدّ له . فتتوسع فى ملك الأرض واستغلال الطبقة العاملة ، ثم ترى لنفسها من الامتياز ما ليس لها ، ثم تتنافس فى التسلط ، ثم ترقى إلى التنافس فى الإمارة وفى الخلافة نفسها ، ثم ينتهى بها الأمر إلى ما انتهى بها إليه من هذه الفتن والخطوب التى أفسدت الأمر على المسلمين منذ قتل عثمان إلى أن أديل من بنى أمية إلى بنى العباس . وطبيعى أن بيت المال لم يكن يستطيع أن يسع الناس جميعاً بهذا السخاء . وطبيعى أن الذين لم يأخذوا حقدوا على الذين أخذوا ، ثم حقدوا على الذين أعطوهم ، فساءت الصلة بينهم وبين الإمام والولاة ، ثم فكروا فى هذا كله ، واستحضروا سيرة النبى وصاحبيه ، فلم يلبثوا أن تبينوا أن فى سيرة عثمان مخالفة للسنة الموروثة من جهة ، وظلماً لهم من جهة أخرى ؛ ولذلك طلب أهل الأمصار إلى عثمان ، حين ثاروا به وقبل أن

يحصروه ، أن يستأنف النظر فى مصارف الفىء ، وطالبوه بألا يعطى من هذا الفىء إلا الذين قاتلوا عليه هؤلاء الشيوخ من أصحاب النبى . ومعنى ذلك أنهم رأوا عثمان قد أسرف فى إنفاق الأموال العامة ، فطالبوه لا بالكفّ عن هذا الإسراف فحسب . بل كذلك بوضع سياسة جديدة تغير سياسة عمر نفسها ؛ فقد كان عمر يسير فى الفىء سيرة معلومة : ينفذ أمر الله فيأخذ خمس الغنائم . وينفذ أمر الله فيقسم الأخماس الأربعة الأخرى بين الذين غنموها . ثم كان يجمع إلى هذا الخمس ما يجبي إليه من الخراج والجزية ؛ وينفق من هذا كله على المرافق العامة ثم يفرض العطاء بعد ذلك للمسلمين : للرجال والنساء والأطفال . وكان الجند كغيرهم من المسلمين يأخذون عطاءهم إلى ما يصيب الغازين منهم من الغنائم حين تتاح لهم الغنائم ؛ فلما رأى أهل الأمصار إسراف الإمام وعماله فيما يجتمع فى بيت المال ، طالبوا بألا يفرض العطاء فى الأموال العامة إلا لمن قاتلوا على الفىء من الجند سواء غزوا أو لم يغزو ، يكون عطاء الغزاة منهم أجراً لهم . وعطاء الذين عجزوا عن الغزو شيئاً يشبه ما نسميه فى عصرنا الحديث « المعاش » — وإلا لهؤلاء الشيوخ من أصحاب النبى ؛ لأنهم قاتلوا مع النبى وغزا كثير منهم فى الفتوح ؛ فأصبح لهم الحق فى أن يرزقوا من هذا الفىء كغيرهم من الجند الذين قاتلوا ، ثم أعجزتهم الجراحات أو السنّ فاستحقوا المعاش ؛ فأما من عداهم من المسلمين الذين لم يقاتلوا على الفىء فليس لهم أن يأخذوا منه شيئاً . وكذلك دفعت سياسة عثمان المالية هؤلاء الثائرين إلى أن يلحوا على عثمان فى تغيير سياسة عمر نفسها . وما دام عثمان قد ذهب إلى سياسة تنحرف عن سياسة عمر حتى أبعد وأنشأ طبقة « الرأسماليين » الذين أسرفوا على أنفسهم فى الملك والتوسع فيه ؛ فليس ما يمنع الثائرين من أن يكفوا يد عثمان وعماله عن هذه السياسة وإن اقتضى ذلك الانحراف عن سيرة عمر . وإذا لم يكن بدٌّ من السياسة التى تقوم على الأثرة لا على الإيثار ، وتنحرف عن هذه الاشتراكية المعتدلة التى مضت عليهما أمور المسلمين ، فلا أقل من أن يتحقق شىء من العدل فى هذه الأثرة ؛ ومن أن يكون رأس المال موقوفاً على الذين اكتسبوه بأيديهم وبذلوا فى سبيله جهودهم ودماءهم .

والمهم هو أن الثائرين أرادوا أن تكون « الرأسمالية » التي أحدثتها سياسة عثمان شاملة عادلة بمقدار ما يمكن أن تبلغ من الشمول والعدل ، ثم هم رأوا أن كثيراً من شباب قريش وأهل المدينة يعيشون عيشة بطالة يعتمدون على أعطياتهم ، وقد لا يحتاجون إلى هذه الأعطيات ، فقالوا : من كان منهم غنياً فلا حق له في بيت المال . ومن كان منهم فقيراً فليعمل وليكتسب . ولا معنى لأن تنفق الأموال العامة على الفارغين والمتبطلين . وقد أجابهم عثمان إلى ما طلبوا ، وخطب الناس فقال لهم : من كان له زرعٌ فليلحق بزرعه ، ومن كان له عملٌ فليكتسب من عمله ، فليس لأحد عندنا عطاء إلا أن يكون من الذين قاتلوا على هذا الفيء أو من هؤلاء الشيوخ من أصحاب رسول الله .

ولكن عثمان لم ينفذ هذه السياسة ، أعجلته الفتنة عن إنفاذها . ولو قد سار عثمان في الأموال العامة سيرة عمر فلم ينفق المال إلا بحقه ، لجنب نفسه وجنب المسلمين شراً عظيماً ، ولكان من الممكن أن ينشئ الإسلام للإنسانية نظاماً سياسياً واجتماعياً صالحاً يجنبها كثيراً من الاضطراب الذي اضطرت إليه ، والفساد الذي تورطت فيه . ولكن ظروف الحياة كانت أقوى من عثمان ؛ ومن يدري ! لعلها كانت تكون أقوى من عمر نفسه لو لم يعجله الموت .

وأنكر المسلمون على عثمان موقفه من ناقديه ومعارضيه ؛ فهو قد انحرف عن سيرة عمر فى ذلك انحرافاً عظيماً . فعمر لم ينه عماله عن شىء كما نهاهم عن أن يستعبدوا الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ، ولم يحذرهم من شىء كما حذرهم من العنف بالرعية والاعتداء على أبشارها وأشعارها . فلم يكن عمر إذن يبيح ضرب الناس إلا فى الحدود ، ولم يكن يعفى عماله من القصاص إن تعدوا على الرعية بالضرب فى غير حد أو فى غير حق من الحقوق . فأما عثمان فمهما يكن اعتذار أهل السنة والمعتزلة عنه فإنه قد أسرف وترك عماله يسرفون فى العنف بالرعية ضرباً ونفياً وحبساً . وهو نفسه قد ضرب أو أمر بضرب رجلين من أعلام أصحاب النبى : ضرب عمار بن ياسر حتى أصابه الفتق ، وأمر من أخرج عبد الله بن مسعود من مسجد النبى إخراجاً عنيفاً حتى كسر بعض أضلاعه . ومهما يكن من أمر هذين الرجلين الجليلين ومن نقدهما له وتشهيرهما به وتشنيعهما عليه ، فما نعلم أنه حاكمهما أو أقام عليهما الحجة أو أباح لأحد منهما الدفاع عن نفسه ، وإنما سمع فيهما قول عماله أو قول خاصته ، ثم عاقبهما دون أن يقيم عليهما البينة . وليس له من هذا كله شىء . ويقول المدافعون عن عثمان من أهل السنة والمعتزلة : إن للإمام حق التعزير . وليس فى ذلك شك ؛ ولكن بشرط أن يأتى المسلم من الأمر ما يستحق عليه التعزير ، وأن يقال له ويسمع منه وتقوم عليه البينة . وما نعرف أن عثمان حاكم عماراً أو ابن مسعود . وهو نفسه قد شق على أبى ذر حتى نفاه أو اضطره إلى أن ينفى نفسه من الأرض ؛ لا لشىء إلا لأنه أنكر سياسته فى الأموال العامة ، وأنكر النظام الاجتماعى الذى أنشأ طبقة الأغنياء ، وأتاح لهم أن يكنزوا الذهب والفضة ، ويستكثروا من المال إلى غير حد . ثم هو

قد أذن لعماله أن يخرجوا الناس من ديارهم كلما آنسوا منهم بعض ما يكرهون ، فجعل عماله يتقاذفون فريقاً من أهل الكوفة : يرسلهم سعيد إلى معاوية ، ثم يردّهم معاوية إلى سعيد ، ثم يرسلهم سعيد إلى عبد الرحمن بن خالد ، دون أن يحاكموا أو تقوم عليهم البينة أو يسمع منهم دفاعهم عن أنفسهم . وأذن لعبد الله ابن عامر فى أن ينفى عامر بن عبد القيس إلى الشام ، فلم يكد معاوية يراه ويسمع منه حتّى تبين أنه مظلوم مكذوب عليه ، وأراد أن يردّه إلى البصرة فأبى . واجترأ عبد الله بن سعد بن أبى سرح على أن يضرب بعض الذين شكوه إلى الإمام حتّى انتهى بأحدهم إلى الموت ، واضطرّ المهاجرون والأنصار وأزواج النبىّ إلى أن يلحوا على عثمان فى أن ينصف المصريين من عاملهم . فهمّ ثم لم يبلغ ما أراد .

فهذه السياسة العنيفة التى تسلط الخليفة وعماله على أبشار الناس وأشعارهم ، وعلى أمنهم وحريتهم ، ليست من سيرة النبى ولا من سيرة الشيخين فى شىء . وقد اجترأ بعض الناس على نقد النبى نفسه ، حتّى قال له : اعدل يا محمد فإنك لم تعدل . مرة ومرة . فلما قالها الثالثة لم يزد النبى على أن قال : « ويحك ! فمن ذا يعدل إذا لم أعدل ؟ » ، وهمّ المسلمون أن يبطشوا بهذا الرجل ، ولكن النبى كفهم عن ذلك . وقد يقال إن المسلمين أحدثوا فى أيام عثمان أحداثاً لم تكن ، فسار فيهم سيرة تلائم هذه الأحداث . وهذا بالضبط شبه ما قال زياد لأهل العراق : « وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة ». وغريب أن تذكرنا سياسة عثمان وولاته سياسة زياد مرتين .

والآن وقد استعرضنا هذه الأحداث وآراء المتكلمين فيها ، فقد نستطيع أن نستقبل الفتنة منذ حدثت ، ونعرضها كما كانت إلى أن انتهت إلى المرحلة الأولى من مراحلها ، وهو هذا الحدث العظيم الذى قتل فيه الإمام عنوة لا اغتيالا .

والمؤرخون مجمعون على أن المسلمين استقبلوا خلافة عثمان راضين عنها مطمئنين إليها ؛ لأنه وسع عليهم ما كان عمر يضيق ، ويسر من أمرهم ما كان عمر يعسر . وهو كما رأيت قد زاد العطاء لمجرد نهوضه بالأمر ، ثم هو قد ألان للناس من جانبه ، وبسط لهم يده بالعطاء ، وأحس الناس رخاء وسعة لم يكونوا يجدونهما أيام عمر . وأحست قريش بنوع خاص حرية لم تكن تجدها أيام عمر ؛ فلم يقم لها عثمان عند شعب الحرة ، ولم يأخذ بحلاقيمها مخافة أن تتهافت فى النار ، وإنما خلى بينها وبين الشعب تنفذ منه إلى حيث شاءت من الأقاليم والأمصار . ويكاد المؤرخون يجمعون على أن الأعوام الستة الأولى من خلافة عثمان مرت بسلام ، فلما استقبل عثمان الشطر الثانى من خلافته ظهرت المصاعب وقامت المشكلات .

ويخيل إلى أن المسلمين رضوا بخلافة عثمان ست سنين ، ثم احتملوها أربع سنين . فلما جاوز عثمان بخلافته الأعوام العشرة جعل المسلمون يضيقون به ويستطيلون خلافته : يظهرون ذلك فى شىء من الرفق أول الأمر ، ثم فى شىء من الحدة بعد ذلك ، ثم فى عنف جعل يتزايد شيئاً فشيئاً حتى انتهى إلى غايته المنكرة وهى قتل الإمام .

وليس معنى ذلك أن عثمان لم يلق معارضة أثناء هذه الأعوام العشرة ؛ فقد ظهرت المعارضة منذ اليوم الأول لخلافته بالقياس إلى قضية عبيد الله بن عمر ، وإنما معناه أن المعارضة لم تبلغ طور الخطورة إلا فى العامين الأخيرين من حياة عثمان . وأكاد أعتقد أن شيئاً من التشاؤم قد شاع فى نفوس الناس قليلاً قليلا منذ أضاع عثمان خاتم النبي فى بئر أريس ، فقد توارث الشيخان هذا الخاتم عن

النبي وأمضيا به أمور الدولة كلها . وكانا يجدان فى ذلك خيراً وبركة وتراثاً له خطره ، وكانا يمضيان بهذا الخاتم مايمضيان على أنهما خليفتان لرسول الله ينفذان سنته وينهجان نهجه ، ويمضيان بخاتمه الذى كان يمضى به الأمور قبل أن يفارق الدنيا . وتلقى عثمان هذا الخاتم عن عمر ، كما تلقاه عمر عن أبى بكر ، وكما تلقاه أبو بكر عن أهل بيت النبى حين استخلف . فلما سقط هذا الخاتم من يد عثمان فى البئر وجعل المسلمون يلتمسونه ويجتهدون فى التماسه دون أن يظفروا به على قلة ما كان فى البئر من ماء ، كرهوا ذلك وتطيروا به ، واستاء لذلك عثمان استياء شديداً ، وقد اتخذ خاتماً جديداً على صورة الخاتم الأول ونقش عليه ما كان منقوشاً على الخاتم الأول « محمد رسول الله » . ولكن هذا الخاتم الجديد لم يمس إصبع النبى ولم يمس أصبع الشيخين ، وإنما هو خاتم مصنوع لم يورث ولم تمض به الأمور من قبل ؛ فكأن عثمان قد استأنف منذ اتخذ هذا الخاتم عهداً جديداً . ويقول الرواة إن عبد الرحمن بن عوف كان أول من اجترأ على عثمان ، فألغى بعض أمره وأطمع الناس فيه . وذلك أن بعض السعاة أقبلوا بإبل للصدقة ، فوهبها عثمان لبعض أهل الحكم . فلما بلغ ذلك عبد الرحمن دعا بعض أصحاب النبى وأرسلهم فاستردوا له هذه الإبل وقسمها فى الناس ، وعثمان فى الدار لم ينكر ذلك ولم يغيره ، بل لم يكلم فيه عبد الرحمن وأصحابه . فكان اجتراء عبد الرحمن وأصحابه خطراً فى نفسه ؛ لأنه تغيير لأمر السلطان ، وكان سكوت عثمان على هذا الاجتراء أشد منه خطراً ؛ لأنه اعتراف بالخطأ ونقص من هيبة السلطان .

وقد جعل الناس بعد ذلك يظهرون إنكارهم لما يكرهون من سياسة عثمان ، يخطئون فى ذلك ويصيبون ، ولكنهم يعارضون على كل حال . ثم لم يتحرج بعضهم من أن يواجه عثمان بالمعارضة على ملأ من الناس ، ولم يتحرج بعضهم الآخر من أن يعصى أمر عثمان إذا صدر إليه ، كالذى كان من أبى ذر حين أرسل إليه عثمان ينهاه عما كان يلهج به من ذم الأغنياء وتلاوة الآية الكريمة : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » فلم يسمع له ولم يطع ، وإنما قال : « لأن أرضى الله بسخط عثمان أحب إلى

وخير لى من أن أسخط الله برضا عثمان » .

ولم تكن قصة الوليد بن عقبة خليقة أن تشعر قلوب الناس بهيبة لسلطان الخليفة . فليس مما يرفع من شأن السلطان فى النفوس أن تقوم البينة على أن بعض عماله قد شرب الخمر ، وأن يضطر الخليفة إلى عزل هذا العامل وإقامة الحد عليه ، وأن يتحدث الناس بأنه أخطأ حين ولاه مكان سعد ، وبأنه إنما ولاه لقرابته مع تظاهر الأدلة على أنه لم يكن أهلاً للولاية .

ثم جعلت المعارضة تشتد فى الأمصار وتصل أصداؤها إلى المدينة ، حتى اضطر عثمان إلى اصطناع النفى الإدارى . وجعلت المعارضة تشتد فى المدينة نفسها ، وتصل أصداؤها إلى الأمصار ، فتزيد المعارضين فى الأقاليم شدة واجتراء ، حتى اضطر عثمان إلى أن يصطنع الشدة مع معارضيه أنفسهم ، فيوعد وينذر ، ولا يملك نفسه أحياناً من البطش ببعض المعارضين .

وقد روى المؤرخون أن الناس كثروا على عثمان ونالوا منه أشنع ما نيل من أحد ، سنة أربع وثلاثين ، وكان أصحاب النبى يرون ويسمعون ثم لا ينهون ولا يذبون ، إلا جماعة ضئيلة : زيد بن ثابت وأبو أسيد الساعدى ، وكعب بن مالك ، وحسان بن ثابت . بل كان أصحاب النبى الذين أقاموا بالمدينة يكتبون إلى أصحاب النبى الذين تفرقوا فى الثغور يستقدمونهم إلى المدينة لتقويم ما اعوج من أمر الخلافة ، يقولون لهم : إنكم خرجتم تطلبون الجهاد وإنما الجهاد وراءكم ، فارجعوا إلى المدينة لإقامة الدين وصيانته ؛ فقد عرّضه السلطان لشر عظيم . واجتمع الناس فتذاكروا الأحداث والخطوب ، ولاموا عثمان فأكثروا لومه ، ثم كلفوا علياً أن يدخل على عثمان فيكلمه . قال المؤرخون : فدخل على على عثمان فقال له : الناس ورائى وقد كلمونى فيك . والله ما أدرى ما أقول لك ، وما أعرف شيئاً تجهله ، ولا أدلك على أمر لا تعرفه . إنك لتعلم ما نعلم ، ما سبقناك إلى شىء فنخبرك عنه ، ولا خلونا بشىء فنبلغكه ، وما خصصنا بأمر دونك . وقد رأيت وسمعت وصحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ونلت صهره . وما ابن أبى قحافة بأولى

بعمل الحق منك ، ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك ، وإنك أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رحماً ، ولقد نلت من صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم ينالا ولا سبقاك إلى شيء فالله الله في نفسك ؛ فإنك والله ما تبصر من عمى ولا تعلم من جهل ، وإن الطريق لواضح بين ، وإن أعلام الدين لقائمة . تعلم يا عثمان أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل هُدى وهَدى ، فأقام سنة معلومة ، وأمات بدعة متروكة . فوالله إن كلاً لبين ، وإن السنن لقائمة لها أعلام ، وإن البدع لقائمة لها أعلام ، وإن شر الناس عند الله إمام جائر ضَلّ وضُلّ به فأمات سنة معلومة وأحيا بدعة متروكة . وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر فيلقى في جهنم ، فيدور في جهنم كما تدور الرحى ، ثم يرتطم في غمرة جهنم " . وإني أحذرك الله وأحذرك سطوته ونقماته ؛ فإن عذابه شديد أليم . وأحذرك أن تكون إمام هذه الأمة المقتول ؛ فإنه يقال : يقتل في هذه الأمة إمام فيفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة ، ويلبس أمورها عليها ، ويتركهم شيعاً فلا يبصرون الحق لعلو الباطل ؛ يموجون فيها موجاً ويمرجون فيها مرجاً »[1] .

ولست أدري أروى حديث علي إلى عثمان كما قاله أم روى في نص مقارب يؤدي معناه وإن لم يؤد ألفاظه . ولكن المهم هو أن المعارضة في المدينة قد خرجت عن طور النقد الفردي المتفرق الذي يقال هنا وهناك ثم لا يتجاوز ذلك إلى ما بعده . خرجت عن هذا الطور إلى طور آخر من الاجتماع والتنظيم والاتجاه إلى الخليفة مباشرة ، ترفع إليه نقدها لسيرته وإنكارها لسياسته ، ثم تنتظر ما يكون منه بعد ذلك . فهي إذن قد خرجت من المعارضة السلبية إلى المعارضة الإيجابية ، كما نقول نحن في هذه الأيام . وقد استمع عثمان لرسول المعارضين إليه ، ثم رد عليه فقال : قد والله علمتُ ليقولُنّ الذي قلتَ . أما والله لو كنتَ مكاني ماعنفتك ولا أسلمتك ، ولاعبت عليك ولاجئتُ منكراً أنوصلتُ رحماً ، وسددت

---

(١) تاريخ الطبري في أحداث سنة ٣٤ هـ .

خلة ، وآويت ضائعاً ، ووليت شبيهاً بمن كان عمر يولى ! أنشدك الله يا على ! هل تعلم أن المغيرة بن شعبة ليس هناك؟ قال نعم. قال : فتعلم أن عمر ولاه؟ قال نعم ، قال : فلِمَ تلومنى أن وليت ابن عامر فى رحمه وقرابته؟ قال على : سأخبرك ، إن عمر بن الخطاب كان كل من ولى فإنما يطأ على صماخه ، إن بلغه عنه حرف جلبه ثم بلغ به أقصى الغاية . وأنت لا تفعل ، ضعفت ورفقت على أقربائك . قال عثمان : هم أقرباؤك أيضاً . فقال على : لعمرى إن رحمهم منى لقريبة ، ولكن الفضل فى غيرهم . قال عثمان : هل تعلم أن عمر ولى معاوية خلافته كلها ! فقد وليته . فقال على : أنشدك الله . هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من يرفأ غلام عمر منه؟ قال : نعم . قال على : فإن معاوية يقتطع الأمور دونك وأنت تعلمها ، فيقول للناس هذا أمر عثمان . فيبلغك ولا تغير على معاوية (١) .

فهذا الحوار القصير يصور أدق تصوير ما كانت المعارضة فى المدينة تنكر على عثمان ، وما كان عثمان يرد به على هذا الإنكار . فقد أنكرت المعارضة عليه إيثار قرابته بالأموال والأعمال ، وضعفه أمام العمال من أقربائه . ورد عثمان بأنه لم يزد على أن وصل رحماً وسد خلة وآوى ضائعاً ، وأنه سار فى اختيار العمال سيرة عمر ؛ فقد ولى عمر المغيرة بن شعبة مع أنه ليس هناك ، وولى معاوية خلافته كلها . ورد على بأن عمر كان يراقب عماله أشد المراقبة ويبطش بهم إن انحرفوا ، وبأن معاوية كان يخاف من عمر أشد مما كان يخاف منه غلامه يرفأ . وافترق الرجلان على غير اتفاق إلا أن عثمان قد وجد على على لأنه أسلمه ولامه وعاب عليه ، وكان الحق عليه أن يرعى ما بينهما من القرابة . ثم لم يكتف عثمان بالاستماع لما سمع من على وقول ما قال له ، بل أراد أن يواجه المعارضة كلها مجتمعة ، وأن ينذر ويحذر ، فخرج حتى جلس على المنبر ثم قال : « أما بعد فإن لكل شىء آفة ، ولكل أمر عاهة ، وإن آفة هذه الأمة وعاهة هذه النعمة عيابون طعانون يرونكم ما تحبون ويسرون ما تكرهون ، يقولون لكم ويقولون ،

---

(١) تاريخ الطبرى فى أحداث سنة ٣٤ هـ .

أمثال النعام يتبعون أو ناعق ،أحبُّ مواردها إليها البعيد،لا يشربون إلا نَغَصاً ، ولا يردُون إلا عكراً، لا يقوم لهم رائد ، وقد أعيتهم الأمور وتعذّرت عليهم المكاسب ! ألا فقد والله عبتم عليّ بما أقررتم لابن الخطاب بمثله ، ولكنه وطئكم برجله وضربكم بيده وقمعكم بلسانه فدنتم له على ما أحببتم أو كرهتم . ولنتُ لكم وأوطأت لكم كتفي وكففت يدى ولسانى عنكم ، فاجترأتم علىّ . أما والله لأنا أعزّ نفراً وأقرب ناصراً وأكثر عدداً وأقمن إن قلت هلمّ أتى إلىّ . ولقد أعددت لكم أقرانكم وأفضلت عليكم فضولاً ، وكشرت لكم عن نابى ، وأخرجتم منى خلقاً لم أكن أحسنه ومنطقاً لم أنطق به . فكفوا عليكم ألسنتكم وطعنكم وعيبكم على ولاتكم ؛ فإنى قد كففت عنكم من لو كان هو الذى يكلمكم لرضيتم منه بدون منطقى هذا . ألا فما تفقدون من حقكم ؟ والله ما قصرت فى بلوغ ما كان يبلغ من كان قبلى ومن لم تكونوا تختلفون عليه . فضَل فضلٌ من مال ، فما لى لا أصنع فى الفضل ما أريد ؟ فلمَ كنت إماماً ؟ » وهمّ مروان بن الحكم أن يتكلم فزجره عثمان قائلا : « اسكتْ لا سكتّ ! دعنى وأصحابى . ما منطقك فى هذا ! ألم أتقدم إليك ألا تنطق ؟ »[1] .

وهذه الخطبة هى أعنف خطبة خطبها عثمان فى خلافته كلها . وهو نفسه قد أحس ذلك واعتذر منه اعتذاراً رفيقاً يلائم خلقه وطبعه السمح فقال : « وأخرجتم منى خلقاً لم أكن أحسنه ومنطقاً لم أنطق به » . على أنه لم يكد يتم خطبته حتى رجع فى رفق عذب إلى المألوف من سيرته حين قال لمروان : « دعنى وأصحابى » فهو إذن يتحدث إلى أصحابه لا إلى خصومه ؛ وهو يعنف بهم لأنهم عنفوا به حتى أخرجوه عن طوره . والحليم يغضب ثم لا يلبث أن يعود إلى ما ألف من الحلم .

وعثمان ينكر على أصحابه استماعهم لهؤلاء العيابين الطعانين الذين يظهرون لهم ما يحبون ويخفون عليهم ما يكرهون ، ويضللونهم فى إمامهم ، ويطمعونهم فى أشياء ليس إليها سبيل . وعثمان يشير إلى قوم بعينهم فى هذا الحديث ، يرى أنهم قوام

---

(١) تاريخ الطبرى فى أحداث سنة ٣٤ هـ .

المعارضة ، وأنهم يغرون به ويؤلبون عليه لتحقيق آرابهم وبلوغ آمالهم التى طالما انتظروا بلوغها . وهؤلاء بالطبع هم الذين كان عثمان يظن أنهم ينفسون عليه الخلافة ويتمنونها لأنفسهم . ولعله يشير إلى من بقى من أهل الشورى ، وإلى الذين كانوا يلهجون بنقده أمثال عمار بن ياسر وغيره من المهاجرين والأنصار .

ثم يقول عثمان لأصحابه إنهم ينكرون عليه أشياء قد أتاها عمر فلم ينكروها عليه ، لأن عمر اشتد عليهم فخافوه ، ولأنه هو لانَ لهم فطمعوا فيه . ثم ينذر أصحابه وينذر الذين يغرونهم ويؤلبونهم ، فيذكر أنه أعزّ نفراً وأقرب ناصراً وأكثر عدداً وأجدر إن دعا أن يستجاب له. وما من شك فى أنه يعرّض فى هذا النذير بمنافسيه الذين لا يعدلونه قوة وبأساً . فبنو أمية كانوا من غير شك أعزّ نفراً وأكثر ناصراً من سائر أحياء قريش . ثم يعود إلى أصحابه فيسألهم ماذا ينكرون وماذا ينقمون ؟ لقد أدّى إليهم حقهم كاملاً ، ولم يقصر بهم عما كان يبلغه أبو بكر وعمر . ثم يعطف على تصرفه فى الأموال العامة فيقول : «فضَل فضلٌ من مال ، فالى لا أصنع فى الفضل ما أريد ؟ فلمَ كنت إماماً ؟ » . يريد أنه إذا أدى إلى المسلمين حقهم من بيت المال فله أن يتصرف فى سائره كما يريد . ذلك شىء تبيحه له الإمامة ، وليس لأحد أن يجادله فيه أو ينكره عليه . فقد كانت الجولة الأولى — كما يقول المحدثون — بين عثمان ومعارضيه متكافئة : أنكر المعارضون ثم نظموا إنكارهم ثم رفعوه إلى الخليفة ، فردّه عليهم ثم خطبهم فأنذر وحذّر واشتد ثم ثاب إلى شىء من لين ، ولكنه استمسك بموقفه لم يحد عنه ، واستمسكت المعارضة بموقفها لم تحد عنه أيضاً. إلا أن الحوادث كانت أقوى منه ومن المعارضة . فقد مضت المعارضة فى إنكارها ، وجاءته الأنباء من الأقاليم بأن المعارضة فيها ليست أقل ولا أهون من المعارضة فى المدينة . وكان عثمان قد احتفظ بسيرة عمر ، فحجّ بالناس أثناء خلافته كلها إلا العام الأول لأنه كان مريضاً ، وإلا العام الأخير لأنه كان محصوراً. وكان يلقى عماله فى الموسم من كل عام فيسمع منهم ويقول لهم . فلما لقيهم فى الموسم سنة أربع وثلاثين جمعهم للمشورة .

ويزعم الرواة أنه أحضرهم عمرو بن العاص . وأشك أنا فى هذا ؛ فلم يكن عمرو ابن العاص عاملا لعثمان سنة أربع وثلاثين ، ولم يكن عمرو بن العاص ناصحاً لعثمان منذ عزله عن مصر ، وإنما أقحم الرواة عمراً فى هذه المشورة ليصوروا مكره ودهاءه وكيده لعثمان. وأكبر الظن أنه لم يحضر شوراه إلا هؤلاء العمال الأربعة الذين كانوا يتولون الأمصار ذات الخطر ، وهم معاوية ، وعبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وعبد الله بن عامر ، وسعيد بن العاص . فلما التأمت جماعتهم قال لهم عثمان : إن لكل إمام وزراء ، وإنكم وزرائى . وقد رأيتم ما ظهر من تنمر الناس لى ومطالبتهم إياى بعزل عمالى ، ومن هذه الفتنة التى أظهرت رأسها ، فأشيروا علىّ . فأما معاوية فلم يزد على أن طلب إليه أن يردّ العمال إلى أمصارهم وأن يكلهم إلى كفايتهم . وأن يعتمد عليهم فى أن يضبط كل واحد منهم مصره ويحزم أمره ، ويكفى الإمامَ مَنْ قبله من الناس. وأما سعيد بن العاص فأشار عليه بأن يقتل قادة المعارضة وزعماء الفتنة. وأما عبد الله بن سعد بن أبى سرح فأشار عليه أن يترضى الناس ويعطيهم من بيت المال ويأخذهم من طريق أطماعهم . وأما عبد الله بن عامر فأشار عليه بأن يرسل الناس إلى الجهاد ، ويشغلهم بالحرب . ويطيل إقامتهم فى الثغور . وبهذا الرأى أخذ عثمان ، ردّ العمال إلى أمصارهم ، وأمرهم أن يحسنوا السياسة ويتشددوا فى حقوق الله ، ويأخذوا الرعية بالحزم ويرسلوهم إلى الغزو ، ويقطعوا العطاء عمن ظهر منه عوج أو انحراف . وعاد عثمان إلى المدينة وصحبه معاوية فى طريقه إلى الشام . وفى المدينة عقد عثمان مجلساً آخر للمشاورة شهده معاوية وشهده نفر من كبار الصحابة فيهم علىّ وطلحة والزبير وسعد . وبدأ معاوية الحديث ، فأوصى هؤلاء النفر بالإمام الشيخ ، وحذّرهم من الفتنة والفرقة ، ولم يخل تحذيره من بعض النذير . فنهره علىّ ، وكان بينهما حوار لم يخلُ من جفوة . ثم تكلم عثمان كلاماً فيه كثير من لين ورفق ، وأظهر أنه سائر إلى ما يشير القوم به عليه ؛ فقيل له إنك أعطيت فلاناً وفلاناً ، فاستردّ ما أعطيت . فوعد عثمان بذلك ورضى القوم ، وتفرقوا على شىء من رضا . ولم يكن شك فى أنّ المعارضة قد ربحت بعض الربح ؛ فقد

استشار عثمان زعماءها وأجابهم إلى بعض ما أرادوا .

وانصرف معاوية إلى المدينة بعد أن أوصى المهاجرين بالإمام الشيخ مرة أخرى ، وبعد أن لمح لهم مرة أخرى كذلك بالتحذير والنذير . وكان يظن أن الناس سيستقبلون سنة خمس وثلاثين بشيء من دعة وهدوء. ولكن أهل الكوفة ثاروا وردّوا واليهم سعيداً كما قدّمنا ، وطلبوا أن يولى عليهم أبو موسى ، واضطر عثمان إلى أن يجيبهم إلى ما أرادوا ؛ فكان هذا أول الفتنة : عرضت الكوفة لغيرها من الأمصار مثلاً ، فلم تلبث الأمصار أن اتبعته ، وظهر للناس أن الثورة طريق موصلة إلى ما يريد الثائرون .

وما هي إلا أن يذهب المصريون مذهب أهل الكوفة ، وإذا هم يرسلون في رجب من سنة خمس وثلاثين وفداً ضخماً ، خرجوا يظهرون أنهم يريدون العمرة ، ولكنهم أقبلوا على المدينة وأظهروا أنهم يريدون أن يناظروا عثمان في سياسته وسياسة عماله . والرواة يختلفون : فيقول بعضهم إنهم لقوا عثمان في قرية خارج المدينة فناظروه وحكموا المصحف بينه وبينهم . فأقنعهم بأشياء حتى رضوا ، وأقنعوه بأشياء حتى اعتذر ووعد بالنزول عنها. ويقول آخرون إنه أرسل إليهم جماعة من المهاجرين والأنصار فيهم علي ومحمد بن مسلمة الأنصاري: وأعطى على نفسه عهداً ليبلغنّ بالناس ما يرضون. فخرج السفراء ولقوا القوم فوعظوهم وأعطوهم لرضا ، ثم جاءوا بوفد منهم إلى عثمان فأكد لهم العهد، ثم خرج فخطب الناس وأثنى على الوفد المصريين وأعطى التوبة واستغفر الله وبكى وبكى الناس ورقت القلوب للإمام الشيخ ، وانصرف المصريون راضين. قال الرواة إن عثمان قال في آخر خطبته تلك : « إذا نزلت فليأتني خياركم ، فلا ترفع إليّ ظلامة إلا كشفتها ، ولا تعرّض عليّ حاجة إلا قضيتها» . ولكنه لم يكد يعود إلى داره حتى حوّله مروان عما وعد به، وخرج فردّ الناس عن الدار ردّاً عنيفاً . والشيء المحقق هو أن عثمان استطاع بما أعطى من العهد وما بذل من الرضا وما أعلن من التوبة أن يتألف الناس ويجمعهم على طاعته ومحبته وانتظار الخير منه . ولكن الأيام مضت وتبعتها الأيام ، ولم يعزل عثمان عاملاً ولم يغير مما وعد بتغييره شيئاً .

وما كاد يقبل شوال من هذه السنة حتى يخرج المصريون خرجتهم الثانية فى عدد يقول المقللون إنه كان ستمائة ، ويقول المكثرون إنه كان ألفاً ، ويخرج فى الوقت نفسه ناس من الكوفة والبصرة ، وقد تواعدوا القوم حين استيأسوا من وفاء الخليفة لهم بما أعطى على نفسه من العهد . ويبلغ القوم ضواحى المدينة ، ويعلم عثمان بمقدمهم فيريد أن يرسل إليهم علياً ومحمد بن مسلمة ، فيأبى على ، ويقول محمد بن مسلمة : لا أكذب الله فى سنة مرتين . ولكن أهل المدينة على ذلك يأبون أن تدخل المدينة عليهم عنوة ، وينهضون لرد هؤلاء الطارئين . وتقبل وفود من المصريين والكوفيين والبصريين ؛ فإذا هم يرون علياً وطلحة والزبير قد عسكروا ومع كل واحد منهم أصحابه يريدون أن يحموا دار الهجرة من أن تقتحم عليهم عنوة ، فيرتدون ويظهرون العودة إلى أمصارهم ويزولون عن معسكراتهم فى الضواحى . ويستيقن أهل المدينة أن قد زال الخطر ، وأن القوم قد رجعوا أدراجهم . فيستأنفون حياتهم على ما ألفوا من أمن ودعة وهدوء . ثم لا يروعهم إلا التكبير قد ملأ المدينة من حولهم ، وينظرون فإذا القوم قد كادوهم حين أظهروا الرجوع إلى أمصارهم ، حتى إذا آنسوا منهم أمناً ودعة عادوا فدخلوا المدينة واحتلوها بغير قتال ، ونادى مناديهم : من لزم داره فهو آمن ، ومن كف عنا أذاه فهو آمن . ثم يضرب الحصار حول دار عثمان .

وهنا تأتى قصة الكتاب الذى يقول الرواة إن المصريين قد أخذوه أثناء عودتهم إلى مصر فكروا راجعين . فهذه القصة فيما أرى ملفقة من أصلها . وليس أدل على ذلك مما يقول الرواة أنفسهم من أن أصحاب النبى لم يكادوا يجادلون القوم فى كتابهم هذا ويسألونهم كيف علم أهل الكوفة وأهل البصرة بأنكم قد أخذتم هذا الكتاب وقد ذهب كل فريق منكم إلى وجه ؟ حتى عجزوا ولم يعرفوا كيف يجيبون ، وقالوا : ضعوا هذا الأمر كيف شئتم ، فلا حاجة لنا بهذا الرجل . وليس بمعقول ولا بمقبول أن يكيد عثمان للمسلمين هذا الكيد ، فيعطى فريقاً منهم الرضا ثم يرسل إلى عامله سراً من يبلغه الأمر أن يبطش بهم ويرهقهم من أمرهم عسراً . وليس بمعقول ولا مقبول أن يجترئ مروان على الخليفة فيكتب هذا

الكتاب ويمضيه بخاتمه ويرسله مع غلامه على جمل من إبله . كل هذا أشبه بأن يكون ملهاة سخيفة منه بأن يكون شيئاً قد وقع . والأمر أيسر من هذا . تلقى أهل الأمصار وعداً من إمامهم فاطمأنوا إليه، ثم تبينوا أن الخليفة لم يصدق وعده ، فأقبلوا ثائرين يريدون أن يفرغوا من هذا الأمر وألا يعودوا حتى يفرغوا منه ، فلما بلغوا المدينة وجدوا أصحاب رسول الله قد تهيئوا لقتالهم، فكرهوا هذا القتال وانصرفوا كائدين ، حتى إذا عرفوا أن هؤلاء الشيوخ قد ألقوا سلاحهم وأمنوا فى دورهم ، كرّوا راجعين فاحتلوا المدينة بغير قتال .

وما كان هؤلاء الناس يريدون أن يقاتلوا أصحاب النبي ولا أن يقتلوهم ، ولا أن يثيروا حول المدينة حرباً تذكر بيوم أحد أو بيوم الأحزاب ، إنما كانوا يريدون أن يحاصروا الإمام ويماجلوه حتى يصلوا إلى خلعه أو إلى قتله. وقد بلغوا ما أرادوا ، فدخلوا المدينة وحاصروا الإمام .

وأكاد أقطع بأن قد كان لهم من أهل المدينة أنفسهم أعوان وأنصار دعوهم وشجعوهم . ثم أعلموهم بما عزم عليه أصحاب النبي ، ثم أعلموهم بعودة المدينة إلى الهدوء والدعة ، ثم انضموا إليهم حين حاصروا عثمان . وقد كان الحصار فى أول أمره يسيراً لا يكاد يتجاوز احتلال المدينة والإحاطة بدار عثمان ، وكان الخليفة حرًّا يخرج من داره ويعود إليها ويصلى بالناس ويصلى خلفه الثائرون أنفسهم، ويخطب الناس فيعظهم ويبصرهم ، ويسعى السفراء فى أثناء ذلك بينه وبين الثائرين . يريد الثائرون أن يخلع نفسه ، ويأبى هو أن ينزع قميصاً قد كساه الله عز وجل إياه . ولكن الأمور تتعقد فجاءة ؛ فقد عرف الثائرون أن عثمان قد أرسل إلى العمال فى الأمصار يأمرهم بأن يرسلوا إليه الجند لينصروه ويخرجوا من المدينة هؤلاء الطارئين . وما يكاد الثائرون يعرفون هذا النبأ حتى يتغير الحصار وتتغير معه سيرتهم مع عثمان .

فقد خرج عثمان ذات يوم كما كان يخرج من قبل ، وصلى بالناس كما كان يصلى بهم من قبل . ثم جلس على المنبر فجعل يعظ الناس ويبصرهم كما تعوّد أن يعظهم ويبصرهم ، وكان فيما قال : « يا هؤلاء العِدَى اللهَ اللهَ ، فوالله إن أهل المدينة ليعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم . فامحوا الخطايا بالصواب ؛ فإن الله عز وجل لا يمحو السيئ إلا بالحسن » . قال المؤرخون فقام محمد بن مسلمة فقال : أنا أشهد بذلك . فقام إليه حكيم بن جبلة فأقعده . فقام زيد بن ثابت وقال : ابغنى الكتاب ، فثار إليه من ناحية أخرى محمد بن أبي قتيرة فأقعده . أراد محمد بن مسلمة أن يشهد بأن الله لا يذهب السيئ إلا بالحسن . وأراد زيد بن ثابت أن يثبت ذلك من المصحف ، فيتلو على الناس قول الله عز وجل : « إنّ الحسنات يذْهبنَ السيئات » ، ولكن الناس أقعدوهما . وقام جبلة بن عمرو الساعدى (رجل من الأنصار) : فقال يا عثمان انزل ندّرعك عباءة ونحملك على شارف من الإبل إلى جبل الدخان كما سيرت خيار الناس . قال عثمان : قبحك الله وقبح ما جئت به ! وكان جبلة هذا يعرض لعثمان وينذره بالقتل أو بأن يطرح فى عنقه جامعة ويحمله على قلوص جرباء ويلقيه فى جبل الدخان إن لم يترك بطانته ، وكان يلومه فى عماله وفى مروان وفى آل الحكم خاصة . وكان يقول إذا كلم فى ذلك وحاول مكلموه أن يردّوه إلى بعض الرفق : والله لألقى الله غداً فأقول إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل .

ولم يكد عثمان يردّ على جبلة هذا حتى قام جهجاه بن سعيد الغفارى (رجل من رهط أبي ذر ومن أصحاب النبى الذين شهدوا بيعة الرضوان) فوثب إلى المنبر فأخذ من عثمان العصا التى كان يخطب عليها ، وهى التى خطب عليها النبى وصاحباه من بعده ، فكسرها على ركبته . قال الرواة : فأصابت ركبته إكلة منذ ذلك اليوم ، وأمر عثمان فيما بعد بشد العصا . ثم ثار الناس فتحاصبوا وحُصب

عثمان حتى صرع واحتمل مغشيًّا عليه ، فأدخل إلى داره فلم يخرج منها إلا مقتولا .

ومنذ ذلك اليوم سار الثائرون مع عثمان سيرة منكرة حقًّا ، منعوه من الصلاة فى مسجد النبى ، وأقاموا منهم رجلا يصلى بالناس هو الغافقى زعيم المصريين . وكان طلحة بن عبيد الله ربما صلى بالناس . وكان علىٌّ ربما صلى بهم أيضاً . ثم حال الثائرون بين عثمان وبين الماء ، حتى اشتد الظمأ عليه وعلى أهله وعياله ، وحتى أشرف عليهم ذات يوم فذكرهم بأنه اشترى بئر رومة بأمر النبى وجعلها سقاية للمسلمين . ووعده النبى بها الجنة ، وهو الآن يحْرمُ ماءها ويُفطر على ماء آجن . وذكرهم بأنه اشترى بأمر النبى أرضاً ضمها إلى المسجد حين ضاق بالناس ووعده النبى بها الجنة ، وهو أول مسلم منع من الصلاة فيه . ثم أرسل إلى جماعة من أصحاب النبى وأمهات المؤمنين يطلب إليهم أن يرسلوا إليه شيئاً من الماء العذب إن استطاعوا ، فاحتال علىٌّ حتى أدخل إليه شيئاً من ماء ، وأقبل على الثائرين فزجرهم وقال : إن الذى تصنعون ليس صنيع المؤمنين ولا صنيع الكافرين ، وإن الفرس والروم ليأسرون فيطعمون ويسقون . وأقبلت أم حبيبة بنت أبى سفيان زوج النبى تحمل شيئاً من ماء ، فضرب الثائرون وجه بغلتها وقطعوا حقبها ، حتى كادت أم المؤمنين تسقط لولا أن تلقاها الرجال فأسندوها وردّوها إلى دارها ، مع أنها أنبأتهم بأنها إنما أقبلت تكلم عثمان فى أيتام بنى أمية ، وكانت وصايا بنى أمية عنده ، فلم يصدّقوها ولم يسمعوا منها . ولزم أكثر أصحاب النبى دورهم منذ اشتد الحصار ، وأقام الناس فى بيوتهم لا يخرج منهم أحد إلا ومعه سيفه . واشتد الكرب وشاع القتل وعظم البلاء ، وجعل عثمان يشرف على الثائرين بين حين وحين فيعظهم ويحذّرهم ويخوّفهم الفتنة ويذكرهم بآيات الله وحديث النبى فلا يسمعون له ولا يحفلون به ، وربما ردّوه ردًّا عنيفاً .

وقد اجتمع القادرون على القتال من بنى أمية وانضم إليهم شباب من أبناء المهاجرين ، فدخلوا الدار وقاموا يحمونها ويحمون عثمان من الثائرين ، وكان فيهم

عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير والحسن والحسين ابنا عليّ ومحمد بن طلحة ، وأمّر عثمان عليهم عبد الله بن الزبير ، وتقدّم إليهم فى ألا يقاتلوا ، وعزم عليهم فى ذلك أشد العزيمة . وتحرّجت الأمور حتى منع الناس من الدخول على عثمان ، ومنع أهل الدار من الخروج منها ، وأقام الناس على ذلك أياماً . ثم جاءت الأنباء بأن أمداد العراق قد دنت من المدينة ، وبأن أمداد الشام قد انتهت إلى وادى القرى . فيختلف الرواة هنا أشد الاختلاف : فأما الذين هواهم مع عثمان فيقولون : أشفق الثائرون أن تصل الأمداد إلى المدينة فتحول بينهم وبين ما يريدون ، فاحتالوا حتى أنفذوا نفراً منهم ، عليهم محمد بن أبى بكر ، فتسوّروا الدار من خوخة بينها وبين دار عمرو بن حزم وانتهوا إلى عثمان فقتلوه . وأما الذين هواهم مع غير عثمان فيقولون إن أهل الدار هم الذين بدءوا فناوشوا الثائرين . كان عثمان مشرفاً عليهم ، وقد دعاه رجل منهم يقال له نيار بن عياض الأسلمى ، وكان شيخاً كبيراً من أصحاب النبى ، دعا عثمان وجعل يعظه وينصح له بأن يخلع نفسه . وإنه لفى ذلك إذ رمى بسهم من الدار أو ألقى عليه منها حجر فقتل . قال الثائرون لعثمان : ادفع إلينا قاتل صاحبنا فنقيد منه . فقال عثمان : ما أعرف له قاتلا فأدفعه إليكم ، أو قال عثمان : ما أدفع إليكم رجلا ذبّ عنى وأنتم تريدون قتلى ، ثم حجزت بينهم ليلة منكرة . فلما أصبحوا هجم الثائرون على الدار يحرّقون أبوابها ، وخرج لهم أصحاب الدار يقاتلونهم . فاشتد القتال وجرح عبد الله ابن الزبير جراحات كثيرة . وصرع مروان بن الحكم حتى ظنّ به الموت ، وقتل آخرون ، واقتحمت الدار على أهلها . وفى أثناء ذلك فتح عمرو بن حزم بابه وأنفذ من الخوخة أولئك النفر الذين انتهوا إلى عثمان فقتلوه .

وأكبر الظن أن أنباء وصلت إلى المدينة بأن الأمداد قد كادت تبلغها ، فأراد الثائرون أن يفرغوا من الأمر قبل أن تصل هذه الأمداد . ولم يستطع مروان ابن الحكم أن يصبر وقد بلغه من أنباء الأمداد ما بلغ الثائرين ، فتعجل الحرب وظن أنه يستطيع أن يزحزح المحاصرين عن الدار ، وأن يقاتلهم حتى تأتى الأمداد ، وكره أن يعتدّ عليه معاوية أو ابن عامر بأن جنودهما قد أدركتهم

محصورين فى الدار ففرّجت عنهم الحصار وردّت إليهم الحياة . فأراد أن تدركه الأمداد ومعه منْ فى المدينة من بنى أمية وهم يقاتلون ويبلون فيحسنون البلاء . وهو من أجل هذا خرج مرتجزاً يطلب المبارزة . وخرج معه نفر من بنى أمية يرتجزون ، وعثمان يأمرهم بالصبر ويكفهم عن القتال فلا يسمعون له ولا يستجيبون لدعائه ، حتّى اضطر إلى أن يقسم على منْ رأى عليه له طاعة ليلقينّ سيفه ، فألقى جماعة من أصحابه سيوفهم وأبى بنو أمية أن يفعلوا . وبينما القوم يقتتلون وقد اقتحمت الدار وجعل أهلها يتفرقون . خرج خارج فأذن فى الناس : لقد قتلنا ابن عفان ؛ ثم فتحت الأبواب ونهبت الدار ونهب بيت المال ، ولم يتفرق الناس إلا وقد وقعت الواقعة وكانت الفتنة وصُبّ على المسلمين بلاء عظيم .

ومع ذلك فقد يظهر أن عثمان مال فى آخر أمره إلى شىء من العافية . فقد يتحدث الرواة بأن سعد بن أبى وقاص دخل على عثمان فسمع منه ، ثم خرج مسترجعاً يطلب علياً حتى لقيه فى المسجد ، فقال له هلمّ أبا الحسن ! لقد جئتك بخبر ماجاء به أحد أحداً . إن خليفتك قد أعطى الرضا فأقبلْ فانصره واسبقْ إلى الفضل فى نصره . وإنهما ليتناجيان حتّى جاء النبأ بقتل عثمان .

فأكاد أعتقد أن عثمان كان دعا سعد وكلفه أن يسفر بينه وبين علىّ ليكفّ الناس عن القتل والقتال ، على أن يردّ الأمر إلى أصحاب الشورى وأهل الحل والعقد من المسلمين ليضعوه حيث يشاءون ؛ ولكن هذه السفارة جاءت متأخرة . وكان أمر الله قدراً مقدوراً .

وكان معاوية قد عرض على عثمان قبل أن يفارقه فى أواخر سنه أربع وثلاثين خصلتين رفضهما عثمان رفضاً حاسماً : عرض عليه أن يسير معه إلى الشام فيكون فيها آمناً منصوراً ؛ فأبى عثمان أن يترك جوار النبى وأن يستبدل بدار الهجرة داراً أخرى . وأضمر عثمان فى نفسه أشياء لم يقلها لمعاوية فى أكبر الظن ؛ وهى أنه لو ترك المدينة لنقل عاصمة الخلافة إلى بلد آخر غير البلد الذى ظهر الإسلام فيه على أعدائه ، وإلى بلد آخر غير البلد الذى أقام النبى فيه أعلام الإسلام وأقام الشيخان فيه بعد ذلك مجد الإسلام ولم يكن أبغض إلى عثمان من أن يأتى هذه البدعة ؛ ولم يكن أبغض إليه من أن يقول له أصحاب النبى وعامة المسلمين : نقلت أمر الإسلام من حيث أقره النبى وصاحباه إلى بلد أجنبى غريب ، ثم لو فعل عثمان لكان أسيراً فى يد معاوية . ولأن يكون أسيراً فى يد أصحابه الذين هاجروا معه والذين آووا ونصروا والذين غزوا معه ومع النبى واستمعوا معه للنبى ، أحبّ إليه من أن يكون أسيراً عند معاوية بن أبى سفيان ؛ على ما بينه وبين معاوية من قرابة النسب . وعلى ما عند معاوية بن أبى سفيان من الأمن والعزة والغلب .

وعرض معاوية على عثمان أن يرسل إليه جنداً من أهل الشام يقيمون معه فى المدينة ليردوا عنه العاديات ؛ فأبى عثمان وقال لا أضيق على أصحاب رسول الله بجوار من يجاورهم من الجند . وأضمر عثمان فى نفسه أشياء أخرى فى أكبر الظن لم يقلها لمعاوية : لم يرد أن يخرج عن سيرة النبى وسيرة صاحبيه ، فيفرض سلطانه بالقوة والغلب ويخضع دار الهجرة لهذا الاحتلال الذى عرضه عليه معاوية ، فيحدث فى الإسلام هذا الحدث الأكبر وهو إخضاع المهاجرين والأنصار ومسجد النبى ومدينته لجند يرسلهم معاوية بن أبى سفيان من قوم لم يلقوا النبى ،ولم

يسمعوا منه ولم يروا سيرته وسيرة صاحبيه رأى العين . لم يرد عثمان أن يكون أول من يحوّل الخلافة إلى ملك ، ويخرجها عما ألفت من هذه السماحة المسمحة إلى القهر والقسر والبأس الشديد . ولو قد فعل عثمان لكان طاغية يحكم أصحاب النبي بقوة هذا الجيش الذى يحميه من أصحابه ، ويحرس داره إن أقام فيها ، ويحرسه هو إن خرج من داره ، ويحيط به إذا قام خطيباً على منبر النبي ، ويسعى بين يديه إذا مشى فى طرقات المدينة . وأين هذا كله من سيرة النبي والشيخين ومن سيرة عثمان نفسه ! فقد كان يمشى فى المدينة غير محروس ، ويقف على أندية القوم فيقول لهم ويسمع منهم وكان ينام فى المسجد وقد لفّ رداءه واتخذه وساداً . وكان يجلس على منبر النبي يوم الجمعة فيتحدث إلى الناس حديث الأب الرفيق ، أو الأخ البار أو الصديق الحميم ، يسألهم عن مرضاهم وعن شؤونهم وعن حاجاتهم وعن أسعار السوق . فإذا أذّن المؤذنون قام فخطبهم ما شاء الله أن يخطبهم ، ثم جلس فاستأنف الحديث معهم يسألهم عن مرضاهم وعن شؤونهم وعن حاجتهم وعن أسعار السوق . فإذا أذّن المؤذنون الأذان الثانى قام فصلى بهم ؛ فكيف به لو غير هذا كله فانتقل إلى الشام وترك دار الهجرة ، فلم يخطب على منبر النبي ، ولم يصلّ فى مسجد النبي حيث صلى النبي وصاحباه ؟ وكيف به لو أقام فى المدينة يحفّ به جند من أهل الشام يحمونه من الذين شهدوا معه ومع النبي المشاهد كلها ؟ لم يكن عثمان ليستجيب لما دعاه إليه معاوية ، ولا ليقبل ما عرض عليه معاوية من إرسال ذلك الجيش . فلما قال له معاوية : إذن لتغزَيَنّ أو لتغتالنّ ، قال : حسبى الله ونعم الوكيل !

فقد استقبل عثمان خلافته إذن وهو يريد أن يسير سيرة صاحبيه لا يغير منها شيئاً . وسار على الجملة سيرة صاحبيه ؛ فلم يحتجب ولم يستعل ولم يتسلط ، وإنما أدركه ما قد يدرك الناس من هذا الضعف الذى لا يأتى عن نية سوء ولا عن تعمد للبغى ، وإنما يأتى عن خلق كريم وعن حب للخير ورغبة فيه .

وما ينبغى أن ننسى أن عثمان قد استقبل الخلافة وهو شيخ كبير قد بلغ السبعين من عمره . وكان جواداً معطاء . وكان وصولاً للرحم ، وكان شديد الحياء ،

وكان سمح الخلق رقيق القلب حسن الرأى فى الناس . فإذا اجتمعت كل هذه الخصال فى شخصه وأضيفت إليها خصال أخرى فى عشيرته الأقربين هى الطمع والجشع والطموح الذى لا حد له والاستعداد للتسلط والغلبة ، كان هذا كله خليقاً أن يعرض عثمان لما تعرض له من الشر . فإذا أضفت إلى خصاله وخصال عشيرته الأقربين أن جماعة من كبار أصحاب النبى قد نازعتهم نفوسهم إلى الدنيا فاندفعوا إليها ورغبوا فيها ، وجمعوا منها حظوظاً ضخمة ، وألقى هذا فى روعهم أنهم ليسوا أقل من عثمان استحقاقاً للخلافة . وأنهم قد يكونون أقدر منه على النهوض بأعبائها وضبط أمورها لأنهم لم يبلغوا من الشيخوخة ما بلغ ؛ كان هذا كله خليقاً أن يجعل الأمر على عثمان عسيراً أشد العسر ، وأن يجعل السياسة بالقياس إليه مشكلات معضلات يتبع بعضها بعضاً ، لا يخرج من بعضها إلا ليدخل فيما هو أشد منها عسراً وأعظم تعقيداً .

ثم إذا أضفت إلى هذا كله أن هؤلاء الشيوخ من المهاجرين والأنصار ، قد عاشوا عيشة إلا تكن بدوية خالصة فهى إلى البداوة أقرب منها إلى الحضارة ؛ ثم نظروا ذات يوم فإذا هم أمام دولة ضخمة بعيدة الأرجاء مترامية الأطراف معقدة الشؤون تحتاج إلى أن تساس سياسة الحضارة المتأصلة ذات السنن الموروثة والتقاليد المقررة لا الحضارة الطارئة — إذا جمعت هذه الخصال كلها بعضها إلى بعض ، عرفت أن ظروف الحياة التى أطالت بعثمان كانت أقوى منه ومن أصحابه . ولا تقل إن عمر قد واجه هذه الظروف وظهر عليها ؛ فقد كان عمر من هؤلاء الأفذاذ الذين لا تظفر الإنسانية بهم إلا فى القليل النادر ، والذين يتعبون من بعدهم ويرهقونهم من أمرهم عسراً . ولولا شىء من التحفظ والاحتياط لقلت إن المسئول الأول والأخير عما تعرض له عثمان وأصحابه من الخطوب إنما هى لهذه العبقرية الفذة التى أتيحت لعمر ولم تتح لأحد من أصحابه وفيهم عثمان .

ومهما يكن من شىء فهذه الأحداث التى حدثت ، وهذه الفتنة التى بلغت المرحلة الأولى من مراحلها بقتل عثمان ، قد تركت المسلمين وأمامهم طريقان كلتاهما مستقيمة واضحة الأعلام ليس فيها عوج ولا التواء : إحداهما هى

الطريق التي سلكتها الأمم من قبلهم ، وهي طريق الملك الذي يقيم أمره على الحزم والعزم وعلى القوة والبأس ، ويحل مشكلات الدنيا بوسائل الدنيا ، فيرقى ويقوى ويزدهر ، ثم يصيبه الضعف والانحلال والذواء لينتقل من طور إلى طور ، ومن دولة إلى دولة ، ومن شعب إلى شعب . والأخرى هي هذه الطريق الجديدة التي مهدها النبي ورفع أعلامها صاحباه ، وهي التي لا تقيم السلطان على القوة ، وإنما تقيمه على المحبة والعدل ، وتجعل القوة أداة من أدواته ووسيلة من وسائله ، ولا تعرف أثرة ولا تحكماً ولا جبرية ، ولا تحل مشكلات الدنيا بوسائل الدنيا . وإنما تحلها بوسائل الدين هذه التي تقوم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعلى الرغبة في الخير والنفور من الشر وعلى الإيثار على النفس والتبرؤ من الأثرة ، وتعتمد قبل كل شيء على صفاء النفوس ونقاء الضمائر وطهارة القلوب ، وتتخذ الدنيا كلها ، لا أقول وسيلة إلى الآخرة ليس غير ، ولكن أقول وسيلة إلى الآخرة من جهة ، ووسيلة إلى دنيا جديدة تزداد رقيًّا ونقاء وصفاء وطهراً كلما تقدمت بها الأيام من جهة أخرى .

نظر المسلمون بعد مقتل عثمان فإذا هم على رأس هاتين الطريقتين . فأما أكثرهم فسلكوا الطريق الأولى ، وامتحنوا فيها وما يزالون يمتحنون بما امتحنت به الأمم والشعوب ؛ وأما أقلهم فحاولوا أن يسلكوا الطريق الثانية ، ولكنهم كانوا ناساً من الناس ، فلم يكادوا يتقدمون في طريقهم تلك حتى امتحنوا في أنفسهم ودمائهم ، وحتى غلبهم الأكثرون عدداً على أمرهم .

وينظر المسلمون الآن فإذا الطريق الأولى ما زالت مزدحمة بهم جميعاً يتهافتون فيها كما يتهافت الفراش في النار ، وإذا الطريق الثانية ما زالت قائمة واضحة بينة الأعلام ، ولكنها خالية لا يقدر على سلوكها إلا أولو العزم من الناس . وأين أولو العزم من الناس ؟ !

وهناك مع ذلك سؤال لم يجب عنه القدماء إجابة مرضية ، بل لم يحاول أكثرهم أن يجيب عنه ، ولا بدّ مع ذلك من أن نظفر له بجواب : كيف ولماذا أبطأ عمال عثمان عن نصره حتى أتيح للثائرين أن يحاصروه فيطيلوا حصاره وأن يقتلوه بعد ذلك ؟ فقد قيل إن الحصار اتصل أربعين يوماً . ونحن نعلم أن المواصلات لم تكن يسيرة ولا قريبة . ولكنا نعلم من جهة أخرى أن الأخبار كانت تنتقل في سرعة مدهشة إلى الأمصار . فعبد الله بن سعد بن أبي سرح كان يعلم أن المصريين قد خرجوا منكرين على عثمان ؛ وهو أنبأ معاوية بذلك من غير شك ، كما أنه كتب به إلى عثمان . وأبو موسى الأشعري قد رأى خروج أهل الكوفة من الكوفة ، وعلم من أمرهم مثل ما علم ابن أبي سرح من أمر المصريين . وقل مثل ذلك بالقياس إلى عبد الله بن عامر مع الذين خرجوا من أهل البصرة . فما بال هؤلاء العمال لم يسرعوا إلى نصر الإمام لمجرد علمهم بخروج من خرج من أهل أمصارهم ؟ بل ما بالهم لم يسرعوا إلى نصر عثمان حين جاءتهم كتبه تطلب إليهم النجدة ؟ ولماذا تلبثوا وتباطئوا حتى كان الشر وقتل الإمام قبل أن يدركوه ؟ وأكثر من هذا أن عثمان قد عوّد عماله أن يوافوه في الموسم من كل عام ، فما بالهم أقاموا في أمصارهم هذا العام ولم يشهدوا الحج حتى اضطر عثمان وقد كان محصوراً أن يأمر ابن عباس ليحج بالناس ؟ وأشد من هذا كله غرابةً أن ابن عباس حمل فيما يقول المؤرخون كتاباً من عثمان إلى عامة المسلمين الذين شهدوا موسم الحج يعرض عليهم قضيته فيه ويدافع عن نفسه . ويقول المؤرخون إن ابن عباس قرأ هذا الكتاب في الموسم . فكيف استمع الناس لهذا الكتاب الذي رواه الطبري كاملاً ، ثم تفرقوا بعد ذلك كأن لم يكن شيء ، لم ينهض أحد منهم لنصر الخليفة ، ولم تذهب جماعتهم إلى المدينة ليشهدوا بعض ما كان يقع فيها من الأحداث ؟ بل كيف قام عامل عثمان على مكة هادئاً ساكناً مطمئناً لم يستنفر الناس لنصر

الإمام ؟ ولو قد استنفر أهل مكة وجمع من أهل البادية جيشاً لاستطاع أن يشغل هؤلاء الثائرين حتى تقبل هذه الأمداد النظامية من الأمصار . فما بال شيء من هذا لم يكن ؟ وما بال أحد من هؤلاء العمال لم يتحرك ؟ وما بال الحجيج لم يفزعوا لنصر إمامهم ؟ أيمكن أن تكون الأمة كلها قد أسلمت هذا الإمام : فترت الرعية ، وأضمر العمال فى نفوسهم أشياء فتباطئوا وتثاقلوا ، وشغل كل واحد منهم بنفسه ، وتركوا الإمام لأهل المدينة يصنعون به ما يشاءون أو يصنع هو بهم ما يشاء ؟ وقد رأيت أن أهل المدينة أنفسهم قد كانت كثرتهم مع الثائرين ، وكانت قلتهم من أصحاب النبي خاذلة لعثمان تنكر بألسنتها ولا تصنع شيئاً . ولو قد استقبل أصحاب النبي هؤلاء الثائرين منكرين عليهم وحثوا فى وجوههم التراب لانصرفوا مخذولين كما قال بعض القدماء . وإذن فقد صدق عثمان حين قال إن الناس قد طال عليهم عمره فملوه . وأكبر الظن أن الناس لم يطل عليهم عمر عثمان فحسب ، وإنما طال عليهم أيضاً عمر هذه السياسة التى لم تكن سياسة خلافة كالتى عرفوها أيام عمر ، ولا سياسة ملك كالتى عرفوها من قيصر وكسرى ، وإنما كانت شيئاً بين بين .

أصبح عثمان غداة الليلة التى أرسل فيها سهم أو ألقى فيها حجر من داره فقتل نيار بن عياض الأسلمى – أصبح عثمان غداة تلك الليلة صائماً ، وتحدث إلى أصحابه بأنه مقتول من ذلك اليــوم . فلما قال له أصحابه : يكفيك الله عدوك يا أمير المؤمنين ، قال : لولا أن تقولوا تمنى عثمان لحدثتكم حديثاً عجيباً . قالوا : فإنا لا نقول ذلك . قال : إنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر وعمر فقال لى : أفطر عندنا الليلة يا عثمان .

ومضى عثمان بعد ذلك فى حديثه مع أصحابه فقال لهم فيما قال : لم يقتلوننى وقد سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول : « لا يحل دم امرئ مسلم إلا فى إحدى ثلاث : رجل كفر بعد إيمانه ، أو زنا بعد إحصانه ، أو قتل نفساً بغير نفس » . فوالله ما زنيت فى جاهلية ولا فى إسلام قط ، ولا تمنيت أن لى بدينى بدلاً منذ هدانى الله ، ولا قتلت نفساً ، ففيم يقتلوننى[1] ؟ ثم مضى فى الحديث مع أصحابه فقال : لئن قتلونى لم يصلّوا بعدى جميعاً أبداً ، ولم يقاتلوا عدوًّا جميعاً أبداً . ثم مضى بعد ذلك فى حديثه مع أصحابه ينهاهم عن القتل والقتال وهم يلحون عليه فى قتالهم ، فقال : إن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قد عهد إلىّ عهداً فأنا صابر على العهد الذى عهده إلىّ حتى أصرعَ فى المصرع الذى كتب علىّ أن أصرع فيه . وظل كذلك يتنقل مع أصحابه بين هذه الأحاديث حتى أقبلوا عليه فقتلوه .

والناس يختلفون فيه وفى قاتليه أشد الاختلاف وأعظمه . ولكن الشىء الذى لا يقبل شكًّا ولا نزاعاً أن الله لم يحلّ دم عثمان لقاتليه . فقد يكون مخطئاً فى سياسته وقد يكون مصيباً ، وقد يكون أصحابه قد جاروا عن علم أو عن غير علم ، فأقصى

(١) طبقات ابن سعد طبع ليدن الجزء الثالث القسم الأول صفحة ٤٦ .

ما يباح للمنكرين عليه والمخاصمين له أن يثوروا به ويحملوا الأمة على هذه الثورة ؛ فإن ظفروا باجتماع الكلمة على خصومته اختاروا من المسلمين ممثلين للأمصار والأقاليم ، وكان على هؤلاء الممثلين أن يحاوروا عثمان ويناظروه ، وأن يقولوا له ويسمعوا منه ؛ فإن رأوه إقراره أقروه ، وإن رأوا خلعه خلعوه ثم اختاروا للمسلمين إماماً مكانه ، ثم تركوا للإمام محاسبة عثمان على ما يمكن أن يكون لهم قبله من الأموال والدماء . فأما أن ينتدب الثائرون ولم يوكلهم المسلمون عنهم فيخلعوا الإمام ، فلم يكن ذلك لهم . فكيف وهم لم يخلعوه ، وإنما سفكوا دمه ، وكان دمه حراماً كدم المؤمنين جميعاً ، وكانت لدمه بعد ذلك حرمة أخرى هى حرمة الخلافة ؟

والناس يعتذرون عن هؤلاء الثائرين معاذير كثيرة ، يقولون إنهم لم يكونوا يستطيعون خلعه خوفاً من عماله فى مصر والشام والعراق ، ولم يكونوا يستطيعون الانتظار به خوفاً من هؤلاء العمال ، ولو لم يقتلوه لقتلهم هو أو لقتلهم عماله . ولكن كل هذه المعاذير لا تبيح لهم أن يسفكوا دماً حرّمه الله ، وأن يستبيحوا سلطان الخلافة على هذا النحو .

ولعل العذر الوحيد الذى ينهض لهم كما ينهض لعثمان وينهض للذين اختصموا بعدهم فى هذه القضية فسفكوا دماءهم بأيديهم وأباحوا من النفوس والأموال ما حرّم الله ، هو أن ظروف الحياة كانت أقوى منهم جميعاً ، وأن الله قد كتب عليهم أن يفتنهم فى دينهم ودنياهم هذه الفتنة الكبرى التى فسرها على لأهل الكوفة أحسن تفسير حين قال : « استأثر عثمان فأساء الأثرة ، وجزعتم فأسأتم الجزع ».

تحدّث ابن سعد قال : « أخبرنا الفضل بن دكين قال أخبرنا أبان بن عبد الله البجلى قال حدثنى نعيم بن أبى هند قال حدثنى ربعى بن حرّاش قال : إنى لعند علىّ جالس إذ جاء ابن طلحة فسلم على علىّ فرحب به علىّ ، فقال : ترحب بى يا أمير المؤمنين وقد قتلت والدى وأخذت مالى ؟ قال : أما مالك فهو معزول فى بيت المال فاغدُ إلى مالك فخذه . وأما قولك قتلتَ أبى ، فإنى أرجو

أن أكون أنا وأبوك من الذين قال الله فيهم : "ونزَعنا ما فى صُدُورهم من غلّ إخواناً على سرُر متقابلينَ". فقال رجل من همْدان أعور : الله أعدل من ذلك . فصاح علىٌّ صيحة تداعى لها القصر ، قال : فمن ذاك إذا لم نكن نحن أولئك ؟ ! » [1] .

مبروس ، يوليو - أغسطس سنة ١٩٤٧

---

(١) طبقات ابن سعد طبع ليدن الجزء الثالث القسم الأول صفحة ١٦٠ .

ملحقات

كتاب عثمان إلى الأمصار مستنجداً

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد : فإن الله عز وجل بعث محمداً بالحق بشيراً ونذيراً ، فبلّغ عن الله ما أمر به : ثم مضى وقد قضى الذى عليه ، وخلف فينا كتابه فيه حلاله وحرامه وبيان الأمور التى قدّر فأمضاها على ما أحب العباد وكرهوا . فكان الخليفة أبو بكر رضى الله عنه . وعمر رضى الله عنه . ثم أدخلتُ فى الشورى عن غير علم ولا مسألة عن ملأ من الأمة . ثم أجمع أهل الشورى عن ملأ منهم ومن الناس على غير طلب منى ولا محبّة . فعملت فيهم ما يعرفون ولا ينكرون . تابعاً غير مستتبع ، متبعاً غير مبتدع ، مقتدياً غير متكلف . فلما انتهت الأمور وانتكث الشرّ بأهله . بدت ضغائن وأهواء على غير إجرام ولا ترة فيما مضى . إلا إمضاء الكتاب : فطلبوا أمراً وأعلنوا غيره بغير حجة ولا عذر ، فعابوا علىّ أشياء مما كانوا يرضون . وأشياء عن ملأ من أهل المدينة لا يصلح غيرها ، فصبرتُ لهم نفسى . وكففتها عنهم منذ سنين ، وأنا أرى وأسمع ، فازدادوا على الله عز وجل جرأةً حتى أغاروا علينا فى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم وحرمه وأرض الهجرة : وثابتْ إليهم الأعراب ؛ فهم كالأحزاب أيام الأحزاب أو من غزانا بأحد إلا ما يُظهرون . فمن قدرّ على اللحاق بنا فليلحق .

كتاب عثمان إلى أهل الموسم

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عثمان أمير المؤمنين إلى المؤمنين والمسلمين . سلام عليكم . فإنى أحمد الله إليكم الذى لا إله إلا هو .

أما بعد ، فإنى أذكركم بالله جل وعز الذى أنعم عليكم وعلمكم الإسلام . وهداكم من الضلالة ، وأنقذكم من الكفر ، وأراكم البينات ، وأوسع عليكم من الرزق ، ونصركم على العدوّ ، وأسبغ عليكم نعمته ؛ فإن الله عز وجل يقول وقوله الحق : « وإن تعدّوا نعمةَ الله لا تحصُوها إن الإنسان لظلومٌ كفارٌ » . وقال عز وجل : « يأيها الذينَ آمنوا اتقوا الله حقّ تقاته ولا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون . واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألّف بينَ قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبيِّنُ الله لكم آياته لعلكم تهتدون . ولتكن منكم أمةٌ يدعون إلى الخير ويأمرُونَ بالمعرُوف وينهوْن عن المنكر وأولئك هم المفلحون . ولا تكونوا كالذين تفرّقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البيناتُ وأولئك لهم عذابٌ عظيمٌ » . وقال وقوله الحق : « واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به إذ قلتمْ سمعنا وأطعنا » . وقال وقوله الحق : « يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتُصْبحوا على ما فعلتم نادمين . واعلموا أنّ فيكم رسولَ الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حببَ إليكم الإيمان وزيّنهُ فى قلوبكم وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون . فضلاً من الله ونعمةً والله عليمٌ حكيمٌ » . وقال عزّ وجل : « إنّ الذين يشترُونَ بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاقَ لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذابٌ أليمٌ » . وقال وقوله الحق :

«فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون» . وقال وقوله الحق : «وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة إنما يبلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون . ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء ولتسئلن عما كنتم تعملون . ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم . ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلا إن ما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون . ما عندكم ينفد وما عند الله باق وليجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون». وقال وقوله الحق : «يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا». وقال وقوله الحق : «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون» . وقال وقوله الحق : «إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما»

أما بعد ؛ فإن الله جل وعز رضى لكم السمع والطاعة والجماعة ، وحذركم المعصية والفرقة والاختلاف ، ونبأكم ما قد فعله الذين من قبلكم ، وتقدم إليكم فيه ليكون له الحجة عليكم إن عصيتموه . فاقبلوا نصيحة الله جل وعز واحذروا عذابه ؛ فإنكم لن تجدوا أمة هلكت إلا من بعد أن تختلف ، إلا أن يكون لها رأس يجمعها . ومتى ما تفعلوا ذلك تقيموا الصلاة جميعاً، وسلط عليكم عدوكم ، ويستحل بعضكم حرم بعض . ومتى يفعل ذلك لا يقم لله سبحانه دين ، وتكونوا شيعاً . وقد قال الله جل وعز لرسوله صلى الله عليه وسلم : «إن الذين

فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً لستَ منهم فى شىء إنما أمرُهم إلى الله ، ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون » . وإنى أوصيكم بما أوصاكم الله ، وأحذّركم عذابه ؛ فإنّ شعيباً صلى الله عليه وسلم قال لقومه : «ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثلُ ما أصاب قومَ نوح أوْ قوْم هود أو قوم صالح وما قومُ لوط منكم ببعيد. واستغفروا ربّكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيمٌ ودودٌ » .

أما بعد . فإن أقواماً ممن كان يقول فى هذا الحديث أظهروا للناس أنهم إنما يدعون إلى كتاب الله عز وجل والحق ، ولا يريدون الدنيا ولا منازَعةً فيها . فلما عرض عليهم الحق إذا الناس فى ذلك شتّى ، منهم آخذٌ للحق ونازعٌ عنه حين يعطاه ، ومنهم تاركٌ للحقّ رغبةً فى الأمر يريد أن يبتزه بغير الحق . طال عليهم عمرى وراثَ عليهم أملهم فى الإمرة ، فاستعجلوا القدر . وقد كتبوا إليكم أنهم قد رجعوا بالذى أعطيتهم . ولا أعلم أنى تركت من الذى عاهدتهم عليه شيئاً . كانوا زعموا أنهم يطلبون الحدود ، فقلت أقيموها على من علمتم تعدّاها فى إحدى[1] . أقيموها على من ظلمكم من قريب أو بعيد . قالوا : كتاب الله يتلى فقلتُ فليتله من تلاه غير غال فيه بغير ما أنزل الله فى الكتاب . وقالوا : المحروم يرزَقُ والمالُ يوفى ليستَنّ فيه السنة الحسنة ؛ ولا يُعتدى فى الخمس ولا فى الصدقة ، ويؤمّر ذو القوة والأمانة ، وتردّ مظالم الناس إلى أهلها ؛ فرضيت بذلك واصطبرتُ له ؛ وجئت نسوةَ النبىّ صلى الله عليه وسلم حتى كلمتهن . فقلتُ : ما تأمرنى ؟ فقلن : تؤمّر عمرو بن العاص[2] وعبد الله بن قيس ، وتدَعُ معاوية فإنما أمّره أمير قبلك ، فإنه مصلح لأرضه راض به جندُه ، واردُدْ عمراً فإن جنده راضون به ، وأمّره فليصلح أرضه . فكلّ ذلك فعلت ، وإنه اعتدى علىّ بعد ذلك وعدَا على الحقّ .

---

(١) كذا وردت فى غير نسخة للطبرى . وفى العبارة نقص .

(٢) يلاحظ ما بين هذا النص وبين التاريخ المروى من اختلاف سنعرض له فى الجزء الثانى إن شاء الله .

كتبت إليكم وأصحابى الذين زعموا فى الأمر استعجلوا القدر . ومنعوا من الصلاة ، وحالوا بينى وبين المسجد ، وابتزوا ما قدروا عليه بالمدينة . كتبتُ إليكم كتابى هذا وهم يخيروننى إحدى ثلاث : إما يقيدوننى بكل رجل أصبته خطأً أو صواباً غير متروك منه شىء . وإما أعتزل الأمر فيؤمرون آخر غيرى ، وإما يرسلون إلى من أطاعهم من الأجناد وأهل المدينة فيتبرءون من الذى جعل الله سبحانه لى عليهم من السمع والطاعة . فقلت لهم : أما إقادتى من نفسى فقد كان من قبلى خلفاء تخطئُ وتصيب فلم يستقدْ من أحد منهم . وقد علمت أنما يريدون نفسى . وأما أن أتبرأ من الإمارة فإن يكلبونى أحبّ إلىّ من أن أتبرأ من عمل الله عزّ وجل وخلافته . وأما قولكم يرسلون إلى الأجناد وأهل المدينة فيتبرءون من طاعتى فلست عليكم بوكيل . ولم أكن استكرهتهم من قبلُ على السمع والطاعة ، ولكن أتوها طائعين يبتغون مرضاة الله عزّ وجل وإصلاح ذات البين . ومن يكن منكم إنما يبتغى الدنيا فليس بنائل منها إلا ما كتب الله عزّ وجل له . ومن يكن إنما يريد وجه الله والدار الآخرة وصلاح الأمة وابتغاء مرضاة الله عز وجل والسنة الحسنة التى استنّ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم والخليفتان من بعده رضى الله عنهما ، فإنما يجزى بذلكم الله . وليس بيدى جزاؤكم ، ولو أعطيتكم الدنيا كلها لم يكن فى ذلك ثمنٌ لدينكم ولم يغن عنكم شيئاً . فاتقوا الله واحتسبوا ما عنده فمن يرض بالنكث منكم فإنى لا أرضاه له ، ولا يرضى الله سبحانه أن تنكثوا عهده . وأما الذى يخيروننى فإنما كله النزع والتأمير . فملكت نفسى ومن معى ونظرتُ حكم الله وتغيير النعمة من الله سبحانه ، وكرهتُ سنة السوء وشقاق الأمة وسفك الدماء . فإنى أنشدكم بالله والإسلام ألا تأخذوا إلا الحق وتعطوه منى وترك البغى على أهله ، وخذوا بيننا بالعدل كما أمركم الله عز وجل ؛ فإنى أنشدكم الله سبحانه الذى جعل عليكم العهد والمؤازرة فى أمر الله ؛ فإن الله سبحانه قال وقوله الحق : « وأوْفوا بالعهد إنّ العهد كان مسئولا » . فإن هذه معذرةٌ إلى الله ؛ ولعلكم تذكرون .

أما بعد . فإنى لا أبرّئ نفسى إن النفسُ لأمارةٌ بالسوء إلا ما رَحم ربّى إن

ربّى غفورٌ رحيمٌ . وإن عاقبتُ أقواماً فما أبتغى بذلك إلا الخير . وإنى أتوب إلى الله عز وجل : من كل عمل عملته وأستغفره إنه لا يغفرُ الذنوب إلا هو . إن رحمة ربى وسعتْ كلَّ شيء . إنه لا يقنطُ من رحمة الله إلا القوم الضّالون . وإنه يقبلُ التوْبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلمُ ما يفعلون. وأنا أسأل الله عز وجل أن يغفر لى ولكم ، وأن يؤلف قلوب هذه الأمة على الخير ويكرّه إليها الفسق . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته أيها المؤمنون والمسلمون .

أمور مرجأة

لم نفصل في هذا الجزء حديث عبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء ؛ لأنه طويل معقد ، ولأن نشاطه الخطير إنما يظهر في رأينا أثناء خلافة عليّ . فقد أرجأنا حديثه إذن إلى الجزء الثانى من هذا الكتاب .

ولم نذكر معارضة عائشة وعمرو بن العاص لعثمان ، لأن نشاطهما السياسى الخطير إنما يظهر فى خلافة عليّ أيضاً ، فأرجأنا قضيتهما إلى الجزء الثانى من هذا الكتاب .

بعض المراجع

ليس فى هذا الكتاب خبر من أخبار التاريخ أو رأى من آراء المتكلمين القدماء إلا ومرجعه كتاب من هذه الكتب :

سيرة ابن هشام
طبقات ابن سعد
أنساب الأشراف ، للبلاذرى
تاريخ البخارى
كتب السنة وشروحها على اختلافها
تاريخ الأمم والملوك ، للطبرى
تفسير الطبرى
الكامل لابن الأثير
البداية والنهاية ، لابن كثير
تاريخ ابن خلدون
تاريخ دمشق ، لابن عساكر
تاريخ بغداد ، للخطيب البغدادى
تاريخ عقد الجمان ، للعينى
نهاية الأرب ، للنويرى
مسالك الأبصار فى الممالك والأمصار : للعمرى
الخطط : للمقريزى
النزاع والتخاصم ، للمقريزى
ولاة مصر وقضاتها ، للكندى
متفرقات من رسائل الجاحظ
الفصل ، فى الملل والأهواء والنحل : لابن حزم

كتاب الفرق بين الفرق . لعبد القاهر بن طاهر البغدادى
التبصير فى الدين ، لأبى المظفر الأسفراييني
الملل والنحل ، للشهرستانى
منهاج السنة ، لابن تيمية

أما المعاصرون فلم نقرأ مما كتبوا حول هذا الموضوع إلا :
أشهر مشاهير الإسلام لرفيق بك العظم
والإسلام وأصول الحكم ، للأستاذ على عبد الرازق
وكتاب عثمان بن عفان للأستاذ الشيخ صادق إبراهيم عرجون

ولم ننظر من آثار المستشرقين إلا فى كتاب أنالى دى الإسلام لكيتانى . وفى فصول متفرقة فى دائرة المعارف الإسلامية .

فهارس الكتاب

صفحه

فهرس الكتاب ٢٣٧
فهرس الآيات القرآنية ٢٤٢
فهرس الأعلام ٢٤٣
فهرس المذاهب والأمم والقبائل والجماعات ٢٥١
فهرس الأماكن ٢٥٥
فهرس الأيام والغزوات والوقائع ٢٥٨
فهرس القوافى ٢٦٠

فهرس الكتاب

(١)

(٤) خطبة الكتاب . (٥) تجربة سياسية .

(٢)

(١٠) المساواة أساس النظام السياسى الإسلامى .

(٣)

(٢٢) ليس نظام الحكم الإسلامى تيوقراطياً . (٢٧) وليس نظام الحكم الإسلامى ديمقراطياً . (٢٩) وليس نظام الحكم الإسلامى فردياً ملكياً أو قيصرياً . (٣١) بل كان نظام الحكم الإسلامى نظاماً عربياً مبتكراً .
(٣٢) عناصر نظام الحكم الإسلامى . (٣٢) العنصر الأول الدينى .
(٣٣) العنصر الثانى الأرستقراطية الدينية . (٣٥) الأرستقراطيةالقرشيةالطارئة .
(٣٧) الأرستقراطية العربية (٣٨) تطور هذين العنصرين .
(٣٨) أولى المشكلات التى واجهها النظام . (٣٩) المشكلة الثانية .
(٤٤) المشكلة الثالثة . (٤٥) محاولة طريفة لعمر فى تنظيم مراقبة الحكام
(٤٦) محاربة عمر لاستغلال النفوذ . (٤٨) نظام الشورى .

(٤)

(٥٠) عثمان قبل استخلافه . (٦٠) نقد نظام الشورى .
(٦٣) استخلاف عثمان .

(٥)

(٦٥) أول امتحان لعثمان بعد استخلافه . (٦٩) كتب عثمان إلى الأقاليم .
(٧٣) عمال عمر الذين أقرهم عثمان . (٧٤) زيادة عثمان فى الأعطيات ، وتوفيده أهل الأمصار . . (٧٦) صلة عثمان لكبار الصحابة .

(٦)

(٧٩) رعية عثمان . (٨٠) الطبقة الأولى من رعية عثمان قريش .
(٨٤) الطبقة الثانية من رعية عثمان الأنصار . (٨٥) الطبقة الثالثة من رعية عثمان عامة العرب . (٨٦) الطبقة الرابعة من رعية عثمان المغلوبون .

(٧)

(٨٩) مباشرة عثمان سلطة التولية والعزل بعد انقضاء العام الأول من خلافته
(٨٩) ولايات الطبقة الأولى وولايات الطبقة الثانية . (٨٠) تولية عثمان سعد ابن أبي وقاص على الكوفة . (٩٠) عزله سعداً عن الكوفة .
(٩٤) توليته الوليد بن عقبة وما تبعها من الأحداث .

(٨)

(١٠١) توليته سعيد بن العاص على الكوفة . (١٠٢) ازدحام الكوفة خاصة والأمصار عامة بالطارئين من الغالبين والمغلوبين . (١٠٣) انقلاب اقتصادى خطير : إنشاء الملكية الكبيرة فى الإسلام . (١٠٩) أول الفتنة.
(١١٠) النفى الإدارى .

(٩)

(١١٤) عزل أبي موسى عن البصرة وتولية عبد الله بن عامر .

(١٠)

(١١٨) بسط سلطان معاوية على الشام كلها .

(١١)

(١٢٢) عزل عمرو بن العاص عن مصر وتولية عبد الله بن سعد بن أبي سرح .

(١٢)

(١٢٦) محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر . (١٢٩) كتاب الأشتر إلى عثمان .

(١٣)

(١٣١) قصة ابن السوداء . (١٣٦) نشأة المعارضة أيام عثمان وأين نشأت .

(١٤)

(١٣٨) المعارضة في المدينة . (١٣٨) عبد الرحمن بن عوف .

(١٥)

(١٤٣) سعد بن أبي وقاص .

(١٦)

(١٤٦) الزبير بن العوام .

(١٧)

(١٤٨) طلحة بن عبيد الله .

(١٨)

(١٥١) على بن أبي طالب .

(١٩)

(١٥٩) عبد الله بن مسعود .

(٢٠)

(١٦٣) أبو ذر الغفارى .

(٢١)

(١٦٦) عمار بن ياسر .

(٢٢)

(١٦٩) لم يكن الفتح موضوعاً للمعارضة .

(٢٣)

(١٧٥) نظرة القدماء إلى الأحداث التى حدثت أيام عثمان .

(١٧٥) الأحداث الدينية .

(٢٤)

(١٨٧) الأحداث المتصلة بالتولية والعزل .

(٢٥)

(١٩٠) الأحداث المتصلة بسياسة المال .

(٢٦)

(١٩٨) الأحداث المتصلة بموقف عثمان من المعارضين .

(٢٧)

(٢٠٠) تطور رأى المعاصرين لعثمان فيه . (٢٠٢) الجرأة على عثمان . (٢٠٢) اتصال المعارضة بعثمان بعد تنظيمها . (٢٠٣) رد عثمان على المعارضين . (٢٠٤) مواجهة عثمان للمعارضة بشىء من العنف فى القول . (٢٠٦) رأى عثمان فى الأموال العامة . (٢٠٦) استشارة عثمان لعماله. (٢٠٧) استشارة عثمان لزعماء المعارضة فى المدينة . (٢٠٨) ثورة الكوفة . (٢٠٨) خروج المصريين

للمرة الأولى . (٢٠٨) توبة عثمان . (٢٠٨) رجوع عثمان عن وعده بفعل مروان . (٢٠٩) خروج المصريين للمرة الثانية. (٢٠٩) إباء على ومحمد بن مسلمة الخروج إليهم مرة أخرى . (٢٠٩) تأهب الصحابة للدفاع عن المدينة . (٢٠٩) خداع الثوار . (٢٠٩) احتلالهم للمدينة . (٢٠٩) قصة الكتاب .

(٢٨)

(٢١١) اعتداء الثائرين على عثمان فى المسجد . (٢١٢) تشديد الحصار على عثمان . (٢١٢) منعه الماء. (٢١٣) تأهب أنصار عثمان للدفاع عنه فى الدار . (٢١٣) النبأ بقرب الأمداد . (٢١٣) بدء المناوشة بين الثائرين وحماة الدار . (٢١٣) الهجوم على الدار واقتحامها . (٢١٣) قتل عثمان .
(٢١٤) هل همّ عثمان أن يخلع نفسه فى آخر لحظة ؟

(٢٩)

(٢١٥) عرض معاوية على عثمان ترك المدينة ورفض عثمان ذلك .
(٢١٦) جملة الظروف التى انتهت إلى قتل عثمان .
(٢١٨) طريقان أمام المسلمين .

(٣٠)

(٢١٩) سؤال يحتاج إلى جواب .

(٣١)

(٢٢١) آخر أيام عثمان . (٢٢١) عثمان قتل مظلوماً من غير شك .
(٢٢٢) رأى علىّ فى المختصمين والمقتتلين من الصحابة .

* * *

(٢٢٦) كتاب عثمان إلى الأمصار مستنجداً .
(٢٢٧) كتاب عثمان إلى أهل الموسم .
(٢٣٢) أمور مرجأة .
(٢٣٣) مراجع الكتاب .

فهرس الآيات القرآنية

الآيـــة	اسم السورة	رقم الآية	الصفحة
إن الذى فرض عليك القرآن	القصص	٨٥	١٣١
إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا .	الأنعام	١٥٩	٢٣٠،٢٣٩
إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله .	الفتح	١٠	٢٢٨،٥٣،٢٥
إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم .	آل عمران	٧٧	٢٢٧
عبس وتولى .	عبس	١	١٢
فاتقوا الله ما استطعتم .	التغابن	١٦	٢٢٨
فمن نكث فإنما ينكث على نفسه .	الفتح	١٠	٦٤
قالت الأعراب آمنا .	الحجرات	١٤	٣٩
ما ضل صاحبكم وما غوى .	النجم	٢	٢٢
ما كان لنبى أن يكون له أسرى .	الأنفال	٦٧	٢٣
من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل	المائدة	٣٢	١٧٦
واذكروا نعمة الله عليكم .	المائدة	٧	٢٢٧
والذين يكنزون الذهب والفضة .	التوبة	٣٤	٢٠١،١٦٣
وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها .	النحل	١٨	٢٢٧
وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا .	الإسراء	٣٤	٢٣٠
وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم .	النحل	٩١	٢٢٨
وعد الله الذين آمنوا منكم .	النور	٥٥	٢٢٨
ولا تقتلوا النفس التى حرم الله .	الإسراء	٣٣	١٧٦
وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنًا إلا خطأ .	النساء	٩٢	١٧٦
ونزعنا ما فى صدورهم من غل .	الحجر	٤٧	٢٢٣
ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى .	هود	٨٩	٢٢٩
يا أبت استأجره .	القصص	٢٦	١٦
يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته .	آل عمران	١٠٢	٢٢٧
يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول .	النساء	٥٩	٢٢٨
يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ .	الحجرات	٦	٢٢٧،٩٣
يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص .	البقرة	١٧٨	١٧٦

فهرس الأعلام

(أ)

آمنة بنت وهب: ١٣٨

أبان بن عبد الله البجلي: ٢٢٢

إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف: ١٠٨

ابن أبي بكر = محمد بن أبي بكر.

ابن أبي حذيفة = محمد بن أبي حذيفة.

ابن أبي سرح = عبد الله بن سعد بن أبي سرح.

ابن أم مكتوم: ١٢

ابن سبأ = عبد الله بن سبأ

ابن سعد (أبو عبد الله محمد): ٧٧، ١٠٨، ١٣٢، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٦، ١٤٩، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣.

أبو سفيان بن حرب: ١١٨، ١٢٦.

ابن السوداء = عبد الله بن سبأ.

ابن عامر = عبد الله بن عامر.

ابن الهرمزان: ٦٦.

ابن عفان = عثمان بن عفان.

ابن مسعود = عبد الله بن مسعود.

ابنة شعيب: ١٦.

أبو أسيد الساعدي: ٢٠٢.

أبو بكر (الصديق رضي الله عنه): ٥، ٦، ٨، ١٠، ١٤، ٢٤، ٢٦، ٢٩، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٩، ٤٠، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٨، ٥٠، ٥١، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٨، ٦١، ٦٣، ٦٩، ٧١، ٧٧، ٨١، ٨٣، ٨٤، ٨٥، ٩٢، ٩٣، ١٢٦، ١٢٨، ١٣٦، ١٤٦، ١٤٨، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٩، ١٦٣، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٨٢، ١٨٤، ١٨٦، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٣، ٢٠٦، ٢١٥، ٢١٦، ٢٢١، ٢٢٦، ٢٣٠.

أبو جهل: ١٥٩.

أبو حذيفة بن عتبة: ٣٧، ١٢٦.

أبو ذر: ٩٥، ٩٩، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٦٢، ١٦٥، ١٦٧، ١٩٨، ٢٠١.

أبو زبيد: ٩٥.

أبو سفيان: ٣٦.

أبو طالب بن عبد المطلب: ١٥١.

أبو طلحة: ٦٠، ٦٣، ٩٣.

أبو عبيدة بن الجراح: ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٥٤.

أبو لؤلؤة: ٦٥.

أبو موسى الأشعري (عبد الله بن

قيس) : ٧٣، ٩٠، ١١٣، ١١٤،
١١٥، ١١٦، ١٢٩، ١٣٠، ١٨٧،
١٨٨، ٢٢٩.
أروى بنت كريز : ٥٠.
أسماء بنت أبى بكر : ١٤٦.
الأشتر (مالك بن الحارث) : ١١٣،
١٢٩، ١٣٠.
أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان (أم
المؤمنين) : ٢١٢.
أم سلمة بنت أبى أمية بن المغيرة (أم
المؤمنين) : ١٦٧.
أم كلثوم (بنت الرسول عليه السلام) :
٥٢.
أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط :
١٤١.
أم كلثوم بنت على بن أبى طالب : ١٩٢،
١٩٣.
أمية بن عبد شمس : ١٣٥.

(ب)

البلاذرى : ١٣٢، ١٥٦، ١٥٧، ١٦٧.
بنت أبى لؤلؤة : ٦٥، ١٧٥.
البيضاء بنت عبد المطلب : ٥٠.

(جـ)

جبريل (عليه السلام) : ١٠٨.
جبلة بن عمر الساعدى : ٢١١.
جفينة : ٦٥، ١٧٥.
جهجاه بن سعيد الغفارى : ٢١١.

(ح)

الحارث بن الحكم : ١٦٣، ١٨٥، ١٩٣،
١٩٤.
الحارث بن هشام : ٣٦.
حذيفة بن اليمان : ١٣٠، ١٦٦، ١٨٢.
حسان بن ثابت : ١٦٨، ٢٠٢.
الحسن البصرى : ٧٩.
الحسن بن على : ٥٢، ١٥٤، ٢١٣.
الحسين بن على : ٥٢، ٢١٣.
الحطيئة : ٩٦، ٩٧.
الحكم بن أبى العاص : ٥١، ١٦٨،
١٨٤، ١٨٥، ١٩٣.
حكيم بن جبلة : ٢١١.
حمزة بن عبد المطلب : ١٤٨.

(خ)

خالد بن الوليد : ٨١، ٨٣.
خالد بن يزيد بن أبى مالك : ١٠٨.
خديجة بنت خويلد (أم المؤمنين رضى الله
عنها) : ١٤٦، ١٥١.
الخطاب بن نفيل : ١٥

(ذ)

ذات النطاقين = أسماء بنت أبى بكر.

(ر)

ربعى بن حراش : ٢٢٢ .

رقية (بنت الرسول عليه السلام) : ٥١ ، ٥٢ .

(ز)

زبيد بن كثير : ١٦١ .

الزبير بن العوام : ٤٧ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٦١ ، ٧٧ ، ٩٣ ، ١٠٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٩٣ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ .

زياد بن أبى سفيان : ١٩٣ ، ١٩٩ .

زياد بن لبيد البياضى : ٦٦ ، ٦٧ ، ١٦٨ .

زيد بن حارثة : ٩٢ .

زيد بن ثابت : ١٦٠ ، ١٦٣ ، ١٦٨ ، ١٨٣ ، ٢٠٢ ، ٢١١ .

(س)

سالم مولى أبى حذيفة : ٣٧ .

السرّى : ٧٩ .

سعد بن أبى وقاص : ٥ ، ١٦ ، ٤٧ ، ٥٣ ، ٦١ ، ٦٥ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ١٠١ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٦٠ ، ١٧٩ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ٢٠٢ ، ٢٠٧ ، ٢١٤ .

سعد بن الربيع الأنصارى : ١٣٨

سعد بن عبادة : ٣٥ ، ١٧٣ .

سعدى : ٥١

سعيد بن العاص : ٩٦ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٤٩ ، ١٨٨ ، ١٩٣ ، ١٩٩ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

سعد بن زيد بن نفيل : ٥٤

سفيان بن عبد الله الثقفى : ٧٣

سليمان بن الرحمن الدمشقى : ١٠٨

سمية (أم عمار بن ياسر) : ١٦٦

سهل بن حنيف : ١٥١

سهلة بنت سهيل بن عمرو : ١٢٦

سيف بن عمر : ٧٩ ، ١٣٢

(ش)

الشعبى : ٧٩

شيبة بن ربيعة بن عبد شمس : ١٤١

الشيخان = أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب (رضى الله عنهما).

(ص)

صاحبا الرسول : أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب (رضى الله عنهما) .

صفوان بن أمية : ٣٦

صفية بنت عبد المطلب : ١٤٦

صهيب : ٦٣ ، ٦٥ ، ١٦٦ .

(ط)

الطبرى (محمد بن جرير) : ٦٩ ، ٧٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١١٥ ، ١٣٢ ، ٢٢٩ .
طلحة بن عبيد الله : ٤٧ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٧٧ ، ٩٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١١٠ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٧ ، ١٧٣ ، ١٩٣ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢١٢ .

(ع)

عامر بن عبد القيس : ١١٦ ، ١٩٩ .
عائشة بنت أبى بكر (أم المؤمنين رضى الله عنها) : ٤٨ ، ١٠٧ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٩ ، ١٦١ ، ١٦٧ ، ٢٣٢ .
عبادة بن الصامت : ١٣١ .
العباس بن عبد المطلب : ٣٦ ، ١٥٢ ، ١٥٦ ، ١٥٧ .
عبد الرحمن بن خالد بن الوليد : ١١٢ ، ١١٣ ، ١٣٢ ، ١٩٩ .
عبد الرحمن بن علقمة : ٧٤ ، ١١٨
عبد الرحمن بن عوف : ١٤ ، ٤٣ ، ٤٧ ، ٥٣ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٧١ ، ٨٣ ، ٩٣ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٩ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ٢٠١ .
عبد الله بن أبى ربيعة : ٧٣
عبد الله بن الأرقم : ١٩٣ ، ١٩٤ ،
عبد الله بن خالد بن أسيد الأموى : ١٩٣
عبد الله بن الزبير : ١٤٧ ، ٢١٣ .
عبد الله بن سبأ : ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٧١ ، ٢٣٢ .
عبد الله بن سعد بن أبى سرح : ٨٦ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٩٤ ، ١٩٩ ، ٢٠٧ ، ٢١٩ .
عبد الله بن عامر : ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٧ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ٢١٤ .
عبد الله بن عباس : ١٥٦ ، ٢١٩ .
عبد الله بن عثمان بن عفان : ٥٢ .
عبد الله بن عمر : ٢٦ ، ٤٨ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٢١٣ .
عبد الله بن قيس = أبو موسى الأشعرى .
عبد الله بن مسعود : ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٨ ، ١٤٤ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧١ ، ١٧٩ ، ١٨٣ ، ١٩٢ ، ١٩٤ ، ١٩٨ .
عبيد الله بن عمر : ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٤ ، ١٥٥ ، ١٦٨ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ٢٠٠ .
عبيدة بن الحارث : ٩٢ .

عتبة بن الوغل: ١٣٠.
عتبة بن ربيعة: ١٢٦، ١٤١.
عثمان بن أبي العاص: ٧٤.

عثمان بن عفان (رضي الله عنه): ٤، ٥، ٩، ١٣، ١٦، ١٧، ١٨، ٢٢، ٢٦، ٤١، ٤٣، ٤٣، ٤٥، ٤٧، ٤٩، ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٦١، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٣، ٩٤، ٩٦، ٩٩، ١٠١، ١٠٣، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٤، ١٤٧، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٥، ١٧٧، ١٧٨، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٦، ٢٣٢.

عطاء بن أبي رباح: ١٠٨
عفان بن أبي العاص: ٥٠
عقبة بن أبي معيط: ١٥٩.
عكرمة بن أبي جهل: ٨٣
علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه): ٤، ٥، ١٦، ١٨، ٣٦، ٤٣، ٤٧، ٥١، ٥٣، ٦١، ٦٣، ٦٤، ٦٧، ٨٧، ٩٥، ١٢٥، ١٣١، ١٤١، ١٤٤، ١٤٦، ١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٦١، ١٦٥، ١٨٣، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٧، ٢٠٩، ٢١٣، ٢١٤، ٢٢٢، ٢٢٣.
عمار بن ياسر: ١٢٨، ١٢٩، ١٣٢، ١٦١، ١٦٢، ١٦٤، ١٦٦، ١٦٧، ١٧٠، ١٧١، ١٩٨، ٢٠٦.
عمارة بن القعقاع: ٧٩
عمرو بن حزم: ٢١٣
عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): ٥، ٦، ٨، ٩، ١٠، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٤، ٢٦، ٢٩، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦،

٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٧ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٦٠ ، ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٢١ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣٠ .

عمرو بن العاص : ٦٥ ، ٧٣ ، ٨٦ ، ١١٤ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٣٥ ، ١٩٤ ، ٢٠٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢ .

عمير بن أبي وقاص : ١٤٣ .

عمير بن سعد : ٧٣ ، ١١٨ .

عيسى (عليه السلام) : ٢٧ ، ١٣١ .

(غ)

الغافقى : ٢١٢ .

غيلان بن خرشة الضبى : ١١٤ .

(ف)

فاطمة (بنت الرسول عليه الصلاة والسلام) : ١٤ ، ١٤٦ ، ١٥١ .

الفضل بن دكين : ٢٢٢ .

(ق)

قيصر : ٢٧ ، ٢٢٠ .

(ك)

كسرى : ٩٢ ، ١٤٣ ، ١٦٩ ، ٢٢٠ .

كعب الأحبار : ١٣٣ ، ١٦٣ ، ١٦٤ .

كعب بن مالك : ١٦٨ ، ٢٠٢ .

(م)

محمد بن أبي بكر : ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٢ ، ١٨٨ ، ٢١٣ .

محمد بن أبي حذيفة : ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٢ ،

محمد بن أبي قتيرة : ٢١١ .

محمد بن طلحة : ٢١٣

محمد بن عبد الله (النبى صلى الله عليه وسلم) : ٤ ، ٥ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٤٧ ،

٤٨ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٦ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٢١ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

محمد بن مسلمة الأنصارى : ٩٣ ، ١٦٨ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١١ .

مروان بن الحكم : ١٠٥ ، ١٢٣ ، ١٥٠ ، ١٥٧ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٧٠ ، ١٨٥ ، ١٩٣ ، ٢٠٥ ، ٢١٠ ، ٢١٣ .

مصعب بن عمير : ١٤٨ .

معاذ بن جبل : ١٥٩ .

معاوية بن أبى سفيان : ٢٦ ، ٢٧ ، ٨٣ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٣٢ ، ١٦٩ ، ١٨٠ ، ١٨٧ ، ٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٩ .

المغيرة بن شعبة : ٩ ، ٧٣ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ٢٠٤ .

ملكة الروم : ١٩٢ ، ١٩٣ .

موسى (عليه السلام) : ١٦ ، ١٥١ ، ١٥٢ .

(ن)

نافع بن عبد الحارث الخزاعى : ٧٣ .

النبى ﷺ = محمد بن عبد الله (النبى ﷺ) .

نصر بن حجاج : ١١١ .

نعيم بن أبى هند : ٢٢٢ .

نيار بن عياص الأسلمى : ٢١٣ ، ٢٢١ .

(هـ)

هارون (علية السلام) : ١٥١ ، ١٥٢ .

الهرمزان : ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٤ ، ١٥٥ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ .

هند (أم معاوية) : ١٢٦ .

(و)

الوليد بن عقبة : ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٢٧ ، ١٣٥ ، ١٤١ ، ١٤٤ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ٢٠٢ .

(ى)

ياسر : ١٦٦ .
يرفأ (غلام عمر) : ٢٠٤ .
يزيد بن أبي سفيان : ١١٨
يعلى بن أمية : ٧٣

فهرس المذاهب والأمم
والقبائل والجماعات

(أ)

آل أبي سفيان: ١٢٠

آل أبي معيط: ٨٧، ٩٣، ٩٤، ١٠١

آل الحكم: ٢١١

آل الخطاب: ٥٤، ٦٦، ٦٨

آل ياسر: ١٦٦

الأرستقراطية: ٦، ٧، ٣٣، ٣٥، ٣٧، ٣٨، ٥٩، ٨٠، ٨٣، ٩٨، ١٠٠، ١٠٥، ١٠٩

الاشتراكية: ١٩، ١٩٦

الأشعريون: ١١٥

أصحاب النبي (رضوان الله عليهم): ٤، ٥، ١٢، ١٣، ١٧، ٢٠، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٣١، ٣٩، ٤٠، ٤٣، ٤٤، ٤٦، ٤٧، ٥٠، ٥٢، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٨٤، ٨٥، ٩٦، ١٠١، ١٠٤، ١٠٨، ١١٢، ١٣٣، ١٣٦، ١٤٧، ١٦٢، ١٧١، ١٧٢، ١٧٩، ١٨٣، ١٩٢، ١٩٦، ١٩٧، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٧، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٦، ٢١٧.

الأعاجم = الفرس

الأعراب = العرب

الأكاسرة: ٤٥، ٩٢، ١٦٩.

الإمامة: ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٤٢، ٤٥، ١٥٧، ١٦٥، ١٧٣، ١٧٥، ١٧٧، ١٧٨، ١٨١، ١٨٥، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٨، ٢٠٣، ٢٠٦، ٢٢٢.

الأمويون = بنو أمية

الأنصار: ١٧، ٢٣، ٢٥، ٢٩، ٣١، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٤٠، ٦١، ٦٢، ٦٧، ٧٢، ٨٤، ٨٥، ٩٣، ١٢٣، ١٣٣، ١٣٥، ١٣٦، ١٤٠، ١٤١، ١٤٩، ١٥١، ١٥٩، ١٦٧، ١٧٠، ١٧٩، ١٨٢، ١٨٨، ٢٠٨، ٢١١، ٢١٥، ٢١٧.

أهل البصرة: ١١٥، ٢٠٩، ٢١٩.

أهل الحجاز: ١٠٤.

أهل الذمة: ٦٧، ٧٠، ٧١.

أهل السنة: ٤٣، ١٧٧، ١٨١، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٧، ١٩٠، ١٩٤، ١٩٨.

أهل الشام: ١١٢، ١١٩، ١٦١، ١٦٤، ٢١٥.

أهل الشورى = الشورى

أهل الطائف: ٢٩.

أهل العراق: ١٦٤، ١٩٩.

أهل الكوفة : ٩١ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١١٠ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٣٠ ، ١٦١ ، ١٨٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢٢٢.
أهل المدينة : ٢٩ ، ٦٢ ، ٧٦ ، ١٠٣ ، ١١٩ ، ١٩٧ ، ٢٠٩ ، ٢٣٠.
أهل مصر = المصريون
أهل مكة : ٢٢ ، ١٧٩ ، ٢٢٠ .
أهل اليمن : ١٠٤ ، ١٧٨

(ب)

بكر : ١٤٠
البلوتقراطية : ١٠٥
بنو أسد : ١١٠
بنو إسرائيل : ٢٧
بنو أمية : ٣٨ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٧٤ ، ٨٧ ، ٩٣ ، ١٠١ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٠٦ ، ٢١٤ .
بنو تغلب = تغلب
بنو تميم = تميم
بنو تيم = تيم
بنو زهرة : ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٤٤ .
بنو سهم : ٧٣.
بنو العباس : ٣٨ ، ٨٧ ، ١٣٤ ، ١٩٥ .
بنو عبد المطلب : ٥١ ، ١٥٦ .
بنو عبد شمس : ٥١
بنو عبد مناف : ٥٠
بنو عدى : ٦٦ ، ١٥٦
بنو كنانة : ٧٤
بنو مخزوم : ٧٣ ، ١٦٥
بنو المصطلق : ٩٣
بنو ضبة : ١١٤
بنو نوفل : ٧٣
بنو هاشم : ٣٦ ، ١٤٠ ، ١٥٢ .

(ت)

تغلب : ٩٤ ، ١٨٧
تميم : ١٥٦
تيم : ١٤٩
التيوقراطية : ٢٢ ، ٢٧

(ث)

ثقيف : ٧٣
الثورة الفرنسية : ٢٨

(ح)

الحكم الجمهورى : ٣١ ، ٣٢.
حكم الملوك : ٦ ، ٧ ، ٣٢ .

(خ)

الخلافة : ٥ ، ٨ ، ٢٦ ، ٢٩ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٩ ، ٧٥ ، ٧٨ ، ٨٤ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٩١ ، ١٩٥ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢١٥ .

الخوارج: ٤٥

(د)

الديمقراطية: ٨، ١٩، ٢٠، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ١٥٤.

(ر)

الرأسمالية: ١٩٦، ١٩٧

ربيعة: ١١٤، ١٥٣.

الروم: ٥٥، ٥٧، ٨٠، ٨١، ٨٩

الرومان: ٣٠، ٣١، ٣٢، ١٠٩.

(ش)

الشورى: ٢٠، ٢٣، ٢٤، ٢٦، ٣٥، ٤٥، ٤٧، ٤٨، ٥٤، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٩١، ١٢١، ١٤٠، ١٤١، ١٤٤، ١٤٨، ١٥٢، ١٥٥، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٧، ١٥٨، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢١٤.

الشيعة: ٤، ٩٣، ١٣٤، ١٥٢، ١٩٤، ١٩٥

الشيوعية: ٨، ١٩.

(ص)

الصحابة (رضوان الله عليهم) = أصحاب النبي

(ع)

العجم = الفرس

العثمانيون: ٤

العدنانية: ٧٤

العرب: ٩، ٣٠، ٣٢، ٣٤، ٣٨، ٣٩، ٤٤، ٥٥، ٥٨، ٥٩، ٦٧، ٧٣، ٨٠، ٨١، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٩٤، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٦، ١٠٩، ١١٢، ١٨٨، ١٩٥.

(ف)

الفاشية: ٨

الفرس: ٤٤، ٥٥، ٥٧، ٨٩، ٩٢، ١٠٢.

(ق)

القرشيون = قريش

قريش: ١٠، ١١، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٣٢، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٤٨، ٥١، ٥٣، ٦١، ٦٦، ٦٨، ٧٧، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ١٠١، ١٠٧، ١١٠، ١١٣، ١٢٣، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٤، ١٣٥، ١٤٠، ١٤١، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٧٧، ١٩٥، ٢٠٠، ٢٠٦.

القياصرة: ٣٠، ٣١، ٣٢، ٤٥.

(ك)

كنانة = بنو كنانة

الكوفيون = أهل الكوفة

(م)

مجلس الشورى = الشورى
مخزوم = بنو مخزوم
المسيحية : ٢٧
مشروع بيقردج : ٢٠
المصريون : ١١٥ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٦٨ ، ١٩٤ ، ١٩٩ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢١٩ .
المضرية : ٧٣ ، ٧٤ ، ٩٨ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ .
المعتزلة : ١٧٧ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٩٤ ، ١٩٨ .
المهاجرون : ١٧ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٦٢ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٢ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٩٣ ، ١٢٦ ، ١٣٣ ، ١٣٦ ، ١٤٨ ، ١٥١ ، ١٥٩ ، ١٧٠ ، ١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٨٨ ، ٢٠٨ ، ٢١٢ ، ٢١٥ ، ٢١٧ .

(ن)

النظام البرلمانى : ٤٦ ، ٦٣ .
نظام الطبقات : ١٠٩
النهضة (عصر) : ٤٥

(هـ)

الهاشميون = بنو هاشم

(ى)

اليمامة : ٣٧ .
اليمانية : ٩٨ ، ٩٩ ، ١١٠ ، ١٤٠ ، ١٥٣ .
اليونان : ٢٨ ، ٣٢ ، ٤٥ .

فهرس الأماكن

(أ)

الأردن : ١١٨ ، ١٢٠

أرض الترك : ١٦٩

أرمينية : ١٦٩

الإسكندرية : ١٤٧

إصطخر : ٣٧

إفريقية : ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٩٣ .

الأندلس : ١٢٣ ، ١٦٩ .

إيطاليا : ٣١

(ب)

بحر الروم : ١١٨

البحرين : ٧٤

البصرة : ٧٣ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٩ ، ١٢٢ ، ١٣١ ، ١٤٧ ، ١٦٩ ، ١٩٩ ، ٢٠٩ ، ٢١٩ .

بلاد العرب : ٣٤ ، ٤٤ ، ٥٨ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٢١ ، ١٩٥ .

بلاد الفرس = فارس

بئر أريس : ٢٠٠

بئر رومة : ٥٢ ، ١٩٠ ، ٢١٢ .

(ج)

جبل صنعاء : ١٩ .

الجزيرة : ٥٥ ، ١١٢ .

(ح)

الحبشة : ٣٣ ، ١٢٦ ، ١٥٩ ، ١٦٦ .

الحجاز : ٣١ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٨ ، ١٢١ ، ١٤٩ .

الحرة : ٧٧ ، ٢٠٠

حمص : ٧٣ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٦٠ .

(خ)

خيبر : ١٠٤

(د)

دار الأرقم : ٥١ ، ١٢٦ .

دار الهجرة = المدينة

دمشق : ٧٣ ، ١١٨ ، ١٢٠ .

(ر)

رابغ : ٩٢

الربذة : ١٦٤ ، ١٦٥ .

الروم : ٨٠ ، ٨١ ، ٨٩ ، ١١٨ ، ١٧٠ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ٢١٢ .

روما : ٤٥

(ش)

الشام: ٤٤، ٥١، ٥٥، ٨٩، ٩٠،
١٠١، ١١٤، ١١٦، ١١٨، ١١٩،
١٣١، ١٣٣، ١٤٠، ١٤٨، ١٦٠،
١٦١، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٨٠،
١٨٧، ١٩٩، ٢٠٧، ٢١٣، ٢١٥،
٢١٦، ٢٢٢.

شعاب الحرة = الحرة

(ص)

صنعاء: ٧٣

(ط)

الطائف: ٢٩، ٥٠، ٧٣، ٩٠، ١٠٥،
١٧٨، ١٧٩.

(ع)

العراق: ٩٠، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦،
١١٦، ١٢٥، ١٤٠، ١٤٧، ١٦٤،
٢١٣، ٢٢٢.

(ف)

فارس: ١١٧، ١٢٢، ١٦٩.

فدك: ١٤

الفرات: ١١٠

الفسطاط: ١٤٧

فلسطين: ٧٤، ١١٨، ١٢٠.

(ق)

قباء: ١٥١

قبرص: ١٢٥، ١٧٠

القسطنطينية: ٥٥، ١٧٠

(ك)

الكوفة: ٧٣، ٨٧، ٨٩، ٩٠، ٩٣،
٩٤، ٩٥، ٩٩، ١٠١، ١٠٩،
١١٠، ١١١، ١١٣، ١١٤، ١١٥،
١١٦، ١١٩، ١٢٢، ١٣٠، ١٤٧،
١٤٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٩، ١٧١،
١٧٨، ١٨٧، ١٨٨، ١٩٩، ٢٠٨،
٢٠٩، ٢١٩، ٢٢٢.

(م)

المدينة: ١٢، ٢٠، ٢٣، ٣٣، ٣٦،
٤٦، ٥٢، ٦٢، ٧٦، ٧٩، ٨٤،
٩٠، ١٠٣، ١٠٥، ١١٦، ١١٩،
١٢٢، ١٢٣، ١٢٦، ١٢٨، ١٣٨،
١٣٩، ١٤٣، ١٤٧، ١٤٨، ١٥١،
١٥٩، ١٦١، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٦،
١٦٧، ١٦٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٨٥،
٢٠٢، ٢٠٤، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨،
٢٠٩، ٢١٠، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥،
٢١٦، ٢٢٠.

مصر: ٤٤، ٥٥، ٧٣، ٨٨، ٩٠،
١٠٤، ١١٤، ١١٥، ١١٨، ١١٩،

١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ،
١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣١ ،
١٣٥ ، ١٤٧ ، ١٨٨ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ،
٢١٩ ، ٢٢٢ .
المغرب : ١٦٩
مكة : ١٢ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٩ ، ٣٤ ، ٣٦ ،
٥١ ، ٧٩ ، ٨٤ ، ٩٠ ، ١٠٥ ، ١٤٣ ،
١٤٨ ، ١٥١ ، ١٥٩ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ،
١٦٦ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨٤ ،
٢٢٠ .
منى : ١٧٨ ، ١٧٩ .

(هـ)

الهند : ٨٠

(و)

وادى القرى : ٢١٣

(ى)

اليمن : ٨٧ ، ٩٠ ، ١٠٤ ، ١١٤ ، ١٤٠ ،
١٧٨

فهرس الأيام
والغزوات والوقائع

(أ)

أحد = غزوة أحد

(ب)

بدر = غزوة بدر

بيعة الرضوان : ١٦١ . ٢١١

(ت)

تبوك = غزوة تبوك

(ث)

الثورة الفرنسية : ٢٨

(ح)

الحديبية = صلح الحديبية

حرب الردة : ٣٧ . ٤٣ ، ٥٦

حنين = غزوة حنين

(ذ)

ذات الصوارى = وقعة ذات الصوارى

(ر)

الردة = حرب الردة

(ص)

صلح الحديبية : ٢٤ ، ٢٥ ، ٥٣ .

(ع)

عام الرمادة : ١٥ ، ١٦ ، ١٨ .

عام الفيل = وقعة الفيل

(غ)

غزوة الأندلس : ١٢٣

غزوة أحد : ٥٢ . ١٤٨ ، ١٥٩ ، ٢١٠ .

غزوة الأحزاب = غزوة الخندق

غزوة بدر : ٢٣ ، ٢٥ ، ٣٤ ، ٥٢ ، ٨٤ ، ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٥٩ ، ١٦١ .

غزوة تبوك : ٥٢ ، ١٥١ ، ١٩٠

غزوة حنين : ١٢

غزوة الخندق : ٢٤ . ١٦٦ ، ٢١٠ .

غزو الروم : ١٢٢ ، ١٧٠

غزو قبرص : ١٢٠ ، ١٢٥ .

(ف)

فتح أرمينية : ١٦٩

فتح إفريقية : ١٢٣ ، ١٦٩

فتح الشام : ١٠١

فتح فارس : ١٦ ، ١٢٢ ، ١٦٩
فتح قبرص : ١٧٠
فتح مكة : ١٨٤

(ق)

القادسية = وقعة القادسية

(و)

وقعة بدر = غزوة بدر
وقعة ذات الصوارى : ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٧٠
وقعة الفيل : ٥٠
وقعة القادسية : ٩٢ ، ١٤٣

(ى)

يوم أحد = غزوة أحد
يوم الأحزاب = غزوة الخندق
يوم بدر = غزوة بدر
يوم الجمل : ١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٧٢
يوم الحديبية = صلح الحديبية
يوم صفين : ١٧٢
يوم الفتح : ١٨٨
يوم الفيل = وقعة الفيل

فهرس القوافى

(د)

ياويلتا : سعيد - رجز ١٠٠

(ر)

أطعنا : لأبى بكر - طويل ٢٩

ألا : خفر - طويل ٦٦

شهد : بالعذر - متكامل ٩٦

(ق)

جزى : الممزق - طويل ٢٠

تكلم : بالنفاق - وافر ٩٧

(ل)

عفا : جمائله - طويل ٩٧

(ن)

أبا عمرو : الهرمزان - وافر ٦٧

(ى)

تصدق : لياليا - طويل ١٣٠

رقم الإيداع		١٩٩٩/١٦٧٠٢
الترقيم الدولى	977-02-5936-5	ISBN

١/٩٩/٩٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

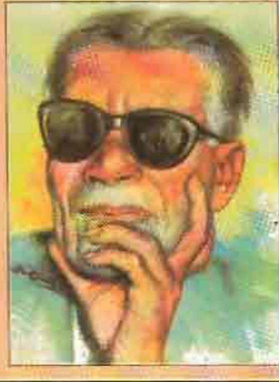
ليس هـــذا الكتاب تاريخًا لمقتـل عثمــان أو تاريخًا لخــلافته ، ولكنـه دراسـة لنظـام الحكم الإسـلامى وعناصـره ، وبيــان لاستغلال النفـوذ الذى حاربـه الخليفـة عمـر ، وتصـوير جميـل لنظام المعارضة فى الإسـلام ، وكيف نشـأت المعارضـة . إنـه لا يُصـور لنـا عصر خـلافة فحسـب ، ولكنه يصـور لـنـا العوامـل والتيارات التى كان يموج بها عصر الخليفة الشهيد .

دار المعارف

٠١٧٨١٩/٠١

تصميم الغلاف : شريفة أبو سيف

طه حسين



٢

الفتنة الكبرى

على وبنوه

دار المعارف

طه حسين

الفتنة الكبرى

٢

علي وبنوه

الطبعة الخمسة عشرة

دار المعارف

الناشر: دار المعارف ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج . م . ع .
هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١

واجه المسلمون إثر قتل عثمان رحمه الله مشكلتين من أخطر ما عرض لهم من المشكلات منذ خلافة أبي بكر ، إحداهما تتصل بالخلافة نفسها والأخرى تتصل بإقرار النظام وإنفاذ أمر الله فيمن قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض .

فقد أمسى المسلمون يوم قتل عثمان وليس لهم إمام يدبِّر لهم أمورهم ويحفظ عليهم نظامهم وينفذ فيهم سلطانهم ويقيم فيهم حدود الله ويرعى بعد هذا كله أمور هذه الدولة الضخمة التى أقامها أبو بكر وعمر ، وزادها عثمان سعة فى الشرق والغرب . فهذه البلاد التى فُتحت عليهم ولم يستقر فيها سلطانهم بعدُ كانت فى حاجة إلى من يضبط أمرها ويحكم نظامها ويُبعد حدودها التى لم تكن تثبت إلا لتتغير ، لاتصال الفتح منذ نهض أبو بكر بالأمر إلى أن كانت الفتنة وشُغل المسلمون بها أو شغل فريق من المسلمين بها عن الفتوح .

وكانت للمسلمين جيوش مرابطة فى الثغور تقف اليوم لتمضى غداً إلى الأمام . وهذه الجيوش لم تكن مشغولة بالفتح وحده وإنما كانت مشغولة كذلك بإقرار النظام فيما فُتح عليها من الأرض ، وتثبيت السلطان الجديد على أنقاض السلطان القديم ، واستحداث نظم فى الإدارة تلائم مزاج الفاتحين ، واستبقاء نظم فى الإدارة أيضاً تلائم مزاج المغلوبين . وهذه الجيوش كانت محتاجة إلى من يُمدها بالجند والعتاد ويرسم لها الخطط ويدبر لها من الأمر ما تحتاج إلى تدبيره .

وواضح أن الذين قتلوا عثمان لم يكونوا هم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان نفسه من المهاجرين والأنصار ، وإنما كانوا شراذمَ من الجيوش المرابطة فى ثغور البصرة والكوفة ومصر ومن ثاب إليهم من الأعراب ومن أعانهم من أبناء المهاجرين .

وكانت الجِلّة من أصحاب النبي المهاجرين والأنصار قد وقفت مواقف ثلاثة مختلفة من هذه الفتنة :

فأمّا كثرتهم فكانت ترى وتُنكر وتَهُمّ بالإصلاح فلا تجد إليه سبيلا فتسكت عن عجز وقصور لا عن تهاون وتقصير . وأما فريق منهم فقد شُبِّهت عليهم الأمور فآثروا العافية والتزموا الحيدة واعتزلوا الفتنة . وكانت قد وقعت إليهم أحاديث عن النبي تخوّف من الفتنة وتأمر باجتنابها . فلزم بعضهم البيوت ، وترك بعضهم المدينة مجانباً للناس فارّا بدينه إلى الله . وفريق ثالث لم يُذعنوا للعجز ولم يؤثروا الحيدة والاعتزال وإنما سعوا بين عثمان وخصومه ، بعضهم ينصح للخليفة ويحاول الإصلاح بينه وبين الثائرين ، وبعضهم ينقم من الخليفة فيحرّض عليه ويُغرى به ، أو يقف موقفاً أقل ما يوصف به أنه لم يكن موقف المخذّل للثائرين أو المنكر عليهم .

فلما قتل عثمان استرجع أكثر الصحابة لأنهم لم يستطيعوا أن ينصروه وفكروا في غد وأرادوا أن يستقبلوا أمورهم وتهيئوا لما يُقبل عليهم من الأحداث . وأمعن المعتزلون في اعتزالهم وحمدوا الله على أنهم لم يشاركوا في الإثم ولم يخبوا ولم يوضعوا في الفتنة . وأما الآخرون فجعلوا يترقبون ما يصنع الناس، يفكرون في أنفسهم أو يفكرون فيمن يلوذون به من الزعماء . ولم يكن للمسلمين نظام مقرر مكتوب أو محفوظ يشغلون به منصب الخلافة حين يخلو ، وإنما كانوا يواجهون خلوّ هذا المنصب كما يستطيعون أن يواجهوه .

فأنت تعلم كيف بويع أبو بكر ، وكيف رأى عمر أن بيعته كانت فلتة وقى الله المسلمين شرها . وأنت تعلم أن عمر إنما بويع بعهد من أبي بكر إليه وإلى المسلمين . وقد قبل المسلمون عهد أبي بكر لم يُنكره ولم يجادل فيه منهم أحد . وقد همّ نفر من المهاجرين أن يجادلوا أبا بكر نفسه في هذا العهد فردهم عن هذا الجدال ردّا قبلوه وأذعنوا له . وأنت تعلم أن عمر لم يعهد إلى أحد وإنما جعل الأمر شورى بين أولئك النفر الستة من المهاجرين الذين مات النبيّ وهو عنهم راض . فاختاروا من بينهم عثمان ولم يختلف عليه منهم أحد . ولم يعهد عثمان ، ولو قد فعل لما قبل الناس عهده لكثرة ما أنكروا عليه وعلى وُلاته وبطانته من الأحداث .

أضف إلى ذلك أن الستة الذين عهد إليهم عمر بالشورى قد أصبحوا حين قُتل عثمان أربعة ، مات أحدهم عبد الرحمن بن عوف في خلافة عثمان ، وقتل

ثانيهم وهو عثمان ، فلم يبق منهم إلا سعد بن أبى وقّاص والزُّبير بن العوام وطلحة ابن عُبيد الله وعلىّ بن أبى طالب . وكان سعد قد اعتزل مع المعتزلين وتجنّب الفتنة فيمن تجنّبها . فلم يبق إذن إلا هؤلاء الثلاثة : علىّ وطلحة والزبير . ثم أضف إلى ذلك أن كثيراً من أصحاب النبى الذين بايعوا الخلفاء الثلاثة لم يكونوا حاضرين أمر الناس فى المدينة . فريق منهم قضى نحبه مستشهداً فى حروب الرِّدَّة وفتوح الفُرس والروم ، أو ميتاً فى فراشه . وفريق منهم رابطوا فى الثغور مجاهدين ما أطاقوا الجهاد ، مستقرّين فى الأمصار الجديدة حين عجزوا عن الجهاد . فلم تكن جماعة المهاجرين والأنصار التى شهدت مقتل عثمان فى المدينة كجماعتهم تلك التى شهدت بيعة الخلفاء الثلاثة .

وكان الأمر مختلفاً بين علىّ وطلحة والزبير ليس لهم موقف واحد من الخليفة المقتول ولا من الظروف التى انتهت بقتله .

فأما علىّ فكان يُخذّل الناس عن الثورة والفتنة ما وجد إلى تخذيلهم عنهما سبيلا . وقد سفَرَ بينهم وبين عثمان ، كما رأيت فى الجزء الأول من هذا الكتاب وردّهم عن المدينة . وسفَرَ بينهم وبينه مرة أخرى وأخذ لهم منه الرضا ، وحاول حين استيأس من ردّهم بعد أن احتلوا المدينة على غِرّة من أهلها أن يقوم دون عثمان فلم يستطع ، واجتهد فى أن يُوصل إليه الماء العذب حين أدركه الظمأ لشدة الحصار .

وأما الزُّبير فلم يَنْشَط فى رد الثائرين نشاطاً ملحوظاً ، ولم ينشط فى تحريضهم نشاطاً ملحوظاً أيضاً . ولكنه ظل يترقب وهواه مع الثائرين . ولعله لم يكن يظن أن الأمر سيصير إلى ما صار إليه .

وأما طلحة فلم يكن يُخفى ميله إلى الثائرين ولا تحريضه لهم ولا إطماع فريق منهم فى نفسه . وكثيراً ما شكا منه عثمان فى السر والجهر . والرواة يتحدثون بأنه استعان عليه بعلىّ نفسه ، وبأن عليّاً استجاب له فذهب إلى طلحة ورأى عنده جماعة ضخمة من الثائرين ، وحاول أن يرده عن خُطته تلك فلم يستجب له طلحة فخرج علىّ من عنده وعمد إلى بيت المال فاستخرج ما فيه وجعل يقسّمه بين الناس ، فتفرق أصحاب طلحة عنه ورضى عثمان بما فعل علىّ .

وزعم الرواة أن طلحة لما رأى ذلك أقبل حتى دخل على عثمان تائباً معتذراً ، فقال له عثمان : لم تجئ تائباً وإنما جئت مغلوباً والله حسيبك يا طلحة .

ومهما يكن من شيء فقد قُتل عثمان وهؤلاء الثلاثة فى المدينة يرقُبون ما يصنع الناس . وكان الثائرون قد ملأوا المدينة خوفاً ورعباً، فلم يكن دَفْن الخليفة المقتول إلا بلَيْل وعلى استخفاء شديد من الناس .

والرواة يختلفون فى بيعة الإمام بعد قتل الخليفة، فقوم يقولون إن علياً بويع إثر قتل عثمان مباشرة . وليس هذا بثَبْت ، وإنما الثبت الملائم لطبيعة الثورة ولطبيعة هذه الفتنة المُشبّهة أن المدينة ظلت أياماً وليس للناس فيها خليفة وإنما يدبر أمورهم فيها الغافقيُّ أحد زعماء الثورة .

وقد وقع الثائرون بعد أن شفوا أنفسهم من الخليفة المقتول فى حيرة حائرة . كانوا يعلمون أن لا بُدّ للناس من إمام ومن أن يُبايَع هذا الإمامُ فى أسرع وقت ممكن قبل أن يستبدّ عمّال عثمان بما فى أيديهم ويرسل أقواهم معاويةُ جندَه إلى المدينة ليخضعها لسلطانه ويعاقب الثائرين على ما قدّموا . وكانوا يعلمون أن أحداً منهم لا يستطيع أن ينهض بإمامة المسلمين لأن أمر الإمامة إنما هو إلى المهاجرين والأنصار يبايعون بها من يختارون من قريش .

ثم كانت أهواؤهم بعد ذلك مختلفة ، هوى أهل مصر مع علىّ ، وهوى أهل الكوفة مع الزُّبير ، وهوى أهل البصرة مع طلحة . وقد جعل كل فريق منهم يختلف إلى صاحبه ، وجعل الثلاثة يأبَوْن عليهم ويمتنعون من قبول الإمامة منهم. وكأنّ الثائرين استيقنوا آخر الأمر أنهم لن يستطيعوا وحدهم أن يقيموا للناس إماماً وأن لابد أن يُعينهم المهاجرون والأنصار على ذلك ، يختارون أحد هؤلاء الثلاثة ويُلحون عليه ويؤيدهم الثائرون فى هذا الإلحاح وما يزالون به حتى يرضى . فجعلوا يدورون على أصحاب النبى يدعونهم مُلِحّين فى الدعوة إلى أن يختاروا لأمة محمد صلى الله عليه وسلم إماماً . وقد رأى المهاجرون والأنصار أن لابد مما ليس منه بُد . وأدار كل منهم الأمر بينه وبين نفسه وبينه وبين من استطاع أن يلقى من أصحابه . فإذا هم يميلون إلى علىّ ويُؤْثرونه على صاحبيه .

وكذلك أقبلوا على علىّ يعرضون عليه الإمامة ويُلحون عليه فى قبولها ،

والثائرون يؤيدونهم فى ذلك . وحاول علىّ أن يمتنع فلم يجد إلى الامتناع سبيلا . وما يردّه عن القبول وقد رفض الخلافة حين قدّمها إليه الثائرون ، وهؤلاء المهاجرون والأنصار يعرضونها عليه ويريدون أن يبايعوه كما بايعوا الخلفاء من قبله . فقد قَبِل الخلافة إذاً وجلس للبيعة على منبر النبيّ كما جلس الخلفاء من قبله، وأقبل الناس فبايعوه . ولكن نفراً أَبَوْا أن يبايعوا فلم يُلحّ عليهم علىّ فى البيعة ولم يأذن للثائرين فى إكراههم عليها . من هؤلاء النفر سعدُ بن أبى وقّاص ، وهو أحد أصحاب الشُّورى ، أبَى أن يبايع وقال لعلىّ : ما عليك منى من بأس . فخلّى علىّ بينه وبين ما أراد . ومنهم عبدُ الله بن عمر ، أبى أن يبايع وطلب إليه علىّ من يَكْفُله لأن يَلْزم العافية ويفْرُغ من أمر الناس . فأبى أن يقدّم كفيلا . فقال له علىّ : ما علِمتُك إلا سيئ الخُلق صغيراً وكبيراً . ثم قال : خلوه وأنا كفيله. وأبَى البيعة قوم آخرون من هؤلاء الذين اعتزلوا الفتنة ، فلم يُرِدْ علىّ أن يستكرههم ولا أن يعرض لهم أحد بسوء . وامتنع طلحة والزبير عن البيعة فأكرههما الثائرون عليها ولم يتركهما علىّ وشأنهما كما ترك سعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمر وغيرهما من الذين اعتزلوا الفتنة . فقد كان علىّ يعلم من أمرهما ما علم الثائرون . كان يعلم أن طلحة كان من أشدّ الناس على الخليفة المقتول ، وأنه كان يطمح إلى ولاية الأمر . وكان يعلم أن الزُّبير لم يأمر ولكنه لم ينْهَ ، ولم يكن أقلّ من طلحة طُموحاً إلى ولاية الأمر . فلم يُعفهما من البيعة ليستوثق منهما بقدر ما كان يمكن أن يُستوثق منهما . وتمت البيعة لعلىّ فى المدينة بعد مقتل عثمان بخمسة أيام فى بعض الروايات ، وبثمانية أيام فى بعضها الآخر . وظهر أن الأمور قد استقامت لعلىّ فى الحجاز وفى ثغور الكوفة والبصرة ومصر . وكان الذى يشغله ولا يريد أن يستقيم له هو أمر الشام . ذلك أن الشام لم يشترك فى الثورة من جهة ، وكان حكمه إلى معاوية ابن عم عثمان من جهة أخرى . وسنرى بعد قليل سيرة علىّ فى أمر الشام ومعاوية . ولكن المهم أن عليًّا قد أصبح إماماً للمسلمين ، بايعه من حضر المدينة من المهاجرين والأنصار ، وبايعه عن الثغور من حضر المدينة من الثائرين . فقد حُلّت إذاً إحدى المشكلتين الخطيرتين ، مشكلة الخلافة والخليفة الجديد ، أو ظهر لعلىّ ولكثرة الناس أنها قد حُلّت وأن الأمر صائر بعد حلها إلى العافية والرِّضى والاستقرار .

ولم يكن بُدّ من أن يعرض الإمام الجديد للمشكلة الثانية ، وهى مشكلة هذا الإمام المقتول . فقد كان ينبغى أن يظهر أمر الله وحكم الدين فى قتل هذا الإمام وفى قاتليه . أقُتِل الإمام ظالماً ؟ وإذاً فلا ثأر له ولا قصاص من قاتليه . أم قُتل الإمام مظلوماً ؟ وإذاً فلا بُدّ من أن يثأر له الإمام الجديد وينفّذ فى قاتليه ما أمر الله به من القصاص .

فأما أصحاب النبي من المهاجرين والأنصار فكانوا يرون أنه قُتل مظلوماً وأن ليس للإمام بُد من الثأر بدمه ، وأن أمور الدين لا تستقيم إذا ضُيّعت الحقوق وأهدرت الدماء ولم تُقَم الحدود .

هذا كله لو كان المقتول إنساناً من الناس ليس غير ، فكيف وهو إمام الناس وخليفة المسلمين . وكان المهاجرون والأنصار يقولون : ما يمنع الناس إن لم نقتصّ من قَتَلة عثمان أن يثوروا بكل من سخطوا عليه من أئمتهم فيقتلوه . وقد تحدّثوا فى ذلك إلى علىّ فسمع منهم وأقرّهم على رأيهم ، ولكنه صوّر لهم الأمر على حقيقته . فالسلطان قد انتقل إليه بحكم البيعة ، ما فى ذلك شك . ولكنه ما زال فى أيدى الثائرين بحكم الواقع من الأمر . فهم يحتلّون المدينة احتلالا عسكريّاً ويستطيعون أن يقضُوا فيها وفى أهلها بما يشاءون ، ولا قدرة للخليفة ولا لأصحاب النبي عليهم . فالخير إذاً فى التمهل والأناة حتى تستقيم الأمور ويقوى سلطان الخليفة فى الأمر ثم ينظر فى القضية بعد ذلك فيجْرِى الأمر فيها على ما قضى الله ورسوله فى الكتاب والسنة .

وقد رضى أصحاب النبيّ من علىّ بما رأى لهم . وأما الثائرون فكانوا يرون أنهم قتلوا الخليفة ظالماً فليس له ثأر ولا ينبغى للإمام أن يقتل به أحداً .

ومع ذلك فقد همّ علىّ أن يحقّق مقتل عثمان ، ولكنه لم يستطع أن يَمْضى فى التحقيق إلى غايته . ولهج قوم بأنّ محمد بن أبى بكر قد شارك فى دم عثمان ، ومحمد ابن أبى بكر هو ابن خليفة رسول الله وأخو أم المؤمنين عائشة ، وهو رَبيب علىّ نفسه ، فقد كانت أمه عند علىّ تزوّجها بعد موت أبى بكر . وقد سأل علىّ محمداً : أأنت قاتل عثمان ؟ فأنكر وأقرّته نائلةُ بنت الفرافِصة زوج عثمان على إنكاره . ولكن الثائرين لم يكادوا يُحسّون بدء علىّ فى هذا التحقيق حتى أظهروا السخط

والتضامن ، فصار عليّ إلى ما قدّمنا من رأيه وانتظر معه عامة الصحابة من أهل المدينة .

ولعلك تذكر أن عثمان نفسه قد واجه في أول خلافته مشكلة تُشبه هذه المشكلة التي واجهها عليّ أول ما ولي الأمر . فقد كان أول مشكل عرض لعثمان هو أمر عُبيد الله بن عمر الذي قتل الهُرْمُزان مُتّهماً له بالتحريض على قتل أبيه ، وقتله في غير تثبُّت وبغير بيِّنة وبغير قضاء ممن يملك القضاء . وكان المسلمون قد انقسموا في أمر هذا الفتى ، فريق يرى إقامة الحدّ عليه ، ومنهم عليّ ، وفريق يُكْبِر أنّ يبدأ عثمان خلافته بقتل ابن أمير المؤمنين عُمَر . وقد عفا عثمان لأن الهرمزان لم يكن له ولي من ذوي عَصَبته يطالب بدمه . فكان الخليفة هو الوليّ ، وكان يرى أنّ من حقه أن يعفو . ولم يقبل عليّ وكثير من المسلمين في ذلك الوقت قضاء عثمان وإنما رأوه ظلماً وإهداراً للدم وتفريطاً في حق الله . وكان عليّ يقول بعد خلافته : لئن ظفرت بهذا الفاسق لأقتلنه بالهرمزان .

واجه عثمانُ إذاً ابنَ خليفة من خلفاء المسلمين متّهماً بالقتل في غير حقّه فعفا عنه . واختلف الناس في هذا العفو .

وواجه عليٌّ ابنَ خليفة آخر من خلفاء المسلمين متّهماً بالقتل وبأيّ قتل! بقتل إمام من أئمة المسلمين لا بقتل رجل غريب من المغلوبين المُستأمنين . ولكن عليّاً لم يعفُ عن محمد بن أبي بكر وإنما حقق أمره حتّى استبان أنه لم يقتل عثمان ، ثم منعته الظروف من المضي في التحقيق إلى غايته وإمضاء حكم الدين في القاتلين .

ومن الحق أن نلاحظ أن محمد بن أبي بكر لم يقتل عثمان بيده ولكنه تسوّر الدار مع مَن تسوروها عليه . فقد كان له إذاً في قتل عثمان شأن ضئيل أو خطير ، ولكن الذين كان لهم شأن في هذه الكارثة كانوا أكثر عدداً وأقوى قوة وأشد بأساً من أن يُقْدَر عليهم أو يقتصمنهم الإمام الجديد . ثم جرت الأمور بعد ذلك على نحو زاد قضية الخليفة المقتول عسراً وتعقيداً كما سترى .

٢

ولم يستقبل المسلمون خلافة عليّ بمثل ما استقبلوا به خلافة عثمان من رضى النفوس وابتهاج القلوب واطمئنان الضمائر واتساع الأمل وانبساط الرجاء ، وإنما استقبلوا خلافته فى كثير من الوجوم والقلق والإشفاق واضطراب النفوس واختلاط الأمر ، لا لأن عليًّا كان خليقًا أن يُثير فى نفوسهم وقلوبهم شيئاً من هذا ، بل لأن ظروف حياتهم قد اضطرتهم إلى هذا كله اضطرارًا . فقد نهض عثمان بالأمر بعد خليفة قويّ شديد صعب المراس أرهقهم من أمرهم عُسْرًا بما كان يسلك بهم إلى العدل من طريق وَعْرة خشنة لا يصبر على سلوكها إلا أولو العزم وأصحاب الجلد من الناس . وقد صوّرنا لك فيما مضى من هذا الكتاب شدة عمرَ على المسلمين عامة فى ذات الله ، وقسوته على قريش خاصة ، يخاف عليهم الفتنة ويخاف منهم الفتنة أيضاً . فلما نهض عثمان بأمر الناس أعطاهم ليناً بعد شدة وإسماحاً بعد عُنف وسعة بعد ضيق ورضاء بعد مشقّة وجهد ؛ فزاد فى أعطياتهم ويسّر لهم من أمرهم ما كان عسيراً حتى آثروه فى أعوامه الأولى على عمر .

وأقبل عليّ بعد مقتل عثمان فلم يوسع للناس فى العطاء ولم يمنحهم النوافل من المال ولم ييسر لهم أمورهم ، وإنما استأنف فيهم سيرةَ عمر من حيث انقطعت ، ومضى بهم فى طريقه من حيث وقف .

وكان الناس بعد قتل عمر آمنين مطمئنين يشوب أمنهم واطمئنانهم شيءٌ من الحزن على هذا الإمام البرّ الذى اختُطف من بينهم غيلةً ، لا عن ملأ من المهاجرين والأنصار ، ولا عن ائتمار به من أهل الثغور والأمصار . فكان قتله عنيفاً يسيراً فى وقت واحد . لم يصوّره أحد بأبلغ مما صوّره به عمرُ نفسُه حين تلقّى الطعنة التى قتلته ، ثم تولى وهو يتلو قول الله عز وجل : ﴿ وكَانَ أمرُ الله قدَراً مقْدُوراً ﴾ .

كانت وفاة عمر إذاً قدراً من القدر لم تتألّب عليه جماعة ولم يأتمر به ملأ من المسلمين ، وإنما اغتاله مغتالٌ غير ذى خطر فساق إليه موتاً لم يكن منه بُدّ .

فأما مقتل عثمان فكان نتيجة ثورة جامحة وفتنة شُبُهت فيها على الناس أمورهم، إذ لم يكن أحدهم يعرف أكان مقبلاً أم مدبراً . وكان نتيجةَ خوف ملأ المدينة كلها أياماً طوالا ثم انتشر منها فى أقطار الأرض فاضطربت له النفوس أشد الاضطراب ، وجهز العمّال جنودهم لا ليرسلوها إلى حيث كان ينبغى أن تُرسَل من الثغور ، ولكن ليرسلوها إلى عاصمة الدولة وقلبها ليردوا إليها الأمن ويجلوا عنها الخوف وليستنقذوا الخليفة المحصور . فلم تبلغ الجنود قلبَ الدولة ولا عاصمتها وإنما قُتل الخليفة قبل ذلك ، فعاد الجند إلى أمرائهم وتركوا المدينة يملؤها الخوف والذعر ويسيطر عليها القلق والاضطراب .

وكان أمر الثورة قد بلغ أهل الموسم فى حجتهم ، وقرأ عليهم عبدُ الله بن عبّاس كتاب عثمان يبرئ فيه نفسَه من الظلم والجور ويتهم فيه الثائرين به بالخلاف عن أمر الله والبغى على خليفة الله ، فقضى الناس مناسكهم خائفين ، وعادوا إلى أمصارهم خائفين ، يحملون الخوف معهم إلى من أقام ولم يأت الموسمَ من الناس .

فليس غريباً إذاً أن يستقبل المسلمون خلافة علىّ ووجوههم عابسة وقلوبهم خائفة ونفوسهم قلقة ، ويزيد فى هذا العبوس والخوف والقلق أن الثائرين الذين قتلوا عثمان كانوا ما يزالون مقيمين بالمدينة متسلّطين عليها ، حتى كأن الخليفة الجديد ومن بايعه من المهاجرين والأنصار لم يكونوا فى أيديهم إلا أسارى . وآية ذلك أن الخليفة لم يستطع أن يمضى فى تحقيق ما أصاب عثمان وما أصاب المسلمين من كارثة الفتنة ، لأنه لم يجد القدرة على هذا التحقيق . وكان المسلمون من أهل المدينة يعرفون مكان العمال الذين أمَّرهم عثمان على الأمصار ، ويقدرون أنهم جميعاً أو أن بعضهم على الأقل سينكرون الخلافة الجديدة ويجادلون الخليفة فى سلطانه غضباً لعثمان الذى ولاّهم . وكانوا يخافون من هؤلاء العمال بنوع خاص معاويةَ ابنَ أبى سفيان عاملَ عثمان على الشام . يعرفون قرابته من الخليفة المقتول ويعرفون طاعة أهل الشام له لطول إقامته فيهم وإمرته عليهم منذ عهد عمر . وكانوا يعرفون مكانة معاوية من بنى أمية ، ويعرفون الخصومة القديمة بين بنى أمية وبنى هاشم قبل أن يظهر الإسلام وحين انتقل النبىُّ وأصحابه بدينهم الجديد إلى المدينة ، فقد أصبح أبو سفيان قائدَ قريش بعد أن قتل قادتها وسادتها يوم بدر ، وهو

الذى أقبل بقريش يوم أحد فثأر لقتلى بدر من المشركين. وامرأته هند أم معاوية هى التى أعتقت وحشياً أن قتل حمزة. فلما قتله أقبلت على ميدان الموقعة وبحثت عن حمزة حتى وجدته بين القتلى فبقرت بطنه واستخرجت كبده فلاكتها. وأبو سفيان هو الذى قاد قريشاً يوم الخندق وألب العرب على النبيّ وأصحابه وأغرى اليهود حتى نقضوا عهدهم مع النبيّ وأصحابه. وأبو سفيان هو الذى ظلّ يدبّر مقاومة قريش للنبي وكيدها له ومكرها به حتى كان عام الفتح، فأسلم حين لم يكن له من الإسلام بُد. ومهما يقل الناس فى معاوية من أنه كان مقرباً إلى النبي بعد إسلامه. ومن أنه كان من كتّاب الوحى. ومن أنه أخلص للإسلام بعد أن ثاب إليه ونصح للنبي وخلفائه الثلاثة. مهما يقل الناس فى معاوية من ذلك فقد كان معاوية هو ابن أبى سفيان قائد المشركين يوم أحد ويوم الخندق، وهو ابن هند التى أغرت بحمزة حتى قُتل ثم بقرت بطنه ولاكت كبده، وكادت تدفع النبيّ نفسه إلى الجزع على عمه الكريم.

وكان المسلمون يسمون معاوية وأمثاله من الذين أسلموا بأخَرة، ومن الذين عفا النبي عنهم بعد الفتح، بالطُّلقاء؛ لقول النبي لهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

كان الناس يعرفون هذا كله ويقدرون أن الأمور لن تستقيم بين الخليفة الهاشمى والأمير الأموى فى يسر ولين. وكانوا كذلك يعرفون أن قريشاً قد صرفت الخلافة عن بنى هاشم بعد وفاة النبي إيثاراً للعافية وكراهة أن تجتمع النبوة والخلافة لهذا البطن من بطون قريش. وكانوا يرون أن الله قد آثر بنى هاشم بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم فاختصها بخير كثير، وأن بنى هاشم ينبغى لهم أن يقنعوا بما آثرهم الله به من هذا الخير الضخم والفضل العظيم.

فكان الناس إذاً لا يشفقون من فساد الأمر بين علىّ ومعاوية فحسب وإنما يشفقون من فساد الأمر بين علىّ وبنى هاشم من جهة وسائر قريش من جهة أخرى. فلم يكونوا إذاً يستقبلون حياةً قوامها الأمن والعافية والسعة، وإنما كانوا يستقبلون حياة ملؤها القلق والخوف، ويشفقون أن تنتهى بهم آخر الأمر إلى ضيق أى ضيق وتورّطهم فى شر عظيم. وكانوا ينظرون فيرون جماعة من خيار المهاجرين والأنصار قد آثروا العزلة وكرهوا أن يدخلوا فيما دخل الناس فيه فاعتزلوا أمر عثمان

واعتزلوا بيعة علىّ وأقاموا ينتظرون . وكانت الكثرة الكثيرة من هؤلاء الناس من خيار المسلمين وأصلحهم وأحقهم بالإجلال والإكبار . فيهم سعد بن أبى وقاص أول من رمى بسهم فى سبيل الله وفاتح فارس وأحد الذين مات النبى وهو عنهم راض وأحد الذين جعل عمر إليهم أمر الشورى . وفيهم عبد الله بن عمر الرجل الصالح الذى أحبه المسلمون على اختلافهم أشد الحب لفقهه فى الدين وإيثاره للخير وبُعده عن الطمع ونصحه للمسلمين فى غير رياء ولا مداهنة .

ثم رأى الناس طلحة والزبير يبايعان عن غير رضى ولا إقبال . فما يمنعهم وهم يرون هذا كله ويعلمون هذا كله ويقدرون هذا كله أن تمتلئ قلوبهم خوفاً ونفوسهم قلقاً .

ومع ذلك فقد كان خليفتهم الجديد أجدر الناس بأن يملأ قلوبهم طمأنينة وضمائرهم رضى ونفوسهم أملا . فهو ابن عم النبىّ وأسبق الناس إلى الإسلام بعد خديجة ، وأول من صلى مع النبى من الرجال ، وهو ربيب النبى قبل أن يُظهر دعوته ويصدع بأمر الله . أحسّ النبىّ أن أبا طالب يلقى ضيقاً فى حياته فسعى فى أعمامه ليعينوا الشيخ على النهوض بثقل أبنائه ، فاحتملوا عنه أكثر أبنائه وتركوا له عقيلا ، كما أحب ، وأخذ النبىّ علياً فكفله وقام على تنشئته وتربيته . فلما آثره الله بالنبوة كان علىّ فى كنفه لم يجاوز العاشرة من عمره إلا قليلا . فنستطيع أن نقول إنه نشأ مع الإسلام . وكان النبى يحبه أشد الحب ويؤثره أعظم الإيثار ، استخلفه حين هاجر على ما كان عنده من ودائع حتى ردّها إلى أصحابها ، وأمره فنام فى مضجعه ليلة ائتمرت قريش بقتله ، ثم هاجر حتى لحق بالنبىّ فى المدينة فآخى النبى بينه وبين نفسه ثم زوّجه ابنته فاطمة ، ثم شهد مع النبىّ مشاهده كلها ، وكان صاحب رايته فى أيام البأس . وقال النبى يوم خيبر : « لأعطينّ الراية غداً رجلا يحب الله ورسولَه ويُحبه الله ورسوله » . فلما أصبح دفع الراية إلى علىّ . وقال النبى له حين استخلفه على المدينة يوم سار إلى غزوة تبوك : أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبىّ بعدى . وقال للمسلمين فى طريقه إلى حجة الوداع : « من كنت مولاه فعلىّ مولاه . اللهم وال من والاه وعاد من عاداه » .

وكان عمر رحمه الله يعرف لعلىّ علمه وفقهه ويقول « إن علياً أقضانا » . وكان

يفزع إليه فى كل ما يعرض له من مشكلات الحكم . وقال حين أوصى بالشورى : « لو ولّوها الأجلح لحملهم على الجادة » إلى فضائل كثيرة يعرفها له أصحاب النبيّ على اختلافهم ، ويعرفها له خيار المسلمين من التابعين ، ويؤمن له بها أهل السنة كما يؤمن له بها شيعته .

وسنرى حين نمضى فى سيرته وحين نبين مواقفه من المشكلات الكثيرة التى عرضت له أنه كان أهلا لكل هذه الفضائل ولأكثر منها ، وأنه كان أجدر الناس بأن يسير فى المسلمين سيرة عمر ويحملهم على طريقه ويبلغ بهم من الخير والنجح والفلاح مثل ما بلغ بهم عمر لو واتته الظروف .

وكان عمر رحمه الله صاحب فراسة صادقة وحدس لا يكاد يخطئ حين قال : لو ولّوها الأجلح لحملهم على الجادة . كان يرى أن عليًّا أشبه الناس به فى شدته فى الحق وإذعانه للحق وغلظته على الذين ينكرون الحق أو يضيقون به . ولكن القوم لم يولّوا خلافتهم الأجلح بعد وفاة عمر ، حين كانت الدنيا مقبلة والنشاط قويًّا والإقدام قارحاً والبصائر نافذة والأمور تجرى بالمسلمين على ما أحبوا . وإنما ولّوا خلافتهم عثمان ، فكان من أمره معهم وأمرهم معه ما كان . حتى إذا فسدت الدنيا وانتشرت الأمور واضطرب حبل السلطان وظن بعض الناس ببعض أسوأ الظن وأضمر بعضهم لبعض أعظم الكيد ، هنالك فزعت كثرة منهم إلى علىّ فبايعته ، واعتزلته طائفة لا يريدون به بأساً ، وأبت عليه طائفة أخرى لا تحبه ولا تريد أن تستقيم له طائعة . ونظر الخليفة الجديد ونظر أصحابه معه فإذا هم يواجهون أموراً عظاماً ، وقد أحاطت بهم فتنة مشبّهة معمّاة إذا أخرج الرجل فيها يده لم يكد يراها .

أمام هذه الأمور العظام وفى قلب هذه الفتنة المظلمة الغليظة وجد علىّ نفسه كأحسن ما يجد الرجل نفسه : صدق إيمان بالله ونصحاً للدين وقياماً بالحق واستقامة على الطريق المستقيمة لا ينحرف ولا يميل ولا يُدهن من أمر الإسلام فى قليل ولا كثير ، وإنما يرى الحق فيمضى إليه لا يلوى على شىء ، ولا يحفل بالعاقبة ولا يعنيه أن يجد فى آخر طريقه نجحاً أو إخفاقاً ، ولا أن يجد فى آخر طريقه حياة أو موتاً ، وإنما يعنيه كل العناية أن يجد أثناء طريقه وفى آخرها رضى ضميره ورضى الله .

وكان عليّ وعمّه العباس يريان حين قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الخلافة حق لبني هاشم لا ينبغي أن تُصرف عنهم ولا أن يقوم بها أحد من دونهم . ولولا أنّ العباس أسلم بأخرة لفكّر في نفسه أن يرشّح نفسه خليفة لابن أخيه فيتلقّى عنه تراثه في القيام بشأن المسلمين ، ولكنه نظر في الأمر فرأى ابن أخيه عليّاً أحق منه بوراثة هذا السلطان ، لأنه ربيب النبيّ وصاحب السابقة في الإسلام وصاحب البلاء الحسن الممتاز في المشاهد كلها ، ولأن النبي كان يدعوه أخاه حتى قالت له أم أيمن ذات يوم مداعبةً : تدعوه أخاك وتزوّجه ابنتك ! ولأن النبي قال له : أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي . وقال للمسلمين يوماً آخر : من كنت مولاه فعليّ مولاه . من أجل ذلك كله أقبل العباس بعد وفاة النبي على ابن أخيه فقال له : ابسط يدك أبايعْك . ولكن عليّاً أبى مخافة الفتنة . وذكّره العبّاس بتلك بعد أعوام طوال . وكان هناك رجل آخر من قريش أراد أن يبايع عليّاً بعد وفاة النبي لا حبّاً له ولا رضى به ولا اعترافاً بمكانته الخاصة من النبيّ بل عصبيّة لبني عبد مناف ، وهذا الرجل هو أبو سفيان زعيم قريش أثناء حربها للنبيّ ومقاومتها للإسلام ، والذي لم يُسلم إلا كارهاً حين رأى جيوش المسلمين مطبقة على مكة فأدخله العباس على النبيّ فأسلم كرهاً لا طوعاً . لم يتردد في الاعتراف بأن لا إله إلا الله ، لأنه لم ير بهذا الاعتراف بأساً . ولكنه حين طُلب إليه أن يشهد أن محمداً رسول الله قال : أما هذه فإن في نفسي منها شيئاً . ولولا حث العبّاس له وتخويفه القتل لما اعترف بهذه الشهادة التي كان في نفسه منها شيء . ولكنه أسلم على كل حال . وعرف النبي له مكانته في قريش فجعل داره مثابة يأمن من أوى إليها من أهل مكة حين دخلها الجيش . فهو إذاً أحد هؤلاء الطلقاء الذين عفا النبيّ عنهم حين دخل مكة فاتحاً منتصراً . ولم يخطر له قط أن يكون خليفة للمسلمين ، ولكنه رأى النبيّ من بني أبيه عبد مناف ، ورأى عليّاً أحق الناس بوراثة سلطانه ، ورأى الخلافة تُساق

إلى رجل من بنى تيم هو أبو بكر ، وقدّر أنها ستساق بعد أبى بكر إلى رجل من بنى عدىّ هو عمر . فآثر بنى أبيه الأدنين على بنى عمه . وقال لعلىّ : ابسط يدك أبايعك . ولكن عليًّا أبى أن يستجيب له كما أبى أن يستجيب لعمه العباس . ولو قد استجاب لهذين الشيخين لأثار بين المسلمين فتنة لم يكونوا فى حاجة إليها ، ولعلهم لم يكونوا قادرين على احتمالها فضلا عن مقاومتها والخروج منها ظافرين .

فقد علمتَ ما كان من خلاف الأنصار فى أمر البيعة حين قُبض النبىّ ، فكيف لو اختلفت قريش نفسها ، وقد علمتَ ما كان من ارتداد العرب فى أول خلافة أبى بكر ، فكيف لو اختلف الذين وفوْا للإسلام من قريش والأنصار .

كان علىّ موفقاً إذاً كل التوفيق ناصحاً لله وللإسلام كل النصح حين امتنع على هذين الشيخين فلم ينَصِّب نفسَه للخلافة ولم ينازعها أبا بكر وإنما بايعه كما بايعه الناس وصبر نفسه على ما كانت تكره ، وطابت نفسه للمسلمين بما كان يراه حقًّا له . وكأنه قدّر أن الأمر لن يعدوه بعد وفاة أبى بكر ، وعذر المسلمين فى استخلاف هذا الشيخ الذى أمره النبىّ أثناء مرضه أن يصلى بالناس . على أنه لم يُسرع إلى بيعة أبى بكر وإنما تلبَّث وقتاً غير قصير . ولعله وجد على أبى بكر كما وجدت عليه فاطمة رحمها الله ، لأنه أبى أن يدفع إليها ما طلبت من ميراث أبيها صلى الله عليه وسلم وروى لها قوله : « نحن معشر الأنبياء لا نُورث ، ماتركناه صدقة » . ولكنه على كل حال أقبل فبايع واعتذر عن تلبّثه بأنه لم يُرد أن يخرج من بيته حتى يجمع القرآن . وقَبِل أبو بكر منه عذره . وكان أبو بكر شيخاً قد جاوز الستين من عمره قليلا ، وكان علىّ ما يزال فى نضرة شبابه قد نيَّف على الثلاثين ، فكان يرى أن المستقبل أمامه وأمام المسلمين فسيح ، وأن حقه سيردّ إليه حين يختار الله لجواره هذا الشيخ الذى قدّمه النبىّ لأمر من أمور الدين فقدّمه المسلمون لأمور الدنيا .

ولكن أبا بكر عهد بالخلافة إلى عمر وقبل المسلمون عهده مجمعين على قبوله لم يُمَار فيه منهم أحد . فاستبان لعلىّ يومئذ أن بينه وبين المهاجرين من قريش خلافاً واضحاً ، فهو يرى لنفسه الحق فى الخلافة والمهاجرون لا يرون له هذا الحق ،

وإنما يرونه واحداً منهم يجرى عليه من الأمر ما يجرى عليهم . فأما الأنصار فقد استيأسوا من الخلافة وطابت بها نفوسهم للمهاجرين من قريش يبايعون منهم من ينصبونه للبيعة . وقد بايع علىّ ثانى الخلفاء كما بايع أولهم كراهيةَ الفتنة وإيثاراً للعافية ونصحاً للمسلمين. ولم يُظْهِر مطالبة بما كان يراه حقًّا له بل لم يُجَمْجِم به . وإنما صبر نفسه على مكروهها ونصح لعمر كما نصح لأبى بكر . فلما طُعِن عمر وجعل الخلافة فى هؤلاء الستة من أصحاب الشورى لم يشكّ علىّ فى أن قريشاً لا ترى رأيه ولا تؤمن له بحقه ورأى ألا يدعو إلى نفسه وألا يستكره الناس على ما لا يريدون . ولو قد أراد أن يستكرههم لما وجد إلى ذلك سبيلا . فلم تكن له فئة ينصرونه ولم يكن يأوى إلى ركن شديد ، وإنما كان نفر يسير من خيار المسلمين يرون رأيه ويجمجمون بالدعوة إليه ، ولكنهم كانوا من المستضعفين الذى لم يقوَوْا إلا بالإسلام . ولم تكن لهم عصبية ولا قوة ماديّة ، ومن هؤلاء الناس عمار بن ياسر والمقداد بن الأسود . وقد بايع علىّ عثمانَ كما بايع الشيخين وهو يرى أنه مغلوب على حقه ، ولكنه على ذلك لم يتردد فى البيعة ولم يقصِّر فى النصح للخليفة الثالث ، كما لم يقصِّر فى النصح للشيخين من قبله . حتى كانت الخطوب التى صورناها فى الجزء الأول من هذا الكتاب .

فكان طبيعيًّا إذاً حين قُتل عثمان أن يفكر علىّ فى نفسه وفيم غُلب عليه من حقه . ولكنه مع ذلك لم يطلب الخلافة ولم ينْصب نفسه للبيعة إلا حين استُكره على ذلك استكراهاً ، وحين هدّده بعض الذين ثاروا بعثمان بأن يبدءوا به فيلحقوه بصاحبه المقتول ، وحين فزع إليه المهاجرون والأنصار من أهل المدينة يُلحّون عليه فى أن يتولّى أمور المسلمين ليُخرجهم من هذه الفتنة المُظلمة . ثم هو حين قبل البيعة لم يُكره عليها أحداً من أصحاب النبى ، وإنما قبل البيعة ممن بايعه وترك من لم يُرد أن يبايعه . ترك سعد بن أبى وقّاص وعبد الله بن عمر وأسامة ابن زيد ، وترك جماعة من الأنصار على رأسهم محمد بن مَسْلمة ، ولم يستثن إلا هذين الرجلين : طلحةَ والزبير ، خاف منهما الفتنة لموقفهما من عثمان والثائرين به، فرضى أن يستكرههما على البيعة ، فيما يقول أكثر المؤرخين . وأكاد أعتقد أنا أنهما لم يُستكرها ، كما زعما وكما زعم كثير من الرواة ، وإنما

أقبلا على البيعة راضيَيْن ثم بدا لهما بعد ذلك حين رأيا من الخليفة ما لم يكونا ينتظران . كانا يقدران فى أكبر الظن أن عليًّا محتاج إليهما أشد الاحتياج ، لأحدهما قوة فى الكوفة ولأحدهما الآخر قوة فى البصرة . وقد شارك أهلُ الكوفة وأهل البصرة فى الثورة مشاركة خطيرة . وكان الناس يظنون أنهم إنما شاركوا فى هذه الثورة عن تحريض ، أو على أقل تقدير عن رضى من طلحة والزبير .

فكانا إذاً يفكران فى أن عليًّا سيعرف لهما مكانتهما وقوتهما وسلطانهما على حزبيهما من أهل البصرة والكوفة وسيشركهما فى أمره وستكون الخلافة ثلاثية يتقاسمها هؤلاء النفر الثلاثة من أصحاب الشورى : لعليّ الحجاز ومصر وما وراءهما من بلاد العرب وما فُتح أو يُفتح فى شمال إفريقيا ؛ وللزبير البصرة وما يليها ، ولطلحة الكوفة وما وراءها . وكانا يظنان أن هذه الخلافة الثلاثية إن استقامت لهم كان أمر الشام يسيراً . ولكن عليًّا أبى عليهما ولايةَ هذين المصريْن وأراد أن يسير فيهما سيرةَ عمر فيحبسهما معه فى المدينة كما كان عمر يحبس أعلام المهاجرين من قبل . إلا أن عليًّا لم يَعْنُف بهما كما كان عمر يَعْنُف بمن يستأذنه فى الخروج إلى الأقطار ، وإنما قال لهما فى رفق رفيق : أحب أن تكونا معى أتجمَّل بكما فإنى أستوحش لفراقكما . هنالك عرف الشيخان أن ظنهما لم يصدُق وأن تقديرهما لم يكن صواباً ، وأن عليًّا سيستأنف سيرة عمر من حيث انقطعت يوم طعنه ذلك الغلام ، وأن أمرهما معه فى المدينة سيكون كأمرهما وكأمر غيرهما من أعلام المهاجرين مع عمر ، سيقيمان فى المدينة وسيأخذان عطاءهما كل عام ، ولن يلقيا من عليّ بعض ما كان يمنحهما عثمان من الرفق والتسامح واللّين ، فلم يطالبا بالكوفة ولا بالبصرة ، وإنما سكتا على مضض ودبَّرا أمرهما فى رويّة وأناة .

ولعلهما لم يُعرضا عن المطالبة بالبصرة والكوفة إثْر هذا الردّ الرفيق الحازم الذى تلقّاه من علىّ. فقد يحدثنا البلاذرىّ بأن المـُغيرة بن شعبة أشار على علىّ بأن يثبّت معاوية على الشام ويولّى طلحة والزبير مِصْرَى العراق ليستقيم له الأمر. وأن عبد الله بن عباس عارض هذا الرأى بأن البصرة والكوفة هما عين المال ومصدر الفىء فإذا وليهما هذان الشيخان ضيّقا على الخليفة المُقيم بالمدينة، وبأن ولاية معاوية للشام تضُر عليًّا أكثر مما تنفعه. فاستمع علىّ لرأى ابن عباس ولم يقبل مشورة المـُغيرة بن شُعْبة.

ولكنّ مؤرخين آخرين يروون القصة على غير هذا الوجه، فيقولون: إن المغيرة ابن شعبة أراد أن يمتحن عليًّا ليعلم علمه، فأشار عليه بأن يثبت عمّال عثمان على أعمالهم، وفيهم معاوية، عامَه الأول حتى يستقيم له الناس وتأتيه طاعةُ الأقاليم ثم يغيّرهم بعد ذلك كما يحب. فأبى علىّ ذلك كراهة الادّهان فى دينه. ثم أقبل المغيرة من غده على علىّ فأنبأه بعدوله عن رأيه الأول واقتناعه برأى علىّ. ودخل ابن عباس على علىّ فلقى المغيرة خارجاً من عنده، وسأل ابنُ عباس عليًّا عما قال له المغيرة فأنبأه برأييه اللذين أشار بهما عليه. فقال ابن عباس: لقد نصحك أمس وغشّك اليوم. ثم ألحّ ابن عباس على الخليفة فى أن يثبّت معاوية على أقل تقدير. ولكن عليًّا أبى عليه ذلك مخافة الادّهان فى الدين، وعرض عليه إمرة الشام، فاعتذر ابن عباس.

ومهما يكن من اختلاف المؤرخين فليس من شك فى أن عليًّا لم يكن يستطيع أن يستبقى عمال عثمان، كان دينه يمنعه من ذلك لأنه طالما لام عثمان على تولية هؤلاء العمال، وطالما أنكر على هؤلاء العمال سيرتهم فى الناس، فلم يكن يستطيع أن يطالب بعزلهم أمس ويثبّتهم على عملهم اليوم. وتمنعه السياسة من هذا، فهؤلاء الثائرون الذين شبّوا نار الفتنة وقتلوا عثمان لم يكونوا يكتفون بتغيير الخليفة، وإنما كانوا يريدون تغيير السياسة كلها وتغيير العمال قبل كل شىء. ولعلهم لم

يكونوا يستثنون من هؤلاء العمال إلا أبا موسى الأشعرى الذى اختاره أهل الكوفة عاملاً عليهم وأقرّ عثمان اختيارهم إياه مبتغياً بذلك استصلاحهم وصدّهم عن الفتنة .

وعلى كل حال فقد كان اختيار العمال على الأقاليم أولَ شيء فكّر فيه علىّ بعد أن فرغ من بيعة أهل المدينة . وقد اختار عمّاله اختياراً حسناً : فأرسل إلى البصرة عثمان بن حُنَيف من أعلام الأنصار ، وأرسل أخاه سهل بن حُنَيف إلى الشام ، وأرسل قيس بن سعد بن عُبادة إلى مصر . وهذا يدل على أنه أراد أن يُرضى الأنصار بهذا الاختيار ، فهو قد اختار منهم ثلاثة لهذه الأمصار الخطيرة : البصرة والشام ومصر . أما الكوفة فيروى بعض المؤرخين أنه اختار لها عُمارة بن شِهاب ، ولكنه لقى فى طريقه من أهل الكوفة من ردّه إلى علىّ وأنذره بالموت إن لم يرجع وأنبأه بأن أهل الكوفة لا يرضوْن بغير أميرهم أبى موسى . فرجع عمارة من حيث أتى . وأرسل أبو موسى إلى علىّ بيعته وبيعة أهل الكوفة . واختار علىٌّ ابنَ عمه عبيد الله بن عبّاس عاملا على اليمن فلما بلغها رحل عنها عامل عثمان يَعْلَى بن أمية واحتمل ما كان عنده من المال ولحق بمكة . واختار علىّ لولاية مكة أول الأمر رجلاً من بنى مخزوم هو خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة ، ولكن أهل مكة أبوْا أن يبايعوه لعلىّ . ويقال : إن فتى من فتيانهم أخذ صحيفة علىّ فمضغها ثم رمى بها فسقطت فى سقاية زمزم . ولمكة أمرٌ خاصّ سنعرض له بعد قليل .

وقد سار عمّال علىّ إلى أقاليمهم : فأما قيس بن سعد فدخل مصر فى غير جهد وأخذ البيعة لعلىّ من عامة أهلها إلا فريقاً اعتزلوا الناس وأوَوْا إلى خربِتة يطلبون بثأر عثمان ، ولكنهم لا يقاتلون أحداً ولا يشقّون عصا ، وإنما ينتظرون له . وأما عثمان بن حنيف فدخل البصرة ولم يجد من أهلها كيداً ، وقد رحل عنها عاملُ عثمان عبدُ الله بن عامر وحمل ما استطاع حمله من المال حتى أتى مكة فأقام فيها .

وأكاد أعتقد أن عليّاً لم يرسل إلى الكوفة أحداً على رغم ما قدمتُ من بعض الروايات ، وإنما أثبت أبا موسى لأنه كان رضًى لأهل مصره . وذهب سهل بن حُنيف إلى الشام فلم يكد يبلغ حدودها حتى لقيتْه خيلٌ لمعاوية فلما سألوه من يكون ؟ أنبأهم بأنه الأمير . فقالوا له : إن كنت أميراً من قبل عثمان فدونك إمْرتَك ، وإن كنت أميراً من قبل غيره فارجع إلى من أرسلك . فرجع

سَهل إلى علىّ . ولم يكد الناس يعلمون بمرجعه ذاك حتى أخذ منهم القلق كل مأخذ ، عرفوا أن معاوية محارب وأرادوا أن يعرفوا أمر علىّ : أيريد حرباً أم يريد مسالمة وترقُّباً . ولكن عليًّا لم يكن صاحب مُسالمة فى الحق ، وكان يؤثر الصراحة فى القول والعمل على التربّص والكيد . وهو مع ذلك لم يعجل معاوية وإنما أرسل إليه مِسْوَر بن مَخْرمة بكتاب منه يطلب إليه فيه أن يبايع وأن يُقبل إلى المدينة فى أشراف أهل الشام ، ولم يذكر فى الكتاب أنه يوليه ثغره . ويقال إنه أرسل إليه سبْرة الجهنىّ بكتابه ذاك . فلما قرأ معاوية الكتاب لم يجب إلى شىء مما فيه وإنما آثر التربّص والكيد ، وجعل كلما تنجزّه رسول علىّ جوابَه يردّ عليه بهذه الأبيات :

أَدِمْ إدامة حِصْن أَو خُذًا بيدى حَرباً ضَرُوساً تشُبُّ الجَزْلَ والضَّرَمَا

فى جاركم وابنكم إذ كان مقتلهُ شنعاءَ شَيَّبت الأَصداغ واللِّمَمَا

أَعيا المَسُودُ بها والسيِّدُون فلم يُوجَد لها غيرُنا مولًى ولا حَكَما

حتى إذا كان الشهر الثالث من مقتل عثمان دعا رجلاً من بنى عَبْس فدفع إليه طوماراً مختوماً عنوانه : « من معاوية بن أبى سفيان إلى علىّ بن أبى طالب » . وأمره إذا دخل المدينة أن يرفع الطومار للناس حتى يقرءوا عنوانه ثم يدفعه بعد ذلك إلى علىّ ، وأوصاه بما يقول لعلىّ إن حاوره فى بعض ما قدم فيه . وأقبل العَبْسىّ حتى دخل المدينة ، فرفع الطومار حتى عرف الناس أنه يحمل ردّ معاوية . فثار لذلك شوقهم إلى العلم بما فى هذا الكتاب . وأكبر الظن أن كثيراً منهم تبعوا العبسىّ حتى بلغ باب علىّ فأُدخل عليه ودفع إليه الطومار . فلما فضه علىّ لم يجد فيه شيئاً مكتوباً إلا : « بسم الله الرحمن الرحيم » . فسأل العبسىّ : ما وراءك ؟ واستأمن العبسىُّ . فلما أمن أنبأ عليًّا بأنه ترك أهل الشام وقد صمَّموا أن يثأروا لعثمان ونصبوا قميصه للناس وجعلوا يلتفُّون حوله يبكون . ثم أنبأه بأن أهل الشام يتّهمونه بقتل عثمان ولا يرضون إلا أن يقتلوه به . ثم خرج العبسىّ ، ولم يكد يُفلت من الثائرين الساخطين على معاوية إلا بعد مشقة وجهد وعناء .

ثم دعا علىّ أعلام الناس فى المدينة ، وبينهم طلحةُ والزبيرُ ، فأنبأهم بما ارتفع

إليه من أمر معاوية، وأنبأهم بأنها الحرب ، وبأن الخير فى أن يُميتوا الفتنة قبل أن تستشرى ويعظم أمرها وفى أن يغزوا أهل الشام قبل أن يغير عليهم أهل الشام . وكأنه لم يجد من الناس جواباً مقنعاً ولا حماسة للحرب . وقد استأذنه طلحةُ والزبير فى أن يلحقا بمكة ، ولم يكونا فى استئذانهما رفيقين وإنما أظهرا شيئاً من شدة وعناد، وأنذرا بالمكابرة إن لم يأذن لهما . فقال علىّ : سنُمسك هذا الأمر ما استمسك .

وكثير من المؤرخين يروون أن طلحة والزبير استأذنا عليًّا فى الخروج إلى مكة معتمرين ، وأن عليًّا أظهر لهما شيئاً من الشك فيما صمما عليه ، فأكدا له أنهما لا يريدان إلا العمرة . ومهما يكن من شىء فقد خرجا إلى مكة عن رضًى أو عن كره من علىّ . وجعل علىّ يتجهز لحرب أهل الشام يريد أن يغير عليهم قبل أن يغيروا عليه .

وإنه لفى ذلك إذ جاءته من مكة أنباء مقلقة غيرت رأيه وخطته ومصير أمره كله تغييراً تامًّا .

٥

وقد قُتل عثمان كما تعلم أثناء الموسم، فكان كثير من أهل المدينة قد مضوا إلى حجّهم ثم جعلوا يعودون بعد أن قضوا مناسكهم. وجعلت أنباء الكارثة تبلغهم فى طريقهم إلى المدينة، فمنهم من سمع هذه الأنباء ثم أقبل إلى المدينة فبايع عليّاً، ومنهم من سمعها فرجع أدراجه إلى مكة معتزلاً للفتنة أو منكراً لما كان من الأحداث مضمراً السخط والخلاف على الإمام الجديد. بل إن بعض أهل المدينة الذين شهدوا بيعة علىّ فبايعوا أو رفضوا البيعة قد جعلوا يتركون المدينة ويفرّون بما أضمروا فى نفوسهم من الخلاف أو الاعتزال إلى مكة؛ لأنها كانت حرماً آمناً لا يُغار عليه ولا يُذْعَر من أوى إليه. فقد انطلق إلى مكة عبد الله بن عمر فارّاً بنفسه ودينه من الفتنة، وهمّ علىّ أن يرسل الخيل فى طلبه لولا أن أقبلت بنته أم كُلثوم، وكانت زوجاً لعمر، فأكدت له أنه لم يخرج لفتنة ولا لخلاف. وخرج إلى مكة طلحة والزبير يظهران أنهما يريدان العمرة أو يظهران اعتزالهما لحرب معاوية ومَن قِبَلَه من أهل الشام. وأوى إلى مكة عمّال عثمان الذين استطاعوا أن يأووا إليها: أوى إليها عبد الله بن عامر ويَعْلَى بن أمية، كما أوى إليها كثير من بنى أمية، منهم مروان بن الحكم وسعيد بن أبى العاص. وكان فى مكة من أزواج النبىّ حفصة بنت عمر وأم سَلَمة وعائشة بنت أبى بكر. وقد أخذت عائشةُ طريقها إلى المدينة بعد أن قضت مناسكها، وعرفت أثناء سفرها مقتل عثمان وخُبِّرت بأن طلحة قد بويع له فأظهرت بذلك ابتهاجاً، فقد كان طلحة مثلها تَيْمِيّاً. ولكنها لقيت فى طريقها من أنبأها بحقيقة الأمر وبأن عليّاً هو الذى تمّت له البيعة فى المدينة. فضاقت بذلك ضيقاً شديداً وأعلنت أنها كانت تؤثر انطباق السماء على الأرض قبل أن ترى عليّاً وقد أصبح للمسلمين إماماً. ثم قالت لمن كان معها: ردّونى. فرجعوا بها أدراجهم إلى مكة. وكان معروفاً أن عائشة رحمها الله لم تكن تحب عليّاً ولا تهواه، بل كان معروفاً أنها كانت تجد عليه مَوْجِدة شديدة منذ حديث الإفك حين أراد علىّ أن يواسى النبىّ صلى الله عليه وسلم فأشار عليه بأن يطلقها وقال له: « إن

النساء غيرها كثير » . وكان ذلك قبل أن يُنزل الله براءتها فى القرآن . فلم تنس لعلىّ قوله ذاك . وكانت عائشة شخصية من أقوى الشخصيات التى عرفها تاريخ المسلمين فى ذلك العهد، لم تكن رفيقة كأبيها وإنما كانت شديدة كعُمَرَ، على احتفاظ منها بكثير مما ورثت العرب عن جاهليتها . فكانت تحفظ الشعر وتكثر من حفظه وإنشاده والتمثل به ، حتى إنها رأت أباها وهو يحتضر ، فتمثلت قول الشاعر :

لعمرك ما يغنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدرُ

وسمعها خليفةُ رسول الله أبوها فقال لها كالمنكر عليها : بَخٍ بَخٍ يا أم المؤمنين ! هلا تلوت قول الله عز وجل : (وجاءتْ سَكْرةُ الموْتِ بالحق ذلك ما كنت منه تَحِيد) .

وكانت من أشد نساء النبىّ إنكاراً على عثمان ، لم تتحرّج أن تصيح به من وراء سترها وهو على المنبر حين عاب عبدَ الله بن مسعود فأسرف فى عيبه . ولم تكن تتحفّظ من الاعتراض على كثير من أعمال عثمان ومن سيرة عمّاله حتى ظن كثير من الناس أنها كانت من المحرّضين على الثورة به . وكانت تُنكر على علىّ فيما أعتقد أمرين آخرين : أحدهما لم يكن لعلىّ فيه خيرة ، فقد تزوّج فاطمةَ بنت رسول الله ورُزق منها الحسن والحسين ، فكان أبا الذرية الباقية للنبىّ ، ولم يُتح لها هى الولد من رسول الله ، مع أنه قد أتيح لمارية القبطية أم إبراهيم فى أواخر أيام النبىّ . فكان هذا العُقْم يؤذيها فى نفسها بعضَ الشىء ، ولا سيما وهى كانت أحبَّ نساء النبى إلى النبىّ .

أما الأمر الآخر فهو أن عليًّا قد تزوج أسماء الخثعميَّة بعد وفاة أبى بكر رحمه الله ، وأسماءُ الخثعمية هى أم محمد بن أبى بكر الذى نشأ فى حجر علىّ ، فكانت عائشة تجد على علىّ لهذا كله . وقد عادت إلى مكة مغاضبةً حين عرفت أن أهل المدينة قد بايعوا له . فلما رجعت إلى مكة عمدت إلى الحِجْر فاتخذت فيه ستراً وجعل الناس يجتمعون إليها فتحدّثهم من وراء الستر : تُنكر قتل عثمان وتقول : « لقد غضبنا لكم من لسان عثمان وسوطه ، وعاتبناه حتى أعتب وتاب إلى الله وقَبِل المسلمون منه ، ثم ثار به جماعة من الغوغاء والأعراب فماصُوه مَوْص الثوب الرخيص حتى قتلوه ، واستحلّوا بقتله الدم الحرام فى الشهر الحرام فى البلد الحرام » .

وجعل الناس يسمعون لها ويتأثرون بها . وكيف لا يتأثرون وهى أم المؤمنين وحبيبة رسول الله التى مات بين سَحْرها ونحْرها، وبنت أبى بكر الصدّيق الذى صحب النبى فى الهجرة وأنزل الله فيه ما أنزل من القرآن، والذى لم يكن المسلمون يعدلون به أحداً بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كان الناس إذاً يسمعون لها ويتأثرون بما كانوا يسمعون منها . وكان كتاب علىّ بتولية خالد بن العاص بن المغيرة على مكة قد وصل إلى مكة وهى أشد ما تكون من الثورة، لِمـَا كانت تسمع من حديث عائشة . فكان ما كان من رفض البَيْعة وإلقاء الكتاب الذى كتبه علىّ فى سقاية زمزم . وبعد ذلك بقليل أقبل طلحة والزبير فانضموا إلى مَنْ كان بها من الغاضبين لعثمان المخالفين لعلىّ . ومنذ ذلك اليوم أصبحت مكة مثابة لكل من كان ينكر إمامة علىّ من غير أهل الشام .

وقد جعل القوم يأتمرون، فاتفقوا على أن هذه الفتنة قد أحدثت فى الإسلام حدثاً خطيراً: قُتل الخليفة مظلوماً، ولا بُدّ من القيام فى هذا الأمر بما يرأب الصدع ويُقيم دين الله كما ينبغى أن يقام، وأول ذلك أن يُثأر لعثمان من الذين قتلوه مهما يكونوا، ثم يُردّ أمر المسلمين شورى بينهم فيختاروا لخلافتهم من يريدون عن رضى النفوس وهوى القلوب واطمئنان الضمائر والنصح للإسلام والمسلمين، لا عن عنف ولا استكراه ولا خوف من السيوف المسلطة على الأعناق. ثم جعلوا يأتمرون فى الطريقة التى ينفذّون بها ما صمّموا عليه. فرأى بعضهم الغارة على علىّ وأصحابه فى المدينة. ولكنهم ردوا هذا الرأى إشفاقاً من قوة أهل المدينة فيما يقول المؤرخون، وتحرّجاً من غزو مدينة رسول الله وإحياء قصة الأحزاب، كما فعل الثائرون بعثمان فى أكبر الظن. ورأى بعضهم الذهاب إلى الكوفة ونَصْب الحرب فيها لعلىّ وأصحابه. ولكنهم ردوا هذا الرأى أيضاً لمكان أبى موسى من الكوفة وكراهيته للفتنة، لأن أشد الثائرين بعثمان والجادّين فى أمره كانوا من أهل الكوفة، فكان من الطبيعى أن يمنعهم قومهم ولا يقبلوا فيهم الدنيّة. وآثروا الذهاب إلى البصرة لكثرة المضريّة فيها ولأن عبد الله بن عامر زعم لهم أن له بين أهلها صنائعَ وأن له عند كثير منهم مودة وإلفاً، فهم أجدر أن يسمعوا له ويطيعوا وأن يعينوه ويعينوا أصحابه على ما يريدون. ولم يخطر لهم أن يتخذوا مكة دار حرب لأنها حرم آمن لا تسفك فيه الدماء. وقد كفاهم معاوية أمر الشام وكان جديراً أن يكفيهم أمر مصر أيضاً إن غلبوا هم على العراق وما وراءه من الثغور. وقد جعلوا يستعدون للرحيل، وأمدّهم عبد الله بن عامر ويَعلى بن أمية بكثير من المال والظّهر والأداة، وانتدب الناس للسير معهم فكانت جماعتهم قريباً من ثلاثة آلاف.

وقد رأى طلحة والزبير أثر عائشة وأحاديثها فى الناس فرغبا إليها فى أن تصحبهم إلى البصرة فقالت: أتأمرانى بالقتال؟ قالا: لا، ولكن تعظين الناس وتحرّضينهم على الطلب بدم عثمان. فقبلت فى غير تردّد، وأقنعت حفصة

أم المؤمنين بالسير معها . ولكن أخاها عبد الله بن عمر ردّها عن أن تخالف ما أمر الله به نساء النبي في قوله عز وجل : (وَقَرْنَ فى بُيُوتِكُنَّ ولَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الأُولَى) إلى آخر الآية . فأقامت .

وأزمع القوم الرحلة ، وجاءت أخبارهم عليًّا فتحوّل عن قتال أهل الشام ليردّ هؤلاء الثائرين عما قصدوا إليه .

٧

وكذلك استقبل عليّ خلافة المسلمين بما لم يستقبلها أحد من الذين سبقوه . فلم يخالف أحد من أصحاب النبيّ عن أبي بكر إلا ما كان من سعد بن عُبادة رحمه الله ، ولم يخالف أحد منهم عن عمر ولا عن عثمان ، ولكن عليًّا يرى جماعة من خيار أصحاب النبيّ الذين مات وهو عنهم راض وشهد لكثير منهم بالجنة يخالفون عن بيعته ، منهم من يريد اعتزال الفتنة ومنهم من يريد أن ينصب له الحرب . ولعل الحسن بن عليّ قد أصاب الحق حين تحدث إلى أبيه فى طريقهما إلى البصرة بأنه كان قد أشار عليه أن يعتزل أمر عثمان فيترك المدينة أيام الفتنة فيلحق بمكة،فى بعض الروايات ، أو يلحق بماله بِيَنْبُع فى رواية أخرى . فأبى عليّ إلا أن يشهد أمر الناس . ثم أشار عليه بعد مقتل عثمان أن يعتزل الناس إلى حيث شاء من الأرض حتى تثوب إلى العرب عوازب أحلامها ، وقال له : لو كنت فى جُحر ضبّ لاستخرجوك منه فبايعوك دون أن تعرض نفسك لهم . ثم هو يشير عليه فى طريقه تلك بألا يأتى العراق مخافةَ أن يقتل بمضيعة لا ناصر له فيها . ولكن عليًّا لم يقبل من ابنه شيئاً مما أشار به : لم يكن ليترك الناس فى فتنتهم دون أن يؤدى ما أخذه الله به من أمر بمعروف ونهى عن منكر ، فنصح للخليفة ، يلين له مرة ويُخشن عليه مرة أخرى . ونصح للرعية ينهاها عن الإثم والعدوان ويعينها على أن تبلغ من خليفتها الرضى . ثم هو لم يطلب إلى الناس أن يبايعوه على ما كان يرى لنفسه من حق فى الخلافة وإنما استكرهه الناس على البيعة استكراهاً ، استكرهه الثائرون بعثمان ليأمنوا بعض عواقب ثورتهم ، واستكرهه المهاجرون والأنصار ليقيموا للناس إماماً ينفّذ فيهم أمر الله .

ولم يكن يستطيع أن يبقى فى المدينة منتظراً حتى يغزوه فيها معاوية وأهل الشام ، ولا أن يبقى فى المدينة منتظراً حتى يبلغ طلحة والزبير العراق فيحتازا ما وراءه من الثغور وما فيها من الفىء والخراج ، ثم يكرّا عليه بعد ذلك ليغزواه فى المدينة . لم يكن له بدّ إذاً من أن يستعد للخروج إلى الشام حين أبى معاوية عليه

البيعة . وحجته على معاوية ظاهرة . فقد بايعته الكثرة الكثيرة من المسلمين فى الحجاز والأقاليم وأصبحت طاعته لازمة .

وكان الحق على معاوية لو أنصف وأخلص نفسه للحق ان يبايع كما بايع الناس ثم يأتى إلى علىّ مع غيره من أولياء عثمان فيطالبوا بالإقادة ممن قتله . ولكن معاوية لم يكن يريد أن يثأر لعثمان بمقدار ما كان يريد أن يصرف الأمر عن علىّ ، وآية ذلك أن الأمر استقام له بعد وفاة علىّ رحمه الله ومصالحة الحسن إياه ، فتناسى ثأر عثمان ولم يتتبع قَتَلَتَه، إيثاراً للعافية وحقناً للدماء وجمعاً للكلمة .

ولم تكن حجة علىّ على طلحة والزبير وعائشة أقلّ ظهوراً من حجته على معاوية ، فقد بايع طلحةُ والزبيرُ ، وكان الحق عليهما أن يفيا بالعهد ويُخلصا للبيعة التى أعطياها ، فإن كرها الإذعان لعلى أو معونته على بعض ما كان يريد ، فقد كانا يستطيعان أن يعتزلا كما اعتزل سعد بن أبى وقاص وعبدُالله بن عمر وأسامة بن زيد ومحمد بن مَسْلمة وغيرهم من خيار أصحاب النبى ، فلا ينصبا حرباً ولا يدفعا الناس إليها ولا يفرّقا المسلمين على هذا النحو المنكر الذى ستراه .

وأما عائشة فقد أمرها الله فيمن أمر من نساء النبىّ أن تقرّ فى بيتها . وكان عليها أن تفعل أيام علىّ كما كانت تفعل أيام الخلفاء من قبله ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر دون أن تخالف عما أمرت به من القرار فى بيتها لتذكر ما كان يُتلى عليها من آيات الله والحكمة ولتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة كما فعل غيرها من أمهات المؤمنين . ولو قد أبت أن تبايع عليّاً أو تؤمن له بالخلافة لما وجدت منه شيئاً تكرهه ، فهى أم المؤمنين وحبيبة رسول الله وبنت أبى بكر . وكان من الطبيعى أن تلقى من علىّ مثال ما لقى المعتزلون على أقل تقدير . وآية ذلك أنها لم تلق منه بعد يوم الجَمَل إلا الكرامة والإكبار .

وقد يقال إن القوم لم يكونوا يغضبون لعثمان فحسب وإنما كانوا يريدون أن يُختار الخليفة عن مشورة بين المسلمين ، وكانوا يكرهون أن يفرض الثائرون بعثمان عليهم إماماً بعينه . ولكنّ أبا بكر لم يبايع بالخلافة عن مشورة من المسلمين وإنما كانت بيعته فلتة ، وقى الله المسلمين شرّها كما قال عمر ، كما أن عمر نفسه لم

يبايع عن مشورة من المسلمين وإنما عهد إليه أبو بكر ، فأمضى المسلمون عهده ثقةً منهم بالشيخين وحبًّا منهم لهما . ولم تكن الشورى التي تمت بها خلافة عثمان مُقنعة ولا مُجزئة ، فقد اختص عمر بها ستة من قريش على أن يختاروا واحداً منهم ، فاختاروا عثمان . وأكبر الظن أنهم نصحوا للمسلمين وتجنّبوا الفتنة والخلافَ جهدهم .

فكان الحق على طلحة والزبير والمعتزلين أيضاً أن يُمسكوا الأمر ما استمسك ، وأن يبايعوا لعليّ عن رضًى لا عن كره ، وأن يجتهدوا معه بعد ذلك في إصلاح ما أفسد الثائرون من جهة ، وفي وضع نظام مستقر دائم لاختيار الخليفة وتدبير أمور الدولة بحيث لا يتعرض المسلمون لمثل ما تعرضوا له من الفتنة والمحنة أيام عثمان من جهة أخرى . ولكن القوم كانوا يفكّرون بعقول غير عقولنا ، ويشعرون بقلوب غير قلوبنا ، ويجتهدون لدينهم ولأنفسهم ما استطاعوا .

وقد لقي أبو بكر في أول خلافته شيئاً يشبه من بعيد ما لقيه عليّ ، فقد انتقضت عليه عامّة العرب ورفضوا أن يؤدّوا إليه الزكاة . ولكن أبا بكر وجد من أصحاب النبي جميعاً أعواناً وأنصاراً ، فما أسرع ما أخمد الفتنة ثم رمى بالعرب وجوه الأرض فشغلهم بالفتح . وجاء عمر فدفعهم إلى الفتح دفعاً . وسار عثمان على سنة الشيخين فأمعن المسلمون في الفتح صدراً من خلافته . أما عليّ فلم يكد يرقى إلى الخلافة حتى تنكّر له قوم من الذين كانوا يُعيبون أبا بكر وعمر ، ثم لم يلبث الأمر كله أن انتشر وأصبح المسلمون حرباً على المسلمين ، ووقف أصحاب الثغور عند ثغورهم لا يتجاوزونها فاتحين ، بل ترك بعض أصحاب الثغور في الشام ثغورهم ليقاتلوا إخوانهم من أصحاب عليّ ، حتى طمع الروم في استرجاع ما أخذ منهم المسلمون ، وهمّوا أن يغيروا على الشام لولا أن اشترى معاوية منهم السلم بما كان يؤدى إليهم من المال ، حتى فرغ لهم بعد اجتماع الكلمة .

ومهما يكن من شيء فقد ارتحل طلحة والزبير وعائشة يريدون البصرة ، وصرف عليّ همه عن الشام وأزمع الخروج ليرد طلحة والزبير وعائشة عما صمّما عليه . وأتيح لمعاوية من الوقت والعافية ما مكّنه من أن يُحكم أمره ويهيئ جنده ويكيد لعليّ في مصر . وقد خرج عليّ من المدينة والناس كارهون لخروجه

متشائمون به . ولكن عليّاً لم يقدر أنه سيترك المدينة إلى غير رجعة إليها ، وإنما كان يظن أنه سيلقى هؤلاء القوم فيناظرهم ويبلغ منهم الرضى ويردّهم إلى الجماعة ، ويعود معهم آخر الأمر إلى المدينة فيقيم فيها كما أقام الخلفاء من قبله ، ويدبر منها أمر المسلمين كما كانوا يفعلون . ولكنه لم يكد يمضى فى طريقه ليلقى القوم حتى عرف أنهم فاتوه وأنهم سيبلغون البصرة وسيفتنون الناس فيها عن بيعتهم . وهو مع ذلك لم يستيئس من الصلح ، ولكنه احتاط للحرب حتى لا يؤخذ على غرة ، فمضى فى طريقه وأرسل إلى أهل الكوفة من يستنفرهم لنصره .

٨

وأقبل رسل عليّ إلى الكوفة فوجدوا أميرها أبا موسى الأشعريّ راغباً عن الفتنة كارهاً للقتال مخذّلاً للناس عن نصر إمامهم . وكانت حجته فى هذا يسيرة ، فإن الإمام لم يكن يريد أن يحارب عدوّاً من الكفار وإنما كان يوشك أن يحارب قوماً مثله يؤمنون مثله بالله ورسوله واليوم الآخر ، فكره أن يقاتل المسلمون المسلمين . رأى ذلك لنفسه ثم لم يلبث أن رآه لأهل مصره جميعاً . وأيسر ما يأمر به الدين أن يحب الإنسان للناس ما يُحب لنفسه . فقد كان أبو موسى إذاً ناصحاً لنفسه ولأهل الكوفة حين نهاهم عن القتال وخذلهم عن نصر الإمام . ولكن أبا موسى كان قد بايع عليّاً وأخذ له بيعة أهل الكوفة، وهذه البيعة تفرض عليه نصر الإمام بنفسه وبأهل مصره ، فإن تحرّج من ذلك استقال الإمام وترك عمله وانضم إلى أولئك المعتزلين فاجتنب من الفتنة ما يجتنبون . فأما أن يكون قد بايع عليّاً وقبل أن يكون له والياً ثم يأبى بعد ذلك أن ينفر مع أهل مصره حين استنفرهم الإمام فشيء لا يكاد يستقيم . ولذلك أرسل عليّ إليه يلومه ويعنفه ويعزله عن عمله ، وأرسل والياً جديداً هو قرَظة ابن كعب الأنصارى ، وأرسل الحسن بن عليّ وعمّار بن ياسر يستنفران الناس . ويروى بعض المؤرخين أن الأشتر استأذن عليّاً فى أن يلحق برسله إلى الكوفة ، فأذن له . فلما بلغ المصرَ جمع نفراً من قومه أولى بأس وأغار بهم على قصر الإمارة ، وأبو موسى يخطب الناس ، فاحتاز القصرَ وبيت المال ، واضطر أبا موسى إلى أن يعتزل العمل . ففعل وخرج من الكوفة حتى أتى مكة فأقام فيها مع المعتزلين . ونفر أهل الكوفة لنصر إمامهم ، فأتوه حيث كان ينتظرهم بذى قار .

وكان أمر البصرة أشد من أمر الكوفة تعقيداً ، فقد كان أهل هذا المصر بايعوا عليًّا واستقاموا لعامله عثمان بن حُنَيف . فلم يلبثوا إلا قليلا حتى أظلّهم الزبير وطلحة وعائشة ومن معهم من الجند . فأرسل إليهم عثمان بن حُنيف سفيرين من قبله ، هما عمران بن حُصَين الخزاعي صاحب رسول الله وأبو الأسود الدؤلي ، فلما أقبلا سألا القومَ : ماذا يريدون ؟ فقالوا : نطلب بدم عثمان ونجعل الأمر شورى بين المسلمين يختارون لخلافتهم من يشاءون . وهمّ السفيران أن يحاورا القوم في هذا الأمر ، فأبى القوم أن يسمعوا منهما فعادا إلى عثمان بن حُنيف ينبئانه أن القوم يريدون الحرب ولا يريدون غيرها ، فتأهّب عثمان للقتال وخرج في أهل البصرة حتى واقف القوم ، ثم تناظروا فلم يصلوا إلى خير . خطب طلحةُ والزبير فطلبا بدم عثمان وجَعْل الأمر شورى بين المسلمين . فردّ عليهما من أهل البصرة مَن كانت تأتيهم كتبُ طلحة بالتحريض على قتل عثمان . واختلف أهل البصرة وقال قوم : صَدَقا وتكلّما بالصواب . وقال قوم : كذّبا ونطقا بغير الحق . وارتفعت الأصوات واشتد الخلاف ، وجعل أهل البصرة يتسابّون .

ثم جيء بعائشة على جملها فخطبت الناس وأبلغت في الخطابة . لسان زلق ومنطق عَذْب وحجة ظاهرة القوة . تقول : غضبنا لكم من سوط عثمان وعصاه أفلا نغضب لعثمان من السيف ؟ ألا وإن خليفتكم قد قُتل مظلوماً ، أنكرنا عليه أشياء وعاتبناه فيها فأعتب وتاب إلى الله ، وماذا يطلب من المسلم إن أخطأ أكثر من أن يتوب إلى الله ويُعتب الناس . ولكن أعداءه سطوا عليه فقتلوه واستحلوا حُرماً ثلاثا : حُرْمة الدم وحرمة الشهر الحرام وحرمة البلد الحرام .

وقد استمع لها الناس في صمت عميق ، ولكنها لم تكد تُتمّ حديثها حتى عادت الأصوات فارتفعت يصدّقها قوم ويكذبها قوم ، وأولئك وهؤلاء يتسابّون ويتضاربون بالنعال . ومع ذلك ثبت مع عثمان بن حُنيف جند قويّ من أهل البصرة فاقتتلوا قتالاً شديداً وكثرت فيهم الجراحات ، ثم تحاجزوا وتداعوا إلى الهدنة

حتى يقدم على . وكتبوا بينهم كتاباً بذلك يُقِرّ عثمان بن حنيف على الإمرة ويترك له المَسْلحة وبيت المال . ويُبيح للزبير وطلحة وعائشة ومن معهم أن ينزلوا من البصرة حيث يشاءون .

وعاد أمر الناس إلى عافية ظاهرة . ومضى عثمان بن حُنيف على شأنه يصلى بالناس ويقسم المال ويضبط المصر . ولكن القوم الطارئين ائتمروا فيما بينهم فقال قائلهم : لئن انتظرنا مَقْدَم علىّ ليأخذن بأعناقنا . ثم أجمعوا على أن يبيتوا عثمان بن حُنيف ، وانتهزوا ليلة مظلمة شديدة الريح فعدوا على عثمان وهو يصلى بالناس العشاء الآخرة ، فأخذوه ووكلوا به من ضربه ضرباً شديداً ونتف لحيته وشاربيه ، ثم عدوا على بيت المال فقتلوا من حرسه أربعين رجلاً ، وحبسوا عثمان بن حنيف وأسرفوا عليه فى العذاب . هنالك غضب من أهل البصرة قوم أنكروا نقض الهدنة ، وكرهوا هذا العدوان على الأمير ، وكرهوا كذلك استئثار القوم ببيت المال ، واجتنبوا المدينة وخرجوا إلى بعض ضاحيتها يريدون الحرب وحماية ما اتفق القوم على أنه حرام لا ينبغى أن يعرض له أحد بسوء .

وكانت هذه الفتنة من رَبيعة يرأسها حكيم بن جَبَلة العبْدىّ . فخرج لهم طلحة فى قوم من أصحابه فقاتلوهم حتى قتلوا منهم أكثر من سبعين رجلاً ، وقُتل حكيم ابن جَبَلة بعد أن أبلى بلاء حسناً عظّم القصاص من أمره فيما بعد . فزعموا أن رجلاً من أصحاب طلحة ضربه ضربة قطعت رجله ، فحبا حكيم حتى أخذ رجله تلك المقطوعة فرمى بها من ضربه فصرعه وجعل يرتجز .

يا نفسُ لا تراعى   إن قطعوا كُرَاعى   إنّ معى ذراعى

ثم قاتل رغم جراحته وهو يرتجز :

ليس علىّ فى الممات عارُ   والعار فى الحرب هو الفرار

والمجد ألاّ يُفضح الذِّمار

وما زال يقاتل حتى قتل .

وكذلك لم يكتف هؤلاء القوم بنكث البيعة التى أعطوها علياً وإنما أضافوا إليها نكث الهدنة التى اصطلحوا عليها مع عثمان بن حُنَيف ، وقتلوا من قتلوا من أهل البصرة الذين أنكروا نقض الهدنة وحَبْس الأمير وغَصْب ما في بيت المال وقَتْل من قتلوا من حرسه ، وكلهم كان من الموالى . ولم يقف أمرهم عند هذا الحد وإنما همّوا أن يبطشوا بعثمان بن حُنَيف لولا أن ذكرهم بأن أخاه سهل بن حُنَيف يدبِّر أمر المدينة من قِبَل علىّ وبأنه خليق أن يضع السيف فى بنى أبيهم إن أصابوه بمكروه ، فخلّوا سبيله . وانطلق حتى أتى علياً فى بعض طريقه إلى البصرة . فلما دخل عليه قال له مداعباً : يا أمير المؤمنين ، أرسلتنى إلى البصرة شيخاً فجئتك أمرد .

ولم يكن من شأن هذه الأحداث التى أحدثها القومُ فى البصرة إلا أن تُوغر صدر علىّ وأصحابه ، وتزيد الفرقة بين أهل البصرة الذين انقسموا على أنفسهم شر انقسام وأشده نُكْراً ؛ فقد غضبت عبدُ القيس لحكيم بن جَبَلة فخرجت مكابرةً حتى أتت علياً فانضمت إلى جيشه . وأفلت من أصحاب حكيم حُرْقُوص ابن زُهير ، وهو من الذين ألّبوا أشد التأليب على عثمان ، فغضب له قومه وحموه وأبوا أن يسلموه ، ثم اعتزلوا الناس مع الأحنف بن قيس فى ستة آلاف .

واشتد الخلاف بين الناس بعد ذلك ، قوم يخرجون إلى علىّ مسالمين أو مكابرين ، وقوم ينتظرون مقدم علىّ لينضموا إليه ، وقوم ينضمون إلى طلحة والزبير ليحموا ثَقَل رسول الله عائشة ولينصروا حوارىّ رسول الله الزبير ، وقوم يريدون أن يعتزلوا الفتنة فراراً بدينهم ، فنهم من يتاح له الاعتزال ومنهم من يضطر إلى الفتنة اضطراراً . والرؤساء بعد ذلك ليسوا من الرضى وراحة الضمير بحيث يُحبون . فطلحة والزبير يختلفان أيهما يصلى بالناس ، ثم يتفقان بعد خطوب على أن يصليا بالناس هذا يوماً وهذا يوماً . وفى ضمير عائشة قلق لا يكاد يبين ، مرّت فى طريقها بماء فنبحتها كلابه وسألت عن هذا الماء فقيل لها إنه الحوأب . فجزعت جزعاً شديداً وقالت : رُدّونى ردونى ، قد سمعت رسول الله صلى الله عليه

وسلم يقول وعنده نساؤه : أيتكن تنبحها كلابُ الحوأب ؟ وجاء عبد الله بن الزبير فتكلف تهدئتها وجاءها بخمسين رجلاً من بنى عامر يحلفون لها أن هذا الماء ليس بماء الحوأب .

فُرقة ظاهرة واختلاف بيّن وقلق خفىّ فى الضمائر وأطماع تظهر على استحياء ثم تستخفى على كره من أصحابها ، كذلك كانت حال القوم حين أظلهم علىّ بمن معه من جند كثيف .

وكانت حال علىّ وأصحابه على خلاف ذلك من جميع الوجوه، فلم يَشُكّ علىّ قط فى أنه كان أحق الناس بالخلافة ، فلما جاءته الخلافة استمسك بها ورأى أن حقه قد صار إليه . وما كان الثائرون بعثمان ليكرهوا خيار أصحاب النبىّ الذين كانوا فى المدينة من المهاجرين والأنصار على غير ما يُحبون ، وهم الذين شهدوا المشاهد مع النبىّ وصبر كثيرٌ منهم على الفتنة وامتُحنوا فى مواطن الشدة على اختلافها فآثروا دينهم على دنياهم وآثروا الموت فى سبيل الله على الحياة فى سبيل أنفسهم . وقوم مثل هؤلاء لا يُستكرهون على شىء يرونه مخالفاً لدينهم، فهم قد بايعوا علياً إذاً راضين به مؤثرين له لا راهبين ولا راغبين . وآية ذلك أن فريقاً منهم لم يطمئنوا إلى بيعة علىّ فلم يُكرههم علىّ على بيعته وإنما خلّى بينهم وبين ما أرادوا من الاعتزال وقَبِل منهم ما قدّموا إليه من عذر، وقام دونهم يمنع الثائرين من أن يصلوا إليهم ، وجعل نفسه كفيلا لعبد الله بن عمر حين أبى عبد الله أن يأتىَ بكفيل . ولأمر ما سكت علىّ عن استكراه طلحة والزبير على البيعة ، فقد شاركا فى الإنكار على عثمان والجد فى أمره ، وكان كل واحد منهما ينظر إلى نفسه ، فخشى منهما وخشى عليهما الفتنة .

لم يكن علىّ إذاً متردّداً ولا شاكّاً ولا قلق الضمير حين همّ بقتال أهل الشام حين رفضوا البيعة وحين تحوّل عنهم إلى أمر طلحة والزبير حين أظهرا النُّكث والخلاف ، ولكنه فى بعض مواطنه قال كالنادم المحزون : لو علمت أن الأمر يبلغ هذا المبلغ ما دخلت فيه . يريد أنه لم يكن يظنّ بهذين الشيخين وبأم المؤمنين عائشة أن يبلغ الأمر بهم ما بلغ من تفريق كلمة المسلمين وحَمْل بعضهم على أن يسلّوا سيوفهم على بعض . ولو قد علم أن خلافته ستكون مصدر فتنة وفرقة لأعرض عنها إيثاراً لعافية المسلمين واجتماع كلمتهم ، ولصَبّر نفسه على ما تكره كما فعل حين بُويع للخلفاء الثلاثة من قَبْله . فأما وقد بايعه من بايعه من عامة المسلمين وخاصتهم

فقد مضى فى أمره على بصيرة ، وكَرِه أن يرجع بعد أن مضى ويُحجم بعد أن أقدم ، وكان كثيراً ما يقول : والله إنى لعلَى بيِّنة من ربى ماكَذَبت ولا كُذِبت ، ولا ضَلَلت ولا ضُلّ بى .

ولم يكن أصحاب علىّ فى طريقه إلى البصرة شاكّين ولا متردّدين ، إلا ما كان من أمر أبى موسى ، وقد ظهر أن أهل البصرة لا يشاركونه فى رأيه ، وإنما أراد أفراد أن يستوثقوا لأنفسهم فى أمر دينهم وفى أمر آخرتهم خاصة فسألوا علياً عما كان يريد من شخوصه وإشخاصه إياهم إلى البصرة ، فكان يجيبهم بأنه يريد أن يلقى بهم إخوانهم من أهل البصرة فيدعوهم إلى الصلح ويبيّن لهم الحق ويناظرهم فيه لعلهم أن يثوبوا فتجتمع الكلمة وتلتئم وحدة الجماعة . وكان هؤلاء النَّفر يسألونه : فإن لم يثوبوا إلى الحق ولم يقبلوا الصلح ؟ فكان يجيب : إذاً لا أبدؤهم بقتال حتى يبدءونا . فكانوا يسألونه : فإن بدءونا ؟ وهنالك كان يجيبهم : إذاً نقاتلهم على الحق حتى يرجعوا إليه . وقد أراد بعض هؤلاء أن يستوثقوا لأمر آخرتهم فسألوه : ما يكون أمر الذين يُقتلون منهم إن كانت حرب ؟ فأجابهم : بأن من قاتل صادق النية فى نصر الحق مبتغياً وجه الله ورضاه فصيره مصير الشهداء . وقد سأله رجل منهم ذات يوم : أيمكن أن يجتمع الزبير وطلحة وعائشة على باطل ؟ فقال . إنك لملبُوس عليك ، إن الحق والباطل لا يعرَفان بأقدار الرجال ، اعرف الحق تعرف أهله ، واعرف الباطل تعرف أهله . وما اعرف جواباً أروع من هذا الجواب الذى لا يعصم من الخطأ أحداً مهما تكن منزلته ، ولا يحتكر الحق لأحد مهما تكن مكانته ، بعد أن سكت الوحى وانقطع خبر السماء .

كان علىّ إذاً على بصيرة من أمره ، وكان أصحابه يمضون معه على بصائرهم يُشفقون من أن يَسلُّوا سيوفهم على قوم من المسلمين أمثالهم ، ولكنهم لايرون أن يُعرضوا عن ذلك إذا لم يكن منه بدّ .

وكان علىّ يريد أن يعارض القوم فى الصلح ويناظرهم على الحق ولا يبدأهم بقتال إلا أن يبدءوه به . فقد كان الأمر مختلفاً إذاً بين هذين الفريقين : أهل البصرة مختلفون كما قدّمنا آنفاً وأصحاب علىّ مؤتلفون ، وأهل البصرة متردّدون

بحيث يُجيبون . فطلحة والزبير يختلفان أيهما يصلى بالناس، ثم يتفقان بعد خطوب على أن يصليا بالناس هذا يوماً وهذا يوماً . وفى ضمير عائشة قلق لا يكاد يبين، مرّت فى طريقها بماء فنبحتها كلابه وسألت عن هذا الماء فقيل لها إنه الحوأب . فجزعت جزعاً شديداً وقالت : رُدّونى ردونى، قد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وعنده نساؤه : أيتكن تنبحها كلابُ الحوأب؟ وجاء عبد الله بن الزبير فتكلفَ تهدئتها وجاءها بخمسين رجلاً من بنى عامر يحلفون لها أن هذا الماء ليس بماء الحوأب .

فُرقة ظاهرة واختلاف بيِّن وقلق خفىّ فى الضمائر وأطماع تظهر على استحياء ثم تستخفى على كره من أصحابها ، كذلك كانت حال القوم حين أظلهم علىّ بمن معه من جُند كثيف .

فقد أرسل إليهم القَعْقاع بن عمرو صاحب رسول الله وأمَرَه أن يَعلم علْمهم ويسألهم عما يريدون ويناظرهم فيما خرجوا من أجله . فمضى القعقاعُ حتى أذِن له على عائشة ، فسألها عما أقدمها إلى البصرة . قالت : إصلاح بين الناس . فسألها أن تدعو طلحة والزبير ليقول لهما ويسمع منهما وهي شاهدة . فأرسلت إليهما . فلما أقبلا ، قال لهما القعقاع : إنى سألت أم المؤمنين عما أقدمها إلى هذه البلدة فقالت : إصلاح بين الناس ، أفأنتما متابعان لها أم مخالفان عنها ؟ قالا : متابعان . قال القعقاع : فأنبئانى عن هذا الإصلاح الذى تريدونه ، فإن كان خيراً وافقناكم عليه ، وإن كان شرًّا اجتنبناه . قال قائلهما : قُتِل عثمان مظلوماً ولا يستقيم الأمر إذا لم يُقَم الحدّ على قاتليه . قال القعقاع : فإنكم قد قتلتم من قَتَلة عثمان ستمائة رجل فى البصرة إلا رجلا واحداً هو حُرقوص بن زُهير ، غضب له قومه فخالفوا عنكم ، وغَضب لمن قُتل قومُهم ، فتفرقت عنكم مُضَر وربيعة وفسد الأمر بينكم وبين كثير من الناس ، ولو مضيتم فى الأمصار تفعلون فيها مثل ما فعلتم فى البصرة لفسد الأمر فساداً لا صلاحَ بعده . قالت عائشة . فأنت تقول ماذا ؟ قال القعقاع : أقول : إن هذا أمر دواؤه التسكين واجتماع الشمل حتى إذا صلح الأمر وهدأت الثائرة وأمن الناس واطمأن بعضهم إلى بعض نظرنا فى أمر الذين أحدثوا هذه الفتنة . وإنى لأقول هذا وما أراه يتم حتى يأخذ الله من هذه الأمة ما يشاء ، فقد انتثر أمرها وألمّت بها المُلمّات وتعرضت لبلاء عظيم . فاستحسن القوم كلامه ، أو أظهروا له أنهم يستحسنون كلامه وقالوا : قد رضينا منك رأيك ، فإن أقبل علىّ بمثل هذا الرأى صالحناه عليه . ورجع القعقاع راضياً فأنبأ عليًّا بما قال وبما قيل له ، فسُرَّ علىّ بذلك أشد السرور وأعظمه .

وكان الأفراد من أهل البصرة يُلمّون بمعسكر علىّ ، يأتى الرَّبعىّ من أهل البصرة قومَه من ربيعة الكوفة ، ويأتى المُضرىّ قومه المُضريّين ، ويأتى اليمنىّ قومه اليمانية ، فلا يكون الحديث بينهم إلا فى الصلح وإيثار العافية ، حتى ظن أولئك

وهؤلاء أن الأمر ملتئم بعد قليل . وهنا يروى الغُلاة من خصوم الشيعة قصة ما أراها تستقيم ، لأنها تخالف طبيعة الأشياء ولا يُسيغها إلا أصحاب السذاجة أو الذين يتكلّفون أو يريدون تصوير التاريخ كما كان بمقدار ما يريدون تصويره كما تمنّوا أن يكون . فقد زعم هؤلاء الغُلاة أن الذين تولّوا كِبْر الثورة بعثمان جزعوا حين أحسّوا أن أمر الناس صائر إلى الصلح وأشفقوا أن يكونوا ثمن هذا الصلح ، فاجتمع ناديهم بليل وجعلوا يُديرون الرأى بينهم على نحو ما تجد فى السيرة من اجتماع قريش بدار النّدوة وائتمارهم بالنبىّ وحضور ذلك الشيخ النّجدىّ الذى اتخذ إبليس صورته ليشهد أمر القوم ويشير عليهم .

وكان إبليسَ الجماعة فى هذه القصة ذلك اليهودىُّ الذى أسلم بأخرة ومضى فى الأمصار يفسد على الناس أمور دينهم وأمور دنياهم ويؤلّبهم على عثمان ، وهو عبد الله بن سبأ المعروف بابن السّوداء .

وقد جعل القوم يتشاورون وجعل إبليس القوم يُسفّه ما كان يُعرَض من الآراء حتى انتهوا إلى رأى أعجب به ابنُ السوداء كما أعجب إبليس برأى أبى جهل فى أمر النبىّ . وكان هذا الرأى الذى أعجب ابنَ السوداء هو أن يجزموا أمرهم ويكتموا سرّهم حتى إذا التقى الجمعان أنشبوا القتال عن غير أمر من علىّ ، فأثاروا الحرب وحالوا بين الفريقين وبين ما كانوا يريدون من الصلح .

وتمضى القصة فتروى أن القوم أنفذوا خطتهم كما دبروها ، فأنشبوا القتال على حين كان طلحة والزّبير وعلىّ قد أجمعوا أمرهم على الصلح . والتكلف فى هذه القصة أظهر من أن نحتاج إلى كثير عناء فى ردّها . فلم يكن علىّ وأصحابه من الغفلة بحيث تُدبَّر الخيانة فى معسكرهم ويدبرها قوم من قادتهم وهم لا يشعرون . وإنما الوجه الذى يلائم طبيعة الأشياء هو ما رواه المعتدلون من المؤرخين من أن القوم قد التقوا عند البصرة ووقف بعضهم لبعض وتناظروا ولم تغن المناظرة عنهم شيئاً ، فكان ما لم يكن بُدٌّ من أن يكون .

وكان كعب بن ثَوْر حَبْراً صالحاً من أحبار المسلمين ، كان فى الجاهلية نصرانيّاً ، فلما أسلم مضى فى إسلامه متتبعاً للخير متوخيّاً للبر متفقّهاً فى الدين ناصحاً لله وللناس مرتفعاً عن صغائر الأمور وأعراض الدنيا . وقد وثق به عمر فولاه قضاء البصرة ، وأثبته عثمان على قضائها ، ولم يعرض له عامل علىّ . فظل قاضياً حتى كانت الفتنة ، وأقبلت أم المؤمنين ومعها هذان الشيخان إلى البصرة . وحاول كعب أن يُصلح بين الناس فلم يبلغ من ذلك شيئاً . وحاول أن يحمل قومه الأزد على اعتزال الفتنة وتَرْك البصرة فلم يبلغ من ذلك شيئاً . وقال له رئيس القوم صَبِرَة بن شَيمان : ما أرى إلا أن نصرانيّتك القديمة قد أدركتك ، أتريد أن نترك ثَقَل رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأراد أن يعتزل الفتنة وحده بعد أن أبى قومه أن يتبعوه فلم يبلغ من ذلك شيئاً . عزمت عليه أم المؤمنين ألا يتركها ، فأقام معها مستجيباً لعاطفته الدينية من جهة ولعاطفة الجوار من جهة أخرى . كأنه قدّر أن أم المؤمنين حين عزمت عليه ألا يتركها قد أرادت أن تتخذه لها جاراً ، فأقام معها وجعل مع ذلك يحاول الإصلاح بين الناس . ولم يكن يُشفق من شيء كما كان يشفق من التقاء الجمعَين ووقوف بعض القوم لبعض . كان يرى أنّ فى ذلك تحريضاً على القتال ودعاء إليه . فما أسرع مايعزُب حِلْم الحليم وما أسرع ما يستخفّ الطيشُ سفهاء الناس فى مثل هذه المواطن .

ولكنّ الجمعين قد التقيا على تعبئة ذات صباح ، وخرج علىّ حتى كان بين الفريقين فدعا إليه طلحة والزبير ليكلّمهما . فخرجا إليه . وتواقف ثلاثتهم وسأل علىّ صاحبيه : ألم تُبايعانى ؟ قالا : بايعناك كارهين ولستَ أحق بها منّا ، فقال لطلحة : أحْرَزْتَ عِرْسك وخرجت بعرْس رسول الله صلى الله عليه وسلم تُعرِّضها لما تتعرَّض له . وقال للزبير : كنّا نَعُدّك من آل عبد المطلب حتى نشأ ابنُك ابن سَوْء ففرّق بينك وبيننا . يريد ابنه عبد الله وأمه أسماء بنت أبى بكر . تعصّب لأخواله من تَيْم فخرج مع عائشة خالته ومع طلحة التيمىّ من عمومته ولم

يحفل بأن أباه الزبير كان ابن صفيَّة بنت عبد المطلب عمة رسول الله وعمة عليّ . ثم قال عليّ للزبير : أتذكر يوم قال لك رسول الله : إنك ستقاتلني ظالماً لي ؟ فذكر الشيخ هذا الحديث وتأثّر به وتأثر كذلك بقرابته من عليّ والنبيّ ، وقال لعليّ : لو ذكرتُ ذلك ما خرجتُ ،والله لا أقاتلك أبداً .

ورجع إلى أم المؤمنين فقال لها : إني لا أرى في هذا الأمر بصيرة . قالت : فتريد ماذا ؟ قال : أريد أن أعتزل الناس . وهنا يختلف المؤرخون . فقوم يرون أنه مضى لوجهه حتى أدركه ابن جُرْموز فقتله في وادي السِّباع بأمر من الأحنف ابن قيس أوعن غير أمر منه . وقوم يقولون إن ابنه عبد الله عيَّره الجُبْنَ وقال له : رأيت رايات ابن أبي طالب وعلمت أن تحتها الموت فجبُنْتَ . وما زال به حتى أحفظه . فقال له الزبير : ويلك ! إني قد حلفت لا أقاتل عليّاً . فقال عبد الله ما أكثر ما يكفّر الناس عن أيمانهم ،فأعْتِق غلامك سَرْجيس وقاتل عدوَّك . ففعل وانهزم مع الناس .

ونحن إلى الرواية الأولى أميل ، فقد كان الزبير رقيقَ القلب شديد الخوف من الله ، شديد الحرص على مكانته من رسول الله . وكانت حيرته شديدة منذ وصل إلى البصرة ورأى ما رأى من افتتان الناس واختلافهم . وازدادت حيرته حين عرف أن عمَّار بن ياسر قد أقبل في أصحاب عليّ . وكان المسلمون يتسامعون بقول النبيّ صلى الله عليه وسلم لعمَّار : ويحك يا ابن سُميَّة ! تقتلك الفئة الباغية . فلما عرف أن عماراً في جيش عليّ أصابته رِعْدة شديدة إشفاقاً من أن يكون من هذه الفئة الباغية . وقد تماسك مع ذلك حتى لقي عليّاً وسمع منه ما سمع ، وهنالك استبانت له بصيرته . فانصرف عن القوم ولم يقاتل حتى قُتل غيلة بوادي السباع . وقد حزن عليّ لمقتله وبشّر قاتله بالنار ، وأخذ سيف الزبير بيده وهو يقول : سيف طالما جلا الكُرَب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

مضى الزبير إذاً ولم يقاتل ، وكأن انصرافه قد فَتَّ في أعضاد أصحابه فلم يقتتلوا إلا ضَحْوة يومهم ذاك ثم انهزموا . وجعل طلحة يحرِّضهم وهو جريح ، أصابه سهم طائش في بعض الروايات ، أو سهم رماه به مرْوان بن الحكم ، وكان من أصحابه . وكان مروان يقول : والله لا طالبت بثأر عثمان بعد اليوم .

وقال لبعض ولد عثمان : لقد كفيتُك ثأر أبيك من طلحة .

ومهما يكن من شيء فقد انهزم الناس وأصيب طلحة وعرّف أنه ميت ، فجعل ينظر إلى دمه وهو ينزف ويقول : اللهم خذ لعثمان منى حتى يرضى . ثم أمر مولاه أن يأوى به إلى مكان ينزل فيه . فأوى به بعد جهد إلى دار خرِبة من دور البصرة ، فمات فيها بعد ساعة .

وظن الناس أن الحرب قد وضعت أوزارها وأن النصر قد كتب لعلىّ وأصحابه . وكان علىّ قد تأذن فى أصحابه ألا يُجهزوا على جريح ولا يتبعوا هارباً ولا يدخلوا داراً ولا يحوزوا مالا ولا يؤذوا امرأة . وأن علياً لفى بعض أمره يظن أن الحرب قد وضعت أوزارها وأن النصر قد أتيح له ، وإذا هو يسمع عجيجاً وضجيجاً شديدين. فيسأل فيقال له : إنما عائشة تحرّض الناس وتلعن قتلة عثمان ، والناس يلعنون معها قتلة عثمان . فيقول علىّ : يلعنون قتلة عثمان ! والله ما يلعنون إلا أنفسهم ، فهم قتلوه . اللهم العن قتلة عثمان .

وكان عليّ صباح ذلك اليوم ، حين استيأس من طلحة وعرف أنه يأبى إلا الحرب . قد كفّ أصحابه كفّاً شديداً عن أن يبدءوا بالقتال حتّى يأمرهم . وجعل شبَاب أهل البصرة والسفهاء منهم خاصة يحاولون إنشاب القتال فينضحون أصحاب عليّ بالنبل حتّى أصابوا منهم نفراً . فجعل أصحاب عليّ يحملون من أصيب منهم إلى عليّ ويتعجّلون إذنه بالقتال ، وهو مع ذلك مستأنٍ لا يجيبهم إلى ما يطلبون . فلما كثر ذلك من أهل البصرة دفع عليّ مصحفاً إلى فتى من أهل الكوفة وأمره أن يقف به بين الصفّين وأن يدعو القوم إلى ما فيه . وأنذره بأنه مقتول إن نهض بهذه المهمة . فشك الفتى غير طويل . ثم أخذ المصحف وانطلق به حتّى وقف بين الصفين وجعل يدعو القوم إلى ما فيه . فرشقوه بالنبل رشقاً واحداً فقتلوه . وتكثر الرواة بعد ذلك فقالوا : رفع الفتى المصحف بيمينه فقطعوها ، فأخذ المصحف بشماله فقطعوها ، فأخذ المصحف بأسنانه أو بين منكبيه حتّى قُتل .

والشيء المحقّق أن الفتى قُتل وهو يدعوهم إلى ما فى القرآن . فقال عليّ لأصحابه : الآن طاب الضِّراب . وكانت الموقعة الأولى صدرَ النهار ، وكانت الهزيمة حتّى زالت الشمس . فلما انهزم الناس أقبل المتحمّسون من أصحاب طلحة والزبير ، وعلى رأسهم عبد الله بن الزبير فى أكبر الظن ، فأخرجوا أم المؤمنين من بيتها فى المسجد الذى استترت فيه وأدخلوها هوْدجاً مصفّحاً بالدروع ، وحملوها على جملها ذاك ، وأشهدوها ميدان الوقيعة . فثاب المنهزمون إلى أمهم ورأوا أنهم لا يحمون أمهم فحسب وإنما يحمون زوج رسول الله وحبيبته . فثارت فى نفوسهم عُقدة غريبة . فيها الشعور الدينى القوىّ ، وفيها الشعور بحرمة العِرْض وحماية الأم والذود عن الذّمار . واجتمع الناس حول أمهم مستقتلين يكرهون أن تُصاب أم المؤمنين بأذى فى بلدهم وهم شهود .

وكان جمل عائشة ، فيما يقول بعض من شهد الوقْعة ، رايةَ أهل البصرة يلوذون

به كما يلوذ المقاتلون براياتهم . وما أسرع ما أفاق المنتصرون من انتصارهم حتى أقبلوا على خصمهم أولئك يريدون أن يهزموهم آخر النهار كما هزموهم وجه النهار . وهنا يظهر كعب بن ثوْر قاضي البصرة وقد برز بين الصفَّين وعلَّق في عنقه مصحفاً وجعل يدعو أولئك وهؤلاء إلى كتاب الله وما فيه وينهاهم عن الشر . ولكن أصحاب عليّ رشقوه بالنّبل رشقاً واحداً فقتلوه . كأنهم ثأروا لفتاهم ذاك الذي قُتل وهو يحمل المصحف بين الصفين حين ارتفع الضحى .

واقتتل الفريقان قتالاً شديداً منكراً ، يريد أصحاب عليّ ألا يُفلت منهم النصر بعد أن أحرزوه ، ويريد أصحاب عائشة أن يحموا أم المؤمنين ويموتوا دونها . واقتتل القوم حتى كره بعضهم بعضاً وحتى ملّ بعضهم بعضاً وحتى يئس بعضهم من بعض . ثم هذه صيحات ترتفع في الجو تأتي من يمين ومن شمال ، وتدعو المقاتلين إلى أن يطرِّفوا ، أي إلى أن يقطع بعضهم أطراف بعض . وهم يُقبلون على هذا النُّكْر من الأمر يقطع بعضهم أيدي بعض ويقطع بعضهم أرجل بعض . ولا يكاد أحدهم تقطع يده أو رجله حتى يَسْتقتل إلى أن يُقتل . وقد كاد أصحاب عائشة أن ينهزموا . ولكن الجمل قائم لا يَريم ، وعليه هودجه لا يضطرب ، وفي الهودج أم المؤمنين تحرِّض الناس فتردهم إلى الحماسة والجرأة بعد الخوف والفرق ، وهم يثبتون حول الجمل لا يريدون انتصاراً ولا يريدون فوزاً وإنما يريدون أن يحموا أمهم ، وراجزهم يرتجز :

يا أُمنا عائش لا تُراعي كل بَنيك بطل المِصَاعِ

وهي تتحدَّث إلى من عن يَمينها محرِّضة ، وإلى من عن شمالها محمِّسة ، وإلى من أمامها مذكِّرة . وأصحاب عليّ يُلحون على هؤلاء المستقتلين وراجزهم يرتجز :

يا أُمنا أَعَقَّ أُمٍّ نعلم والأُم تَغْذو ولْدها وتَرْحم
أَما تَرَيْن كم شجاع يُكْلَم وتُختَلى منه يدٌ ومِعْصَم

فيجيبه راجز أصحاب عائشة :

نحنُ بني ضَبَّةَ أصحابُ الجملْ نُنازل القِرْنَ إذا القرن نزل

والقَتْل أشهى عندنا من العَسَل نَنْعَى ابن عفَّان بأطراف الاسل
رُدُّوا علينا شيخنا ثم بَجَل

وما يزال أولئك يستقتلون وهؤلاء يشتدّون عليهم حتى كان لا يأخذ بخطام الجمل أحد إلا قُتل من دونه . وقد رأى عليّ هذا القتل الذريع فراعه نُكْر ما رأى وصاح بأصحابه : اعقروا الجمل فإن فى بقائه فناء العرب . فيهوى إليه رجل من أصحابه بالسيف فيعقره . ويخرّ الجمل إلى جنبه وله عَجيجٌ منكر لم يُسمع مثله . وهنالك ،وهنالك فحسب يتفرق حُماة الجمل كما ينتشر الجراد . ويقبل محمد بن أبي بكر وعمّار بن ياسر فيحتملان الهودج ويُنحّيانه ناحية، ويضرب محمد على هودج أخته فُسطاطاً،ويأمره على أن ينظر أأصابها مكروه . فيُدخل رأسَه فى الهودج فتسأله : من أنت ؟ فيقول أبغض أهلك إليك . فتقول : ابن الخثعمية ، فيقول: نعم أخوك محمد . ويسألها : أأصابها مكروه ؟ فتقول : مِشْقص فى عَضُدى فينتزعه . ويأتى عليٌّ مُغْضباً،ولكنه على ذلك متماسك يملك نفسَه ويضبطها أشدّ الضبط ، فيضرب الهودج برمحه ويقول : كيف رأيت صنيع الله يا أخت إرَم . فتقول : يا ابن أبي طالب ، ملكت فأسْجح . فيقول عليّ . غفر الله لك . وتُجيب عائشة : وغفر لك .

ثم يأمر عليٌّ محمدَ بن أبي بكر أن يدخل أخته داراً من دور البصرة . فيحملها حتى يُدخلها دار عبد الله بن خَلَف الخُزاعى . فتقيم فيها أياماً .

وكذلك اقتتل الناس حول طلحة حتى انهزموا وجه النهار وقُتل طلحة . ثم اقتتلوا آخر النهار حتى انهزموا حين أقبل الليل وسلمت عائشة . ورأى المسلمون يوماً لم يروا مثله شناعة ولا بشاعة ولا نكراً . سلّ المسلمون فيه سيوفهم على المسلمين ، وقتل خيارُ المسلمين فيه خيارَ المسلمين . فقتل من أولئك وهؤلاء جماعة من جِلّة أصحاب النبي ومن خيرة فقهاء المسلمين وقرّائهم . وحزن عليّ لذلك أشدّ الحزن وأقساه . فكان يتعرف القتلى من أصحابه ومن خصّمه ويتوجع لأولئك وهؤلاء ، ويترحم على أولئك وهؤلاء ، ويتجه إلى الله ربه فيقول :

أشكو إليك عُجَرى وبُجَرى شفيتُ نفسى وقتلت مَعْشرى

وكأن العرب فى ذاك اليوم قد عادت إلى جاهليتها الجهلاء وضلالتها العمياء ، ونسيت دينها السمح أو كادت تنساه . أو كأن العرب فى ذلك اليوم قد جُن جنونها وفقدت صوابها فلم تدر ما تأتى ولا ما تدع . أو كأن الفتنة قد شُبِّهت على العرب حتى رأى المسلمون أنفسهم فى ظلمة ظلماء لا يرون ، حتى كأنهم الذين وصفهم الله فى القرآن حين قال : (أو كصيّبٍ من السماءِ فيه ظلماتٌ ورعدٌ وبرق) إلى آخر الآيات . إلا أنهم كانوا مسلمين ، يرى كل منهم أنه يغضب لله ويقاتل ويُقتل ويموت فى سبيل الله . ولهذا لم يُبعد عليّ حين قال لأصحابه حين سألوه قبل الموقعة : إن من قاتل فقتل وهو لا يريد بقتاله إلا الحق ولا يبتغى به إلا رضى الله فهو شهيد ؟ وقد أنفذ عليّ أمره كله ، فأمّن الناس إثر سقوط الجمل ، واشتدّ على أصحابه فى ألا يُجهزوا على جريح ولا يتبعوا فارّاً ولا يدخلوا داراً ولا يهتكوا ستراً . ولم يقسم بين أصحابه غنيمة إلا ما أجلب به أهل البصرة من خيل أو سلاح ، لم يكن ملكاً لبيت المال . بل تجاوز إلى أبعد من ذلك وأمر بجمع ما ترك أهل البصرة فى الميدان وحمله إلى المسجد ونادى مناديه فى الناس : من عرف منه شيئاً فليأخذه .

وكأن الليل قد ردّ إلى القوم عوازب أحلامهم ، وأصبحوا جميعاً محزونين

لا فرق فى ذلك المنتصر والمنهزم . وأقبل علىٌّ من غده فصلّى على القتلى جميعاً من شيعته ومن خصمه . وأذن للناس فى دفن موتاهم . وجمع الأطراف الكثيرة فاحتفر لها قبراً كبيراً ودفنها فيه . وأقام فى معسكره خارج البصرة فلم يدخل المدينة إلا بعد ثلاث .

وواضح أن هذه الموقعة المنكرة قد تركت فى نفوس المسلمين أعمق الأثر وأبقاه، وقد كانت على ذلك كله مصدراً خصباً لخيال القصّاص والشعراء ، فقصّوا حتى أسرفوا فى القصص، وأضافوا من رائع الشعر والرجز إلى المقتتلين ما لم يقولوا إلا أقلّه . وهم على ذلك لم يبلغوا وصف هذه الموقعة الشنيعة البشعة . ومتى استطاع الأدب على خصبه ونفاذه وقوته أن يصور ما فى قتال الإخوان للإخوان ، وفتك الآباء بالأبناء ، والأبناء بالآباء . وتجاوُز هذه الحرمات التى لا يباحُ للناس أن يتجاوزوها، فيُصيب بتصويره الغاية ويبلغ به المدى؟! وصدق من قال من أصحاب النبيّ حين بلغه قتلُ عثمانَ : لقد كنتم تحتلبونها لبناً فلن تحتلبوها منذ اليوم إلا دماً .

وقد كثُر القتلى والجرحى من أولئك وهؤلاء . واختلف الرواة فى إحصاء القتلى ، فمنهم من بلغ بهم عشرين ألفاً ، ومنهم من لا يتجاوز بهم عشرة آلاف . وفى هذا الإحصاء وأمثاله إسراف كثير . ولكن الشىء الذى ليس فيه شك هو أن كثيراً جداً من دور البصرة والكوفة قد سكنها الحزن والثُّكل والحداد . وكان ذلك ابتداء مشئوماً لخلافة كان يرجى أن تكون كلها بركة ويُمناً للمسلمين .

ولكن ستة أشهر لم تمض على خلافة علىّ حتى جرت دماء المسلمين غزاراً بأيدى المسلمين وأصبح بأسهم بينهم شديداً .

١٥

ودخل عليٌّ البصرة بعد الموقعة بثلاثة أيام ، فجاء المسجد فصلى فيه وجلس للناس صدر النهار ، فلما أمسى ركب لزيارة عائشة ومعه جماعةٌ من أصحابه . فبلغ دار عبد الله بن خلف الخُزاعى ، وكانت أعظم دار فى البصرة، ولم يكد يدخل حتى لقيته ربةُ الدار صفيّة بنت الحارث العبدريّة شرَّ لقاء . قالت له : يا عليّ ، يا قاتل الأحبة، يا مفرِّق الجماعة . أيتَمَ الله بنيك منك كما أيتمت بنى عبد الله . وكان زوجها عبد الله بن خلف وأخوه عثمان قد قُتلا فى الموقعة . فلم يُجبها عليّ وإنما مضى حتى دخل على عائشة . فلما جلس إليها قال : جبّهتنا صفية، أما إنى لم أرها منذ كانت جارية حتى اليوم . ثم أخذ معها فيما كان بينهما من حديث . فلما انصرف تلقّته صفية فأعادت عليه مقالتها تلك . وأراد عليّ أن يسكتها عنه فجعل يقول ، وهو يشير إلى أبواب الحُجرات المغلقة : لقد هممت أن أفتح هذا الباب وأقتل من وراءه ، وأن أفتح هذا الباب وأقتل من وراءه . فلما سمعت صفيّة ذلك سكتت عنه وخلّت له طريقه . وكان فى تلك الحُجرات كثير من الجرحى من أصحاب عائشة ، آوتهم عائشة إلى هذه الدار وأمرت بتمريضهم حتى يبرءوا . وكان عليّ يعلم بمكانهم . ولا شك فى أنه لم يكن يريد أن يقتل منهم أحداً وإنما خوّف تلك القرشية فخلّت بينه وبين طريقه .

وهمّ بعض أصحاب عليّ أن يبطشوا بهذه القرشيّة، فزجرهم عليّ زجراً عنيفاً وقال : لقد كنا نؤمر بالكفّ عن النساء وهن مُشركات ، ولقد كان الرجل ينال المرأة بالضّربة فيُعيَّر بذلك عقبُه . فلا يبلغنى أنّ أحداً منكم قد عرض لامرأة بسوء إن آذتكم وشتمت أمراءكم فأنزل به أشد العقوبة .

ولم يكد يبعُد عن الدار قليلا حتى أقبل رجل فأنبأه بأن اثنين من أهل الكوفة قاما على باب الدار فقالا لعائشة قولاً غليظاً ، يرفعان به صوتهما لتسمعه .

قال أحدهم : جُزيت عنا أمّنا عُقوقا .

وقال الآخر : يا أمّنا توبى لقد خطئت .

فأرسل عليٌّ من جاءه بالرجلين وبمن كان معهما من الرجال . فلما تثبّت أنهما قالا مقالتهما تلك أمر بقتلهما بادى الرأى ، ثم خفّف العقوبة فأمر بأن يضرب كل واحد منهما مائة سوط .

وسار عليٌّ فى أهل البصرة سيرةَ الرجل الكريم الذى يقدِر فيعفو ويملك فيسجح ، وكان يقول : سرت فى أهل البصرة سيرةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أهل مكة .

ثم جلس لهم فبايعوه على راياتهم ، بايعه منهم الصحيح والجريح . ثم عمد بعد ذلك إلى بيت المال فقسّم ما وجد فيه على الناس . وقوم يرون أنه قسمه فى أصحابه دون خصمه من أهل البصرة ووعدهم مثل ذلك إلى أعطياتهم إن أظفرهم الله بأهل الشام ، والأشبه بسيرة على أنه قسم المال فى الغالبين والمغلوبين جميعاً . ومن أجل ذلك غضب الثائرون بعثمان لأنه لم يفرّق بين شيعته وبين عدوّه ، وغضبوا كذلك لأنه لم يُبح لهم أن يأخذوا ما ظفروا به بعد الهزيمة . وقال قائلهم : أحلّ لنا دماءهم وحرّم علينا أموالهم .

ويقول بعض المؤرخين : إن هؤلاء الثائرين ، الذين يُحب الطبرى ورُواته أن يُسموهم السبئية ، قد خفّوا من البصرة إلى الكوفة فأعجلوا عليّاً واضطروه إلى أن يلحقهم مخافة أن يُحدثوا فى الكوفة حدثاً . وأكبر الظن أن الأمر لم يبلغ بهم هذا الحدّ وإنما جَمجموا ببعض ما وجدوا من الغضب ثم لم يزيدوا على ذلك ، كما جمجم الأشتر ، فيما يروى ، حين ولّى عليٌّ على البصرة عبدَ الله بن عباس . وقال الأشتر ، فيما يروى : ففيم قتلنا الشيخ إذاً ؟ عبد الله على البصرة وعُبيد الله على اليمن وقُثَم على مكة ، وكلهم من بنى العبّاس . ويزعم رواةُ الطبرىّ أن الأشتر غضب وارتحل مسرعاً إلى الكوفة . فأمر عليٌّ بالرحيل ليلحق به قبل أن يحدث حدثاً .

وما أرى إلا أن هذا كله قد تكلّفه الرواة بأخرة . وما أكثر ما كان الناس ينكرون من خلفائهم هذا الأمر أو ذاك ثم لا يتجاوزون هذا الإنكار بألسنتهم . أنكروا على أبى بكر ، وأنكروا على عمر ، وأنكروا على عثمان فى الصدر الأول من خلافته ، ثم لم يزيدوا على ذلك شيئاً .

والناس يختلفون فى المدة التى أقامها عليٌّ بالبصرة ، قوم يرون أنه لم يُقم فيها

إلا شهراً أو أقل من شهر ، وقوم يرون أنه أقام فيها شهرين أو أكثر قليلا . ونميل نحن إلى أنه لم يُطِل المقام فى البصرة وإنما كانت أمامه أمور دبّرها ثم ارتحل إلى الكوفة مُتعجّلا يريد أن يستعدّ لحرب أهل الشام بعد أن صرفته عن حربهم فتنة هؤلاء الذين كان يسمّيهم الناكثين ؛ لأنهم بايعوا ثم نقضوا البيعة . وكان من أهم هذه الأمور أن يفرغ من أمر الموقعة وأعقابها ، وأن يطمئن على أمر البصرة بعد انصرافه عنها . وقد جعل يستصلح الناس فيعفو عنهم ويُعطيهم الرضا ويؤمّن الخائف منهم ويتجاهل مكان العدو .

وقد أظهر الجهل بما كان من أمر جماعة بنى أمية ، أصابتهم جراحات فى الموقعة وأشفقوا ألا يؤمّنهم علىّ فتشتّتوا فى الأرض وطلبوا الجوار إلى أشراف العرب ، فأجاروهم وأقاموا على تمريضهم ثم أبلغوهم مأمنهم . وعلىّ يعلم هذا كله ويُخفى علمه به لأنه لم يكن يريد بأحد بعد الموقعة شرًّا . وكان يعلم أن عائشة قد ضمّت إليها كثيراً من الجرحى فلم يعرض لهم بسوء ولم يُخفِ علمه بمكانهم وإنما قاله لصفيّة بنت الحارث حين اعترضته شاتمةً له داعية عليه . واستخفى عبدُ الله ابن الزبير بجراحاته الكثيرة ثم أرسل إلى أم المؤمنين ينبئها بمكانه وطلب إلى رسوله ألا يؤذِن بذلك محمد بن أبى بكر . فذهب الرسول فأبلغ أم المؤمنين . فأرسلت إلى أخيها محمد وقالت له : اذهب إلى مكان ابن أختك فأتنى به . وذهب محمد إلى ابن أخته فأتى به وجعل يتشاتمان طول الطريق ، يشتم محمد عثمان ويشتم عبد الله خاله محمداً .

وكذلك ثاب الناس إلى كثير من العافية والإسماح ، وجعلت ثورة القلوب تهدأ قليلا قليلا وتترك فيها حسرات تختلف قوة وضعفاً باختلاف هذه القلوب .

وكانت عائشة ، فيما يروى المؤرخون والمحدثون ، أشدّ المغلوبين حسرة وأعظمهم ندماً وكانت تتلو : (وقَرْنَ فى بُيُوتكنّ) إلى آخر الآية، ثم تبكى حتى يبتلّ خِمارُها . وكانت تقول : وددتُ لو أنى متُّ قبل هذا اليوم بعشرين عاماً . وكانت تقول بعد رجوعها إلى الحجاز : والله إن قعودى عن يوم الجمل لأحبّ إلىّ لو أتيح لى من أن يكون لى عشرة بنين من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان أشدّ الناس حسرةً وأعظمهم أسى بين الغالبين علىّ نفسه، فقد كان

يقول : لو عرفت أن الأمر يبلغ بنا ما بلغ لما دخلتُ فيه . وكان يقول :

أشكو إليك عُجَرى وبُجَرى شفيتُ نفسى وقتلت مَعْشرى

وكان يقول : وددت لو أنى متّ قبل هذا اليوم بعشرين سنة ، كما كانت تقول عائشة .

وكان من الأمور ذات الخطر التى أراد علىّ أن يفرغ منها قبل أن يترك البصرة ردّ عائشة إلى المدينة لتقرّ فى بيتها كما أمرها الله . وقد تعجّلها فى الرحيل فاستأجلته أياماً ، كأنها كانت تريد أن تطمئن على الجرْحى . فأجلها علىّ أياماً ثم جهزّها بجهاز ملائم لمكانتها ، وأرسل معها جماعة من رجال ونساء . وخرجت عائشة يوم سفرها فسلم الناس عليها وودّعوها ، وأمرتهم بالخير وأنبأتهم أنه لم يكن قط بينها وبين علىّ إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها . وصدّق علىّ أمام الناس مقالتها وشيّعها وشيّعها الناس معه حتى أبعدوا ، وأمر بنيه فساروا معها يوماً كله ثم رجعوا .

وأمّر علىّ على البصرة عبد الله بن عباس ، وما نرى أنه كان يستطيع أن يؤمر غيره . فالكثرة فى البصرة مضريّة ، وما ينبغى أن يؤمَّر عليها بعد الفتنة إلا رجل من مضر شديد القرابة من علىّ . وأمّر علىّ زياداً على الخراج ، وارتحل إلى الكوفة ، فلما بلغها وجد فيها حزناً وخوفاً ، وجد الحزن عند الذين أصيب أبناؤهم وإخوانهم وآباؤهم ، ووجد الخوف عند الذين لم ينفروا معه فأشفقوا أن يسخط عليهم . ولكنه واسى أولئك واستصلح هؤلاء وجعل يستعد لحرب أهل الشام .

ولم يُضع شيئاً من وقته ولم يرفُق بنفسه ولا بأصحابه ، فلم يكد يفرغ من حرب الناكثين كما كان يسمّيهم حتى جعل يتأهّب لحرب القاسطين كما كان يسمّيهم كذلك . وصل إلى الكوفة فى أواخر رجب فلم يُقم فيها إلا أربعة أشهر استعد أثناءها للحرب .

ولم يكن أصحابه يرفُقون بأنفسهم أيضاً ، فقد كان المنتصرون منهم حراصاً على أن يُضيفوا نصراً إلى نصر ، وكان المتخلّفون منهم حراصاً على أن يعوّضوا ما فاتهم به أصحابهم الذين قاتلوا يوم الجمل ، وأن يُرضوا عليّاً عن أنفسهم بما يُبلون فى الحرب المقبلة من بلاء .

وكانت الحرب المقبلة محتاجة إلى البلاء الحسن كله ، فالخصم فى الشام عنيف يحيط به جُند أولو قوّة وأولو بأس شديد . فأما عنف هذا الخصم وهو معاوية فيمكن أن نقدره حين نلاحظ أنه ابن أبى سفيان الذى حارب النبيّ بعد بَدْر فأبلى فى حربه أشد البلاء وأقواه ، وأظهر فى هذه الحرب قوة وقسوة وكيداً ودهاء ، ولم يُسلم إلا بأخرة حين لم يرَ من الإسلام بُدّاً ، وحين لم يكن له إلا أن يختار بين الإسلام والموت . وقد ورث معاوية عن أبيه قوته وقسوته وكيده ودهاءه ومرونته كذلك . ولم تكن أم معاوية بأقلّ من أبيه تنكراً للإسلام وبغضاً لأهله وحَفيظة عليهم . وهم قد وتروها يوم بدر ، فثأر لها المشركون يوم أحد ، ولكن ضِغْنها لم يهدأ وحَفيظتها لم تسكن حتى فتحت مكة فأسلمت كارهة كما أسلم زوجها كارهاً . وقد ولّى عمرُ معاويةَ على الشام فلم يعزلْه عنها على كثْرة ما كان عمر يحب أن يُغير العمّال . رضى عن سياسته للشام وجُند الشام وعن ثباته للروم . وكان عمر يكفكف من غُلَواء معاوية وطموحه إلى الفتح ورغبته فى أن يغزو البحر كما غزا البر . ثم جاء عثمان فغير عمّال عمر جميعاً بعد ولايته بوقت قصير إلا معاوية ، فإنه أقرّه على عمله رضى عنه كما رضى عنه عمر ، وركن إليه أكثر مما ركن إلى غيره من العمال لقرابته وقوته وحسن تدبيره للأمر وحسن تصرّفه فى المُشكلات

وخروجه من المآزق ونفوذه فى الخطوب حين تدلهمّ . وكان إذا ضاق عمّاله ببعض المعارضين من أهل الكوفة والبصرة أمر عامله فى هذا المصر أو ذاك بنفى هؤلاء المعارضين إلى الشام حيث يتلقّاهم معاوية فيؤدّبهم باللين والرفق ما وسعه اللين والرفق ، ويؤدّبهم بالشدة والعنف حين لا يرى من الشدة والعنف بُدّاً .

وقد ضاق معاوية برجل عظيم الخطر من أصحاب النبىّ هو أبو ذرّ ، كما رأيت فيما مضى من هذا الكتاب ، ولم يستطع أن يبطش به لمكانه من رضى رسول الله عنه وإيثاره إياه ولسابقته فى الإسلام . ولم يستطع أن يفتنه عن دينه بالمال ، فشكاه إلى عثمان . وأمره عثمان بتسييره إلى المدينة . ولم يُطق عثمان نفسه معارضة أبى ذرّ فأخرجه من المدينة واضطره إلى أن يقيم فى الرّملة حتّى مات .

ووفد معاوية على عثمان فى آخر أيامه ، حين كثر قول الناس فيه وإنكارهم عليه ، فاقترح فيما يروى المؤرخون أن ينتقل معه إلى الشام . فكره عثمان أن يترك جوار النبى صلى الله عليه وسلم . فاقترح عليه معاوية أن يُرسل إليه جنداً من أهل الشام يحتلّون المدينة ويقومون فيها دونه. فأبى عثمان أن يُضيّق بهؤلاء الجند على أهل المدينة . وخرج معاوية فأوصى المهاجرين بالشيخ خيراً، ولَمَّح لهم بالنذير إن هم أعانوا عليه أو قصروا فى ذاته .

ولكنه عاد بعد ذلك إلى الشام وعرف اشتداد النكير على عثمان ، وعرف بعد ذلك أن عثمان قد حُصر فلم يخف لنصره ولم يرسل إليه جنداً . ثم جاءه كتابُ عثمان يستغيثه كما استغاث غيره من العمّال ، فأبطأ عن نصره كما أبطأوا وظل متربّصاً حتى قتل الشيخ ، وهنالك نهض يطلب بدمه . وكان خليقاً لو أراد أن يَحقُن هذا الدم قبل أن يُراق . ولكنه أقام فى الشام مُطرقاً إطراق الشجاع ينتظر الفرصة المواتية ، وقد واتته الفرصة فاهتبلها غير مقصر فى اهتبالها وغير متهالك عليها أيضاً . كان مُستأنياً بعيد الأناة ، وكان متحفظاً شديد التحفظ ، وكان على ذلك نشيطاً أشد النشاط ، يُعمل عقله ورويّته فى غير انقطاع ،ويدعو الناس إلى نصره فى غير إلحاح أول الأمر . وإنما كان يعظم قتل الخليفة المظلوم، ويهوّل من أمر هذا الحدَث المنكر ، حتى انقادت إليه قلوب أهل الشام وضمائرهم وإذا هم يظهرون من الغضب لعثمان والطلب بدمه أكثر مما كان يُظهر ، وإذا هم

يتعجّلونه فى النهوض وهو مع ذلك يُبطئهم ويستأنى بهم، ويحتاط فى الأمر لنفسه ولهم ، ويبلغ مع ذلك فى تألف القلوب واستهواء الضمائر والنفوس ؛ يُطمع هؤلاء ويخيف أولئك ، وينتظر بهؤلاء الشيوخ من أصحاب الشورى من المهاجرين والأنصار ليرى مايصنعون . يدسّ لبعضهم من بنى أمية المُرغبين والمرهبين والمبشرين والمنذرين ، حتى إذا رأى انحياز طلحة والزبير وعائشة إلى مكة وائتمارهم بقتال علىّ غضباً لعثمان لم يَدْعُهم إليه ولم ينصرهم بجنده ، وإنما ألقى أنصارُه فى رُوعهم أن معاوية سيكفيهم الشام وقد يكفيهم مصر ، وأن عليهم أن يستأثروا بالعراق من دون علىّ ليُحَصَرعلىّ فى الحجاز ثم يؤخذ بين من يخف لحربه من شرق الدولة وغربها .

وقد سمع الشيخان وسمعت عائشة للمُشيرين بذلك من بنى أمية ، فقصدوا إلى البصرة يريدون أن يحتازوها ثم يغيروا بعد ذلك بأهلها على الكوفة ، فإذا فرغوا من العراق كان التعاون بينهم وبين معاوية على علىّ ، ثم تُنظَّم بعد ذلك خلافة ثلاثية ، قوامها طلحة والزبير ومعاوية ، بعد أن أبى علىّ هذه الخلافة الثلاثية التى طلبها إليه الشيخان بعد أن بايعاه .

وقد انصرف علىّ عما كان يتأهب له من حرب معاوية وأهل الشام واشتغل بالشيخين وأم المؤمنين يريد أن يردهم إلى الطاعة ، ويريد إن أبوا أن يقاتلهم . ورضى معاوية كل الرضى عن اشتغال هؤلاء الشيوخ من المهاجرين والأنصار بأنفسهم ، وفرغ هو لأمره يدبره ويحكم تدبيره . وكان يرى فى أكبر الظن أن هؤلاء الشيوخ إذا اقتتلوا وصار بأسهم بينهم شديداً وهنت قوّتهم وذهبت ريحهم وأصبح هو أقواهم قوةّ وأشدهم بأساً . فكان مثله مثل ذلك الشجاع الذى ذكره الشاعر القديم فى قوله :

مُطْرِق ينفثُ سُمًّا كما أطرق أفعى ينفث السُّم صلّ

وقد اقتتل هؤلاء الشيوخ من المهاجرين والأنصار ، فقتل طلحة والزبير ، وعادت عائشة إلى بيتها فى المدينة فاستقرت فيه ، وكثر القتل فى أهل البصرة والكوفة واستقر الحداد فى كثير من دورهم .

ونظر معاوية فإذا هو قد أصبح يلقى عليًّا وجهاً لوجه . وهو بعد ذلك لم يتعرّض لحرب ؛ لم يكَلِم أحداً ولم يكلمه أحد ؛ قوّته موفورة ، وعُدته كاملة ،

وأصحابه وافرون لم يُصابوا فى أنفسهم ولا فى أموالهم، وهم قد اجتمعوا على حبّه ونصره حتى يثأر لابن عمه الخليفة المظلوم .

فأما علىٌّ فقد خاض حرباً منكرة قُتل فيها من شيعته ومن عدوه خلق كثير . فعدوُّه واجدون عليه لأنه وتَرَهم فيمن قُتل منهم، وشيعته لا تبرأ من الواجدين عليه لأنه قُتل إخوانهم فى حرب البصرة .

فإذا أضفت إلى ذلك أن الفرق بين علىّ ومعاوية فى السيرة والسياسة كان عظيمًا بعيد المدى ، عرفت أن معاوية كان ينتظر عليًّا فى ثبات وثقة واطمئنان . كان الفرق بين الرجلين عظيماً فى السيرة والسياسة ، فقد كان علىٌّ مؤمناً بالخلافة كما تصوّرها المسلمون أيام أبى بكر وعمر وفى الصدر الأول من خلافة عثمان ، يرى أن من الحق عليه أن يقيم العدل بأوسع معانيه بين الناس ، لا يؤثر منهم أحداً على أحد ؛ ويرى أن من الحق عليه أن يحفظ على المسلمين مالهم لا يُنفقه إلا بحقه ، فهو لا يستبيح لنفسه أن يصل الناسَ من بيت المال ، بل هو لا يستبيح لنفسه أن يأخذ من بيت المال لنفسه وأهله إلا ما يقيم الأود لا يزيد عليه ، وإن استطاع أن ينقُص منه فعل . وكان علىّ لا يحب الادخار فى بيت المال وإنما ينفق منه على مصالح المسلمين ، فإن بقى بعد ذلك شىء قسمه بين الناس بالعدل . وكان يُحب أن يدخل بيت المال فإن وجد فيه شيئاً لا يُحتاج إليه لمصلحة عامة فرقه بين الناس بالقسط ، ثم يأمر ببيت المال فيكسح ويُنضح بالماء ثم يصلى فيه ركعتين ثم يقول : هكذا يجب أن يكون بيت المال . كان علىّ إذاً فى إنفاق دائم على الناس ، ولكن على أساس ثابت من العدل والقسط .

فأما معاوية : فكان يسير سيرة أقلّ ما توصف به أنها سيرة الرجل العربىّ الجواد الداهية ، يُعطى الناس ما وسعه إعطاؤهم ، ويصل الذين يريد أن يتألّفهم من الرؤساء والقادة ، لا يجد فى ذلك بأساً ولا جُناحاً . فكان الطامعون يجدون عنده ما يريدون ، وكان الزاهدون يجدون عند علىّ ما يحبون . وما رأيك فى رجل جاءه أخوه عقيل بن أبى طالب مُسترفداً ، فقال لابنه الحسن : إذا خرج عطائى فسِرْ مع عمك إلى السوق فاشتر له ثوباً جديداً ونعلين جديدتين . ثم لم يزد على

ذلك شيئاً . وما رأيك فى رجل آخر يأتيه عقيل هذا نفسه بعد أن لم يَرْض صلة أخيه فيعطيه من بيت المال مائة ألف .

كان معاوية إذاً يعتمد على مذهبه هذا فى السياسة . ويعلم أنه سيضم إليه كل من كان له أرب فى الدنيا . ثم لم يكن يقف صـــلاته على أهل الشام ، وإنما كان له عيونه فى العراق يُرغّبون ويُرهبون ويوصلون الأموال سرًّا . ولم يكن علىّ من هذا كله فى شىء ، لم يكن يحرص على شىء كما كان يحرص على الأمانة فى المال وعلى الوفاء بالعهد وعلى ألا يُدْهِن فى الدين . ولم يكن يُبغض شيئاً كما كان يبغض وضع درهم من بيت مال المسلمين فى غير وضعه أو إنفاقه فى غير حقه ، كما كان يُبغض المكر والكيد وكل ما يتصل بسبب من أسباب الجاهلية الأولى . كان الحق أمامه بيّناً ، فكان يمضى إليه مصمّماً ويدعو أصحابه إلى أن يمضوا إليه مصمّمين . وكان الباطل بيّناً ، فكان يعرض عنه عازماً ويدعو أصحابه إلى أن يعرضوا عنه عازمين . وكان له من أجل ذلك أنصار يُحبونه ويُخلصون له الحب ويذودون عن سلطانه بأنفسهم وأموالهم . وهو لذلك لم يكد يستقر فى الكوفة حتى جعل أصحابه يطلبون إليه أن ينهض بهم إلى عدوّهم من أهل الشام . ولكنه على ذلك أبى أن يمضى إلى الشام قبل أن يرسل السُّفراء إلى معاوية يدعوه إلى الطاعة والدخول فيما دخل فيه الناس ، لتكون حجته ظاهرة ، وليتبعه من تبعه على بينة من أمره وعلى هدى من الله .

١٧

وقد أرسل عليّ رجلاً من أصحاب النبيّ هو جرير بن عبد الله البجليّ إلى معاوية ، يطلب إليه أن يبايع وأن يدخل فيما دخل فيه الناس ، ويبين له حجة عليّ فيما يطلب إليه . وانتهى جرير إلى معاوية فكلمه ووعظه وألحّ عليه فى الكلام والوعظ . ولكنّ معاوية جعل يسمع منه ولا يقول له شيئاً . وإنما يطاوله ويسرف فى مطاولته ، ويدعو مع ذلك وجوهَ أهل الشام ورؤساء الأجناد فيظهر مشاورتهم فيما يطلب إليه عليّ ، ويعظم لهم قتل عثمان ويحرضهم على الوفاء للخليفة المظلوم والطلب بدمه .

وهنا يظهر عمرو بن العاص الذى لم يكن أقلّ دهاء ولا أدنى مكراً ولا أهون كيداً من معاوية . وكان عمرو بن العاص قد وَجد على عثمان حين عزله عن مصر ، فلما ظهرت الفتنة كان من المعارضين لعثمان وكانت معارضته الخفية أشدّ من معارضته الظاهرة . فكان يؤلّب الناس ويحرضهم ما وسعه ذلك سرّاً ، على أنه مع ذلك لم يتردّد أن قال لعثمان جهرة فى المسجد : « إنك قد ركبت بالناس نَهابير وركبناها معك فتُب إلى الله نتب » . وتلقى عثمان منه ذلك أسوأ لقاء . فلما اشتدت الفتنة وعرف عمرو أنها منتهية إلى غايتها آثر أن يعتزلها فى طورها ذاك ، فخرج إلى أرض كان يملكها بفلسطين فأقام فيها وجعل يتنسم الأخبار .

وخرج معه إلى فلسطين ابناه عبد الله ومحمد . وكان عبد الله رجل صدق ، مخلصاً فى دينه ، زاهداً فى دنياه ، قد صحب النبيّ وأخذ عنه كثيراً من سننه ، والتزم سيرة الورع والتقوى والترفع عن الدّنيّات . وكان أخوه محمد فتى من فتيان العرب ثم من فتيان قريش ، لم يعرض عن الدنيا ولم يزهد فيها ، وإنما طمع فيما يطمع فيه أمثاله من السّعة والدعة والتقدّم وبُعد الصوت .

وكان عمرو وابناه على ما هم عليه فى فلسطين حين جاءهم النبأ بقتل عثمان ، فقال عمرو : « أنا أبو عبد الله ما حككت قرحةً إلا أدميتها » . يريد أنه قد مهّد للفتنة والثورة بعثمان فأحكم التمهيد وانتهى الأمر إلى غايته . ثم جاءه الخبر بأن الناس قد

بايعوا علياً ، وبأن معاوية يأبى البيعة ويطالب بثأر عثمان ، وبأن أهل الشام جميعاً له ناصرون . فأدار عمرو الأمر بينه وبين ابنيه أى موقف يقف من هذين الرجلين .

فأما ابنه عبد الله فقد أشار عليه أن يعتزل الناس حتى إذا اجتمعت الكلمة والتأم الشمل دخل فيما دخل فيه المسلمون . وألحّ عبد الله على أبيه فى ذلك ، وذكره بأن النبى والشيخين من بعده قد فارقوا الدنيا وهم عنه راضون ، فما ينبغى أن يضيع ما أتيح له من الفضل والمنزلة .

وأما محمد فقال له : أنت نابٌ من أنياب العرب ، وما ينبغى أن تُبرَم الأمورُ وأنت متخلّف ، وأشار عليه بأن يلحق بمعاوية .

فقال عمرو : أما عبد الله فقد أشار علىَّ بما ينفعنى فى دينى وآخرتى . أما محمد فقد أشار علىَّ بما ينفعنى فى دنياى . وأنفق ليلا مسهداً يضرب أمره أخماساً لأسداس ، يكره بيعة علىّ لأنه لا ينتظر من هذه البيعة منفعة أو ولاية أو مشاركة فى الحكم ، ولأنه يعلم أن علياً سيجعله رجلاً من الناس له ما لهم وعليه ما عليهم . ويُشفق من اللحاق بمعاوية لأنه يرى أن معاوية يسمو إلى شىء ليس له أهلا ، ولأنه لم يكن يستحب بادئ الرأى أن يفرّط فى أمر دينه . ولكنه فكّر وقدّر وأطال التفكير والتقدير وحاول أن يصبر نفسه على اعتزال الناس ، فلم يُطق صبراً على الخمول والانتظار .

ولم يكن عمرو قد نسى ولاية مصر التى أتيحت له أيام عمر ، ولم يكن قد طاب نفساً عن عزل عثمان إياه عن هذه الولاية ، فكان فيما يظهر يحن إلى مصر حنيناً متصلا . ولم يُسفر الصبح له حتى كان رأيه قد استقر على أن يلحق بمعاوية . فارتحل إلى دمشق وارتحل معه ابناه ، فلما بلغها ألفى أهل الشام يحرضون معاوية على الطلب بدم عثمان ويحضضونه على النهوض لحرب علىّ . فما أسرع ما انضم عمرو إلى المحرضين والمحضضين . وجعل يلقّى معاوية فيعظم له أمر الخليفة المظلوم ، ومعاوية يسمع منه دون أن يظهر احتفالا بما كان يقول له . كان يؤثر الأناة والتمهل ، وكان أهل الشام يتحرقون شوقاً إلى الحرب ، يرون فى ذلك أداءً لحق الخليفة المقتول وقياماً بواجب يفرضه عليهم الدين . وكان عمرو يتعجل الحرب لتظهر حاجةُ معاوية إليه . فلما طال عليه إعراض معاوية عنه ، دخل عليه ذات

يوم فتحدث إليه حديثاً صريحاً فهمه معاوية حق فهمه . فلم يلبث أن أظهر العناية بعمرو وجدّ فى أن يتخذه له حليفاً . ذلك أن عمْرًا أظهر لمعاوية عجبه من هذا الإعراض عنه ، مع أنه إنما يضحى بشىء كثير حين ينضم إليه ويعرض عليه معونته بالرأى واليد واللسان . على ثقة منه بأن معاوية ليس على الحق ، وبأن خصمه هو صاحب الحق ، وبأن الانتصار لمعاوية واللّياذ به إنما هما سبيل الدنيا لا سبيل الدين . فقد سمع معاوية ذلك وفهمه واستيقن أن عمراً إن انصرف عنه كاد له فأبلغ فى الكيد ، وأن من الخير أن يستصلحه ويستخلصه لنفسه ويُعطيه جزاءه من هذه الدنيا التى يطلبها ويتهالك عليها . وعمرو بعد ذلك صاحب حرب ومكيدة ، فتح فلسطين وفتح مصر واطمأن إليه عُمر منذ فتح مصر إلى أن قُتل . وهو بعد هذا كله داهية من دواهى العرب وشيخ ذو مكانة من شيوخ قريش . ويقول المؤرخون : إن معاوية سأل عمراً عما يريده ثمناً لانضمامه إليه . فطلب إليه عمرو أن يطعمه مصر حياتَه . واستكثر معاوية هذا الثمن . وكان بين الرجلين شىء من مشادة ، حتى كاد عمرو أن يرتحل ويعود أدراجه مغاضباً . ولكن عتْبة ابن أبى سفيان دخل بين الرجلين وما زال بمعاوية أخيه حتى أرضاه بالنزول لعمرو عن مصر أثناء حياته . وكُتب بهذا الاتفاق بين الرجلين عهدٌ مؤكَّد .

فلما لقى عمرو ابنيه لم يرضيا عن هذا الثمن وإنما استقلاه وسخرا منه . يذهب عبد الله فى ذلك إلى أن أباه قد باع دينه بثمن قليل . ويذهب محمد إلى أن أباه قد باع رأيه بثمن قليل .

ومهما يكن من شىء فقد التأم حول معاوية جمع ليس به بأس من أولى مشورته فى الشام ، وهم رؤساء الأجناد وشيوخ القبائل وأهل بيته من بنى أبى سفيان وبنو عُمومته من بنى أميّة . وانضم إليه عمرو بن العاص . وكلهم كانوا يحرضون معاوية على النهوض للحرب ويستبطئونه ، ويوشك بعضهم أن يتهمه بالعجز والقصور .

فلما اجتمع لمعاوية أمره ردّ جرير بن عبد الله البَجَلى، سفير علىّ إلى الكوفة، دون أن يُعطيه شيئاً . وعاد جرير فأنبأ عليّاً بامتناع معاوية عليه، وعظّم له من أمر أهل الشام . وكأن عليّاً لم يرض عن سفارة جرير ، وكأنّ جماعة من أصحاب

عليّ على رأسهم الأشتر أسمعوا جريراً بعض ما يكره ، فغضب وارتحل بأهله . فلحق بطرف من أطراف الشام فى قِرْقِيسياء فأقام فيه مجانباً للخصمين . وبعض المؤرخين يرى أنه انضم لمعاوية .

ثم أخذ معاوية يتأهب للحرب ، ولكنه هو أيضاً أسفر إلى عليّ كما أسفر عليٌّ إليه .

ويظهر أن بعض أصحاب معاوية لم تكن نفوسهم مطمئنة إلى القتال ، كما أنها لم تكن كذلك راضية عن قتل عثمان وإعفاء الذين قتلوه من العقاب . فقد يقال إن رجلا من أصحاب معاوية ، هو أبو مُسلم عبد الرحمن ، أو عبد الله بن مسلم الخوْلانى ، قام إليه أثناء تشاوره فى أمر الحرب فقال له : علام تُقاتل عليًّا وليس لك مثل فضله وسابقته فى الإسلام ؟ فقال معاوية : إنى لا أقاتله وأنا أدعى أن لى مثل فضله أو سابقته ، وإنما أطالبه بأن يدفع إلينا قتلة عثمان حتى أقتصّ منهم . قال أبو مسلم : فاكتب إليه فى ذلك ، فإنْ أجابك إلى ما تريد فقد صرفتَ عنا الحرب ، وإن أبى قاتلناه على بصيرة . وكأنّ معاوية أراد أن يقطع حجة أبى مسلم وأمثاله من المتردّدين ، فكتب إلى علىّ كتاباً وأرسله مع أبى مسلم نفسه . وهذا نص الكتاب كما رواه البَلاذُرىّ : « بسم الله الرحمن الرحيم . من معاوية ابن أبى سفيان إلى علىّ بن أبى طالب . أما بعد فإن الله اصطفى محمداً بعلمه وجعله الأمين على وحيه والرسول إلى خلقه . ثم اجتبى له من المسلمين أعواناً أيّده بهم ، فكانوا فى المنازل عنده على قدر فضائلهم فى الإسلام ، وكان أنصحهم لله ورسوله خليفتُه ثم خليفة خليفته ، ثم الخليفة الثالث المقتول ظلماً عثمان . فكلهم حسدتَ وعلى كلهم بغيتَ . عرفنا ذلك فى نظرك الشَّزْر ، وقولك الهُجْر . وتنفُّسك الصُّعَداء ، وإبطائك عن الخلفاء . فى كل ذلك تُقاد كما يقاد الجمل المَخْشوش . ولم تكن لأحد منهم أشدّ حسداً منك لابن عمتك . وكان أحقهم ألّا تفعل به ذلك لقرابته وفضله . فقطعت رحمه ، وقبّحت حسنه ، وأظهرت له العداوة ، وأبطنت له الغش ، وألّبت الناس عليه ، حتى ضُربت آباط الإبل إليه من كل وجه ، وقيدت الخيل من كل أفق ، وشُهر عليه السلاح فى حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقُتل معك فى المحلّة وأنت تسمع الهائعة لا تدرأ عنه بقول ولا فعل . ولعمرى يا ابن أبى طالب ، لو قمتَ فى حقه مقاماً تنهى الناسَ فيه عنه ، وتُقبِّح لهم ما اهتَبلوا منه ما عدَلَ بك مَن قِبَلنا من الناس أحداً ، ولمحا ذلك عندهم ما كانوا

يعرفونك به من المجانبة له والبغي عليه . وأخرى أنت بها عند أولياء ابن عفان ظنين ، إيواؤك قتلته ، فهم عضدك ويدك وأنصارك وقد بلغني أنك تنتفي من دم عثمان وتتبرأ منه . فإن كنت صادقاً فادفع إلينا قتلته نقتلهم به ، ثم نحن أسرع الناس إليك . وإلا فليكن بيننا وبينك السيفُ . والذى لا إله غيره لنطلبنّ قتلة عثمان فى الجبال والرمال والبر والبحر حتى نقتلهم أو تلحق أرواحنا بالله . والسلام » .

وقد انتهى أبو مسلم بهذا الكتاب إلى علىّ . فجمع له الناس فى المسجد وأمر فقُرئ عليهم الكتاب . فتصايح الناس فى جنبات المسجد : « كلنا قتل عثمان ، وكلنا كان منكراً لعمله » . وكذلك رأى أبو مسلم نفسه أن أصحاب علىّ كانوا يرون قتل عثمان صلاحاً لأمور دينهم ودنياهم ويأبون أن يسلموا أحداً من قاتليه . ورأى كذلك أن عليّاً لو أراد أن يُسلم قتلة عثمان كلهم أو بعضهم لما استطاع إلى ذلك سبيلاً . ومن أجل ذلك أبى أن يدفع أحداً إلى معاوية . فجعل أبو مسلم يقول : الآن طاب الضِّراب .

وأنت ترى من كتاب معاوية أنه لم يكن يريد سلماً ولا عافية ، وإنما كان يريد أن يَعذر نفسه عند أصحابه من أهل الشام وعند المترددين والمتأثمين منهم خاصة . فطالبُ السلم والعافية لا يكتب إلى خصمه ليؤذيَه ولا ليحفظه ولا ليَغيظه ويُثير فى نفسه الموجدة والشنآن .

وليس من اليسير على علىّ أن يقرأ فى كتاب معاوية اتهامه بحسد الخلفاء والبغى عليهم والتلكؤ فى البيعة لهم حتى يضطر إليها اضطراراً ويُقاد إليها كارهاً .

وليس من اليسير كذلك على علىّ أن يقرأ فى كتاب معاوية اتهامه بحسد ابن عمه والبغى عليه وقطع رحمه وإغراء الناس به والقُعود عن نصره حين ضيّق عليه الثائرون به .

ثم ليس من اليسير على علىّ آخر الأمر أن يقرأ هذا التحدى الواضح والدعاء إلى أن يُثبت براءته من دم عثمان بتسليم قاتليه ، فإن لم يفعل فليس بينه وبين معاوية إلا السيف .

وقد أبلغ معاويةُ فى التحدى حتى زعم لعلىٍّ أنه إن دفع إليه قتلة عثمان أسرع

وأسرع معه أهل الشام إلى بيعته وطاعته . ومعاوية كان يعلم حق العلم أن علياً لن يقبل هذا التحدّى ولن يسلّم إليه قتلة عثمان ، وهو يتحدى السلطان ويُنذره على هذا النحو . وإنما كانت سبيله ، لو قد آثر السلم والعافية ، أن يبايع ويطيع أولاً ثم يتقدّم إلى الخليفة طالباً أن ينصفه من الذين قتلوا ابن عمّه ، وأن ينصف أبناء عثمان من الذين قتلوا أباهم .

ثم كان معاوية يعلم حق العلم بعد هذا كله أن علياً لو قدر على قتلة عثمان لأقاد منهم فى المدينة ، حين تحدث إليه فى ذلك من بايعه من المهاجرين والأنصار ، فكيف وقد صار إلى العراق وأقام بين أظهُر الكثرة التى ثارت بعثمان حتى قتلته .

كل ذلك كان معاوية يعلمه ، ولكنه أراد أن يبرئ نفسه أمام أهل الشام وأمام المتأثمين منهم خاصة من تبِعة الحرب التى لم يكن منها بُدّ . فليس غريباً بعد ذلك أن يرفض علىّ ما طلب إليه ، وأن يردّ على كتابه مع سفيره نفسه بهذا الكتاب الذى رواه البلاذُرى أيضاً : « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبى سفيان . أما بعد . فإن أخا خوْلان قَدِم علىّ بكتاب منك تذكر فيه محمداً وما أكرمه الله به من الهدى والوحى ، فالحمد لله الذى صدق له الوعدَ ، ومكن له فى البلاد ، وأظهره على الدين كله ، وقمع به أهل العداوة والشنآن من قومه الذين كذبوه وشنّعوا عليه وظاهروا عليه وعلى إخراج أصحابه ، وقلبوا له الأمور حتى ظهر أمر الله وهم له كارهون . فكان أشد الناس عليه الأدنى فالأدنى من قومه إلا قليلا ممن عصم الله . وذكرتَ أنّ الله جل ثناؤه وتباركت أسماؤه اختار له من المؤمنين أعواناً أيّده بهم فكانوا فى منازلهم عنده على قدر فضائلهم فى الإسلام ، فكان أفضلَهم خليفته وخليفة خليفته من بعده . ولعمرى إنّ مكانهما من الإسلام لعظيم وإن المصاب بهما لرُزْء جليل . وذكرت أن ابن عفان كان فى الفضل ثالثاً . فإن يكن عثمان مُحسناً فسيلقى ربّاً شكوراً يضاعف الحسنات ويجزى بها . وإن يكن مُسيئاً فسيلقى ربّاً غفوراً رحيماً لا يتعاظمه ذنب أن يغفره . وإنى لأرجو إذا أعطى الله المؤمنين على قدر أعمالهم أن يكون قسمنا أوفر قسم أهل بيت من المسلمين . إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم فدعا إلى الإيمان بالله والتوحيد له ، فكنّا أهلَ البيت أولَ من آمن

وأناب . فكنّا وما يعبد الله فى ربع سكن من أرباع العرب أحدٌ غيرنا . فبغانا قومُنا الغوائل ، وهمّوا بنا الهموم ، وألحقوا بنا الوسائط ، واضطرونا إلى شِعْب ضيق وضعوا علينا فيه المراصد . منعونا من الطعام والماء العَذْب ، وكتبوا بينهم كتاباً ألا يؤاكلونا ولا يشاربونا ولا يبايعونا ولا يُناكحونا ولا يُكلّمونا أو ندفع إليهم نبيّنا فيقتلوه أو يمثّلوا به . وعزم الله لنا على مَنْعه والذبّ عنه ، وسائرُ من أسلم من قريش أخلياء مما نحن فيه ، منهم من حليف ممنوع وذى عشيرة لا تبغيه كما بغانا قومنا . فهم من التلف بمكان نَجْوة وأمن . فكنّا بذلك ما شاء الله . ثم أذن الله لرسوله فى الهجرة وأمره بقتال المشركين ، فكان إذا حضر البأس ودُعيت نَزَال قدّم أهل بيته فوق بهم أصحابه . فقُتل عُبيدة يوم بدر ، وحمزة يوم أحد ، وجعفر يوم مُؤْتة ، وتعرّض مَن لو شئتُ أن أسميه سميتُه ، لمثل ما تعرّضوا له من الشهادة. لكن آجالهم حضرت ومنيّة أخرت . وذكرت إبطائى عن الخلفاء وحسدى لهم . فأما الحسد فعاذ الله أن أكون أسررتُه أو أعلنته . وأما الإبطاء فما أعتذر إلى الناس منه . ولقد أتانى أبوك حين قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وبايع الناس أبا بكر ، فقال : " أنت أحق الناس بهذا الأمر ، فابسُط يدك أبايعك " . وقد علمتَ ذلك من قول أبيك . فكنتُ الذى أبيتُ ذلك مخافة الفرقة ، لقرب عهد الناس بالكفر والجاهلية . فإن تعرف من حقّى ما كان أبوك يعرفه تُصب رشدك ، وإلا تفعل فسيُغنى الله عنك . وذكرت عثمان وتأليبى الناس عليه . وإنّ عثمان صنع ما رأيت فركب الناس منه ما قد علمت وأنا من ذلك بمعزل ، إلا أن تتجنى فتجنّ ما بدا لك . وذكرت قَتَلَته بزعمك وسألتنى دفعهم إليك . وما أعرف له قاتلا بعينه . وقد ضربتُ الأمر إلى أنفه وعينيه فلم أره يسعنى دَفْع مَن قِبَلى ممن اتهمتَه وأظْننته إليك . ولئن لم تَنْزِع عن غيك وشقاقك لتعرفنّ الذين تزعم أنهم قتلوه طالبين لا يكلّفونك طلبهم فى سهل ولا جبل . والسلام » .

وقد بدأ معاوية كما رأيت بالعُنف فى كتابه إلى علىّ . فكان ردّ علىّ على كتابه أقسى قسوة وأعظم شدة . لم يكد يذكر إنعام الله على نبيه بالهدى والوحى واتباع أهل بيته له حتى ذكر بغى قريش عليه ومكرها به واضطراره مع أهل بيته ومع بنى عبد المطلب إلى شِعْب ضيق من شِعاب مكة . إلى آخر ما هو معروف

من أمر الصحيفة . وعليّ في كل هذا يعرض ببني أمية وتأخرهم عن الإسلام واجتهادهم مع المجتهدين فى التضييق على النبي ومن تبعه من أهل بيته . ثم ذكر عليّ أن الله قد اختص بيت أهل النبي بالسبق إلى الإسلام كما اختصهم بالصبر على المكروه فى شعبهم ذاك الذى اضطروا إليه . على حين كان غيرهم من المسلمين فى سعة ودعة ، تمنعهم عشائرهم كما منعت تيمُ أبا بكر ، وكما منعت عديّ عمرَ ، وكما منعت أميةُ عثمان . أو يمنعهم حلفاؤهم إن لم يكونوا من قريش .

ومعنى ذلك أن أهل البيت احتملوا فى الإسلام ما لم يحتمل غيرهم وما لم يحتمل أبو بكر وعمر وعثمان خاصة ، فهم لم يُحصروا ولم يُهجروا ولم يضيّق عليهم فى الرزق . فهم إذاً أولى الناس بالنبيّ وأحقهم بالأمر بعده . ثم ذكر الهجرة وما كان من القتال فى سبيل الله ، وذكر أن النبيّ كان يقدّم أهل بيته لحماية أصحابه فى مواطن اليأس حتى استُشهد منهم عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب يوم بدر ، وحمزة بن عبد المطلب يوم أحد ، وجعفر بن أبي طالب يوم مؤتة . وتعرض عليّ نفسه للشهادة التى أتيحت لغيره من أهل البيت . فأهل البيت إذاً قد جاهدوا قبل الهجرة ، وجاهدوا بعد الهجرة ، كما لم يجاهد أحد غيرهم . ثم ذكر قيام الخلفاء بعد وفاة النبي فبرأ نفسه من الحسد لهم سرًّا أو جهراً ، ولم يعتذر إلى الناس من إبطائه فى بيعتهم . ثم ذكّر معاويةَ بأن أباه كان يرى حق عليّ فى البيعة حين أراده عليها . وقال له بعد ذلك : إن كنت ترى ما رأى أبوك من حق تُصب رشدك ، وإن لم تفعل يُغْنِ الله عنك . ثم ذكر عثمان وما أنكر الناس عليه وما ركبوا من أمره واعتزاله الثورة ، وبين رأيه صريحاً فى عثمان ، وهو التوقف وترك أمر عثمان إلى الله يضاعف له الأجر إن كان قد أحسن ، ويغفر له الذنب إن كان قد أساء . ثم ذكر قَتَلَة عثمان ، فأنبأ معاويةَ أنه لا يعرف لعثمان قاتلا بعينه بعد أن بحث واستقصى ، وأنه لا يستطيع أن يسلم إليه من اتهمهم ، لا لشىء إلا لأنه اتهمهم وظن بهم الظنون ، لأن أمور الحدود لا تستقيم إلا على الحاجة والمقاضاة وإحضار البينة ، وهذا كله لا يستقيم إلا بعد البيعة والدخول فى الطاعة . ثم أنذر معاويةَ بأنه ليس فى حاجة إلى أن يطلب فى السهل والجبل ولا فى البر والبحر من يتهمهم بقتل عثمان ، لأنه سيراهم ساعين إليه طالبين له جادّين فى حربه .

وكذلك أخفق سفير معاوية كما أخفق سفير عليّ من قبل ، واستبان لأهل الشام كما استبان لأهل العراق أن ليس من الحرب بُدّ . يرى أهل الشام أن يثأروا للخليفة المظلوم ، ويرى أهل العراق ومن معهم من المهاجرين والأنصار أن يُكرهوا أهل الشام على البيعة والطاعة قبل كل شيء . ويرى أهل الشام أن طاعة عليّ لا تلزمهم ، لأن الناس لم يبايعوه عن رضى منهم جميعاً ولأنه عطل حدّاً خطيراً من حدود الله ، وهو القصاص ممن قتل الخليفة المظلوم . ويرى أهل العراق ومن معهم من المهاجرين والأنصار أن كثرة المسلمين الضخمة قد بايعت عليّاً في الحرمَيْن والمصرَيْن وفي مصر أيضاً ، فأصبحت طاعته واجبة وأصبح أهل الشام طائفةً باغية يجب أن تُقاتَل حتى تفيء إلى أمر الله .

ولم يأت شهر ذى الحجة من سنة ست وثلاثين حتى كان عليّ قد قدّم طلائعه بين يديه وأمرهم إن لقوا أهل الشام ألاّ يبدءوهم بقتال حتى يدركهم ، وسار هو فى معظم جيشه حتى انتهى وانتهت طلائعه إلى صِفّين بعد خطوب كثيرة لسنا فى حاجة إلى أن نُطيل بذكرها .

١٩

وكان معاوية قد سار فى جموع أهل الشام حين علم بتأهب علىّ للمسير ، وقدّم بين يديه الطلائع أيضاً . وقد انتهى قبل علىّ إلى صفين فأنزل أصحابه أحسن منزل وأرحبه وأقربه إلى شريعة الفرات . وأقبل علىّ فى جيشه الضخم فأنزل أصحابه بإزاء أصحاب معاوية . ولكن أصحاب علىّ لم يجدوا على الفرات شريعة يستقون منها . فأرسل علىٌّ سفراءه إلى معاوية يطلبون إليه أن يخلّى الماء حرّاً يشرب منه الجيشان . وقد ناظر السفراء معاوية فى ذلك فلم يظفروا منه بجواب . وعادوا إلى علىّ بغير طائل . ثم لم يلبث أصحاب علىّ أن رأوا معاوية يكثّر من الحرس على شِرعة الفرات ليقهر عليّاً وأصحابه بالظمأ . يريد أن يحرمهم الماء كما حرموا الماء عثمان حين كان محصوراً ، ويقال إن عمرو بن العاص ألحّ على معاوية فى أن يخلّى بين أصحاب علىّ وبين الماء ليؤخر المناجزة ، فإن أصحاب علىّ لن يظمئوا وخصمهم راوون . ولكن عصبية بنى أمية غلبت مشورة أصحاب الرأى ، وانقاد معاوية لهذه العصبية فلم يكن بدّ من أن يقتتل الناس على الماء . واشتد القتال على الشّرعة حتى كاد يبلغ الحرب . وأتيح النصر لأصحاب علىّ فغلبوا خَصْمهم على مورد الماء ، وأرادوا أن يضطروهم إلى الظمأ ويقهروهم به كما كانوا هم يريدون بهم مثل ذلك . ولكن عليّاً أبى عليهم ما أرادوا ، آثر العافيةَ حتى لا يتعجل الحرب قبل الإعذار إلى خصمه وقبل مناظرتهم فيما بينهم من خلاف . وكره كذلك أن يظمئْ خصمه والله قد أجرى النهر ليشرب منه الناس جميعاً لا ليستأثر به فريق دون فريق .

وكذلك أتيح للقوم أن يلتقوا آمنين أياماً ، يلتقون على الماء ويسعى بعضهم لبعض ، ليس بينهم قتال ولكنّ بينهم جدالاً شديداً وخصاماً عنيفاً . ثم رأى علىّ أن يُعذر إلى معاوية وأصحابه ، فاختلف السفراء بين الفريقين دون أن ينتهوا إلى صلح أو شىء يشبه الصلح . فلما استيأس علىّ من خصمه عبأ أصحابه على راياتهم وجعلتْ فرقهم تخرج إلى فرق معاوية ، تخرج فرقة فى هذا اليوم من

أصحاب عليّ فتخرج لها فرقة من أصحاب معاوية ، فتقتتل الفرقتان نهارهما أو وجهاً من نهارهما ثم تتحاجزان . وعليّ لا يتجاوز ذلك إلى الحرب العامة رجاء أن يثوب خصمه إلى رشدهم وأن يفيئوا إلى أمر الله ويؤثروا العافية بين المسلمين .

ومضى الأمر على هذا أياماً عشرة أو أقل أو أكثر من آخر ذى الحجة ، ثم أظلّ الناس شهر المحرّم ، وهو شهر حرام ، فتوادعوا شهرهم كله وآمن بعضهم بعضاً . وسعت بينهم السفراء سعياً متصلاً ، ولكنهم أنفقوا شهرهم كله دون أن يصلوا إلى صلح أو شيء يشبه الصلح ، واستبان لأولئك وهؤلاء فى غير شك ولا لبس أن ليس بُدّ من أن يصطدم الجمعان .

ومع ذلك فقد مضى القوم على حربهم بعد شهر المحرم كما كانوا قبله ، تخرج الكتيبة للكتيبة والقبيلة للقبيلة وربما خرج الرجل للرجل . وهم فى أثناء هذا كله لا يختصمون بالسيف وحده وإنما يختصمون بالألسنة أيضاً . وربما كانت بين رؤسائهم الكُتب ، كالذى رُوى أن عمرو بن العاص كتب عن أمر معاوية إلى ابن عباس يستعينه على أن يثوب الناس إلى العافية ويكفّوا عن الحرب ويتقوا غوائلها . وردّ ابن عباس عليه ردّاً عنيفاً مُوئِساً .

ثم كان القوم إذا كفوا عن القتال آخر النهار سَمَرُوا ، كما تعوّدت العرب أن تَسْمر ، فتناشدوا الشعر وذكروا المآثر القديمة والحديثة وذكروا بلاء من حَسُن بلاؤه منهم أو من عدوّهم فى أيامهم تلك ؛ حتى مضى صدر فى شهر صفر وهم على هذه الحال لا يبلغ أحد الفريقين من خصمه أرباً . وكأن القوم سئموا هذه الحرب المتقطعة الفاترة وتعجلوا الكارثة . وكأن عليّاً سئم هذه المطاولة التى لا تغنى عنه ولا عن أحد شيئاً ، وإنما تزيد الفتنة امتداداً والشر انتشاراً ، وتُضيف أحقاداً إلى أحقاد وحفيظة إلى حفيظة ، وتضيع أيامه وأيام أصحابه فى قتال لا يقدّم ولا يؤخّر ، وترجئ اجتماع الكلمة والتئام الشمل إلى أجل غير مسمى ولا معروف . فعبأ أصحابه للهجوم العام . ورأى معاوية منه ذلك ففعل مثل ما فعل ؛ وتزاحف الجيشان العظيمان فالتقوا صباح نهارهم كله وشطراً من ليلهم دون أن يبلغ أحد من صاحبه ما كان يريد . ثم أصبحوا فاقتتلوا نهارهم كله أشدّ قتال وأعظمَه نُكراً ، وانكشفت ميمنة عليّ انكشافاً بلغ الهزيمة أو كاد يبلغها ، وتضعضع ما كان يليها من قلب الجيش ، وانحاز عليّ إلى ميسرته من ربيعة ، فاستقتلت ربيعة من دونه وقال قائلها : يا معشر ربيعة ، لا عذر لكم بعد اليوم عند العرب إن أصيب أمير المؤمنين وهو فيكم . فتحالفت ربيعة على الموت . ثم ثابت ميمنة عليّ بفضل الأشتر ومَن ثبت معه من أصحابه . فالتأم جيش عليّ كعهده أولَ النهار . وأقبل الليل فلم يكفّ بعض القوم عن بعض وإنما مضوا فى حربهم تلك المجنونة حتى استقبلوا صباح اليوم الثالث

وحتى ظهر الضعف فى جيش معاوية . وكاد أصحاب معاوية يبلغون فسطاطه ، وهمّ معاوية نفسه أن يفر لولا أن ذكر قول ابن الإطْنَابة :

أبتْ لى همّتى وأبَى بلائى ... وأخْذى الحمد بالثّمن الرّبيحِ
وإجشامى على المكروه نفسى ... وضَرْبى هامة البَطل المشيح
وقولى كلما جشأت وجاشتْ ... مكانَكِ تُحمدى أو تستريحى
لأدفع عن مآثر صالحاتٍ ... وأحمى بعْدُ عن عِرْض صحيح

فردّه هذا الشعرُ إلى الثبات والصبر ، كما كان يتحدث بذلك فى أيام العافية . وارتفع الضحى والقوم ماضُون فى حربهم تلك لا يريحون ولا يستريحون ، وأصحاب علىّ لا يشكّون فى النصر . وإنهم لفى ذلك وإذا المصاحف قد نُشرت ورفعت على الرماح من قِبَلِ أهل الشام ، وإذا منادى أهل الشام يقول : هذا كتاب الله بيننا وبينكم من فاتحته إلى خاتمته ، الله الله فى العرب ، الله الله فى الإسلام ، الله الله فى الثغور . مَن لثغور الشام إذا هلك أهل الشام ؟ ومن لثغور العراق إذا تفانى أهل العراق ؟

ويرى أصحاب علىّ هذه المصاحف المنشورة ، ويسمعون هذا الدعاء إلى ما فيها من أمر الله ، ويسمعون الدعاء إلى العافية والبقية ، فيبهر كثْرتَهم ما ترى وما تسمع . وإذا الأيدى تكف عن الحرب ، وإذا القلوب تتردد ثم تذكر السَّلْم ثم تحبها ثم تطمع فيها ، وإذا رؤساء الجيش من أصحاب علىّ يسرعون إليه يدعونه إلى قبول ما يعرض القوم . فيأبى عليهم ويبين لهم أن القوم ليسوا بأصحاب قرآن ، ولم يرفعوا المصاحف ثائبين إلى ما فيها وإنما رفعوها كائدين يبغون خصمهم الفتنة . ويبين لهم كذلك أنهم لم يبتكروا رفع المصاحف ، وإنما عرفوا أنه رفع المصاحف لأهل البصرة قبل القتال فقتلوه ، وليس بعد القتال وحين جزعوا من الحرب ولم يشكوا فى الهزيمة . ولكن أصحاب على يلحون عليه فى الاستجابة إلى ما يُدعى إليه من كتاب الله ، ويشتدّون فى الإلحاح حتى ينذروا عليًّا بمفارقته ، ومنهم من أنذره بتسليمه إلى معاوية .

وقوم آخرون رأوا رأى علىّ ولم ينخدعوا بكيد أهل الشام ، وقالوا : إنما حاربنا القوم على كتاب الله لا نشك فى أننا على الحق ، وفى أن صاحبنا هو أمير المؤمنين ، وفى أن عدوّنا هم الفئة الباغية ، ولو قد شككنا فى شىء من ذلك ما قاتلنا ولا استبحنا سفك الدماء منّا ومنهم . ولكن أصحاب علىّ قد اختلفوا ، ما فى ذلك شك . قوم يرون الكف عن القتال وقوم يرون المضى فيه ، وإذا وقع الخلاف بين رؤساء الجيش وبلغ هذا الحد فليس يُنتظر من الجيش نفسه خير .

ومن أجل ذلك اضطر علىّ إلى كف القتال ، ولم يكفَّ الأشترَ عن المضى فيه إلا بعد جهد متصل وعزيمة مؤكدة . ثم قاربَ معاويةَ وأرسل إليه الرسل يسألونه عما أراد إليه برفع المصاحف . فأجابهم معاوية : أردتُ إلى أن نختار منا رجلا وتختارون منكم رجلا ونأمرهما أن يحكما بما فى كتاب الله فيما شجر بيننا من الخلاف .

وعاد الرسل إلى علىّ بجواب معاوية ، فرضيت كثْرة أصحابه وسخطت قلتهم . ونزل علىّ عند رأى الكثْرة كارهاً .

٢١

وليس من اليسير أن نقطع برأى فى عدد الجيشين اللذين التقيا بصفّين واقتتلا قتالا طويلا منكراً لم يُر مثله قط فى الإسلام ، أى لم يُرَ مثله قط بين المسلمين . فقوم يبلغون بجيش علىّ مئة ألف ، ويبلغون بجيش معاوية سبعين ألفاً . وقوم ينزلون بهذين الرقمين إلى أقل من ذلك . وليس من اليسير كذلك أن نحصى عدد القتلى من أولئك وهؤلاء ، وقد زعم قوم أن القتلى من أهل الشام بلغوا خمسة وأربعين ألفاً ، وأن القتلى من أهل العراق بلغوا خمسة وعشرين ألفاً .

وليس المهم الآن أن نحصى الجيشين إحصاء دقيقاً ، ولا أن نحصى القتلى منهما إحصاء دقيقاً وإنما المهم هو أن نلاحظ أن الخصمين قد تأهّبا كأحسن ما تكون الأهبة وأقواها ، واضطرهما ذلك إلى أن يكشفا ثغورهما المحاذية للعدو قليلا أو كثيراً . وآية ذلك أن الروم طمعوا فى الشام وهمّوا بغزوها ، لولا أن معاوية وادَعهم وصانعهم واشترى كفّهم عنه بالمال . ولم تكن بإزاء ثغور العراق فى الشرق دولة قوية منظمة كدولة الروم ، ولكن كثيراً من مدن الفرس تنكّر للمسلمين وهمّ بالثورة لولا ما كان من رجوع علىّ إلى الكوفة وتكلّفه ضبط هذه الثغور . وإذا طال القتال بين جيشين عظيمين واشتد ، وبلغ من القبح والشناعة ما صوّره المؤرخون وأصحاب القصص ، كثُر القتلى والجرحى من الفريقين ، وإن بالغ القصّاص بعد ذلك فى عدد أولئك وهؤلاء .

والشيء الذى لا شك فيه هو أن جماعة من خيار المسلمين وأعلامهم من أهل العراق وأهل الشام قد قتلوا فى هذه الحرب ، وكان قتلهم مروّعاً لمن شهده ولمن سمع الحديث بذكره بعد انقضاء الحرب ، وما زال مروّعاً للذين يقرءونه الآن فى كتب القصص والتاريخ .

فقد قُتل من أصحاب معاوية عبيد الله بن عمر بن الخطاب ، قاتل الهرْمزان ، كما قُتل جماعة من خيار أصحابه وأعظمهم شجاعة ونجدة وبأساً . وقتل من أصحاب علىّ عمار بن ياسر ، وما زال قتله من الأحاديث المأثورة بين المسلمين ، فهو ابن

أول شهيدين فى الإسلام . فتن أبو جهل أباه ياسراً وأمه سُمَيَّة حتى قتلهما كما هو معروف. وهو الذى قال له النبي : ويحك يا ابن سُمَيَّة ، تقتلك الفئة الباغية . وقد أشفق الزبير ، كما رأيت ، من حرب علىّ حين عرف أن عمَّاراً معه . وكان خُزَيمة بن ثابت الأنصارى يتبع علياً فى صفين ولكنه لا يقاتل ، وإنما يتحرى أمر عمَّار ، فلما عرف أنه قد قُتل قال : الآن استبانت الضلالة . ثم قاتل حتى قتل. رأى أن أهل الشام قد قتلوا عمّاراً فعرف أنهم الفئة الباغية التى ذكرها النبي فى حديثه ذاك . ووقع قَتْل عمار من معاوية وأصحابه وقعاً أليماً مروِّعاً ، لم يشكّوا فى أن النبي قال له : تقتلك الفئة الباغية ، وإنما حاولوا أن يخفوا علمهم بهذا الحديث . فلما لم يجدوا إلى ذلك سبيلا تأولوه . وقال معاوية : أنحن قتلناه ؟ إنما قتله الذين جاءوا به .

ولم يجئ أحد بعمار إلى صفّين ؛ لم يستكرهه علىّ على الحرب ولا على الخروج معه ، وإنما كان عمّار شيخاً قد نيف على التسعين ، شاخ جسمه ولكنّ قلبه وعقله وبصيرته ظلّت بمأمن من الشيخوخة ، فكان شابّ الحديث ، وكان شابّ المناظرة ، وكان شاب الجهاد . وهو الذى سلم على عائشة بعد وقعة الجمل ثم قال لها كيف رأيت ضرابنا يا أمَّه ! قالت : لستُ لك بأمّ ولستَ لى بابن . قال متضاحكاً : بلى أنت أمى وأنا ابنك وإن كرهت . يريد أن القرآن قد نزل بأن أزواج النبيّ أمهات المؤمنين ، فلن تستطيع عائشة أن تغير ما نزل به القرآن . وكان عمار أشد أصحاب علىّ تحريضاً على الحرب . وكان يحارب يوماً تجاه عمرو ابن العاص وهو يرتجز :

نحن ضربناكم على تَنْزيله والليومَ نضربكم على تأْويله
ضرباً يُزيل الهامَ عن مَقيله ويُذْهِلُ الخليلَ عن خليله
أو يرجعَ الحقُّ إلى سبيله

وكان يقول لأصحابه يومئذ مشيراً إلى راية عمرو : والله لقد قاتلت صاحب هذه الراية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرّات وهذه الرابعة وما هى بأبرّهن . وكان يقول لأصحابه حين رأى بعض انكشافهم : والله لو ضربونا حتى يُبلغونا سَعَفات هَجَر لعلمنا أنّا على الحق وأنهم على الباطل .

ويقال إنه استسقى قبل أن يقدم على الموقعة التى قُتل فيها فجاءوه ، بشىء من لبن ، فلما رآه كبّر وقال : أنبأنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن آخر زادى من الدنيا ضَيْح من لبن . ثم شربه واندفع إلى الموقعة وهو يدعو أصحابه : مَن رائح إلى الجنة ؟ الجنة تحت البوارق، الماء مورود اليوم ، غداً ألقى الأحبة : محمداً وحزبه .

وكان صاحبَ الراية فى الكتيبة التى كان أمرُها إلى عمار هاشمُ بن عتبة ابن أبى وقاص . وكان من فرسان قريش وأخيارهم وأحبهم لعلىّ وأنصحهم له ، وكان أعور . فكان عمار يدفعه إلى التقدّم عنيفاً به مرة فيقول : تقدم يا أعور ؛ ورفيقاً به مرة أخرى فيقول : أقدم فداك أبى وأمى . وكان هاشم بن عتبة يهدّئ عماراً ويقول له : مهلا أبا اليقظان ، إنك رجل تستخفك الحرب وإنى إنما أزحف زحفاً ولعلى أبلغ ما أريد . وكان ابن عتبة مع ذلك يقاتل وهو يرتجز :

أعور يَبغى نفسَه محلا قد أكثرَ القولَ وما أقلاّ

وعالج الحيــاةَ حتى ملاّ لا بُد أن يَفُل أو يُفَلاّ

أشُلّهم بذى الكُعوب شَلاّ

وما زال عمّار يدفعه وهو يتقدّم حتى قُتلا جميعاً .

وقُتل من أصحاب علىّ جماعة كثيرة من قرّاء الناس وصلحائهم ، كانوا يقاتلون على بصائرهم ، وكان الناس يرون منهم ذلك فيتأثرونهم ويفعلون فعلهم .

ولم يكن مَن قُتل من أصحاب معاوية أقلّ أخطاراً فى أهل الشام ممن قُتل من أصحاب علىّ فى أهل العراق . كان كثير من أولئك وهؤلاء يرون القتال ديناً ويتقرّبون به إلى الله . يذكر أهلُ العراق مكان علىّ من النبىّ وقولَ النبىّ لأصحابه : ألستُ أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ فلما قالوا له : بلى ؛ أخذ بيد علىّ وقال : من كنتُ مولاه فعلىٌّ مولاه . اللهم والِ مَن والاه وعادِ من عاداه . ويذكرون كذلك قول الله فى القرآن الكريم :(النبىُّ أولى بالمؤمنين من أنفُسهم) . ثم يذكرون قول الله عزّ وجل : (قُلْ إنْ كان آباؤُكم وأبْناؤُكم وإخْوانكم وأزْواجكم وعَشِيرتكم وأموالٌ اقترَفتُموها وتجارةٌ تَخْشَوْن كَسادَها ومساكنُ

تَرْضَوْنَها أحبُّ إليكم من الله ورسولِه وجِهادٍ فى سبيله فتربَّصُوا حتى يأْتِىَ اللهُ بأمره والله لا يَهدى القومَ الفاسقين) .

فهم كانوا يرون أنهم حين يقاتلون مع علىّ كأنهم يقاتلون مع النبىّ نفسه جهاداً فى سبيل الله . فليس الغريبُ إذاً أن يطلبوا الشهادة ويتهالكوا عليها ، وإنما الغريب أن يُحجموا أو يُدْبروا أو يتردّدوا . وكان أصحاب معاوية يرون أن بيعة عثمان فى أعناقهم وأنّ الذين قتلوه قد أحدثوا فى الإسلام حدثاً خطيراً ، واستحلُّوا من دمه ما حرّم الله واستحلّوا من الإمامة ما لا يحل للمسلمين أن يفرطوا فيه ، فضلاً عن أن ينتهكوا حرمته .

وكان معاوية وأصحابه قد ألقوا فى روع كثير من أهل الشام أن عليًّا يحول بينهم وبين إقامة حد خطير من حدود الله وهو القصاص ، فكان كثير منهم إذاً يقاتل لا غضباً لمعاوية ولكن غضباً للدين الذى انتهكت حرمته وعُطّلت حدوده ، ولم يقم علىٌّ فى تقويم ما اعوج من أمره وإصلاح ما فسد من سيرة الناس فيه . فإذا أضيفت إلى هذا كله أمور أخرى لا ترجع إلى الدين ولا تتصل به ، وإنما ترجع إلى العصبية العربية التى أخمدها عمر حيناً ، والتى شغلت عن نفسها بحرب العدوّ من الفرس والروم ، ثم فرغت لنفسها منذ شبت نار الفتنة فعادت إلى حالها فى الجاهليّة الأولى ، وجعلت كثيراً من العرب يذكرون قديمهم و يريدون أن يكون حديثهم ملائماً له ، واندفعوا فيما كانوا قد نُهوا عنه من التفاخر والتكاثر والاعتداد بالنفس . وترجع كذلك إلى طلب الدنيا والحرص على متاعها وأعراضها . أقول : إذا أضفت هذا إلى الدوافع الدينية التى كانت تدفع القوم إلى القتال العنيف البشع ، لم تنكر من شناعة هذه الحرب شيئاً .

غلب على قوم دينهم فقاتلوا لنصره كما يقاتل المؤمنون الصادقون، وغلبت على قوم دنياهم فقاتلوا لاحتيازها كما يقاتل الطامعون الجامحون . وخلت فى أثناء هذا كله الثغور أو كادت تخلو ، فطمع أعداء المسلمين فيما لم يكن لهم أن يطمعوا فيه .

وأكاد أعتقد أن مكيدة عمرو بن العاص تلك التي كادها برفع المصاحف لم تكن من عند نفسه ، لالأنه قلّد فيها عليّاً فحسب ، بل لشيء آخر سنراه قريباً . فقد ينبغي أن نذكر أن عليّاً إنما رفع المصاحف بين الصفّين في حرب البصرة قبل أن ينشب القتال ، يريد أن يُعذر إلى خصمه .وقد ينبغي أن نذكر أيضاً أن مكان طلحة والزّبير وأم المؤمنين من النبيّ ؛ كان يدعوه إلى أن يحتاط ويتأنّى ويذكرهم بالقرآن وما فيه ، ولا يقاتلهم حتى يستيئس من استجابتهم إلى ما دعاهم إليه . فلما رشق أهلُ البصرة ذلك الفتى الذى أمره عليّ فرفع المصحف بين الصفّين بالنّبل حتى قتلوه ، قال عليّ : الآن طاب الضّراب .

فلو قد أراد أهل الشام أن يتّقوا الفتنة والحرب حقّاً لرفعوا المصاحف ودعوا إلى ما فيها قبل بدء القتال . ولكنهم لم يفعلوا ، وما أكثر ما ذُكّروا بالقرآن فلم يذكروه ، وما أكثر ما ردّوا سفراء عليّ دون أن يعطوهم الرضى أو شيئاً يشبه الرضى . فما كان رفعهم للمصاحف بعد أن اتصلت الحرب أياماً وأسابيع ، وبعد أن توادع الجيشان شهرَ المحرم كلّه ، إلا كيداً لا يتقون به الفتنة وإنما يتقون به الهزيمة .

وأكبر الظن أنّ بعض الرؤساء من أصحاب عليّ لم يكونوا يُخلصون له نفوسهم ولا قلوبهم ، ولم يكونوا ينصحون له ؛ لأنهم كانوا أصحاب دنيا لا أصحاب دين ، وكانوا يندمون فى دخائل أنفسهم على تلك الأيام الهينة اللينة التى قضوها أيام عثمان ينعمون بالصلات والجوائز والإقطاع .

ولست أذكر من هؤلاء إلا الأشعث بن قيس الكندى ، ذلك الذى أسلم أيام النبيّ ثم ارتدّ بعد وفاته ، وألب قومه حتى ورّطهم فى الحرب ثم أسلمهم وأسرع إلى المدينة تائباً ، فلم يعصم دمه من أبى بكر فحسبُ ، ولكنه أصهر إليه وتزوّج أخته أم فروة . ثم خمل فى أيام عمر وظهر فى أيام عثمان فتولّى له بعض أعماله فى فارس . فلما همّ عليّ أن ينهض إلى الشام عزله عن ولايته ، ويقال إنه طالبه

بشيء من مال المسلمين ، ثم استصحبه واستصلحه . فلما رُفعت المصاحف ودُعى إلى التحكيم كان أشدّ الناس على علىّ فى الدعاء إلى قبول التحكيم .

ويجب أن نذكر أيضاً أن علياً لم ينهض إلى الشام بأهل الكوفة وبمن تابعه من أهل الحجاز وحدَهم ، وإنما نهض كذلك بألوف من أهل البصرة كان منهم من وتِر له يوم الجمل ، وكان منهم من اعتزل الناس فى ذلك اليوم أيضاً ، وكان منهم مع ذلك كثير من الذين انهزموا بعد مقتل طلحة والزبير .

فهم إذاً كانوا عثمانيةً لا يقاتلون مع علىّ عن رضى وصدق ، وإنما يقاتلون معه كارهين . وهم إذاً كانوا واجدين عليه لأنه قتل منهم من قتل واضطرهم إلى الهزيمة اضطراراً .

لم يكن أصحاب علىّ إذاً كلهم مخلصين له مؤمنين به ، وإنما كان منهم المخلص والمدخول .

وقد قدّمنا أن الفريقين كانا يلتقيان فى أمن ودعة أثناء شهر المحرم الذى توادعا فيه ، ونُضيف الآن أن القتلى كثُروا ذات يوم ، فطلب علىٌّ هدنة موقوتة ليدفن الناسُ قتلاهم . وأجيب إلى ما طلب .

وإذاً فقد كان أهل الشام وأهل العراق يلتقون ويختلطون فى غير موطن . ولم يكن من العسير أن يتناجوا ولا أن يأتمروا بينهم بما يشاءون . فما أستبعدُ أن يكون الأشعثُ بن قيس ، وهو ماكر أهل العراق وداهيتهم ، قد اتصل بعمرو ابن العاص ، ماكر أهل الشام وداهيتهم ، ودبروا هذا الأمر بينهم تدبيراً . ودبروا أن يقتتل القوم فإن ظهر أهلُ الشام فذاك ، وإن خافوا هزيمة أو أشرفوا عليها رفعوا المصاحف فأوقعوا الفرقة بين أصحاب علىّ وجعلوا بأسهم بينهم شديداً .

وقد تمّ لهم ما دبّروا إن كانوا قد دبّروا شيئاً . واستكره الأشعثُ ومن أطاعه علياً على كفّ القتال ، فلم ير بدّاً من الإذعان لما أرادوا .

وأكبر الظن عندى كذلك أن المؤامرة لم تقف عند هذا الحد وإنما تجاوزته إلى ما هو أشد منه خطراً ، وهو اختيار الحكمين . فللأمر ما ألحّ الأشعثُ ومن تبعه من اليمانية فى أن يختار علىٌّ أبا موسى الأشعرىّ ، ولم يطلقوا له الحرية فى

اختيار حكَم يثق به ويطمئن إليه . وهم يعلمون أن أبا موسى قد خذّل الناس عن عليّ في الكوفة حتى عزله عن عمله . فقد كان عليّ إذاً مُكْرَهاً على قبول التحكيم ومكرهاً على اختيار أحد الحكمين . ولم تأت الأمور مصادفة وإنما جاءت عن ائتمار وتدبير بين طلاّب الدنيا من أصحاب عليّ وأصحاب معاوية جميعاً .

ومهما يكن من شيء فقد اتفق الفريقان على أن يحكِّموا هذين الحكمين . يحكِّمون عمراً من قِبَل معاوية ويحكِّمون أبا موسى من قبل عليّ . وأبَى أصحابُ عليّ على إمامهم أن يختار ابنَ عباس لأنه شديد القرب منه . وأبَوْا عليه أن يختار الأشترَ لأن اجتهاده فى الحرب كان عظيماً وحرصه على الغلب كان شديداً . ولم يستطع عليّ أن يقبل ما عرضه عليه الأحنف بن قيس من أن يكون مندوبَه فى الحكم ، بل لم يستطع أن يجعله ثانياً لأبى موسى ، لأن أصحابه أبَوْا إلا أن ينتدبُوا أميرهم القديم الذى كره لهم الفتنة والذى لم يشترك فى الحرب مع هذا الخصم أو ذاك . ولم يذكروا أن عمرو بن العاص قد شارك فى الحرب برأيه ولسانه وسيفه ، بل لعلهم ذكروا ذلك ولكنهم لم يقفوا عنده ولم يلتفتوا إليه .

واجتمع المفوَّضون من الفريقين فكتبوا صحيفة سجّلوا فيها ما اتفق عليه الخصمان من وضع الحرب وإيثار الحكومة واختيار الحكمين وتحديد الزمان والمكان لاجتماعهما ، وتأمينهما على أنفسهما وأموالهما مهما يكن حُكمهما ، واستنصار الأمة كلها على من خالف عمّا فى هذه الصحيفة .

حدّدوا هذا كله تحديداً دقيقاً ، ولكن شيئاً واحداً أطلقوه إطلاقاً ولم يحدّدوه تحديداً قريباً أو بعيداً ، وهو موضوع القضية التى يجب أن يفصل فيه الحكمان . واقرأ أولاً نص هذه الصحيفة كما رواه البلاذرى : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما تقاضى عليه عليّ بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان . قاضَى عليٌّ على أهل العراق ومَن كان من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين ، وقاضى معاوية على أهل الشام ومن كان من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين : أنّا ننزل عند حكم الله ، وبيننا كتاب الله فيما اختلفنا فيه من فاتحته إلى خاتمته ، نُحيي ما أحيا ونميت ما أمات . فما وجد الحكمان فى كتاب الله فإنهما يتّبعانه ، وما لم يجداه مما اختلفا فيه فى كتاب الله نصّاً أمضيا فيه السنة العادلة الحسنة الجامعة غير المفرّقة . والحكَمان عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص . وأخذنا عليهما عهد الله وميثاقه ليحكمانّ بما وجدا فى

كتاب الله نصاً ، فما لم يجداه فى كتاب الله مُسمىً ، عملا فيه بالسنة الجامعة غير المفرّقة . وأخذا من علىّ ومعاوية ومن الجندين كليهما وممن تأمّرا عليه من الناس عهد الله ليقبلُنّ ما قضيا به عليهما . وأخذا لأنفسهما الذى يرضيان به من العهد ومن الثقة بالناس أنهما آمنان على أنفسهما وأهليهما وأموالهما ، وأن الأمة لهما أنصار على ما يقضيان به على علىّ ومعاوية ، وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كلتيهما ، وأن على عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهدَ الله وميثاقه أن يُصلحا بين الأمة ولا يرداهم إلى فرقة ولا حرب ؛ وأنّ أجَل القضية إلى شهر رمضان ، فإن أحبّا أن يعجلاها دون ذلك عجلا ، وإن أحبّا أن يؤخّراها عن غير ميل منهما أخراها . وإن مات أحد الحكمين قبل القضاء فإن أمير كل شيعة وشيعته يختارون مكانه رجلا ، لا يألون عن أهل المعدلة والنصيحة والإقساط . وأن يكون مكان قضيتهما التى يقضيانها فيه مكان عدل بين الكوفة والشام والحجاز ، لا يحضرهما فيه إلا من أرادا . فإن رضيا مكاناً غيره فحيث أحبّا أن يقضيا . وأن يأخذ الحكمان من كل واحد مَن شاءا من الشهود ثم يكتبا شهادتهم فى هذه الصحيفة أنهم أنصار على مَن ترك ما فيها : اللهم نستنصرك على من ترك ما فى هذه الصحيفة وأراد فيها إلحاداً أو ظلماً . .

وشهد من كل جند على الفريقين عشرة ، من أهل العراق : عبد الله ابن عباس ، والأشعث بن قيس ، وسعد بن قيس الهمدانى ، وورقاء بن سُمى ، وعبد الله بن طُفَيل ، وحُجْر بن عدىّ الكندى ، وعبد الله بن حَجَل الأرْحبى البكرى ، وعُقبة بن زياد ، ويزيد بن حُجَيّة التيمى ، ومالك بن كعب الأرحبى .

ومن أهل الشام : أبو الأعور عمرو بن سفيان السُّلَمى ، وحبيب بن مسلمة الفِهْرى ، والمُخَارق بن الحارث الزُّبيدى ، وزَمْل بن عمرو العُذْرى ، وحمْزة ابن مالك الهمْدانىّ ، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد المخزومى ، وسُبَيْع بن يزيد الحَضْرمى ، وعلْقَمة بن يزيد الحَضْرَمى ، وعتْبة بن أبى سفيان ، ويزيد بن الحُرّ العبسى » .

وقد رويت هذه الصحيفة من غير طريق البلاذرى على شىء من الاختلاف فى اللفظ ليس بذى خطر ، وعلى شىء من التقديم والتأخير ليس بذى خطر أيضاً .

ولكن الخطير كما قدّمنا هو أن الفريقين قد حدّدا فى صحيفتهما كل شىء إلا هذا الموضوع الذى اختلفا فيه والذى يجب أن يقضى فيه الحكمان .

ففيم كانا يختلفان بالفعل ؟ كان معاوية يطلب بدم عثمان ويريد أن يسلم إليه علىّ قتلة الخليفة المظلوم . وكان علىّ لا يعرف لعثمان قاتلاً بعينه ولا يقدر على أن يُسلم إلى معاوية جميع من ثاروا بعثمان حتى قُتل .

أفكان الفريقان يريدان من الحكمين أن يفصلا فى هذه القضيّة ؟ وإذاً فما بالهما لم ينصّا عليها بل لم يذكرا عثمان وقتلته فى الصحيفة أصلا .

وكان معاوية يرى بعد مقتل طلحة والزبير ، وبعد أن استحصد أمره واشتد بأسه أن يكون أمر الخلافة شورى بين المسلمين . وكان علىّ يرى أنه قد بُويع كما بويع الخلفاء من قبله ، بايعه أهل الحرمين وهم أصحاب الحل والعقد ، وبايعه أهل الأمصار إلا الشام . فقد اجتمعت له إذاً بيعة الكثرة الكثيرة من المسلمين عامة ، ومن المهاجرين والأنصار خاصة ، ولم يبق لمعاوية إلا أن يدخل فيما دخل فيه الناس ، ويدخل معه أصحابه من أهل الشام ، فإن لم يفعلوا فهم الفئة الباغية التى أمر المسلمون بقتالها إن أبت الصلح وكرهت العافية حتى تفىء إلى أمر الله . وإذاً فما بال الفريقين لم ينصّا على ذلك فى صحيفتهما ، بل لم يذكرا الخلافة ولا الشورى فى الصحيفة أصلا . والغريب أن هذه الصحيفة التى رواها المؤرخون قد أرضت الفريقين المختصمين ، لم ينكرا فيها غموضاً ولا عموماً ولا إبهاماً ، مع أنها من أشد ما كتب المسلمون غُموضاً وعموماً وإبهاماً فيما يتصل بموضوع القضية الذى كان يجب أن يحدَّد تحديداً لا لبس فيه .

وأكبر الظن أن الذين كتبوا الصحيفة من الفريقين لم يحفلوا بدقة ولا بتحديد ، وإنما كرهوا الحرب وسئموا القتال وتعجلوا السلم . وكان أصحاب معاوية يكفيهم أن تنحسر الحرب عنهم وأن يختلف أهل العراق . وكانت عامة أهل العراق يكفيهم أن يثوبوا إلى السلم . وكان الماكرون منهم إن استقام الفرض الذى افترضته آنفاً يعنيهم أن تكون القضية غامضة غير بينة الحدود . يرون ذلك أنفع لمعاوية وأضر لعلىّ ، وأحرى أن ينيلهم من السلطان ومتاع الدنيا ما يريدون .

وهذا كله يفسر لنا ما كان ، بعد أن كُتِبت هذه الصحيفة ، من الاختلاف فى صفوف أهل العراق والائتلاف فى صفوف أهل الشام . وأكبر الظن أن عليًّا ضاق بأصحابه حين رأى أنهم يعصونه فى كل ما يأمرهم به أو يشير عليهم فيه ، فخلّى بينهم و بين ما أرادوا وتمثل قول دُريد بن الصِّمة :

أمرتُهم أمْرِى بمُنعرج اللِّوى فلم يَستَبينوا الرُّشد إلّا ضُحى الغدِ
فلما عَصَوْنى كنتُ منهم وقد أرى غوايتهم وأننى غير مهتد
وهل أنا إلّا من غزية إن غوت غَويتُ وإن ترشد غزية أرشد

وأكاد أشهد الأشعث بن قيس وقد استقام له كل ما أراد ، فهو جذلان مسرور لا يكتفى بالرضى والغبطة ، وإنما يأخذ الصحيفة فيمشى بها فى الجيش يقرؤها على الجند ويكلف مَن يقرؤها عليهم حين تُجهده القراءة . والجند يسمعون فيرضى كثير منهم لأن الحرب قد كُشفت عنهم ، وتسخط منهم جماعة غير قليلة لأنهم يرون فى هذه الحكومة وصحيفتها انحرافاً عن الدين ، ومخالفة عما أمر الله به فى القرآن ، فمنهم من كان يقول : أتحكّمون الرجال فى دين الله ؟ ومنهم من كان يكتفى بهذه الصيحة التى أصبحت شعاراً للخوارج فيما بعد : « لا حكم إلا لله » . ومنهم من كان يخرجه الغضب عن طوره فلا يكتفى بالقول وإنما يضيف إليه العمل ، فقد يقال إن رجلا من هؤلاء المنكرين للحكومة كره أن يشارك أصحابه فاستلّ سيفه وصاح : لا حكم إلا لله . ورمى بنفسه جيش أهل الشام فقاتل حتى قُتل .

ومن المحقق أن عُروة بن أُديَّة ، أخا ذلك الخارجى الذى حفظ التاريخ اسمه ، وهو مِرداس أبو بلال ، لم يكد يسمع ما قُرئ عليه من الصحيفة حتى ثار بالأشعث يريد أن يقتله . فنفرت دابة الأشعث وأصاب سيفُ عُروة عجزَها ، وكاد الشرّ أن يقع بين اليمانية أصحاب الأشعث والتميمية قوم عُروة ، لولا أن مَشت وجوه تميم فاعتذروا إليه حتى رضى .

وما ينبغى أن ندع جيش علىّ يترك صِفّين دون أن نبيّن حجة هؤلاء الذين أنكروا الصحيفة وكرهوا الحكومة ، وكان لهم بعد ذلك فى تاريخ الإسلام شأن أى شأن .

وحجتهم كانت واضحة أشدّ الوضوح وأقواه . جاء بها القرآن صريحة لا لبس فيها ، فالله عز وجل يقول : (وإنْ طائِفَتان مِنَ المؤْمِنين اقْتَتَلوا فأَصْلِحُوا بيْنَهما فإن بَغَتْ إحدَاهُما على الأُخرى فقاتِلوا التى تَبْغى حتى تَفِىءَ إلى أَمْر الله . فإنْ فاءت فأَصْلِحُوا بيْنَهما بالعَدْل وأَقْسِطُوا إنَّ الله يُحبُّ المقْسطين . إنما المؤمنون إخوة فأَصْلِحوا بَيْن أَخوَيْكم واتَّقُوا الله لعلَّكُم تُرحَمون) .

وكان علىّ وأصحابه ، وهم كثرة المسلمين ، يرون أن معاوية وأصحابه قد بغوْا . وقد أسفر علىّ إلى معاوية ومن معه من أهل الشام فردّوا سفراءه وأبوا أن يكون بينه وبينهم إلاّ السيف . ثم سبق معاويةُ وأصحابه إلى الماء فآثروا به أنفسهم وأرادوا تظمىء علىّ وأصحابه ، فاقتتل الفريقان على الماء حتّى خلص لعلىّ . ثم أذن لمعاوية وأصحابه أن يردوا وأن يشربوا . فهاتان طائفتان من المؤمنين قد اقتتلوا .

ثم أرسل علىّ سفراءه إلى معاوية يعرضون عليه أن يدخل فى الطاعة وألا يفرق المسلمين ، فلم يجدوا عنده خيراً . فاقتتلوا أياماً ثم توادعوا شهر المحرم . وحاول علىّ وأصحابه الصلح فلم يجدوا من أهل الشام استجابة إليه . فاقتتلوا فى صفر . وكان يجب أن يمضوا فى القتال بحكم الآية الكريمة حتى يفىء معاويةُ وأهل الشام إلى أمر الله ، وحينئذ تكفّ عنهم الحرب ويرفع عنهم السيف ويصبحون لخصمهم أولئك إخواناً ، ويجب الإصلاح بين الأخوين .

وقد كاد جيش علىّ أن يظفر بالطائفة الباغية ويضطرها إلى أن تفىء إلى أمر الله ، ولكن المصاحف تُرفع ، وإذا الحرب تُكفّ ، وإذا القوم يدخلون فى حكومة غامضة مبهمة لا حظّ لها من وضوح أو جلاء . فلم يخطئ الذين قالوا « لا حكم إلا لله » إذاً . وحكم الله هو أن يستمر القتال حتى يخضع معاوية وأصحابه . وليس أدلّ على ذلك من أن عليًّا نفسه ، وهو الإمام ، أبى أن ينخدع برفع المصاحف ، وقال : إن معاوية ورهطه الأدنين ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، وإنما هم يكيدون ويخادعون ويتقون حرّ السيف . فقد كان الإمام إذاً يرى ألا حكم إلا لله ، وأن السبيل إلى حكم الله هو القتال حتى يذعن أهل الشام ، ولكن كثرة أصحابه لم تذهب مذهبه واستكرهته على غير ما أحب ، فكانت هذه الحكومة .

إلى هنا يظهر فى غير لَبْس أن الذين حكموا لم يخطئوا وإنما التزموا أمر القرآن والتزموا رأى الإمام أيضاً . ويقال إنهم ألحوا عليه فى أن يمضى بهم فى القتال حتى ينفذ حكم الله . ولكن عليًّا رآهم قلة قليلة ، ورأى أنه إن قبل مشورتهم أوقعهم بين عدوهم من أهل الشام وأصحابهم من أهل العراق . فألقى بأيديهم إلى التهلكة ، ولذلك أبى عليهم وجعل يرفق بهم ويهدئهم ، ويدعوهم إلى اختيار ما فيه لهم ولأصحابهم العافية .

وهنا يبدأ خطأ هؤلاء الذين حكموا : كانوا على صواب حتى شاوروا الإمام فنصح لهم واستأنى بهم وأمرهم بالقصد ، وهم ليسوا أعلم بالقرآن من علىّ ولا أحفظ منه للسنة ولا أبصر منه بالمصلحة . وقد ينبغى أن يترك للإمام شىء من حرية يُمضى به الأمر بين رعيته . فهذه كثرة أصحابه تطالبه بالسلم والحكومة ، وهذه قلة أصحابه تطالبه بالحرب ورفض الحكومة ، وأولئك وهؤلاء يركبون رءوسهم ويغلون فيما يذهبون إليه . وليس للإمام خيار إلا أن يمضى مع الكثرة إلى السلم والحكومة ، والأمل فى صلح يحقن الدم ويجمع الشمل . أو يمضى مع القلة إلى الحرب واليأس المُبير . وقد آثر المضى مع الكثرة ؛ فكان على القلة أن تؤثر ما آثرت محتفظة برأيها منتظرة مع الإمام ، فإن كان الصلح المقنع فذاك ، وإن لم يكن رجعت الكثرة إلى رأى القلة وعادوا جميعاً إلى الحرب .

ولكن كلا الفريقين من الكثرة والقلة أبى أن يتبع إلا رأيه ، وانحاز علىّ إلى الكثرة كارهاً . ولم يمض يومان على كتابة الصحيفة ، أنفقهما القوم فى دفن القتلى حتى أذّن مؤذّن علىّ فى أصحابه بالرحيل عن صفين ، فرجعوا إلى الكوفة شرّ مرجع . خرجوا منها أشدّ ما يكونون مودة وإلفاً وتصافياً ، وعادوا إليها أشد ما يكونون موجدة وفرقة واختلافاً ، يتشاتمون ويتضاربون بالسياط ، تقول القلة للكثرة : خالفتم أمر الدين وانحرفتم عن حكم القرآن وحكمتم الرجال فيما لا حكم فيه إلا لله . وتقول الكثرة للقلة : خالفتم الإمام وفرقتم الجماعة وابتغيتموها عوجاً . ثم لم يدخلوا الكوفة جميعاً كما خرجوا منها جميعاً ، وإنما انحازت المحكمة إلى حرُوراء فاعتزلوا فيها . وكانوا ألوفاً يصل بها المكثرون إلى اثنى عشر ألفاً ويهبط بها المقلّلون إلى ستة آلاف . وقد اعتزلوا فى حرُوراء فنسبوا إليها . وأذّن مؤذّنهم ألا

إنّ على الحرب شَبَث بن ربْعيّ التيمي ، وعلى الصلاة عبد الله بن الكوّاء اليَشكريّ ، والبيعة لله عز وجل على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ومنذ ذلك اليوم نشأ فى الإسلام حزب جديد كان له فى تاريخه أثر بعيد ، ودخل عليّ الكوفة مُنْقلبه من صفّين كما دخلها مُنْقلبه من البصرة . فلم ير فى مدخله هذا كما لم ير فى مدخله ذاك فرحاً بقدومه ولا ابتهاجاً بلقائه ، وإنما رأى فى مدخله هذا كما رأى فى مدخله ذاك لوعة وحسرة وبكاء . إلا أن ما رأى من ذلك بعد عودته من صفّين كان أكثر كثرة وأشد نكراً ، فقد كان قتلى صفّين بالقياس إلى قتلى يوم الجمل أضعافاً وأضعافاً .

والغريب أن المؤرخين الذين أكثروا من ذكر ابن السوداء عبد الله بن سبأ وأصحابه حين رووا أمر الفتنة أيام عثمان ، وأكثروا من ذكرهم بعد مقتل عثمان قبل أن يشخص علىّ من المدينة للقاء طلحة والزبير وأمّ المؤمنين . ثم أكثروا من ذكرهم حين كان علىّ يستفر إلى طلحة والزبير وأمّ المسلمين فى الصلح . ثم زعموا أنهم أتمروا على حين غفلة من علىّ وأصحابه بإنشاب القتال . ثم زعموا أنهم أنشبوا القتال فجاءة حين التقى الجمعان عند البصرة وورطوا المسلمين فى شر عظيم - الغريب أن هؤلاء المؤرخين قد نسوا السبئية نسياناً تامًّا ، أو أهملوها إهمالا كاملاً حين رووا حرب صفين .

فابنُ السوداء لم يخرج مع علىّ إلى الشام ، وأصحاب ابن السوداء خرجوا معه ولكنهم كانوا أنصح الناس له وأوفى الناس بعهده وأطوع الناس لأمره . لم يأتمروا ولم يسعوا بالفساد بين الخصمين ، وإنما سمعوا وأطاعوا وأخلصوا الإخلاص كله ، حتى إذا رفعت المصاحف خرج بعضهم مع المحكّمة الذين أنكروا الصحيفة وما فيها ، كحُرْقوص بن زُهير ، وأقام بعضهم على طاعة علىّ ، وإن أنكر الصحيفة وكره الحكومة كالأشتر .

وأقلّ ما يدل عليه إعراض المؤرخين عن السبئية وعن ابن السوداء فى حرب صفين أن أمر السبئية وصاحبهم ابن السوداء إنما كان متكلفاً منحولا ، قد اخترع بأخرة حين كان الجدال بين الشيعة وغيرهم من الفرق الإسلامية . أراد خصوم الشيعة أن يدخلوا فى أصول هذا المذهب عنصراً يهوديًّا إمعاناً فى الكيد لهم والنيل منهم . ولو قد كان أمر ابن السوداء مستنداً إلى أساس من الحق والتاريخ الصحيح لكان من الطبيعى أن يظهر أثره وكيده فى هذه الحرب المعقدة المعضلة التى كانت بصفّين ، ولكان من الطبيعى أن يظهر أثره حين اختلف أصحاب علىّ فى أمر الحكومة ، ولكان من الطبيعى بنوع خاص أن يظهر أثره فى تكوين هذا الحزب الجديد الذى كان يكره الصلح وينفر منه ويكفّر مَنْ مال إليه أو شارك فيه .

ولكنّا لا نرى لابن السوداء ذكرًا فى أمر الخوارج . فكيف يمكن تعليل هذا الإهمال ، أو كيف يمكن أن نعلّل غياب ابن سبأ عن وقعة صفين وعن نشأة حزب المحكمة .

أما أنا فلا أعلل الأمرين إلا بعلة واحدة ، وهى أن ابن السوداء لم يكن إلا وهماً ، وإن وُجد بالفعل فلم يكن ذا خطر كالذى صوّره المؤرخون وصوّروا نشاطه أيام عثمان وفى العام الأول من خلافة علىّ . وإنما هو شخص ادّخره خصوم الشيعة للشيعة وحدهم ولم يدّخروه للخوارج ؛ لأن الخوارج لم يكونوا من الجماعة ولم يكن لهم مطمع فى الخلافة ولا فى الملك ، وإنما كانوا قوماً يثورون بكل خلافة وينتقضون على كل ملك ، ويحاربون الخلفاء والملوك ما وجدوا إلى حربهم سبيلا ، ثم هم لم يكونوا حزباً باقياً متصلا عظيم الخطر ، ولا سيما بعد أن انقضى عصر بنى أمية ، وإنما ضعف أمرهم وفُلّ حدّهم بعد أن تقدم الزمان بدولة بنى العباس . وبقى مذهبهم معروفاً بين المتكلمين ، ولكنه اتخذ فى الحياة العملية أطواراً مختلفة قد نعرض لها فى غير هذا الجزء من هذا الكتاب .

فلم يكونوا إذاً حزباً تحتاج خصومته إلى الجدال الشديد المتكلّف الذى يبغّضهم إلى الناس ويزهّد فيهم أصحاب التقى والورع ، كما كان أمر الشيعة الذين ظلوا ينازعون الملوك والخلفاء سياسة المسلمين إلى الآن .

أمّا البلاذرىّ فقد رأينا فيما سبق من هذا الكتاب أنه لم يذكر ابن السوداء ولا أصحابه السبئية فى أمر عثمان ، وهو كذلك لم يذكره فى أمر علىّ إلا مرةً واحدةً فى أمر غير ذى خطر ، إذ جاء عليًّا مع آخرين يسألونه عن أبى بكر فردهم ردًّا عنيفاً لائماً لهم على تفرغهم لمثل هذا ، على حين كانت مصر قد فتحت وقتلت فيها شيعة علىّ .

وكتب علىّ كتاباً يذكر فيه ما صارت إليه الأمورُ بعد تخاذل أهل العراق وأمر أن يقرأ هذا الكتاب على الناس لينتفعوا به .

قال البلاذرىّ : وكانت عند ابن سبأ منه نسخة حرّفها ، وابن سبأ عند البلاذرىّ ليس ابن السوداء ، وإنما هو عبد الله بن وهب الهمدانى .

والبلاذرىّ يروى هذا الخبر كله متحفظاً متوخياً للصدق ما استطاع ، وهو

كثيراً ما يروى بعض الأحاديث ثم يُعقِّب عليها بما يظهر الشك فيها، لأنها من اختراع أهل العراق .

والواقع أن الخصومة بين الشيعة وأهل الجماعة قد اتخذت ألواناً من الجدل والإذاعة ونشر الدعوة بعد أن استقام الأمر لبنى العباس ، كثر فيها المكر والكيد والاختراع ، بحيث يجب على المؤرخ المنصف أن يحتاط أشد الاحتياط حين يصور هذه الفتن فى عهدها الأول . وأى شىء أيسر من أن يكذب أهل الشام على أهل العراق ، ومن أن يكذب أهل العراق على أهل الشام ولا سيما بعد أن يمضى الزمن ويبعد العهد ويصبح التحقق من الوقائع الصحيحة عسيراً .

والذين استباحوا لأنفسهم أن يضعوا الأحاديث على النبى وأصحابه لا يتحرجون من أن يستبيحوا لأنفسهم وضع الأخبار على أهل الشام والعراق . ومؤرخ هذا العصر الذى نحاول تصويره ممتحن أعسر الامتحان وأشقه من ناحيتين :

إحداهما ناحية القصّاص الذين كانوا يتحدّثون بأمر الفتن فى البصرة والكوفة فيرسلون خيالهم على سجيته ويتعصّبون للقبائل المختلفة من العرب ، ولعلهم كانوا يأخذون المال من أولئك وهؤلاء ليحسنوا ذكرهم ويعظموا أمرهم ويذكروا لهم من المآثر ما كان وما لم يكن ، ويرووا فى هذه المآثر من الشعر ما قيل وما لم يقل . ولذلك كان كل الناس شعراء يوم الجمل ويوم صِفّين ، ولذلك رُويت الأخبار التى لا تستقيم فى العقل .

فذلك الفتى الذى أمره علىّ برفع المصحف لأهل البصرة يوم الجمل ، يأخذ المصحف بيمينه ، فإذا قُطعت أخذه بشماله ، فإذا قطعت أخذه بأسنانه أو بمنكبيه حتى يُقتل .

ورجل آخر يُصرع وتصيبه ضربة قاتلة فينشد الشعر وهو محتضر يلمّ به هذا ويمدح به ذاك ؛ إلى غير ذلك من الأخبار والأشعار التى يظهر فيها التكلف والاختراع .

والناحية الثانية هى ما كان من أصحاب الجدل ، ومن أولئك الذين أمدوهم بالأخبار والأحاديث يؤيدون بها مذاهبهم وآراءهم . ويزداد الأمر فى هذه الناحية تعقيداً وعسراً لأنه يتصل بالدين ، فالجدال بين الفرق لم يكن عند القدماء

جدالاً فى أمور الدنيا ، وإنما كان جدالا فى أصول الدين وفيما يتبنى عليها من الفروع . فكان من اليسير أن يتهم المجادلون خصومهم بالكفر والفسق والزندقة والإلحاد ، وأن يشنّعوا عليهم ماشاء الله مما يصح لهم من الحديث والسير وما يُبتكر لهم ابتكاراً .

ومهما يكن من شيء فالبلاذرى لا يذكر ابن السوداء وأصحابه فى شيء من الفتنة أيام عثمان وأيام علىّ . والطبرىّ ورُواته الذين أخذ عنهم والمؤرخون الذين أخذوا عنه فيما بعد ، يذكرون ابن السوداء وأصحابه فى أمر الفتنة أيام عثمان وفى العام الأول من أيام علىّ ثم ينسونهم بعد ذلك . والمحدثون وأصحاب الجدل متفقون مع الطّبرىّ وأصحابه فيما ذهبوا إليه . إلا أن المحدثين وأصحاب الجدل ينفردون من دون الطّبرىّ وأصحابه بشىء آخر ، فيزعمون أن ابن السوداء وأتباعه ألّهوا عليًّا وأن عليًّا حرقهم بالنار . ولكنك تبحث عن هذا فى كتب التاريخ فلا تجد له ذكرًا . فلسنا نعرف فى أى عام من أعوام الخلافة القصيرة التى وليها علىّ كانت فتنة هؤلاء الغلاة . وليس تحريق جماعة من الناس بالنار ، فى الصدر الأول للإسلام ، وبين جماعة من أصحاب النبىّ ومن صُلحاء المسلمين ، بالشىء الذى يغفل عنه المؤرخون فلا يذكرونه ولا يوقّتونه ، وإنما يهملونه إهمالا تامًّا .

وكل ما رواه المؤرخون هو ما ذكره البلاذرىّ فى حديث قصير وقع إليه من أن قوماً ارتدوا بالكوفة فقتلهم علىّ . وحكْم الإسلام فيمن ارتدوا معروف ، وهو أن يُستتاب فإن تاب حقن دمه ، وإن لم يتب قُتل . فلا غرابة إذاً فى أن يقتل علىٌّ نفراً ارتدوا ولم يتوبوا ، إن صح هذا الخبر . وإن كان البلاذرىّ لم يُسمِّ أحداً ولم يوقّت لهذه الحادثة وقتاً ، وإنما رواها مطلقة إطلاق من لا يطمئن إليها .

فلندع إذاً ابن السوداء هذا وأصحابه ، سواء أكان أمرهم وَهماً خالصاً أم أمراً غير ذى خطر بُولغ فيه كيداً للشيعة . ولنعد إلى علىّ وقد استقر بالكوفة ، وإلى المحكمة وقد استقرت بحروراء .

فلم يكن عليّ وأصحابه مطمئنين إلى خروج هذه الخارجة التي انتبذت من الجماعة مكانها بحروراء . ولم تكن هذه الجماعة نفسها مطمئنة الاطمئنان كله إلى ما هي مستقبلة من أمرها . وآية ذلك أنهم أقاموا على حربهم شَبَث بن رِبْعي التميمي ، فلم يلبث إلا قليلا حتى رجع إلى الكوفة وأقام مع الجماعة على ما كانت مقيمة عليه . وكان عليّ يرجو أن يستصلح هؤلاء الناس . وكان هؤلاء الناس أنفسهم يأملون أن ينتهي الأمر بينهم وبين قومهم إلى مخرج من هذا المأزق الذي تورّطوا فيه. فكانوا يوفدون وفودهم إلى عليّ يفاوضونه ويناظرونه ويدعونه إلى استئناف القتال مع عدوّهم من أهل الشام . وكان عليّ يرد على أولئك الوفود بأنه لم يكره القتال وإنما هم الذين كرهوه وجزعوا منه ، وبأنه قد أعطى معاوية وأصحابه ميثاقاً على القضية . فليس ينبغي له إلا أن ينزل عند ما أعطى من الميثاق . وكانت الوفود ترجع إلى أصحابها بما سمعت من كلام عليّ فيزداد إصرارهم على المقاطعة والمخاصمة . ثم أرسل إليهم عليّ عبد الله بن عباس في جماعة من أصحابه . فناظرهم تلك المناظرة المشهورة عند أهل الفرق وأصحاب الكلام . سألهم ماذا نقموا من أمير المؤمنين . فقالوا : تحكيمه الحكمين . فقال ابن عباس : إن الله قد أمر بالتحكيم في الصيد الذي يُصيبه المحرم ، فقال : (يأيُّها الَّذين آمنوا لا تَقتُلوا الصَّيْدَ وأَنْتُم حُرُمٌ ومن قَتَلَه مِنكم مُتعمدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ ما قَتَل مِنَ النَّعَم يحكُمُ بهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بالغ الكعْبة أو كَفَّارةٌ طَعَامُ مَساكِين أو عدْلُ ذلك صياماً لِيَذُوق وَبَالَ أَمْرِه عَفَا اللهُ عمَّا سَلَف ومنْ عَادَ فَينتَقِمُ اللهُ منه والله عَزِيزٌ ذو انتقام) .

وأمر بتحكيم حكمين بين الزوجين إن خيف بينهما الشقاق فقال : (وإن خِفْتُم شِقَاق بَيْنِهما فابْعَثُوا حَكَمًا مِن أَهْله وحَكَماً مِنْ أَهْلِها إنْ يُرِيدا إصلاحاً يُوفِّق اللهُ بيْنهما إن الله كان عَليماً خَبيرًا) .

فالله إذاً قد حكّم الرجال فى الأمور اليسيرة فكيف بالأمور الكبار التى تمس اجتماع الأمة وحقن الدماء .

وكان ردّ الخوارج عليه مُقنعاً حاسماً فقالوا : إنّ ما نص الله عليه من الأحكام لا تجوز المخالفة عنه ، وما أذِن للناس فيه فى الرأى جاز لهم أن يجتهدوا فيه برأيهم . ألا ترى إلى أمر الله فى الزانى والسارق وقاتل النفس المؤمنة بغير حقها ، فليس للإمام أن يخالف عن هذا الأمر ولا أن يغير فيه ، وأمْر الله فى معاوية وأصحابه واضح فى آية الطائفة الباغية ، فلم يكن لعلىّ أن يغيّره وإنما كان الحق عليه أن يمضى فى قتال هؤلاء البُغاة حتى يفيئوا إلى أمر الله .

وتقدّم صَعْصَعة بن صُوحان من أصحاب ابن عباس فوعظهم وخوّفهم الفتنة . فيقال إن قوماً منهم نحو ألفين عادوا إلى الكوفة مع ابن عباس . ويقال إن عليّاً أرسل ابن عباس وأمره ألا يناظر القوم حتى يلحقه ، فتعجّل ابن عباس هذه المناظرة وأدركه علىّ ، وقد كاد القوم يظهرون عليه ، فأخّره وتقدّم فناظر القوم حتى ردّهم إلى الصواب .

وأنا أرجّح أنّ عليّاً اكتفى أول الأمر بإرسال ابن عباس فى جماعة من أصحابه ، فلما رأى أنهم لم يُغْنوا الغناء الذى كانوا يرجوه ذهب بنفسه إلى الخوارج ، بعد أن أرسل إليهم فى أن يَنْتَدبوا للمناظرة اثنى عشر رجلاً منهم ، ويأتى هو فى مثلهم . ثم خرج علىّ حتى أتى فسطاط يزيد بن مالك الأرْحبىّ ، وكان الخوارج يعظمونه ويُطيفون به . فصلى فى الفسطاط ركعتين ثم تقدّم فناظر الناس . سمع منهم حججهم وهى واضحة قد قدّمناها من قبلُ غيرَ مرة ، ثم ردّ عليهم بما تعوّد أن يقول دائماً من أنه لم يكره القتال ولم يدْعُ إلى تركه ، وإنما كرهه أصحابه واستكرهوه على وضع الحرب كما استكرهوه على قبول الحكومة . وكأنّ الخوارج قبلوا منه أن يُذعن حين استكرهه أصحابه على ترك القتال ، ولكنهم لم يفهموا كيف استكرهوه على قبول الحكومة . فهو لا يستطيع أن يقاتل وحده ولا يستطيع أن يقاتل بالقِلّة من أصحابه حين ينخذل عنه أكثرهم . ولكنه فى رأيهم كان يستطيع — لا أدرى كيف — أن يرفض الحكومة وليس لأحد أن يكرهه عليها .

فردّ عليهم بأنه كره أن يتأوّل الناس عليه قول الله عز وجل : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الكِتَابِ يُدْعون إلى كِتاب الله ليحكُم بينهم ثم يتَوَلَّى فريق منهم وهُم مُعْرِضون﴾ .

كما كره أن يتأوّل الناسُ عليه آية التحكيم فى الصَّيد وآية التحكيم فى الشقاق . وقالوا : فلمَ لم تُثبت فى الصحيفة أنك أمير المؤمنين ؟ أتراك شككت فى إمرتك ؟ قال علىّ : فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم محا من صحيفة الُحديبية وصفه بأنه رسول الله وما شكّ فى نبوّته ولا فى رسالته .

ثم عاد علىّ إلى أمر الحكمين فقال : إنه أخذ عليهما العهد أن يحكما بما فى كتاب الله . فإن وفّيا بما أعطيا من العهد فالحكم له ، ما فى ذلك شك . وإن خالفا عما فى كتاب الله فلا حكم لهما . وليس بُدٌّ حينئذ من النهوض لحرب أهل الشام . وكأن القوم قد تأثروا بحجج علىّ ورأوا منه مقاربة شديدة لهم . وأحس علىّ ذلك فأبلغ فى مقاربتهم وقال : « ادخلوا مصركم رحمكم الله » . فدخلوا معه عن آخرهم . ولكنهم دخلوا وبينهم وبين علىّ شىء من سوء التفاهم كما يقال الآن ، يرى علىّ أنه قد أقنعهم بقبول الحكومة وانتظار ما ينتهى إليه الحكمان . ويرون هم أن عليًّا قد قاربهم أشد المقاربة ، وأنه لا ينتظر إلا أن يستريح الجيشُ ويسمن الكُراع ويجدد السلاح ثم ينهض بهم إلى عدوهم .

وقد جعلوا يتحدّثون بذلك فى الكوفة حتى شاع ذلك بين الناس . ولعله تجاوز الكوفة وانتهى إلى أهل الشام بواسطة عيونهم الذين كانوا يُقيمون بين أظهر الكوفيين . فقد جاء رسول معاوية يستنجز عليًّا الوفاء ويحذره أنْ يلفته عنه أعراب بكر وتميم . وجعل علىّ يكذّب ما أرجفت به المحكمة من عدوله عن الحكومة .

ثم أشخص أبا موسى إلى مكان الحكومة وأرسل معه أربعمائة من أصحابه عليهم شُريح بن هانئ ، ومعهم ابن عباس يصلى بهم . فعاد الأمر بينه وبين المحكّمة إلى الفساد . جعلوا يقاطعونه فى الخطبة محكمين من جوانب المسجد ،

وجعل علىّ يقول — كلما سمع قولهم « لا حاكم إلا الله » — : كلمةُ حقٍّ أريد بها باطل . وقطع بعضهم على علىّ خطبته تالياً قول الله عز وجل : (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِين) فأجابه علىّ بآية أخرى : (فاصبِرْ إنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ولاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَيُوقِنُون) . وجعل الأمر يُمعن فى الفساد بين علىّ وبينهم حتى اعتزلوه مرة أخرى ، وخرجوا مغاضبين قد أكفروه وأكفروا معاوية وانتبذوا محاربين . وجعل علىّ يقول : إن سكتوا تركناهم وإن تكلموا حاججناهم وإن أحدثوا فساداً قاتلناهم .

ثم لم يلبثوا أن أحدثوا الفساد فى الأرض فكان القتال .

واجتمع الحكمان فى دُومة الجندل أو فى أذْرُح ، أو فى دُومة الجندل أولاً ثم فى أذْرُح بعد ذلك ، على اختلاف فى ذلك كثير . ولكنهما اجتمعا وشهدهما أربعمائة من أصحاب علىّ ، فيهم عبد الله بن عباس وأربعمائة من أصحاب معاوية . وبعض المؤرخين يزعم أن معاوية كان من أصحابه ، أو كان منهم غيرَ بعيد .

ودعا الحكمان إلى شهود أمرهما جماعةً من الذين اعتزلوا الفتنة منذ أولها فيهم عبدُ الله بن عمر . ومن الذين اعتزلوا الفتنة بأخرة فلم يشهدوا صفين كعبد الله ابن الزبير . ودعوا سعد بن أبى وقاص فلم يستجب لهم على كثرة ما ألحّ عليه أحد أبنائه . ودعوا سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل فلم يستجب لهم أيضاً .

ثم أخذ الحكمان فى أمرهما ، ولم تكن مفاوضتهما على ملأ من الناس ، وإنما كان كل واحد منهما يخلو إلى صاحبه فيديران الأمر بينهما . والغريب أن مقامهما فى مكان التحكيم قد طال ، وتفاوضهما فى أمره قد كثر . ولكن المؤرخين لا يروون من ذلك إلا أطرافاً مقتضبة فيها كثير من التناقض والاختلاف . وليس لذلك مصدر إلا أنّ الوثيقة التى جعلت إليهما الحُكم فى القضية كانت غامضة غير مبينة . وقد استيقن الحكمان فيما يظهر أنهما مفوضان فى أن يتناظرا فى كل ما اختلف الناس فيه ، ثم يقضيان بعد ذلك برأى عدل ملائم لما فى كتاب الله ولما فى السنة الجامعة غير المفرقة . فاتفقا أولا على أن عثمان قتل مظلوماً ، وعلى أن معاوية هو ولىّ دمه ، فمن حقه إذاً أن يطالب بالقصاص من قاتليه . ولكن إلى من ينبغى أن يطلب معاوية هذا القصاص ؟ أيطلبه من علىّ ، وهو يتهمه فى التأليب على عثمان والتخذيل عنه ؟ أم يأخذه بنفسه ؟ فإذاً فهى الحرب التى أمر الحكمان ألاّ يردّا المسلمين إليها . وإذاً فلا بدّ من اختيار إمام يرضاه الناس ويستطيع معاوية أن يطلب إليه إنفاذ قول الله عز وجل : (ومنْ قُتِل مظلوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فلا يُسْرِفْ فى القَتْل إنَّه كان منْصُورًا) .

ويقول المؤرخون إن عمرو بن العاص اقترح أن يكون هذا الإمام معاوية

نفسه . وما أكاد أصدق هذا ، فما أرى أن عمراً كان يستطيع ، بعد أن أثبت أن معاوية هو ولى عثمان ، أن يختاره للخلافة ليطلب إلى نفسه إنفاذ أمر الله ، وليتقدم بعد ذلك فيُقيد من قتلة عثمان ويكون خصماً وحكماً .

وقد يقال : لو قُبل اقتراح عمرو ذاك وأصبح معاوية إماماً لتنحّى عن المطالبة بدم الخليفة المظلوم لأبناء عثمان أنفسهم . ولكن قوة معاوية إنما كانت تأتيه من النهوض فى أمر عثمان ، فلو قد تنحى عنه لما استطاع أحد أن يفهم لماذا صار إماماً ، ولم يكن فى ذلك الوقت خيرَ الأحياء من أصحاب النبيّ . فقد كان منهم نفرهم أعظم منه فضلاً وسابقة ، وأحسن منه بلاء وأقرب منه مكاناً من رسول الله .

كان هناك سعد بن أبى وقاص من أصحاب الشورى ومن العشرة الذين شهد لهم رسول الله بالجنة . وكان هناك سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل أحد أولئك العشرة أيضاً . ثم كان هناك عبد الله بن عُمر ، الطيّب ابن الطيب ، كما كان أبو موسى يقول .

أنا إذاً أستبعد أن يكون عمرو قد رشح معاوية . ومهما يكن من شىء فالذين يروون هذا الترشيح يروون كذلك أن أبا موسى قد رفضه . وفضل عليه علياً لسابقته وبلائه ومكانه من النبيّ .

ويقال كذلك إن أبا موسى جاء باقتراح معارض لاقتراح عمرو ، فذكر الطيب ابن الطيب عبد الله بن عمر ، ورأى أن فى استخلافه إحياء لذكر عمر . ولكن عمراً رفض هذا الاقتراح ، لأن عبد الله لم يكن صاحبَ بأس ولا بطش ولا قوة على النهوض بهذا الأمر . وأكبر الظن أن عمراً ذكّر أبا موسى بأن عمر نفسه قد أحضر ابنه الشورى ولم يجعل له من الأمر شيئاً ، وبأن رأى عمر فى ابنه معروف ، وقد كان يقول : إنه لا يحسن يطلق امرأته .

ويتزيد الرواة من أهل العراق فيزعمون أن عمراً لقى عبد الله بن عمر وخلا إليه وعرض عليه الخلافة إن أعطاه مصر . فأبى عبد الله أن يشترى الخلافة بالرشوة ويعطى الدنية فى دينه .

وما أرى إلا أن هذا غلوّ دُفع إليه الذين أبغضوا عمراً من أهل العراق . والشىء المحقق هو أن الحكمين لم يتفقا على رجل يرشحانه للخلافة ، فاتفقا عن اقتراح

أبى موسى أو عن اقتراح عمرو على أن يخلعا من هذا الأمر عليًّا ومعاوية جميعاً ، وأن يتركا للأمة أمرها شورى بينها تختار له من تشاء . ثم لم يضعا نظاماً لهذه الشورى ولا شيئاً يشبه النظام . ولم يقدّرا أن الأمة ستختلف حين تستقبل أمرها ، فينحاز أهل العراق إلى علىّ وينحاز أهل الشام إلى معاوية ، ويتبع أولئك وهؤلاء من مال إليهم من المسلمين. وربما نهض أهل الحجاز فاختاروا سعد بن أبى وقاص ، أو سعيد بن زيد ، أو عبد الله بن عمر ، أو غيرهم من أصحاب النبى من المهاجرين .

لم يفكّرا فى شىء من ذلك ولم يحتاطا له ، وإنما اكتفيا بما انتهيا إليه من خلع الرجلين وردّ سلطان الأمة إليها .

وهنا تأتى المشكلة الخطيرة التى اتفق المؤرّخون عليها ، لم يكد يشذ منهم أحد . فقد ظهر الحكمان للناس وأعلنا أنهما قد اتفقا على ما فيه الرضى للمسلمين . ثم قدّم عمرو أبا موسى ليبدأ بإعلان ما اتفقا عليه . وكان عمرو — فيما يقال — يظهر دائماً تقديم أبى موسى وإكباره ، لسبقه إلى صُحبة النبىّ ولسنّه أيضاً . ويقال كذلك إن ابن عباس أشفق من خداع عمرو فأشار على أبى موسى أن يتأخر ، حتى إذا تكلم عمرو استطاع هو أن يتكلم بعده . ولكن أبا موسى لم يسمع لابن عباس ، وإنما قام فحمد الله وأثنى عليه ثم أعلن أنهما قد اتفقا على خلع علىّ ومعاوية ورد الأمر شورى بين المسلمين . وأمر الناس أن يستقبلوا أمرهم ويختاروا لخلافتهم من يرضَوْن .

ثم قام عمرو فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن هذا قد خلع صاحبه وأنا أخلعه مثله ، ولكنى أثبت صاحبى . فقال له أبو موسى :ما لك ، لا وفقك الله ، غدرت وفجرت . إنما مثلك كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث . وقال له عمرو : إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً .

وماج القوم ، فأقبل شريح بن هانئ رئيس الوفد من أصحاب علىّ فقنع عمراً بسوطه . وقام محمد بن عمرو فقنع شريحاً بسوطه ، وأقبل الناس فحجزوا بينهما . وانطلق أبو موسى فركب راحلته ورمَى بها مكة . وعاد أهل الشام إلى معاوية فسلموا عليه بإمرة المؤمنين .

وإذاً فقد غدر عمرو غدرةً منكرة ، إن صح ما كاد المؤرخون أن يُجمعوا عليه . اتفق مع أبى موسى على خلع الرجلين ثم لم يخلع منهما إلا واحداً . جار إذاً عن

العهد الذى أعطاه على نفسه فى الصحيفة، فسقط حكمه وسقط حكم صاحبه أيضاً.

وتفرق القوم على غير شىء كأنهم لم يجتمعوا . وكان الظافر فى هذا كله معاوية . فقد رُفعت الحرب عن أصحابه وأتيح له أن يريحهم وأن يستعد لاستقبال أمره أشد قوة وأمضى عزماً وأعظم بأساً . وورط أصحاب علىّ فى الخلاف والفرقة ، واضطرهم إلى الفتنة وجعل بأسهم بينهم شديداً .

ومن المؤرخين من زعم أن عمراً لم يبلغ بكيده إلى هذه المنزلة من الغدر ، وإنما اكتفى بخلع الرجلين كما خلعهما أبو موسى ، فسوّى بين علىّ ومعاوية ، وكان هذا ظفراً عظيماً .

ولكن هذه الرواية الشاذة لا تستقيم . فلو قد قال عمرو كما قال أبو موسى : إنهما اتفقا على خلع الرجلين جميعاً، لما عاد أهل الشام مسلّمين على معاوية بالخلافة، وفيهم عمرو نفسه . ولما قبل كثير من أهل العراق إمرة علىّ بعد أن خلعه الحكمان اللذان ارتضاهما وأعطاهما العهد على نفسه بأن ينفذا حكمهما . ولكان من الطبيعى أن يضطرب الأمر أشد الاضطراب فى مكة والمدينة ، فهؤلاء قوم أعطوا على أنفسهم عهداً ليسمعنّ لحكم الحكمين إن لم يجورا . ثم هم ينقضون ما أعطوا من العهد ويسيرون سيرة جاهلية . فكيف يرضى عن ذلك من اعتزل الناس من أخيار الصحابة ومن بايعوا عليًّا من خيارهم أيضاً ؟

وليس لهذه الرواية معنى إلا أنها تتهم الأمة كلها بإيثار المنفعة الخاصة واتباع الهوى والمخالفة عن أمر الله عز وجل حين قال : (وأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إذا عَاهَدْتم ولا تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعدَ تَوْكِيدها وقد جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إن اللهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُون . ولا تكونُوا كالَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَها من بعد قُوَّةٍ أَنْكاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُم أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى من أُمَّة إنما يَبْلوكم اللهُ بِهِ ولَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ القِيامة ما كُنتمْ فِيه تَخْتَلِفُون) .

وليس من المعقول أن تجتمع الأمة كلها على نقض العهد وإيثار الضلالة على الهدى والغدر على الوفاء ، ولكن أحد الحكمين ، وهو عمرو ، خدع صاحبه وهو أبو موسى . ولم يكن أبو موسى مغفّلاً كما قال المؤرخون ، ولو كان مغفلا لما اختاره

عُمر لولاية الأمصار ، ولما اختاره أهل الكوفة لولاية مصرهم حين ظهرت الفتنة واشتدت أيام عثمان . ولكنه كان رجلا تقيًّا ورعاً سمْح النفس رضيَّ الخلق يظن أن المسلمين ، ولا سيما الذين صحبوا النبي منهم خاصة ، أرفع مكانة فى أنفسهم وفى دينهم من أن يتزلوا إلى الغدر . فأخلف ظنه عمرو ، ولا أكثر من ذلك ولا أقل . وهو من أجل ذلك فرّ بدينه إلى مكة فاعتزل فيها مجاوراً نادماً على أنه لم يسمع لابن عباس . وعاد الوفد من أهل العراق إلى علىّ فنبأوه بما كان . ولعل النبأ كان قد سبقهم إليه فى الكوفة ، فلم يدهش لذلك كأنه كان يتوقعه . وإنما ذكر تحذيره لأصحابه فى صفين حين رفعوا المصاحف فقال لهم : إن القوم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن .

وقد حَنِقَ الصالحون من أهل الكوفة على هذا الغدر وأصحابه وجعلوا يستعدون للقتال . وأخفى الماكرون من طلاب الدنيا مكرهم وجعلوا يظهرون الاستعداد للحرب كغيرهم من الناس ، ولكن الخوارج حالوا بين علىّ وبين أن ينهض بأصحابه إلى الشام .

وقد خطب عليّ أصحابه بعد أن أتاه أمر الحكمين فقال فيما روى البلاذريّ : الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحدث الجليل . وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . أما بعد . فإن معصية الناصح الشفيق المجرّب تُورث الحسرة وتعقب الندم . وقد كنت أمرتكم فى هذين الرجلين وهذه الحكومة بأمرى ونخلت لكم رأيي لو يطاع لقصير رأى . ولكنكم أبيتم إلا ما أردتم . فكنت وإياكم كما قال أخو هوازن :

أمرتهم أمرى بمُنْعرج اللّوى فلم يَسْتبينوا الرشد إلاّ ضُحى الغدِ

ألا إن الرجلين اللذين اخترتموهما حكمين قد نبذا حُكم الكتاب وراء ظهورهما وارتأيا الرأى من قبل أنفسهما ، فأماتا ما أحيا القرآن وأحييا ما أمات القرآن . ثم اختلفا فى حكمهما فكلاهما لم يرشد ولم يسدّد . فبرئ الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين . فاستعدوا للجهاد وتأهبوا للمسير وأصبحوا فى معسكركم يوم الاثنين إن شاء الله .

وأصبح الناس فى معسكرهم فى الموعد الذى ضربه لهم إمامهم . وكتب عليّ إلى أهل البصرة فجاءه منهم جُند صالح . ولم يشخص ابن عباس هذه المرة ، وإنما اكتفى بتسريح الجند إلى عليّ . ونهض عليّ بأصحابه يريد الشام . ولكنه لم يمض بهم إلا قليلا حتى جاءته أنباء قلبت خطته كلها رأساً على عقب . وكانت تلك الأنباء متصلة بأمر الخوارج . فهم كانوا رجعوا مع عليّ كما رأيت وظنوا أنه قد عدل عن القضية . فلما رأوا أنه ماض فيها عادوا إلى تحكيمهم وخرجوا أرسالا من الكوفة . منهم من خرج سرًّا ومنهم من خرج مباديًا بخروجه لا يتستر ولا يحتاط . وكتبوا إلى إخوانهم من أهل البصرة فانضموا إليهم فى بعض الطريق وساروا جميعًا إلى النهروان .

وكان عليّ يعلم هذا كله ويقول دائمًا مقالته المشهورة : « كلمة حق يراد بها باطل » . يقولها كلما سمع تحكيمهم أو تحدث إليه أحد بهذا التحكيم . وكان

كذلك يقول : لا نمنعهم الفىء ولا نَهيجهم ولا نبغيهم شرًّا ما لم يُحدثوا حدثًا أو يُفسدوا فى الأرض . وكان يقول : إن سكتوا تركناهم وإن تكلموا حاججناهم وإن أفسدوا قاتلناهم .

ويقال إنه كتب إليهم ينبئهم بافتراق الحكمين على غير اتفاق ويدعوهم إلى أن يكونوا مع أصحابهم للشخوص إلى حرب أهل الشام . ولكنهم أبوا عليه وقالوا : قد دعوناك إلى ذلك قبل القضيّة فأبيت . فأما الآن فإنا نأبى عليك لأنك لا تقاتل لله وإنما تقاتل لنفسك . كنتَ تظن أن قرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلّم ستحمل الناس على ألاّ يَعْدلوا بك أحداً ، فلما رأيت أنهم قد انحرفوا عنك نهضت لقتالهم تبتغى الدنيا . فلسنا منك ولا من الدنيا التى تبتغيها فى شىء ، إلا أن تشهد على نفسك بالكفر ثم تتوب كما تُبنا . فإن فعلت فنحن معك على عدوّك ، وإلا فليس بيننا وبينك إلا السيف .

ومع هذا كله لم يُرد علىّ أن يهيجهم وإنما أزمع المُضىّ إلى الشام ، وقال : لعلهم يتدارسون أمرهم ويثوبون إلى رشدهم . ولكن الأنباء تصل إليه بأنهم قد نشروا الفساد فى الأرض ، فقتلوا عبد الله بن خبّاب بن الأرتّ . وخَبّاب من خيار الصحابة . وقتلوا نسوة كُنّ مع عبد الله . وجعلوا يستعرضون الناس ويُذيعون الذعر . فأرسل إليهم علىّ رجلاً من أصحابه يسألهم عن هذا الفساد ، ويطلب إليهم أن يسلموا إليه أولئك الذين استحلّوا قتل النفس التى حرّم الله بغير الحق . فلم يكد الرسول يدنو منهم حتى قتلوه . وجاء الخبر عليّاً ، فكره أصحابُه أن ينهضوا إلى الشام ويتركوا من ورائهم هؤلاء الخوارج يُفسدون فى الأرض ويستبيحون أموالهم وعيالهم وهم غائبون . وألحّوا على إمامهم فى أن ينهض بهم إلى هؤلاء الخوارج ، حتى إذا فرغوا منهم تحولوا إلى عدوهم من أهل الشام فحاربوا وهم مطمئنون على ما وراءهم .

وسمع لهم علىّ . فسار بهم إلى النّهْروان . حتى إذا صار بإزاء الخوارج جعل يطلب إليهم قَتَلَة عبد الله بن خبّاب ومن كان معه ، وقَتَلة رسوله إليهم ، فلا يظفر منهم إلا بجواب واحد هو : « كلنا هؤلاء القَتَلَة » . وجعل علىّ يَعظهم بالكتابة مرّة وبالخروج إليهم ووعظهم مشافهةً مرة أخرى ، وقد أجدى وعظُه

هذا فجعل كثير من الخوارج يتسلّلون ويعودون إلى الكوفة . وجعلت طوائف منهم تعتزل جيش الخوارج، منهم من يعود إلى جيش عليّ ، ومنهم من يعتزل الحرب دون أن يعود إلى الجماعة ، حتى لم يبق حول عبد الله بن وَهْب الرّاسبيّ ذى الثّفنات رئيس الخوارج إلا ثلاثة آلاف أو أقل من ذلك أو أكثر من ذلك قليلا . فلما استيأس عليّ من هؤلاء عبّأ جيشه وأمر بألا يبدءوهم بقتال حتى يقاتلوا هم . ولم يكد الخوارج يرون التعبئة حتى تعبئوا . وينتصف النهار ذات يوم وإذا هذه الفئة القليلة من الخوارج تتحرّق إلى الحرب تحرُّق الظمآن إلى الماء، وإذا مناديهم يصيح فيهم : «هل من رائح إلى الجنة» . فيتصايحون جميعاً : «الرّواح إلى الجنة» . ثم يشدون على جيش عليّ شدة منكرة تنفرج لها خيل عليّ فرقين : فِرْق يمضى إلى الميمنة وفِرْق يمضي إلى الميسرة . والخوارج يندفعون بين الفِرْقين ، فيلقاهم رُماة عليّ بالنَّبل فيَصْرعون منهم خلقاً كثيراً ، ثم يلتئم الفِرْقان من الخيل . وما هى إلا ساعة حتى يُقتل الخوارج عن آخرهم . وفيهم رئيسهم ذو الثَّفنات وجماعة كانوا قبل التحكيم من أشد الناس نُصحاً لعليّ وجهاداً فى سبيله ، لأنهم كانوا يرون سبيله هى سبيل الله .

وينظر أصحاب عليّ إلى عليّ فإذا هو قَلِق لا يطمئن ، يطلب إلى من حوله أن يلتمسوا ذا الثُّدَيَّة ، رجلاً مُخدَجَ اليد، على عضده شامة تُشبه ثَدى المرأة ، وعلى هذه الشامة شعرات سُود . فيبحث الناس عنه فى القتلى والصرعى ثم يعودون فيقولون : بحثنا ولم نجد . ويزداد عليّ قلقاً ويقول : «والله ما كَذَبت ولا كُذِبت ، ويحكم ! التمسوا الرجل فإنه فى القتلى» . فيبحثون ثم يأتى آت فينبئ علياً بأنهم قد وجدوه . فإذا سمع النبأ خرّ ساجداً وسجد معه مَن كان حوله من أصحابه ، ثم يرفع رأسه ويقول : «والله ما كَذَبت ولا كُذِبت ، ولقد قتلتم شر الناس» .

ويتحدّث المؤرخون والمحدثون وأصحاب السير بأن هذا الرجل المُخْدَج ذا الثُّدَيَّة هو الذى قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم حين قسم الغنائم يوم حُنين وتألّف من تألف من العرب : «اعدل يا محمد فإنك لم تعدل» . وأعرض النبى عنه مرة ومرة . فلما أعاد مقالته للمرة الثالثة قال له النبى ، وقد ظهر الغضب فى

وجهه : «ومن يعدل إذا لم أعدل» ؟

وهمّ بعض المسلمين بقتله فكفهم النبيّ عنه، وقال فيما يروى المحدّثون والمؤرخون : «يخرج من ضئضئ هذا الرجل قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية يتلون القرآن لا يتجاوز تراقيهم» .

وقد فرغ عليّ إذاً من قتال الخوارج فقتلهم جميعاً ، إلا من انسل منهم إلى الكوفة أو اعتزل الحرب . وكان عليّ فرحاً بهذا الانتصار ولا سيما بعد أن رأى ذلك المخدَج ذا الثُّديَّة الذى كان قبل ذاك من أشد الناس لزوماً له وأكثرهم حرصاً على مجالسته . وكان مما أرضى علياً أنه قد فرغ — فيما يرى — من عدوه المخالط له الذى كان خطراً على ما يترك فى العراق من الأموال والعيال ، وخطراً على الجيش نفسه يستطيع أن يأخذه من وراء ، ويستطيع أن يقطع عليه رجعته إلى العراق .

ظن عليّ أن الأمور قد استقامت له فلم يبق إلا أن يرمى بجيشه هذا المنتصر أهل الشام ، ولكنّ الشيء الذى لم يكن يفكر فيه عليّ ، ولم ينتبه إليه أحد يومئذ ، هو أن هذه الآلاف الثلاثة من الرجال الذين قتلوا كانوا كلهم من أهل العراق، أكثرهم من أهل الكوفة ، وبعضهم من أهل البصرة ، وليس منهم إلا من ينتمى إلى عشيرة فى أحد هذين المصرين . وكثير منهم كانت عشائرهم فى جيش عليّ ذاك الذى قتلهم . فقد كان عديّ بن حاتم مثلاً مع عليّ فى النَّهْروان . وكان ابنه زيد فى الخوارج الذين قُتلوا . وما أكثر أبناء الأعمام الذين قَتَل بعضهم بعضاً فى ذلك اليوم . وقُل ما شئت فى البواعث التى دفعت أولئك وهؤلاء إلى أن يقتل بعضهم بعضاً . كانوا جميعاً يُخلصون فى الدفاع عما كانوا يرون أنه الحق ، وكانوا جميعاً يُصدرون عن شعور دينى صادق لا شك فيه . ولكنهم كانوا جميعاً ناساً من الناس يجدون فى قلوبهم ما يجد الإنسان من الحزن على فقد الابن والأخ والصديق . ويجدون ما يجد العربىّ فى نفسه من الموجدة حين يقتل ابنه أو صديقه أو أخوه ، ويشعرون كما كان يشعر ذلك الفارس الجاهلىّ حين قال :

فإنْ أكُ قد بردتُ بهم غليلى   فلم أقطع بهم إلاّ بنانى

وكما كان يشعر جاهلى آخر حين قال :

قومى هم قتلوا أُمَيم أخى فإذا رميتُ أَصابنى سهْمى
فلئن عفوتُ لأعفون جللا ولئن سطَوْتُ لأُوهنن عظمى

وكما كان علىّ نفسه يشعر يوم الجمل حين كان يقول بعد أن نظر إلى القتلى من الفريقين :

أشكو إليك عُجَرى وبُجرى شفيتُ نفسى وقتلتُ مَعْشرى

وقد ابتهج أهل الكوفة فى حزن بعد يوم الجمل بانتصارهم على أهل البصرة ، وشجعهم هذا الانتصار على أن ينهضوا إلى صِفّين ، أما فى هذا اليوم يوم النهروان فأهل الكوفة يقتلون أهل الكوفة وأهل البصرة يقتلون أهل البصرة . فأى غرابة فى أن يشيع الحزن فى القلوب وتغشى النفوس كآبة لا تؤذن بخير . وأى غرابة فى أن يدعوهم علىّ إلى النهوض إلى الشام فيعتل عليه رؤساؤهم ، منهم الصادق ومنهم الماكر الكاذب . يقولون له : قد نفدت السهام وتكسّرت السيوف ونصلت الرماح ، فأعِدْنا إلى مصرنا لنُريح ونجدد أداتنا ثم ننهض معك إلى عدونا .

ولا يكاد علىّ يعود بهم إلى معسكرهم فى النُّخَيلة خارج الكوفة ويُحرج عليهم ترك المعسكر ودخول المصر حتى ينظر فإذا هم يتسللون أفراداً وجماعات ، حتى لا يبقى فى المعسكر إلا عدد يسير لا يُغنون عنه شيئاً ، وحتى يضطر هو إلى أن يدخل الكوفة ويفكر فى الاستعداد للحرب من جديد .

وكان معاوية قد بلغه نهوضُ علىّ إلى الشام ، فنهض فى أصحابه يسبق إلى صفّين ، ولكن علياً لم يقدم . فلما عرف معاوية ما كان من أمره مع الخوارج ، ومن رجوعه إلى الكوفة وتخاذل أصحابه عن القتال عاد إلى دمشق موفوراً دون أن يلقى كيداً .

وترك على أصحابه أياماً ليريحوا ويستريحوا ويستعدّوا ، كما زعم له رؤساؤهم فى النّهروان . فلما ظن أنهم قد بلغوا من ذلك ما أرادوا دعاهم إلى الخروج وحثّهم عليه وحرّضهم على الجهاد . ولكنهم سمعوا له ثم لم يصنعوا شيئاً . فأمهلهم أياماً ثم خطبهم كالمُستيئس من نصرهم ، فقال : « يا عباد الله . ما بالكم إذا أمرتم أن تنفروا فى سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة بدلا ، وبالذل والهوان من العز والكرامة خلفاً ؟ أفكلما دعوتكم إلى الجهاد دارت أعينكم فى رءوسكم كأنكم من الموت فى سكرة وكأن قلوبكم قاسية ، فأنتم أسود الشّرى عند الدعة ، وحين تُنادون للبأس ثعالب روّاغة ، تُنتقص أطرافكم فلا تحاشون ، ولا ينام عدوكم عنكم وأنتم فى غفلة ساهون . إن لكم علىّ حقّاً : فالنصيحة لكم ما نصحتم ، وتوفير فيئكم عليكم ، وأن أعلمكم كيلا تجهلوا ، وأؤدّبكم كيما تُعلّموا . وأما حقى عليكم فالوفاء بالبيعة ، والنصح فى المغيب والمشهد ، والإجابة حين أدعوكم ، والطاعة حين آمركم » .

على أن خطبته هذه بلغت أسماع أصحابه دون أن تتجاوزها إلى قلوبهم . فانصرفوا عنه ولم يصنعوا شيئاً . لم ينفروا للحرب ولم يتأهبوا لها ، بل لم يظهروا ميلا إلى التأهب فضلا عن أن يظهروا الميل إلى النّفير . وإنما قرّوا فى مصرهم وأقبلوا على حياتهم وادعين يدبّرون أمورهم فى أمن وفراغ بال ، كأنهم لم يهمّوا بغزو الشام وكأنّهم لم يستأذنوا علياً فى العودة إلى مصرهم ، ليكون استعدادهم للحرب أتمّ وتأهبهم لها أشد وأمضى ، وليس من شك فى أن لهذه الظاهرة أسبابها المختلفة وعللها المتباينة .

وقد أشرنا إلى بعض ذلك حين ذكرنا كآبة المنتصرين يوم النهروان ، وما اندس إلى قلوبهم من الحزن على من قُتل فى ذلك اليوم من الخصم والولىّ جميعاً . فقد كان أولئك وهؤلاء أبناءهم وإخوانهم وصديقهم وذوى عصبتهم . فإذا أضفنا إلى ذلك أن علياً منذ نهض بأمر الخلافة لم يدفع جيوش المسلمين من

أصحابه إلا إلى هذه الحرب الوبيلة ، التى تقطع الأرحام وتُوهى العُرى وتفسد الصلات التى يجب أن ترعى ، حربِ الآباء للأبناء وحرب الإخوان للإخوان وحرب الصديق للصديق والولىّ للولىّ ، أقول : إذا أضفنا هذا كله عرفنا أن أهل العراق معذورون إن شاع الملل فى نفوسهم وكرهوا هذا الصراع الذى لا يُعقبهم إلا حسرة وحزناً . وليس على الإمام فى ذلك لوم ، وما ينبغى أن يلومه فيه لائم ، فقد كان يؤمن أشد الإيمان وأنقاه بأن على المسلمين أن ينصروا الحق مهما يكلفهم ذلك من جهد ، ومهما يجر عليهم ذلك من خطب ، ومهما يدفعهم ذلك إلى المكروه . وكان أصحابه يرون ذلك كما كان يراه ، يؤمنون به على أنه الدين ؛ ولذلك بذلوا نفوسهم ودماءهم يوم الجمل ، وبذلوها فى صفّين ، وكانوا يهمّون ببذلها مرة أخرى ، قد نهضوا لذلك ومضوا إليه ولكنهم اضطروا إلى النهروان ليحموا ظهورهم وليؤمّنوا من وراءهم وما وراءهم من الأهل والمال ، فلم يجنُوا فى النهروان إلا شرّاً ، أضافوا دماء إلى دماء وحزناً إلى حزن وحسرات إلى حسرات . وهم بعد ذلك قد ألِفوا منذ أيام أبى بكر وعمر جيوشاً أرصدت للفتح ، وعُبئت لبسط سلطان الإسلام ، واستعدت لقتال العدو من غير المسلمين . وقد امتحنوا بقتال المسلمين مرّات فلم يروا إلا شرّاً .

وهم ينظرون فيرون الفتح قد وقف ، وسلطان الدولة قد أخذ يضطرب فى الثغور : طمع الروم فى الشام وهمُّوا بالغزو فلم يتّقهم معاوية إلا بالمال . وجعلت الثغور الشرقية تضطرب على عمّال علىّ نفسه ، فلا يكاد يردّها إلى الطاعة إلا بعد الجهد أى الجهد والعناء أى العناء .

وهم يرون بعد هذا كله قوماً من خيار أصحاب النبى قد اعتزلوا الفتنة واجتنبوا الحرب ، وكرهوا أن يقاتلوا أهل القبلة ، وأن ينصبوا الحرب لقوم يقولون : « لا إله إلا الله » ويشهدون بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم . ومنهم من كسر سيفه ، لأن سيوف المسلمين قد أرصدت لقتال العدو لا لقتال الصديق .

وليس كل الناس من اليقين وقوة الإيمان ومضاء العزم وتصميم الرأى بحيث كان علىّ رضى الله عنه . فليس غريباً إذاً أن يجتمع هذا كله على هؤلاء الناس فيثير فى نفوسهم الحزن ، ويشيع فى قلوبهم الشك ، ويقر فى ضمائرهم هذا الندم

الغامض الذى يدفع أصحابه إلى الحيرة ، والذى يفل الحدّ ويثبط الهمم .

هذا كله إلى أن أصحاب علىّ فى العراق كانوا يجدون فى السلم والأمن راحة مغرية ودعة مطمعة ، فهم قارّون فى أمصارهم يوفَّر عليهم فيئهم فى غير حرب . وقد سنّ فيهم علىّ سنة لم يألفوها من قبل ، أشار بها على عمر فلم يستجب له ، فكان طبيعياً أن ينفذها حين يصير السلطان إليه . فقد أشار علىّ على عمر حين استشار الناس فى هذا المال الكثير ، الذى أخذ يُحمل إليه من الثغور ، بأن يقسّم كل ما يحمل إليه من هذا المال على الناس حتى لا يبقى منه فى بيت المال شىء . فلم يقبل عمر هذا الرأى وإنما قبل رأى الذين أشاروا عليه بتدوين الديوان وفرض الأعطيات للناس .

فلما صار الأمر إلى علىّ جعل يقسم ما يأتى من المال إثر وصوله على الناس ، بعد أن يحتجز منه ما ينبغى أن يُنفق منه فى المرافق العامة . ولم يكن علىّ يكره شيئاً كما كان يكره الادخار فى بيت المال . كان يتحرج من ذلك أشد التحرج . حتى رُوى أنه كان يحب بين حين وحين أن يأمر فيُكنس بيت المال ويرش ثم يأتى فيصلى فيه ركعتين . كان يكره أن يلمّ به الموت فجأة ويترك فى بيت المال شيئاً لم يردُدْه إلى أصحابه . فكان يقسم على الناس الفاكهة حين تحمل إليه الفاكهة قلّت أو كثرت . وكان يقسم عليهم العسل والزيت وأشباه العسل والزيت ، حتى قسم عليهم ذات يوم إبراً وخيطاً . فقد كان السلم إذاً محبّباً إلى هؤلاء الناس الذين كان يحمل إليهم فىء الثغور وخراج ما فتح على المسلمين من أرض المشرق ، فلا يكاد يبلغ المصر حتى يصير فى أيديهم قليلاً كان أو كثيراً .

كان هذا السلم محبباً إليهم ، وكان على كل حال أحب إليهم من هذه الحرب العقيم التى لا غنم فيها ، وفيها الغرم كل الغرم ، وفيها بعد ذلك قتل الولىّ والصديق .

وكذلك مضى أصحاب علىّ فى إيثار الراحة والدعة والنكوص عن الحرب كلما دُعوا إليها .

ثم جاء مكر معاوية فأضاف مالاً إلى مال ، وثراء إلى ثراء ، وزاد السلم حبّاً إلى سَراتهم ورؤسائهم . فقد اتصلت كتب معاوية إلى هؤلاء السراة والرؤساء تحمل إليهم الوعود والأمانى ، وتقدم بين يدى الوعود والأمانى العطايا والصلات ، يُعجل

من ذلك بما يُرغب فى عاجله ، وما يغرى قليله المعجَّل بكثيره الموعود ، حتى اشترى ضمائر هؤلاء السراة والرؤساء وأفسدهم على إمامهم ، وجعلهم بالقياس إليه منافقين ، يُعطونه الطاعة بأطراف ألسنتهم ، ويطوون قلوبهم على المعصية والخذلان ، ويذيعون ذلك فيمن وراءهم من الناس .

لم يكن علىّ يستبيح لنفسه مكراً ولا كيداً ولا دهاء . كان يؤثر الدين الخالص على هذا كله ، وكان يحتمل الحق مهما تثقل مؤونته ، لا يعطى فى غير موضع للعطاء ، ولا يشترى الطاعة بالمال . ولا يحب أن يقيم أمر المسلمين على الرشوة . ولو شاء علىّ لمكر وكاد ، ولكنه آثر دينه وأبى إلا أن يمضى فى طريقه إلى مُثله العليا من الصراحة والحق والإخلاص والنصح لله والمسلمين ، عن رضى واستقامة لا عن كيد والتواء .

وقد جعل يدعو الناس بين حين وحين ، يرفق بهم كثيراً ويعنف عليهم أحيانًا ، حتى قال لهم ذات يوم : « أيها الناس المجتمعة أبدانهم ، المختلفة قلوبهم وأهواؤهم . ما عزّت دعوة من دعاكم ، ولا استراح قلب من قاساكم . كلامكم يوهى الصمّ الصّلاب . وفعلكم يُطمع فيكم عدوكم . إذا دعوتكم إلى الجهاد قلتم كيت كيت ، وذيت ذيت ، أعاليل بأباطيل . وسألتمونى التأخير ، فعل ذى الدّين المطُول حيدى حيَاد . لا يدفع الضيم الذليلُ ، ولا يُدرك الحق إلا بالجد والعزم واستشعار الصبر . أى دار بعد داركم تمنعون ؟ ومع أى إمام بعدى تقاتلون . المغرور والله من غررتموه . ومن فاز بكم فاز بالسهم الأخيب . أصبحت لا أطمع فى نصركم ولا أصدق قولكم . فرّق الله بينى وبينكم ، أبدلنى بكم من هو خير لى منكم . أما إنكم ستلقون بعدى ذلاً شاملا ، وسيفًا قاطعًا ، وأثرة يتخذها الظالم فيكم سنة ، فيفرّق جماعتكم ، ويُبكى عيونكم ، ويدخل الفقر بيوتكم ، وتتمنون عن قليل أنكم رأيتمونى فنصرتمونى . فستعلمون حق ما أقول . ولا يُبعد الله إلا من ظلم » .

ولكنهم سمعوا منه وتفرقوا عنه ولم يصنعوا شيئًا حتى أيأسوه من أنفسهم ، وحتى روى بعض الرواة عمن رآه ، وقد رفع المصحف حتى وضعه على رأسه ثم قال : « اللهم إنى سألتهم ما فيه فمنعونى ذلك . اللهم إنى قد مللتهم وملونى . وأبغضتهم وأبغضونى . وحملونى على غير خُلقى وعلى أخلاق لم تكن تُعرف لى . فأبدلنى بهم

خيراً لى منهم ، وأبدلهم بى شراً منى ، ومِث قلوبهم مَيْث الملح فى الماء » .

وقد كانت حياة علىّ بعد النَّهروان محنة متصلة ، محنة شاقة إلى أقصى حدود المشقة ، كان يرى الحق واضحاً مضيئاً صريحاً له كما تضىء الشمس ، وكان يرى فى أصحابه من القوة والبأس ومن العدد والعُدة ما يمكنه من بلوغ هذا الحق وإعلاء كلمته ، ولكنه كان يرى أصحابه قاعدين عن حقهم متخاذلين عن نصره . يُدعون فلا يجيبون ، ويؤمرون فلا يطيعون ، ويوعظون فلا يتعظون . قد أحبوا الحياة وكرهوا الموت ، وآثروا العافية وضاقوا بالحرب ، واستلذوا الراحة وسئموا التعب ، حتى أخذ معاوية ينتقص أطرافهم فى العراق ويُغير على الأقاليم خارج العراق ، وعلىّ يدعو فلا يُجاب ، ويأمر فلا يُطاع ، ويقول فلا يسمع له إلا قليلٌ من أصحابه لا يكادون يغنون عنه شيئاً .

وقد كان يرى أنه أحق الناس بالخلافة منذ وفاة النبىّ ، ولكنه صبر حين صُرفت عنه إلى الخلفاء الذين سبقوه . فلما جاءته الخلافة لم تجئه صفواً ولا عفواً ، وإنما جاءته بعد فتنة منكرة وكلّفته وكلفت أصحابه معه أهوالاً ثقالاً ، ثم أسلمته بعد ذلك إلى هذا الموقف البغيض إلى كل نفس أبيّة ، وإلى كل مؤمن صادق الإيمان . موقف الإمام الذى لا يُطاع ، والذى يريد الحق فلا يبلغه ، لا لضعف فيه ولا لقلّة فى أصحابه ولا لوهن فى أداته ، بل لأن أصحابه لا يريدون أن يطيعوه ولا أن ينصروه ، بعد أن جربوا الطاعة والحرب ، فلم يجنوا منهما إلا تقطيع الأرحام وقتل الصديق واحتمال المشقة والتعرض للهلكة فى غير غنيمة . فآثروا الدعة واطمأنوا إليها . ثم لم يؤثروا الدعة وحدها وإنما فرغوا لأنواع الجدال العقيم ، يُنفقون فيه أوقاتهم وجهودهم ، حتى جاءه نفر منهم ذات يوم يسألونه عن رأيه فى أبى بكر رضى الله عنه . يسألونه عن ذلك وقد جاءته من إحدى نواحيه أنباء ثقال ملأت قلبه حزناً وغيظاً . فقال لهم محزوناً : « أوَ قد فرغتم لذلك ، وهذه مصر قد فتحها أهل الشام وقتلوا واليها محمد بن أبى بكر ؟ » .

ثم لم تقف محنته فى أصحابه عند هذا الحد ، ولكنها تجاوزته إلى شر منه وأقسى ، فقد استبان له بعد قليل أن انتصاره فى النَّهْروان لم يُغن عنه شيئاً : على ما كلّفه من مشقة وما أعقب فى نفسه وفى نفوس أصحابه من حزن وحسرة ، فهو لم يقتل الخوارج فى النهروان وإنما قتل منهم جماعة ليس غير ، وقد ظل الخوارج معه بعد ذلك يعايشونه فى الكوفة ، ويعايشون عامله فى البصرة . وينبثون فى أطراف السواد بين المصرين .

كانوا يعيشون موتورين لا ينسون ثأر إخوانهم الذين صرعوا فى النهروان ، محتفظين بآرائهم كلها لم تغيّر الهزيمة منها شيئاً ، وإنما زادتها قوة إلى قوة ، وأضافت إليها قوة أخرى منكرة فظيعة ، تأتى من البغض والحقد والحرص على طلب الثأر .

وقد رسمت الظروف لهؤلاء الخوارج خطة محتومة لم ينحرفوا عنها قط أثناء تاريخهم الطويل ، وهى أن يكيدوا للإمام ويمكروا به ويخذلوا عنه ويحرضوا عليه ، ويدعوا إلى مذهبهم حين لا تواتيهم القوة ولا يُسعفهم البأس . فإذا كثر عددهم واستطاعوا مكابرة السلطان خرجوا من أمصارهم مستخفين أو ظاهرين ثم ابتعدوا مكاناً يلتقون فيه ، فإذا التقوا أظهروا المعصية وسلّوا السيف .

فقد عاش الخوارج إذاً مع علىّ فى الكوفة يدبرون له الكيد ويتربصون به الدوائر ويصرفون عنه قلوب الناس وعقولهم . يشهدون صلاتهَ ويسمعون خطبه وأحاديثه ، وربما عارضه منهم المعارض فقطع عليه الخطبة أو الحديث . وهم على ذلك مطمئنون إلى عدله ، آمنون من بطشه ، مستيقنون أنه لن يبسط عليهم يداً ولن يكشف لهم صفحة حتى يبادوه . وهم يأخذون نصيبهم من الفىء وحظوظهم من المال الذى يقسم بين حين وحين ، فيتقوون به على الحرب ويستعدون به للقتال .

وكان علىّ قد أخذ نفسه بألاّ يعرض لهم بشرّ حتى يبتدئوه ، وأعلن إليهم ذلك وإلى الناس . فأطمعهم عدلُه وإسماحه فيه ، وأغراهم لينه وبره بهم . وكان

يعلم منهم ذلك حق العلم . وقد استقر فى نفسه أنهم قاتلوه حتى لقد كان كثيراً ما يقول : « لتخضبن هذه من هذه » . يشير إلى لحيته ويشير إلى جبهته .

وكان من ألقى إليه من النبى صلى الله عليه وسلم فيما يظهر أنه سيموت مقتولا ، وأن قاتله أشقى هذه الأمة . فكان كثيراً ما يقول فى خطبه حين يشتد سأمه لأصحابه وضيقه بعصيانهم : ما يؤخر أشقاها ؟

ولم يكن الخوارج يتحرجون من الجهر بآرائهم بين حين وحين ، حتى جاءه أحدهم ذات يوم وهو الخريت بن راشد السامى ، من ولد سامة بن لؤى ، ذات يوم فقال له : والله لا أطعت أمرك ولا صليت خلفك . فقال له على : ثكلتك أمك ، إذاً تعصى ربك ، وتنكث عهدك ، ولا تغر إلا نفسك . ولم تفعل ذلك ؟ قال : « لأنك حكمت فى الكتاب وضعفت عن الحق حين جد الجد ، وركنت إلى القوم الذين ظلموا أنفسهم ، فأنا عليك زارٍ وعليهم ناقم » .

فلم يغضب على لذلك ولم يبطش به ، إنما دعاه إلى أن يناظره ويبين له وجه الحق لعله أن يثوب إليه . فقال له الخريت : أعود إليك غداً . فقبل منه على وخلى بينه وبين حريته ، لم يرتهنه فى سجن حتى يناظره فيسمع منه ويقول له ، وإنما ترك له الطريق . فانصرف الرجل إلى قومه من بنى ناجية ، وكان فيهم مطاعاً ، شهد بهم يوم الجمل وصفين ، فأخبرهم بما كان بينه وبين على ، ثم خرج بهم فى ظلمة الليل من الكوفة يريد الحرب . ولقى الخريت وأصحابه فى طريقهم رجلين سألوهما عن دينهما ، وكان أحدهما يهودياً ، فلما أنبأهم بدينه خلوا سبيله لأنه ذمى ، وأما الآخر فكان مسلماً من الموالى ، فلما أنبأهم بدينه سألوه عن رأيه فى على فقال خيراً . فوثبوا عليه فقتلوه . وأنبأ اليهودى بما رأى عاملا من عمال على على السواد . فكتب العامل إلى على . وأرسل على جيشاً لتتبع هؤلاء القوم وردهم إلى الطاعة ومناجزتهم إن أبوا . ولحق بهم الجيش .

وكانت بين القائد وبين الخريت مناظرة لم تجد شيئاً . فطلب إليه القائد أن يسلموا إليه قتلة ذلك المسلم . فأبى الخريت . وكان بينهم قتال شديد لم يبلغ فيه أحد من صاحبه شيئاً . ثم تحاجز القوم آخر النهار وهرب الخريت بأصحابه نحو البصرة .

وأرسل عليّ جيشاً آخر أعظم قوة وأكثر عدداً ، وأمره يتعقب هؤلاء القوم . وكتب إلى عبد الله بن عباس عامله على البصرة أن يُمد هذا الجيش ، ففعل . والتقى الفريقان ، فاقتتلوا أشد قتال وظهر الضعف فى أصحاب الخرّيت . ولكنه استطاع فى هذه المرة أيضاً أن يهرب بأصحابه تحت الليل .

ولم يلبث أمر هذا الرجل أن استبان وظهر أنه لم يخرج غضباً للحق ولا إنكاراً للحكومة ، وإنما كان مغامراً يُوهم الخوارج أنه معهم ، ويوهم العثمانية أنه يطلب بدم عثمان . وقد جعلت أخلاط كثيرة من الناس تنضم إليه ، وجعل يمضى فى طريقه على ساحل البحر ، لا يكاد يتقدم إلا انضم إليه من الأخلاط والعُلوج طوائف ، حتى كثف جيشه وعظم أمره . وتبعه قوم من النصارى . فمنهم من كان أسلم فعاد إلى نصرانيته . ومنهم من ظل على دينه ولكنه أراد أن يتخلّص من أداء الجزية . وجعل جيش عليّ يتبع الخرّيت وأصحابه حتى أظلهم ذات يوم . وكانت بينه وبينهم موقعة قُتل فيها الخرّيت وأخذ قائد عليّ مَن بقى من أصحابه أسرى . فمن كان منهم مسلماً مَنّ عليه . ومن كان منهم قد ارتد استتابه ، فإن أسلم منّ عليه أيضاً ، وإن لم يُسلم أخذه أسيراً سَبْياً .

وكتب بذلك إلى عليّ ، وعاد بأصحابه وأسراه نحو الكوفة . وكان هؤلاء الأسرى خمسمائة ، فمروا بخطة من خطط فارس عليها عامل لعليّ هو مَصْقلة بن هُبيرة الشيبانى . فجعل الأسرى يتصايحون بالدعاء لمصقلة والاستغاثة به واستعانته على تخليصهم من أسرهم . وكانت كثرتهم من قومه بكر بن وائل فاشتراهم مصقلة من قائد عليّ وأعتقهم . ولكنه التوى بما شرطه على نفسه من ثمنهم .

وانتهى الجيش إلى الكوفة ، وعرف عليّ قصة مصقلة مع الأسرى . فأثنى على القائد وصوب رأيه ، وانتظر أن يرسل مصقلة ما عليه من دَيْن . فلما أبطأ طالبه وألحّ فى مطالبته وإنذاره ، ثم أرسل إليه من يتقاضى منه المال ، فإن التوى به حمله إلى أمير البصرة ابن عباس .

وكان أمر مصقلة هنا من أوضح الأدلّة وأقواها على طبيعة الطاعة التى كان كثير من أشراف أهل العراق يبذلونها لعليّ ، فقد التوى بدَيْنه وحُمل إلى ابن عباس ، فلما طالبه ابن عباس بأداء الدين قال : « لو قد طلبت أكثر من

هذا المال إلى ابن عفان ما منعني إياه » . ثم احتال حتى هرب من البصرة ولحق بمعاوية . فتلقاه معاوية أحسن لقاء وأطعمه وأرضاه حتى طمع مصقلة فى أن يحمل أخاه نعيم بن هُبيرة على أن يلحق به . كتب إليه فى ذلك مع رجل من نصارى تغلب يقال له جَلْوان . ولكن هذا النصرانىّ لم يكد يبلغ الكوفة حتى عرف علىّ أمره وعرف أنه لا يبلغ الرسالة فحسب ، وإنما يتجسس أيضًا . فقطع يده ومات الرجل فى إثر ذلك . فقال نعيم يخاطب أخاه :

لا تأمننَّ هداك الله عن ثقة ... رَيْبَ الزمان ولا تبعث كجَلْوانا
ماذا أردْتَ إلى إرساله سَفَهاً ... ترجو سِقاطَ امرئٍ ما كان خَوَّانا
عَرَضْتَه لعلىٍّ إنه أسدٌ ... يمشى العِرَضْنَة من آسادِ خَفّانا
قد كنتَ فى مَنظرٍ عن ذا ومُستمعٍ ... تأوى العراق وتُدْعى خَيْرَ شَيْبانا
لو كنتَ أدّيت مالَ القوم مُصطبرًا ... للحق أحْيَيْتَ بالإفضال مَوْتانا
لكنْ لحقت بأهل الشام مُلتمساً ... فضلَ ابن هِنْد وذاك الرأى أشجانا
فالآن تُكْثر قَرْعَ السنّ مِن ندَم ... وما تقول وقد كان الذى كانا
وظَلْتَ تُبْغِضك الأحياء قاطبةً ... لم يرفع اللهُ بالبَغْضاء إنسانا

فلم تكن طاعة مَصْقَلة إذاً لعلىّ طاعة الرجل الذى يَصْدِر فى كل ما يأتى عن معرفة الحق والإيمان به والقيام دونه والصبر على ما يكون من نتائج هذا كله ، وإنما كانت طاعته طاعة رجل من الناس لخليفة من الخلفاء ، رجل يؤثر العافية وينتهز الفرصة ويبتغى لنفسه الخير مهما يكن مصدره ، يعنيه أمر نفسه قبل أن يعنيه أىّ شيء آخر . ولم يكن مصقلة فَذًّا فى ذلك ، وإنما كان له أشباه من أشراف الناس فضلاً عن عامتهم فى الكوفة والبصرة جميعًا .

فهو يشترى الأسرى ويُعتقهم لا يبتغى ثواب الله ولا يبتغى حسن الأحدوثة ، وإنما يستجيب للعصبيّة وحدها ويتخذ المكر بالسلطان وسيلة إلى إرضائها . فإذا عرف السلطان مكره وطالبه بالحق لم يصطبر له ولم يُؤدّ منه ما لزمه ، وإنما فرّ إلى الذين يحاربون الخليفة ويكيدون له فأصبح عدوًّا بعد أن كان وليًّا . ولم يكن لقاء معاوية له وترحيبه به وإيثاره إيّاه بالمعروف خيراً من التوائه هو بالدين وفراره

هو إلى الشام ، وإنما كان كيداً من الكيد ، ومكراً من المكر ، ومكافأة على ما لا يَحْسُن أن يكافأ عليه المسلم الصدوق . إنما كان ذلك يَحْسُن لو قد فرّ إلى معاوية رجل من الروم ليكيد معه لقيصر ويُعينه على غزو العدو ، فأما أن يُؤوى مَنْ كاد لإمامه لا بشيء ، ونَكَث عهده لا لشيء ، إلا لأنه قد يُعينه على إفساد أمر العراق ، فهذا هو الذى يُبيّن وجهاً خطيراً من وجوه السياسة التى أراد معاوية أن يُقيم عليها أمر السلطان الجديد ، سياسة الدنيا بأعراضها وأغراضها ، وبمنافعها ومآربها ، وبأهوائها وشهواتها .

وهنا يظهر الفرق واضحاً بين مذهب علىّ فى السياسة التى تُخلص للدين ، ومذهب معاوية فى السياسة التى تخلص للدنيا .

أما علىّ فلم يزد حين بلغه فِرارُ مَصْقَلة على أن قال : «ما له قاتله الله فَعَل فِعْل السيد وفرّ فرار العبد » . ثم أمر بدار مصقلة فهدمت .

ومضى امتحان عليّ على هذا النحو المُرّ ، خيانةً من الوليّ وكيداً من العدو . وهو بين ذلك كله مصمم على خطته الواضحة لا يرضى الدَّنيَّة من الأمر ولا يُدْهن فى دينه ، ولا يتحوّل عن سياسته الصريحة قليلا ولا كثيراً . والمِحَنُ تتابع عليه ويقفو بعضها إثر بعض ، وهو ماضٍ فى طريقه لا ينحرف عنه إلى يمين أو إلى شمال . يبلغ منه الغيظ أقصاه ، ويضيق بحياته أشد الضيق ، فلا يزيد على أن يجمجم ويُظهر غيظه دون أن يَلْفِتَه شيء من ذلك عمّا صمّم عليه .

ولم يكد يفرُغ من أمر النَّهْروان حتى امتُحن فى دولته نفسها ، فقد أخذ معاوية يُغير على أقطارها وينتقص أطرافها . وقد أطاعه أهل الشام مُخلصين فى الطاعة ، لا يناقشونه إذا أمرهم ويُقْبلون عليه إذا دعاهم . وكانت نفسه قد تعلّقت بمصر منذ نهض عليّ بالخلافة ، لقربها منه وبعدها من عليّ ، ولأن الثائرين من أهلها كانوا أشدّ أهل الأقاليم على عثمان وأسرعَهم إلى الفتك به . وقد همّ معاوية أن يصل بالكيد إلى ما أراد من مصر ، وكأنه قد بلغ بكيده ما أحبّ بعد خُطوب طوال ثقال .

كان عليٌّ قد ولّى قَيْسَ بن سعد بن عُبَادة الأنصاريّ الخزرجيّ أمْرَ مصر ، وكان لهذا الأمر كُفْئًا ولهذا العبء حاملاً . قَدِمَ مصر وقرأ على أهلها عهد عليّ ، فقام الناس إليه فبايعوا لعليّ واستقام له الأمر . إلا أن فريقًا منهم اعتزلوا وكتبوا إلى قيس أنهم لا يريدون أن يَنْصبوا له حربًا ولا أن يمنعوه خراجًا ، ولكنهم ينتظرون بالبيعة حتى يَرَوْا ما يصير إليه أمر الناس . فوادعهم قَيْسٌ ولم يَهِجْهم . ثم كتب إليه معاوية وعمرو بن العاص يستميلانه إليهما . فردّ عليهما ردًّا رفيقًا لم يؤيسهما من نفسه ولم يُطمعهما فيها ، وإنما أراد أن يتقى شرَّهما ويأمن مكرهما فى إقليمه هذا البعيد من مركز الخلافة . ولكن معاوية لم يَرْضَ منه بذلك وإنما كتب إليه ، وكتب ليعرف الصريح من رأيه وليتبين أصديق هو أم

عدوٌّ . فلما استيأس منه فسد الأمر بينهما حتى كتب إليه يسُبُّه ، ويدعوه اليهوديَّ ابن اليهودى . فرد عليه قيس سبًّا بسب ، ودعاه الوثنيَّ ابن الوثنيِّ ، ووصفه وأباه بأنهما دخلا فى الإسلام كارهَيْن وخرجا منه طائعين .

فعرف معاوية أن أمر قيس لن يستقيم له بالكيد الرقيق ولا بالنذير العنيف . فلم يَكِدْ له فى مصر وإنما كاد له فى العراق . كتب على لسانه كتاباً أظهر فيه انحرافه عن عليٍّ وغضبَه لعثمان ومطالبته بدم الخليفة المظلوم . ودسَّ الكتاب إلى أهل الكوفة . فأمّا عليٌّ فلم يصدّق ما جاء فى الكتاب ولم يزد على أن قال لأصحابه : إنى أعلم بقيس منكم ، وإنما هى فَعْلَة من فَعلاته . ولكن أصحابه صدّقوا وثاروا وألحوا فى عزل قيس . وتريث عليٌّ مع ذلك وكتب إلى قيس يأمره أن يناجز القوم الذين اعتزلوا ، ولا يقبل منهم إلا البيعة . فأجابه قيس متعجباً من إسراعه إلى حرب هؤلاء القوم الوادعين ، طالباً إليه أن يُخلِّى بينه وبين إقليمه يدبّره كما يرى لأنه قريب وعليٌّ بعيد ، ولأنه يخشى إن هاج هؤلاء الناسَ أن يفسد عليه الأمر ، وأن يجدوا من قومهم مَن ينصرهم ، وأن يستعينوا معاوية فيُعينهم .

ولم يشك أهلُ الكوفة بعد أن عرفوا ذلك من أمر قيس فى أنه قد أضمر الشر وخالف عن أمر إمامه . فألحوا فى عزله ، وما زالوا يلحون حتى عزله عليٌّ وولى مكانه محمد بن أبى بكر .

وكان الفرق بين محمد بن أبى بكر وبين قيس بن سعد أن محمداً كان شابًّا حدثًا ، وأن قيساً كان رجلا قد جرّب الأمور وبَلاَ حُلْوَ الدهر ومُرَّه ؛ وأن محمداً كان قد شارك فى أمر عثمان ، وأن قيساً لم يكن قد شارك فيه ؛ وأن محمداً كان رجلا تستخفه الحرب ولا يستجيب إلا لعواطف نفسه وشبابه ، وأن قيساً كان رجلا يؤثر الأناة ويزن الأمور ولا يحب الحرب إلا حين لا يكون منها بُدٌّ .

فلما وصل محمد بن أبى بكر إلى مصر رحل عنها قيسٌ إلى المدينة ، فلم يُقم فيها إلا قليلا ، ثم قدم على عليٍّ فشهد معه صِفّين ونصح له فى المحضر والمغيب . ودعا محمد بن أبى بكر أولئك المعتزلة إلى الطاعة ، فلما أبوا عليه أخذ فى حربهم ، فأرسل إليهم جنداً لم يلبث أن انهزم ، وأرسل إليهم جيشاً آخر لم يلبث أن انهزم أيضاً . وثار لهؤلاء الناس قومٌ من أنصارهم . وظهرت الدعوة للثأر بعثمان فى مصر ،

واضطرب أمر الإقليم . وعرف عليّ ذلك فولّى الأشتر النّخعي مصر وعزل عنها محمد بن أبى بكر . ولكن الأشتر لم يكد يصل إلى القُلْزُم حتى مات . وأكثر المؤرخين يتحدثون بأن معاوية أغوى صاحب الخراج فى القُلْزُم وحطّ عنه الخراج ما بقى إن احتال فى موت الأشتر . وبأن هذا الرجل دسّ للأشتر سماً فى شربة من عسل فقتله ليومه أو لغده . وكان معاوية وعمرو يتحدثان فيقولان : إن لله جنوداً من عسَل .

ثم جهز معاوية جيشاً لغزو مصر وأمّر عليه عمرو بن العاص . واضطر عليّ إلى أن يثبّت محمد بن أبى بكر فى ولايته ويأمره بالتحرز والاحتراس ويعده بإرسال المال والجند . وجعل يدعو أهل الكوفة إلى نصر إخوانهم فى مصر ، فلم ينتدبوا لذلك . فلما اشتد عليهم فى الإلحاح انتدب له جُنَيدٌ ضئيل ، فأرسلهم عليّ إلى مصر . ولكنه لم يلبث أن تلقى الأنباء بأن عمراً قد دخل مصر فاحتازها . وبأن محمد بن أبى بكر قد قُتل وحرقت جثته فى النار . فردّ جنده الضئيل وخطب أهلَ الكوفة لائماً مشتداً فى اللوم كعادته . ولكن أهل الكوفة لم يزيدوا على أن سمعوا ثم تفرقوا .

ومنذ ذلك اليوم انقسمت الدولة الإسلامية شطرين : شطر المغرب ، وأمره إلى معاوية ، وقوامه الشام ومصر وما فُتح على المسلمين من إفريقية وما وراء ذلك من أرض كانت تنتظر الفتح ؛ وشطر المشرق ، وأمره إلى عليّ ، وقوامه العراق وما فُتح على الفرس وجزيرة العرب . على أن معاوية لم يقنع بما احتاز من هذا المغرب ، وإنما أطمعه انتصارُه ، واجتماع أصحابه عليه ، وطاعتهم له ، وكيده لعليّ فى العراق ، ونُجحه فيما كان يحاول من استهواء أصحاب عليّ ، فلم يلبث أن فكّر ثم حاول فلم يُخطئه النُّجح فيما فكّر ولا فيما حاول ، ولم يفكّر فى أقل من أن يغزو أهل العراق فى عُقْرِ دارهم ، ولم يحاول أقل من أن يَشيع الذُّعر والهلع فيما بقى لعليّ من الأرض .

وفى أثناء هذا كلّه أضاف أقربُ الناس إلى علىّ وآثرُهم عنده محنةً إلى مِحَنه الكثيرة ، وهو ابن عمه وعامله على البصرة عبد الله بن عبَّاس صاحبُ رأى علىّ ، وأعرف الناس بدخيلة أمره ، وأقدرهم على نُصحه ونصره ، وأجدرهم أن يعينه ويُخلص له حين تتنكر له الدنيا ويمكر به العدو ويلتوى عليه الصديق .

ولم يقصّر علىٌّ فى ذات ابن عمه ، لم يُخْفِ عليه من أمره شيئًا ، ولم يحتجز عنه سرًّا من أسراره ، وإنما كان يراه وزيرًا طبيعيًّا له . أقام هو فى الكوفة وولّى وزيرَه وابن عمه البصرة ، وهى أعظم أمصاره وأجلّها خطرًا . وكان علىٌّ ينتظر أن يُمتحن فى الناس جميعًا إلا فى ابن عمّه هذا وفى بَنيه .

وكان لابن عبَّاس من العلم بأمور الدين والدنيا ، ومن المكانة فى بنى هاشم خاصة وفى قريش عامة وفى نفوس المسلمين جميعًا ، ما كان خليقًا أن يعصمه من الانحراف عن ابن عمّه ، مهما تعظم الكوارث ومهما تدلهمّ الخطوب . ولكنه فيما يظهر عاد من صِفّين منكسر النفس بعد ما رأى من ظهور معاوية بالكيد والمكر وطاعة أهل الشام ، ومن تفرّق أصحاب علىّ على إمامهم ، وانحراف كثير منهم عنه إلى الحرب الخفية ، وانحراف كثير منهم عنه إلى الحرب الظاهرة . ثم شهد أمر الحكمين فرأى تخاذل أهل العراق وتظاهر أهل الشام ، وعاد وقد استيقن أن الدنيا قد أدبرت عن ابن عمه ، وأن الأيام قد تنكّرت له ، وأن الأمور تريد أن تستقيم لمعاوية . ورأى أن ابن عمّه على ذلك كلّه ماضٍ فى طريقه المستقيمة لا يعوجّ ولا يلتوى ، ولا يحب اعوجاجًا ولا التواء من أحد ، وإنما يُجرى سياسته سمحة هيّنة ، ويسير سيرة عمر بالرفق بالمسلمين والعطف عليهم ؛ ولكنه لا يشتدّ شدة عُمر ولا يعنفُ بالناس ، وإنما يحارب مَن حاربه فى غير هَوادة ، ويُسالم من سالمه فى غير احتياط ، لا يعاقب على الكيد ولا يأخذ بالظنة ، ولا يبادى الناس بالشر حتى يُبادوه .

وقد رأينا أن ابن عباس لم يتقدم على علىّ حين أراد الشخوص إلى الشام ، ولم

يشهد معه النهروان ، وإنما أقام بالبصرة وسرّح الجند إلى علىّ كأنه قد ضاق بهذه الحرب التى لا تُغنى ، فقعد عنها وانتظر عاقبتها . ثم لم يلبث أن رأى عاقبتها شرًّا وفرقة وتخاذلا ، فقد أوقع علىّ بالخوارج فلم يزد على أن قتل جماعة من أصحابه . ثم لم يمض إلى الشام بعد ذلك وإنما عاد إلى الكوفة ، ثم لم يستطع أن يخرج منها بعد أن عاد إليها . رأى ابن عبّاس نَجْم ابن عمه فى أفول ونجم معاوية فى صعود ، فأقام فى البصرة يفكر فى نفسه أكثر مما يفكّر فى ابن عمه وفى هذه الخطوب التى كانت تزدحم عليه ، وكأنه آثر نفسه بشىء من الخير وسار فى بيت المال سيرةً تخالف المألوف من أمر علىّ ومن أمره هو ، حين كانت الأيام مقبلة على ابن عمه وعليه . وكأنه آنس من صاحب بيت المال فى البصرة ، وهو أبو الأسود الدُّؤلى شيئًا من النكير ، فأغلظ له فى القول ذات يوم .

وضاق أبو الأسود بما رأى وما سمع . فكتب إلى علىّ : « أما بعد . فإنّ الله جعلك واليًا مؤتمنًا وراعيًا مسئولا . وقد بلوناك فوجدناك عظيم الأمانة ناصحًا للرعية توفّر لهم فيئهم . وتَظلِف نفسَك عن دنياهم . فلا تأكل أموالهم ولا ترتشى فى أحكامهم . وإن عاملك وابن عمك قد أكل ما تحت يده بغير علمك ، ولا يسعنى كتمانُك ذلك . فانظر رحمك الله فيما قِبَلنا من أمرك واكتب إلىّ برأيك إن شاء الله . والسلام » .

وليس من شك أن هذا الكتاب قد روّع عليًّا وأضاف همًّا عظيمًا إلى همومه العظام ، وحزنًا ثقيلا إلى أحزانه اللاذعة المُمضّة . ولكنه صبّر نفسه على ما تكره كما تعوّد أن يفعل دائمًا . وكتب إلى أبى الأسود : « أما بعد . فقد فهمت كتابك . ومِثلُك نصح للإمام والأمة ، ووالَى على الحق وفارق الجور . وقد كتبتُ إلى صاحبك فيما كتبتَ إلىّ فيه من أمره ولم أعلمه بكتابك إلىّ فيه . فلا تَدَعْ إعلامى ما يكون بحضرتك مما النظرُ فيه للأمة صلاح ، فإنك بذلك محقوق ، وهو عليك واجب . والسلام » .

وكتب فى الوقت نفسه إلى ابن عباس : « أما بعد . فقد بلغنى عنك أمر إن كنتَ فعلته فقد أسخطت ربك وأخربت أمانتك وعصيت إمامك وخُنت المسلمين :

بلغنى أنك جرّدت الأرض وأكلت ما تحت يديك . فارفع إلىّ حسابك واعلم أن حساب الله أشد من حساب الناس » .

وليس غريبًا من علىّ أن يُشجِّع أبا الأسود على أن يُنبِّه بحقائق ما يكون بحضرته ، وأن يرضى منه ما فعل حين كتب إليه من أمر ابن عمه بما كتب . فقد كان علىّ فى أمر المال والعمَّال متحرّجًا أشد التحرّج ، أمرُه فى ذلك كأمر عمر . وكان أحرص الناس على ألاّ يَخفى عليه شىء من أمر عمَّاله ، كما سترى فى غير هذا الموضع .

وليس غريبًا كذلك أن يكتب إلى ابن عباس بما كتب ، فهو لم يتعوّد الرفق فى أمر المال ولا الإدهان فى أمر من أمور المسلمين . ولكن الغريب هو أن يتلقّى ابن عباس هذا الكتاب فلا يزيد على أن يكتب إلى علىّ : « أما بعد . فإن الذى بلغك باطل ، وأنا لما تحت يدى أضبط وأحفظ ، فلا تُصدق علىّ الأظِنَّاء ، رحمك الله . والسلام » .

كتاب لا يبرئ صاحبه ولا يُرضى قارئه ، وإنما يدل على غلوّ فى الثقة بالنفس واستخفاف بغيره من الناس . وابن عباس بعد ذلك قد صحب عُمر وعرف سيرته وتشدّدَه فى حساب العمَّال ، وهو قد صحب ابن عمه وعرف أنه لا يرقّ فى أمر المال ولا يلين . ومن أجل ذلك لم يقنع علىّ بهذا الكتاب الذى لا يغنى عنه ولا عن صاحبه شيئًا .

فكتب إلى ابن عباس يتشدّد فى مطالبته برفع حسابه إليه مفصَّلا ما يريد من ذلك :

« أما بعد . فإنه لا يسعنى تركُك حتى تعلمنى ما أخذت من الجزية ومن أين أخذته وفيما وضعت ما أنفقت منه . فاتق الله فيما ائتمنتك عليه واسترعيتك حفظه ؛ فإن المتاع بما أنت رازئ منه قليل ، وتبعة ذلك شديدة . والسلام » .

والغريب أن ابن عباس تلقّى هذا الكتاب فلم يكد يقرؤه حتى خرج عن طَوْره ، فلم يصنع صنيع العامل الذى يرفع إلى أمير المؤمنين حساب ما كُلِّف حفظه وضبطه من أموال المسلمين ، ولم يصنع صنيع ابن العم الذى يرعى لابن عمِّه حق القرابة وإخاء الصديق ، ولم يصنع صنيع الراعى الذى يعرف للإمام حقه فى أن

يستقصى أمر ما اؤتمن عليه من أموال الأمة ومصالحها ، فيُعينه على ما يريد من ذلك ، ويذكّره به إن نسيه ، ويعظه فيه إن قصّر فى ذاته .

لم يصنع صنيع أحد من هؤلاء ، وإنما جعل نفسه نِدًّا لإمامه وكفئًا لخليفته ، ورأى أنه أكبر من أن يسأله إمامه عن شيء أو يحاسبه فى شيء ، فضلا عن أن يتهمه أو يتظنن فيه . وابن عبّاس كان أعلم الناس بأن سُنَّة الشيخين قد جرت على أن يكون لكل مسلم الحق فى أن يُحاسب الإمام ويسأله عما يأتى وما يدع . وجرت كذلك على أن من حق الإمام ، بل من الحق عليه ، أن يحاسب الولاة والعمّال عن كل ما يأتون ويدعون ، وأن يشتدّ فى ذلك ليعصم عمّاله وولاته من التقصير ، وليجعلهم بمأمن من أن يسوء بهم ظنّ الرعيّة ويَفْسد فيهم رأى الضعفاء الذين لا يستطيعون أن يتقوا ظلمهم أو يأمنوا غوائلهم إذا خُلِّىَ بينهم وبين السلطان يصرّفونه كما يحبون .

وكان ابن عبّاس يعلم حق العلم أن سُنة عُمَر جرت على أن يسمع من الرعيّة كل ما يَعيبون على ولاتهم وعمّالهم بمشهد من هؤلاء الولاة والعمّال أو بمغيب منهم ، وكان يحقق كل ما يُرفع إليه من ذلك تحرّيًا للعدل وإبراءً لذمته أمام الله والناس . وكان يعلم أن عمر كثيرًا ما قاسم الولاة أموالهم بعد اعتزالهم عملَه ، وأنه كان يُحصى عليهم أموالهم حين يوليهم ويحصيها عليهم بعد أن يعزلهم . وكانوا يقبلون منه ذلك فى غير إنكار له أو ضيق به أو إكبار لأنفسهم عنه . وكان فيهم نفر من خيرة أصحاب النبى . ثم كان ابن عبّاس يعلم أن كثيرًا من المسلمين ، وعسى أن يكون منهم ، قد أنكروا على عثمان إسرافه فى الأموال العامة ، وأنكروا على ولاته وعمّاله ما أظهروا من الأثرة وما تورّطوا فيه من العبث بهذه الأموال العامة ، وأن عثمان قُتل فى سبيل هذا كله ، وأن ابن عمه إنما قام ليُحيى سُنة النبىّ والشّيْخين . فهو لم يتجاوز حدّه ولم يَعْدُ قدره حين طلب إلى أحد عمّاله ، وإن كان ابن عبّاس ، أن يقدّم إليه حسابَ ما عنده من الأموال العامة . وكان ابن عبّاس بعد هذا كله أعرفَ الناس بابن عمّه وأقدرهم على أن يخاطبه الخطابَ الذى يبلغ من نفسه الرّضى ، دون أن يسوءه أو يُحفظه أو يشقّ عليه . كان يستطيع أن يكتب إليه فى رفق ليبيّن له أنه لم يأخذ من الجزية لنفسه شيئًا ،

ولم يضع منها شيئاً فى غير حقه . وكان يستطيع أن يُلم به فى الكوفة ويظهره على الجلىّ من أمره . ولكنه أعرض عن هذا كله وأنِف أن يسير معه علىّ سيرتَه مع غيره من العمّال ، فاعتزل عملَه . ولكنه مع ذلك لم يستعف إمامه ، ولم ينتظر أن يُعفيه ، وإنما أعفى نفسه وترك المصر . ثم لم يتركه ليعود إلى الكوفة أو ليقيم فى العراق ، أو فى حيث يستطيع الإمام أن يأخذه بتقديم الحساب ويسأله عن عمله قبل أن يعتزله ، وإنما ترك المصر ولحق بمكة حيث لا يبلغه سلطان الإمام ، وحيث لا يقدر الإمام على أن يناله بالعقاب ، إن تبيّن استحقاقه للعقاب ، وإنما أقام بالحرم آمناً بأس إمامه علىّ وبأس خصمه معاوية .

ثم لم يكتف بهذا الخطأ كله وإنما صرّح لابن عمّه عما يؤذى نفسه ويترك فى قلبه وضميره حزناً لاذعاً وألماً ممضاً ، فأعلن إليه أنه يؤثر أن يلقى الله ، وفى ذمته شىء من أموال المسلمين ، على أن يلقى الله وفى ذمته تلك الدماء التى سفكت يوم الجمل ، والتى سفكت فى صفّين ، والتى سفكت فى النّهْروان . ثم يضيف إلى ذلك ما هو أمضّ منه وأشد إيذاء ، فيزعم لابن عمه أنه سفك ما سفك من دماء المسلمين فى سبيل المُلك فهو إذاً لم يكن يعتقد أن علياً إنما قاتل فى سبيل الحق ، وقاتل قوماً كان يجب عليه أن يقاتلهم .

كتب هذا كلّه إلى ابن عمه ولم ينس إلاّ شيئاً يسيراً جداً خطيراً جداً ، وهو أنه شارك ابن عمه فى سفك هذه الدماء ، فشهد الجمل ، وشهد صفّين ، وقاد جيوش ابن عمه فى هاتين الموقعتين . فهو إذاً لن يلقى الله بما قد يكون فى ذمته من أموال المسلمين فحسب ، ولكنه سيلقاه بما فى ذمته من هذه الدماء التى شارك فى سفكها ، مع الفرق بينه وبين علىّ ، لأن علياً سفكها وهو مؤمن بأنه يقاتل فى سبيل الحق ، وهو سفكها وهو يعتقد أنه يقاتل فى سبيل المُلك .

ولذلك قرأ علىّ كتاب ابن عمه فلم يزد على أن قال هذه الجملة التى تصور الحزن اللاذع واليأس الممض من الصديق والعدو : « وابن عباس لم يشاركنا فى سفك هذه الدماء ! » .

واقرأ كتاب ابن عباس إلى ابن عمه وإمامه لترى مقدار ما فيه من الغلظة والقسوة ، وجحود ما مضى من إخائه لعلى قبل الخلافة ونصحه له بعد الخلافة :

« أما بعد . فقد فهمت تعظيمك علىَّ مَرْزِئة ما بلغك أنى رزأته أهلَ هذه البلاد . ووالله لأن ألقى الله بما فى بطن هذه الأرض من عِقْيانها ولُجَيْنها وبِطِلاع ما على ظهرها ، أحبّ إلى من أن ألقاه وقد سفكت دماء الأمة لأنال بذلك الملك والإمارة . فابعث إلى عملك من أحببت » . وإلى هنا جرت الأمور على نحو من المغاضبة بين الخليفة وبين عامله ، ثم بين رجل وابن عمه ، على نحو من العنف كان خليقاً أن يُجتنب لو ذكر ابن عباس سيرة الشيخين وسيرة علىّ ، ولو نسى ابن عباس نفسه قليلا . ولكنه لم ينس نفسه قليلا ولا كثيراً ، ولم يضعها بحيث كان يجب عليه أن يضعها منذ قَبِل أن يكون والياً لعلىّ على مصر من أمصار المسلمين ، وبعد أن بايع علياً على العمل بكتاب الله وسنة رسوله والعدل بين الرعية .

وأبو الأسود الدؤلى أحد الرعية ، فمن حقه أن يخاصم الوالى عند الإمام ؛ ثم هو أمين الإمام على بيت مال البصرة ، فمن الحق عليه أن يرفع إليه كل ما يَريبه من تصرفات الوالى فيما اؤتمن عليه من المال . ولكن ابن عباس لم يكتف بما بلغ من هذه المغاضبة ، ولا بما انتهى إليه من هذا التصرف الغريب ، بل أضاف إليه شرًّا عظيماً ، لم يَسُؤ به الإمامَ وحده وإنما ساء به الرعية كلها وعامة أهل البصرة خاصة . فهو قد أجمع الخروج إلى مكة ، ولكنه لم يخرج منها فارغ اليدين من المال كما دخلها حين ولى عليها ، وإنما خرج منها وقد ملأ يديه بما كان فى بيت المال مما يُنقل ، وهو يعلم أن ليس له فى هذا المال حق إلا مثل ما لأهل البصرة جميعاً فيه .

وقد علم أن أهل البصرة لن يخلوا بينه وبين هذا المال الذى يريد أن يستأثر به من دونهم ، والذى يُقدّره المؤرخون بستة ملايين من الدراهم . فدعا إليه من كان فى البصرة من أخواله بنى هلال وطلب إليهم أن يُجيروه حتى يبلغ مأمنه ، ففعلوا .

وخرج ابنُ عبّاس ومعه مال المسلمين يحميه أخواله من بنى هلال . وثار أهل البصرة يريدون أن يستنقذوا منه ما أخذ . وكادت الفتنة تقع بين بنى هلال الغاضبين لابن أختهم ، الذين ذكروا عصبية العرب القديمة وأزمعوا أن ينصروا جارهم ظالما أومظلوماً ، وبين سائر العرب من أهل المصر الذين غضبوا

لمالهم وأبوا أن يُغتصب وهم شهود . لولا أن تناهى حلماء الأزد وآثروا جيرانَهم فى الدار من بنى هلال ، وتبعتهم فى ذلك حلماء ربيعة ، وتبعهم الأحنف بن قيس ومن معه من بنى تميم . ولكن سائر تميم أزمعوا أن يقاتلوا على هذا المال حتى يستردّوه . وبدأت المناوشة بينهم وبين بنى هلال . وكادت الدماء تسفك بين الفريقين ، لولا أن رجع إليهم حلماء أهل البصرة ، فما زالوا ببنى تميم حتى ردّوهم إلى المصر . ومضى ابن عباس آمنًا يحميه أخواله ويحمون ما أخذ من المال حتى بلغ مأمنه فى ظل البيت الحرام . ولم يكد يستقر بمكة حتى أقبل على شىء من الترف . واشترى ، فيما يروى المؤرخون ، ثلاث جوارٍ مولدات حُور بثلاثة آلاف دينار .

وعرف علىٌّ ذلك فكتب إليه :

« أما بعد . فإنى كنت أشركتُك فى أمانتى ، ولم يكن فى أهل بيتى رجل أوثق منك فى نفسى لمواساتى ومؤازرتى وأداء الأمانة إلىّ . فلما رأيتَ الزمانَ على ابن عمّك قد كَلِب ، والعدوّ عليه قد حَرِب ، وأمانة الناس قد خربت ، وهذه الأمة قد فتنت ، قلبت له ظهر المِجَنّ ، ففارقته مع القوم المفارقين ، وخذلته أسوأ خذلان الخاذلين ، وخنته مع الخائنين . فلا ابن عمّك آسيت ، ولا الأمانة أديت ، كأنك لم تكن لله تُريد بجهادك ، أو كأنك لم تكن على بيّنة من ربك . وكأنك إنما كنت تكيد أمة محمد عن دنياهم أو تطلب غرّتهم عن فيئهم . فلما أمكنتك الغرة أسرعت العدوة ، وغلظت الوثبة ، وانتهزت الفرصة ، واختطفت ما قدرت عليه من أموالهم اختطاف الذئب الأزَلّ دامية المعزى الهزيلة وظالعَها الكبير . فحملت أموالهم إلى الحجاز رحيب الصدر ، تحملها غير متأثّم من أخذها ، كأنك ، لا أبا لغيرك ، إنما حزت لأهلك تراثك عن أبيك وأمك . سبحان الله ! أفما تؤمن بالمعاد ولا تخاف سوء الحساب ؟ أما تعلم أنك تأكل حرامًا وتشرب حرامًا ؟ أوَ ما يعظم عليك وعندك أنك تستثمن الإماء وتنكح النساء بأموال اليتامى والأرامل والمجاهدين الذين أفاء الله عليهم البلاد ؟ فاتق الله ، وأدّ أموال القوم ، فإنك والله إلاّ تفعل ذلك ثم أمكننى الله منك لأعذرنّ إلى الله فيك حتى آخذ الحق وأردّه ، وأقمع الظالم وأنصف المظلوم . والسلام » .

ولست أعرف كلاماً أبلغ — فى تصوير الحزن اللاذع ، والأسى الممض ، والغضب لحق الله وأموال المسلمين ، فى مرارة اليأس من الناس ، والشك فى وفائهم للصديق ، وحفظهم للعهد ، وأدائهم للأمانة ، وقدرتهم على التزام الجادة ومعصية الهوى من هذا الكلام .

ولكن انظر كيف ردّ ابن عبّاس على هذا الكتاب المُرّ بهذه الكلمات ، التى إن صوّرت شيئاً فإنما تصوّر الإمعان فى الثقة بالنفس والاستخفاف برأى غيره فيه .

« أما بعد . فقد بلغنى كتابك تُعظم علىّ إصابة المال الذى أصبتُه من مال البصرة . ولعمرى إن حقّى فى بيت المال لأعظم مما أخذت منه . والسلام » .

ولست فى حاجة إلى أن أطيل الوقوف عند هذا الكتاب الغريب الذى لا يُثبت حقّاً ولا يبرئ من تبعة ، وإنما أختم هذه المناقشة المؤلمة بين الرجلين بردّ علىّ على ابن عمه فى هذا الكتاب الرائع :

« أما بعد . فإن من أعجب العجب تزيينَ نفسك لك أنّ لك فى بيت مال المسلمين من الحق أكثرَ مما لرجل من المسلمين . ولقد أفلحت إن كان ادعاؤك ما لا يكون وتمنيك الباطل يُنجيك من الإثم . عمرك الله ! إنك لأنت البعيد البعيد إذاً . وقد بلغنى أنك اتخذت مكة وطناً وصيّرتها عطَناً ، واشتريت مولدات المدينة والطائف تتخيّرهن على عينك وتُعطى فيهن مال غيرك . والله ما أحب أن يكون الذى أخذت من أموالهم لى حلالاً أدعه ميراثاً . فكيف لا أتعجب اغتباطك بأكله حراماً . فضحّ رويداً . مكانك قد بلغت المدى . حيث ينادى المغترّ بالحسرة ، ويتمنى المفرط التوبة ، والظالم الرجعة ، ولات حين مناص . والسلام » .

وبعض الرواة يزعمون أن عُمر همّ أن يولى ابن عبّاس بعض أعماله ، ولكنه خاف منه وخاف عليه ، خاف منه أن يتأول فى أكل الفىء ، وخاف عليه أن يورّطه ذلك فى الإثم .

ويزعم هؤلاء الرواة أن ابن عبّاس حين ولاّه علىّ البصرة تأوّل فيما أباح لنفسه قولَ الله عز وجل : ﴿وَٱعلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُم مِن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَه ولِلرَّسُولِ

ولذِى القُربى واليَتامى والمساكين وابن السَّبيل ﴾ . ومكان ابن عبَّاس من النبيّ قريب ، فله الحقّ فى بعض هذا الخُمس الذى قسمه الله للرسول وأولى القُربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . ولكنّ ابن عبَّاس عندى أصح رأيًا وأعقل عقلا وأعلم بدينه من هذا التأوّل . فهو كان يعلم من غير شك أن حقه فى هذا الخمس لن يعدو أن يكون كحق غيره من أولى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . وكان يعلم أنه لا ينبغى له بل لا يحل له أن يأخذ حقَّه من هذا الخمس بنفسه . وإنما ينبغى أن يتلقّاه من الإمام الذى نُصب ليقسم بين المسلمين فيئهم ، ويُنفق منه فى مرافقهم ، وهو الذى يقسم بين أولى القربى واليتامى والمساكين حقَّهم من هذا الخمس .

ولو أن غير ابن عبَّاس من المسلمين عرف أن له حقًّا فى بيت المال فأخذه بنفسه ، دون أن يعدوَه أو يزيد فيه ، لكان بذلك معتديًا على السلطان متجاوزًا للحد ، ولكان من الحق على الإمام أن يُنزل به ما يستحقّ من العقاب .

وكان ابن عبَّاس يعلم بعد هذا كله أنّ ابن عمّه الخليفة هو بحكم قرابته وخلافته أجدر الناس أن يَخلُف رسول الله فى توزيع هذا الخمس على مستحقيه .

والغريب أن كثيراً من المحدّثين أهملوا هذه القصة ولم يشيروا إليها تحرُّجًا من ذكرها . فمكان ابن عبَّاس من النبىّ ومكانه من الفقه بالدين أعظم من أن يُظن به مثل هذا التجاوز للحق والخلاف على الإمام .

على أن رُواة آخرين يُسرفون فى هذه القصة نفسها بعض الإسراف ، فيزعمون أن ابن عباس رد على الكتاب الأخير لعلىّ قائلاً : « لئن لم تَدَعنى من أساطيرك لأحملنّ هذا المال إلى معاوية يقاتلك به » . وما أحسب أن الأمر قد بلغ بابن عبَّاس هذا الحد من التأليب الصريح على ابن عمه . على أن لهذه القصة نتائجها القريبة المباشرة ، التى كانت محنة لعلىّ فى أصحابه وفى سلطانه أيضًا .

وقد ظهرت هذه النتائج كأظهر ما كان يمكن أن تكون بشاعةً وشناعةً ونُكرًا . لم تمتحن عليًّا فى أسرته وأصحابه وسلطانه ، وإنما امتحنت النظام السياسى الذى كان علىٌّ يظن أنه نهض لصيانته وحياطته ، وهو نظام الخلافة . وامتحنت الإسلام نفسه فى أخصّ ما كان يحرص عليه النبىّ والخلفاء ، وهو محو العصبية التى ألفها العرب فى عصرهم الجاهلى القديم . فقد رأى معاوية وانتشار أمر علىّ فى العراق وتفرق أصحابه وعجزهم ووهنهم وامتناعهم عليه . فلم يكد يفرغ من أمر مصر حتى طمع فى إقليم آخر ليس أقل من مصر خطراً ، وهو إقليم البصرة وما يتبعها من بلاد الفرس . وقد ذكر معاوية أن العثمانية فاشية فى البصرة ، وأن أهلها قد ثاروا مع عائشة وصاحبيها للطلب بدم عثمان ، وأنهم لم ينسوا وقعة الجمل بعدُ ، وأن لهم أوتاراً لم تُشْفَ كلومها بعد . ورأى أن ابن عباس قد ترك البصرة مغاضباً لابن عمه ، فطمع فى أن يستفزّ أهلها ويذكّرهم أوتارهم ويُثيرهم للطلب بها .

واستشار فى ذلك عمرو بن العاص فصوّب رأيه وحرّضه على إمضائه . فاختار رجلاً صليباً له رحم بعثمان ، وهو عبد الله بن عامر الحضرمىّ ، ابن خالة الخليفة المقتول . فأرسله إلى البصرة وأوصاه أن يأتى بنى تميم ويتحبب إلى الأزد ويتجنب ربيعة ، لأنها علوية الهوى . ولم يكد عبد الله بن عامر الحضرمىّ يصل إلى البصرة حتى استهوى بنى تميم ، إلا الأحنف بن قيس فإنه عاد إلى العزلة التى التزمها يوم الجمل مع جماعة من أصحابه .

وكان ابن عباس قد ترك البصرة لزياد ، فهمّ زياد أن يستجير ربيعة ، ولكنه رأى من بعض أشرافها تردُّداً واعتلالا ، فاستجار الأزد . وأجاره هؤلاء على أن يترك دار الإمارة ويتحوّل إلى رحالهم وينقل معه منبره وبيت المال ، ففعل . وأصبحت البصرة وقد انقسم أهلها طوائف ، طائفة مالت إلى معاوية وقامت دون رسوله ابن الحضرمىّ ، وطائفة اعتزلت الفتنة مع الأحنف بن قيس ، وطائفة جعلت تنتظر الأحداث وترقّب الخطوب على شىء من الفرقة فى صفوفها ، وهى ربيعة ،

وطائفة أخرى لم تحفل بأمر علىّ ولا بأمر عثمان ومعاوية وإنما حفلت بأمر أحسابها ، وقامت دون جارها تحميه بعد أن لجأ إلى دُورها . وعسى أن تكون قد وجدت على ابن الحضرمىّ، لأنه نزل فى بنى تميم واعتمد عليهم ، ولم ينزل عندها ، وهى الأزد .

وكذلك ظهرت العصبية واضحة بشعة ، وجعل جند البصرة يرعَوْن قبائلهم أكثر مما يرعون السلطان ، ويحفلون بأحسابهم أكثر مما يحفلون بالإمام ، ويغضبون لهذه الأحساب أكثر مما يغضبون للدين ، ويتنافسون فيما بينهم أيّهم يكون أحسن من صاحبه بلاء فى حماية جاره .

وكتب زياد إلى علىّ يُنبئه بما وقع ، فلم يَمِلْ علىٌّ إلى الحرب ، وإنما أرسل إلى تميم رجلاً منهم ، هو أعْيَن بن ضبيعة ، ليردّ عليهم بعضَ أحلامهم. فلم يكد أعْين يناظر قومه حتى اختلفوا عليه وتفرقوا عنه ، ثم بيّتوه ذات ليلة فقتلوه . وأراد زياد أن يثأر له ، وأن يناوش القوم ، ولكن الأزد امتنعت عليه لأنها لم تحالفه على أن تكون حرباً على من حارب وسلماً لمن سالم ، وإنما حالفته على أن تحميه وتحمى بيت المال .

وقد كتب زياد إلى علىّ يُنبئه بما صار إليه أمر أعْين بن ضُبيعة. فدعا إليه تميمياً آخر ، هو جارية بن قُدامة ، فأرسله إلى قومه. ولكنه لم يرسله وحده هذه المرة وإنما أرسل معه بعض الجند . وقد وصل جارية بن قُدامة إلى البصرة فقال لزياد وسمع منه ، وناظر قومه من بنى تميم . فاستجاب له بعضهم وامتنع عليه بعضهم الآخر . فنهض بمن جاء معه من الكوفة ومن انضم إليه من أهل البصرة لقتال ابن الحضْرمىّ . وما زال به وبأصحابه حتى اضطرهم إلى الهزيمة ، وألجأ ابن الحضرمىّ وسبعين من أصحابه إلى دار من دور البصرة . وبعض المؤرخين يقول : إلى حصن قديم من حصون البصرة . فأنذرهم جارية وأعذر إليهم. ولكنهم أبوا وتهيئوا للحصار . وهنالك أمر جاريةُ بن قُدامة بالحطب فجُمع ، وأحيطت به الدار وأضرمت فيه النار ، فاحترقت الدار بمن فيها ، لم ينج منهم أحد . وتغنت العصبية الأزدية بهذا الفوز بعد أن عاد زياد وبيت المال إلى دار الإمارة ، وبعد أن عاد المنبر إلى مكانه من المسجد الجامع . فقال قائل الأزد عمرو بن العرَنْدس العوْدىّ يفخر بأحساب قومه ، كما كان الشعراء يفعلون فى الجاهلية :

ردَدْنا زيادًا إلى داره وجار تميم دُخاناً ذَهَبْ
لحى الله قوماً شَووْا جارَهم ولِلشَّاء بالدِّرْهمينِ الشَّصَب
يُنادى الخِناقُ وخُمَّانُها قد سَمطُوا رأسه باللهب
ونحن أناس لنا عادة تُحامِى عن الجار أن يُغْتَصب
حَميْناه إذ حلَّ أبياتَنا ولا يَمنع الجارَ إلَّا الحسب
ولم يعرفوا حُرمة للجوا ر إذا أعظم الجارَ قومٌ نُجُب
كفعلهمُ قَبلنا بالزُّبيـــــر عشيَّةَ إذْ بزَّه يُسْتَلب

فانظر إلى هذا الشاعر لم يذكر عليًّا ولا عثمان ، ولا أشار إلى رأيٍ أو دين، ولا حفل بطاعة للإمام أو استجابة للسلطان ، وإنما ذكر زياداً الذى استجار قومه فأجاروه وأحسنوا جواره ، وعيَّر تميمًا ما كان من تركهم جارهم حتى أكلته النار وذهب دخانًا . غدروا به وخفَروا ذمته بعد أن بذلوا له الجوار والأمن، كما غدروا بالزُّبير من قبل فقتلوه وابتزُّوا سَلَبه .

وقال جرير بعد ذلك بزمن غير قصير يمدح الأزد ويهجو مُجاشعاً رهط الفرزدق :

غدرتُمْ بالزُّبير فما وفَيْتُم وفاءَ الأَزد إذ منعوا زيادَا
فأَصبح جارُهم بنجاةِ عِزٍّ وجارُ مُجاشع أَمسى رَمَادا
فلو عاقدتَ حبْلَ أبى سعيد لذاد القوم ما حَمَل النِّجادا
وأَدْنى الخيلَ من رَهج المنايا وأغشاها الأَسنَّة والصِّعادا

ولو قد أقام عبدُ الله بن عباس على عهد ابن عمه لحابه معاوية ،ولما طمع فى ملْك ضيّعه أصحابُه وتركوه نهباً لمن شاء أن ينهبه . بل لو أقام ابنُ عبّاس على عهد ابن عمّه لحال بين العصبيّة وبين هذا الظهور الفُجائى البشع ، ولجنّب إمامه هذه المحنة القاسية التى تضاف إلى محن قاسية أخرى فلا تزيدها إلا نُكْرًا .

وبعض المؤرخين يزعم أن هذه الأحداث حدثت حين كان ابن عبّاس قد ذهب إلى الكوفة مواسياً لعلىّ بعد مقتل محمد بن أبى بكر ، واحتياز عمرو بن

العاص لمصر . وهذا كلام لا يستقيم . فلو قد كان ابن عباس عند عليّ لعاد إلى البصرة مُسرعاً حين بلغته هذه الأنباء ، ولما أقام عند عليٍّ ينتظر أن يغني عنه زيادٌ وأعيَن بن ضُبيعة وجاريةُ بن قُدامة .

والواقعُ أنّ ابن عباس قد ضعف عن أمر ابن عمه بعد قضيّة الحكمين ، فهو لم ينهض معه إلى الشام حين همّ بالنهوض إليها ، ولم يشهد معه النّهروان ، وإنما أرسل إليه جنداً من أهل البصرة ، ثم لم يزد على ذلك ، وإنما أقام حتى كان من أمره ما كان .

ومع أنّ معاوية لم ينجح فيما قصد إليه من أخذ البصرة كما أخذ مصر ، أو إثارة الفتنة فيها والكيد لعليّ ، ولم يزد على أن أرسل ابن الحضرميّ إلى الموت المنكر ، فإنه على ذلك قد أفسد من أمر البصرة شيئاً كثيراً . فليس قليلا أن يُثير فيها الفتنة وقتاً طويلاً أو قصيراً . وأن يُلجئ زياداً وبيت ماله إلى حيّ من أحياء العرب يجيرونه من سائر الناس ، صنيع العرب فى جاهليّتهم . وأن يترك المصر مضطرباً قد اختلط فيه الأمر وانتشرت فيه الضغائن والإحن وفسد بعض أهله على بعض . ثم هو بعد ذلك قد انتفع بالتجربة وعرف أن الحرب الظاهرة المجاهرة لعليّ فى العراق لم يئن أوانها بعد . فاتخذ لنفسه خطة أخرى ليست أقل من الحرب الظاهرة شرًّا ولا أهون منها شأناً . ولعلّها أن تكون أشدّ ترويعاً للنفوس وإشاعة للذعر ونشراً للقلق . ولعلها أن تكون أبلغ فى إشعار أهل العراق بالخوف المتصل والفزع المقيم ، وإقناعهم بأن سلطان عليّ قد بلغ من الضعف والوهن وكلال الحدّ أنه أصبح لا يُغنى عنهم شيئاً ، ولا يدفع عنهم شرًّا ، ولا يرد عنهم مكروهاً ، وإنما هم معرّضون لمعاوية يصيب من أموالهم ودمائهم ما شاء ومتى شاء وكيف شاء .

فهذه القِطَع الخفيفة اليسيرة من الجند يُؤمَّر عليها رجل صَليب مجرَّب لحرب الكرّ والفرّ ، ثم تُكلَّف الغارةَ على هذا المكان أو ذاك من حدود العراق ، وربما كُلِّفت أن توغل فى الأرض وتشيع الفساد والنكر ما وجدت إلى ذلك سبيلا ، ثم تعود أدراجَها بما احتوت من غنيمة ، وتترك وراءها فرقاً وهلعاً ، فهى أشبه بالإبر النافذة المسمومة التى تخز هذا الجسم المستقر فى العراق وخزاً سريعاً خاطفاً ، ثم تنصرف عنه وقد تركت فيه شيئاً من سم يجرى فيه مع الدم ، فيملؤه خوراً وضعفاً وتفرُّقاً ويأساً ، ويضطره إلى ذُل لا عزّ معه ، وإلى ضعة ليس بعدها ارتفاع . فهو يُرسل الضَّحاك بن قيس فى قطعة من الجند إلى هذا الطرف من بادية العراق التى تلى الشام . ويُرسل سفيان بن عَوْف إلى طرَف آخر ويأمره أن يُمعن فى الأرض حتى يبلغ الأنبار فيوقع بأهلها ثم يعود موفوراً . ثم يرسل النعمان بن بشير

إلى طرف ثالث ، وابن مَسْعدة الفزاريّ إلى طرف رابع . وأنباء هذه الغارات تبلغ عليًّا فتحفظه وتثيره ، ولكنه يدعو فلا يستجيب له أحد ، ويأمر فلا يطيعه أحد .

· قد امتلأت قلوب أهل الكوفة خوفاً وذلة وانكساراً ، فتخاذلوا وتواكلوا وقنعوا بالعافية فى مصرهم وفيما حولهم من هذا السواد القريب ، لا يطمعون فى أكثر من أن يعيشوا ، حتى بلغ الغيظ من علىّ أقصاه فخطبهم ذاتَ يوم خطبته الرائعة التى تصور ما انتهت به المحنة إليه من همّ مقيم ، وغيظ مُمِضّ ، ويأس من أصحابه لا يُبقى على شىء من أمل . قال :

« أما بعد . فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبةً عنه ألبسه الله الذل وسيمَ الخسف وديُّث بالصغار . وقد دعوتكم إلى حرب هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً ، وسرًّا وإعلاناً ، وقلت لكم : اغزوهم من قبل أن يغزوكم فوالذى نفسى بيده ، ما غُزِىَ قوم قط فى عقر دارهم إلا ذلّوا . فتخاذلتم وتواكلتم وثَقُل عليكم قولى واتخذتموه وراءكم ظهريًّا ، حتى شُنَّتْ عليكم الغارات . هذا أخو غامد . قد وردت خيلُه الأنبار وقتلوا حسّان بن حسّان ورجالاً منهم كثيراً ونساء . والذى نفسى بيده ، لقد بلغنى أنه كان يُدْخل على المرأة المسلمة والمعاهدة فتُنتزع أحجالهما ورُعثهما . ثم انصرفوا موفورين لم يكْلَم أحد منهم كلْماً . فلو أن امرأً مسْلماً مات من دون هذا أسفاً ما كان عندى فيه ملُوماً ، بل كان به عندى جديراً . يا عجباً كل العجب ، عجبٌ يُميت القلب ويَشغل الفهم ويُكثر الأحزان ، من تظافر هؤلاء القوم على باطلهم وفَشَلِكم عن حقكم ، حتى أصبحتم غرضاً تُرْمَوْن ولا تَرْمُون ، ويُغار عليكم ولا تغيرون ويعصى الله فيكم وترضون . إذا قلت لكم : اغزوهم فى الشتاء . قلتم : هذا أوان قرّ وصرّ ، وإن قلت لكم : اغزوهم فى الصيف . قلتم : هذه حَمَّارّة القيظ ، أنظرنا ينصرم الحرُّ عنا . فإذا كنتم من الحر والبرد تفرّون . . . فأنتم والله من السيف أفرّ ، يا أشباه الرجال ولا رجال ، ويا طغام الأحلا م ، ويا عقول ربات الحجال . والله لقد أفسدتم علىّ رأيى بالعصيان ، ولقد ملأتم جوفى غيظاً حتى قالت قريش : ابن أبى طالب رجل شجاع ولكن لا رأ ى له فى الحرب . لله دَرُّهم ، ومن ذا يكون أعلم بها منى أو أشد لها مِراساً . فو الله لقد نهضت فيها

وما بلغت العشرين ، ولقد نيَّفْتُ اليوم على الستين . ولكن لا رأيَ لمن لا يُطاع ، لا رأى لمن لا يطاع ، لا رأى لمن لا يطاع » .

وكانت هذه الخطبة وأشباهها تثير الحفائظ فى بعض النفوس التى كانت ما تزال تعرف للأحساب بعض أقدارها ، فتنتدب منهم عُصبٌ يؤمَّر عليها علىٌّ بعض الرؤساء ويرسلها فى آثار أولئك المغيرين . فتدركهم أحياناً ويفوتونها أحياناً أخرى . والشىء المحقق هو أن معاوية قد طمع فى علىّ وأهل العراق ، فاتخذ خطة الهجوم الخاطف المتصل ، وألزم خصمه خطة الدفاع البطىء الذى لا يدفع شرًّا ولا يُصلح فساداً .

وقد رضى معاوية عن هذه التجارب ، فأراد أن يمعن فيها ، وأن يتجاوز بغاراته العراق إلى بلاد العرب . وكانت بلاد العرب موطأة لمعاوية ، فمكة حرام لا يقاتل أهلها ولا يحب أحد من الخصمين أن يقاتل حولها . وأهل المدينة وادعون يرون أن مكانهم من دار الهجرة ونزولهم حول مسجد النبى وانتقال السلطان عنهم إلى الكوفة قد أمنهم أن يُغير عليهم أحد . ومقاتلتهم بعد ذلك قد لحق أكثرهم بعلىّ ولحق أقلهم بمعاوية .

وفى اليمن شيعة لعثمان يناوئون عامل علىّ عليها ، وهو عبيد الله بن عباس ، ولكنهم لا يبلغون بمناوأته الحرب ، وإنما يضطرونه إلى أن يصطنع فيهم الشدة فيلقونه بالنكير .

وقد عظم أمر هذه الشيعة حتى كتب العامل فيهم إلى علىّ . وأرسل علىّ من يحاول إصلاحهم . ويرهبهم بمقدم الجند . فكتبوا إلى معاوية يستنصرونه ويستحثونه ، واختار معاوية رجلا جلداً صليباً قاسىّ القلب غليظ الكبد جافى الطبع من قريش ، هو بُسْر بن أرطاة ، فأمره أن يختار الجند على عينه ، ففعل . ثم وجهه إلى بلاد العرب وأوصاه أن يقسو على أهل البادية من شيعة علىّ حتى يملأ قلوبهم ذُعراً ، وأن يأتى المدينة فيرهب أهلها حتى يروا أنه الموت ، ثم يأتى مكة فيرفق بأهلها ولا يروعهم ، ثم يأتى اليمن فيخرج عنها عامل علىّ وينصر فيها شيعة عثمان .

ومضى بُسر بن أرطاة فأنفذ أمر معاوية وأضاف إليه من عند نفسه قسوةً وغلظة وإسرافاً فى الاستخفاف بالدماء والأموال والحقوق والحرمات . فكان كثيرَ القتل فى البادية . وجاء المدينة فروّع أهلها حتى أراهم الكارثة رَأْىَ العين . ثم أمرهم بالبيعة لمعاوية ففعلوا . وأتى مكة فلم يَرُع فيها أحداً . وَهمّ أن يروع أهل الطائف ويُوقع بهم . ولكن المُغيرة بن شُعبة نصح له وأشار عليه . فكفّ عنهم ومضى إلى اليمن . ففرّ عنها عاملُ علىّ وأعوانه . ونشر فيها الروع بالإسراف فى

القتل ، ثم أخذ البيعة لمعاوية . وبلغ خبرُه علياً فأرسل جاريةَ بن قُدامة لردّه عن اليمن فى ألفى رجل . ولم يكد جارية يدنو من اليمن حتى فرّ منها بُسر بن أرطاة ورجع إلى الشام مُفسداً فى الأرض أثناء رجوعه ، مُسرفاً فى القتل والنهب حتى ذبح ابنى عُبيد الله بن عباس ، وكانا صبيّين . وانتهى جاريةُ بن قدامة إلى اليمن فأضاف قتلاً إلى قتل بمن أهلك من شيعة عثمان . ورد اليمن إلى طاعة علىّ . وعاد إلى مكة فعرف فيها أن علياً قد قُتل . فمضى راجعاً إلى الكوفة بعد أن أخذ بيعة المكيين والمدنيين للخليفة الجديد فى العراق .

وقد رجع بُسر بن أرطاة إلى معاوية موفوراً ، ولكنه أسرف فى سفك الدماء على الناس كما أسرفَ على نفسه أيضاً . فما رأى إلا أن نفسه قد تأثرت بكثرة ما سفك من هذه الدماء ، وما اقترف من إثم ونُكر . فانطبع هذا كله فى أعماق ضميره . ولعل صُوَراً منه كانت تبدو له بشعةً مروعة إذا اشتمل عليه النوم . وهو على ذلك قد جُنّ حين تقدّمت به السنّ ، فجعل يهذى بالسيف فيما يقول المؤرخون . لا يطمئن إلا إذا أعمله فأكثر إعماله ، حتى اتخذوا له سيفاً من خشب كانوا يضعونه فى يده ويقرّبون إليه الوسائد ، فما يزال يعمل سيفه ضرباً لها حتى يدركه الإعياء فيغشى عليه ، فإذا أفاق عاد إلى مثل ما كان فيه . وما زال هذا دأبه حتى قضى .

ولم يقنع معاويةُ بهذه الغارات التى أشرنا إليها آنفاً ، وإنما مضى فى الغارات يصبُّها على أطراف علىّ . ومضى عمّال الأطراف يقاومون هذه الغارات ، يُفلحون فى مقاومتها حيناً ويخفقون فيها حيناً آخر ، حتى شُغل بها أهل العراق . فأرّق ليلهم وأقلق نهارهم وزادهم إيثاراً للعافية ورغبة فى السلم وفزعاً من الموت .

ثم لم تكن هذه الغارات وحدها هي التي أقلقت علياً وأقضت مضاجع أهل العراق ، وإنما كانت هناك حروب داخلية يسيرة ، ولكنها على ذلك مزعجة : وكان الخوارج بالطبع هم الذين يثيرون هذه الحروب . فقد قتلهم على في النهروان ، ولكنه لم يأت عليهم جميعاً ولم يستأصل مذهبهم . ومتى استطاعت القوة القوية ، والبأس البئيس والإرهاب الرهيب قضاء على رأى أو استئصالاً لمذهب . وعسى أن يكون هذا كله مقوياً للرأى ومعيناً على نشره وداعياً ملحاً إلى نصره .

وقد ترك على في نفوس من بقى من الخوارج ، وفي نفوس أحيائهم وذوى عصبتهم أوتاراً لم يكن بد من الطلب بها . وقد طلبوا بها جادين في ذلك غير وانين ولا مقصرين . فخرجوا أرسالا ، يخرج الرجل ومعه المائة أو المائتان فيمضون أمامهم حتى ينتهوا إلى مكان يؤثرونه ، فيقيمون فيه وقتاً يقصر أو يطول ، يهيئون أنفسهم أثناء ذلك للقتال ، فإذا تم لهم من ذلك ما يريدون نصبوا للحرب ، وأخافوا الناس من حولهم ، وعرضوا الأمن العام للخطر الشديد . فيضطر على إلى أن يرسل إليهم رجلاً من أصحابه ويجرد معه طائفة من الجند . فيمضى هذا الرجل حتى يلقى القوم فيقاتلهم أشد قتال ، حتى إذا قتلهم أو فض جمعهم عاد إلى على . ولم يكن يعود حتى يخرج رجل آخر ، ومعه قوم آخرون من الخوارج ، وتتجدد القصة ثم لا تنقضى إلا لتتجدد .

وكذلك خرج أشرس بن عوف الشيبانى . فلما قتل وقتل معه أصحابه خرج هلال بن علفة التيمى ، من تيم الرباب . فلم يكد على يفرغ من أمره حتى خرج الأشهب بن بشر البجلى . فلما قتل خرج سعيد بن قفل التيمى ، من تيم الله ابن ثعلبة بن عكابة . فلم يكد يعود الذين حاربوه وقاتلوه من أصحاب على حتى خرج أبو مريم السعدى ، من سعد مناة بن تميم . وقد امتاز هذا الرجل بأنه لم يخرج في أصحابه من العرب وحدهم وإنما تبعه كثير من الموالى .

ومعنى ذلك أن مذهب الخوارج قد تجاوز العرب إلى غيرهم من المغلوبين

الذين كانوا إلى الآن يستظلون بظل الفاتحين ، يُسلم منهم من يُسلم فيظل جديداً فى إسلامه يؤدّى ما يجب عليه من حق ، لا يكاد يتجاوز ذلك إلى ما يكون بين العرب من خلاف .

ولكنا نراهم الآن قد أخذوا ينكرون التحكيم ويخرجون على الإمام . وجعل العرب من الخوارج لا يكرهون الاستعانة بهم على حرب نظرائهم . أصبحت العصبيّة العربية عندهم أقل خطراً وأهون شأناً من الرأى والمذهب . وقد عيّر أصحاب علىّ أبا مريم ، حين لقوه فى كثرته من الموالى ، قتالَه للعرب مع هذه الطبقة غير ذات الشأن من الناس . فلم يحفل بما قالوا له ، وإنما شدّ عليهم مع هؤلاء الناس غير أولى الشأن شدةً منكرة كشفتهم عن أماكنهم ، واضطرتهم إلى أن يرجعوا منهزمين إلى الكوفة ، إلا قائدهم ، فإنه أقام فى نفر يسير ينتظر المدد .

وقد خرج علىّ نفسه لقتال أبى مريم الذى كان قد دنا من الكوفة . فلما قتله وقتل أصحابه رجع محزون النفس مكلوم القلب تساوره الهموم . وما له لا يجد هذا كله وهو يقضى حياته بين أمرين ليس أحدهما أقلّ نُكراً من الآخر . حرب داخليّة قد أصبحت نظاماً مستقرّاً فهو لا يفرغ منها إلا ليعود إليها ، وغارات تُصب على أطرافه من أهل الشام قد أصبحت هى الأخرى نظاماً مستقرّاً . فهو لا يسد ثغرة إلا فتحت له ثغرة أخرى ، وأصحابه على رغم ذلك مُمعنون فى العجز مغرقون فيما أحبوا من العافية ، قد فُلّ حدُّهم ، وكُسِرت شوكتهم ، وطمع فيهم العدو البعيد منهم ، وأغرى بهم العدو المقيم بين أظهرهم ، كأن حِلفاً خفية قد انعقدت بين الخوارج وبين أهل الشام على غير علم من أولئك ولا من هؤلاء ، وقوام هذه الحلف أن يجرّعوا عليّاً الغصص ويرهقوه من أمره عسراً .

وقد أقام معاوية فى الشام يرى ويسمع من أمر خصمه ما يزيده فيه طمعاً ، وها هو ذا قد طمع فى أن يرسل من قِبَله من يقيم للناس الحج فى الموسم . وما له لا يفعل وقد بايعه أهل الشام بالخلافة ، ودانت له مصر واستقام له كثير من أهل البادية . وضعف خصمه عن النهوض لحربه ، بل ضعف حتّى عن الدفاع عن سلطانه فى داخل حدوده نفسها .

وكذلك أرسل معاوية يزيدَ بن شَجَرة الرهاوى أميراً على الموسم يُقيم للناس

حجهم . وكان يزيد عثمانيًّا مخلص الحب لمعاوية ، ولكنه كان يكره القتال فى المكان الحرام والشهر الحرام . فلما استيقن أن معاوية لا يرسله للحرب وإنما يرسله لأمر ظاهره الدين ومن ورائه السياسة مضى لمهمته . ولم يكد يدنو من مكة حتى خافه قُثَم بن العبَّاس ، عامل علىّ عليها ، فاعتزل أمره . ودخل يزيد مكة فأمَّن الناس ووسَّط أبا سعيد الخدْرىّ فى أن يختار الناسُ لهم رجلا غير عامل علىّ ، يُقيم لهم الصلاة ليصلى المسلمون جميعًا غير مفترقين ، فاختار الناس عثمان بن أبى طلحة العبْدرىّ . فأقام للناس صلاتهم ، وانقضى الموسم فى عافية . وعرف علىّ مسير يزيد بن شَجَرة إلى مكة ، فندب الناس لردّه عنها ، فتثاقلوا . وانتهى علىّ آخر الأمر إلى أن أرسل مَعْقِل بن قيس فى جند من أصحابه ، فلم يبلغوا غايتهم . فقد كان يزيد أتمّ الحج وعاد إلى الشام ، وإنما أدرك معقلٌ وأصحابُه مؤخِّرةَ أصحاب يزيد . فأسروا منهم نفراً وعادوا بهم إلى الكوفة .

وقد انتهت كل هذه الأمور بعلىّ إلى عزيمة أتمها الله له ، فيها كثير من اليأس وفيها كثير من المغامرة . ولكنها كادت أن تبلغه مأربه لولا أن الناس يدبّرون وأمر الله غالب ، والكلمة الأخيرة للقضاء المحتوم لا لما يدبّرون . فقد خطب علىّ أصحابه داعياً لهم أن يتجهزوا لقتال أهل الشام، محرّضاً لهم على ذلك أشدّ التحريض ، كما تعود أن يفعل . فسمعوا منه وانصرفوا عنه ولم يصنعوا شيئاً . كما تعوّدوا أن يفعلوا .

فلما استيأس منهم دعا إليه رؤساءهم وقادتهم وأولى الرأى فيهم ، وتحدث إليهم حديثاً صريحاً لا لَبْس فيه . وجعل تبعاتهم أمامهم يَروْنها بأعينهم ويلمسونها بأيديهم ، إن أمكن أن تُرى التبعاتُ بالعيون وتُلمس بالأيدى . بين لهم أنهم أرادوه على الخلافة دون أن يطلبها إليهم ، وعرضوا عليه بيعتهم دون أن يعرض عليهم نفسه ، ثم هم الآن يُظهرون طاعة ويُضمرون نكثاً . وقد طاولهم حتى سئم المطاولة ، وانتظر نشاطهم لما يدعوهم إليه حتى ملّ الانتظار . وعظهم فى غير طائل ، وحرّضهم فى غير غناء ، وقد أزمع أن يمضى لحرب خصمه فى الشام مع من تبعه من أهله ومن قومه ، فإن لم يتبعه منهم أحد مضى وحيداً فقاتل حتى يُبلى فى سبيل الله ويلقى الموت فى ذات الحق .

ولست أرى بدّاً من أن أثبت هنا نصّ حديثه إليهم كما رواه البلاذرىّ ، ففيه الحجة البالغة على هؤلاء الذين أفسدوا عليه رأيه بالعصيان حتى ظنت قريش به الظنون ، وقالت فيه الأقاويل ، وحتى عُصى الله وهم ينظرون لا يغضبون لحق ولا دين .

قال : « أما بعد . أيها الناس ، فإنكم دعوتمونى إلى هذه البيعة فلم أردّكم عنها . ثم بايعتمونى على الإمارة ولم أسألكم إياها . فتوثّب علىّ متوثبون كفى الله مؤونتهم ، وصرعهم لخدودهم ، وأتعس جدودهم ، وجعل دائرة السوء عليهم . وبقيت طائفة تحدث فى الإسلام حدثاً . تعمل بالهوى وتحكم بغير الحق ، ليست بأهل

لما ادعت . وهم إذا قيل لهم تقدّموا قُدُماً تقدّموا . وإذا أقبلوا لا يعرفون الحق كمعرفتهم الباطل ، ولا يُبطلون الباطل كإبطالهم الحق . أما إنى قد سئمت من عِتابكم وخطابكم ، فبيِّنوا لى ما أنتم فاعلون . فإن كنتم شاخصين معى إلى عدوّى فهو ما أطلب وما أحب ، وإن كنتم غير فاعلين فاكشفوا لى عن أمركم أرَ رأيى . فوالله لئن لم تخرجوا معى بأجمعكم إلى عدوكم فتقاتلوهم حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، وهو خير الحاكمين ، لأدعونّ الله عليكم ثم لأسيرنّ إلى عدوكم ولو لم يكن معى إلا عشرة. أأجلافُ أهل الشامْ وأغرّاؤها أصبر على نصرة الضلال وأشد اجتماعاً على الباطل منكم على هداكم وحقكم ؟ ما بالكم وما دواؤكم ؟ إن القوم أمثالكم لا يُنشرون إن قتلوا إلى يوم القيامة » .

وكأن الرؤساء والقادة قد استَحَوْا من علىّ ، واستخزوا فى أنفسهم ، وأشفقوا أن يُنفذ ما صمم عليه فيمضى وحده أو فى قلة من الناس لقتال أهل الشام ، فَيَلحقهم بذلك عار أىّ عار ، وتصيبهم المحنة فى دينهم وفى نفوسهم وفى أمورهم كلها . فقام خطباؤهم إلى علىّ فأحسنوا له القول وأخلصوا له النصح ، ثم تفرقوا عنه فتلاوموا ، ومضوا لإنجاز ما وعدوا به علياً .

فجمع كل رئيس قومه فوعظهم وحرضهم ، حتى اجتمع لعلىّ جيش صالح قد تعاقد الجندُ فيه على الموت . ثم أرسل علىّ معقلَ بن قيس يُعبِّئ له أهل السواد ليضمَّهم إلى من اجتمع له فى الكوفة . وأخذ يرسل إلى عماله فيما وراء العراق من شرق الدولة يدعوهم إلى النهوض إليه ليكونوا معه فى حربه . وأرسل زياد بن خصفة فى جماعة من أصحابه طليعةً بين يديه ، وأمره أن يغير على أطراف الشام ليروّع أهلها .

وإن علياً لفى هذا الاستعداد وقد تراءت له غايته ، إذا القضاء يقول كلمته ، فينقضُ عليه وعلى أهل العراق كلّ تدبير .

ولم تستغرق أمور الحرب على كثرتها واختلاطها وقتَ عليّ كله ولا جهده كلّه أثناء إقامته فى الكوفة ، وإنما كان يقسم وقته بين شؤون الحرب وشؤون السياسة وشؤون الدين ، لا يصرفه عما يجب عليه فى ذلك كله صارف ، مهما يكن ، ولا يشغله عنه هم مهما يثقل . وقد رأيت من نشاطه فى الحرب ما رأيت ، فأما نشاطه فى أمور الدين فلم يكن قليلا ولا فاترًا ، وإنما كان يرى من الحق عليه ؛ شأنه فى ذلك شأن غيره من الخلفاء الذين سبقوه ، أن يقيم للناس صلاتهم وأن يعظهم ويفقههم فى دينهم ويبصرهم بما يحب الله من المسلمين وما يحب لهم ، وبما يكره الله من المسلمين وما يكره لهم . وكان يعظهم جالساً على المنبر أو قائماً ، وكان يجلس لهم فى المسجد فيسألهم عن أمورهم ويُجيب من سأله منهم عما يهمه من أمر دينه أو أمر دنياه . ثم لم يكن يعظهم ويعلمهم بما كان يقول لهم حين يخطبهم أو يحاورهم فحسب ، وإنما كان يعلمهم ويعظهم بسيرته فيهم . كان لهم إماماً ، وكان لهم معلماً ، وكان لهم قدوة وأسوة . وكان يسير فيهم سيرة عمر فيمن حضره من أهل المدينة ، لا يلقاهم إلا وفى يده درّته يخيفهم بها ، كما كان عمر يخيف بدرّته الناس عظيمهم وصغيرهم . وكان يخالطهم حين كانوا يضطربون فى حياتهم ، فكان يمشى فى الأسواق ويأمر الناس بتقوى الله ويذكرهم الحساب والمعاد ، ويرقبهم حين كانوا يبيعون ويشترون . وكان يمشى فى الأسواق وهو يقول بأرفع صوته : اتقوا الله وأوفوا الكيل والميزان ولا تَنْفخوا فى اللحم . وكان يؤدب بالزّجر والدّرة مَن رأى منه انحرافاً عما ينبغى له فى بيع أو شراء أو حديث . وكأنه رأى أن درّة عمر لا تُرهب هذا الخلَف الذى خلَف من الناس ، تطوروا وغلظت أخلاقهم وانحرفت طباعهم عما ألف المسلمون أيام عمر . فاتخذ الخيزرانة ، رآها أوجع من الدرّة ، ثم استبان له أن الخيزرانة لا ترهبهم : فكان يقول لأشرافهم ولعامّتهم : إنى لأعرف ما يصلحكم ، ولكن لا أصلحكم بفساد نفسى .

رأى أنهم فى حاجة إلى أن يؤخذوا بأكثر من الدرّة والخيزرانة والزجر ، وكره

أن يضربهم بالسياط . أشفق أن يُدفع من القسوة والتجبر إلى ما لا يلائم خلقه ودينه، وما لا ينبغي للخليفة الراشد من الرفق والوداعة والحلم والإسماح . وخرج يوماً من داره فرأى جماعات ضخمة من العامة قد ازدحمت على بابه فجعل يفرقهم عن نفسه بالدرّة حتى خلص منهم إلى بعض أصحابه ، فسلّم عليه ثم قال : إن هؤلاء ليس فيهم خير ، لقد كنت أظن أن الأمراء يظلمون الناس فقد علمت أن الناس يظلمون الأمراء .

ثم لم يكن يكتفي بهذا كله ، وإنما كان يحتاط لنفسه من مُغريات الإمرة . وكان إذا أراد أن يشترى شيئاً بنفسه تحرّى بين السوقة رجلاً لا يعرفه ، فاشترى منه ما يريد . يكره أن يُحابيه البائع إن عرف أنه أمير المؤمنين .

ثم كان لا يرضى عن نفسه إلاّ إذا أدى للناس حقهم عليه في دينه ، فأقام لهم صلاتهم ، وعلّمهم بالقول والعمل ، وقام على إطعام فقرائهم طعام العشاء ، وتحرّى ذوى الحاجة منهم فأغناهم عن المسألة . وإنما كان يخلو إلى نفسه إذا كان الليل فينصرف عن الناس إلى عبادته الخاصة مصلّياً متهجداً حتى يتقدّم الليل . فإذا أخذ بحظه من النوم غلّس بالخروج إلى المسجد فجعل يقول ، كأنه يريد أن يوقظ من أوى إلى المسجد من الناس فنام فيه : « الصلاة الصلاة يا عباد الله » .

وكذلك لم يكن ينسى الله لحظةً من ليل أو من نهار ، وإنما كان يذكره إذا خلا لنفسه أو دبر أمور الناس على اختلافها . وكثيراً ما كان يحرّض الناس على أن يسألوه في أمور دينهم .

وقد رأيتَ طرَفاً من سيرته في أموال المسلمين ، وعرفت أنه لم يكن ينفك يقسم فيهم كل ما يصل إليه من الولايات أو من السواد ، قلّ أو كثر ، عظم أو حقر . وكان يعتذر إليهم إن قسم فيهم شيئاً قليلا . فيقول : إن الشيء ليَرِدُ علينا فنراه كثيراً فإذا قسمناه رأيناه يسيراً .

وكان شديد الحرص على أن يحقّق المساواة بين الناس في قوله وعمله وفي وجهه ، وفي قسمته لما كان يقسم فيهم من المال ، بل كان يحرص على هذه المساواة حين يُعطى الناس إذا سألوه . جاءته امرأتان ذات يوم تسألانه وتبينان فقرهما . فعرف لهما حقهما وأمر من اشترى لهما ثياباً وطعاماً وأعطاهما مالا . ولكن إحداهما سألته

أن يفضلها على صاحبتها لأنها امرأة من العرب وصاحبتها من الموالى . فأخذ شيئاً من تراب فنظر فيه ثم قال : ما أعلم أن الله فضّل أحداً من الناس على أحد إلا بالطاعة والتقوى .

كذلك كانت سيرة علىّ ، وكذلك كانت سيرة النبىّ والشيخين . ولكن عليّاً خالف عن سيرة عمر كما رأيت فى شىء واحد ، وهو أمر المال .

خالف عن سيرة عمر ، ولكنه وفّى لرأيه الذى أشار به على عمر ، فقد أشار عليه حين كثر المال أن يقسم كلّ ما يرد عليه بين الناس حتى لا يترك فى بيت المال شيئاً . كان يؤثر ذلك لتبرأ ذمة الخليفة من أى حق قد يتعلق بالمال الذى يدخر أو يستبقى . ولكن النوائب تنوب والخطوب تُلم وما ينبغى لبيت المال أن يفاجأ بالأحداث حين تحدث . فكان عمر أحزم فى سياسته وأنظر للمصلحة العامة ، وكان علىّ أشد احتياطاً لنفسه إن أمكن أن يحتاط إمام لنفسه أكثر مما احتاط لها عمر .

أما سيرة علىّ فى عمال الأقاليم وولاتها فلم تنحرف عن سيرة عمر قليلا ولا كثيراً ، وإنما هى سُنة سنها النبىّ والشيخان ، وأحياها علىّ بعد أن أدركها شىء من الضعف والإهمال فى الأعوام الأخيرة لخلافة عثمان .

كان علىّ شديد المراقبة لعمّاله ، يشدّد عليهم فى الحساب ، وفى استيفاء ما يلزمهم من حقوق الناس ، ويشدّد عليهم فى سيرتهم العامة والخاصة فيعطى كل واحد منهم عهداً يقرؤه على الناس حين يتولّى أمرهم . فإذا أقرّوه بعد قراءته عليهم فهو عقد بينهم وبين حاكمهم ، لا يجوز لهم ولا له أن ينحرفوا عنه أو يتأوّلوه . فإن انحرفوا عنه وجبت عليهم العقوبة وأنفذ الحاكم فى المخالفين هذه العقوبة . وإن انحرف الحاكم عنه وجبت عليه العقوبة وأنفذها فيه الإمام نفسه .

ثم كان علىّ يُرسل الأرصاد والرقباء ليظهروا على سيرة العمّال ويرفعوا منها إليه ما يجب أن يرفعوه ، يَستخفى بعض هؤلاء الأرصاد والرقباء بمهمّتهم ، ويظهر بها بعضهم . وكان كل رجل من أهل الأقاليم رصداً ورقيباً على حاكمه ، يستطيع أن يشكوه إلى الإمام كلما انحرف عن العهد الذى أخذ عليه .

وربما توسّط علىّ لأهل إقليم من الأقاليم عند أميرهم فى بعض ما يرون لأنفسهم من مصلحة تنفعهم أو تسوق إليهم خيراً .

جاءه أهل ولاية من الولايات فزعموا له أن فى بلادهم نهراً قد عفا ودرس ، وأن فى حَفْره وإعادته لهم وللمسلمين خيراً . وطلبوا إليه أن يكتب إلى الوالى فى أن يسخرهم فى احتفار هذا النهر . فقبل منهم احتفار النهر وكره منهم ما طلبوا من التسخير . وكتب إلى عامله قَرَظَة بن كعب :

« أما بعد . فإن قوماً من أهل عملك أتونى فذكروا أن لهم نهراً قد عفا ودرس ، وأنهم إن حفروه واستخرجوه عمرت بلادهم ، وقووا على كل خراجهم ، وزاد فىء المسلمين قِبَلهم . وسألونى الكتابَ إليك لتأخذهم بعمله وتجمعهم لحفره والإنفاق عليه . ولست أرى أن أجبر أحداً على عمل يكرهه ، فادعهم إليك فإن كان الأمر

فى النهر على ما وصفوا فمَن أحب أن يعمل فعَمْره بالعمل . والنهر لمن عمل دون من كرهه . ولأن يعمروا ويقووا أحب إلىّ من أن يضعفوا . والسلام » .

وشكا إليه أهل ولاية أخرى أن عاملهم يزدريهم ويقسو عليهم . فنظر فى أمرهم فاستبان له أنهم ليسوا أهلاً للازدراء . فكتب فى أمرهم إلى عامله عمرو بن سَلَمة الأرحبىّ :

« أما بعد . فإن دهاقين بلادك شكَوْا منك قسوةً وغلظة واحتقاراً . فنظرت فلم أرهم أهلا لأن يُدْنَوْا لشركهم . ولم أر أن يُقْصَوا ويُجفوا لعهدهم . فالبس لهم جلباباً من اللين تشوبه بطرف من الشدة . فى غير ما أن يُظلموا . ولا تنقض لهم عهداً . ولكن تفرغ لخراجهم وتقاتل مَن وراءهم . ولا يؤخذ منهم فوق طاقتهم . فبذلك أمرتك والله المستعان . والسلام » .

وكان أمراؤه يهابونه وربما حاولوا أن يخفوا عليه اليسير من أمرهم فراراً من ملامته . فإذا عرف ذلك من أمرهم تجاوز لومهم إلى الاتهام والتقريع والتذير .

وقد روى أنه أرسل إلى زياد حين كان خليفة لابن عباس على البصرة ، قبل اعتزاله أو بعد اعتزاله العمل ، مَن يحمل إليه ما عنده من المال.

فقال زياد للرسول فيما قال : إن الأكراد قد كسروا شيئاً من الخراج ، وإنه يداريهم . وطلب إليه ألاّ ينبئ بذلك أمير المؤمنين فيتهمه بالاعتلال عليه فى بعض الحق. وكان الرسول أميناً لمرسله . فأنبأه بكل ما قاله زياد . فكتب علىّ إلى زياد :

« قد بلّغنى رسولى عنك ما أخبرته به عن الأكراد واستكتامك إياه ذلك . وقد علمت أنك لم تلق ذلك إليه إلا ليبلّغنى إياه . وإنى أقسم بالله عز وجلّ قسماً صادقاً لئن بلغنى أنك خنت من فىء المسلمين شيئاً ، صغيراً أو كبيراً ، لأشدنّ عليك شدة تدعك قليل الوَفْر ثقيل الظهر . والسلام » .

وأقل ما يدل عليه هذا الكتاب هو أن علياً لم يكن من السذاجة بحيث يظن بعض خصمه ، ولم يكن سهل التغفل كما يظن به بعض المسرفين عليه وعلى أنفسهم . وإنما كان من بُعد الغور ونفاذ البصيرة والوصول إلى أعماق النفوس بحيث كان غيره من مهرة العرب ودُهاتهم . ولكنه كان يؤثر الصراحة والصدق ومواجهة

الحقائق على نحو مُستقيم من التفكير ، وكان يرفع نفسه عن المكر والكيد والدهاء نصحاً لدينه واستمساكاً بأخلاق الرجل الكريم .

فهو قد فهم أن زياداً إنما أراد أن يعتذر عن قلة ما حمل إليه من المال ، وأن يلطف للرسول فى ذلك فينبئه بأمر الأكراد ويُوصيه بإخفاء ذلك على الخليفة مخافة أن يُتَّهم عنده . وقدّر أن الرسول سيتعلق عليه بهذه التعلة ويُنبئ بها أمير المؤمنين . وقد رأيت شدة علىّ على زياد فى النذير والتحذير . وأكبر الظن أنه لم يقف عند النذير والتحذير ، وإنما كلّف من يتلطف حتى يحقق من أمر الأكراد ما زعم زياد .

وبلغته هـنَـات عن المُنذر بن الجارُود ، عامِله على إصطخر . فكتب إليه هذا الكتاب الذى يعزله به عن ولايته ويستقدمه إلى الكوفة :

« إن صلاح أبيك غرّنى فيك . وظننت أنك متبع هديّه وفعله . فإذا أنت فيما رُقِّى إلىّ عنك لا تدع الانقياد لهواك ، وإن أزرى ذلك بدينك ؛ ولا تسمع إلى الناصح ، وإن أخلص النصح لك . بلغنى أنك تدع عملك كثيراً وتخرج لاهياً متنزّهاً متصيداً ، وأنك قد بسطت يدك فى مال الله لمن أتاك من أعراب قومك ، كأنه تراث عن أبيك وأمك . وإنى أقسم بالله لئن كان ذلك حقاً لجمل أهلك وشِسع نعلك خير منك . وإن اللعب واللهو لا يرضاهما الله . وخيانة المسلمين وتضييع أموالهم مما يسخط ربك . ومن كان كذلك فليس بأهل لأن يُسدّ به الثغر ويُجبى به الفىء ويؤتمن على مال المسلمين . وأقبل حين يصل كتابى هذا إليك » .

فلما قدم حقق علىّ أمره مع من اتهمه من الناس . فظهر أن عليه من مال المسلمين ثلاثين ألفاً ، فطالبه بها . وجحدها المنذر ، فطالبه علىّ باليمين ، فنكل . وألقاه علىّ فى السجن حتى شفع فيه وضمنه صَعْصعة بن صُوحان ، وكان من أتقى أهل الكوفة ومن آثر الناس عند علىّ ، فأطلقه .

وأرسل علىّ بعض مواليه إلى زياد يستحثّه على حمل ما عنده من المال ، وكأنّ هذا المولى أثقل على زياد فى الإلحاح ، فنهره زياد . فرجع إلى الخليفة مُنكراً لأمر زياد وقال فيه فأكثر القول . فكتب علىّ إلى زياد واعظاً مؤدباً :

« إن سعداً ذكر لى أنك شتمته ظالماً وجبهته تجبراً وتكبراً . وقد قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم : الكبرياء والعظمة لله . فمن تكبر سخط الله عليه . وأخبرنى أنك مستكثر من الألوان فى الطعام، وأنك تَدَّهن فى كل يوم . فماذا عليك لو صُمت لله أياماً وتصدقت ببعض ما عندك محتسباً ، وأكلت طعامك فى مرة مراراً أو أطعمته فقيراً . أتطمع وأنت متقلب فى النعيم ، تستأثر به على الجار المسكين والضعيف الفقير والأرملة واليتيم ، أن يجب لك أجر الصالحين المتصدقين . وأخبرنى أنك تتكلم كلام الأبرار وتعمل عمل الخاطئين . وإن كنت تفعل ذلك فنفسك ظلمت وعملك أحبطت . فتب إلى ربك وأصلح عملك واقتصد فى أمرك ، وقدِّم الفضل ليوم حاجتك إذا كنت من المؤمنين ، وادَّهن غبًّا ولا تدهن رِفْهاً . فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ادَّهنوا غبًّا ولا تدهنوا رِفْهاً . والسلام » .

وقد كره زياد هذه الوشاية به إلى الخليفة وحرص على أن يُبرئ نفسه مما رُمى به ، فكتب إلى علىّ :

« إن سعداً قَدِم علىّ فعجل، فانتهرتُه وزجرتُه . وكان أهلا لأكثر من ذلك . فأما ما ذكر من الإسراف فى الأموال والتنعم واتخاذ الطعام ، فإن كان صادقاً فأثابه الله ثواب الصادقين ، وإن كان كاذباً فلا أمَّنه الله عقوبة الكاذبين . وأما قوله إنى أتكلم بكلام الأبرار وأخالف ذلك بالفعل . فإنى إذاً من الأخسرين عملا . فخذه بمقام واحد قلت فيه عدلا ثم خالفت إلى غيره . فإذا أتاك عليه بشهيد عَدْل وإلا تبيَّن لك كَذِبه وظلمه » .

ومعنى ذلك أن زياداً يرى نفسه قد قُذف ظلماً ويطلب إلى علىّ إنصافه من قاذفه وأخذه بإقامة البينة على ما ادعى .

وكتب إلى أشعث بن قيس يعزله عن أذْرَبيجان ، وكان قد وليها أيام عثمان . وبعض الرواة يقول : إن عثمان كان قد ترك له خراجها :

« إنما غرَّك من نفسك إملاء الله لك . فما زلت تأكل رزقه وتستمتع بنعمه وتُذهب طيباتك فى أيام حياتك . فأقبل واحمل ما قِبَلك من الفىء ولا تجعل على نفسك سبيلا » .

وواضح أن هذا الكتاب لم يقع من نفس الأشعث موقعاً حسناً ، وإن من اليسير بعد ذلك أن نفهم مواقف الأشعث من علىّ فيما عرض من الخطوب .

ولم يكن عليّ مؤنباً لعماله ، ولا سيئ الظن بهم دائماً ، وإنما كان يثنى على المحسن منهم فيبلغ فى الثناء ، يعرف لهم بذلك حقّهم ويُشجعهم على ما أظهروا من الإخلاص لإمامهم ، وحسن البلاء فى النصح للمسلمين .

وانظر ما كتبه إلى عمر بن أبى سَلَمة عامله على البحرين حين عزله عن عمله ليصحبه فى شُخوصه إلى الشام :

« إنى قد ولّيت النعمان بن عَجْلان البَحْرين من غير ذمّ لك ولا تهمة فيما تحت يدك . ولعمرى لقد أحسنت الولاية وأديت الأمانة . فأقبل إلىّ غير ظنين ولا ملوم . فإنى أريد المسير إلى ظَلَمة أهل الشام ، وأحببت أن تشهد معى أمرهم . فإنك ممن أستظهر به على إقامة الدين وجهاد العدو . جعلنا الله وإياك من الذين يهدون بالحق وبه يعدلون » .

وكذلك سار عليّ فى عماله هذه السيرة الحازمة ، يشجّعُ المحسن منهم ويشتد على المسيء ، لا يحابى فى شيء من ذلك ولا يُداجى ، ولا يعرف مُداراة ولا مجاراة ، وإنما هو النصح للمسلمين والعدل فى الرعية وإقامة الحق فى أولئك وهؤلاء .

وقد رأيت سيرته مع ابن عمه عبد الله بن عبّاس ، وشدّته على زياد ، وعقابه بالعزل لمن لا يُحسن القيام بأمره ، وبالحبس لمن يتعلق بذمته حق من حقوق الناس . فليس غريباً ألاّ ينظر العُمال إليه ولا إلى عمله إلا فى كثير من التحفظ والتحرج والاحتياط . وليس غريباً أن يلتوى عليه أحد عماله مَصْقَلة بن هُبيرة ببعض الحق ، ثم يُشفق منه فيفرّ إلى معاوية ويلقى عنده ما رأيت آنفاً من الرضى والإيثار .

وهذه السيرة التى سارها عليّ فى عمّاله هى نفس السيرة التى سارها فى الناس ، فلم يكن يُطمع الناس فى نفسه ، ولم يكن يؤيسهم منها ، وإنما كان يدنو منهم أشد الدنو ما استقاموا على الطريق وأدوا الحق ، فإن انحرفوا عن الجادة أو التووا ببعض ما يجب عليهم بَعُد عنهم أشد البعد ، وأجرى فيهم حكم الله غيرَ مصطنعٍ هوادةً أو رفقاً .

وقد روى المؤرّخون أن ناساً من أهل الكوفة ارتدوا فقتلهم ثم حرقهم بالنار . وقد لِيمَ فى ذلك من ابن عباس . وأظن أن هذه القصة هى التى غلا خصومُ الشيعة فيها ، فزعموا أن هؤلاء الناس ألّهوا علياً .

ولكن المؤرخين ، والثقات منهم خاصة ، يقفون من هذه القصة موقفين : فمنهم من يرويها فى غير تفصيل كما رويتُها ، ومن هؤلاء البلاذرىّ . ومنهم من لا يرويها ولا يُشير إليها كالطبرىّ ومن تبعه من المؤرخين .

وإنما يُكثر فى هذه القصة أصحابُ المِلَل والمخاصمون للشيعة . وما أرى إلا أن القوم يتكثرون فيها ويحمّلونها أكثر مما تحتمل كما فعلوا فى أمر ابن السوداء .

وربما بيّنت هذه الصورةُ الشعرية ، التى تركها أعرابىّ من طيئ ، عما كان فى قلوب الناس من المهابة لعلىّ . وكان هذا الرجل يُفسد فى الطريق . فأرسل علىّ رجلين ليأتياه به . ففر منهما وقال :

ولمَّا أن رأيت ابنى شُميط ... بسكة طيئٍ والباب دونى
تجلَّلت العَصا وعلمت أنى ... رهينُ مُخيّس إن يثْقفونى
فلو أنظرتهم شيئاً قليلاً ... لساقونى إلى شيخ بَطين
شديد مجامع الكتِفين صلب ... على الحَدثان مجْتمع الشئون

ومخيس : سجن بناه علىّ . والعصا : فرس لهذا الأعرابى. فهذا الشيخ البطين ، العظيم المنكبين ، الصلب على الحوادث ، ذو الرأس الضخم هو الذى هابه الأعرابى ، كما كان عامة الناس من أمثاله يهابونه ويشفقون من بأسه .

ثم كان علىّ بعد ذلك لا يستكره الناس على أمرين :

أحدهما البقاء فى ظل سلطانه ، فما أكثر الذين كانوا يرحلون من العراق ومن الحجاز ليلحقوا بمعاوية ، مؤثرين دنياه على دين علىّ . فلم يكن علىّ يعرض لهم ، ولا يستكرههم على البقاء معه ، ولا يصدّهم عن اللحاق بالشام . كان يرى أنهم أحرار يتخذون الدار التى تلائمهم ، فمن أحب الهدى والحق أقام معه ، ومن رضى الضلال والباطل لحق بمعاوية .

وقد كتب عاملُه على المدينة سهلُ بن حُنيف يذكر أن كثيراً من أهلها يتسللون إلى الشام . فكتب إليه علىّ يُعزّيه عن هؤلاء الناس وينهاه عن أن يعرض لهم أو يُكرههم على البقاء فى طاعته .

وكانت هذه سيرته مع الخوارج أيضاً ، يُعطيهم نصيبهم من الفىء ولا يَعرض لهم بمكروه ما أقاموا معه ، ولا يردّ أحداً منهم عن الخروج إن همّ به ، ولا يأمر

أحداً من عمّاله بالتعرض لهم فى طريقهم . فهم أحرار فى دار الإسلام يتبوءون منها حيث يشاءون ، بشرط ألا يُفسدوا فى الأرض أو يعتدوا على الناس . فإن فعلوا أجرى فيهم حكم الله فى غير هوادة ولا لين . وربما أنذره أحدهم بأنه لن يشهد معه الصلاة ولن يُذعن لسلطانه ، كما فعل الخرّيت بن راشد فيما مضى من خبره ، فلم يبطش به ولم يعرض له وخلّى بينه وبين حرّيته . فلما خرج مع أصحابه لم يحُل بينهم وبين الخروج . فلما أفسدوا فى الأرض أرسل إليهم من أنصف منهم .

كان إذاً يعرف للناس حقهم فى الحرية الواسعة إلى أبعد آماد السعة ، لا يستكره الناس على طاعة ولا يُرغمهم على ما لا يحبون ، وإنما يشتد عليهم حين يعصون الله أو يخالفون عن أمره أو يفسدون فى الأرض .

الأمر الثانى ، الذى لم يكن علىّ يستكره الناس عليه ، هو الحرب .

كان يرى أن حرب الناكثين والقاسطين والمارقين حقّ عليه وعلى المسلمين ، كجهاد العدو من المشركين وأهل الكتاب . ولكنه لم يكن يفرض ذلك عليهم فرضاً ولا يدفعهم إليه بقوة السلطان ، وإنما يندبهم له ؛ فمن استجاب منهم رضى عنه وأثنى عليه ، ومن قعد منهم وعظه ونصحه وحرّضه وأبلغ فى الوعظ والنصح والتحريض . وهو لم يُكره أحداً على حرب الجمل ولا على حرب صفّين ولا على حرب الخوارج ، وإنما نهض لهذه الحروب كلها بمن انتدب معه على بصيرة من أمره ومعرفة لحقه . ولو شاء لجنّد الناس تجنيداً ، ولكن هذا النحو من الخدمة العسكرية التى يُجبر الناس عليها لم يكن قد عُرف بعد . ولو شاء لرغّب الناس بالمال فى هذه الحرب حين نكلوا عنها ، ولكنه لم يفعل هذا أيضاً . كره أن يشترى نصره أصحابه له بالمال وأراد أن ينصروه عن بصيرة وإيمان . بل هو قد فعل أكثر من هذا ، فخاض بأصحابه غمرات هذه الحروب ، ثم لم يقسم فيهم غنيمةً إلا ما كان يُجلب به العدوّ من خيل أو سلاح . وقد ضاق أصحابه بذلك وقال قائلهم كما رأيت فيما مضى : أباح لنا دماء العدو ولم يُبح لنا أموالهم .

وكان رأيه فى هذا أن حرب المسلم للمسلم غير حرب المسلم للكافر ، لا ينبغى أن يراد بحرب المسلم إلا اضطراره إلى أن يفىء إلى أمر الله . فإن فعل ذلك عصم نفسه وماله . ولا ينبغى أن يُسترقّ ولا أن يُصبح ماله غنيمة . ولا كذلك حرب غير المسلمين .

فليس غريباً أن يتثاقل أصحابه عن حرب أهل الشام بعد ما جرّبوا من سيرته فيهم ، فهى حرب تكلفهم عناء وتعرضهم للموت ثم لا تغنى عنهم شيئاً ، لأنها لا تتيح لهم الغنيمة . ونحن نعلم أن العربىّ يفكر فى الغنيمة كلها فكر فى الحرب ولأمر ما حرّض الله المسلمين على الجهاد مع نبيه فقال : (وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا) الآية .

فى هذين الأمرين : الخضوع لسلطانه ، وحرب عدوه من المسلمين ، كان علىّ يترك أوسع الحرّية وأسمحها لأصحابه .

ومن المحقّق أن معاوية لم يكن يجنّد الناس كرهاً لحرب علىّ ، ولم يكن يستبقيهم فى الشام وهُم للبقاء فيها كارهون . ولكن من المحقّق أيضاً أنه كان يعطى فيحسن العطاء ، ويشترى من الناس طاعتهم له وحربَهم مَن دونه ، ويُنفق على هذا كله من بيت المال ، يرى أن ذلك مُباح له ، ويرى علىّ أن ذلك عليه حرام .

ليس من شك فى أن عليًّا قد أخفق فى بسط خلافته على أقطار الأرض الإسلامية ، ثم هو لم يُخفق وحده وإنما أخفق معه نظام الخلافة كلُّه . وظهر أن هذه الدولة الجديدة التى كان يُرجّى أن تكون نموذجاً للون جديد من ألوان الحكم والسياسة والنظام لم تستطع آخر الأمر إلا أن تسلك طريق الدول من قبلها . فيقوم الحكم فيها على مثل ما كان يقوم عليه من قبل من الأثرة والاستعلاء ونظام الطبقات ، الذى تُستذل فيه الكثرة الضخمة ، لا من شعب واحد بل من شعوب كثيرة ، لقلة قليلة من الناس ، عسى أن تكون من شعب بعينه بين هذه الشعوب ، وهو الشعب الذى استقر أمر الحكم فيه . بل لم يُخفق علىّ ونظام الخلافة وحدهما ، وإنما أخفقت معهما الثورة التى قامت أيام عثمان لتحفظ ، فيما كان أصحابها يقولون ، على الخلافة الإسلامية إسماحها وصلاحها ونقاءها من شوائب الأثرة والعبث والطغيان والفساد .

فأولئك الثائرون إنما ثاروا ، فيما كانوا يزعمون ، لأن عثمان لم يُحسن سياسة أموالهم ومرافقهم . عجز عن هذه السياسة ، على أحسن تقدير ، فركب بنو أمية رقاب الناس ، وعبث العمّال بالولايات والفىء ، وأسرف الخليفة فى بيت المال يؤثر به ذوى رحمه والمقربين إليه من سائر الناس . فهم كانوا يريدون أن يردّوا أمر الخلافة إلى مثل ما كان عليه أيام الشيخين بحيث يتحقّق العدل وتُمحى الأثرة ، ولا توضع أموال الناس إلا فى مواضعها ، ولا تُنفق إلا على مرافقهم ، ولا تؤخذ إلا بحقها .

ولكن زعماءهم وقادتهم قُتلوا فى سبيل هذه الثورة قبل أن يُتموا تثبيتها : قُتل حكيم بن جبلة فى البصرة قبل أن تقع موقعة الجمل . وقُتل زميله البصرى حُرقوص ابن زُهير فى النهروان ، وقتل محمد بن أبى بكر وكنانة بن بشر فى مصر ، ومحمد ابن أبى حُذيفة فى الشام . ومات الأشتر مسموماً فى طريقه إلى مصر . وقُتل عمّار بن ياسر بصفّين .

فهؤلاء زعماء الثورة ، منهم من قُتل قبل أن تَشُبّ الحروب على عليّ ، ومنهم من قتل أثناء هذه الحروب ، ومنهم من خالف إمامه ثم قُتل أثناء الخروج عليه ، ومنهم من قَتله معاوية وأصحابه جهرةً أو سراً .

وواضح أن الذين ثاروا بعثمان حتى حصروه وقتلوه لم يُقتلوا عن آخرهم ، وإنما بقى منهم خلف كانوا أتباعاً لأولئك الزعماء الذين ذكرنا قَتْلَهم . والمهم أن قادة الثورة قد ماتوا من دونها ، وأن الثورة قد فقدت بموتهم عقولها المفكّرة المدبّرة ، فأدرك سائر أصحابها الفشلُ والتخاذلُ والتواكلُ ، وألقَوْا بأيديهم وآثروا العافية . وكانت الظروف التى أرادوا أن يقاوموها بثورتهم أقوى من أن تُقاوَم .

ولكن كلمة الظروف هذه غامضة تحتاج إلى شىء من الوضوح . وأول هذه الظروف وأجدرها بالعناية والتفكير : الاقتصاد . فقد كان نظام الخلافة ، كما تصوّره الشيخان ، يسيراً سمحاً لا عُسر فيه ، أخص ما يوصف به أنه لا يستطيع أن يستقرّ ولا أن يستقيم إلا إذا آمن به أشدّ الإيمان وأعمقَه أولئك الذين أقيم لهم من المسلمين . والإيمان بهذا النظام يقتضى قبل كل شىء إيماناً خالصاً بالدين الذى أنشأه ، إيماناً يتغلغل فى أعماق القلوب ، ويسيطر على دخائل الضمائر والنفوس ، ويسخّر لسلطانه عقولَ الناس حين تفكر ، وأجسامهم حين تعمل ، وألسنتهم حين تقول . إيماناً لا يقبل شركة مهما يكن لونها ، إيماناً بالله لا شريك له من الآلهة والأنداد ، وإيماناً بالدين لا شريك له من المنافع والأهواء . وهذا النوع من الإيمان ، إنْ تحقق للكثرة من أصحاب النبىّ ، فإنه لم يَخْلُص من بعض الشوائب ، لا بالقياس إلى الذين أسلموا بأخرة ، ولا بالقياس إلى الذين كان النبى يتألّفهم بالمال ، ولا بالقياس إلى كثير من الأعراب الذين قال الله فيهم :

(قَالَتِ الأَعْرابُ آمَنَّا . قُلْ لم تُؤْمِنُوا ولكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ولمَّا يَدْخُلِ الإيمانُ فى قلوبِكم) .

وكان النبىّ صلى الله عليه وسلم يعرف المنافقين من أهل المدينة ومن غيرهم ، يَدُلّه الوحى عليهم ويُنَبئه الله بأمرهم ، وربما أنبأه الله بأنّ منهم قوماً لا يعلمهم هو وإنما يستأثر الله وحده بعلمهم . فلما قُبض النبىّ انقطعت أو كادت تنقطع وسائل العلم بهؤلاء المنافقين . فكان المؤمنون المخلصون كالشّعرة البيضاء فى الثور الأسود ،

كما قال النبيّ . كانوا قلّة قليلة . وليس أدلّ على ذلك من ارتداد العرب بعد وفاة النبيّ ، وجهاد أبي بكر وأصحابه حتى ردّوهم إلى الطاعة بعد تلك الخطوب الكثيرة التي نعرفها . ثم تجاوز الإسلام بلاد العرب وبسط سلطانه على ما فُتح من الأرض أيام الشيخين وأيام عثمان ، فكثر الذين خضعوا لهذا السلطان غيرَ مؤمنين به ولا مُخلصين له ، وإنما الخوف وحده قوام ما كانوا يَبذلون من طاعة .

وكذلك كان الفتح مصدر قُوة ومصدر ضعف للدولة الجديدة في وقت واحد . كان مصدر قوة ، لأنه بسط سلطانها ومَدّ ظلها على أقطار كثيرة من الأرض . وكان مصدر ضعف لأنه أخضع لها كثرة من الناس لا يؤمنون بها وإنما يخافون منها ويرهبون سطوتها . وكان مصدر قوة لأنه جبى لها كثيراً من المال الذي لم يكن يخطر لها على بال . وكان مصدر ضعف لأن هذا المال أيقظ منافع كانت نائمة ، ونبّه مآرب كانت غافلة ، ولفت إليه نفوساً كانت لا تفكر إلا في الدين . ثم خلق حاجات لم تكن معروفة ولا مألوفة . أظهر للعرب فنوناً من الترف وخَفَض العيش فأغراهم بها ودعاهم إليها ، ثم عوّدهم إياها ، ثم أخذهم بها أخذاً ، إلا قلة قليلة جدًّا استأثر الدين بها من دون الدنيا ، وشغلها التفكير في الله عن التفكير في المال والمنافع والحاجات .

وقد لقي عُمر العناء كل العناء في سياسته للعرب أيام خلافته ، ثم لم يَشْق وحده بهذا العَناء الذي لقيه ، وإنما شقي به العرب كلهم . ضاقوا بسياسته ضيقاً شديداً . شقّ عليهم العدل الذي يسوّي بين القوى والضعيف . وشق عليهم الشَّظف الذي كان يريد أن يُمسكهم فيه ويضطرهم إليه . فلما مات سُرِّي عنهم وابتسموا للدنيا وابتسمت الدنيا لهم . ولكن هذا الابتسام لم يتصل إلا ريثما استحال إلى عبوس عابس وشرّ عظيم .

فالابتسام للمال يُغرى بالاستزادة منه ، والاستزادة منه تفتح أبواباً من الطمع لا سبيل إلى إغلاقها . وإذا وجد الطمع وجد معه زميله البَغْى ، ووجد معه زميل آخر هو التنافس ، ووجد معه زميل ثالث هو التباغض والتهالك على الدنيا . وإذا وجدت كل هذه الخصال وجد معها الحسد الذى يحرق قلوب الذين لم يُتَح لهم من الثراء ما أتيح لأصحاب الثراء . وإذا وجد الحسد حاول الحاسدون إرضاءه

على حساب المحسودين ، ويحاول المحسودون حماية أنفسهم ، وكان الشر بين أولئك وهؤلاء .

وهذا كله هو الذى حدث أيام عثمان ، وهو الذى دفع أهل الأمصار إلى أن يثوروا بعمالهم ، ثم إلى أن يثوروا بخليفتهم ، ثم إلى أن يحصروه ويقتلوه .

وقد هم علىّ أن يرد العرب إلى مثل ما كانوا عليه أيام عمر . ولكن أيام عمر كانت قد انقضت ولم يكن من الممكن أن تعود .

ملك المالُ قلوبَ أصحاب المال فقاتلوا عليه فى العراق وقاتلوا عليه فى الشام ، وانتصر علىّ فى العراق ولكنه انتصار لم يكد يتمّ حتى نسيه المغلوبون والغالبون جميعاً . فما أسرع ما ذكر أهلُ البصرة عثمانيتهم بعد الجمل . وعثمانيتهم هذه ليس معناها حُب عثمان والطلب بدمه فحسب ، وإنما معناها أوسع من ذلك وأشمل . معناها هذا النظام الذى عرفوه فألفوه ، نظام الطمع والجشع والتنافس فى المال والتهالك عليه ، والضيق بتلك الحياة التى فرضها عمر على العرب والتى كان علىّ يريد أن يعود إلى فرضها عليهم .

وقد شكا ابن عبّاس أهلَ البصرة إلى علىّ أنهم بعد خروجه عنهم إثر وقعة الجمل عادوا إلى شىء من الاضطراب لم يرضه منهم ابنُ عباس . لم يرَ منهم ما كان ينتظر أن يرى من الانقياد والطاعة السمحة . فكتب إليه علىّ هذا الكتاب الذى إن دل على شىء فإنما يدل على أن علياً قد فهمهم حق فهمهم ، وأراد أن يستصلحهم ما وجد إلى ذلك سبيلا :

« أتانى كتابك تذكر ما رأيت من أهل البصرة بعد خروجى عنهم . وإنما هم مقيمون لرغبة يرجونها أو عقوبة يخافونها . فأرغب راغبهم واحلل عقدة الخوف عن راهبهم بالعدل والإنصاف له إن شاء الله » .

هم مقيمون على رغبة يرجونها أو عقوبة يخافونها ، هذا حق ليس فيه شك . ولكن الدواء الذى اقترحه علىّ لم يكن ميسوراً ، فهو أراد أن يرغّب الراغب ويحلّ عقدة الخوف عن الخائف . ولكنه أراد أن يكون هذا كله فى حدود العدل والإنصاف .

والعدل لا يرغّب راغباً وإن حل عقدة الخوف عن الخائف . وليس أدلّ على

ذلك من أنّ عبد الله بن عباس لم يبلغ ما أراد عليّ من السياسة ، وإنما أراد أن يرغّب الراغبين فرَغِبَ معهم. فلما شكاه أبو الأسود إلى عليّ ولامه عليّ فيما فعل، حمّل ما قدّر عليه من بيت المال وفرّ به إلى مكة فأقام فيها بماله الكثير . وهمّ أهل البصرة أن يستجيبوا لمعاوية وأن يثوروا بزياد ، لولا أن عليّاً زاد عُقدة الخوف عليهم تعقيداً ، فأرسل إليهم جاريةَ بن قُدامة الذى حرق فريقاً منهم بالنار تحريقاً .

ثم لم يكن المنتصرون مع عليّ يوم الجمل خيراً من المغلوبين . طمعوا فى مال أهل البصرة بعد أن انتصروا عليهم ، فلما ردّهم عليّ عن ذلك جمجموا ، وقال قائلهم : يُبيح لنا دماءهم ثم لا يُبيح لنا أموالهم .

ثم ذهب أهل الكوفة مع عليّ إلى صفّين فقاتلوا وكادوا ينتصرون . ولكن المال أفسد على أشرافهم ورؤسائهم أمرهم كله ، فكان رفع المصاحف وكان إكراه عليّ على قبول التحكيم .

ومنذ ذلك اليوم ظهر أن الثورة قد أخفقت، وظهر أن عليّاً لن يبلغ من إحياء سيرة عُمر ما كان يريد . ثم لم يكن عليّ وحده هو الذى ظهر إخفاقه ، فهذا أبو موسى الأشعريّ الذى اختاره أهل اليمن حكماً على غير رضًى من إمامهم ، تبيّن فى وضوح واضح أنه كان يرى رأياً مخالفاً أشد الخلاف لرأى الذين اختاروه . كان يريد أن يبايع للطيّب ابن الطيب عبد الله بن عمر ليُحيي اسم عمر وسيرته . ولم يكن أهل اليمن يريدون عمر ولا ابنه ولا أحداً من الذين يُشبهونهما ، وإلا ففيمَ كانت خيانة عليّ وفيمَ كان استكراهه على ما لا يريد .

ثم تبين أن أهل الحجاز لم يكونوا خيراً من أهل البصرة والكوفة ، فكثيراً منهم كانوا يتسللّون إلى الشام إيثاراً لدنيا معاوية، حتى شكا أميرُ المدينة سَهل بن حُنيف إلى عليّ من ذلك . فعزّاه عليّ عن هؤلاء المتسلّلين كما رأيت .

وليس من شك فى أن كثيراً من أهل مكة كانوا يفعلون فعل نظرائهم من أهل المدينة . بل ليس من شك فى أن كثيراً من الذين كانوا يُقيمون فى الحرمين ويؤثرون البقاء فى الحجاز على الذهاب إلى الشام كانوا يتلقّون من معاوية هداياه ومِنَحه ، لا يرون بذلك بأساً ولا يجدون فيه حرجاً .

والغريب أنّا نستعرض ما روى البلاذرىّ لنا من كُتُب علىّ إلى عماله على المشرق ، فلا نَرى من هذه الكتب كلها إلا كتابين اثنين يُثنى فيهما علىّ على عاملين اثنين ثناء لا تحفظَ فيه . وقد روينا لك أحدُ هذين الكتابين إلى عمر بن أبى سَلَمة حين عزله عن البحرين . فأما كتابه الثانى فقد أرسله إلى سعد بن مُعوِّذ الثقفى عامله على المدائن وهو :

« أما بعد . فقد وفرت على المسلمين فيئهم وأطعت ربك ونصحت إمامك ، فِعْل المتنزّه العفيف . فقد حمدت أمرك ورضيت هديك وأبنت رشدك . غفر الله لك . والسلام » .

فأما سائر كتبه إلى أولئك العمال ، ففى بعضها التأنيب والتوبيخ ، وفى بعضها العتاب والتخويف ، وفى بعضها الآخر الوعظ والتأديب . وقد علمت ما كان من مَصْقلة بن هُبيرة ومن المُنذر بن الجارود . أحدهما يلتوى بالمال حتى يفرّ إلى الشام . والثانى يلتوى بالمال حتى يُحبس فيه . وليس أمر ابن عبّاس منك ببعيد .

بل لم يكن كل الذين اعتزلوا الفتنة بمأمن من هذه النّكْسة التى أصابت المسلمين بعد الفتح حين كثُر عليهم المال . فإذا كان سعد بن أبى وقاص وعبد الله ابن عمر ومحمد بن مَسلمة قد فرّوا بدينهم من الفتنة فلم يدخلوا فى حرب مع أحد الفريقين الخصمين ، وصمّموا على عزلتهم كما أرادوها خالصة لله ودينه ، فقد كان المُغيرة بن شُعبة مثلا معتدلا ، يؤثر العافية فى الطائف ، ولكنه كان ضيّقاً بهذه العافية ، وكان يتحرّق شوقاً إلى العمل ، ولعله لم يكن يضيق بشىء كما كان يضيق بما أتيح لعمرو بن العاص من نُجح ، على حين ظلّ هو يعلكُ لجامَه كالجواد القارح الذى حيل بينه وبين النشاط .

وكان أبو هُرَيرة يقيم فى المدينة ولا يكره أن تناله النافلة من مال معاوية بين حين وحين . وقد نشِط المُغيرة بن شُعبة فى أمر معاوية بعد أن صار إليه الأمر كلّه ، على حين احتفظ الشيخان سعد وابن عمر بعزلتهما الوادعة .

ولم يكن أهل الحرمين يُحبون القتال بعد ما بَلوْا من الأحداث ، فكانوا وادعين يقبلون ما يُساق إليهم من خير مهما يكن مصدره ، ويبايعون لصاحب السلطان والبأس . كانوا على طاعة علىّ . ثم بايع أهل المدينة لمعاوية حين أخافهم

بُسْر بن أرْطاة . فأما أهل مكة فأجابوا بُسراً فى غير ما خوف ولا رهب ، لأن معاوية أوصاه بهم خيراً . فلما ألمّ بهم قائدعلىّ بعد أن طرد بُسْراً ، بايع أهل مكة لمن بايع له أهل الكوفة ، دون أن يتبينوا مَن هو . وبايع أهل المدينة لمن بايع له أهل الكوفة ، بعد أن عرفوا أنه الحسن بن علىّ .

كل شىء إذاً كان يدل على أن سلطان الدين على النفوس لم يكن من القوة فى المنزلة التى كان فيها أيام عمر ، وعلى أن سلطان المال والسيف كان قد استأثر بالقلوب والنفوس . وكل شىء يدل على أن علياً ، والذين ذهبوا مذهبه من المحافظة على سيرة النبىّ والشيخين ، إنما كانوا يعيشون فى آخر الزمان الذى غلب الدين فيه على كل شىء .

فقلْ إذاً فى غير تردّد : إن أول الظروف التى كانت تقتضى أن يُخفق علىّ فى سياسته هو ضعف سلطان الدين على نفوس المحدثين من المسلمين ، وتغلُّب سلطان الدنيا على هذه النفوس .

وكان العرب إلى أيام عمر لا يعرفون من شؤون غيرهم إلا قليلاً ، يحمل إليهم التجار منهم ، حين يعودون بتجارتهم ، أخباراً مختلطة عن الفرس والروم والحبشة ، وعن الشام ومصر والعراق خاصة . وينقل إليهم الوافدون عليهم من التجّار الأجانب والمجلوبون لهم من الرقيق أخباراً عن هذه البلاد ، لعلها كانت فى نفوسهم واضحة ، ولكنها كانت لا تكاد تنتقل إلى نفوس العرب حتى تختلط ويشوبها كثير من الإبهام والغموض ، حتى كان عِلم العرب بشؤون هذه البلاد أقرب إلى الأعاجيب وأنباء الأساطير منه إلى الحقائق الصحيحة والوقائع الصادقة .

فلما كان الفتح رأت جيوش المسلمين الكثيرَ من حقائق هذه البلاد . ثم استقرت فيها واستقر المستعمرون من العرب فيها كذلك . فعرفوا هذه البلاد معرفة صحيحة ، وبلوْا من أمورها وأمور أهلها أشياء لم يكونوا يحققونها .

وقد أخذهم شىء من الدهش أول الأمر لما رأوا وما سمعوا ، ولكنهم ألفوا هذه الأشياء وهؤلاء الناس ، ثم جعلوا يختارون مما رأوا من الأخلاق والسير وضروب الحياة ما يستطيعون اختياره ، مما يلائم أمزجتهم وطباعهم وأذواقهم .

وجعلت نفوس تتغير تغيراً بطيئاً أول الأمر ، ولكنه جعل يسرع ويقوى كلما

طالت إقامتهم فى هذه الآفاق . وقد رأوا حضارة راعتهم ، وفنوناً من الترف سحرت عيونهم ، وألواناً من خفض العيش ورقته لم تكن تخطر لهم على بال . وقد تعلقت نفوس كثير منهم بهذه الطرائف التى رأوها ، وتمنت ضمائرهم ، شاعرة بذلك أو غير شاعرة به ، أن تأخذ من هذه الحياة أطرافاً . وأثر هذا كله فى نظرها إلى الأشياء وحكمها عليها وتقديرها لقيم الحياة .

وقد بهرهم أول ما بهرهم جلال الملك الذى أزالوه فى بلاد الفرس ، والذى نقصوه من أطرافه فى بلاد الروم . وقارن الأذكياء وأصحاب المطامع منهم ، بين ما أقبلوا عليه من ذلك وما تركوا وراءهم فى المدينة أو فى غيرها من حضر البلاد العربية وباديتها ، فأكبروا هذا الجديد وصغر قديمهم فى أنفسهم ، واستحيا أكثرهم من إظهار ذلك . فتناجت به ضمائرهم ، وهوت إليه قلوبهم ، وجعلوا ينظرون إلى من وراءهم من أولئك الشيوخ أصحاب النبى فى كثير من الإجلال والإكبار ، ولكن فى كثير من الرفق والرثاء أيضاً . يجلونهم ويكبرونهم لمكانهم من النبى وسابقتهم فى الدين ، ويرفقون بهم و يرثون لهم لأنهم يمثلون جيلا قديماً قد انقضت أيامه أو أوشكت أن تنقضى .

وكان الذين يعودون منهم إلى المدينة يلقون عمر فيتكلفون التجمل بسيرته و يحتالون فى ألا يظهر على دقائق أمرهم وحقائقه . يلقونه مظهرين الشظف وغلظة الحياة وخشونة العيش ليرضى عنهم ويطمئن إليهم . فإذا خلوا إلى أنفسهم ، أو خلا بعضهم إلى بعض ، أخذوا بما ألفوا من لين الحياة ، وأشفقوا على عمر من حياته الخشنة تلك ، فى كثير من الإكبار له والإعجاب به .

فلما كانت خلافة عثمان خفت عليهم مؤونة هذا التكلف ، فلم يكن عثمان يحب الشظف ولا خشونة العيش ، فأظهروا من أمرهم ما كانوا يكتمون . ورقت الحياة فى المدينة نفسها حتى دخلها الترف واستقر فيها ، وحتى جعلت الدور والقصور ترتفع فى المدينة وما حولها ، وحتى جعل الشباب يقبلون على ألوان من اللعب لم يكن للعرب عهد بها من قبل . وحتى اضطر عثمان نفسه ، على إسماحه

وإيثاره للدعة ، إلى أن يقاوم هذه الألوان من الفتنة المجلوبة التي جعلت تسلك سبيلها إلى النفوس .

ثم رأى العرب جماعةً من شيوخ الصحابة وأصحاب السابقة والمكانة يستكثرون من المال ويُقبلون على شيء من اللين ، فأقبلوا على ما أقبل عليه أئمتهم ومعلموهم . ثم جلب الفتحُ إلى الحجاز وإلى بلاد العرب عامةً أعداداً ضخمة من الرقيق ، على اختلاف أجناسهم وعلى اختلاف طبقاتهم ، في حياتهم القديمة التي كانوا يحيونها في بلادهم قبل الفتح . فلم يترك هؤلاء الرقيقُ من الرجال والنساء أخلاقهم وطباعهم وأمزجتهم وراءهم عند حدود البلاد العربية ، وإنما حملوها معهم وأظهروا سادتهم على كثير منها ، ثم أغروا سادتهم بكثير منها . فلم يجدوا من سادتهم مقاومة ولا امتناعاً ، وإنما وجدوا استجابة وإقبالا ، فافتنّوا فيما أحب سادتهم من هذا كله .

ثم لم يكن هذا كله مقصوراً على الرقيق الذين حُملوا إلى الأرض العربية ، وإنما كان شاملاً كذلك للرقيق الذين استقروا مع سادتهم في الأقطار المفتوحة . وكل هذا جدّد النفس العربية تجديداً يُوشك أن يكون تامّاً ، وباعد بينها وبين الحياة الخشنة القديمة أشد المباعدة .

فلما قُتل عثمان وأقبل الخليفة الرابع يريد أن يحملهم على الجادّة ، وأن يردّهم إلى السيرة التي ألفها المسلمون أيام النبيّ والشيخين ، لم ينشطوا لذلك ولم يطمئنوا إليه ، وإنما نظروا فرأوا خليفة قديماً يدبّر جيلا جديداً ، ويريد أن يدبّره تدبيراً ينافر أشد المنافرة ما أحب من حياة الخفْض واللين .

ثم نظروا بعد ذلك فرأوا أميراً آخر قد أقام في الشام ، وقد جدّد نفسه مع هذا الجيل الجديد . ثم لم يكتف بتجديد نفسه والملاءمة بينها وبين رعيته ، إنما يُغرى رعيته بالتجديد ويُعينها عليه بالمال . ويحتج لذلك بما شاء الله من الحجج . فهو مُقيم في بلاد مجاورة لبلاد الروم ، وهو يريد أن يُلقى في رُوع الروم أنه ليس أقل منهم أبهة ولا أهون منهم شأناً ولا أرغب منهم عن طيبات الحياة ، وأن أصحابه يُشبهونه في ذلك . ثم هو يحارب هؤلاء الروم فينبغي أن يحاربهم بمثل أسلحتهم . ثم هو يحارب خصمه في العراق فينبغي أن يكيد له ويغرى به ويخذل عنه ويفرق الناس من حوله .

كل الوسائل إلى ذلك مستحبة ، بل مفروضة لا ينبغى أن يتردد فى اتخاذها .

وكذلك جعل معاوية ُينفق المال ويتألف الرجال ويكيد للذين يمتنعون عليه . وكل هذه الظروف ُمجتمعة كانت خليقة أن تُقرّ فى نفس علىّ أنه غريب فى العصر الذى يعيش فيه ، وبين هذا الجيل الذى يريد أن يدبر أمره من الناس ، وأن ُتلقى فى روعه كذلك أنه يحاول أمراً ليس إلى تحقيقه من سبيل .

هذا ابن عمه يخالف عنه إلى حيث يعيش ناعماً رضىّ البال بمكة . وهؤلاء العمّال يستخفون بما يستأثرون به من المال إلا أقلهم ، وهؤلاء الأشراف يتلقون المال من معاوية ويهيئون له الأمر فى العراق . وهؤلاء العامة يؤثرون العافية على الحرب وما تجلب من البلاء والهول . وعلىّ بين هؤلاء جميعاً يدعو فلا ُيجاب ، ويأمر فلا ُيطاع ، حتى يفسد عليه رأيه ، وحتى يملّ قومه ويملّوه ، وحتى يسأل الله أن يبدّله بهم خيراً منهم وأن يبدلهم به شرًّا منه ، وحتى يتعجل أشقى هذه الأمة الذى ألقى إليه أنه سيقتله ، فيقول : ما يؤخّر أشقاها ؟ وحتى ينتظر القتل بين ساعة وأخرى فيكثر التمثل بهذا الشعر :

اشْدد حيازيمك للموت فإن الموت لاقيكا
ولا تَجزع من الموت إذا حل بواديكا

وحتى يقول أثناء وضوئه بين حين وحين : لتُخضبنّ هذه من هذه . مشيراً إلى لحيته وجبهته .

ولو قد أطاع علىّ ضميره الحى لاستعفى أصحابه من بيعتهم ، وأنفق ما بقى من أيامه يعبد الله وينتظر الآخرة . ولكن هيهات ! قد آمنت نفسه بالحق ، وبأن القعود عن نَصره ُجبن ومعصية . وليس هو بالرجل الذى ُيسرع إليه اليأس أو يفشل عن حرب عدوّه مهما تكن الظروف . ولذلك قال لأصحابه حين ضاق بتخاذلهم وعصيانهم : « لتنهضُنّ معى لقتال أهل الشام أو لأمضين لقتالهم مع من يتبعنى مهما يكن عددهم قليلا » .

كانت ظروف الحياة الجديدة كلها إذاً مواتية لمعاوية منافرة لعلىّ ، ولكنها على ذلك لم تُضْعف عليًّا عن الحق ولم تخرجه عن طَوْره فى يوم من الأيام . فاحتفظ بمزاجه معتدلاً ، وبسيرته مستقيمة فى جميع أطواره وأيامه .

وكان بينه وبين معاوية اختلاف آخر يُغرى الناس به ويجمعهم لخصمه . كان يدبّر أمور أصحابه عن ملأ منهم ، لا يستبدّ من دونهم بشيء ، وإنما يستشيرهم فى الجليل والخطير من أمره ، وكان يرى لهم الرأى فيأبونه ويمتنعون عليه ويضطرونه إلى أن ينفذ رأيَهم هم ويحتفظ برأيه لنفسه . وكان ذلك يُغريهم به ويطمعهم فيه .

ولم يكن معاوية يعطى أصحابه بعض هذا الذى كان يعطيهم علىّ ، لم يكن يستشيرهم ، وإنما كان له المشيرون من خاصته الأدْنَين . فكان إذا أمر أطاعه أهل الشام دون أن يُجمجموا فضلا عن أن يجادلوا ، ثم كان معاوية يحتفظ بسرّه كله لا يظهر عليه إلا مَن أراد أن يظهره عليه من خاصته . وكانت أمور علىّ كلها تدبَّر وتُبرم على ملأ من الناس ، لا تخفى على أصحابه من أمره خافية مهما يكن خطرها .

كان علىّ يدبِّر خلافة وكان معاوية يدبر ملكاً ، وكان عصر الخلافة قد انقضى وكان عصر الملك قد أظلّ .

وبينما كان عليٌّ يجاهد حياته المُرة تلك، ويجاهد أصحابه ليحملهم على النُّهوض معه إلى حرب الشام ، ويبعث البعوث لردّ غارات معاوية على أطرافه فى العراق والحجاز واليمن ، ويجاهد الخوارج الذين يجاهرونه بالعداء وينشرون الروع فى الناس ، ويَلين للخوارج الذين كانوا يعيشون معه فى الكوفة يتربَّصون الفُرص للخروج، ويجاهد عُمَّاله ليأخذهم بالأمانة فى أعمالهم. بينما كان عليٌّ فى هذا كله، كان ناسٌ من الخوارج يشهدون الموسم ويرون اختلاف الحجيج من أصحاب عليٍّ ومعاوية ، كل يأبى أن يصلى بصلاة أمير خصمه ، حتى اختار الناس رجلاً ليس بالأمير لهذا أو ذاك ليقيم للناس صلاتهم .

فضاق هؤلاء النفرُ من الخوارج بما رأوا ، وذكروا مصارع إخوانهم الذين قُتلوا فى النَّهروان، وفيما كان بينهم وبين عليٍّ وأصحابه من المواقع الأخرى، وائتمروا أن يريحوا الأمة من هذا الاختلاف الذى تشقى به ، وأن يقتلوا هؤلاء الثلاثة الذين هم أصل هذا الاختلاف ؛ عليًّا ومعاوية وعمرو بن العاص ، من جهة ؛ وأن يثأروا لإخوانهم بقتل عليٍّ ، من جهة أُخرى .

فانتدب أحدهم عبد الرحمن بن مُلْجَم الحِمْيَرىّ ، حليف مُراد، لقتل عليّ. وانتدب الحجّاج بن عبد الله الصَّريمى، من تميم ، لقتل معاوية . وانتدب عمرو ابن بكر، أو ابن بكير ، التميمى صَليبة أو بالولاء ، لقتل عمرو بن العاص . واتفقوا على يومٍ بعينه ينفذون فيه ما صمَّموا عليه، وأقّتوا ساعة لاغتيال هؤلاء الثلاثة ، وهى ساعة الخروج لصلاة الصبح من اليوم السابع عشر من شهر رمضان لعامهم ذاك سنة أربعين .

وأقاموا فى مكة أشهراً ثم اعتمروا فى رجب ثم تفرقوا ، مضى كُل واحد منهم لينفذ نصيبه من هذه الخطة .

فأما صاحب معاوية فعرض له فى الساعة الموقوتة من اليوم الموقوت فلم يبلغ منه شيئاً ، لأنه كان دارعاً ، فيما يقول بعض المؤرخين ، أو لأنه لم يُصب منه

مقتلا ، فيما يقول بعضهم الآخر . ولكنه هو أصاب حتفه .

وأما صاحب عمرو فعرض له فى الساعة الموقوتة كذلك ولكنه لم يصبه ، لأن عمراً لم يخرج للصلاة فى ذلك اليوم ، منعته العلة ، فأناب صاحب شرطته خارجة ابن حذافة العدوىّ وأصابه السيف فقتله . وقتل عمرو بعد ذلك هذا المغتالَ الذى أراد عمراً فأراد الله خارجةَ .

وأما عبد الرحمن بن ملجم فأقام فى الكوفة يرقب يوم الموعد وساعته . ثم أقبل من آخر الليل ومعه رفيق له استعانه على ما أراد فانتظرا خروج علىّ للصلاة ، فلما خرج تلقّياه بسيفهما وهو يدعو الناس لصلاتهم . فأصابه سيف بن ملجم فى جبهته حتى بلغ دماغه . ووقع سيف صاحبه فى جدار البيت ، وخرّ علىّ حين أصابته الضربة وهو يقول : لا يفوتنكم الرجل .

وقد أخذ عبد الرحمن بن ملجم وقتل صاحبه وهو يحاول الفرار . وحمل علىّ إلى داخل داره ، فأقام فيها يومين وليلة بينهما ، ثم مات فى ليلة اليوم الثانى .

ويروى المؤرخون أن قاتل علىّ لقيه بالسيف وهو يقول : الحكم لله يا علىّ لا لك . وعلىّ نفسه يقول : الصلاة عباد الله .

ويروى المؤرخون كذلك أن عليًّا أمر من حوله أن يحسنوا طعام ابن ملجم ويكرموا مثواه ، فإن برئ من ضربته نظر ، فإما عفا وإما اقتص . وأمرهم إن مات أن يلحقوه به ولا يعتدوا إن الله لا يحب المعتدين .

ويروى المؤرخون كذلك أن آخر كلام سمع من علىّ قبل أن يموت هو قول الله عز وجل : (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه ، ومن يَعْمَلْ مِثْقَال ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه) .

ويزعم الرواة من أصحاب الجماعة أن عليًّا لم يستخلف على المسلمين أحداً ، وأنه سئل عن رأيه فى بيعة الحسن ابنه بعده ، فقال : لا آمركم ولا أنهاكم .

ويزعم الشيعة أنه أوصى بالخلافة للحسن نصًّا ، وهذا خلاف يطول القولُ فيه وليس من شأننا أن نعرض له .

والشىء المحقق هو أن ولاة الدم لم ينفذوا وصية علىّ فى أمر قاتله ، فهو قد

أمرهم أن يلحقوه به ولا يعتدوا ، ولكنهم مثّلوا به أشنع تمثيل . فلما مات حرقوه بالنار .

والرواة يختلفون بعد ذلك فى قبر علىّ ، يقولون : إنه دُفن فى الرحبة بالكوفة وعُمّى قبره حتى لا ينبشه الخوارج . وقوم يقولون : إن الحسين نقله بعد ذلك إلى المدينة فدفنه إلى جانب فاطمة زوجه . والغلاة من خصوم الشيعة يزعمون أنه نقل إلى الحجاز فى تابوت وضع على بعير ، ولكن ناقليه أضلّوا بعيرهم ذاك ، فأخذه جماعة من الأعراب ظنّوا أن عليه مالاً فى ذلك التابوت ، فلما رأوا أن فيه جثة قتيل دفنوه فى مكان مجهول من الصحراء .

والكلام فى هذه الروايات المختلفة لا ينقضى وليس فيه طائل أو غناء .

وقد انتهى النبأ بموت علىّ إلى أهل المدينة ، وبلغ عائشة فتمثلت قول الشاعر :

وألقت عصاها واستقرت بها النّوى ... كما قَرّ عيناً بالإياب المُسافرُ

كأنها أرادت أن تقول : إن عليّاً قد أراح بموته واستراح . وليس من شك فى أنه استراح بموته من شقاء كثير . ولكنّ الشكّ كل الشك فى أنه أراح . بل اليقين كل اليقين هو أن موت علىّ رحمه الله لم يُرح أحداً ، وإنما أورث المسلمين عناء وخلافاً لم ينقضيا بعد . وما أرى أنهما سينقضيان قبل وقت يعلم الله وحده أيقصر أم يطول .

٤١

وإلى هنا ينقضي حديث التاريخ عن عليّ رحمه الله ويبدأ حديث القصّاص وأصحاب السِّير والأساطير . وقد ذهب هؤلاء جميعاً كلّ مذهب فيما أرادوا إليه من التعظيم والتفخيم ومن التهويل والتأويل . وخلطوا كل ذلك بالتاريخ خلطاً عجيباً ، حتى أصبح من أعسر العسر أن يخلّص المؤرخ إلى الحق الواضح فى أيسر الأمور من كل ما يتصل بشأن من شؤون عليّ . فهم لم يكتبوا حديث عليّ متجرّدين فيه من شهوات القلوب ونزوات النفوس ، ولا متبرئين من الهوى الذى يفسد الرأى ، ولا من عبث الخيال الذى يخفى حقائق التاريخ .

منهم من أحبّ عليّاً فى غير قصد فأفسد الحب عليه أمرَه كله ، وقال بما أوحى إليه خياله لا بما صحّ لعقله من الحوادث والأخبار . ومنهم من أبغض عليّاً وأسرف فى بغضه فأفسد البغضُ عليه أمره ، وصور فيما كتب أو روى ما أوحى إليه الحقدُ وأملى عليه الخيال المضطغن ، لا ما ألقى إليه الثقات من حقائق التاريخ . منهم العراقيّ الذى لا يحب عليّاً وحده وإنما يتعصب لأهل العراق عامة ، ويتوخّى فى كل ما يكتب ويروى أن يكون لأهل العراق الفضل المحقّق على أهل الشام فى كل قول وفى كل عمل وفى كل مشهد من المشاهد . ومنهم الشامى الذى لا يبغض عليّاً فحسب ، ولكنه يتعصّب لأهل الشام ويرى لهم الفضل كل الفضل والتفوق كل التفوق .

وقد أسرف أهل الشام حين انتهت الأحداث باستقامة الأمر لمعاوية وخلفائه من الأمويين ، وإن كان إسراف أهل الشام لم يكد يبقى لنا منه شيء بعد أن تغيّر مجرى التاريخ وانتقل السلطان إلى الهاشميين .

وأسرف أهل العراق بأخرة حين انتقل السلطان إلى بنى العباس فلوّنوا التاريخ بما يلائم أهواء السلطان الجديد .

فإذا أضفت إلى هذا كله أن أهل الشام وأهل العراق عرب لم يبرءوا قط من العصبيّة الجاهلية ، لم تجد بدّاً من أن تقدر تأثير هذه العصبيّة فى وصف ما كان

للقبائل من بلاء فى الحرب وموقف فى السلم . كل قبيلة تريد أن تُؤثر نفسها بأعظم حظ ممكن من الفضل والسابقة .

ثم إذا أضفت إلى هذا أيضاً أن أولئك وهؤلاء لم يستطيعوا فى تلك العصور أن يفرقوا بين السياسة والدين ، وإنما رأى أهل العراق أنهم يحبون عليًّا فى الله ، فحبّه دين ، وأنهم شاركوا فى الثورة بعثمان فى سبيل الله أيضاً ، فأرضوا الله بثورتهم ، وأرضوه بقتل ذلك الخليفة الذى لم يُجْرِ أمور الخلافة فى رأيهم كما كان ينبغى أن تجرى .

وأهل الشام يبغضون عليًّا فى الله لأنه ، فيما زعم لهم قادتُهم ، قد شارك فى قتل الخليفة المعصوم ، فأحل ما حرّم الله من هذا الدم الحرام فى الشهر الحرام والبلد الحرام ، وأبى على أقل تقدير أن يسلم قتلة عثمان إلى ولىّ دمه ، فحمى العصاة المجرمين .

أقول إذا أضفت هذا كله عرفت أن التاريخ لم يبرأ فى أمر هذه الفتنة من أثر العواطف الجامحة التى تسدل دون الحق أستاراً أىّ أستار ، عواطف العصبية للوطن والعصبية للقبيلة ، وعواطف الدين ، ثم عاطفة الطمع الذى يغرى بالتقرب إلى الخلفاء والرغبة فيما عندهم ، واتخاذ القصص والتكثّر والكذب على التاريخ وسيلةً إلى رضى السلطان وطريقاً إلى أخذ ما عنده من المال .

والأمور تتعقد بعد هذا تعقداً عجيباً ولكن أمره ليس عسيراً ولا مشكلاً . فقد امتُحن أهل العراق بعد موت علىّ رحمه الله أشد امتحان وأقساه . عارضوا خلفاء بنى أمية ، فأرسل إليهم هؤلاء الخلفاءُ من يقدع معارضتهم أعنف أنواع القمع وأغلظها . فكانوا إذاً مضطهدين .

وليس شىء يدعو إلى التكثّر والاختراع أكثر من الاضطهاد الذى يملأ القلوب روعاً وفرقاً ، ويشيع فى النفوس بعد ذلك من البغض والحقد والضغينة ما ينطق الألسنة ويجرى الأقلام بالشكاة المرة والأحاديث التى ليس بينها وبين الحق صلة أو سبب .

وامتحن أهل الشام حين انتقل السلطان إلى العباسيين أشق امتحان وأمضّه ، فساروا سيرة أهل العراق من قبل . وكذلك نُسجت كل هذه الأستار الكثاف

التي ألقيت بيننا وبين حقائق التاريخ فجعلت مهمة المؤرخ الصادق من أعسر المهمات عسراً وأقساها قسوة .

وما رأيك في قوم قعدوا عن نصر عليّ بعدَ صفّين حتى بغّضوا إليه الحياة وأرهقوه من أمره عسراً ، فلما فارقهم وفارقتهم بموته سماحةُ الخلافة ولين العيش ، كلفوا بذلك الذي قعدوا على نصره أشد الكلف ، وهاموا في حبه أعظم الهُيام ، وقالوا في تعظيمه وإجلاله أعظم القول ، وغلا بعضُهم في ذلك بأخرة حتى رأوْا في عليّ عنصراً من الألوهية يرفعه فوق غيره من الناس .

وما رأيك في قوم آخرين يرون من أهل العراق هذا كله ، ويرون منهم إسرافهم فيما يُضيفون إلى عليّ من الخصال ، وتجاوزهم القصد في كل ذلك . فلا يكتفون منهم بما يسمعون عنهم أو بما يرون من سيرتهم ، وإنما يضيفون إليهم أكثر مما قالوا وأكثر مما فعلوا . ثم لا يكتفون بذلك وإنما يحملون هذا كله على عليّ نفسه وعلى معاصريه ، فيتحدثون بأن قوماً من أهل الكوفة ألّهوا عليّاً وأعلنوا إليه ذلك ، ثم يزعم الصالحون المصلحون ، الذين يُحسنون الظن بعليّ كما يحسنون الظن بغيره من أصحاب النبي ، أن عليّاً ضاق بهذا التأليه وحرق القائلين به تحريقاً .

والغريب أن هذا التأليه استمر بعد موت عليّ وبعد تحريقه مَن حرق من مؤلّهته ، كأن هؤلاء الناس من شيعة عليّ قد ألّهوه على رغمه وعلى عِلْم منهم بأنه يُنكر ذلك ويُبغضه ويعاقب عليه بالتحريق .

ثم يغلو خصوم الشيعة فيزعمون أن الذين حرقهم عليّ بالنار قد ازدادوا تأليهاً له حين رأوا النار ورأوا أنهم يُدفعون إليها ويلقون فيها . فقال قائلهم : لا جرم ، لا يُعذّب بالنار إلا خالقُ النار .

وكل هذا خلط من الخلط ومِراء من المراء ، وتكثّر دعا إليه الإغراق في اللجاج والغلو في الخصومة والإسراف في هذا البغض المعقّد . والأمر بين عليّ وأصحابه أيسر من هذا كله يسراً ، وأهون من كل هذا التكلف والإغراق . فقد حمل عليّ أصحابه كما رأيت على ما حمّلهم عليه من تلك الحروب المُبيرة غير المُغنية . وأفسد معاوية عليه رؤساء أصحابه بالمال والكيد فقعدوا عن نصره وفشلوا عن حقه وحقهم .

وتنبأ لهم علىّ بأن قعودهم هذا سيجرّ عليهم الشر كل الشر وسيورّطهم فى النكر الذى لا حد له ، فلم يسمعوا له حين قال ، ولم يستجيبوا له حين دعا. فلما قُتل واستقامت أمور العراق لمعاوية وخلفائه من بنى أمية صَحّت لأهل العراق نُذر علىّ كلها ، وتحققت فيهم نبوءته لهم ، فسامهم ولاة الأمويين الخسف كل الخسف ، وحملوهم على أشد ما كانوا يكرهون ، وامتحنوهم فى أموالهم وأنفسهم وفى سرهم وعلانيتهم ، وفى كل دينهم ودنياهم ، فذكروا أيام علىّ وندموا على ما فرّطوا فى جنبه وما قصروا فى ذاته. فدُفعوا إلى ما دُفعوا إليه من الغلو فى حب علىّ والإسراف فى الُهيام به ، والافتنان فى تكبيره وتعظيمه ، يرون فى ذلك كله عزاء عما قدّموا إليه من الإساءة إليه أثناء حياته .

وقد رأيت أن حياة علىّ فى العراق قد كانت محنة كلها . فإذا علمت أن علياً نفسه كان يرى أن حياته فى الحجاز بعد وفاة النبىّ صلى الله عليه وسلم قد كانت محنة أيضاً ، لأنه كان يرى نفسه أحق بالخلافة ، فامتحن بصرف الخلافة عنه إلى الخلفاء الثلاثة الذين سبقوه . وقد صبر على محنته تلك فأجمل الصبر ،وأطاع الخلفاء الثلاثة فأحسن الطاعة ، ونصح لهم فأبلغ فى النصح فلما ارتقى إلى الخلافة أو ارتقت الخلافة إليه لم يَجن منها إلا شراً ، وإلا شراً كان يزيد ويتضاعف كلما تتابعت أيامه فى العراق ، حتى كاد ينتهى به إلى اليأس، لولا أنه أجمل الصبر فى العراق ، كما أجمل الصبر فى الحجاز .

فقد امتحن إذاً أشد الامتحان وأعسره ثلاثين عاماً من حياته ، ثم انتهى آخر الأمر إلى أن قُتل أثناء خروجه للصلاة . لم يقتله عبد أعجمى مأسور ، وإنما قتله حُرٌّ عربى عن اثّار بينه وبين قوم مثله أحرار عرب . فميتته كانت أشق وأشنع من ميتة عمر .

ثم امتحن بنوه من بعده كما سترى ، وامتحن أهل العراق بعد موته كما سترى أيضاً . فأى غرابة فى أن تقسو كل هذه المِحَن الجسام المتتابعة على أهل العراق ومَن إليهم ، فيرون فى علىّ وبنيه غير ما يرى منهم سائر الناس ، ويرفعونهم من أجل هذه المحن نفسها إلى هذه المكانة الممتازة التى رفعوهم إليها ، ويغلو غلاتهم بعد ذلك ، وبعد أن عرفوا من أمر اليهود والنصارى ما عرفوا ، وبعد أن عرفوا

كذلك من أمر الفرس ما عرفوا ، فيضيفون إليه وإلى بنيه من خصال التقديس ما لا يضاف عادة إلى الناس. وخصومهم واقفون لهم بالمرصاد يحصون عليهم كل ما يقولون ويفعلون ، ويضيفون إليهم أكثر مما قالوا وما فعلوا ، ويحملون عليهم الأعاجيب من الأقوال والأفعال .

ثم يتقدم الزمان وتكثر المقالات ويذهب أصحاب المقالات فى الجدال كل مذهب ، فيزداد الأمر تعقداً وإشكالا . ثم تختلط الأمور بعد أن يبعد عهد الناس بالأحداث ، ويتجاوز الجدال خاصة الناس إلى عامتهم ، ويتجاوز الذين يحسنونه إلى الذين لا يحسنونه ، ويخوض فيه الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، فيبلغ الأمر أقصى ما كان يمكن أن يبلغ من الإبهام والإظلام ، وتصبح الأمة فى فتنة عمياء لا يهتدى فيها إلى الحق إلا الأقلون .

والشىء الذى ليس فيه شك فيما أعتقد هو أن الشيعة ، بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة عند الفقهاء والمتكلمين ومؤرخى الفرق ، لم توجد فى حياة على وإنما وجدت بعد موته بزمن غير طويل .

وإنما كان معنى كلمة الشيعة أيام على هو نفس معناها اللغوى القديم الذى جاء فى القرآن فى قول الله عز وجل من سورة القصص : (وَدَخَلَ المَدِينَةَ على حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها فَوَجَدَ فيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلان هَذَا مِنْ شِيعَتِه وهَذَا مِنْ عَدُوِّه . فاسْتَغَاثَه الَّذى مِن شِيعتِه عَلَى الَّذِى مِن عَدوه فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عليه) الآية .

وفى قول الله عز وجل من سورة الصافات : (وإنَّ من شِيعَتِه لَإبْراهِيم) .

فالشيعة فى هاتين الآيتين وغيرهما من الآيات معناها الفرقة من الأتباع والأنصار الذين يوافقون على الرأى والمنهج ويشاركون فيهما . والرجل الذى كان من شيعة موسى كان رجلاً من بنى إسرائيل ، والرجل الذى كان من عدو موسى كان رجلاً من المصريين .

بذلك قال المفسرون القدماء الذين تلقوا التفسير عن الفقهاء من أصحاب النبى . وإبراهيم كان من شيعة نوح ، أى على سنته ومنهاجه ، يرى رأيه ويدين بدينه ، كما قال هؤلاء المفسرون أيضاً . فشيعة على أثناء خلافته هم أصحابه الذين بايعوه

واتبعوا رأيه ، سواء منهم مَن قاتل معه ومن لم يقاتل . ولم يكن لفظ الشيعة أيام علىّ مقصوراً على أصحابه وحدهم ، وإنما كان لمعاوية شيعته أيضاً . وهم الذين اتبعوه من أهل الشام وغيرهم من الذين كانوا يرون المطالبة بدم عثمان والحرب فى ذلك حتى يُقام الحدّ على قاتليه . وليس أدل على ذلك من نص الصحيفة التى كتبت للتحكيم بعد رفع المصاحف فى صفّين . فقد جاء فى هذه الصحيفة : « هذا ما تقاضى عليه علىّ بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان . قاضى علىّ على أهل العراق ومن كان من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين . وقاضى معاوية على أهل الشام ومن كان من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين » .

فلفظ الشيعة هنا لا يضاف إلى علىّ ومعاوية كما ترى ، وإنما يضاف إلى أهل العراق وأهل الشام . يريد كاتب الصحيفة أن يذكر من يناصر عليًّا وأهل العراق من المؤمنين والمسلمين فى البلاد الإسلامية كلها ، ومن يُناصر معاوية وأهل الشام من المؤمنين والمسلمين فى البلاد الإسلامية كلها أيضاً . ومعنى ذلك أن الصحيفة تلزم الفريقين المُختصمين بما فيها ، ولا تلزم هذه الفئة القليلة من المعتزلة الذين أبَوا أن يُشاركوا فى الفتنة من قريب أو بعيد .

لم يكن للشيعة إذاً معناها المعروف عند الفقهاء والمتكلمين منذ أيام علىّ ، وإنما كان لفظاً كغيره من الألفاظ يدلّ على معناه اللغوى القريب ، ويستعمل فى هذا المعنى بالقياس إلى الخصمين جميعاً . ولست أعرف نصًّا قديماً أضاف لفظ الشيعة إلى علىّ قبل وقوع الفتنة . فلم يكن لعلىّ قبل وقوع الفتنة شيعة ظاهرون ممتازون من غيرهم من الأمة .

والرواة يحدثوننا بأن العباس أراد عليًّا على أن يبسط يده ليبايعه ، فأبى علىّ أن يُحدث الفرقة بين المسلمين .

والرواة يحدثوننا أيضاً ويحدثنا علىّ نفسه فى بعض كتبه إلى معاوية بأن أبا سفيان أراد عليًّا على أن يَنصب نفسه للخلافة حتى لايخرج الأمر من بنى عبد مناف ، فأبى علىّ ذلك عليه كما أباه على عمّه العباس .

ولكنّ أحداً لم يقل إن العباس كان شيعةً لعلىّ ، ولا إن أبا سفيان كان شيعة لعلىّ أيضاً ، وإنما عرض لهما هذا الرأى ، فلما لم يستجب لهما علىّ بايعا أبا بكر

ودخلا فيما دخل فيه الناس ، كما فعل عليّ نفسه مع الخلفاء الثلاثة الذين سبقوه .

ويحدثنا الرواة كذلك أن المِقْداد بن الأسود وعمار بن ياسر ، وربما ذُكر سلمان الفارسي ، أظهروا الدعوة لعليّ أثناء الشورى حتى خاف بعض أهل الشورى تفرق الناس ، فطُلب إلى عبد الرحمن بن عوف أن يتعجّل القضاء في الأمر . فلما بايع عبدُ الرحمن عثمانَ دخل المقداد وعمّار فيما دخل فيه الناس ، كما فعل عليّ نفسه . ولم يقل أحد في ذلك الوقت إن المقداد أو عمّاراً كان شيعة لعليّ ، وإنما رأيا رأياً ثم انصرفا عنه ليكونا مع جماعة المسلمين

ومعنى هذا كله أن عليّاً لم تكن له شيعة ممتازة من الأمة قبل الفتنة ، ولم تكن له شيعة بالمعنى الذي يعرفه الفقهاء والمتكلّمون أثناء خلافته ، وإنما كان له أنصار وأتباع ، وكانت كثرة المسلمين كلها له أنصاراً وأتباعاً ، حتى كانت موقعة صفّين ، وحتى افتتح معاوية مصر ، وحتى جعل معاوية يُغير على أطراف عليّ في العراق والحجاز واليمن .

وقد قتل عليّ وليس له حزب منظّم ولا شيعة مميزة ، بل لم ينظّم الحزب العلويّ ولم توجد الشيعة المميزة إلا بعد أن تم اجتماع الأمر لمعاوية وبايعه الحسن بن عليّ كما سترى .

وكان الحسن رجل صدق قد كره الفرقة وآثر اجتماع الكلمة وخاض غمرات الفتنة ، على كُره منه فى أكبر الظن. قاوم الفتنة ما وسعته مقاومتها أيام عثمان فلم يخض فيما خاض الناس فيه من حديثها ، ولم يشارك فى المعارضة حين عظم الشر . وكان من الذين أسرعوا إلى دار عثمان فقاموا دون الخليفة يريدون حمايته . ولكن الخليفة قُتل على رغم ذلك ، لأن خصمه تسوروا عليه الدار . ولم يكن الحسن يرى أن يشترك أبوه فى شىء من أمر الفتنة من قرب أو من بعد ، وإنما أشار عليه أن يعتزل الناس وأن يترك المدينة فيقيم فى ماله بينبع . فلم يسمع علىّ له ، وإنما رأى أن مكانه فى المدينة حيث يستطيع أن يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر أو يصلح بين الناس .

فلما قُتل عثمان لم ير الحسن لأبيه أن يقيم فى المدينة ولا أن يتعرض للبيعة ولا أن يقبلها وإن عُرضت عليه . ولو استطاع الحسن لاعتزل الفتنة اعتزالا كما فعلت تلك المعتزلة من أصحاب النبى . ولكن عرف لأبيه حقّه عليه ، فأقام معه وشهد مشاهده كلها ، على غير حُب لذلك أو رغبة منه فيه .

ثم لم يكن الحسن يرى لأبيه أن يترك مُهاجَره فى المدينة ، وأن يرحل إلى العراق للقاء طلحة والزبير وعائشة ، وإنما كان يؤثر له أن يبقى فى مُهاجره مجاوراً للنبى ، ويكره له أن يذهب إلى دار غُربة ويتعرض للموت بمَضْيعة . وكان أبوه يعصيه فى كل ما كان يشير عليه من ذلك ، حتى بكى الحسن ذات يوم حين رأى ركاب أبيه تؤم العراق ، فقال له أبوه : إنك لتحن حنين الجارية .

ولم يفارق الحسنَ حزنُه على عثمان ، فكان عثمانيًّا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، إلا أنه لم يَسُلّ سيفاً للثأر بعثمان ، لأنه لم ير ذلك حقًّا له ، وربما غلا فى عثمانيته حتى قال لأبيه ذات يوم ما لا يحب .

فقد روى الرواة أن عليًّا مرّ بابنه الحسن وهو يتوضأ فقال له : أسبغ الوضوء . فأجابه الحسن بهذه الكلمة المُرة : « لقد قتلتم بالأمس رجلاً كان يُسبغ الوضوء » .

فلم يزد عليّ على أن قال : لقد أطال الله حزنك على عثمان .

وقد شهد الحسن مع أبيه، مشاهده فى البصرة وصفّين والنهروان . وأكاد أعتقد مع ذلك أنه وأخاه الحسين قد شهدا هذه الحروب دون أن يشاركا فيها . بل نحن نعلم أن أباهما كان يضن بهما على الخطر مخافة أن يصيبهما شر فتنقطع ذرية النبيّ صلى الله عليه وسلم . كان يقيهما بنفسه وبأخيهما محمد بن الحنفية ، وكان يشتد على محمد هذا ويعنّف به إن رأى منه فى الحرب أناة أو تقصيراً حتى كلمه فى ذلك بعض أصحابه .

فقد كان عليّ إذاً أشد الناس إيثاراً للحسن والحسين لمكانهما من النبيّ ، وكان أصحابه يصنعون صنيعه فى ذلك فيؤثرونهما بالخير والبرّ .

ويُروى أن رجلا أهدى إلى الحسن والحسين وترك محمداً فلم يُهد إليه شيئاً ، فلما رأى عليّ ذلك من الرجل وضع يده على كتف محمد وتمثّل :

وما شرّ الثلاثة أم عمرو   بصاحبك الذى لا تُصبحينا

فذهب الرجل فأهدى إلى محمد كما أهدى إلى أخويه .

كان الحسن إذاً كارهاً للفتنة منذ ثارت . وقد روى الثقات من أصحاب الحديث أن النبي أخذ الحسن وهو صبيّ فأجلسه إلى جانبه على المنبر ، وجعل ينظر إليه مرة ، وينظر إلى الناس مرة أخرى ، يفعل ذلك مراراً ، ثم قال : إن ابنى هذا سيّدٌ ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين كبيرتين من المسلمين .

فإذا صح هذا الحديث — وأكبر الظن أنه صحيح — فقد وقع هذا الحديث من نفس الصبى موقعاً أى موقع . وكأنه ذكره حين ثارت الفتنة، وكأنه حاول بمشورته على أبيه ، فى مواطنه تلك التى ذكرتُها آنفاً ، أن يصلح بين هاتين الفئتين من المسلمين فيحقق نبوة جده صلى الله عليه وسلم .

وكأن بكاءه حين بكى لم يكن رفقاً بأبيه وإشفاقاً عليه فحسب ، وإنما كان إلى ذلك حزناً ، لأنه لم يحقق ماتوسّم به جدُّه فيه .

والمسلمون يختلفون كما حدثتك من قبل ، فأما المؤرخون والمحدثون من أهل السُّنة فينبئوننا بأن عليًّا أبى أن يستخلف حين طلب إليه ذلك بعد أن أصيب . يقول قوم : إن الناس طلبوا إليه أن يستخلف الحسن . فقال : لا آمركم

ولا أنهاكم . ويقول قوم آخرون : إن الناس طلبوا إليه أن يستخلف . فأبى وقال : أتركم كما ترككم رسول الله .

وأما الشيعة فيزعمون أن عليّاً استخلف الحسن نصّاً . ومهما يكن من شىء فلم يعرض الحسنُ نفسَه على الناس ، ولم يتعرض لبيعتهم ، وإنما دعا إلى هذه البيعة قيسُ بن سعد بن عُبادة . فبكى الناس واستجابوا وأُخرج الحسن فأُجلس للبيعة ، وطفق — كما يقول الزهرى — يشترط على الناس أن يسمعوا ويطيعوا ، ويحاربوا من حارب ويسالموا من سالم . فلما سمع الناس منه تكراره لأمر السلم ارتابوا وظنوا أنه يريد الصلح . وقال بعضهم لبعض : ليس هذا لكم بصاحب وإنما هو صاحب صلح .

وقد مكث الحسن بعد البيعة شهرين أو قريباً من شهرين لا يذكر الحرب ولا يظهر استعداداً لها ، حتى ألحّ عليه قيس بن سعد وعُبيد الله بن عباس ، وكتب إليه عبد الله بن عباس من مكة يحرّضه على الحرب . ويلحّ عليه فى أن ينهض فيما كان ينهض فيه أبوه .

فنهض للحرب وقدّم بين يديه اثنى عشر ألفاً من الجند ، جعل عليهم قيس ابن سعد ، وجعل معه عُبيد الله بن عباس . وقوم يقولون إنه جعل على هذا الجند ابن عمه ، وأمره أن يستشير قيس بن سعد وسعيد بن قيس الهمدانى ولا يخالف عن رأيهما .

فمضى الجند وخرج الحسن فى إثرهم فى عدد ضخم من أهل العراق ، وكأنه خرج يُظهر لهم الحرب ويدبّر أمر الصلح فيما بينه وبين خاصته . حتى إذا بلغ المدائنَ تسامع الجيش ببعض ذلك ، فاضطرب الناس وماج بعضهم فى بعض ، واقتحموا على الحسن فسطاطه وعنفوا به عنفاً شديداً حتى انتهبوا متاعه . فخرج الحسن يريد المدائن . وطعنه رجل فلم يصب منه مقتلا . يقول بعض المؤرخين : إن هذا الرجل كان من أصحابه ، ويقول بعضهم الآخر : إنه كان من الخوارج وأنه قال للحسن وهو يَهُم به : أشركت كما أشرك أبوك .

وقد أقام الحسن فى المدائن حتى برئ من جرحه ، وتعجل السلم فى أثناء ذلك ثم رجع إلى الكوفة فاستقبل فيها سفراء معاوية الذين أعطوه كل ما أراد . أعطوه

الأمان له ولأصحابه كافةً ، وأعطوه خمسة ملايين من الدراهم كانت فى بيت المال بالكوفة ، وأعطوه خراج كورتين من كور البصرة ما عاش .

وبينما كان الحسن يفاوض فى الصلح كان عُبيد الله بن عباس يتعجل السلم لنفسه ويترك جيشه إلى معاوية دون أن يستخلف عليه أحداً . رشاه معاوية بالمال ، فلم يستطع أن يعصى المال . وكذلك انحرف عبد الله بن عباس عن علىّ ، وانحرف عبيد الله بن عباس عن الحسن . كلاهما ينحرف عن صاحبه فى أشد الأوقات حرجاً وأعسرها عسراً .

ونهض قيس بن سعد بأمر هذا الجند، حتى جاءه أمر الحسن بالدخول فى طاعة معاوية . فأظهر الناس على ذلك وخيّرهم بين أن يدخلوا فيما دخل فيه إمامهم أو يقاتلوا عدوّهم على الحق بغير إمام . فاختاروا العافية ، ووضعت الحرب أوزارها . وفتحت الطريق لمعاوية إلى الكوفة ، فدخلها موفوراً ، وبايع له الناس ولم يبايع قيس بن سعد إلا بعد خطوب .

ولا بد من وقفة قصيرة عند حديث الصلح وما جرى بين الحسن ومعاوية من المفاوضة فيه . فقد يُظهرنا التأمل فى هذا كله على اتجاه نفوس الناس وقلوبهم فى ذلك الوقت إلى الدنيا أكثرَ من اتجاهها إلى الدين . وقد يظهرنا ذلك أيضاً على أن الحسن وأباه ، وهذه القلة القليلة من أشباههما ، إنما كانوا يعيشون غُرباء فى هذه البيئة الجديدة القديمة ، أو فى هذا الخَلف الذى خلف من المسلمين . جماعة من هذه القلة كرهوا الفتنة واستيأسوا من بيئتهم ففرّوا بدينهم إلى العزلة وآثروا الله على الناس ، وآخرون رأوا أن الدين لم يُوحَ به إلى النبى ليؤثر به نفسه ويفرّ به من البيئة التى ملأها الفساد ، وإنما أوحى به ليصلح من أمر الناس ما فسد ، ويقوم من حياتهم ما اعوج ، ويحملهم على الجادة ، ويهديهم الصراط المستقيم . وقد نهض النبى بأمر ربه ، لم يفر بدينه إلى غار حراء ، ولم يعتزل به أهل مكة ، وإنما واجه قومه بما كرهوا، عنّف بهم وعنفوا به ، وألحّ فى دعائهم إلى الخير وألحّوا فى المكر به والكيد له والتأليب عليه ، حتى أخرجوه من وطنه ، فلم يثبط ذلك من همه ، ولم يفُل من حده ، ولم يكن يحفل فى سبيل الدين بأن يضع خصمهُ الشمسَ فى يمينه والقمر فى يساره إن استطاعوا ، وكانت له العاقبة . فحمل الناس على الخير وهداهم إلى الدين ، لم يشفق من تبعة ، ولم يخف مكروهاً .

وقد رأى علىّ وأمثاله القليلون أن النبى قد سن لهم سنة فى إنفاذ أمر الله وحَمْل الناس على الحق ، فمضوا على سنة النبى وصاحبيه من بعده ، واحتملوا فى ذلك ما احتملوا من البلاء والعناء والقتل فى ميادين الحرب ، أو القتل غيلة أثناء الخروج إلى الصلاة .

ولم يكن بد من أن تصير أمور الناس إلى ما صارت إليه ، فقد لقى العرب غيرَهم من الأمم ، ورثوا ملكهم وعرّفوا حضارتهم وبلوا ما فى حياتهم من خير وشر ، ومن حلو ومرّ . وكان من الطبيعى أن تنتهى الأمور إلى إحدى اثنتين : فإما أن يقهر الغالبون فيعرّبوا هذه الأمم المغلوبة ، وإما أن يقهر المغلوبون فيفتنوا

هذه الأمة الغالبة . وقد فُتنت الأمة الغالبة عن كثير من أمرها ، فأعرضت عن خلافتها وعن سنتها الرشيدة ، ودفعت إلى الملك تقلد فيه قيصر وكسرى أكثر مما تقلد النبي والشيخين .

ويكفي أن تلاحظ ما قدمته آنفاً من أن أشراف أهل العراق كانوا يتصلون بمعاوية في أيام عليّ ، يتلقون ماله ويمهدون له أمره . وأن تلاحظ بعد ذلك أن الحسن لم يكد يفرغ من البيعة حتى فرغ جماعة من الأشراف الذين بايعوه إلى معاوية ، منهم من سار إليه فبايعه وأقام معه حتى عادوا في صحبته إلى العراق ، ومنهم من أرسلوا إليه الكتب ينبئونه بضعف الحسن وانتشار أمره واختلاف الناس عليه ، ويتعجلون قدومه إلى العراق ، حتى لم يتحرج معاوية من أن يتأذن في أصحابه من أهل الشام : أن كُتب أهل العراق قد تواترت إليه يدعونه فيها إلى أن يسير إليهم ، وأن أشراف أهل العراق قد جعلوا يُقبلون عليه ليبايعوه .

وقد غير معاوية سياسته فجأة تغييراً تامًّا ، فأعرض عن العنف ومال إلى الرفق وأمعن فيه . وكأنه كان يعرف عثمانية الحسن وبغضه للفتنة وتحرجه من سفك الدماء ، كما كان يعرف كغيره من عامة الناس مكان الحسن من النبيّ ونزوع نفسه إلى الخير وعزوفها عن الشر .

فلم يكد الحسن يكتب إليه مع جُندب بن عبد الله الأزدي ينبئه بأن الناس قد بايعوه ويدعوه إلى الطاعة ، حتى ردّ عليه معاوية ردًّا رقيقاً ليس فيه شيء مما كان في كتبه إلى عليّ من الشدة والغلظة والتأنيب والامتناع .

وإنما كتب إليه ينبئه : أنه لو كان يعلم أنه أقوم بالأمر وأضبط للناس وأكيد للعدو وأحوط على المسلمين وأعلم بالسياسة وأقوى على جمع المال منه لأجابه إلى ما سأل ، لأنه يراه لكل خير أهلاً . ويقول له إن أمري وأمرك شبيه بأمر أبي بكر وأمركم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . يريد أن أبا بكر وأصحاب النبي معه عرفوا لأهل البيت مكانتهم من النبيّ واستحقاقهم لكل كرامة ، ولكنهم مع ذلك صرفوا الخلافة عنهم إلى من هو أقدر على النهوض بأمرها من المسلمين .

وقد عاد الأمر إلى مثل ما كان عليه بعد وفاة النبي ، لم تتغير مكانة أهل البيت

ولم يتغير استحقاقهم لكل كرامة ، ولكن غيرهم — وهو معاوية — أقدر منهم على النهوض بأمر الخلافة وأعباء السلطان .

ثم وعده أن يسوّغه ما فى بيت مال العراق ، وأن يجعل له خراج ما يختار من الكور ، يستعين به على مئونته ونفقاته ما عاش .

وقد عاد جُندب بكتاب معاوية إلى الحسن ، وأنبأه باجتماع أهل الشام وكثرتهم وتأهبهم للمسير إليه ، وأشار عليه أن يغزوهم قبل أن يغزوه . ولكنّ الحسن ظلّ ساكنًا لا ينشط للحرب حتّى علم أن معاوية قد سار إليه ، وكاد أن يبلغ حدود العراق . هنالك نهض للقائه وجرى له ما علمت من الأحداث .

ولم يكن قعود الحسن عن الحرب جُبنًا أو فَرَقًا ، وإنما كان كراهية لسفك الدماء من جهة ، وشكًّا فى أصحابه من جهة أخرى . وقد تبين له بعد مسيره وما كان من أمره مع الناس حين بلغ المدائن أنه لم يكن مخطئًا . ولاسيما بعد أن عرف وفود الأشراف من أهل العراق على معاوية ، وأن الذين لم يفدوا عليه قد كتبوا إليه . فكان يقول لأهل العراق : أنتم أكرهتم أبى على الحرب وأكرهتموه على التحكيم ، ثم اختلفتم عليه وخذلتموه . وهؤلاء وجوهكم وأشرافكم يفدون على معاوية أو يكتبون إليه مبايعين . فلا تغرّونى عن دينى .

ثم تعجل الصلح . فأرسل إليه معاوية عبدَ الله بن عامر عامل عثمان على البصرة ، وعبدَ الرحمن بن سمرة فعرضا عليه الصلح وألحّا عليه فيه ، ورغّباه بما رغّباه به مما علمت .

فقبل مبدأ الصلح وأرسل سفيرين إلى معاوية ، هما عمرو بن سلَمة الهمدانى ومحمد ابن الأشعث الكندى ، ليستوثقا من معاوية ويعلما ما عنده . فأعطاهما معاوية هذا الكتاب : بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب للحسن بن علىّ من معاوية بن أبى سفيان . إنى صالحتك على أن لك الأمر من بعدى ، ولك عهد الله وميثاقه وذمته وذمّة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وأشد ما أخذه الله على أحد من خلقه من عهد وعقد . لا أبغيك غائلة ولا مكروهًا . وعلى أن أعطيك فى كل سنة ألف ألف درهم من بيت المال . وعلى أن لك خراج يَسَا ودارابجرد تبعث إليهما عمالك وتصنع بهما ما بدا لك. شهد عبد الله بن عامر وعمرو بن سلمة الكندى وعبد الرحمن بن سَمُرة

ومحمد بن الأشعث الكندى وكتب فى شهر ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين .

ونلاحظ أن معاوية لم يبدأ هذا الكتاب كما كان يبدأ كتبه إلى علىّ : « من معاوية بن أبى سفيان إلى علىّ بن أبى طالب » ، وإنما قدم الحسن فكتب : « إلى الحسن بن على من معاوية بن أبى سفيان » يُظهر بذلك تكريم الحسن وأنه يسير معه سيرة غير سيرته مع أبيه .

وقد عرض معاوية على الحسن ثلاثة أشياء : أن يجعله ولىّ عهده . وأن يجعل له مرتباً سنوياً من بيت المال ألف ألف درهم ، وأن يترك له كورتين من كور فارس يرسل إليهما (عُمّاله) ويصنع بهما ما يشاء .

ثم أعطى على نفسه العهد المشدد المؤكد أن يؤمن الحسن من كل غائلة . ولم يكتف الحسن بهذه الشروط ، لأن فيها شيئاً لا يملكه معاوية فى رأيه ، وهو ولاية العهد . ولأن ما عدا هذا من الشروط المالية نوع من الإغراء وليس بذى خطر عند الحسن . فبيت مال العراق فى يده ، وكور فارس كلها فى يده أيضاً ، وقد أهمل معاوية فى كتابه شيئاً هو أخطر من كل ما ذكر ، وهو تأمين أصحاب الحسن الذين حاربوا مع علىّ وهموا بالحرب مع الحسن نفسه .

ولذلك احتفظ الحسن بكتاب معاوية عنده وأرسل إليه رجلا ، من بنى عبد المطلب من جهة ، وبينه وبين معاوية قرابة قريبة من جهة أخرى ، وهو عبد الله ابن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ، وأمه أخت معاوية . فقال له إئت خالك وقل له : إن أمّنت الناس بايعتك .

وكأن الحسن أراد أن يصطنع شيئاً من اللباقة ، فاحتفظ بشروط معاوية وطلب إلى معاوية مزيداً هو تأمين الناس . ولكن معاوية كان أدهى من ذلك وأبرع كيداً . فقد أعطى ابن أخته طوماراً ختم فى أسفله وقال له : اكتب ما شئت .

فجاء عبد الله بن الحارث بهذا التفويض المطلق إلى الحسن ، فكتب فيه الحسن : « هذا ما صالح عليه الحسنُ بن علىّ معاويةَ بن أبى سفيان . صالحه على أن يسلم إليه ولاية أمر المسلمين على أن يعمل فيها بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة الخلفاء الصالحين . وعلى أنه ليس لمعاوية أن يعهد لأحد من بعده ، وأن يكون الأمر شورى ، والناس آمنون حيث كانوا على أنفسهم وأموالهم وذراريهم ، وعلى ألا يبغى

الحسن بن علىّ غائلة سرًّا ولا علانية ولا يخيف أحداً من أصحابه . شهد عبد الله ابن الحارث وعمرو بن سلمة» . ثم رد عبد الله بن الحارث إلى معاوية بكتابه هذا ليُشهد عليه من شاء من أصحابه ، ففعل .

وتم الصلح ، ولكنه لم يتم دون أن يترك بين الرجلين شيئاً من اختلاف الرأى وسوء التفاهم ، كما يقال فى هذه الأيام .

أكان الكتاب الأول الذى أرسله معاوية إلى الحسن قائماً يكفل للحسن ما أعطاه معاوية من الشروط ، ما عدا ولاية العهد التى لم يرضها الحسن . أم سقط بهذا الكتاب الذى كتبه الحسن وأمضاه معاوية .

أما الحسن فقد رأى أن كتاب معاوية الأول ظل قائماً ، وأن معاوية قد التزم فيه ما وعد به من مرتب فى كل عام ، ومن خراج هاتين الكورتين للحسن ما عاش . وأما معاوية فقد رأى أن الكتاب الثانى قد ألغى الكتاب الأول إلغاء فليس للحسن عنده إلا ما طلب من أن يكون الأمر شورى بعد موت معاوية ، ومن تأمين الناس على أنفسهم وعلى أموالهم وذراريهم ، ومن ألا يبغى الحسنَ غائلة سرًّا أو جهراً ، ومن أن يعمل فى أمر المسلمين بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخلفاء الصالحين .

ومن أجل اختلاف الرأى هذا طلب الحسن إلى معاوية ، بعد أن استقام له الأمر أن يفى له بشروطه المالية . فأبى عليه معاوية وقال له : ليس لك عندى إلا ما شرطت لنفسك . وكأن الحسن أراد تحكيماً ، وكأنه أراد أن يحكم سعد بن أبى وقاص . فلم يقبل معاوية تحكيماً ولكنه على ذلك أرضى الحسن بما أعطاه وما فرض له من المال .

وتكثّر المؤرخون والرواة بعد ذلك ، فزعم قوم أن معاوية وفّى بالشروط للحسن ثم أغرى أهل البصرة سرًّا ، فطردوا عُمّال الحسن من الكورتين ، وأبوا أن يدفعوا إليه شيئاً من خراجهما ، وقالوا : هذا فيئنا وليس لأحد غيرنا فيه حق .

والأمر كما رأيت أيسر من ذلك . والشيء الذى ليس فيه شك ، هو أن معاوية قد برّ الحسن وأرضاه بالمال ، فلم يجد فى حياته عسراً ولا ضيقاً ، وإنما عاش فى المدينة عيشة الغنىّ السخى ، الذى ينفق عن سعة ولا يحسب للمال حساباً .

ومهما يكن من شيء فقد سار معاوية إلى الكوفة مطمئنًّا راضى البال ، ينشُر

من حوله الرضى والطمأنينة . واستقبله الحسن فبايعه وبايعه الناس . وكأن معاوية أراد أن يعلن الحسنُ رضاه عن هذا الصلح واطمئنانه إلى النظام الجديد .

وهذا طبيعي لا يحتاج فهمه وقبوله إلى تكلّف من تكلّف من الرواة والمؤرخين ، الذين زعموا أن عمرو بن العاص هو الذى أغرى معاوية بدعوة الحسن إلى أن يتكلم ؛ ليظهر للناس عجزه وضعفه أو ليسوءه أمام أنصاره وشيعته . فالحسن لم يختلس الصلح اختلاساً ، ولم يستخف به من الناس ، والحسن قد خطب الناس غير مرة فى حياة أبيه وبعد وفاته ، فلم يعرف منه عيًّا أو حصَراً وهو بعد ذلك أو قبل ذلك من أهل بيت لم يُعرفوا قط بعيّ أو حصَر ، وإنما كانوا معدن الفصاحة واللَّسن وفصل الخطاب . وقد خطب الحسن فقال خير ما كان يمكن أن يقال وأصدق ما كان يمكن أن يقال أيضًا ، قال : « أيها الناس إن أكيس الكيس التُّقى ، وأحمق الحمق الفجور . إن هذا الأمر الذى سلمته لمعاوية إما أن يكون حق رجل كان أحق به منى فأخذ حقه ، وإما أن يكون حقى فتركته لصلاح أمة محمد وحقن دمائها . فالحمد لله الذى أكرم بنا أوّلكم وحقن دماء آخركم » .

والرواة يزعمون أن هذا الكلام قد أغضب معاوية ، وأنه لام عمرو بن العاص لأنه هو الذى ألحّ فى أن يتكلم الحسن .

ثم هم بعد ذلك يزيدون فى كلام الحسن ما عسى أن يكون منه وما عسى ألا يكون .

ومهما يكن من ذلك فقد سخط على الحسن جماعة من أصحابه الذين أخلصوا له ولأبيه ، وأخلصوا فى بغض معاوية وأهل الشام . ورأوا فى هذا الصلح نوعاً من التسليم لم يكن يلائم ما بذلوا أيام علىّ من جهد ، ولم يكن يلائم كذلك ما كان فى أيديهم من قوة . فمنهم من كان يقول للحسن : يا مُذلّ المؤمنين ، ومنهم من كان يقول له : يا مُذل العرب ، ومنهم من كان يقول له : يا مسود وجوه العرب .

ولكن الحسن لم يحفل بشىء من ذلك ، وإنما رضى عن خطته كل الرضا ، رأى فيها حقناً للدماء ووضعاً لأوزار الحرب وجمعاً لكلمة الأمة . وتمكيناً للمسلمين من أن يستقبلوا أمورهم مؤتلفين لا مختلفين ومتفقين لا مفترقين ، ومن أن يفرغ

أهل الثغور لثغورهم يردون عنها طمع العدو فيها وفيما وراءها ، ومن أن يفرغ الجند للفتح يستأنفونه من حيث وقفته الفتنة .

ويقول الرواة : إن الحسين بن علىّ رحمه الله لم يكن يرى رأى أخيه ولا يُقرّ ميله إلى السلم ، وإنه ألحّ على أخيه فى أن يستمسك ويمضى فى الحرب، ولكن أخاه امتنع عليه وأنذره بوضعه فى الحديد إن لم يُطعه .

وليس فى هذا شىء من الغرابة : فقد كان علىّ نفسه يتنبأ ببعض ذلك ، يتحدث بأن الحسن سيخرج من هذا الأمر ، وبأن الحسين هو أشبه الناس به ، وربما قسا على الحسن شيئاً فقال : إن الحسن فتى من الفتيان صاحب جفان وخوان .

وقد فرغ الحسن من هذا الأمر كله وارتحل بأهل بيته إلى المدينة ، وترك معاويةَ فى الكوفة يدبر أمر دولته الجديدة كما يشاء . ولكن الحسن لم يكد يبعد عن الكوفة حتى أدركه رسول معاوية يريد أن يرده إلى الكوفة ليقاتل طائفة من الخوارج خرجت عليه . فأبى الحسن أن يعود ، وقال : لقد صالحته وما أريد إلا حقن الدماء واجتناب الحرب . وانتهى الحسن إلى المدينة فلقى من أهلها إثر وصوله إليها مَن لامه فى الصلح كما لامه فيه أهل الكوفة ، فكان يقول للائميه : كرهت أن ألقى الله عز وجل فإذا سبعون ألفاً أو أكثر تشخب أوداجهم دماً ، يقول كل منهم : يا ربى ، فيم قُتلت ؟

ولم يكد الحسن يترك الكوفة فى طريقه إلى المدينة حتى أظهر معاوية لأهل العراق شدةً بعد لين ، وعنفاً بعد رفق فأعلن إليهم أول الأمر ألاّ بيعة لهم عنده حتى يكفوه بوائقهم . ويردّوا عنه خوارجهم هؤلاء الذين خرجوا عليه . فمضى أهل الكوفة إلى الخوارج فقاتلوهم كما كانوا يقاتلونهم أيام علىّ . واستبان لهم أن أمرهم لم يتغير وأنّهم كانوا يقاتلون أبناءهم وإخوانهم وأولى مودّتهم ليطيعوا عليّاً ، ثم هم الآن يقاتلونهم ليطيعوا معاوية .

ثم أعرب لهم معاوية بعد ذلك عن خطته التى رسمها وسياسته التى سيتوخاها فيهم . فأنبأهم بأنه نظر فرأى أمور الناس لاتصلح إلا بخصال : أولها أن يأتى المسلمون عدوّهم فى بلادهم قبل أن يأتيهم هؤلاء العدو فى بلاد الإسلام ، ولهم على ذلك أن يأخذوا أعطياتهم فى إبّانها . والخصلة الثانية أن بعوثهم إلى الثغور القريبة عليها أن تقيم فى ثغورها ستة أشهر ، فإذا بعدت الثغور فعلى البعوث أن تقيم فيها سنة . والخصلة الثالثة أن تُصلح البلاد وترعى مرافقها حتى لا يصيبها الجهد . ثم أعلن إليهم أنه كان قد حرص على أن يخرج الناس من الفتنة ، ويضع عنهم أوزار الحرب ، ويكف بأس بعضهم عن بعض ، ويجمع كلمتهم . وفى سبيل ذلك اشترط شروطاً ووعد عِدات ومنّى آمانى ، وإنه الآن يضع هذا كله تحت قدمه .

ثم أعلن إليهم آخر الأمر أن ذمته بريئة ممن لم يقبل فيُعطى البيعة . وأجّلهم ثلاثاً فأقبل الناس من كل أوب يبايعون . وهذا كله إن دلّ على شىء فإنما يدل على أن معاوية صانع أهل العراق ورفق بهم ، حتى يتم له الصلح ويستقيم له الأمر ويخرج الحسن من العراق . فلما تم له ما أراد اصطنع الحزم وساس أهل العراق سياسة لم يكونوا يعرفونها من قبل .

فأخرجهم من الدعة التى ألفوها ، وعلمهم أن طاعة الأمراء فرض لا ينبغى التردد فيه أو الالتواء به ، وأن من لم يُعط الطاعة فلا أمان له ، وقد برئت منه ذمة السلطان .

هنالك عرف أهل العراق أن حياتهم قد تغيّرت، وأنهم سيستقبلون من أمرهم أشد وأقسى مما كانوا يظنون .

وقد ولّى معاويةُ المغيرةَ بن شُعبة أمر الكوفة . وولّى عبد الله بن عامر أمر البصرة ، فعاد إليها بعد أن كان قد فارقها بقتل عثمان . وعاد معاوية إلى الشام يدبّر أمر دولته من دمشق .

وقد جعل أهل العراق يذكرون حياتهم أيام عليّ فيحزنون عليها ، ويندمون على ما كان من تفريطهم فى جنب خليفتهم ، ويندمون كذلك على ما كان من الصلح بينهم وبين أهل الشام ، وجعلوا كلما لقى بعضهم بعضاً تلاوموا فيما كان ، وأجالوا الرأى فيما يمكن أن يكون ولم تكد تمضى أعوام قليلة حتى جعلت وفودهم تفد إلى المدينة للقاء الحسن والقول له والاستماع منه .

وقد أقبل عليه ذات يوم وفد من أشراف أهل الكوفة ، فقال له متكلمهم سليمان بن صُرَد الخزاعى : « ما ينقضى تعجبنا من بيعتك معاوية ومعك أربعون ألف مقاتل من أهل الكوفة كلهم يأخذ العطاء ، وهم على أبواب منازلهم ، ومعهم مثلهم من أبنائهم وأتباعهم ، سوى شيعتك من أهل البصرة وأهل الحجاز . ثم لم تأخذ لنفسك ثقة فى العقد ولا حظاً من العطية . فلو كنت إذ فعلت ما فعلت أشهدت على معاوية وجوه أهل المشرق والمغرب ، وكتبت عليه كتاباً بأن الأمر لك بعده ، كان الأمر علينا أيسر ، ولكنه أعطاك شيئاً بينك وبينه ، ثم لم يلف به ، ثم لم يلبث أن قال على رؤوس الناس إنى : كنت شرطت شروطاً ووعدت عدات إرادة لإطفاء نار الحرب ومداراة لقطع هذه الفتنة . فأما إذ جمع الله لنا الكلمة والألفة وأمّننا من الفرقة فإن ذلك تحت قدمى . فوالله ما اغترّنى بذلك إلا ما كان بينك وبينه ، وقد نُقض . فإذا شئت فأعد الحرب جَذَعة وأذَن لى فى تقدّمك إلى الكوفة فأخرج عنها عامله وأظهر خلعه ، وتنبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين » .

وقال الآخرون مثل ما قال سليمان بن صُرد . فهم إذاً إنما جاءوا المدينة ولقوا الحسن ليعاتبوه أولا ، لأنه جنح إلى السلم على رغم ما كان عنده من قوة وعدد . وليعاتبوه ثانياً ، لأنه حين أمضى الصلح لم يُشهد عليه وجوه الناس من أهل المشرق

والمغرب ، ولم يشترط لنفسه ولاية العهد ، ثم لينبئوه ثالثاً بأن معاوية قد نقض الصلح وأعلن نقضه على رؤوس الأشهاد . ثم ليطلبوا إليه بعد ذلك أن يعيد الحرب جذعة وأن يأذن لهم في أن يسبقوا إلى الكوفة فيعلنوا فيها خلع معاوية ويخرجوا منها عامله ، وحينئذ ينبذ الحسن إلى معاوية على سواء إن الله لا يحب الخائنين .

وقد قبل الحسن منهم شيئاً ورفض شيئاً . وكان فيما قبل منهم أبى عليهم ناصحاً لهم رفيقاً بهم مؤثراً السلم وحقن الدماء ، ولكنه على ذلك لم يؤيسهم وإنما أبقى لهم شيئاً من أمل . فقال لهم فيما روى البلاذرى : « أنتم شيعتنا وأهل مودتنا . فلو كنت بالحزم فى أمر الدنيا أعمل ولسلطانها أعمل وأنصب ، ما كان معاوية بأبأس منى بأساً ولا أشد شكيمة ولا أمضى عزيمة . ولكنى أرى غير ما رأيتم . وما أردت فيما فعلت إلا حقن الدماء ، فارضوا بقضاء الله وسلّموا الأمر والزموا بيوتكم وأمسكوا وكفوا أيديكم حتى يستريح برّ أو يستراح من فاجر » .

فقد أعطاهم الحسن كما ترى الرضى حين أعلن إليهم أنهم شيعة أهل البيت وذوو مودتهم . وإذاً فمن الحق أن يسمعوا له ويأتمروا بأمره ويكونوا عندما يريد منهم . ثم بين لهم أنه لم يصالح معاوية عن ضعف ولا عن عجز ، وإنما أراد حقن الدماء . ولو قد أراد الحرب لما كان معاوية أشد منه قوة ولا أعسر مراساً . ثم طلب إليهم أن يرضوا بقضاء الله ويطيعوا السلطان ويكفوا أيديهم عنه ، وأنبأهم بأنهم لن يفعلوا ذلك آخر الدهر ، ولن يستسلموا لعدوهم فى غير مقاومة ، وإنما هو انتظار إلى حين ، هو انتظار إلى أن يستريح الأبرار من أهل الحق أو يريح الله من الفجار من أهل الباطل .

فهو إذاً يهيئهم للحرب حين يأتى إبانها ويحين حينها ، ويأمرهم بالسلم المؤقت حتى يستريحوا ويحسنوا الاستعداد . ومن يدرى لعل معاوية أن يريح الله منه ، فتستقبل الأمة أمرها على ما يحب لها صالحو المؤمنين .

وأعتقد أنا أن اليوم الذى لقى الحسن فيه هؤلاء الوفد من أهل الكوفة ، فسمع منهم ما سمع وقال لهم ما قال ورسم لهم خطتهم ، هو اليوم الذى أنشئ فيه الحزب السياسى المنظم لشيعة علىّ وبنيه . نظم الحزب فى المدينة فى ذلك المجلس ، وأصبح الحسن له رئيساً ، وعاد أشراف أهل الكوفة إلى من وراءهم ينبئونهم بالنظام الجديد

والخطة المرسومة ، ويهيئونهم لهذا السلم الموقوت ولحرب يمكن أن تثار حين يأتى الأمر بإثارتها من الإمام المقيم فى يثرب .

وكان برنامج الحزب فى أول إنشائه كما ترى واضحاً يسيراً لا عسر فيه ولا تعقيد ، طاعة الإمام من بنى علىّ والانتظار فى سلم ودعة حتى يؤمروا بالحرب فيثيروها .

ومضى أمر الحزب على ذلك ، فجعل الشيعة يلقى بعضهم بعضاً يتذاكرون أمورهم ، ويسجلون على معاوية وولاته ما يتجاوزون به حدود الحق والعدل ، وينتظرون أن يأمرهم الإمام بالخروج .

ولكن الإمام لم يأمرهم بالخروج ، ولعله كان يأمرهم بالعافية ويتقدّم إليهم بين حين وحين ، إذا لقيهم أثناء وفودهم على موسمهم ، بأن يُؤثروا البُقْيا ويصطنعوا الرفق ، ولا يعرّضوا أنفسهم لبطش السلطان .

ولم تكن شيعة أهل البيت مقصورة على الكوفة ولكنها كانت منتشرة فى آفاق البلاد ، تقلّ فى بعضها وتكثر فى بعضها الآخر . وكانت أمزجتها تختلف فى المعارضة باختلاف كثرتها وقلتها ، وباختلاف سياسة الولاة لها ، فكانت تتفق قبل كل شيء على أن ولاية معاوية شرّ ليس من احتماله بدّ ، حتى تتهيأ الفرصة للتخلص منه ، إمّا باستراحة الأبرار وحسن استعدادهم للخروج وقدرتهم عليه ، وإما بموت الفجّار وعودة الأمر شُورى بين المسلمين. وكانت الشيعة تنشط أشد النشاط فى نشر الدعوة للإمام من أهل البيت بحيث يؤول الأمر إليه، حين يُستشار المسلمون فى أمر خلافتهم . فكانوا يدعون إلى إمامهم فى السلم ، يلينون فى هذه الدعوة ويشتدّون، حسبما يكون لهم من الأمزجة وما يُتاح لهم من الفُرص والظروف . وكان الحسن نفسه وفيًّا لمعاوية ببيعته ، حفيظاً له على عهده ، مستعيناً به إن احتاج إلى المعونة مهما يكن نوعها ، ولكنه على ذلك كان معارضاً ولم يكن يستخفى بمعارضته ، وإنما كان يُظهر منها ما يشاء فى المدينة حيث كان يقيم ، وفى مكة حين كان يُلم بها أثناء الموسم . وكانت الفُرص تواتيه أحسن المواتاة وأيسرها. فهو كان عذب الروح حلو الحديث كريم المعاشرة حسن الألفة محبباً إلى الناس ، يحبه أترابه من شباب قريش والأنصار لهذه الخصال ، ويحبه الشيوخ من أصحاب النبي لهذه الخصال ولمكانه من النبي ، ويُحبه عامة الناس لكل هذا ولسخائه وجوده وإعطائه المال حين يُسأل وحين لا يسأل . وكان يُصبح فيصلى الصبح ويجلس فى مكانه ، حتى إذا ارتفعت الشمس طاف بأمهات المؤمنين زائراً لهن متحدّثاً إليهن ، يبرُّهن ويبررْنه ، ويُهدى إليهن ويُهدين إليه ، ثم يفرغ لبعض شأنه . فإذا صُليت الظهر جلس للناس فى المسجد فأطال الجلوس يسمع منهم ويقول

لهم ، يعلم من احتاج منهم إلى العلم ، ويؤدّب من احتاج منهم إلى الأدب ، ويسمع من شيوخ الصحابة من يفيده علماً وأدباً . وكان فى أثناء هذا كله إذا ذكر السلطان أو ذكر السلطان عنده يعرف الخير وينكر الشر فى أرقّ لفظ وأعذبه . ولكنه كان يشتد حتى يبلغ القسوة إن ذكر أبوه بغير ما يحب ، أو لقى من بغى أباه الغوائلَ أو سعى إليه بمكروه . وكان بعد هذا كله يُحسن كما أحسن الله إليه ، ولا ينسى نصيبه من الدنيا . فكان، فيما اتفق المؤرخون والرواة عليه ، مِزْواجاً مطلاقاً ، حتى أنكر أبوه عليه ذلك ، ونهى الناسَ عن تزويجه ، فلم ينتهوا وكابروا أباه فى ذلك مداعبين له . كانوا يرون فى الإصهار إلى سِبْط النبى وابن أمير المؤمنين شرفاً أى شرف .

وكان معاوية رفيقاً بالحسن أعظم الرفق ، واصلاً له أحسن الصلة . ولكن معارضة الحسن كانت تبلغه ، فيعاتبه فيها ليناً حيناً وشديداً حيناً . ولكن مكان الحسن من معاوية لم يكن محبَّباً إليه ، فقد كان معاوية رجلا بعيد النظر ، لم يكد يطمئن إلى الخلافة ويرى أنها قد اطمأنت إليه ، حتى فكر فى أن يجعلها تراثاً بعده لآل أبى سفيان ، وكان يفكر فى ابنه يزيد دائماً ، فيرى أن الحسن هو الحائل بينه وبين ما يريد من ذلك . فهو قد تعجل الصلح مع الحسن فعرض عليه ولاية الأمر من بعده .

ومن الحق أن الحسن لم يقبل منه ذلك ، وإنما اشترط عليه أن تكون الخلافة بعده شورى بين المسلمين ، يختارون لها من أحبُّوا . وكان الحسن فى أكبر الظن يرى أن المسلمين لن يعدلوا به بعد وفاة معاوية أحداً . وكانت الشيعة تؤمن بذلك أشد الإيمان ، وتدعو له فتلح فى الدعاء .

وهنا يختلف المؤرخون والرواة ، فقد توفى الحسن رحمه الله سنة خمسين للهجرة . فأما الشيعة فيرون أن معاوية قد دسَّ إليه من سمّه ليخلو له ولابنه وجه الخلافة . وأما مؤرخو الجماعة من أهل السنة فيروون ذلك ويكثرون من روايته ، ولكنهم لا يقطعون به . ومن المحدثين من يرويه ولكنه يراه بعيداً ، لا لشىء إلا لأن معاوية قد صحب النبى فلا يليق به أن يأتى مثل هذا الأمر البغيض .

ومؤرخو أهل السنة مع ذلك يتحدثون بأن الحسن نفسه قال لبعض عائديه

فى مرضه الأخير : « لقد سُقيت السم مرات ، ولكنى لم أُسْق قط سُماً أشدَّ علىَّ من هذا الذى سُقيته هذه المرة . ولقد لفظت آنفاً قطعة من كبدى » .

ويتحدثون كذلك بأن أخاه الحسين رحمه الله سأله عمن سقاه السم ، فأبى أن ينبئه به مخافةَ أن يقتص منه بغير حجة قاطعة عليه . يئس الحسن من الحياة وكره أن يلقى الله وقد اقتص له بالشبهة ، فآثر أن يَكل هذا القصاص إلى الله عز وجل .

وبعض المؤرخين يزعم أن جَعدة بنت الأشعث بن قيس زوج الحسن هى التى اختارها معاوية لتدسَّ السم للحسن فى بعض شرابه أو طعامه ، ورشاها فى ذلك بمائة ألف دينار . ومنهم من يزعم أنه وعدها بأن يتخذها لنفسه زوجاً . فلما مات الحسن وفى لها معاوية بالمال وكره أن يتزوجها ، مخافةَ أن تفعل به ما فعلت بالحسن . والتكلف فى هذه الرواية ظاهر ، ذهب بها أصحابها إلى ما عُرف من كيد الأشعث ابن قيس لعلىّ فأرادوا أن تكون ابنته هى التى كادت للحسن حتى أوردته الموت .

وبعض المؤرخين يرون أن معاوية لم يُبعد فى الاختيار بين زوجات الحسن ، وإنما اختار لسمّه قرشية هى هند بنت سهيل بن عمرو ، ذلك الذى سفر عن قريش إلى النبى فى صُلح الحُديبية .

ولست أقطع بأن معاوية قد دس إلى الحسن منْ سمّه ، ولكنى لا أقطع كذلك بأنه لم يفعل ، فقد عُرف الموت بالسم فى أيام معاوية على نحو غريب مريب . مات الأشتر — فيما يقول المؤرخون — مسموماً فى طريقه إلى ولاية مصر ، فخلصت مصر لمعاوية وقال معاوية وعمرو : « إن لله لجنداً من عسل » . ومات عبد الرحمن بن خالد بن الوليد مسموماً بحمْص فى خبر طويل . ومات الحسن بين هذين الرجلين مسموماً كذلك فى أكبر الظن ، وخلصت الخلافة لمعاوية وابنه يزيد .

وما ينبغى أن يُذكر أمر الحسين بن علىّ ، فإن الحسين لم يكن قد نصب نفسه للبيعة ولم يكن إماماً للمسلمين ، ولم يكن معاوية قد صالحه ولا وعده ولا شرط له . ومع ذلك فقد همّ معاوية أن ينحىّ الحسين عن مكانه شيئاً لتخلص له الطريق من ابنى فاطمة وسبطى النبى . فقال ذات يوم لعبد الله بن عباس ممازحاً وهو

يريد الجد : « أنت سيد قومك بعد الحسن » ، ولكن عبد الله بن عباس لم ينخدع له وإنما أجابه فى صرامة : « أمّا وأبو عبد الله حيّ فلا » .

ومع ذلك فلم يتردّد معاوية — كما سترى — فى أن يبايع بولاية العهد لابنه يزيد ، وأكره الحسين كما أكره غيره من شباب المهاجرين على أن يسكتوا عن هذه البيعة ، التى كانوا ينكرونها فى أنفسهم أشد الإنكار .

ومهما يكن من شىء فقد صارت رياسة الشيعة إلى أبى عبد الله الحسين بن علىّ رحمه الله ، بعد وفاة أخيه .

وكان الاختلاف بين هذين الأخوين فى الطبع والمزاج والسيرة شديداً ، كان الحسن كما رأيت صاحب أناة ورفق ، كرّها إليه الحرب وسفك الدماء وحملاه على أن يؤثر السلم ويترك خلافة تكلفه مثل ما كلفت أباه من أهوال الحرب .

وكان الحسين كأبيه صارماً فى الحق لا يحب الرفق ولا الهوادة ولا التسامح فيما لا ينبغى التسامح فيه . كره صلح أخيه وهمّ أن يعارض ، فأنذره أخوه بأن يشده فى الحديد حتى يتم الصلح .

وكان الحسين يعيب الصلح لأنه إنكار لسيرة أبيه . ثم لم يكن الحسين مِزْواجاً مطلاقاً ، ولم يكن ميسّراً على نفسه فى أمر الدنيا ، ولا متبسطاً فى الحديث ، ولا متحبباً إلى الناس ، وإنما كان صارماً على نفسه صارماً على غيره ، يتجرع مرارة الصبر على ما لا يحب ، رأى الوفاء لأخيه حقّاً عليه فوفى له وأطاعه كما أطاع أباه من قبله . وما أشك فى أنه أثناء هذه السنين ، التى قضاها فى المدينة بعد صلح أخيه ، كان يتحرّق تشوقاً إلى الفرصة التى تتيح له استئناف الجهاد من حيث تركه أبوه .

وقد أتيحت له هذه الفرصة شيئاً ما حين صارت إليه رياسة الشيعة . وأقول : شيئاً ما ، لأن الفرصة لم تُتح له كاملة ، فقد أصبح سيد قومه ورئيس حزبه ، ولكنه بايع معاوية وما كان له أن ينقض بيعته أو ينحرف عما أعطى على نفسه من العهد والميثاق .

وكان الحسين صاحب فطنة ، حسن النظر فى الأمور ، رأى الدولة منقادة لمعاوية قد ضُبطت له أمصارها ، وعرف هو كيف يسوس الناس بالحلم والرفق والسخاء ، وكيف يولى فى الأمصار مَن يسوسون أهلها بالقسوة الصارمة والخوف المخيف ، فلم يحاول الخروج حين أتيحت له الفرصة بما كان من نقض معاوية لما بايع الناسَ عليه ، من الأخذ بكتاب الله وسنة رسوله .

وقد نقض معاوية هذه البيعة ما فى ذلك شك ، ونقضها مرتين : إحداهما حين

قتل من قتل من أهل الكوفة كما سنرى ، والثانية حين بايع بولاية العهد لابنه يزيد ، وجعل الخلافة وراثة ينقلها لابنه كما ينقل إليه ماله ، مع أن أمر الخلافة ليس ملكاً خاصاً للخليفة ، وإنما هو ملك عام لجماعة المسلمين .

وكان إسراف معاوية فى أموال المسلمين وتوليته الجبابرة على الأمصار ، وإسراف أولئك الجبابرة فى أموال الناس ودمائهم ، كل ذلك كان نقضاً منه للبيعة التى أعطاها للناس ، تبرئ ذمة الحسين لو أراد الخروج .

وقد همت عائشة نفسها أن تخرج بعد قتل من قتل معاوية من أهل الكوفة ، ولكنها أشفقت أن تثير فتنة عقيماً كالتى أثارتها حين خرجت مع صاحبيها مطالبة بدم عثمان ، فكفّت نفسها عن الخروج .

وقد رأى الحسين أن الأمر لا يستقيم له إن هم بالثورة فصبر نفسه على ما تكره . ولكنه غيّر سياسة أخيه التى ساس بها الحزب ، فأطلق لسانه فى معاوية وولاته حتى أنذره معاوية ، ثم أغرى حزبه بالاشتداد فى الحق والإنكار على الأمراء ففعلوا .

وكانت الكوفة خاصة مركزَ المعارضة العنيفة لمعاوية وعامله زياد .

ونلاحظ أن آثار هاتين السياستين ظاهرة أشد الظهور ، فلم يُؤْذ الشيعة فى أنفسهم ولا فى أموالهم ما عاش الحسن ، كانوا يعارضون فى لين وينكرون فى رفق ، وكان معاوية وولاته يسمعون منهم ويكفون عنهم ، وربما استصلحوهم بالقول والعمل . فلما صار أمر الشيعة إلى الحسين عنفت المعارضة وكادت تصبح ثورة فى الكوفة ، فلقيها معاوية وولاته بالشدة بل بالإسراف فى الشدة ، حتى تجاوزوا فى قمعها كل حد معقول .

وكانت سياسة الحسين مقوية للشيعة ومضعفة لها فى وقت واحد . كانت مضعفة لها لأنها جرّت على كثير من أنصار أهل البيت محناً قاسية . وكانت مقوية لها لأنها جعلت الشيعة مضطهدين أشد اضطهاد وأقساه .

وليس شىء من سياسة الناس يروّج للآراء ويغرى الناس باتباعها كالاضطهاد

الذى يعطف القلوب على الذين تُلم بهم المحن ، وتصبّ عليهم الكوارث ، وتُبسط عليهم يد السلطان ، والذى يصرف القلوب عن هذا السلطان الذى يدفع إلى الظلم ويُمعن فيه ، ويُرهق الناس من أمرهم عسراً .

ولذلك عظم أمر الشيعة فى الأعوام العشرة الأخيرة من حكم معاوية . وانتشرت دعوتهم أى انتشار فى شرق الدولة الإسلامية وفى جنوب بلاد العرب . ومات معاوية حين مات وكثير من الناس وعامة أهل العراق بنوع خاص يرون بُغض بنى أمية وحب أهل البيت لأنفسهم ديناً .

ولم يكن لين الحسن وشدة الحسين هما وحدهما مصدرَ ما أصاب الشيعة فى العراق من يسر وعسر ، وإنما أعان ولاةُ معاوية فى العراق على الأمرين جميعاً . فأما البصرة فكانت عثمانية ، وقد رأيت من أمرها ما رأيت ، وعرفت أنها لم تستقم لعلىّ إلا كارهة . وأما الكوفة فكانت موطن الشيعة ومستقر دعوتهم .

وقد ولى أمر هذين المصرين ، بعد أن استقام الأمر لمعاوية ، رجلان لم يُحبا العنف ولم يذهبا إليه . ولى البصرة عبدَ الله بن عامر فاستأنف فيها سيرته أيام كان عاملا لعثمان . نظر إلى نفسه ولم ينظر إلى الناس ، فجمع من المال ما استطاع أن يجمع ، وأرسل للناس أعنّتهم يخبّون فى الشر ويُوضعون. وكانت الفتن قد غيّرت من أخلاقهم ، وطرأ عليها كثير من الأعراب ، وكثر فيها الموالى ، ونشأ فيها جيل جديد مختلط ، ففشا فيهم الفسق ، وفسد أمر السلطان ، وسقطت هيبة الوالى فى نفوسهم ، لأنه كان مشغولا عنهم بنفسه ، ولأنه كان فيما زعم يتألف الناس ويكره أن يقطع يد سارق ، ثم يرى أخاه أو أباه بعد ذلك . وأقام على هذه السياسة حتى عُصى السلطان جهرة ، وفزع أهل المصر إلى معاوية فعزله عنهم ، فى قصة طويلة .

وولّى على البصرة عاملا آخر لم يُقم فيها إلا شهراً ثم عزله، وولى زياداً كما سترى . فحارب الشر بالشر ، وأزال نكراً ليضع مكانه نكراً آخر .

وكان عامل معاوية على الكوفة رجلا آخر داهية من دواهى العرب هو المغيرة ابن شعبة . وأمر المغيرة بن شعبة غريب كله ، اختلط فيه الخير بالشر حتى أصبح مشكلة من المشكلات . غدر فى شبابه بجماعة من أهل الطائف ، قتلهم جميعاً بعد أن سقاهم حتى ذهبت الخمر بعقولهم وناموا لا يعقلون ، فوثب عليهم فقتلهم . وكانوا اثنى عشر أو ثلاثة عشر رجلا . ولم يستطع أن يعود إلى وطنه فى الطائف ، فاستاق مالا كثيراً كان هؤلاء الناس قد قدموا به من مصر ، فمضى به حتى أتى المدينة فأسلم وعرض ما ساق من المال على النبى فأبى أن يقبله ، لأنه نتيجة الغدر وليس فى الغدر خير . وسأله المغيرة عن مصيره ، وقد أسلم بعد أن فعل فعلته تلك ،

فقال له النبي : « إن الإسلام يجُبُّ ما قبله» وقد نصح للنبيّ بعد ذلك وتعرض لأخطار كثيرة فى حرب الردّة وفى فتح الشام ، حتّى فقد إحدى عينيه فى وقعة اليرموك . ثم شارك فى فتح فارس فأبلى أحسن البلاء . وقد أمّره عمر على البصرة . وكأن إسلامه لم يكن عميق الأثر فى نفسه ، فقد شهد عليه نفر بالزنى عند عمر ، وأوشك عمر أن يقيم عليه الحد ، لولا أن لجلج أحد الشهود وهو زياد . فأقيم حدّ القذف على الشهود الآخرين وعُزل المغيرة عن البصرة . ولكن عمر ولاه الكوفة بعد ذلك . أقام عاملا عليها حتّى قتل عمر ، واستبقاه عثمان على عمله وقتًا قصيراً ثم عزله. وقد اعتزل الفتنة . أو قل اعتزل أول الفتنة ، فلم يشارك فى الثورة بعثمان ولم يبايع عليًّا ولم يشهد الجمل ولا صفّين ، ولكنه شهد اجتماع الحكمين . وعسى أن يكون قد لعب فى هذا الاجتماع بعض اللعب . فلما تفرق الحكمان استبان له أن الدنيا قد أدبرت عن علىّ ، فأظهر الاعتزال فيما كان يرى من سيرته ، ولكنه مال إلى معاوية ميلاً واضحاً . فلما قتل علىّ كان من أسرع الناس إلى معاوية ، وأقبل معه من الشام حتّى دخل الكوفة ، فشهد فيها صلح الحسن وبيعة الناس لمعاوية ، واختطف ولاية الكوفة اختطافًا ، فيما يقول المؤرخون . فقد روى أن معاوية همّ أن يولى على الكوفة عبدَ الله بن عمرو بن العاص ، أو يولى على الكوفة عمراً ويجعل ابنه على مصر ، فقال له المغيرة بن شعبة : وتقيم أنت بين فكّى الأسد، هذا فى العراق وهذا فى مصر ! فعدل معاوية عن رأيه وجعل المغيرة والياً على الكوفة .

وزعم الرواة أن عمراً عرف كيد المغيرة فجزاه بمثله. قال لمعاوية : تجعل المغيرة على الخراج ؟ هلاّ وليت رجلا آخر عليه يكون أقدر على جمع الخراج وضبطه ؟ . وعرّض له بأن فى المغيرة ضعفًا للمال. فاكتفى معاوية بتولية المغيرة على الحرب والصلاة وجعل الخراج على غيره . ولّى عمرو المغيرةَ : فقال له : هذه بتلك .

وكانت سياسة المغيرة للكوفة كسياسة عبد الله بن عامر للبصرة ، نظر فيها المغيرة إلى نفسه أكثر مما نظر إلى غيره ، فرفق بالناس وأسمح لهم ، وترك لمعارضى بنى أمية من أنصار علىّ ومن الخوارج قدراً حسناً من الحرية .

وكان معاوية قد تقدم إليه فى أن يتعقب أنصار علىّ ويشدّد عليهم ، فكان يلائم بين ما أراد معاوية وبين ما كان هو يحب من العافية . وأمْره وأمْر عبد الله

ابن عامر أيسر مما ظن المؤرخون ، كلاهما ولى الأمصار للخلفاء السابقين ، فتعود فى سياسة الناس سيرة من الرفق والدعة والأناة ، لم يكن من اليسير عليه أن يخالف عنها .

ومعاوية بعد ذلك رجل من أصحاب النبى ، فكان من الطبيعى أن تكون سياسته وسياسة ولاته على الأمصار للناس فى حياتهم اليومية شبيهة إلى حد بعيد بسياسة الخلفاء والولاة من قبلهم . وقد كانت كذلك فى مصر أيام عمرو بن العاص وابنه عبد الله . وكانت كذلك فى مصرى العراق ، إلا أن الناس أحدثوا أحداثاً لم تكن ، كما قال زياد . فأحدث معاوية وولاته لهذه الأشياء سياسة تلائمها. ولم تتغير سيرة المغيرة فى الخوارج من أهل الكوفة ، وإنما سار فيهم سيرة علىّ . تركهم أحراراً يلقى بعضهم بعضًا ويجتمعون ويتذاكرون أمرهم ، وأبى أن يعرض لهم إلا أن يحدثوا شرًّا ، أو يبادوه بعداوة .

وكان المغيرة أشد احتياطاً من علىّ ، فكان له من يُعلمه علم الخوارج ، وكان يحاول أن يمنع خروجهم قبل وقوعه . وربما دفعه ذلك إلى أخذهم أثناء اجتماعاتهم وإلقائهم فى السجن . فإذا خرجت منهم خارجة ونصبت له الحرب ، أو أفسدت فى الأرض ، أرسل إليها من أهل الكوفة من يقاتلها حتى يكفيه شرها .

وكانت سيرته فى الشيعة أيسر من ذلك وأسمح ، لم يعرض لهم بمكروه وربما بادوه بالكلام القاسى الغليظ فنصح لهم ورفق بهم ، وحبب إليهم العافية ، وخوفهم بطش السلطان ، ثم لم يؤذهم بعد ذلك فى أنفسهم ولم يرزأهم من أموالهم شيئاً .

وقد انتفع الشيعة بهذه السياسة الرفيقة فنظّموا أمورهم ، وعارضوا سياسة الأمويين معارضة حرة ، كان معاوية يكرهها ولكنه لم يكن يجد على أصحابها سبيلا . وقد أقام المغيرة والياً على الكوفة لمعاوية عشر سنين . لم ينكر الشيعة فيها منه شيئاً ذا خطر إلا أن يكون عيبه لعلىّ . وقد كان مضطرًّا إلى ذلك بحكم السياسة الجديدة . وكانت الشيعة تلقى ذلك منه بالإغضاء مرة وبالنكر مرة أخرى .

وقد حرص المغيرة أشد الحرص على أن يُرضى معاوية عن نفسه ليستديم ولايته على الكوفة . توسط بين معاوية وزياد حتى ضمن الأمان من معاوية لزياد ، وضمن الطاعة من زياد لمعاوية . وعسى أن يكون له أثر فيما كان من استلحاق

زياد ، فأدى بذلك حق زياد ، وعرف له ما قدم إليه من جميل حين لجلج فى الشهادة بين يدى عمر فأعفاه من الحد . ثم هو بعد ذلك قد أرضى معاوية حين أراحه من كيد زياد له ومكره به ، وحين حول زياداً من العدو الكائد الماكر إلى الولى الناصح الأمين . وألقى المغيرة فى نفس معاوية فكرة ولاية العهد . ولعل معاوية لم ينتظر بهذه الفكرة مشورة المغيرة . ولكن المغيرة جرّأه على التفكير فيها والجهر بها . وضمن له أهل الكوفة . وألقى هذه الفكرة نفسها فى قلب يزيد ، ففتح له أبواباً من الطمع لعلها لم تكن تخطر له على بال .

وكذلك عاش المغيرة هذه الأعوام العشرة مستريحاً مريحًا ، أرضى السلطان وأرضى الرعية وأرضى نفسه ، وإن لم يكن إرضاء نفسه يسيراً . فقد كان صاحب لذة ومسرفًا على نفسه وعلى الناس ، كثير الزواج كثير الطلاق ، لم يكن يتزوج واحدة واحدة ويطلق حين يجتمع له أربع زوجات وحين يريد أن يستزيد ، وإنما كان كثيراً ما يطلق أربعًا ويتزوج أربعًا ، حتى أسرف المؤرخون عليه بعد ذلك. فزعم المكثرون أنه تزوج ألف امرأة فى حياته الطويلة . وزعم المقللون أنه تزوج مائة أو تسعًا وتسعين . وتوسط المعتدلون فزعموا أنه تزوج ثلثمائة . وليس من شك فى أنه كان يؤدى إلى هؤلاء الزوجات مهوراً . وليس من شك كذلك فى أنه كان يُرضى كثيراً منهن عن الطلاق السريع . وما أحسب أن ثروته الخاصة كانت تقوم له بهذا السرف الكثير .

فحياة المغيرة كما ترى كانت خليطًا من العمل الصالح والعمل السيئ ، وأمره وأمرها بعد ذلك إلى الله . ولكن المهم هو أن سياسته ، حين ولى الكوفة لمعاوية ، قد يسرت للشيعة أمرها تيسيراً ، حتى كان أهل الكوفة يذكرونه بالخير كلما بلوا بعده قسوة الأمراء .

٤٨

ولكن الأمور تتغير فى البصرة حين يليها زياد سنة خمس وأربعين . ثم تتغير فى الكوفة حين يُضاف أمرها إلى زياد بعد موت المغيرة سنة خمسين . ولم تكن حياة زياد أقلّ غرابة من حياة المغيرة ، كما لم يكن زياد نفسه أقلّ ذكاء ودهاء ، ولا أدنى مكراً وكيداً من المغيرة . بل المحقق أنه قد تفوّق على المغيرة فى هذا كله .

وكان زياد ذا شخصيتين مزدوجتين ، عاش بأولاهما أيام الخلفاء الراشدين ، وعاش بالثانية بعد أن صالح معاوية . وكانت الشخصيتان متناقضتين إلى أقصى حدود التناقض وأبعد غاياته . كان راشداً حين عمل للخلفاء الراشدين ، وكان طاغية جبّاراً حين عمل لمعاوية . وكان يرى نفسه فى الحالين ناصحاً للمسلمين . وكان يظن أثناء طغيانه أنه أحيا سياسة عمر . ولكن سياسة عمر أصلحت الناس ، وسياسة زياد أيامَ معاوية ملأت حياة الناس وقلوبهم شرًّا ونكراً وفساداً .

وكان زياد أيام الخلفاء الراشدين رجلا من موالى ثقيف ولدتْه أمَةٌ للحارث ابن كَلَدة ، هى سُمية . ولعلها كانت فارسية أو هندية . فأما أبوه فقد كان عبداً روميًّا لصفية بنت عبيد ، زوج الحارث بن كلدة أيضاً . وكان اسمه العربىّ عُبيد . فقد كان زياد إذاً مولى لآل الحارث بن كلدة من ثقيف . وكان حدَثاً أيام النبى ، فقد وُلد — فيما يقال — عام الهجرة أو بُعيد الهجرة بقليل . ومن الناس من يقول عام الفتح .

وقد سار إلى العراق فيمن سار إليه مع عُتبة بن غَزْوان . وكان عتبة قد تزوج بنت الحارث بن كلدة ، وامرأته صفية . فأقام مع مواليه الذين شاركوا فى الفتح . ومضى أمره كما استطاع أن يمضى ، لا نعلم من أمر صباه وشبابه الأول شيئاً . ولكنا نراه كاتباً لأبى موسى الأشعرى حين كان أميراً على البصرة . ونراه رسولا إلى عمر ببعض الحساب . ونقرأ أن عمر قد أعجب بذكائه وفصاحته وحفظه للعدد وتصرفه فيه . وقد أمره أن يعرض الحساب على الناس كما عرضه عليه ، ففعل . وأعجب هؤلاء العرب من أصحاب النبى بهذا الفتى الفصيح الجرىء الذى يلعب

بالأرقام لعباً لا عهد لهم به ، ولم يُخف عمر هذا الإعجاب .

ويزعم بعض الرواة أن أبا سفيان همس فى ذلك اليوم بأن زياداً ابنه ، ولم يجهر بذلك مخافة عمر . وأكبر الظنّ أن هذا الخبر اختُرع بأخرة .

والمؤرخون يحدثوننا بأنّ عمر أعطى زياداً ألف درهم ، فلما عاد إليه من قابل سأله : ماذا صنعت بالألف ؟ قال : اشتريت بها أبى عُبيداً فاعتقته .

فقد عرف عمر إذاً أن لزياد أباً هو عُبيد . وكان عُبيد هذا من الخمول بحيث لا يكاد الناس يعرفونه . فكانوا يُضيفونه إلى أمه فيقولون : زياد بن سُمية . وربما لم يُضيفوه إلى أمه ولا إلى أبيه فقالوا : زياد الأمير . وربما قال خصومه ومعارضوه من الشيعة والخوارج بعد عمله لمعاوية : زياد بن أبيه .

وقد ظل زياد فى البصرة يكتب لأمرائها أيام عمر وعثمان ، فلما كان يوم الجمل وانتصر علىّ سأل عن زياد ، فانبئ بأنه مريض ، فعاده . واستبان استعداده للنصح له ، فهمّ علىّ أن يوليه البصرة ، ولكن زياداً أشار عليه أن يجعل على هذا المصر رجلاً من أهل بيته يهابه الناس ويطمئنون إليه ، وذكر له ابنَ عباس ، فولاه علىّ . وعمل زياد لعبد الله بن عباس كما عمل للولاة من قبله . فلما انصرف ابن عباس عن البصرة ، فى قصته تلك التى ذكرناها آنفاً ، قام زياد مقامه وأحسن الحيلة والبلاء فى الاحتفاظ بهذا المصر لعلىّ ، على رغم ما كاد معاوية لانتزاعها منه .

ولما قُتل على واستبان أن الأمر صائر إلى معاوية تحوّل زياد إلى فارس . وكان قد استصلحها وأحبّه أهلها . فاعتصم بقلعة هناك عُرفت باسمه فيما بعد ، وظل ينتظر حتى إذا استقام الأمر لمعاوية وبايعت له جماعة الناس . وكان زياد وحده متربِّصاً فى قلعته تلك يكره أن ينزل على حكم معاوية ، أو أن يدخل فيما دخل فيه الناس ، دون عهد من معاوية له بالأمان . وكان معاوية ضيِّقاً بمكان زياد فى قلعته تلك . كان يعلم مكره وكيده وبُعد غوْره فى الدهاء وسعة حيلته ، وكان يعلم أن عنده مالا كثيراً ، وأن له أنصاراً يتعصبون له من أهل فارس . وكان يكره أن ينتقض عليه وأن يبايع لرجل من أهل البيت ، فيفسد عليه الجماعة ويُخرجه من العافية إلى الحرب وسفك الدماء . وكانت لزياد يدٌ عند المغيرة

ابن شُعبة سبقت إليه أيام عمر، حين لَجلَج زياد فى الشهادة فأعفاه من الحدّ. فتوسط المغيرة بين معاوية وبين زياد حتى أصلح بينهما، وأخذ لزياد ما أراد من الأمان. وقنع منه معاوية بمال قليل أداه إليه مما كان عنده من الخراج، وأذن له معاوية فى أن ينزل من بلاد المسلمين حيث يشاء، فإن أحب العراق أقام فيها، وإن أحب الشام تحول إليها.

ولأمرٍ ما خطر لزياد أو لمعاوية أو للمغيرة أن يتصل نسبُ زياد ببنى أمية وبأبى سفيان خاصة، كأن أبا سفيان قد عرف سُمية فى بعض زيارته للطائف.

ويقال إن زياداً احتال حتى دس إلى معاوية من زعم له أن أهل العراق ينسبون زياداً إلى أبى سفيان. فانتهز معاوية هذه الفرصة ودعا إليه زياداً، ثم جمع الناس، فشهد الشهود بأن أبا سفيان قد عرف سُميّة. واكتفى معاوية بذلك، فألحق زياداً بأبى سفيان وجعله أخاه.

وواضح جداً ما فى هذا الاستلحاق من التكلف والاحتيال. وقد أنكره الصالحون من المسلمين، حين أعلنه معاوية. وحرص عليه زياد أشد الحرص، وغضب له موالى زياد من بنى ثقيف.

ويحدثنا البلاذرىّ بأن معاوية أرضى سعد بن عبيد أخا صفية عن هذا الاستلحاق بما أعطاه من المال. ولكن يونس بن سعد لم يرض وأراد أن يصل إلى معاوية ليحاجه فى هذا الاستلحاق، فلم يستطع الوصول إليه. فلما حضرت الصلاة من يوم الجمعة ذهب يُونس إلى المسجد وقطع على معاوية خطبته قائلاً له:

« اتق الله يا معاوية، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى بأن الولد للفراش وللعاهر الحجر، وأنت قد جعلت للعاهر الولد وللفراش الحجر، وإن زياداً عبدُ عمّتى وابن عبدها، فاردد إلينا ولاءنا ». فقال له معاوية: والله يا يونس لتكفّن أو لأطيرنّ بك طيرة بطيئاً وقوعها. قال يونس: أليس المرجع بعدُ بك وبى إلى الله عز وجل.

وقال الشاعر فى ذلك:

وقائِلةٍ إمّا هلكت وقائل ... قضى ما عليه يونس بن عبيد
قضى ما عليه ثم ودّع ماجداً ... وكلّ فتى سَمح الخليقة مُودى

وقال يزيد بن مفرّغ يعيب معاوية بهذا الاستلحاق فيما زعم الرواة :

ألا أبلغ معاوية بن حرب مُغَلْغَلَةً عن الرجل اليمانى
أتغضب أن يُقال أبوك عفٌّ وترضى أن يقال أبوك زانى

وكان معاوية شديد الإيثار لزياد ، لا يحتمل أن يقول فيه أحد ما يكره ، حتّى عرف ذات يوم أن عبد الله بن عامر عاب زياداً وقال فيما قال : لهممت أن أجمع خمسين رجلا من قريش يحلفون بالله ما عرف أبو سفيان سُميّة. فغضب معاوية لذلك أشد الغضب وقال لحاجبه : « إذا جاء عبد الله بن عامر فاضرب وجه دابته عن أقصى الأبواب » . لم يكتف بأن يحجبه وإنما منعه من دخول القصر . وقد أنفذ الحاجب أمر معاوية ، وضاق عبد الله بن عامر بهذه الجفوة . فشكا أمره إلى يزيد ، وتوسط يزيد . فلم يرض معاوية عن عبد الله إلا بعد أن ذهب إلى زياد فاعتذر إليه وأرضاه . ومكان عبد الله بن عامر من عثمان ومن معاوية معروف .

ولم يكن زياد أقل حرصاً على نسبه الجديد من معاوية ، حتّى روى المؤرخون أن رجلا أتى عبد الرحمن بن أبي بكر ، وطلب منه أن يكتب فى حاجة له إلى زياد . فكتب عبد الرحمن ولم ينسب زياداً إلى أبي سفيان . فأبى الرجل أن يذهب بالكتاب إلى زياد . وجاء عائشةَ أم المؤمنين فكتبت له : « من عائشة أم المؤمنين إلى زياد بن أبي سفيان » . فلما رأى زياد هذا الكتاب قال للرجل : إذا كان الغد فاحضُر . فلما حضر الرجل أمر زياد بالكتاب فقرئ على الناس . وإنما أراد بذلك إلى أن يعلم أهل البصرة أن أم المؤمنين قد اعترفت بنسبه هذا الجديد .

وكان أبو بكرة صاحب رسول الله أخا زياد لأمه ولدته سُميّة للحارث بن كَلَدَة ، ولكن الحارث نفاه ، فظل عبداً . فلما كانت غزوة الطائف نزل فيما نزل من العبيد إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فأعتقه فيمن أعتق من هؤلاء العبيد وقال عنه : « إنه طليق الله وطليق رسوله » . فكان أبو بكرة يقول : إنه مولى رسول الله .

وقد وجد أبو بكرة على زياد حين لجلج فى الشهادة بين يدى عمر ، فصرف الحدّ عن المغيرة وعرض أبا بكرة لحد القذف . فلما عرف سعى زياد فى الاستلحاق وتدبير معاوية له ، نهاه عن ذلك وحرّج عليه فيه . فلم يسمع له زياد . فلما

تمّ الاستلحاق حلف أبو بكرة لا يكلمه أبدًا ، ثم لم يكلمه حتى مات .

وكان أبو بكرة يحلف – فيما زعم الرواة – ما كانت سمية بغيًّا ولا عرفت أبا سفيان .

وبلغه ، فيما يقول البلاذرى ، أن زياداً طمع بعد الاستلحاق فى أن يحج ، وكأنه أراد أن يكون أمير الحج . وقد استأذن معاوية فى الحج فأذن له . فأقبل أبو بكرة حتى دخل على زياد وعنده بعض بنيه ، فوجّه الحديث إلى أحد بنيه وهو يسمع ، فقال : إن أباك هذا أحمق ، قد فجر فى الإسلام ثلاث فجرات . أولاهن كتمان الشهادة على المغيرة ، والله يعلم أنه قد رأى ما رأينا . والثانية فى انتفائه من عبيد وادعائه إلى أبى سفيان . وأقسم إن أبا سفيان لم يرَ سُمية قط . والثالثة أنه يريد الحج ، وأم حبيبة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم هناك ، وإن أذنت له كما تأذن الأخت لأخيها فأعظمْ بها مصيبةً وخيانة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وإن هى حجبته فأعظمْ بها عليه حجة . فقال زياد : ما تدع النصح لأخيك على حال . وعدل عن الحج فى هذا العام ، واستعفى معاوية منه فأعفاه ، وانتظر بالحج ، فلم يأت الحجازَ حتى ماتت أم حبيبة يرحمها الله .

٤٩

وقد لقى معاويةُ وزياد فى هذا الاستلحاق شططًا ، فأما معاوية فقد احتاج إلى أن يعنِّف بقومه، من بنى أمية خاصة ومن قريش عامة ، ليُدخل عليهم هذا النسب الجديد . وما أراهم احتملوا منه ذلك إلا خوفاً من بطشه أو رغبة فى ماله . وكثير منهم أظهر القبول وأضمر الإنكار . وكثير منهم تحفظ فلم يستطع أن ينسب زياداً إلى أبى سفيان ، فاكتفى بذكر اسمه أو نسبه إلى أمه سُمية .

وأما زياد فقد لقى الشطط كل الشطط يوم أعلن هذا الاستلحاق بمشهد من الجماعة فى دمشق ، فقد أجلسه معاوية على المنبر إلى جانبه . ثم دعا من شهد على سُمية بأنها عرفت أبا سفيان معرفة الإثم ، وسمع فى أمه ما لا يحب الرجل الكريم أن يسمع فى أمه . وبلغ من ضيقه بذلك أن خرج عن طوره فقال لبعض الشهود : لا تشتم أمهات الرجال فتُشتم أمك . وقال لبعضهم الآخر : إنما دُعيت شاهداً لا شاتماً . وهو على ذلك قد رضى بهذا الاستلحاق كل الرضى ، بل سعى فيه فأحسن السَّعى . وهو قد خطب فى البصرة فحمد الله الذى رفع منه ما وضع الناس، كأنه رأى انتسابه إلى رجل من أشراف قريش أرفع وأعظم خطراً من انتسابه إلى عبد رومى . فكيف وهذا الرجل من أشراف قريش ، هو أبو معاوية الذى صار إليه سلطان المسلمين .

وهذا أول تغير ظاهر فى سيرة زياد ، وأول جهْر منه بما لم يألفه المسلمون أيام النبى والخلفاء . فقد قام الإسلام كما عرفت على التسوية بين السادة والعبيد ولم يفرق بين الناس إلا بالتقوى .

والغريب من أمر زياد أنه خطب الناس خُطبته تلك البتراء ، فقال فيها كما سترى : « وإياى ودعوى الجاهلية . فإنى لا أوتَى برجل دعا بها إلا قطعتُ لسانه » : وهو أول من دعا بدعوى الجاهلية ، بل عسى أن يكون هو ومعاوية أول من انحرف عما شرع الإسلام وأمر به القرآن وأكدته السنة تأكيدًا ، وعاد إلى عُرف جاهلى غيَّره الدين الجديد .

فقد ينبغى أن نقف وقفة تأمل واستقصاء عند هذا الاستلحاق الذى فرضه سلطانُ معاوية على المسلمين فرْضـًا.وأول ما نلاحظ من ذلك أن فى هذه السيرة ، التى رواها المؤرخون والمحدثون لزياد ، شيئـًا من النقص وكثيرًا من الغموض. فقد وُلد زياد عبداً للحارث بن كلدة ، الذى كان يملك أمه سُمية أو كان أبوه عبداً لصفية زوج الحارث كما رأيت ، ونحن لا نرى زياداً فى التاريخ الذى حُفظ لنا إلا حُراً . فمتى عتق ؟ أو من أعتقه ؟ وأين كان هذا العتق . وهو نفسه قد أنبأ عُمر ، حين أعطاه ألفاً ثم سأله عنها من قابل ، بأنه اشترى بها عُبيداً أباه فأعتقه ، فلم يصر عُبيد إذاً إلى الحرية إلا بأخرة . فهل صار زياد إليها قبل أبيه . كل هذه أمور لم يقف عندها المؤرخون والمحدّثون . وهى مع ذلك أيسر ما فى سيرة زياد من الغموض .

والمشكلة العسيرة حقـًّا فى هذه السيرة هى مشكلة الاستلحاق ، فقد نُحب أن نعلم على أى أصل من أصول الدين أو الدنيا قام هذا الاستلحاق .

فأما الدين فنحن نعلم أن للتبنّى شروطـًا قررها الفقهاء ، أولها أن يكون الذى يقع عليه التبنى من السن بحيث يمكن أن يولد لمن وقع منه هذا التبنى ، أى أن يكون الفرق بينهما فى السن ملائمـًا لما يكون بين الآباء والأبناء من اختلاف الأسنان ، وليس من شك فى أن زياداً كان أصغر من أبى سفيان . وكان يمكن أن يكون له ابناً . الشرط الثانى ألا يكون لمن يقع عليه التبنى أب معروف ، فليس ينبغى أن يُدعى الرجل لغير أبيه ، لقول النبى صلى الله عليه وسلم : « من ادعى لغير أبيه متعمدًا حرمت عليه الجنة » . وقد كان لزياد أب معروف ، هو عبيد الرومى ذاك . اعترف بذلك زياد نفسه حين خطب فى مجلس الاستلحاق نفسه فقال : أيها الناس قد سمعتم قول أمير المؤمنين وقول الشهود . ولست أعلم حقّ ذلك من باطله . وهم أعلم بذلك منى . وقد كان عُبيد أباً مبروراً ووالياً مشكورًا .

وقد رأيت من حديث أبى بكرة أخى زياد لأمه أن زيادًا انتفى من عُبيد حين انتسب إلى أبى سفيان . ورأيت كذلك فى حديث أبى بكرة أنه أقسم ما عرف أبو سفيان سُمية قطّ .

فزياد إذاً قد انتفى من أبيه المعروف حين ادعى لأبى سفيان . ومعاوية قد

أراده على ذلك . وليس شيء من هذا لهما بحال من الأحوال .

وهناك شرط ثالث لصحة التبنى ، وهو أن يقبله من يقع عليه التبنى . وقد سعى زياد فى ذلك حتى أغرى معاوية به ورغبه فيه . ولكنه حين أريد على أن يعلن قبوله إلى الناس أعلنه على استحياء وتردد ، كما رأيت فى كلمته التى رويناها آنفاً . والإقرار ببنوة زياد لأبى سفيان لم يصدر بعد بصفة قاطعة عن أبى سفيان نفسه ، وإنما زعم الزاعمون أن أبا سفيان لمح به ولم يجرؤ على إعلانه مخافة عمر . ولكن أبا سفيان عاش صدراً من خلافة عثمان ، يقول المقللون إنه ست سنين ، ويقول المكثرون إنه عشر سنين . وكان عثمان ألين جانباً من عمر ، وكان يظهر لبنى أمية من لين الجانب أكثر مما يظهر لعامة قريش وعامة المسلمين . فلو قد كان أبو سفيان مؤمناً حقاً بأن زياداً ابنه لأقر بذلك أيام عثمان ، إلا أن يكون قد عرف أن هذا الإقرار لا يباح له ، وأن عثمان لا يمكن أن يجيزه ، لأن لزياد أباً معروفاً ، هو عبيد ، ذلك الرومى .

فقد انتظر معاوية باستلحاق زياد أن يموت أبوه ، ثم يستلحقه إثر موت أبيه ، حين كان قريب المكان من عثمان عظيم الشأن فى نفسه ، بل لم يستلحقه فى أيام على حين كان يعمل فى البصرة لعبد الله بن عباس أو حين قام فى البصرة مقام ابن عباس ، بل لم يستلحقه أيام الحسن ، ولم يستعن به على الصلح ولم يفكر فى استلحاقه إلا بعد أن خلص له السلطان من جهة ببيعة الحسن ، وحين امتنع عليه زياد فى فارس من جهة أخرى .

وعسى أن يكون الاستلحاق شرطاً من شروط الصلح بينه وبين زياد . فهو إقرار سياسى ليس المرجع فيه إلى الدين ولا إلى أصل من أصوله ، وإنما المرجع فيه إلى الدنيا وتحقيق مصلحة سياسية ، وهذه المصلحة السياسية واضحة كل الوضوح .

فقد كان زياد أعلم الناس بأهل العراق ، وأقدر الناس على سياستهم وحملهم على الطاعة عن رضى أو عن كره . ولم يكن ذكاؤه ودهاؤه يخفيان على معاوية ، بل لم يكونا يخفيان على أحد ، فقد اصطنعه معاوية إذاً ليكفيه شرق الدولة ، وليستطيع هو أن يفرغ لغربها . ولم يكن بد لصحة هذا الإقرار من أن يقبله إخوة

معاوية ، وسائر من ورث أبا سفيان . وواضح أن هؤلاء لم يكونوا يستطيعون إلا أن يذعنوا طائعين أو كارهين .

وهذا الاستلحاق لمصلحة من مصالح الدنيا قد كان معروفاً فى الجاهلية ، وقد حرّمه القرآن بالآيتين الكريمتين من سورة الأحزاب :

(مَا جَعلَ اللهُ لرجُل من قَلْبَيْن فى جَوْفِه . ومَا جَعَل أزواجَكم اللائى تُظاهرون مِنْهنّ أمهاتِكم . وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحقّ وهُو يهدى السبيل . ادْعُوهم لآبائهم هو أقْسَط عند الله . فإن لم تَعْلَموا آباءهم فإخوانكم فى الدِّين ومَواليكم وليس عليكم جُناح فيما أخطأتم به ولكن ما تَعَمَّدت قلوبُكم وكان الله غفوراً رحيماً) .

وقد اتفق المسلمون على أن هاتين الآيتين قد ألغتا بُنوة زيد بن حارثة من النبى صلى الله عليه وسلم . وكان قد تبنّاه قبل النبوة فى قصته تلك المعروفة، لم يكن يرجو بهذا التبنى مصلحة من مصالح الدنيا، وإنما تبناه حبّاً له وعطفاً عليه وعملا بعُرْف كان مألوفاً عند العرب، وألغت الآيتان كذلك بُنوة سالم من أبى حُذيفة . فعدل الناس عن زيد بن محمد إلى زيد بن حارثة . ولم يعرفوا لسالم أبّا ، ولم يعرف سالم لنفسه أباً . فقال الناس : سالم مولى أبى حُذيفة . وكان أبو بكرة يقول : لا أعرف لنفسى أباً ، فأنا أخوكم فى الدين . وكان ربما قال . : « أنا مولى رسول الله » أو « أنا مولى الله ورسوله » . لأن النبى أعتقه فيمن نزل إليه فى غزوة الطائف من عبيد ثقيف .

وكان هذا النحو من الاستلحاق معروفاً عند الرومان أيضاً . وكان كثير من قياصرتهم يتبنون الرجال ويجعلون إليهم ولاية العهد من بعدهم . ومن يدرى لعل معاوية عرف ذلك فيما عرف من أمر الروم، فلم يستلحق زياداً بنفسه وإنما استلحقه بأبيه ، وجعله من رهطه ، واستعانه على سياسة العراق وما وراءه من الأقطار .

وما أريد أن أدخل فيما أكره الدخول فيه دائماً من القول فى رضى الله عن هذا الاستلحاق أو غضبه عليه ، فأمر ذلك إلى الله وحده . وإنما أحب ألا أتجاوز

السياسة والتاريخ . وقد ألف المسلمون منذ عهد النبي ألا يتبنىَّ رجلٌ مَن كان له أب معروف . أمر بذلك القرآن ، وحرّج النبي فى ذلك على المسلمين أشد التحريج ، كما رأيت فى حديث عبد الله بن عمر وأبى بكرة : من ادعى لغير أبيه متعمّداً حرمت عليه الجنة .

ويزيد أمرَ هذا الاستلحاق تعقيداً أن معاوية لم يُرد إلى الاستلحاق الغامض العام ، وإنما أراد أن يضع النقط فوق الحروف ، كما يقول الناس فى هذه الأيام ، وأن يثبت أن زياداً هو ابن أبى سفيان لصُلبه فأشهد الشهود على أبيه بأنه عرف سُمية فى موطن من مواطن الإثم . وزاد بعضُ الشهود فقال : إنه راود سُمية عن أن تُلم بأبى سفيان . فقالت له : إذا جاء عبيد الرومى من غنمه ووضع رأسه فنام أتيته . فورط معاوية نفسه وورّط زياداً معه فى نُكر عظيم ، وجرأ يونس بن عبيد على أن يقول له : قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الولد للفراش وللعاهر الحجر ، وقد جعلت الولد للعاهر وللفراش الحجر .

فقد خالف معاوية إذاً مخالفة ظاهرة عما ألف المسلمون من حكم دينهم ، وشاركه زياد فى هذه المخالفة . وكان قد بايع المسلمين على أن يعمل فيهم بكتاب الله وسُنة رسوله : فهو بهذا الاستلحاق عمل بغير ما أمر الله ورسوله . فلا غرابة فى أن يرى جماعةً من صالحى المسلمين أن بيعته قد أصبحت لا تلزمهم ؛ وأن يخضعوا له كارهين لا طائعين ، وساخطين لا راضين ، وأن يتربّصوا الدوائر وينتهزوا الفرص ليخرجوا حين يتاح لهم الخروج .

ولم يكد زياد يلي البصرة حتى سار فى الناس سيرة تناقض كل المناقضة سيرته فيهم حين كان عاملا لعلىّ ، وحتى اعتمد فى سياسته لهم على الإرهاب أكثر مما اعتمد على أى شيء آخر .

وليس من شك عندى فى أن مرجع ذلك ليس إلى حاجته وحاجة معاوية إلى ضبط العراق وحمل أهله على الطاعة فحسب ، ولكن إلى عُقدة نفسيّة أدركته وأفسدت عليه أمره بعد الاستلحاق . فهو كان يعرف رأى المسلمين فى نسبه هذا الجديد ، وكان يعرف إنكارهم له واستهزاءهم به ، وكان يعلم أن العرب لا تسخر من شيء كما تسخر ممن يُدعى لغير أبيه . وقد حمله ذلك على أن يسوس الناس بالخوف والذُعر ، ويحول بينهم وبين أن يجمجموا بما فى نفوسهم من نسبه واستلحاقه وسيرته وسيرة معاوية فى أمور المسلمين ، فوفق إلى ذلك أشنع التوفيق وأشدّه نُكْراً . خاض إليه دماء الناس ، وأهدر فى سبيله حقوقهم وكرامتهم ، وأحدث فيهم من ألوان الحكم ما لم يعهدوه من قبل . وزعم كما سنرى فى خطبته ، أن الناس أحدثوا أشياء لم تكن ، وأنه أحدث لكل ذنب عقوبة . ومعنى ذلك أن ما بيّن الله ورسوله للمسلمين من الحدود ، وما ساس به الخلفاء الراشدون أمور الناس ، لم يكن فى رأى زياد كافياً لحمل أهل البصرة وأهل الكوفة على الجادة ، والرجوع بهم إلى الصراط المستقيم .

وقد رأينا بعض هذه الأشياء التى أحدثها الناس بعد أن لم تكن ، والتى استحدث لها زياد عقوبات غير مألوفة . فهو رأى الناس يحرقون الدور على من فيها . فقال : من حرق قوماً حرقناه . وعسى أن يكون زياد قد شارك فى إحداث هذا التحريق فى البصرة ، حتى رضى عن تحريق جارية بن قُدامة للدار التى أوى إليها ابن الحضرمى وأصحابه ، على مَن فيها . ورأى الناس يغرق بعضهم بعضاً فقال : من غرّق قوماً غرقناه . ورأى الناس ينقبُون البيوت فقال : من نقب على

قوم نقبنا عن قلبه . ورأى الناس ينبشون القبور فقال : من نبش قبراً دفناه حياً فيه . وقد كان فى ضبط الأمر بما وضع الله ورسوله للناس من حدود ، وفى التشدد فى هذا الضبط ، ما يغنيه عن الشناعات . ولكنه شرع ألواناً من الحكم العرفى لم يقرها الإسلام ولم يألفها المسلمون ، ثم أسرف على نفسه وعلى الناس ، فعاقب بالموت على دلج الليل ، ولم يقبل لأحد عذراً ، حتى إذا استبان صدقه .

واقرأ إن شئت خطبته تلك ، فسترى أنها أول خطبة جهر فيها أمير من العقوبات بما لم يعرفه الإسلام من قبل ، وبما لم يعرفه أمير من أمراء معاوية فى عصره . ولم يصدق الناس نذير زياد حين سمعوا ، لأنهم أعظموا ذلك . وقدروا أنه لا يريد إلا الإرهاب ، مع أنه قال لهم فى خطبته تلك : « إن كذبة المنبر بلقاء مشهورة ، فإذا تعلقتم على بكذبة فاغتمزوها فى ، واعلموا أن عندى أمثالها » . ولكن الناس رأوا أنه يصدق قوله بفعله ، فيقتل المدلج وإن كان له عذر صادق مقبول ، ويأخذ الجار بالجار والولى بالمولى والبرىء بالمسىء ، ويسرف فى قتل الناس حتى يقول بعضهم لبعض : انج سعد فقد هلك سعيد .

ومات المغيرة بن شعبة سنة خمسين . فعمل زياد حتى ولى الكوفة مكان المغيرة ، وسار فى أهل الكوفة سيرته فى البصرة ، فملأ قلوبهم رعباً ورهباً . وأغربُ من هذا كله أنه ظن أنه يسوس الناس سياسة عمر ، لين فى غير ضعف ، وشدة فى غير عنف ، مع أن أهل العراق لم يروا منه بعد انتسابه فى بنى أمية ليناً أو شدة ، وإنما عرفوا منه عنفاً لا حد له ، وإسرافاً فى الدماء والحقوق لا صلة بينه وبين الإسلام .

ولم يحتمل زياد تبعة أعماله وحدها ، وإنما سن لغيره من أمراء بنى أمية فى العراق ، وللحجاج منهم خاصة ، أشنع السنن وأشدها نكراً . واقرأ خطبته هذه التى أشرتُ إليها غير مرة ، والتى رواها المؤرخون روايات مختلفة ، واقتصر أكثرهم على أطراف منها . ورواها الجاحظ على نحو من الترتيب والتأليف لا يخلو من أثر الصنعة ، ولكنه يصور أدق تصوير سيرة زياد ، شأن الجاحظ فى ذلك شأن غيره من رواة العراق ، فى أكثر ما رووا من خطب هذا العصر الذى نحن بصدده .

قال زياد : « أما بعد . فإن الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء ، والغىّ المُوفى بأهله على النار ، ما فيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام . ينبت فيها الصغير ولا يتحاشى عنها الكبير . كأنكم لم تقرءوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعدّ الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب الأليم لأهل معصيته ، فى الزمن السرمدى الذى لا يزول . أتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا ، وسدّت مسامعه الشهوات ، واختار الفانية على الباقية . ولا تذكرون أنكم أحدثتم فى الإسلام الحدث الذى لم تسبقوا إليه ، من ترككم الضعيف يقهر ويُؤخذ ماله وهذه المواخير المنصوبة ، والضعيفة المسلوبة فى النهار المبصر ، والعدد غير قليل . ألم تكن منكم نهاة تمنع الغُواة من دَلَج الليل وغارة النهار . قرّبتم القرابة وباعدتم الدين . تعتذرون بغير العذر وتغضون على المختلس ، كل امرئ منكم يذب عن سفيهه ، صنيعَ من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاداً . ما أنتم بالحلماء ، ولقد اتبعتم السفهاء ، فلم يزل بكم ما ترون ، من قيامكم دونهم ، حتى انتهكوا حرم الإسلام ثم أطرقوا وراءكم كُنُوساً فى مكانس الريب . حرام علىّ الطعامُ والشراب حتى أسوّيها بالأرض هدماً وإحراقاً . إنى رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله : لين فى غير ضعف ، وشدة فى غير عنف . وإنى أقسم بالله لآخذن الولى بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر ، والمطيع بالعاصى ، والصحيح منكم فى نفسه بالسقيم ، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول : انج سعد فقد هلك سُعيد أو تستقيم لى قناتكم . إن كذبة المنبر بلقاء مشهورة ، فإذا تعلقتم علىّ بكذبة فقد حلت لكم معصيتى ، فإذا سمعتموها منى فاغتمزوها فىّ ، واعلموا أن عندى أمثالها . مَن نقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب منه . فإياى ودلج الليل ، فإنى لا أوتَى بمدلج إلا سفكت دمه . وقد أجّلتكم فى ذلك بمقدار ما يأتى الخبر الكوفة ويرجع إليكم . وإياى ودعوى الجاهلية ، فإنى لا آخذ أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه . وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة . فمن غرّق قوماً غرقناه ، ومن أحرق قوماً أحرقناه ، ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفناه حيًّا فيه ، فكفوا عنى أيديكم وألسنتكم أكفف عنكم يدى ولسانى . ولا تظهر من أحد منكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه . وقد كانت بينى وبين أقوام إحن ، فجعلت ذلك دَبْر أذنى وتحت قدمى ، فمن

كان منكم محسناً فليزدد إحساناً ، ومن كان منكم مسيئاً فليترع عن إساءته . إنى لو علمت أن أحدكم قد قتله السلّ من بغضى لم أكشف له قناعاً ولم أهتك له ستراً حتى يبدى لى صفحته ، فإذا فعل ذلك لم أناظره . فاستأنفوا أموركم وأعينوا على أنفسكم ، فرب مبتئس بقدومنا سيسر ، ومسرور بقدومنا سيبتئس .

أيها الناس . إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ونذود عنكم بفىء الله الذى خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدلُ فيما ولينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا . واعلموا أنى مهما قصرت عنه فلن أقصر عن ثلاث : لست مُحتجباً عن طالب حاجة منكم ولو أتانى طارقاً بليل ، ولا حابساً عطاءً ولا رزقاً عن إبّانه ، ولا مُجمّراً لكم بعثاً . فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم ، فإنهم ساستكم المؤدبون لكم ، وكهفكم الذى إليه تأوون ، ومتى يصلحوا تصلحوا . ولا تشربوا قلوبكم بُغضهم فيشتد لذلك غيظكم ويطول له حزنكم ، ولا تدركوا له حاجتكم . مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شراً لكم . أسأل الله أن يُعين كلاً على كل . وإذا رأيتمونى أنفذ فيكم الأمر فأنفذوه على أذلاله . وايم الله ، إن لى فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صَرعاى » .

فهذه الخطبة الرائعة ، مهما يكن فيها من أثر الصنعة وتأليف المتأخرين ، تصوّر شيئين متناقضين أشد التناقض : أحدهما هذا الجمال الفنى الذى يأتى من رصانة اللفظ وقربه وإصابته لما أراد زياد من المعانى ، وإثارته لما أراد أن يثير من عواطف الفزع والطمع والخوف والأمل . والثانى هذه السياسة المنكرة التى أعلن أنه سيسوس بها الناس ، والتى لا يعرفها الإسلام ولا يرضاها ، ولم يعرفها المسلمون ولم يألفوها ، والتى إن دلت على شىء فإنما تدل على أن صاحبها طاغية يريد أن يحكم الناس بالبغى ، الذى يملأ القلوب رعباً ورهباً ، ويغتصب منها الطاعة والخضوع للسلطان اغتصاباً .

فالإسلام لا ينقب عن قلب السارق ، وإن نقب عن أهل البيوت . والإسلام لا يدفن الناس فى القبور أحياء وإن نبشوا عن الموتى فى قبورهم . والإسلام لا يقيم الحدود بالشبهة وإنما يدرؤها ، ولا يقتل الناس على الريبة ، ولا يبيح للسلطان

أن يعاقبهم بما كسبت قلوبهم وما دبرت نفوسهم وما أدارت رءوسهم ، وإنما يُبيح له أن يُعاقبهم بما كسبت أيديهم ، ويترك حساب الضمائر لله الذى يعلم خائنة الأعين وما تُخفى الصدور . والإسلام لا يبيح لوالٍ ولا لخليفة أن يقول : إنه يسوس الناس بسلطان الله الذى أعطاهم وفىء الله الذى خولهم ، وإنما يفرض عليه أن يقول : إنه يسوس الناس بسلطان الله الذى رفعه الشعبُ إليه ومنحه له عن رضى منه ، لا عن عنف ولا عن استكراه . يفرض عليه كذلك أن يقول : إن الفىء ملك للشعب يأتمن عليه خلفاءه وولاتهم ليضعوه مواضعه ، ويُنفقوه بحقه فيما يجب أن يُنفق من الوجوه .

والإسلام لا يُبيح لوالٍ ولا لخليفة أن يُقسم على أن له فى المسلمين صَرْعى ، لأنه لا يعلم من ذلك شيئاً حتى يقترف الناس من الجرائم والآثام ما يُوجب عليه أن يصرعهم بما كسبوا .

وقد وقعت هذه الخطبة من نفوس الذين سمعوها مواقع مختلفة ، تصوّر ما صارت إليه حالهم : فأما عبد الله بن الأهتم فقال لزياد : « أشهد أيها الأمير لقد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب » . أتُراه فُتن بجمال الخطبة وروعتها ، فلم يلتفت إلى ما أفرغ فيها من المعانى وما ابتكرت للناس من سياسة لا عهد لهم بها ؟ أم تراه أراد إلى أن يتملّق السلطان ويرضى منه بما أحب وما كره ؟ أم تراه أراد إلى الأمرين جميعاً ؟ . وقد رد عليه زياد ردًّا لاذعاً فقال : كذبت ، ذاك نبيّ الله داوود .

وأما الأحنف بن قيس فقد صوّر حَيدة المحايدين الذين لا يريدون أن يبادوا السلطان بما يكره ، ولا أن يردوا عليه مقالته ، ولا أن يتزلوا عن مروءتهم فى غير طائل ، فقال لزياد : « إنما الثناء بعد البلاء ، والحمد بعد العطاء . وإنا لن نثنى حتى نبتلى » . كلمة مسالم يريد العافية . فقال له زياد : صدقت .

وأما أبو بلال مِرْداس بن أُدية فقال له كلام المحتفظ بدينه الحريص عليه المستعد للجهاد فى سبيله ، الذى لا يكره أن يموت دونه ، والذى مات دونه بالفعل بعد ذلك ، وقد كان زعيماً من زعماء الخوارج فى البصرة : « أنبأنا الله بغير ما قلت ، قال الله : ﴿وإبْراهيم الّذى وفّى . ألا تزر وازرةٌ وزْرَ أُخرى . وأن لَيْسَ للإِنْسَانِ

إلّا مَاسعَى) وأنتَ تزعم أنك تأخذ البرىء بالسقيم ، والمطيع بالعاصى ، والمقبل بالمدبر ». فقال له زياد : « إنا لا نبلغ ما نريد فيك وفى أصحابك حتى نخوض إليكم الباطل خوضاً » .

ولم يبلغ زياد فيه وفى أصحابه ما أراد ، ولم يبلغ فى غيره وغير أصحابه من شيعة علىّ وصالحى المسلمين ما أراد أيضاً ، ولكنه على ذلك خاض إليهم الباطل خوضاً ، وخاض إليهم مع الباطل دماء غزاراً .

٥١

ولست فى حاجة إلى أن أطيل فيما سفك زياد من دماء الناس فى البصرة ، وما سفك نائبه سمرة بن جندب حين كان زياد يصير إلى الكوفة ، حين أصبح لها أميراً . فأخبار هذا شائعة مشهورة فى كتب الأدب والتاريخ ، والإطالة بذكرها مملّة لا تغنى عن أحد شيئاً . ولكنّى أقف عند محنة بعينها امتحن بها زيادٌ الإسلام والمسلمين ، وشاركه معاوية فى هذا الامتحان ، فتركت فى نفوس المعاصرين لهما أقبح الأثر وأشنعه ، وكانت صدمة عنيفة لمن بقى من خيار الناس فى تلك الأيام ، وهى محنة حُجْر بن عدىّ وأصحابه من أهل الكوفة .

وقصة هذه المحنة مفصلة فى كتب المحدثين والمؤرخين ، ما نشر منها وما لم يُنشر ، وإنما أوجزها أشد الإيجاز وأعظمه ، لأن مغزاها أعظم خطراً من تفصيلها . فما أكثر الذين قتلوا فى الفتنة الكبرى ، منذ ثار الناس بعثمان إلى أن استقام الأمر لمعاوية . وما أكثر الذين قتلوا بعد أن ولى معاوية فى أعقاب هذه الفتنة ، وفيما ثار بين المسلمين من فتن ، وما ألمّ بهم من خطوب . ولكن محنة حُجْر تصوّر المذهب الجديد فى الحكم بعد أن استحالت الخلافة إلى ملك ، وتغيرت سياسة الملوك والأمراء الذين يعملون لهم فى الأقاليم ، وأصبح تثبيت الملك ودعم السلطان والاحتياط للنظام آثَرَ فى نفوس الملوك والأمراء من النصح للدين والبقاء على المسلمين .

وقد رأينا الخلفاء الراشدين يدرءون الحدود بالشبهات ، ويحرّجون على عمالهم فى أن يؤذوا الناس فى أبشارهم وأموالهم ، فكيف بنفوسهم ودمائهم . وقد رأينا عمر رحمه الله يشجع زياداً نفسه على أن يلجلج فى الشهادة ، حين قذف بعض الناس عنده المغيرة بن شعبة ، مخافة أن يفضح رجل صحب النبىّ صلى الله عليه وسلم . ورأينا عثمان يتكلف ما تكلف من العذر ليعفو عن عُبيد الله بن عمر ، فيما كان من قتل الهرمزان ، ويُغضب فى ذلك مَنْ أغضب من عامة المسلمين ومن خيار الصحابة أنفسهم .

فأما الآن فى أيام معاوية وزياد فالناس يؤخذون بالشبهة ، ويقتلون بالظنة ، والنظام آثر عند الولاة والملوك من النفوس المؤمنة التى أمر الله ألا تزهق إلا بحقها .

وقد كان حجر بن عدىّ الكندى رجلا من شيعة علىّ المخلصين له الحبّ ، شهد معه الجمل وصفين والنهروان ، وكره صلح الحسن ، ولام الحسن فى هذا الصلح ، ولكنه بايع معاوية كما بايعه غيرُه من الناس ، ووفى ببيعته دون أن يضطره ذلك إلى أن يرفض عليًّا أو يبرأ من حُبه ، بل دون أن يضطره ذلك إلى أن يؤمن لمعاوية وعُماله بكل ما كانوا يفعلون . وكان حُجر رجلاً من صالحى المسلمين ، وفد على النبى صلى الله عليه وسلم مع أخيه هانئ بن عدىّ فيمن وفد عليه من قومهما . ثم شارك فى حرب الشام وأحسن فيها البلاء ، وكأنه كان فى مقدّمة الجيش الذى دخل مرج عذْراء قريباً من دمشق ، ثم تحوّل إلى العراق فشارك فى غزو بلاد الفرس وأبلى أحسن البلاء فى نهاوند ، ورابط فى الكوفة مع المرابطين بعد الفتح . وكان رجلا حُرًّا صادق الدين يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويرضى عن السلطان إن أحسن ، ويسخط عليه إن أساء . وكان بعد صلح الحسن معارضاً لسلطان معاوية وعامله المغيرة بن شعبة ، ولكنه لم يخلع يداً من طاعة ، وإنما كان ، كما كانت عامة أهل الكوفة ، يُذعن للسلطان وينتظر كما قال الحسن : أن يستريح بر أو يموت فاجرٌ . وكان ينكر أشد الإنكار سنة بنى أمية فى شتم علىّ وأصحابه على المنبر ، ولم يكن يخفى إنكاره ، وإنما كان يبادى به المغيرة بن شعبة ، وكان المغيرة يعفو عنه وينصح له ويحذّره بطش السلطان .

وكأن موت الحسن ومصير الأمر إلى الحُسين قد رفع أهل الكوفة إلى أن يشتدّوا فى معارضتهم أكثر مما كانوا يفعلون من قبل . وكان حُجر رأس المعارضين . وقد خطب المغيرةُ ذات يوم وأخذ فى شتم علىّ وأصحابه كما تعوّد أن يفعل ، فوثب حجر فأغلظ له فى القول وطالبه بأن يؤدى إلى الناس ما أخر من عطائهم ، فهذا أنفع لهم وأجدى عليهم من شتم الأخيار والصالحين . ووثب قوم من أصحاب حُجر فصاحوا بمثل صياحه وقالوا بمثل مقالته ، حتى اضطر المغيرة أن يقطع حديثه وينزل عن المنبر ويدخل داره . وقد لامه فى هذا اللين قومٌ من أصحابه . فزعم المغيرة أنه قتل حُجراً بحلمه عنه ، لأنه سيطمع فى الأمير الذى سيخلفه ،

فيقتله هذا الأمير لأول وهلة . وكره المغيرة أن يقتل خيارَ أهل المصر ليسعد معاوية في الدنيا ويشقى هو في الآخرة .

وأقبل زياد والياً على الكوفة ، وكان حُجر صديقاً ، فقرّبه ونصح له بإيثار العافية وحذّره من الفتنة وخوفه من بأسه ، إن جعل على نفسه سبيلا . ولكن الأمر لم يلبث أن فسد بين حُجر وزياد . وظهر هذا الفساد حين قتل عربيّ مسلم رجلاً من أهل الذمة ، فكره زياد أن يقيد من العربيّ المسلم لذميّ ، وقضى بالدية . وأبى أهل الذميّ قبول الدية وقالوا : كنا نُخبَرُ أن الإسلام يسوّي بين الناس ولا يفضّل عربياً على غير عربي . وغضب حُجر لقضاء زياد وأبى أن يسكت على إمضائه . وقام الناس معه في ذلك حتى أشفق زياد من الفتنة إن أمضى قضاءه . فأمر بالقصاص على كُره منه ، وكتب في حُجر وأصحابه إلى معاوية يشكو صنيعهم . فكتب إليه معاوية أن ينتظر به وبأصحابه أول حُجة تقوم عليه .

ويحدث المؤرخون أن حجراً وأصحابه انتهزوا عودة زياد إلى البصرة ، فجعلوا يشغبون على نائبه إذا شتم علياً وأولياءه في خطبته . وجعلوا ينكرون عليه كثيراً من أعماله ويشدّدون في النكير ، حتى أحس النائب عمرو بن حُرَيث شيئاً من الحرج . وكتب إلى زياد يتعجل عودته إلى الكوفة ويذكر له صنيعَ المعارضين ؛ فلما قرأ زياد كتابه قال : ويل أمك يا حُجر ، وقع العشاء بك على سرحان .

ثم أقبل مسرعاً إلى الكوفة فأنذر وحذّر ، ولم يعجل بالتعرّض لحجر وأصحابه ، حتى إذا خطب ذات يوم فأطال الخطبة أظهرت الشيعة مللاً ، وصاح حُجر : الصلاة . فمضى زياد في خطبته . فصاح حجر مرة أخرى : الصلاة . وصاح معه أصحابه . وهمّ زياد أن يمضي في خطبته ، ولكن حجراً وقف وهو يصيح : الصلاة . ووقف معه أصحابه يصيحون كما كان يصيح . فقطع زياد خطبته ونزل . فصلى وتفرق الناس .

وأرسل زياد إلى جماعة من وجوه الكوفة فأمرهم أن يأتوا حُجراً ، وأن يكفّوا عنه من يُطيف به من عشائرهم ، وأن يردّوه عن هذه الطريق التي أخذ في سلوكها . ولكن هؤلاء الوجوه من أهل الكوفة لم يبلغوا من حُجر شيئاً . فعادوا إلى زياد فأنبئوه من أمر حُجر بأشياء وكتموه أشياء أخرى ، فيما يقول المؤرخون ، وطلبوا إليه أن يستأني بحُجر . فلم يسمع منهم ، وإنما أرسل من يدعو له حُجراً ، فامتنع عليه .

فأمر الشرطة أن يأتوه به ، فكان بين الشُّرط وأصحاب حجر تناوش ، واستخفى حجر فلم يقدر عليه زياد ، حتى أخذ محمد بن قيس بن الأشعث ، زعيم كندة ، وأمر بسجنه ، وتوعده بالقتل والمثلة إن لم يأته بحجْر . فجاءه بعد أن أخذ منه أمان حُجر على نفسه حتى يُرسله إلى معاوية فيرى فيه رأيه . فأعطى زياد هذا الأمان .

وأقبل حُجر ، فأمر زياد بإلقائه فى السجن ، وجدّ فى طلب من قدر عليه من أصحابه ، حتى جعل فى السجن مع حُجر ثلاثة عشر رجلا بعد خُطوب ومِحَن .

ثم طلب إلى أهل الكوفة أن يشهدوا عليهم ، فشهد قوم بأنهم تولّوا عليًّا وعابوا عثمان ونالوا من معاوية . فلم يرض زياد هذه الشهادة وقال : إنها غير قاطعة . فكتب له أبو بُردة بن أبى موسى الأشعرى شهادة بأن حُجراً وأصحابه قد خلعوا الطاعة ، وفارقوا الجماعة ، وبرئوا من خلافة معاوية ، وهمّوا بإعادة الحرب جذَعة فكفر كفرة صلْعاء .

هنالك رضى زياد وطلب إلى الناس أن يمضوا هذه الشهادة . فأمضاها خلق كثير ، حتى بلغ الشهود سبعين رجلا ، فيما قال المؤرخون . وكان منهم جماعة من أبناء المهاجرين ، بينهم ثلاثة من بنى طلحة ، وعمر بن سعد بن أبى وقاص والمنذر بن الزّبير . ولم يتحرج من أن يكتب أسماء نفر لم يشهدوا ولم يحضروا هذه الشهادة . فمن هؤلاء من برأ نفسه أمام الناس ، ومنهم من كتب إلى معاوية يُبرئ نفسه من هذه الشهادة . وهو شُريح القاضى ، الذى شهد أن حُجراً رجل صالح من المسلمين ، يُقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويصوم ويحج ويعتمر ، وأن دمه حرام . فلما قرأ معاوية كتاب شُريح لم يزد على أن قال : أما هذا فأخرج نفسه من الشهادة .

وقد حُمل حُجر وأصحابه إلى معاوية ، فأمر ألا يدخلوا دمشق وأن يُحبسوا بمرْج عذراء . ويقول المؤرخون . إن حُجراً لما عرف أنه بهذه القرية قال : والله إنى لأول مُسلم نبحته كلابها وأول مسلم كبَّر بواديها .

وقد قرأ معاوية كتاب زياد وشهادة الشهود ، وأمر فقرئ هذا كله على الناس . ثم استشار فى أمرهم من حضره من أشراف قريش ووجوه أهل الشام . فمنهم من

أشار عليه بحبسهم ، ومنهم من أشار عليه بتفريقهم فى قرى الشام . وأقام معاوية وقتاً لا يقطع فى أمرهم برأى . فكتب إلى زياد بتوقفه فى أمرهم . وكتب إليه زياد يعجب من تردده ويقول له : إن كانت لك حاجة بالعراق فلا تردّهم إلىّ .

هنالك استبان الرأى لمعاوية ، فأرسل إلى هؤلاء الرهط من يعرض عليهم البراءة من علىّ ولعنه وتولى عثمان ، فمن فعل منهم ذلك أمن ، ومن أبى منهم ذلك قُتل .

وقام جماعة من أشراف أهل الشام فشفعوا عند معاوية فى بعض هؤلاء الرهط ، وقبل معاوية شفاعتهم ، حتى لم يبق منهم إلا ثمانية ، عُرضت عليهم البراءة من علىّ فأبوا ، فأخذ فى قتلهم فى قصة طويلة . ورأى اثنان السيوف المشهورة والقبور المحفورة والأكفان المنشورة ، كما قال حجر قُبيل موته ، فطلبا أن يُحملا إلى معاوية وأظهرا أنهما يريان رأيه فى علىّ وعثمان . فأجيبا إلى طلبهما ، وقتل الآخرون ، وهم ستة . وكانوا أول من قُتل صَبراً من المسلمين .

وحُمل الرجلان إلى معاوية ، فأما أحدهما فأظهر البراءة من علىّ بلسانه ، وشفَع فيه شافع من أهل الشام ، فحبسه معاوية شهراً ثم ألزمه الإقامة حيث أراد من الشام ، وحرم عليه أرض العراق . فأقام فى الموصل حتى مات .

وأما الآخر فأبى أن يبرأ من علىّ وأسمع معاوية فى نفسه وفى عثمان ما يكره . فردّه معاوية إلى زياد وأمره أن يقتله شر قتلة . فأمر به زياد فدُفن حيًّا .

وكذلك انتهت هذه المأساة المنكرة التى استباح فيها أمير من أمراء المسلمين أن يُعاقب الناس على معارضة لا إثم فيها ، وأن يُكره وجوه الناس وأشرافهم على أن يشهدوا عليهم زُوراً وبهتاناً ، وأن يكتب شهادة القاضى على غير علم منه ولا رضى ، حتى قال حُجر حين قدم لتضرب عنقه : الله بيننا وبين أمتنا ، شهد علينا أهلُ العراق وقتلنا أهلُ الشام .

استباح أمير من أمراء المسلمين لنفسه هذا الإثم ، واستحلّ هذا البدع . واستباح إمام من أئمة المسلمين لنفسه أن يقضى بالموت على نفر من الذين عصم الله دماءهم ، دون أن يراهم أو يسمع لهم أو يأذن لهم فى الدفاع عن أنفسهم . وما أكثر ما أرسلوا إليه أنهم على بيعتهم لا يُقيلونها ولا يستقيلونها .

وقد ذعر المسلمون فى أقطار الأرض لهذا الحدث . وآية ذلك أن عائشة علمت بتسيير هؤلاء الرهط من الكوفة ، فأرسلت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام إلى معاوية يراجعه فى أمرهم . فوصل عبد الرحمن إلى الشام فوجد القوم قد قُتلوا . فقال لمعاوية : كيف ذهب عنك حلم أبى سفيان . فأجابه معاوية حين غاب عنى أمثالك من حلماء قومى . وقد حملنى زياد فاحتملت .

وآية ذلك أيضاً أن الخبر بقتل هؤلاء النفر قد انتهى إلى المدينة ، وسمعه عبد الله ابن عمر فأطلق حبوته ، وتولى والناسُ يسمعون نحيبه . وأن معاوية بن حُدَيج انتهى إليه الخبر فى إفريقية فقال لقومه الذين كانوا معه من كندة : ألا ترون أنا نقاتل لقريش ونقتل أنفسنا لتثبت ملكها ، وأنهم يثبون على بنى عمنا فيقتلونهم .
وكان للخبر صدى مثل هذا الصدى فى خُراسان عند عاملها الرّبيع بن زياد .
وقالت عائشة : إنها همت أن تثور لتغير ما كان من أمر حُجر ، ولكنها خافت أن تتجدّد وقعة الجمل ، وأن يغلب السفهاء ويصير الأمر إلى غير ما أرادت من الإصلاح .

وقال الكوفيون فى ذلك شعراً كثيراً نجده فى كتب السير والتاريخ .

وأغرب من هذا كله أن قتل حُجر وأصحابه كان صدمة لمعاوية نفسه ، تردد فى قتلهم أول الأمر ، ثم لما أمضى فيهم حُكمه ظن أنه قد أبلى فأحسن البلاء . ولكن الأيام لم تكد تتقدم حتى عاوده الندم وأصابه قلق مُمضّ .

ويقول البلاذرى : إن معاوية كتب إلى زياد : « إنه قد تلجلج فى صدرى شىء من أمر حُجر . فابعث إلىّ رجلا من أهل المصر له فضل ودين وعلم » ؛ فأشخص إليه عبدَ الرحمن بن أبى ليلى ، وأوصاه ألا يُقبح له رأيه فى أمر حُجر ، وتوعّده بالقتل إن فعل . قال ابن أبى ليلى : فلما دخلت عليه رحب بى وقال : اخلع ثيابَ سفرك والبس ثياب حضرك . ففعلت . وأتيته فقال : أما والله لوددت أنى لم أكن قتلت حُجراً ، ووددتُ أنى كنت حبسته وأصحابه وفرّقتهم فى كور الشام فكفَتْنيهم الطواعين ، أو مننت بهم على عشائرهم . فقلت : وددت والله أنك فعلت واحدة من هذه الخلال . فوصلنى . فرجعت وما شىء أبغض إلىّ من لقاء زياد ، وأجمعت على الاستخفاء . فلما قدمت الكوفة صليت فى بعض المساجد ،

فلما انفتل الإمام إذا رجل يذكر موت زياد . فما سررت بشيء سروري بموته .

بل زعم الرواة أنّ قتل حُجر كان له صدى حتى فى أعماق دار معاوية . فقد يحدّثنا البلاذرى : أن معاوية صلى يوماً فأطال الصلاة وامرأته تنظر إليه . فلما فرغ من صلاته قالت له امرأته : ما أحسن صلاتك يا أمير المؤمنين لولا أنك قتلت حُجراً وأصحابه .

فقد كان قتل حُجر إذاً حدثاً من الأحداث الكبار . لم يشك أحد من الأخيار الذين عاصروا معاوية فى أنه كان صدعاً فى الإسلام ، بل لم يشك معاوية نفسه فى أنه كان كذلك ، فهو لم ينسه قط منذ كان إلى أن انقضت أيامه ، ثم هو لم يذكره قط كما ذكره فى مرضه الذى مات فيه ، فقد كان يقول أثناء مرضه ، فيما زعم الرواة والمؤرخون : ويلى منك يا حجر ! وكان يقول كذلك : إن لى مع ابن عدىّ ليوماً طويلا .

وأمر آخر استحدثه معاوية فى الإسلام فغير به السنة الموروثة تغييراً خطيراً ، وهو استخلاف ابنه يزيد بعده على سلطان المسلمين . ولم يكره المسلمون شيئاً فى الصدر الأول من أيامهم كما كرهوا وراثة الخلافة . فقد عهد أبو بكر إلى عمر ولم يخطر له أن يعهد إلى أحد من بنيه . وزجر عمر مَن طلب إليه أن يعهد لعبد الله ابنه . ولم يخطر لعثمان أن يعهد إلى أحد . ولا ينبغى أن يقال أعجل عثمان عن ذلك ، فقد لبث فى الخلافة اثنى عشر عاماً . وأبى علىّ أن يستخلف وقال لأصحابه حين سألوه ذلك : أتركِكم كما تركَكم رسول الله . وسأله الناس : أيبايعون الحسن ابنه ؟ فقال : لا آمركم ولا أنهاكم .

وكان المسلمون يذكرون الكسروية والقيصرية ، يريدون بذلك حكم القياصرة والأكاسرة ، ولم تكن وراثة الملك إلا لوناً من الحكم الأعجمى .

ولو وقف أمر معاوية عند هذا الحد ، لكان من الممكن أن يقال : اجتهد للناس فأخطأ أو أصاب . ولكنه قاتل علياً على دم عثمان من جهة ، وعلى أن يرد الخلافة شورى بين المسلمين ، من جهة أخرى. فلما استقام له السلطان نسى ما قاتل عليه ، أو أعرض عما قاتل عليه . ولما أراد مصالحة الحسن عرض عليه أن يجعل له ولاية الأمر من بعده ، فأبى الحسن ذلك واشترط فيما اشترط أن يعود الأمر بعد معاوية شورى بين المسلمين يختارون لخلافتهم من أحبّوا . فقبل معاوية ذلك فيما قبل من الشروط .

فهو إذاً كان يرى الشورى فى أمر الخلافة قبل أن يستقيم له أمر الناس . وقَبِل أصل الشورى أثناء الصلح حين همّ أمر الناس أن يستقيم له ، ثم نسى هذا كله بأخرة . ويقال إن المغيرة بن شُعبة هو الذى ألقى فى قلبه هذا الخاطر . فال إليه وشاور فيه زياداً ، فأشار عليه بالأناة وبأن يصلح من سيرة يزيد .

وكان يزيد فتى من فتيان قريش صاحب لهو وعبث ، محبّاً للصيد مسرفاً على نفسه فى لذاته ، مستهتراً لا يتحفظ ، وكان ربما أضاع الصلاة . فأخذه أبوه بالحزم ،

وأغزاه الروم وأمّره على الحج ، يمهد بهذا كله لتوليته العهد . فلما رأى من سيرة يزيد ما أرضاه حزم أمره وأعلن تولية يزيد عهده ، وكتب فى ذلك إلى الآفاق . فأجابه الناس إلى ما أراد . وهل كانوا يستطيعون إلا أن يجيبوه إلى ما أراد . ثم استوفد الوفود من الأقاليم ، فوفدت عليه وأعلنت البيعة ليزيد ، وامتنع أربعة نفر من قريش ، هم الحسين بن علىّ ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير . وعبد الرحمن بن أبى بكر . فذهب معاوية إلى الحجاز معتمراً ولقى هؤلاء النفر ، فلم يبلغ منهم شيئاً بالوعد ولا بالوعيد . صارحه بعضهم والتوى عليه بعضهم الآخر . فحذرهم عواقب الخلاف عن أمره إن أظهروه .

وزعم بعض المؤرخين أنه أقام على رءوسهم شُرَطاً حين خطب الناس ، وتقدم إلى هؤلاء الشرط فى أن يضربوا عنق أيهم كذّبه فيما يقول . ثم خطب الناس فذكر بيعة يزيد بولاية العهد ، وأن الناس أجمعوا على قبول ما اختار لهم . وأن هؤلاء النفر من أعلام قريش وسادتها قد دخلوا فيما دخل الناس فيه . فبايع الناس وانصرف هؤلاء النفر يحلفون لمن لا متّهم ما بايعوا ولا قبلوا .

وسواء أصحت هذه الرواية أم لم تصح . فالشىء المحقق هو أن معاوية قد استكره هؤلاء النفر على الصمت بعد أن لم يستطع أن يستكرههم على البيعة . وهو بعد ذلك لم يؤامر الأمة فيمن اختار لخلافتها على أى نحو من المؤامرة ، وإنما شاور قوماً من خاصته والطامعين فيه ، فكلهم أغراه بذلك وحببه إليه . ولم يستطع أحد من خاصة الناس ولا من عامتهم أن ينكر على معاوية مما أراد شيئاً .

وكذلك استقر فى الإسلام لأول مرة هذا الملك الذى يقوم على البأس والبطش والخوف ، والذى يرثه الأبناء عن الآباء ، وأصبحت الأمة كأنها ملك لصاحب السلطان ينقله إلى من أحب من أبنائه ، كما ينقل إليه ما يملك من سائل المال وجامده .

وقد تمّ ذلك سنة ست وخمسين للهجرة ، أى قبل أن ينتصف القرنُ على وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ورحم الله الحسن البصرى فقد كان يقول فيما روى الطبرى : « أربع خصال كنّ فى معاوية ، لو لم يكن فيه منهن إلا واحدة لكانت مُوبقة : انتزاؤه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزها أمرها بغير مشورة منهم ، وفيهم بقايا

الصحابة وذوو الفضيلة ؛ واستخلافه ابنه بعده سكيراً خميراً يلبس الحرير ويضرب بالطنابير ؛ وادعاؤه زياداً ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الولد للفراش وللعاهر الحجر ؛ وقتله حُجراً ، ويلٌ له من حُجر وأصحاب حُجر ! ويل له من حُجر وأصحاب حُجر ! » .

وما أريد أن أشارك الحسن فأقول : إن هذه الخصال كلها أو بعضها قد أوبقته ، فأمر ذلك إلى الله وحده والله عز وجل يقول : (إنّ الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دُون ذلك لمن يشاء) .

وليس يعنيني الآن ما كان من أمر يزيد ، فلست أورخ ليزيد ولا أبحث عن استئهاله للخلافة ، وإنما الذى يعنيني هو أن معاوية قد استحدث فى المسلمين بدعة جديدة طالما أنكروها من قبل ، وهى توريث الملك . وكانت عاقبة هذه البدعة وبالاً على المسلمين أى وبال ، فما أكثر ما استحل الملوك من المحارم ، وما أكثر ما سفكوا من الدماء ، وأهدروا من الحقوق ، وضحوا بمصالح الأمة فى سبيل ولاية العهد . وما أكثر ما كاد بعض الأمراء من أبناء الملوك لبعض فى سبيل هذا التراث الذى لم يبحه لهم كتاب ولا سنة ، ولا عُرِّف مألوف من صالحى المسلمين .

وإنما القول فى معاوية وملكه قول رجل من خيار الصحابة اعتزل الفتنة ، ولم يشارك فيها من قريب أو بعيد ، وهو سعد بن أبى وقاص رحمه الله . فقد تحدث البلاذرى عن رواته أنه دخل على معاوية فقال : السلام عليك أيها الملك . فضحك معاوية وقال : ما كان عليك يا أبا إسحاق رحمك الله لو قلت : يا أمير المؤمنين . فقال : أتقولها جذلان ضاحكاً ؟ والله ما أحب أنى وليتها بما وليتها به » .

ولم يكن نشاط الخوارج أيام معاوية أقل ولا أخفّ من نشاطهم أيام عليّ ، وإنما مضوا على سنتهم تلك فلم يُريحوا ولم يستريحوا . وكان الخوارج أيام عليّ يخرجون من الكوفة ، فإذا تهيئوا للحرب لحق بهم إخوانهم من أهل البصرة . فأما أيام معاوية فقد نصب خوارج الكوفة لأمراء الكوفة ، ونصب خوارج البصرة لأمراء البصرة . وكان أمر الخوارج فى الصدر الأول من ملك معاوية متصلا ، ولكنه كان يسيراً كما كان فى أيام عليّ . سار فيهم المغيرة وعبد الله بن عامر سيرة عليّ ، فكانا لا يَهيجانهم إن سكنوا ، ولا يعرضان لهم بمكروه حتى يُظهروا خلع الطاعة وينشروا الفساد فى الأمر . فلما صار الأمر إلى زياد فى العراق اشتد فى أمر الخوارج فلم ينتظر بهم أن يخرجوا ، وإنما احتاط لخروجهم قبل أن يكون ، فجعل يستقصى أمورهم ويتتبع أفرادهم حيث يكونون ، ويأخذ من قدر عليه منهم بالشبهة ويقتلهم بالظِّنّة .

وعرف الخوارج ذلك من أمره ، فاحتالوا فى التخلص منه والاستخفاء من شُرطه وعيونه . كما احتال هو فى الظفر بهم والوصول إليهم . وكان بطشه بهم شديداً وكيده لهم عظيماً . وقد أخاف زياد الناس جميعاً ، فاستتروا منه أشد الاستتار ، ومكروا به أعظم المكر .

وكثر القعود بين الخوارج فى أيامه ، وظهر الخلاف بينهم أيضاً ، وانتشر مذهبهم أشد انتشار فى طبقات من الناس لم يكن يبلغها من قبل . وتشجع النساء فملن إلى هذا المذهب وشاركن فيه ، وخرج بعضهن فيمن خرج من أهل الكوفة ، وتعرض بعضهن للقتل والمثلة فى البصرة .

وكانت عاقبة الخوارج معروفة ، لا تكاد تخرج منهم خارجة فى أحد المصرين حتى يرسل إليها الأمير جنداً أكثر منها عدداً وأشد منها بأساً ، فيكون بين هذا الجيش وهذه الخارجة شيء من قتال ، ثم يعود الجيش إلى المصر وقد قتل الخارجة كلها أو أكثرها .

فكان خروج الخوارج تضحية بالنفس ، يُقدمون عليها وهم عالمون بها ، مطمئنون إليها راغبون فيها . قد باعوا نفوسهم من الله واشتروا بها الجنة . فكان حزبهم حزب التضحية التي لا تنقضى ، وكانوا يرون قتلاهم شهداء . وكان خصومهم من الشيعة وأهل الجماعة يرونهم مارقين من الدين ، كما قال فيهم ذلك علىٌّ مستنداً إلى الحديث المعروف . ولكن الأمراء الظالمين من ولاة معاوية جعلوا بعض هؤلاء الخوارج شهداء ، لا بالقياس إلى الخوارج وحدهم ، ولكن بالقياس إلى كثير غيرهم من الناس ، حين أخذوهم بالشبهة وقتلوهم بالظنة ، وحين سلكوا فى قتالهم سياسة الغدر التى نهى عنها الإسلام أشد النهى ، كالذى كان من أمر أبى بلال مِرْداس بن أُدَيَّة الذى وقع قتله وقتل أصحابه موقع المحنة القاسية ، لا من الخوارج وحدهم بل من خلق غيرهم كثير . حتى لقد يحدّثنا المبرّد بأن الفِرَق تنافست فى أبى بلال هذا ، عدته المعتزلة من أوائلهم ، وزعمت الشيعة أنه كان منهم . وما أشك فى أن الأخيار والصالحين من معاصريه رأوه رجلاً من أكرم المسلمين وأتقاهم .

وكان أبو بلال صاحب زهد فى الدنيا وتنزه عنها ، مؤثراً للخير ناصحاً للمسلمين ، برًّا بمن عرف ومن لم يعرف من الناس ، وكان كثير العبادة قليل الخوض فيما يخوض الناس فيه عادة . شهد صفين مع علىّ ، وأنكر الحكومة وخرج مع أصحاب النَّهْروان ، ثم اعتزل الشر وأقام فى مصره بالبصرة خارجىّ الهوى ، مشيراً على الخوارج ناقداً لبعض أعمالهم ، منكراً لنشر الفساد فى الأرض ، زارياً على اعتراض الناس وقتلهم بغير ذنب ، حتى إذا ولى زياد البصرة وخطب خُطبته تلك البتراء ، كان الرجل الوحيد الذى أنكر عليه قوله : « لآخذن البرىء بالمُسىء والصحيح بالسقيم » ، وذكَّره قول الله عز وجل : (وإبراهيم الذى وفّى ألاّ تزر وازرةٌ وِزْر أخرى . وأنْ ليس للإنسان إلاّ ما سعى) . ولكنه على ذلك أقام فى مصره يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويشيع الدعوة إلى الخير من حوله ، وهلك زياد وولى البصرة ابنه عُبيد الله بن زياد ، فأسرف فى تتبع الخوارج حتى أخافهم ، يرصد لهم المراصد ، ويُلقيهم فى السجن ، ويمثل بمن قدر عليه منهم .

وكان أبو بلال محبباً إلى الناس بصلاحه وتُقاه وحُسن سيرته ، وقد سُجن مرة فيمن سجن من الخوارج ، فأحبَّه سجَّانه لما رأى من عبادته وحسن تلاوته للقرآن ، فكان إذا جن الليلُ أطلقه وربما أطلقه النهار أيضاً . فكان يُلم بأهله ويعود إلى سجنه . وقد بلغه ذات يوم وهو مطلق أن عُبيد الله بن زياد أزمع قتل الخوارج المسجونين ، فلما أقبل الليل تنكر حتى عاد إلى سجنه ، وآثر القتل على أن يخون السجان فى نفسه ويعرّضه لغضب السلطان .

وأخرجهم ابن زياد فقتل منهم فريقاً وأطلق فريقاً بشفاعة من شفع فيهم من الناس . وكان أبو بلال ممن نجا فاستأنف سيرته ، ولكن غيظه من ظلم السلطان كان قد بلغ أقصاه ، حتى إذا رأى ابن زياد قد أخذ امرأة خارجية فقطع يديها ورجليها وعرضها فى السوق ، لم يطق صبراً على مجاورة الظالمين . فخرج فى عدد قليل من أصحابه لا يتجاوزون الثلاثين ، ورسم لنفسه ولأصحابه برنامجاً واضح الحدود ، وهو أن يخرجوا منكرين للظلم داعين إلى العدل والإصلاح ، لا يستعرضون الناس ولا يستبيحون أموالهم ولا يفسدون فى الأرض ولا يبدءون أحداً بقتال ، وإنما يدافعون عن أنفسهم إذا قوتلوا . ولحق بهم عشرة من أصحابهم فصاروا أربعين ، ومضوا فى طريقهم فلقيتهم أموال قد جاءت إلى ابن زياد من خراسان ، فأخذ بلال من هذه الأموال نصيبه ونصيب أصحابه ، كما كان يقسم عليهم فى البصرة لو أقاموا ، وأمّن الرُّسل على أنفسهم وعلى ما يحملون ، وخلى بينهم وبين الطريق إلى البصرة .

وعرف ابنُ زياد خروجَهم فأرسل فى إثرهم أسلم بن زُرعة فى ألفين من الجند فأتبعوهم حتى لقوهم بآسَك . فدعوهم إلى العودة والبقاء على الطاعة . فأبوا أن يعودوا إلى طاعة فاسق ظالم يأخذ بالشبهة ويقتل بالظِّنة ويشق على الناس فى أموالهم وحرماتهم . ثم أمسكوا عن جند ابن زياد لم يُبادوهم بشر حتى بدءوهم بالقتال. هنالك شدّ أبو بلال وأصحابه على هؤلاء الجند شدة الشُّراة المستبسلين ، فهزموهم . ورجع أسلم بن زُرْعة فى أصحابه إلى البصرة مُسْتَخْزِين . فلام ابن زياد أسلم فى ذلك أشد اللوم . وعيَّره الناس بهذه الهزيمة ، حتى تصايح به الصبيان فى الطُّرقات يخوّفونه أبا بلال . وقال قائل الخوارج فى ذلك :

أألفا مؤمن فيما زعمتم ويقتلكم بآسك أربعون
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ولكنّ الخوارج مؤمنون
همُ الفئة القليلة قد علمتم على الفئة الكثيرة يُنصرون

يشير إلى قول الله عز وجل : (وكمْ مِن فئةٍ قَليلةٍ غَلبت فِئةً كثيرةً بإذْن اللهِ) .

وأرسل ابن زياد إلى أبي بلال وأصحابه عبَّاد بن أخضر فى أربعة آلاف . فلقوهم فى بعض طريقهم وطلبوا إليهم العودة والبقاء على الطاعة . فردوا عليهم مثل ردهم على أسلم بن زُرْعة ، وأنشب عبَّاد معهم القتال . فقاتلوهم قتالاً عسيرًا طويلا حتى رأى أبو بلال أنَّ صلاة العصر قد كادت تفوت القوم . فطلب إليهم الموادعة حتى يصلى الفريقان ، وأعطاه عبَّاد ما طلب . وأقبل الفريقان على صلاتهما . ولكن عبَّاداً عجَّل صلاته وصلاة أصحابه أو قطعها . وشدَّ على الخوارج فألفاهم فى صلاتهم بين قائم وراكع وساجد . فقتلهم جميعًا لم ينحرف لقتاله أحد منهم إيثارًا للصلاة على القتال . ووقع هذا الغدر من هذه الفئة الضخمة على هذا العدد اليسير وقتلهم وهم يصلون فى قلوب الناس أسوأ موقع . فأما الخوارج فهاجوا وجدُّوا له فى الثأر لإخوانهم . وأما عامة الناس فكرهوا ثم صبروا على ما يكرهون .

أكان المسلمون راضين عن سياسة معاوية أم كانوا عليها ساخطين ؟

ما ينبغى أن نلقى هذا السؤال ونحن ننتظر الجواب عليه من المتأخرين من أهل الفرق ، فهؤلاء يتأثرون بمذاهبهم أكثر مما يتأثرون بحقائق التاريخ . وإنما الشىء الذى ليس فيه شك هو أن الذين عاصروا معاوية من المسلمين فى شرق الدولة وغربها ، لو رُدَّت إليهم أمورُهم وطُلب إليهم أن يختاروا لأنفسهم إمامًا ، وأن يختاروه أحرارًا غير مستكرهين ولا مُبتغين شيئًا إلا صلاح دينهم ودنياهم ، لما اختاروا معاوية بحال من الأحوال ، لأنهم بلوا سياسته وخبروا عُمَّاله ورأوا أن أمورهم تصير إلى شر عظيم ، إذا قاسوها إلى ما كانت عليه فى تاريخهم القريب . فهم يُحكمون بالخوف لا بالرضى ، ويُساسون بالرغب والرهب ، لا بما ينبغى

أن يُساس به المسلمون من كتاب الله وسنة رسوله ، وأموالهم العامة ليست إليهم ، وإنما هى إلى ملكهم وولاتهم يتصرفون فيها على ما يشتهون ، لا على ما يقتضيه الحق والعدل والمعروف .

فالصلات الضخمة تُعطى لكثير من الناس تشجيعاً لبعضهم على المضى فى الطاعة والإذعان ، وإغراء لبعضهم الآخر بالسكوت عن الجهر بالحق والقيام دونه . أشراف الحجاز غارقون فى الثراء من هذه الصلات ، التى تشترى بها طاعة ضعفائهم ويُشترى بها سكوت أقويائهم . وأهل الشام غارقون فى الثراء موسَّع عليهم فى السلطان لأنهم جند الملك وحماة دولته . وأهل العراق مضطهدون لأنهم بين شيعة لعلىّ وبين خارج على الجماعة ، وبين قوم آخرين يُصنع بهم ما يُصنع بأهل الشام والحجاز وأهل الأقطار الأخرى مستغلون مستذلون ، تجبى منهم الأموال لتحمل إلى الشام فتنفق فيما يحب الملك أن ينفقها فيه .

ودماؤهم ليست حراماً على الملك ولا على عماله ، وإنما يستحل منها الملك والعمال ما حرم الله ، لا إقامةً لحدود الدين ، ولكن تثبيتاً لسلطان الملك .

وما أشك فى أن معاوية كان داهية من دهاة العرب وعبقرياًّ فى السياسة ، ولكن المسلمين الذين عاصروه قد عرفوا قبله أئمة جمعوا ، إلى العبقرية فى السياسة والدهاء فى قهر العدو والكيد له ، عدلاً بين الناس ونصحاً لهم وصيانة لأموالهم وعصمة لدمائهم ، لم يخالفوا عن الدين ولم ينحرفوا عنه قيد شعرة .

وما أشك كذلك فى أن الظروف التى أحاطت بمعاوية قد أعانته أو اضطرته إلى سياسته تلك . ولكنى كما قلت غير مرة : لا أحاول الحكم لمعاوية أو الحكم عليه ، وإنما أحاول أن أتعرف حقائق الحياة فى أيامه . ومن هذه الحقائق حقيقة لا ينبغى أن نهملها أو نشك فيها ، هى أن المسلمين بعد الفتح ، وبعد أن قوى اتصالهم بالأمم المغلوبة وخالطوهم فى دقائق حياتهم ، كانوا بين اثنتين : إما أن يغيروا طبائع هذه الأمم كلها ويفرضوا عليها طباعهم ، وليس إلى هذا سبيل ، فأمور الناس لا تجرى على هذا النحو ، وهى لم تجر عليه فى وقت من الأوقات . وإما أن يغير المغلوبون طبيعة الغالبين ويفرضوا عليهم طباعهم الأعجمية المتحضرة ، وهو شىء كذلك لا سبيل إليه ، لم نره كان فى وقت من الأوقات .

فلم يبق إلا شيء ثالث هو المنزلة المتوسطة بين هاتين المنزلتين ، هو أن يعطى المسلمون المغلوبين شيئاً من طباعهم ، ويُعطى المغلوبون المنتصرين شيئاً من طبائعهم أيضاً . وتنشأ من ذلك طبيعة قوام بين الطبيعتين ، ليست بالإسلامية الخالصة ، أو قل ليست بالإسلامية العربية الخالصة ، ولا بالرومية أو الفارسية الخالصة ، ولكنها شيء بين ذلك .

ولم تكن الفتنة الكبرى ، التي عرضنا لها في هذا الجزء وفي الجزء الذي سبقه من هذا الكتاب ، إلا صراعاً بين هذه الطبيعة الإسلامية العربية ، وطبائع الأمم المغلوبة التي ظهر عليها المسلمون .

كان الإسلام يريد أن يحمل الناس على طريق من العدل والقسط والحرية ، لا يشقى فيها أحد لفقر أو ضعف أو خمول ، ولا يسعد فيها أحد لقوة أو ثراء أو نباهة شأن ، وإنما يعيش الناس فيها كراماً قد وفرت عليهم حقوقُهم بالمعروف ، ليس فيها تفوّق أو امتياز إلا بالدين والتقوى وحسن البلاء .

وكان الإسلام يريد أن يكون الخلفاء والولاة أمناء للناس على حقوقهم وأموالهم ومرافقهم . يدبرونها على ملأ منهم وعن مُشاورة ومؤامرة ، ويُمضونها في غير تجبر ولا تكبر ولا أثرة ولا استعلاء ، ويدبرونها كذلك لا على أنهم سادة يمتازون من الناس بأي لون من ألوان الامتياز ، بل على أنهم قادة يثق الناس بهم ويطمئنون إليهم ويرونهم كُفاة للقيام على أمورهم ، فيعهدون إليهم بهذه الأمور عن رضى واختيار ، لا عن قهر أو استكراه ، ثم يراجعهم في هذه الأمور من شاء منهم أن يراجعهم فيها . فإن استبان لهم أنهم أخطئوا كان الحق عليهم أن يعودوا إلى الصواب ، وإن استبان لهم أنهم انحرفوا كان من الحق أن يستقيموا على الطريقة . وعلى هذا النحو الذي كان الإسلام يريده من أنحاء الحكم ومن أنحاء الصلة بين الحاكمين والمحكومين مضى النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا اختاره الله لجواره مضى خلفاؤه على سنته لم ينحرفوا عنها إلا قليلا من أمر عثمان رحمه الله . حين غلبه بنو أمية على رأيه ؛ وما أكثر ما راجعه الناس في ذلك فصار إلى ما أحبوا وأعطى النصفة من نفسه ومن عمّاله غير مرة . وأعلن التوبة أو استغفر بمشهد من المسلمين ، وعلى منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقد كان عثمان يريد الحق فيقدر عليه أحياناً ويعجز عنه بعض عماله وخاصته أحياناً أخرى . وكان المحقق أن عثمان لم يتعمد تجبراً ولا تكبراً ولا استعلاء ولا استئثاراً ، وأقصى ما يمكن أن يقال فيه إنه أخطأ أحياناً غير عامد إلى الخطأ . وعلى رغم هذا كله ثارت به طائفة من المسلمين وطلبت إليه أن يخلع نفسه ، بعد أن ظهر أنه لا يحسن مقاومة الطغاة من خاصته وعماله . فلما أبى أن يخلع نفسه قتلوه .

وسار عليّ سيرة الشيخين وعسى أن يكون قد تحرّج في بعض أمره أكثر مما كان الخلفاء الذين سبقوه يتحرجون . فتشدّده في أن يقسم في الناس كل ما ورد عليه من المال ، وأن يرى الناس بيت مالهم بين حين وحين خالياً من البيضاء والصفراء . قد كنس ورش ، وقام أمينهم فيه فصلى ركعتين . وعلِم الناس أن أمينهم لم يحتجز من دونهم شيئاً ولم يستأثر عليهم بشيء . وكان لعليّ مال قبل أن يلي الخلافة يُغلّ عليه دخلا حسناً ، فخرج منه وجعله صدقة وفارق الدنيا ولم يترك فيها إلا مئات من دراهم ، اقتصدها من عطائه ليشترى بها خادماً ، كما قال الحسن حين خطب الناس بعد موت أبيه . ولسنا نعلم أن أحداً من الخلفاء الأربعة قتل مسلماً بالشبهة أو عاقبه على الظنة ، وإنما نعلم أنهم كانوا يقتصون من عمالهم ، وأن عثمان أقام الحد على الوليد بن عُقبة ، عامله على الكوفة ، حين شهد الشهود عليه أنه شرب الخمر ، وأن عمر أقام الحد على أحد بنيه حين شُهد عليه بشرب الخمر أيضاً . وأنه همّ برجْم المُغيرة بن شعبة ، لولا أن لجلج زياد في الشهادة بين يديه ، فدرأ الحدّ بالشبهة .

كل هذا وأكثر من هذا كان يصنعه الخلفاء السابقون . فأين نحن من هذا كله أو بعضه ؟ وقد زعم الرواة أن معاوية سأل ابنه يزيد ذات يوم عن السياسة التي يريد أن يختطها لنفسه . فزعم له أنه يريد أن يحاول سياسة عمر . فضحك معاوية وقال : هيهات ! لقد حاولت سيرة عثمان فلم أستطعها فكيف بسيرة عمر .

والشيء الذي ليس فيه شك هو أن أحداً من الخلفاء السابقين لم يأخذ السلطان بالسيف ، ولم يقتل حُجراً ولا أشباه حجر ، ولم يورث الخلافة أحد بنيه ، ولم يستلحق زياداً أو أشباه زياد ، ولم يقل ما قال معاوية ذات يوم بمحضر صعصعة

ابن صُوحان : « الأرض لله ، وأنا خليفة الله . فما أخذت فلى وما تركته للناس فبالفضل منى » . إلا ما كان من عثمان حين زعم على المنبر أنه سيأخذ من بيت المال حتى يرضى وإن رغمت أنوف . فقال له عمار بن ياسر : أشهد أن أنفى أولُ راغم . وقال له علىّ : إذَنْ تمنع من ذلك . وقد رد صعصعة بن صُوحان على معاوية بما يشبه كلام علىّ فقال : ما أنت وأقصى الأمة فى ذلك إلا سواء . ولكن مَن ملك استأثر . فغضب معاوية وقال : لهممت . قال صعصعة : ما كل من همّ فعل قال : ومن يحول بينى وبين ذلك .

قال صعصعة : الذى يحول بين المرء وقلبه ، وخرج وهو ينشد قول الشاعر :

أَرِيغونى إراغَتكم فإنّى وحذْفة كالشَّجا تحت الوَريد

على هذه السياسة سخطت الشيعة ، وعارضت فى كثير من الجلبة حتى قُتل منها حُجر وأصحابه ، وعلى هذه السياسة سخط الخوارج ، وعارضوا بسيوفهم وألسنتهم فقَتلوا وقُتلوا . وعلى هذه السياسة سخط الصالحون من أصحاب رسول الله والتابعون لهم بإحسان ، ولكنهم كانوا ينكرون فى أنفسهم ، وربما جمجموا ببعض النكير . وكان عامة المسلمين . الذين يرون هؤلاء الصحابة والتابعين ويسمعون منهم ، ينكرون مثلهم ويُجمجمون . ومن يدرى لعل معاوية نفسه كان ينكر كثيراً من أمره ، حين يثوب إليه فضل من حلمه وعقله ، فيذكر سيرة رسول الله وخلفائه ويوازن بينها وبين سيرته .

ويحدثنا المؤرخون بأن معاوية لم يتلقّ الموت مطمئناً إليه حين ألمّ به ، وإنما كان يتوجع ويُظهر الجزع ويكثر من ذكر حُجر ، ومن ذكر إسرافه فى أموال المسلمين . ومع ذلك فقد استقبل المسلمون بعد معاوية ملوكاً ودُّوا حين بلوا سيرتهم لو أن معاويةَ عاش لهم إلى آخر الدهر . وكان ابنه يزيد أول هؤلاء الملوك .

فقد كان معاوية رجلاً نشأ نشأة قرشية جاهلية ، فيها كثير من الشظف الذى ليس منه بُدّ لقوم يسكنون وادياً غير ذى زرع ، وإن غلّت لهم التجارة ربحاً كثيراً . ثم أسلم ورأى النبى صلى الله عليه وسلم وكتب له ، وتأثر بصحبته وبصحبة من خالط من خيار المسلمين وأبرارهم ، وعمل لعمر فتأدب بكثير من أدبه . وكان لهذا كله أثره فى سيرته حين استقامت له الجماعة إلى حدّ ما ، حتى أحصيت عليه أغلاطه ومخالفاته عن السنة الرشيدة التى ألفها المسلمون .

فأما ابنه يزيد فقد نشأ نشأة تغاير هذه النشأة أشد المغايرة . ولد فى الشام فى قصر إمارة كثر فيه الترف وكثر فيه الرقيق ، وورث عن أمه شيئاً من بداوة كلب وغلظتها ، وعن أبيه شيئاً من ذكاء قريش ودهائها وسعة حيلتها وحبها للمال والتسلط ، وتهالكها على اللذة حين تُتاح لها الوسائل إليها . فشبّ فتى من فتيان قريش لم يعرف خشونة ولا شظفاً ، ولم يتكلف لحياته اكتساباً ، ولم يعرف فى أثنائها شقاء ولا عناء ، ولم يبذل جهداً إلا فى سبيل ما يرضيه ويلهيه .

فكانت سيرته حين ولى أمر المسلمين مناقضة لسيرة أبيه أشد المناقضة ، ثم مناقضة بعد ذلك لسنة النبى وخلفائه الراشدين أشد المناقضة أيضاً .

كان قبل ولايته لعهد أبيه مسرفاً على نفسه فى طلب اللذة والعكوف عليها والاستهتار بها ، حتى كثر حديث الناس فيه ، وحتى أشار زياد عليه أن يتحفظ ويحتاط ، وأشار على أبيه أن يأخذه بسيرة أرشد من سيرته ومذهب فى الحياة يلائم ما كان يرشحه له من ولاية العهد والنهوض بعده بأمر هذه الدولة الضخمة . فأخذه أبوه بشىء من الحزم وأغزاه بلاد الروم ، وتتبع سيرته على نحو ما ، ولكنه لم يبلغ من تأديبه وتقويمه ما أحب ، كان مشغولا عنه بسياسة الدولة ، وكان الفتى مشغولا عن أبيه بسياسة شهواته الجامحة .

وقد مات أبوه وهو عنه بعيد ، حتى احتاج الضحاك بن قيس إلى أن يقوم مقامه ، فيعلن موت معاوية إلى الناس ونهوض ابنه يزيد بالأمر من بعده .

ثم أقبل الفتى فتلقى دولة عريضة غنية معقدة السياسة ، لم يبذل فى تشييدها جهداً ، ولم يحتمل فى تأييدها مشقة ولا عناء . وقد أقبل على الملك دون أن ينصرف إليه عن لذاته أو يقلع عما كان عاكفاً عليه من العبث واللهو والمجون . أقبل على الملك واثقاً بأن الدنيا قد أذعنت له ، وبأن أموره ستجرى على طريق سواء . ولم ينس إلا شيئاً واحداً ، وهو الجهد العنيف الذى بذله أبوه لتستقيم له هذه الدنيا وليمهد ملكها لابنه .

ولم يكن يزيد يحتمل أن يلتوى عليه أحد بطاعة ، وإنما كان يرى أن طاعته حق على الناس جميعاً ، فمن التوى بها عليه فليس له عنده إلا السيف .

وقد عرفتَ أمر أولئك النفر الذين أكرههم معاوية إكراهاً على أن يسكتوا عن بيعته بولاية العهد ، حين لم يستطع أن يحملهم على قبولها . وقد كانوا أربعة ، مات منهم واحد قبل معاوية ، وهو عبد الرحمن بن أبى بكر ، وبقى منهم ثلاثة فى المدينة هم : الحسين بن علىّ وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر .

فأما الحسين وابن الزبير فقد اعتلاّ بالبيعة ليزيد على الوليد بن عُتبة حين طلبها إليهما ، وجعلا يراوغانه ويستمهلانه حتى فرّا منه بليل لاجئين إلى مكة . وأما عبد الله بن عمر فلم يكن يحب أن يفارق جماعة الناس . فبايع مع عامة أهل المدينة ، وقد كانت بين يزيد وبين ابن الزبير خطوب طوال ثِقال لا يعنينا من أمرها شىء فى هذا الكتاب ، وهى بعدُ لم تنقض بموت يزيد ، بل لم تنقض حتى أرهقت جماعة المسلمين من أمرها عسراً .

وأما الحسين بن علىّ فقد أقام بمكة رافضاً بيعة يزيد . وجعلت الرسل تتصل بينه وبين شيعة أهل البيت فى الكوفة ، وهم أكثر أهلها . وقد استجابت هذه الشيعة للحسين . ويقول المؤرخون إنها هى التى بدأت فدعته إلى أن يأتى الكوفة ليكون إمامهم فيما أزمعوا من خلع يزيد وإخراج عامله النعمان بن بشير . وقد كثرت هذه الكتبُ وكثر الذين أمضوها من أشراف الناس ورءوس القبائل وقرّاء المصر ، حتى منحها الحسين كثيراً من عنايته . وأراد أن يستقصى أمر هؤلاء الناس ، فأرسل ابن عمه مسلم بن عَقيل إلى الكوفة ليلقى أهلها ويعلم علمهم ، فإن آنس منهم نيّة صادقة وعزيمة مصممة على الخروج ونصحاً لآل علىّ أخذ منهم ة مستسرّاً بذلك ، حتى إذا رأى أن قد بايعه منهم من يستطيع أن ينهض بهم

إلى ما يريد من خلع يزيد كتب إليه بذلك ، ليرحل إلى الكوفة ، فمضى الفتى متكرهاً ولقى فى طريقه بعض الجهد ، فكتب إلى الحسين يستعفيه . فأبى الحسين أن يعفيه ، وسار الفتى حتى أتى الكوفة .

فاستخفى بأمره عند بعض أهلها وجعل يلقى وجوه الناس ورؤساءهم حتى إذا استوثق منهم جعل يأخذ البيعة عليهم للحسين . وعرف النعمان بن بشير بعض ذلك ، فلم يحاول أن يصل إلى مسلم ولا أن يعنف بالناس ، وإنما سار فيهم سيرة رجل من أصحاب النبى ، سار سيرة علىّ فى الخوارج ، وسيرة المغيرة بن شعبة فى الخوارج ، والشيعة جميعاً . وجعل يرفق بهم وينصح لهم ، ويحبب إليهم العافية ويدعوهم إلى الوفاء بما أعطوا على أنفسهم من البيعة ليزيد ، ويأبى على خاصته الذين كانوا يأمرونه بالحزم ، حتى كتب كاتبهم بالأمر كله إلى يزيد فلم يكد يزيد يعرف ذلك من أمرهم حتى استشار سرجون مولى أبيه . فأشار عليه بأن يضم الكوفة إلى ابن زياد عامله على البصرة ، ويأمره بالشخوص إليها من فوره ، ففعل . وأقبل عبيد الله بن زياد إلى الكوفة فدخلها ، وقد اضطرب أمر المصر اضطراباً شديداً ، حتى اضطر النعمان بن بشير إلى أن يلزم قصر الإمارة لا يكاد يخرج منه . فنهض ابن زياد بالأمر فى حزم لا يعرف أناة ولا بقية ولا تردداً ، وكان مسلم بن عقيل قد أخذ البيعة على أكثر من ثمانية عشر ألفاً ، وكتب بذلك إلى الحسين وألح عليه فى القدوم إلى الكوفة .

ولم يكد ابن زياد يستقر فى سلطانه الجديد حتى طلب مسلماً سرّاً وعلانية ، وجدّ فى الطلب حتى عرف مكانه عند رجل من أشراف مذحج يقال له هانئ ابن عروة . فلم يزل بهانئ هذا حتى أحضره بين يديه . ثم لم يزل به حتى قرّره بأن مسلماً مختبئ فى داره ، ثم حبسه وهاج الناس لحبسه فلم يبلغوا بهياجهم شيئاً .

وثار مسلم آخر الأمر ونادى بشعاره ، فثارت معه ألوف من أهل الكوفة ، فمضوا حتى بلغوا المسجد ولكنهم لم يثبتوا ، ولم يكد الليل يتقدم حتى كانوا قد تفرقوا عن الفتى وتركوه وحيداً يهيم فى سكك المدينة يلتمس داراً ينفق فيها بقية الليل . وقد جىء به عبيد الله بن زياد آخر الأمر فقتله فى أعلى القصر وألقى رأسه ، ثم ألقى جسمه إلى الناس . وقتل هانئ بن عروة ، وصلب القتيلين معاً ليجعلهما نكالا .

وقد وصل كتاب مسلم إلى الحسين بمكة ، فجعل يتأهب للمسير إلى الكوفة ، وجعل الناس يُلحون عليه في ألاّ يفعل . يخوّفونه بأس يزيد وبطش ابن زياد وغدر أهل الكوفة . ونصح له ابن عباس في أن يمضي إلى اليمن فيقيم في شِعْب من شعابها بعيداً عن يد السلطان وقريباً من شيعته هناك . ونصح له عبد الله بن جعفر ، ورفق به عاملُ يزيد على مكة سعيد بن العاصي ، فأرسل في إثره من يلح عليه في الرجوع إلى مكة ، ويؤمّنه على نفسه وماله وأهل بيته ويرغبه في الصّلات ، ولكن الحسين مضى لوجهه ولم يمض وحده ، وإنما احتمل معه أهل بيته ، وفيهم النساء والصبيان . ولم يسمع لمشورة ابن عباس الذى أشار عليه إن لم يجد بدّاً من المسير أن يترك أهل بيته وادعين آمنين ، وأن يدعوهم إليه إن استقامت له الأمور ، ولكنه أبى . وما أراه أبَى عناداً أو ركوباً لرأسه ، وإنما كان يعلم أن يزيد سيأخذه بالبيعة أخذاً عنيفاً ، فإن بايع غَشّ نفسه وخان ضميره وخالف عن دينه ، لأنه كان يرى بيعة يزيد إثماً ، وإن لم يبايع صنع به يزيدُ ما يشاء .

ولم يكن الحسين مخطئاً فيما قدّر ، فهو قد عرف ما كان من غضب يزيد على ابن الزبير حين امتنع عن البيعة . وأقسم ألا يرضى حتى يحمل إليه ابن الزبير في جامعة يقاد إليه كما يقاد الأسير . ولم يخطئ الحسين حين أبى أن يترك أهل بيته بالحجاز ، فلم يكن يأمن أن يأخذهم يزيد بمسيره هو إلى العراق منابذاً للسلطان .

وقد مضى مع الحسين نفر من بني أبيه ومن بني أخيه الحسن ، واثنان من بني عبد الله بن جعفر ، ونفر من بني عمه عقيل ، ورجال آخرون حرصوا على أن ينصروه . ولما رأت الأعراب قدومه إلى العراق منابذاً ليزيد طمعوا في صحبته وانتظروا منها الخير ، فتبعه منهم خلق كثير .

ودنا الحسين من العراق وقد أرصد ابن زياد له الأرصاد ، وأمَّر رجلا من أشراف الكوفة ، يقال له الحُرّ بن يزيد ، على ألف من الجند ، وأمرهم أن يلقوا الحسين فى مقدمه ذاك فيأخذوا عليه طريقه ويحولوا بينه وبين الذهاب فى أى وجه من وجوه الأرض ، ولا يفارقوه حتى يأتيهم أمره . ولما عرف الأعراب أنها الحرب تفرقوا عنه ، فلم يبق معه منهم أحد .

ولقى الحسينُ الحرَّ بن يزيد فى أصحابه ، فلما علم علمهم أراد أن يعظهم ويذكرهم ، فسمعوا منه ورضوا قوله ،ولكنهم لم يطيعوه وإنما أطاعوا أميرهم ابن زياد . ثم ندب ابن زياد لحرب الحسين رجلا من أقرب الناس إليه ، هو عمر بن سعد بن أبى وقاص فاستعفاه عمر فلم يُعفه . وأرسل معه جيشاً من ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف ، فمضى عمر حتى لقى الحسين فسأله : فيم قدم ؟ قال الحسين : كتب إلىّ أهل المصر يستقدموننى ويبذلون لى نصرهم ، وأظهر كُتُبَهم لعمر . فعرضت هذه الكتب على بعض من أمضاها ممن حضر . فكلهم أنكرها . وكلهم جحدها مقسماً أنه لا يعلم من أمرها شيئاً .

وقد عرض الحسين على عمر أن يختار خصلة من ثلاث ، فإما أن يخلّوا بينه وبين طريقه إلى الحجاز ليعود إلى المكان الذى جاء منه ، وإما أن يسيّروه إلى يزيد بالشام ، ليكون بينه وبين يزيد ما يكون . وإما أن يخلّوا بينه وبين الطريق إلى ثغر من ثغور المسلمين ، فيكون هناك كواحد من الجند الذين يرابطون بإزاء العدو ، له مثل ما لهم من العطاء وعليه مثل ما عليهم من الجهاد . فأما عمر بن سعد فرضى ، وقال : أوامر ابن زياد .

وكتب إلى ابن زياد بما عرض عليه الحسين ، فأبى إلا أن ينزل الحسين على حكمه ، وكتب بذلك إلى عمر ،وأرسل الكتاب إليه مع شَمِر بن ذى الجَوْشَن ، وقال له : أقرئه الكتاب وانظر ما يصنع ، فإن نهض لقتال الحسين فأقم معه رقيباً عليه حتى يفرغ من أمره ، وإن أبى أو تثاقل فاضرب عنقه وكن أمير الجيش . ولم يكد عمر بن سعد يقرأ كتاب ابن زياد ويعلم ما أمر به حامل الكتاب حتى نهض لقتال الحسين ، وطلب إليه أن ينزل على حكم ابن زياد . فأبى الحسين وقال :

أما هذه فمن دونها الموت . ثم زحف عمر بجيشه على الحسين وأصحابه ، وكانوا اثنين وسبعين رجلا ، فقاتلوهم أكثر من نصف النهار . وأبلى الحسين وبنو أبيه وبنو عمومته ومن كان معه من أنصاره القليلين أعظم البلاء وأقساه، فلم يُقتلوا حتى قتلوا أكثر منهم . ورأى الحسين المحنة كأشنع ما تكون المحن ، رأى إخوته وأهل بيته يُقتلون بين يديه وفيهم بنوه وبنو أخيه الحسن وبنو عمه ، وكان هو آخر من قُتل منهم بعد أن تجرع مرارة المحنة فلم يبق منها شيئاً .

وكان نفر يسير من أصحاب عمر بن سعد قد ضاقوا برفض ابن زياد ما عرض عليه الحسينُ من الخصال ، ففارقوا جيشهم وانضموا إلى الحسين ، فقاتلوا معه حتى قُتلوا بين يديه . ونظر المسلمون فإذا قوم منهم — على رأسهم رجل من قريش من أبناء المهاجرين ، أبوه أول من رمى بسهم فى سبيل الله ، وأحد العشرة الذين شهد النبي لهم بالجنة ، وقائد المسلمين فى فتح بلاد الفرس ، وأحد الذين اعتزلوا الفتنة فلم يشاركوا فيها من قريب ولا من بعيد — نظر المسلمون فإذا قوم منهم ، عليهم هذا القرشى عمر بن سعد بن أبى وقاص ، يقتلون أبناء فاطمة بنت رسول الله ، ويقتلون أبناء علىّ ، ويقتلون ابنى عبد الله بن جعفر بن أبى طالب الطيار شهيد مؤتة ثم يحزّون رءوسهم ثم يسلبونهم ، ويسلبون الحسين حتى يتركوه متجرداً بالعراء ، ويصنعون بهم ما لا يصنع المسلمون بالمسلمين . ثم يَسْبُون النساء كما يُسبى الرقيق ، وفيهم زينب بنت فاطمة بنت رسول الله ، ثم يأتون بهم ابنَ زياد فلا يكاد يرفق بهم إلا حياءً واستخزاء ، حين قال له علىّ بن الحسين وقد كان صبياً وهمّ ابن زياد بقتله فقال له : إن كانت بينك وبين هؤلاء النساء قرابة فأرسل معهن إلى الشام رجلا تقيًّا رفيقاً . هنالك ذكر عبيد الله أن أباه يدْعى لأبى سفيان ، فاستحيا ولم يقتل الصبى ، وإنما أرسله مع سائر أهل الحسين إلى يزيد ، وقدّم رءوس القتلى بين أيديهم وفيها رأس الحسين . وقد دخل به على يزيدَ فوُضع أمامه ، فجعل ينكت فى ثغره بقضيب كان فى يده وينشد :

يفلّقن هاماً من رجال أعزّة ... علينا وهم كانوا أعقّ وأظلما

وزعم الرواة أن أبا بَرْزة صاحب النبى كان حاضراً هذا المجلس، فقال ليزيد :

لا تفعل هذا فربما رأيتُ شفتي رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذا الثغر مكان هذا القضيب ، ثم قام فانصرف .

وأدخل السبي على يزيد فأغلظ لهم أول الأمر ، ثم لم يلبث أن رفق بهم وبرّهم وأدخلهم على أهله ، ثم جهزهم بعد ذلك إلى المدينة وردّهم إليها كراماً .

والرواة يزعمون أن يزيد تبرأ من قتل الحسين على هذا النحو ، وألقى عبء هذا الإثم على ابن مُرجانة عبيد الله بن زياد . ولكنا لا نراه لامَ ابن زياد ولا عاقبه ولا عزله عن عمله كله أو بعضه . ومن قبله قتل معاوية حُجْرَ بن عدى وأصحابه ثم ألقى عبء قتلهم على زياد وقال : حمّلني ابن سُمية فاحتملت .

وكذلك أصبح للشيعة ثأر عند الخوارج لأنهم قتلوا علياً غيلة ، وللخوارج عند الشيعة ذُحول لأن علياً قتل من قتل منهم فى النهروان وفى غير النهروان من المواقع ، وأصبح للشيعة ثأران عند بنى أمية ، لأن معاوية قتل حُجْرًا وأصحابه ، ولأن يزيد قتل الحسين وأهل بيته وجماعة من أصحابه .

وكان بنو أمية يزعمون أن لهم عند الشيعة ثأراً ، أو قل عند الشيعة والخوارج ، لما كان من قتل عثمان بأيدى الثائرين ، الذين فى بعضهم لعلىّ وخرج بعضهم عليه . ثم لبنى أمية ذُحول أخرى أخرى عند عامة المسلمين ، لقتل من قتل منهم يوم بدر . وقد ذكر يزيد فيما زعم بعض الرواة ، هذه الذُّحول فى هذا الموطن حين أنشد بعد وقعة الحَرَّة :

ليت أشياخى ببَدْرٍ شهدوا جزَع الخزرج من وقع الأسل

ومهما يكن من شىء فقد أصبح الخلاف بين هذه الجماعات لا يقوم على تباعد الرأى فى الدين وحده ، وإنما يقوم على الذحول والأوتار والدماء .

لكل جماعة من هذه الجماعات ثأر عند الجماعتين الأخريين . ومعنى هذا كله أن العصبية أصبحت أساساً من أسس الفتنة ، التى دفعت المسلمين إلى كثير من الشر ، والتى لم تنقَضِ بقتل الحسين ولا بموت يزيد ، وإنما اتصلت بعد ذلك دهرًا طويلاً وبقيت آثارها فى حياة المسلمين إلى الآن .

والشىء الذى ليس فيه شك ، هو أن أهل العراق لم يكونوا وحدهم هم الذين قرّبوا القرابة وباعدوا الدين ، كما قال لهم زياد فى خطبته البتراء ، وإنما عَمَّت المحنة بذلك أهل العراق وأهل الشام وأهل مصر وأهل الحجاز كما سترى .

وقد يقال إن الحسين قد ثار بيزيد ورفض بيعته ، وثار إلى الكوفة يريد أن يُخرج أهلها عن طاعته ويفرق جماعة الناس ، ويرد الحرب بين المسلمين إلى ما كانت عليه أيام أبيه . فلم يكن يزيد وأميره فى العراق بادئين فى الشر مثيرين للفتنة ، وإنما ذادا عن سلطانهما وحافَظا على وحدة الأمة . وقد كان هذا يستقيم

لو أن الحسين مضى إلى حربه مصمماً عليها ، لا يقبل فيها مفاوضة ولا يقبل عنها رجوعاً ، ولكن الحسين عرض خصاله الثلاث تلك التي عرضها . وكانت العافية في كل واحدة منهن ، فلو قد خلّى بينه وبين الرجوع إلى الحجاز لعاد إلى مكة التي لم يكن يجب أن تسفك فيها الدماء ، لأنها بلد حرام ، ولأنها لم تُحَل لرسول الله نفسه إلا ساعة من نهار . ولو قد خلّى بينه وبين اللحاق بيزيد لكان من الممكن أن يبلغ يزيد منه الرضى على أي نحو من الأنحاء ، أو أن يقيم عليه حجة ظاهرة لا تقبل مراء ولا جدالا . ولو قد خلى بينه وبين المسير إلى ثغر من ثغور المسلمين لكان رجلا من عامة الناس يجاهد العدو ويشارك في الفتح ، لا يؤذى أحداً ولا يؤذيه أحد من المسلمين . ولكن أصحاب ابن زياد أبوا إلا أن يستذلوه ويستنزلوه على حكم رجل لم يكن الحسين يراه كفؤاً ولا نداً . فلم يكن ما وقع من الشر إلا طغياناً وإسرافاً في التجبّر والبغي ، وكأن ابن زياد ظن أنه سيجتث الفتنة من أصلها بقتل الحسين ، فيوئس الشيعة من أمرها ، ويضطرها إلى أن تنحرف عما كانت تعلل نفسها به من الآمال والمنى إلى الإذعان لما ليس بدّ من الإذعان له .

ولكنك سترى ، في غير هذا الجزء من أجزاء هذا الكتاب ، أن ابن زياد لم يزد الفتنة إلا استعاراً ، وأن الشر يدعو إلى الشر . والدماء تدعو إلى الدماء ؛ وهذا الإسراف في القتل والتنكيل بالمقتولين وبمن تركوا من الأطفال والنساء . فقد سلب القتلى وفيهم ابن فاطمة حفدتها ، وسلب أبناء عليّ وغيرهم من أصحاب الحسين ، ونزع من النساء كل ما كان معهن من حليّ وثياب ومتاع . واضطر يزيد بعد ذلك إلى أن يعوضهن ما أخذ منهن .

وكان عليٌ رحمه الله يتقدم إلى أصحابه في حروبه ألا يتبعوا هارباً ، ولا يجهزوا على جريح ، ولا يأخذوا من المنهزمين إلا ما أوجفوا به من خيل أو سلاح . وكان الأمر يجري على ذلك في صفين . فسيرة ابن زياد هذه التي سارها في الحسين وأصحابه كانت بدعاً منكراً مما ألف المسلمون حتى في فتنهم الشنيعة . ثم هو لم يلق من يزيد في ذلك عقاباً ولا لوماً ، وإنما لقي منه رضى وإيثاراً .

وقد تمت بهذه الموقعة محنة لعليّ في أبنائه لم يمتحن بمثلها مسلم قط قبل هذا اليوم ، فقد قتل من بنيه الحسين بن فاطمة والعباس وجعفر وعبد الله وعثمان ومحمد

وأبو بكر ، فهؤلاء سبعة من أبنائه قتلوا معاً فى يوم واحد . وقتل علىّ بن الحسين الأكبر وأخوه عبد الله ، وقتل عبد الله بن الحسن وأخواه أبو بكر والقاسم ، وهؤلاء الخمسة من حفدة فاطمة . وقُتل من بنى عبد الله بن جعفر الطيَّار محمد وعون . وقتل نفر من بنى عقيل بن أبى طالب فى الموقعة ، بعد أن قتل مسلم بن عقيل فى الكوفة كما رأيت .

وقُتل غير هؤلاء سائر من كان مع الحسين من الموالى والأنصار . فكانت محنة أى محنة للطالبيين عامة وأبناء فاطمة خاصة . ثم كانت محنة أى محنة للإسلام نفسه ، خولف فيها عما هو معروف من الأمر بالرفق والنصح وحقن الدماء إلا بحقها وانتهك أحق الحرمات بالرعاية ، وهى حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم التى كانت تفرض على المسلمين أن يتحرّجوا أشد التحرج ، ويتأثموا أعظم التأثم ، قبل أن يمسوا أحداً من أهل بيته .

كل ذلك ولم يمض على وفاة النبى صلى الله عليه وسلم إلا خمسون عاماً . فإذا أضفت إلى ذلك أن الناس تحدثوا فأكثروا الحديث ، وألحوا فيه بأن الحسن قد مات مسموماً لتخلص الطريق ليزيد إلى ولاية العهد ، عرفت أن أمور المسلمين قد صارت أيام معاوية وابنه إلى شرّ ما كان يمكن أن تصير إليه .

ولم يلبث هذا النُّكر أن أحدث آثاره الأولى ، ولم تكن أقل منه نكرًا . فقد انتهت محنة الحسين إلى الحجاز فكانت صدمة لأهله وللصالحين منهم خاصة ، وجعل الناس يتحدثون بها ، فيكثرون الحديث وجعلوا يعظمون أمرها . ما أكثر ما تحدثت قلوبهم إليهم ، وما أكثر ما تحدث بعضهم إلى بعض حين كانوا يَخْلُون ، بأن سلطان يزيد قد أمعن فى الخلاف عن أمر الله ، فلم تصبح طاعته لازمة ، بل أصبح الخروج عليه واجبًا حين يمكن الخروج عليه .

وقد عظم فى الحجاز أمر عبد الله بن الزبير ، وكثر أصحابه وأشياعه ، وجعل يزيد يَجِدُّ فى أن يفرغ منه كما فرغ من أمر الحسين وانتهى الخبر إلى يزيد بأنَّ أمرَ المدينة قد اضطرب ، وبأن أهلها يظهرون النكير عليه ولا يَسْتَخفُون به . فطلب إلى عامله أن يرسل إليه وفدًا منهم ففعل ، وأقبل الوفد فلقيه يزيد أحسن لقاء ، ووصل أعضاءه فأعطى كل واحد منهم خمسين ألفاً . وظن أنه قد أسَى بإحدى يديه ما أفسد بالأخرى . ولكن الوفد يعودون إلى المدينة فيقولون لأهلها جهرة : جئناكم من عند فاسق يشرب الخمر ويضيع الصلاة ويتبع شهواته ويضرب بالطنابير وتغنى عنده القيان .

وتصل هذه الأحاديث إلى عبد الله بن الزبير بمكة فيلهج بيزيد أشد اللهج ، ويضيف إليه من الشر والنكر والموبقات ما يشاء . ثم يثور أهل المدينة ويُخرجون عامل يزيد ، ويؤمّرون عليهم رجلا منهم هو عبد الله بن حنظلة الغَسيل ويحصرون بنى أمية . ويُضطر يزيد آخر الأمر إلى أن يرسل إليهم النعمان بن بشير الأنصارى ليستصلح قومه ، فلا يبلغ النعمان منهم شيئًا . فيرسل إليهم يزيد جيشًا قوامه اثنا عشر ألفًا من أهل الشام ، ويؤمّر على هذا الجيش مسلم بن عقبة المُرّى ، ويرسم له خطة أولها حق وآخرها باطل ، وهى أن يأتى المدينة فيدعو

أهلها إلى الطاعة ويُعذر إليهم وينتظر بهم ثلاثاً ، فإن أطاعوا فذاك ، وإن أبوا قاتلهم .

وإلى هنا لا يتجاوز يزيد ما ينبغي له من الحق فى رد الخارجين عليه إلى طاعته . ولكن يزيد لا يكتفى بهذا وإنما يمضى إلى الباطل من خطته ، فيأمر مُسلماً إذا انتصر على خصمه من أهل المدينة أن يبيحها ثلاثاً لأهل الشام ، يصنعون بأهلها ما يشاءون وينهبون من أموالهم ومتاعهم ما يحبون . لا يحرّج عليهم فى شىء من ذلك ولا يحرم عليهم شيئاً منه .

وقد جاء مسلم إلى المدينة فقاتل أهلها بعد أن أعذر إليهم ، وقُتل منهم فى الموقعة خلق كثير . ثم أباح المدينة ثلاثاً لجنده فقتلوا ونهبوا ، واستباحوا من محارم الناس ما عصم الله . ثم أخذ مَن بقى من أهل المدينة بالبيعة ، لا على كتاب الله وسنة رسوله كما تعود المسلمون أن يبايعوا . ولكن على أنهم خَوَل ليزيد ، فمن أبى منهم هذه البيعة المنكرة أمر به فضربت عنقه .

وكذلك عُصى الله وخولف عن الدين جهرة فى مدينة النبى ، وظن يزيد وأعوانه أنهم قد انتقموا بذلك لعثمان . ثم تحول الجيش عن المدينة إلى مكة فحاصروا فيها ابن الزبير ، ومات مسلم فى الطريق . فقام بأمر الجيش بعده الحُصين بن نُمير السّكونى . وقد شدد أهل الشام الحصار على مكة ، ثم لم يقفوا عند ذلك وإنما رموها بالمجانيق ، وحرقت الكعبة . واتصل الحصار حتى جاءهم موت يزيد فقفلوا راجعين إلى الشام دون أن يلقى ابن الزبير منهم كيداً .

وكان فى حصار ابن الزبير بمكة والمضىّ فى هذا الحصار حتى يستسلم ابن الزبير مَقنع ليزيد وأصحابه ، ولكن جيش يزيد أبى إلا أن ينتهك حُرمة مكة كما انتهك حرمة المدينة . وأسخط يزيد على نفسه بذلك أهلَ الحجاز وعامة المسلمين ، كما أسخطهم بقتل الحسين .

والغريب المنكر من هذا كله هو تجاوز الحد والغلو فى الإثم . فقد كانت السياسة تقتضى أن يقاتل الخارجون على يزيد حتى يقتلوا أو يفيئوا إلى طاعته . فأما المُثلة وانتهاك الحرمات ففظائع لا ينكرها الدين وحده ، وإنما تنكرها السياسة

أيضًا ، وتنكرها السنة العربية المعروفة ، وهى بعد ذلك تُحفظ الصدور وتملأ القلوب ضغينة وحقدًا . وقد أحفظ يزيد أهل الجماعة أنفسهم بعد أن أحفظ قلوب غيرهم من الشيعة والخوارج .

ثم لم تكن عاقبة هذا كله على آل أبى سفيان إلا خروج المُلك منهم وانتقاله إلى غيرهم . فقد مات يزيد ولمّا يملك إلا أربع سنين ، قتلته لذته أشنع قتلة ؛ فقد كان ، فيما زعم الرواة ، يسابق قِرْدًا فسقط عن فرسه سقطة كان فيها الموت .

وقد انتهت هذه الفتنة ، التى شبت نارها فى المدينة سنة خمس وثلاثين بقتل عثمان ، إلى هذه المرحلة من مراحلها بعد أن اتصلت ثلاثين عاماً أو نحو ذلك ، وبعد أن أثارت من الخطوب الجسام ما رأيت ، وبعد أن سفك فيها ما سفك من الدماء ، وأزهق فيها ما أزهق من النفوس ، وانتهك فيها ما انتهك من الحرمات ، وقُضى فيها على سنة الخلافة الراشدة ، وفُرّق فيها المسلمون شيعاً وأحزاباً ، وأسس فيها ملك عنيف لا يقوم على الدين وإنما يقوم على السياسة والمنفعة . وكان يظن ، حين استتمام أمر هذا الملك لمؤسسه عشرين عاماً ، أنه سيمضى فى طريقه وادعاً مطمئناً مستقراً فى بنى أبى سفيان دهراً على أقل تقدير ، ولكنه لم يستقر فيهم إلا ريثما تحوّل عنهم .

ثم لم يتحول عنهم فى يسر ولين ، لأن الفتنة لم تنقض بموت يزيد ، وإنما قطعت مرحلة من مراحلها ، ثم استأنفت عنفها وشدتها بعد موت يزيد ، فعرضت المسلمين ودولتهم لخطوب ليست أقل جسامة ولا نكراً من الخطوب التى صورنا بعضها فيما قرأت من هذا الكتاب .

وقد أصبح للمسلمين مثل بعينه من هذه المثل العليا الكثيرة التى دعا إليها الإسلام ، وجعلت الفتنة تدور حول هذا المثل الأعلى لتبلغه فلا تظفر بشىء مما تريد ، وإنما تسفك الدماء وتزهق النفوس وتنتهك المحارم وتفسد على الناس أمور دينهم ودنياهم . وهذا المثل الأعلى هو العدل الذى يملأ الأرض وينشر فيها السلام والعافية ، والذى تقطعت دونه أعناق المسلمين قروناً متصلة دون أن يبلغوا منه شيئاً . حتى استيأس من قُربه بعض الشيعة ولم يستيئسوا من وقوعه ، فاعتقدوا أن إماما من أئمتهم سيأتى فى يوم من الأيام فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً .

ولله حكمة أجرى عليها أمور الناس ، والله بالغ أمره ، قد جعل لكل شىء قدراً . ونحن مصورون إن شاء الله فيما يلى من فصول هذا الكتاب بعض ما كان من خطوب هذه الفتنة . وعسى أن يكون هذا قريباً .

كوليه أزاركو أغسطس سنة ١٩٥٢

القاهرة مايو سنة ١٩٥٣

المراجع

يضاف إلى المراجع التي ذكرت في الجزء الأول من هذا الكتاب المراجع الآتية :

الفصول المهمة في معرفة الأئمة	الشيخ نور الدين علي بن محمد بن الصباغ
فرق الشيعة	أبو محمد الحسن بن موسى النوبختي
تاريخ الإسلام	شمس الدين محمد بن عبد الله الذهبي
مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين	الإمام أبو الحسن علي بن إسمعيل الأشعري
أعيان الشيعة	السيد محسن الأمين الحسيني العاملي
الأخبار الطوال	أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري
تثبيت الإمامة	الإمام القاسم بن إبراهيم بن إسمعيل
بحار الأنوار	العلامة المجلي محمد بن باقر
الإمام علي بن أبي طالب	الأستاذ عبد الفتاح عبد المقصود
ترجمة علي بن أبي طالب	الأستاذ أحمد زكي صفوت
السياسة عند العرب	الأستاذ عمر أبو النصر
عبقرية الإمام	الأستاذ عباس محمود العقاد
دعائم الإسلام	أبو حنيفة النعمان بن محمد

فهارس الكتاب

صفحة

فهرس الأعلام ٢٥٢

فهرس القبائل ٢٦٠

فهرس الأماكن ٢٦٣

فهرس القوافي ٢٦٦

فهرس الأيام ٢٦٧

فهرس المواضيع ٢٦٨

فهرس الأعلام

(ا)

إبراهيم (ابن الرسول) ٢٦ ، ٢١٦ ، ٢٢٩

إبراهيم (عليه السلام) ١٧٣

ابن أبي طالب = علي بن أبي طالب

ابن أبي طالب = عبد الرحمن بن أبي ليلى

ابن الإطنابة ٧٤

ابن بكير = عمرو بن بكر

ابن جرموز (عمرو) ٤٥

ابن الحضرمي = عبد الله بن عامر الحضرمي

ابن الخثعمية = محمد بن أبي بكر

ابن زياد = عبيد الله بن زياد .

ابن سمية = عمار بن ياسر

ابن السوداء = عبد الله بن سبأ

ابن عباس = عبد الله بن عباس

ابن عباس = عبيد الله بن عباس

ابن عتبة = هاشم بن عتبة بن أبي وقاص

ابن عدي = حجر بن عدي

ابن عفان = عثمان بن عفان

ابن عمر = عبيد الله بن عمر

ابن مرجانة = عبيد الله بن زياد

ابن مسعدة الفزاري ١٣٥ ، ١٤٨

ابن ملجم = عبد الرحمن بن ملجم

ابن هند = معاوية بن أبي سفيان

أبو الأسود الدؤلي ٣٤ ، ٤٥ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٦ ، ١٥٩ ، ١٧٤

أبو الأعور عمرو بن سفيان السلمي = عمرو بن سفيان السلمي أبو الأعور

أبو بردة بن أبي موسى الأشعري ٢١ ، ٢٢١ ، ٢٤١

أبو بكر ٥ ، ٦ ، ٧ ، ١٠ ، ١١ ، ١٩ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٥٣ ، ٥٩ ، ٦٨ ، ٨٠ ، ١٠٩ ، ١١٢ ، ١٥٧ ، ١٧٤ ، ١٥٧ ، ١٨١ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢٢٥ ، ٢٤٥

أبوبكر بن علي ٢٤٥

أبو بلال مرداس بن أدية = مرداس بن أدية أبو بلال

أبو جهل ٤٣ ، ٧٧

أبو ذر (جندب بن جنادة) ٥٧

أبو سعيد الخدري ١٤١

أبو سفيان ١٣ ، ١٤ ، ١٧ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢٢٢ ، ٢٤١ ، ٢٤٩

أبو طالب ١٥ ، ١٦

أبو عبد الله = الحسين بن علي

أبو عبد الله = عمرو بن العاص

أبو مريم السعدي ١٣٩ ، ١٤٠

أبو مسلم عبد الرحمن ٦٥ ، ٦٦

أبو موسى الأشعري (عبد الله بن قيس) ٢٢ ، ٢٥ ، ٣٤ ، ٤٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٥٩ ١٠٢ ، ٢٠٢

أبو هريرة ١٦٠

أبو اليقظان = عمار بن ياسر

الأجلح = علي بن أبي طالب

الأحنف بن قيس ٣٧ ، ٤٥ ، ٨٢ ، ١٣٠ ، ٢١٦

أسامة بن زيد ١٩ ، ٣١

أسلم بن زرعة ٢٣٠ ، ٢٣١

أسماء بنت أبي بكر ٤٤

أسماء الخثعمية ٢٦

الأشتر (مالك بن الحارث) ٣٤ ، ٥٣ ، ٦٤ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ٨٣ ، ١٢٠ ، ١٥٥ ، ١٩٢

أشرس بن عوف الشيبانى ١٣٩
الأشعث بن قيس الكندى ٨٠ ، ٨١ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ١٥٠
الأشهب بن بشر البجلى ١٣٩
أعين بن ضبيعة ١٣١ ، ١٣٣
أم أيمن ١٧
أم حبيبة ٢٠٦
أم سلمة ٢٥
أم كلثوم ٢٥
أم المؤمنين = عائشة
أم فروة ٨٠

(ب)

بسر بن أرطاة ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٦١
البلاذرى ٦٥ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ١٤٢ ، ١٥٢ ، ١٦٠ ، ١٨٩ ، ٢٠٤ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤

(ج)

الجاحظ ٢١٣
جارية بن قدامة ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٨ ، ٢١٢
جرير بن عبد الله البجلى ٦١ ، ٦٣
جعفر بن أبى طالب ٦٨ ، ٦٩ ،
جعدة بنت الأشعث بن قيس ٦٩ ، ١٩٣
جعفر بن على ٢٤٤
جلولاء ١٢٧
جندب بن عبد الله الأزدى ١٨٩

(ح)

الحارث بن كلدة ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨
حبيب بن مسلمة الفهرى ٨٤
الحجاج ٢٣٣
الحجاج بن عبد الله الصريمى ١٦٦
حجر بن عدى الكندى ٨٤ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٧ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥
حذفة (فرس) ٢٥٧
الحر بن يزيد ٢٤٠
حرقوص بن زهير ٣٧ ، ٤٢ ، ٩١ ، ١٥٥ ، ١٧١
حسان بن حسان ١٣٥
الحسن البصرى ٢٤٨
الحسن بن على ٢٦ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٥٩ ، ٦٥ ، ١٦١ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢١٤ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٣٤ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٦ ، ٢٥٦ ، ٢٦٨
الحسين بن على ٢٦ ، ١٦٨ ، ١٧٧ ، ١٨٦ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٦ ، ٢٣٦ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦
حصن ٢٦
الحصين بن نمير السكونى ٢٤٧
حفصه بنت عمر ٢٥ ، ٢٨
حكيم بن جبلة العبدى ٣٦ ، ٣٧
حمزة بن عبد المطلب ١٤ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ١٥٥
حمزة بن مالك الهمدانى ١٤ ، ٨٤

(خ)

خارجة بن حذافة العدوى ١٨٣
خالد بن العاص بن هشام ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٣٠

خديجة ١٥٥
الخريت بن راشد السلمى ١١٤ ، ١١٥ ، ١٥٣
خزيمة بن ثابت الأنصارى ٧٧

(د)

دريد بن الصمة ٩٤
داود (عليه السلام) ٢١٦

(ذ)

ذو الثدية ١١٤ ، ١١٥
ذو الثفنات — عبد الله بن وهيب الخارجى

(ر)

الربيع بن زياد ٢٢٣
رسول الله صلى الله عليه وسلم = محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم)

(ز)

الزبير بن العوام ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٥ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٥٨ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٥ ، ٩٠ ، ١٣٢ ، ١٧٦
زمل بن عمرو العذرى ٨٤
الزهرى ١٩٥
زياد بن أبى سفيان ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٩ ، ١٩٦ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ،
زياد ابن أبيه = زياد بن أبى سفيان
زياد بن خصفة ١٤٣
زيد بن حارثة ٢١٠
زيد بن على بن حاتم ١١٦
زيد بن محمد = زيد بن حارثة
زينب بنت فاطمة ٢٤١

(س)

سالم بن أبى حذيفة ٢١٠
سامة بن لؤى ١١٤
سبرة الجهنى ٢٣
سبيع بن يزيد الحضرى ٨٤
سرجيس (غلام الزبير) ٤٥
سعد ١٦٤
سعد بن أبى وقاص ٧ ، ٩ ، ١٥ ، ١٩ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٦٠ ، ١٨٤ ، ٢٢٧
سعد بن عبادة ٣٠
سعد بن قيس الهمدانى ٨٤ ، ١٧٨
سعد بن معوذ الثقفى ١٦٠
سعيد بن زيد عمرو بن نفيل ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠
سعيد بن أبى العاص ٣٥ ، ٢٣٩
سعيد بن قفل التيمى ١٣٩
سفيان بن عوف ١٣٤
سلمان الفارسى ١٧٥
سليمان بن صرد الخزاعى ١٨٨
سمرة بن جندب ٢٣٨
سمية ٧٧ ، ٨٤ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢١١ ، ٢١٨
سهل بن حنيف ٢٢ ، ٣٧ ، ١٥٢ ، ١٥٩

(ش)

شبث بن ربعى التميمى ٨٩ ، ٩٤
شريح القاضى ٢٤٢
شريح بن هانئ ٩٦ ، ١٠٠
شميط ١٥٢

(ص)

صبرة بن شيمان ٤٤
صعصعة بن صوحان ٩٥ ، ١٤٩ ، ٢٣٤
صفية بنت الحارث العبدرية ٥٢ ، ٥٤
صفيه بنت عبد المطلب ٤٥
صفية بنت عبيد ٢٠٣ ، ٢٠٤

(ض)

الضحاك بن قيس ١٣٤ ، ٢٣٦

(ط)

الطبرى (محمد بن جرير) ٥٣ ، ٩٢ ، ١٥٢ ، ٢٢٦
طلحة بن عبيد الله ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٥ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٥٨ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٥ ، ٩٠ ، ٩٣ ، ١٧٦

(ع)

عائشة بنت أبى بكر ١٠ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ١٣٠ ، ١٦٨ ، ١٧٦ ، ١٩٦ ، ٢٠٤ ، ٢٢٣
عباد بن أخضر ٢٣١
العباس بن عبد المطلب ١٧ ، ١٨ ، ١٧٤
العباس بن على ٢٤٤
عبد الرحمن بن أبى بكر ٢٠٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣٧
عبد الرحمن بن أبى ليلى ٢٢٣
عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ٢٢٣
عبد الرحمن بن خالد بن الوليد المخزومى ٨٤ ، ١٩٣
عبد الرحمن بن سمرة ١٨٢
عبد الرحمن بن عوف ٦ ، ١٧٥
عبد الرحمن بن ملجم الحميرى ١٦٦ ، ١٦٧
عبد الله بن الأهتم ٢١٦
عبد الله جعفر بن أبى طالب ٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٤٥
عبد الله بن الحارث بن نوفل ١٨٣ ، ١٨٤
عبد الله بن حنظلة ٢٤٦
عبد الله بن حجل الأوحى اليكرى ٨٤
عبد الله بن الحسين ٢٤٥
عبد الله بن خباب بن الأرت ١٠٤
عبد الله بن خلف الخزاعى ٤٩ ، ٥٢
عبد الله بن الزبير ٨، ٤١، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٥٤ ، ٩٨ ، ٢٢٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٦
عبد الله بن سبأ ٤٣ ، ٤٦ ، ١٥٢ ، ١٦٦
عبد الله بن طفيل ٨٤
عبد الله بن عامر ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٤ ، ١٨٢ ، ١٨٨ ، ١٩٨ ، ٢٠٥ ، ٢١٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨
عبد الله بن عباس ١٣ ، ٢١ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٧٣ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ١١٥ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٥١ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٦ ، ١٧٨ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢٠٣ ، ٢٠٩ ، ٢٣٩
عبد الله بن على ٢٤٤ ، ٢٤٥
عبد الله بن عمر ٩ ، ١٥ ، ١٩ ، ٢٥ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٩ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ٢١١ ، ٢٢٣ ، ٢٣٧
عبد الله بن عمرو بن العاص ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠
عبد الله بن قيس = أبو موسى الأشعرى
عبد الله بن الكواء اليشكرى ٨٩

عبد الله بن مسعود ٢٦
عبد الله بن مسلم الخولاني ٦٥
عبد الله بن وهب الراسبي ذو الثفنات ١٠٥
عبيد الرومي ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٢٠٨ ،
٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١
عبيدالله بن زياد ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ،
٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤
عبيد الله بن عباس ٢٢ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ،
١٧٨ ، ١٧٩
عبيد الله بن عمرو ١١ ، ٧٦ ، ٢١٨
عبيدة بن الحارث ٦٨ ، ٦٩
عتبة بن أبي سفيان ٦٣ ، ٨٤
عتبة بن غزوان ٢٠٣
عثمان بن أبي طلحة ١٤١
عثمان بن حنيف ٢٢ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ،
عثمان بن سلف الخزاعي ٤٧
عثمان بن عفان ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ١٠ ،
١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٦ ، ١٩ ،
٢٠ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ،
٢٨ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٧ ، ٤١ ، ٤٢ ،
٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٥١ ،
٥٢ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ ،
٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٩ ،
٨٠ ، ٨٥ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ،
٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٢ ، ١١٥ ، ١١٦ ،
١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٤ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ،
١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦٢ ،
١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨٨ ،
١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٩ ،
٢١٨ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ،
٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩
عدي بن حاتم ١٠٦
عروة بن أدية ٨٦
العصا (فرس) ١٥٢
عقبة بن زياد ٨٤
عقيل بن أبي طالب ٥٩ ، ٦٠ ، ٢٣٩
علقمة بن يزيد الحضرمي ٨٤
علي بن أبي طالب ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١١ ، ١٢ ،
١٤ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ،
٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ،
٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ،
٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٠ ،
٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ،
٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ،
٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ،
٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ،
٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ،
٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ،
٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ،
٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ،
٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٥ ،
٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٢ ،
١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ،
١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ،
١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ،
١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ،
١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ،
١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ،
١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ،
١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ،
١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ،
١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ،
١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٤ ،
١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ،
١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٨ ،
١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ،
١٩٤ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٣ ، ٢١٢ ،
٢١٤ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٨ ،
٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ٢٤١ ،
٢٤٣
علي بن الحسين ٢٤١ ، ٢٤٥
عمار بن ياسر ١٩ ، ٣٤ ، ٤٥ ، ٧٦ ،

٧٧ ، ٧٨ ، ٨٣ ، ١٥٥ ، ١٧٥ ،
٢٣٥ ، ٢٤٢
عمارة بن شهاب ٢٢
عمران بن حصين الخزاعى ٣٥
عمر بن أبي سلمة ١٥١ ، ١٦٠
عمر بن الخطاب ٥ ، ٦ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ،
١٥ ، ١٦ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٥ ،
٢٦ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٤٤ ، ٥٣ ، ٥٦ ،
٥٩ ، ٦٩ ، ٧٩ ، ٨٣ ، ١٠٢ ،
١١٠ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٤٤ ،
١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٥٧ ، ١٦٧ ، ١٩٩ ،
٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ،
٢١٨ ، ٢٢٥ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٤١
عمر بن سعد بن أبي وقاص ٢٢١ ، ٢٤٠ ،
٢٤١
عمرو بن بكر ١٦٦ ، ٢٢٥
عمرو بن حريث ٢٢٠
عمرو بن سفيان السلمى أبو الأعور ٨٤
عمرو بن سلمة الأرحبى ١٤٨
عمرو بن سلمة الهمدانى ١٨٢
عمرو بن العاص ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٧١ ،
٧٣ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٤ ،
٩٨ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١١٨ ،
١٢٠ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٦٠ ، ١٦٦ ،
١٦٧ ، ١٧٧ ، ١٨٥ ، ١٩٩ ، ٢٠٠
عمرو بن العرندس ١٣١
عون بن عبد الله بن جعفر ٢٦٨

(ف)

فاطمة (بنت الرسول) ١٥ ، ١٨ ، ١٦٨ ،
١٩٣ ، ٢٤١ ، ٢٤٥
الفرزدق ١٤٥

(ق)

قثم ١٤١
قرظة بن كعب الأنصارى ٣٤ ، ١٤٧
القعقاع بن عمرو ٤٢
قيس بن سعد بن عبادة ٢٢ ، ١١٨ ، ١١٩
١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٩٥
قيصر ١٨١

(ك)

كسرى ١٨١
كعب بن ثور ٤٤ ، ٥٣
كنانة بن بشر ١٥٥

(م)

ماريا القبطية ٢٦
مالك بن كعب الأرحبي ٨٤
مجاشع ١٤٥
محمد بن أبي بكر ١٠ ، ٢٦ ، ٤٩ ، ٥٤ ،
١١٢ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٣٢ ، ١٥٥
محمد بن أبي حذيفة ١٥٥
محمد بن الأشعث الكندى ١٨٢
محمد بن الحنفية ١٧٧
محمد بن عبد الله (النبى صلى الله عليه وسلم)
١١ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٩ ،
٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ،
٣١ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٤٠ ،
٤١ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٤ ،
٥٥ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٧ ،
٦٨ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ،
٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ،
١٠٥ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٢ ،
١١٣ ، ١١٥ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ،
١٢٥ ، ١٣٧ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ،
١٥٠ ، ١٦٠ ، ١٦٤ ، ١٧١ ، ١٧٢ ،
١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ،
١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ،
١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ،
٢١٢ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ،

٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٥ ، ٢٦٨

محمد بن عبد الله بن جعفر ٢٦٨

محمد بن علي ٢٤٤

محمد بن قيس بن الأشعث ٢٢١

محمد بن سلمة ١٩ ، ٣١ ، ١٦٠

محمد بن عمرو بن العاص ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ١٠٠

المخارق بن الحارث الزبيدي ٨٤

مرداس أبو بلال ٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١

مروان بن الحكم ٢٥ ، ٤٥

مسلم بن عقبة المري ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢١٣

مسلم بن عقيل ٢٤٥

مسور بن مخرمة ٢٣

مصقلة بن هبيرة الشيباني ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٥١ ، ١٦٠

معاوية بن أبي سفيان ٩ ، ١٤ ، ١٥ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٩ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤٥

معاوية بن خديج ٢٢٣

معقل بن قيس ١٥٤ ، ١٥٥

المغيرة بن شعبة ٢١ ، ٢٤ ، ١٣٧ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٦٠ ، ١٨٨ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٥ ، ٢٣٤ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٦ ، ٢٤٩

المقداد بن الأسود ١٩ ، ١٧٥

المنذر بن الجارود ١٤٩ ، ١٦٠

المنذر بن الزبير ٢٢١

موسى (عليه السلام) ١٥ ، ١٧٣ ، ١٩٠

(ن)

نائلة بنت الفرافصة ١٠

النبي صلى الله عليه وسلم = محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم)

النعمان بن بشير ١٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٦

النعمان بن عجلان ١٥١

نعيم بن هبيرة ١١٦

نوح (عليه السلام) ١٩٠

(هـ)

هارون (عليه السلام) ١٥ ، ١٧ ، ١٩ ، ٢٠

هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ١٣ ، ٧٨

هانئ بن عدى ٢١٩

هانئ بن عروة ٢٣٨

الهرمزان ١١ ، ١٢ ، ٧٦ ، ٢١٨
هلال بن علفة التيمى ١٣٩
هند (أم معاوية) ١٤
هند بنت سهيل بن عمرو ١٩٣

(و)

وحشى ١٤
ورقاء بن سمى ٨٤
الوليد بن عقبة ٢٣٤ ، ٢٣٦

(ى)

ياسر ٧٧
يزيد بن حبية التميمى ٨٤
يزيد بن الحر العبسى ٨٤
يزيد بن شجرة الرهاوى ١٤٠
يزيد بن مالك الأرحبى ٩٥
يزيد بن معاوية ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٦ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤
يزيد بن مفرغ ٢٠٥
يعلى بن أمية ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٨
يونس بن سعد ٢٠٤ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤
يونس بن عبيد ٢١١

فهرس القبائل

(ا)

الأكراد ١٤٨ ، ١٤٩
الأمويون = بنو امية
الأنصار ٦ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٦ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٣٠ ، ٤٢ ، ٦٣ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ٩٣ ، ٢٠٩
إرم ٤٩
الأزد ٤٨ ، ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٥٤

(ب)

بكر ٩٦
بنو أبي سفيان ٦٣ ، ١١٥ ، ١٩٢
بنو أمية ١٥ ، ٢٨ ، ٥٤ ، ٥٨ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٥ ، ٧٨ ، ٩١ ، ٩٩ ، ١٥٥ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢١٣ ، ٢٣٣ ، ٢٣٩ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٢٥٥
بنو تميم = تميم
بنو تيم = تيم
بنو ضبة ٥٣
بنو طلحة ٢٢ ، ٣٤
بنو عامر ٣٨ ، ٤١
بنو العباس ٥٣ ، ٩١ ، ٩٢ ، ١٨٥
بنو عبد المطلب ٤٤ ، ٦٨ ، ١٨٣ ، ٢٠٠
بنو عبد مناف ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ، ١٧٤ ، ١٩١
بنو عدى ١٨ ، ٢٠ ، ٧٥
بنو عبس ٢٣ ، ٩٣
بنو مخزوم ٢٢
بنو هاشم ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٩ ، ١٢١ ، ١٣٣
بنو هلال ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣٩

(ت)

تغلب ١٢٧
تميم ٨٦ ، ٩٦ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٩ ، ١٦٦ ، ١٨٢
تيم ٢٠ ، ٤٩ ، ٧٥
تيم الرباب ١٣٩ ، ١٥٢
تيم الله بن ثعلبة بن عكابة ١٣٩ ، ١٥٢

(ث)

ثقيف ٢٢١ ، ٢٣٠

(ح)

الحبشة ١٦١ ، ١٧٧

(خ)

الخوارج ٩٥ ، ٩٩ ، ١٠٢ ، ٢٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٣٤ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٨ ، ١٨٧ ، ١٩٦ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٢٢ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ٢٤٣ ، ٢٤٨
خولان ٧٣

(ر)

ربيعة ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٧٣ ، ٨٠ ، ٨١ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٤٣ ،
الروم ٣٢ ، ٣٦ ، ٥٦ ، ٦١ ، ٧٣ ، ٧٦ ،

٧٩ ، ٨٦ ، ١٠٥ ، ١١٧ ، ١١٩،
١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٧٧ ، ١٧٩،
١٨٠ ، ٢١٠ ، ٢٢٦ ، ٢٣٠ ، ٢٣١،
٢٣٦

(س)

السبئية ٥٧ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٨ ، ٩٩
سعد مناة ١٥٣ ، ١٩٩

(ش)

الشيعة ٤٦ ، ٩١ ، ٩٢، ١٦٨ ، ١٧١،
١٧٣، ١٧٤ ١٧٨، ١٨٥، ١٨٩،
١٩٠، ١٩١ ، ١٩٢، ١٩٤، ١٩٥،
١٩٦، ١٩٧ ، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠،
٢٠١، ٢٠٣ ، ٢١٧، ٢١٩، ٢٢٠،
٢٢٢، ٢٢٩ ، ٢٣٢، ٢٣٥، ٢٣٧،
٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩

(ط)

طيئ ١٥٢ ، ١٦٦

(ع)

عبد القيس ٣٧ ، ٤٠
عدى : بنو عدى
العرب ١٥، ١٨ ، ٢٠ ، ٢٦ ، ٢٩ ، ٣٠،
٣٢ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٤ ،
٥٨ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ،
٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٦ ، ٩٢ ، ١٠٠،
١١٥ ، ١٢٦ ، ١٣٤ ، ١٣٩ ، ١٤٠،
١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٧ ، ١٥٨،
١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٧٢ ، ١٧٣،
١٨٠ ، ١٨٥ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٢،
٢١٠ ، ٢١٢، ٢١٦ ، ٢٢٢ ، ٢٣٠،
٢٣ ، ٢٥٣

(غ)

غزية ٩٤

(ف)

الفرس ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٣ ، ١٣٢ ، ١٦١ ،
١٦٢ ، ١٧٣ ، ١٧٧ ، ١٨٩ ، ٢١٩،
٢٤١

(ق)

قريش ٨ ، ٩ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ،
١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٣٢ ،
٣٥ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٦١ ، ٦٧ ، ٦٨ ،
٦٩ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٥ ، ١٢١ ، ١٣٥،
١٤٢ ، ١٥٠ ، ١٥٥ ، ١٩١ ، ١٩٢،
٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢٢١،
٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٢٣٦ ، ٢٤١ ، ٢٤٤،
٢٤٧، ٢٥٨ ، ٢٦٤

(ك)

كلب ٢٥٨
كندة ٢٢١ ، ٢٤١ ، ٢٤٤
الكوفيون ٢٢٣ ، ٢٤٤

(م)

مخزوم = بنو مخزوم ٢٥
مذحج ٢٦١
مراد ١٨٢
المضرية ٣١ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٦٠
المعتزلة ١٩١ ، ١٩٣
المهاجرون ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ،
١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٦ ، ٢١ ، ٢٢ ،
٢٣ ، ٣٣ ، ٤٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٣ ،
٧٦ ، ٩٣ ، ٢١٢ ، ٢٤٢

(ن)

النصارى ١٧٢

(هـ)

الهاشميون ١٨٥
هوازن ١٠٣ ، ١١٢

(ى)

اليمنية ٤٢ ، ٤٦ ، ٨١
اليهود ٣٥ ، ٤٣ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٣٤ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٩٩ ، ٢٠٤ ، ٢١٩ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٣٢ ، ٢٣٦ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧

فهرس الأماكن

(ا)

آسك ٢٥٢
أذربيجان ١٠٠
أذرح ٩٨
إصطخر ١٦٣
إفريقية ٢٢ ، ١٣١ ، ٢٤٤

(ب)

البحرين ١٥١ ، ١٦٠
البصرة ٦ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ٢١ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٩ ، ٧٤ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ١٠٣ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٤ ، ١٤٨ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٨٨ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٨
بسا ٢٠٠
بلاد الروم ١٧٨ ، ١٧٩ ، ٢٥٨
بلاد العرب ١٣٧ ، ١٥٧ ، ١٦٢
بلاد الفرس ١٢٠ ، ١١٠
البلد الحرام = مكة

(ج)

جزيرة العرب ١٢٠

(ح)

الحجاز ٩ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٣١ ، ٥٤ ، ٥٨ ، ٦٥ ، ٨١ ، ٨٤ ، ٨٩ ، ١٢٧ ، ١٥٢ ، ١٥٩ ، ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٨٨ ، ٢٢٦ ، ٢٣٢ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦
الحجر ٣٠
حراء (غار) ١٩٧
حروراء ٩٧ ، ١٠٢ ، ١٠٣
حمص ١٩٣
الحوأب ٤١

(خ)

خراسان ٢٣٠
خربتا ٢٥

(د)

دارا بجرد ٢٠٠
دار الندوى ٤٦
دمشق ٦٢ ، ١٠٧ ، ١٨٨ ، ٢١٩ ، ٢٠٧ ، ٢٢١ ، ٢٤٢
دومة الجندل ٩٨

(ذ)

ذو قار ٣٧

(ر)

رحبة الكوفة ١٦٨
الرملة ٥٧

(ز)

زمزم ٢٧ ، ٣٠

السواد ١١٤ ، ١٤٣ ، ١٤٥

(ش)

الشام ٩ ، ١٣ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٩ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤

(ط)

الطائف ١٢٨ ، ١٣٧ ، ١٩٩ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢١٠

(ع)

العراق ٢٠ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ٢٠١ ، ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٥ ، ١٣٠ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٥٢ ، ١٥٨ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٨ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٨ ، ٢٣٤ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣

(ف)

فارس ١٥ ، ٨٠ ، ١١٥ ، ١٨٣ ، ١٩٩ ، ٢٠٣ ، ٢٠٩
الفرات ٧١
فلسطين ٦١ ، ٦٣

(ق)

قرقيسيا ٦٤
قلزم ١٢٠

(ك)

كعبة ٢٧٠
الكوفة ٨ ، ٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٤٢ ، ٤٧ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٦٧ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٥ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧١ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥

(م)

مجيس ١٥٢
المدائن ١٨٢ ، ١٩٦ ، ١٩٩

المدينة ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٥١ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٨٠ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١٢٠ ، ١٢٨ ، ١٣٧ ، ١٤٤ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٧٣ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٥ ، ٢٢٣ ، ٢٣٧ ، ٢٤٦ ، ~~٢٤٧ ، ٢٤٩~~

مرج عذراء ٢٢١

مصر ٨ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٧٠ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٣٠ ، ١٣٤ ، ١٤٠ ، ١٥٥ ، ١٧٥ ، ١٩٣ ، ٢٤٣ ،

مكة ١٧ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٤ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤١ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧

(ن)

النهروان ١٠٣ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٣ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٣٣ ، ١٣٩ ، ١٥٥ ، ١٦٦ ، ١٧٧ ، ٢٥٥ ، ٢٤٣

(هـ)

هجر ٨٥

(و)

وادى السباع ٤٥

(ى)

يثرب = المدينة

اليمن ٥٣ ، ١٥٩ ، ١٦٦ ، ١٧٥ ، ٢٣٩

ينبع ٣٠ ، ١٧٦

فهرس القوافى

(ب)

ردّدنا : ذهب — متقارب — ١٣٢

(ت)

يا : خطئت — رجز — ٥٢

(ح)

أبت : الريح — وافر — ٧٤

(د)

أمرتهم : الغد — طويل — ٨٦ ، ١٠٣

قائلة : عبيد — » — ٢٠٤

أريغوني : الوريد — وافر — ٢٣٥

غدرتم : زيادا — » — ١٣٢

(ر)

لعمرك : الصدر — طويل — ٣٦

وألقت : المسافر — » — ١٦٨

ليس : عار — رجز — ٣٦

أشكو : معشر — » — ٥٠،٥٥،١٠٧

(ع)

يا : لا تراعى — رجز — ٣٦

يا : المصاع — » — ٤٨

جزيت : عقوقا — رجز — ٥٢

(ك)

اشدد : لاقيك — هزج — ١٦٤

(ل)

محمد : الجسل — رجز — ٤٨

نحن : تنزيله — » — ٧٧

أمور : علا — » — ٧٨

مطرق : صل — » — ٥٨

(م)

يا : نعلم — رجز — ٤٨

قوى : سهمى — سريع — ١٠٧

يفلقن : وأظلما — طويل — ٢٤١

أدم : والضرما — بسيط — ٢٣

(ن)

لا : كجلوانا — بسيط — ١١٦

فأن : يتانى — وافر — ١٠٦

ألا : اليمان — » — ٢٠٥

وما : لا تصبحينا — » — ١٧٧

ألفا : أربعون — » — ٢٣١

ولما : دونى — » — ١٥٢

فهرس الأيام

(ا)

أحد ١٤ ، ١٥ ، ٦١ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٤

(ب)

بدر ١٢ ، ١٤ ، ٦٨ ، ٦٩

(ت)

تبوك ١٥

(ج)

الجمل : وقعة الجمل

(ح)

الحديبية ١٠٥ ، ٢١١
حرب الردة ٢١٧
حنين ١١٥

(خ)

خيبر ١٧

(ص)

صفين ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٤ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٥٣ ، ١٥٩ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٩٩ ، ٢١٩ ، ٢٢٩

(غ)

غزوة تبوك = تبوك
غزوة الطائف ٢٣٠

(م)

مؤتة ٦٨ ، ٦٩

(ن)

نهاوند ٢٣٩
النهروان ١١٦ ، ١١٨ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٣٤ ، ١٤٦ ، ١٥٢ ، ١٧١ ، ١٨٢ ، ١٩٤ ، ٢١٩ ، ٢٣٩

(و)

وقعة الجمل ٧ ، ٨١ ، ٩٢ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٤ ، ١٣٠ ، ١٥٣ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٩٩ ، ٢٠٣ ، ٢١٩ ، ٢٢٣

(ى)

اليرموك ١٩٩
يوم الجمل = وقعة الجمل
يوم الخندق ١٤

فهرس المواضيع

(١) المسلمون بعد مقتل عثمان

حاجتهم إلى إمام ٥ : ٣ — ٩
موقف الجيوش ٥ : ١٠ — ١٥
قتلة عثمان ٥ : ١٦ — ١٨
مواقف الجلة من المهاجرين والأنصار ٥ : ١٩ — ٦ : ١٦
لم يكن للخلافة نظام مقرر ٦ : ١٧ — ٧ : ٩
موقف علي وطلحة والزبير ٧ : ١٠ — ٨ : ٤
تولى الغافقي أمور المدينة ٨ : ٥ — ٨
مبايعة علي ٨ : ٩ — ٩ — ٢٦
علي وقتلة عثمان ١٠ : ١ — ١١ : ٢
عثمان مع ابن عمر حين قتل الهرمزان ١١ : ٣ — ١٤
علي وابن أبي بكر في مقتل عثمان ١١ : ١٥ — ٢٤

(٢) استقبال خلافة عليّ

المسلمون بين خلافة عثمان وعلي ١٢ : ٢ — ١٦
مقتل عمر ومقتل عثمان ١٢ : ١٧ — ١٣ : ٨
نفوذ الثائرين في المدينة ١٣ : ١٩ — ١٧
موقف العمال من علي ١٣ : ١٨ — ٢١
موقف معاوية من علي ١٣ : ٢٢ — ١٥ : ٦
موقف ابن أبي وقاص وطلحة والزبير من علي ١٥ : ٧ — ٢٥
شيء عن منزلة علي ١٥ : ٢٦ — ١٨ — ٨
رأي عمر فيه ١٦ : ٩ — ١٩
علي والخلافة ١٦ : ٢٠ — ٢٦

(٣) بنو هاشم والخلافة

علي والعباس يريانها لبني هاشم ١٧ : ٢ — ٤
كان أبو سفيان يراها لعلي ١٧ : ١١ — ١٨ : ٨

كان العباس يرى عليا بها أحق ١٧ : ١١ — ١٨ : ٩
عدم استماع على للعباس وأبى سفيان : ١٨ — ١٠ — ١٩ : ٣
عهد أبى بكر إلى عمر وموقف على ١٩ : ٤ — ١١
تخليف أهل الشورى عثمان وموقف على ١٩ : ١١ — ٢٢
على والخلافة بعد مقتل عثمان ١٩ : ٢٢ — ٢٠ : ٣
موقف طلحة والزبير من على ٢٠ : ٣ — ٢٠

(٤) علىّ والعمال

مشورة ابن شعبة على علىّ بتثبيت معاوية على الشام ٢١ : ٢ — ١٨
على وعمال عثمان ٢١ : ١٩—٢٥:٥
اختيار على لعماله ٢٢ : ٦ — ٢٣ : ٣
معاوية وعامل علىّ على الشام ٢٣ : ٣ — ٩
طلب علىّ من معاوية البيعة ورد معاوية ٢٣ : ٩ — ٢٤
تجهز علىّ لحرب الشام وما كان من طلحة والزبير ٢٣ : ٢٥—٢٤ : ١٢

(٥) المخالفون على علىّ

اعتزال نفر إلى مكة ٢٥ : ٢ — ٩
عبد الله بن عمر ٢٥ : ٩ — ١١
طلحة والزبير ٢٥ : ١٢ — ١٣
عمال عثمان وكثير من بنى أمية ٢٥ : ١٣ — ١٥
عائشة وبيعة على ٢٥ : ١٥ — ٢٦ : ٢٢
موقفها فى مكة ٢٦ : ٢٢ — ٢٧ : ٤ : ٢ — ١١
لقاء المكيين لعامل على ٢٧ : ١٥ — ١١

(٦) المؤامرة

الاتفاق على الثأر لعثمان ورد الشورى للمسلمين ٢٨ : ٢ — ٨
الاستعداد للغارة على البصرة ٢٨ : ٨ — ٢٣
خروج عائشة ٢٨ : ٢٣ — ٢٩ : ٥

(٧) علىّ والخلفاء من قبله

الخلاف عليه دونهم ٣٠ : ٢ — ٧
رفض على لنصيحة الحسن ابنه ٣٠ : ٧ — ٢٠
استعداد على للخروج إلى الشام ٣٠:

٢١ — ٣١ : ٢

ما يؤخذ على امتناع معاوية عن البيعة ٣١ : ٣ — ٨

ما يؤخذ على طلحة والزبير ٣١ : ٩ —٢٤

ما يؤخذ على عائشة ٣١ : ١٥—٢٢

بين بيعة أبي بكر وعمر وبيعة على ٢١ : ٢٣ — ٣٢ : ٥

عدول على عن المسير للشام للقاء طلحة والزبير وعائشة ٣٢ : ٦ — ٣٣ : ٧

(٨) موقف الكوفة من علىّ

قعود أبي موسى عن نصرة على ٣٤ : ٢ — ١٣

تولية علىّ قرظة وإرساله من يستنفر الناس ٣٢ : ١٣ — ١٩

(٩) موقف البصرة من علىّ

بين أبي حنيف عامل علىّ عليها وبين طلحة والزبير ٣٥ : ٢ — ١٤

خطبة عائشة في الناس ٣٥ : ١٥ — ٣٦ : ٣

حرب ابن حنيف لهم ومقتل ابن جبلة ٣٦ : ٢ — ٣٧ : ٩

حال الناس مع طلحة والزبير ٣٧ : ١٠ — ٣٨ : ٦

(١٠) علىّ وأصحابه

ثقة علىّ بحقه ٣٩ : ٢ — ٤

بيعة أصحابه له عن رضى ٣٩ : ٤ — ١٥

مضى علىّ وصحبه إلى الحرب عن إيمان ٣٩ : ٥١ — ٤١ : ١٠

(١١) السفارة بين علىّ وعائشة وصاحبيها

ابن القعقاع رسول على وعائشة ٤٢ : ٢ — ٢١

نقاش الناس بعضهم لبعض ٤٢ : ٢٢ — ٤٣ : ١

قصة ابن السرداء ٤٣ : ١ — ٢٣

(١٢) الحرب

سعى ابن ثور لمنع الحرب ورد ابن شيبان عليه ٤٤ : ٢ — ١٧

التقاء الجمعين والحديث بين على وطلحة والزبير ٤٤ : ١٨ — ٤٥ : ٤

تحرج الزبير من قتال علىّ وما كان بينه وبين ابنه ٤٥ : ٥ — ٢٢

مقتل الزبير وطلحة ٤٥ : ٢٣ — ٤٦ : ١٢

(١٣) وصف الحرب

أناة علىّ وعدم تعجله الحرب ٤٧ : ٢ — ٦
حديث رفعه المصحف ٤٧ : ٧—١٣
خروج عائشة على جملها ٤٧ : ١٤ — ٤٨ : ٦
حديث مقتل ابن ثور ٤٨ : ٧ — ٩
اشتداد القتال ثم عقر جمل عائشة ٤٨ : ١٠ — ٤٩ : ١٧

(١٤) بعد وقعة الجمل

توجع علىّ لمن قتل ٥٠ : ٢ — ١٨
أمره فى أعدائه وأسلابهم ٥٠ : ١٨— ٥١ : ٤
أثر الموقعة فى نفوس المسلمين ٥١ : ٥ — ١٩

(١٥) علىّ فى البصرة

زيارة على لعائشة فى دار الخزاعى وما كان بينه وبين صفية العبدرية ٥٢ : ٢ — ١٨
ما كان من على مع رجلين عرّضا بعائشة ٥٢ : ٢٠ — ٥٣ : ٣
مبايعة البصريين له وتقسيمه الأسلاب بينهم ٥٣ : ٤ — ٢٥
مدة إقامة على بالبصرة ٥٣ : ٢٦ — ٥٤ : ٧
مثل من إسماحه ٥٤ : ٨ — ٢٠
حسرة عائشة وعلى ٥٤ : ٢١ — ٥٥ : ٤
تجهيز عائشة إلى المدينة ٥٥ : ٥ — ١١
تأمير ابن عباس على البصرة ٥٥ : ١٢ — ١٨

(١٦) حرب الشام

استعداد علىّ وصحبه ٥٦ : ٢ — ٩
شىء عن سياسة معاوية وعلى ٥٦ : ١٠ — ٦٠ : ١٧

(١٧) السفارة بين علىّ ومعاوية

جرير البجلى رسول على إلى معاوية ٦١ : ٢ — ٨
حديث لحاق عمرو بن العاص بمعاوية ٦١ : ٩ — ٦٣ : ٢٣
اجتماع أمر معاوية ورده رسول على ٦٣ : ٢٤ — ٦٤ : ٥

(١٨) الكتب بين علىّ ومعاوية

كتاب معاوية إلى على يحمله أبو مسلم الخولانى ٦٥ : ٢ — ٦٦ : ٦
مناقشة هذا الكتاب ٦٦ : ٧ — ٦٧ : ٥
كتاب على إلى معاوية ٦٧ : ٦ — ٦٨ : ٢٢
تحليل كتاب على ٦٨ : ٢٣ — ٦٩ : ٦
فكرة الحرب ٦٩ : ٧ — ٧٠ : ١٣

(١٩) التقاء الجمعين

انتهاء معاوية وعلى إلى صفين والحرب على الماء ٧١ : ٢ — ١٩
تحاجز القوم ثم الاستعداد للحرب ٧١ : ٢٠ — ٧٢ : ٨

(٢٠) الحرب

مناوشات لم تبلغ مبلغ الحرب ٧٣ : ٢ — ١٤
التعبئة ثم التزاحف وهم معاوية بالفرار ٧٣ : ١٥ — ٧٤ : ١٣
حديث نشر المصاحف ٧٤ : ١٤ — ٧٥ : ١٢

(٢١) وصف الجمعين

عدد الجيشين وشناعة الحرب ٧٦ : ٢ — ١٩
مقتل عبيد الله بن عمر ٧٦ : ٢٠ — ٢١
حديث مقتل عمار بن ياسر ٧٦ : ٢٢ — ٧٨ : ١٤
روح الفريقين فى الوقعة ٧٨ : ١٥ — ٧٩ : ٢٣

(٢٢) أصحاب علىّ

تعقيب على مكيدة عمرو برفعه المصاحف ٨٠ : ٢ — ١٥
السبب فى عدم إخلاص بعض الرؤساء لعلى ٨٠ : ١٦ — ١٩
موقف أحدهم وهو الأشعث بن قيس ٨٠ : ٢٠ — ٨١ : ٥
موقف أهل البصرة ٨١ : ٦ — ١٤
عود إلى الأشعث وصلته بعمرو بن العاص ٨١ : ١٥ — ٨٢ : ٤

(٢٣) التحكيم

حديث اختيار عمرو وأبي موسى ٨٣ : ٢ — ١٠

اجتماع الحكمين ونص الصحيفة ٨٣ : ١١ — ٨٤ : ٢٤

تعقيب على نص الصحيفة وموقف الأشعث وعروة بن أدية منها ٨٤ : ٢٥ — ٨٧ : ١٦

رجوع على إلى الكوفة وخروج المحكمة على على ٨٧ : ١٧ — ٨٩ : ٨

(٢٤) السبئية فى صفين

المؤرخون والسبيئة قبل صفين ٩ : ٢ — ٩

حديث السبيئة فى صفين كان منحولا ٩٠ : ١٠ — ٩١ : ١٠

حديث الخصومة بين الشيعة وأهل الجماعة وعود إلى ابن السوداء ٩١ : ١١ — ٩٣ : ٢٤

(٢٥) الخوارج

الوفود بينهم وبين على للمناظرة ٩٤ : ٢ — ٩٧ : ٨

(٢٦) اجتماع الحكمين

تشاورهما ثم ما كان من مكيدة عمرو بأبي موسى ٩٨ : ٢ — ١٠٢ : ١٣

(٢٧) عليّ والخوارج

خطبة على فى الحكمين ١٠٣ : ٢ — ١٢

خروج على إلى الخوارج ١٠٣ : ١٣ — ١٠٤ : ٣

القتال بين على والخوارج وخبر ذى الثدية ١١٤ : ٣ — ١٠٥ : ١٤

على بعد هزيمته للخوارج ١٠٥ : ١٥ — ١٠٧ : ٢١

(٢٨) عليّ وأنصاره

خطبته فيهم يستحثهم على الجهاد ١٠٨ : ٢ — ١٣

أسباب تلكئهم فى النهوض معه ١٠٨ : ١٤ — ١٠٩ : ٥

بين سياسة على وسياسة معاوية ١٠٩ : ٦ — ١١٢ : ٢٣

(٢٩) عليّ والخوارج أيضاً

كيد الخوارج له ١١٣ : ٢ — ١١٤ : ٥
على والخريت بن راشد ١١٤ : ٦ — ١١٥ : ١٤
على ومصقلة بن هبيرة ١١٥ : ١٥ — ١١٧ : ١١

(٣٠) دولة عليّ

سعى معاوية فى أخذ مصر ١١٨ : ٢ — ١١٩ : ١٦
تقسيم الدولة شطرين بين على ومعاوية ١١٩ : ١٧ — ١٢٠ : ٢٣

(٣١) عليّ وابن عباس

من برّ عليّ بابن عباس ١٢١ : ٢— ٩
تنكر ابن عباس لعليّ ١٢١ : ١٠ — ١٢٢ : ٢٣
ما كان بين على وابن عباس بسبب أبى الأسود الدؤلى ١٢٢ : ٢٤ — ١٢٣ : ٢٢
خروج ابن عباس بالمال مع أخواله وحديث ذلك ١٢٣ : ٢٣ — ١٢٩ : ٢٤

(٣٢) أطماع معاوية فى البصرة

فشو العثمانية بها واختيار معاوية ابن الحضرمى والياً لها ١٣٠ : ٢ — ١٨
بين زياد وابن الحضرمى ١٣٠ : ١٩ — ١٣٢ : ١٨
تخلى ابن عباس كان سبباً فى أحداث البصرة ١٣٢ : ١٩ — ١٣٣ : ٧

(٣٣) من كيد معاوية لعليّ

عدوله عن الحرب الظاهرة إلى الغارات المتفرقة ١٣٤ : ٢ — ١٣٥ : ٢
خطبة على فى أصحابه يرغبهم فى الجهاد وأثرها فى نفوسهم : ٣ — ١٦٣ : ٧

(٣٤) تطلع معاوية إلى بلاد العرب

نظرته إلى مكة والمدينة ١٣٧ : ٢ — ٧
هو واليمن ١٣٧ : ٨ — ١٨
خبر بسر بن أرطاة ١٣٧ : ١٩ — ١٣٨ : ٧
توالى غارات معاوية ١٣٨ : ٨ — ٢٠

(٣٥) علىّ والخوارج أيضاً

وتر الخوارج عند على ١٣٩ : ٢ — ١٧
الخارجون عليه منهم وشيوع فكرتهم ١٣٩ : ١٨ — ١٤٠ : ٢
ضيق على بهذه الاضطرابات ١٥٣ : ١٣ — ٢٢
انتهاز معاوية للفرصة وإرساله ابن شجرة إلى مكة ١٤٠ : ٣ — ١٤١ : ١١

(٣٦) تجهز علىّ لحرب الشام

تحريضه لأصحابه ١٤٢ : ٢ — ١٦
نص خطبته فيهم وأثرها من نفوسهم ١٤٢ : ١٧ — ١٤٣ : ٢١

(٣٧) من سيرة علىّ

لم تشغله الحرب عن تأديب قومه ١٤٤ : ٢ — ١٨
أسلوبه فى التأديب ١٤٤ : ١٩ — ١٤٥ : ٩
مثل من زهده وتعبده وعدله ١٤٥ : ١٠ — ١٤٦ : ١٢

(٣٨) سيرته مع عماله

مراقبته لهم ١٤٧ : ٢ — ١٦
منه إلى عامل فى حفر نهر ١٤٧ : ١٧ — ١٤٨ : ٣
إلى عامله الأرحبي حين شكاه قومه ١٤٨ : ٣ — ٨
إلى زياد فى مال ١٤٨ : ٩ — ١٤٩ : ٨
بينه وبين ابن الجارود وقد بلغه عنه هنات ١٤٩ : ٩ — ١٥٠ : ١٩ : ٢
بينه وبين زياد وقد نهر رسوله إليه ١٥٠ : ٢٠ — ١٥١ : ٦
كتابه إلى أشعث يعزله عن أذربيجان ١٥١ : ٦ — ١٥

كتابه إلى ابن أبى سلمة يعزله عن البحرين ١٥١ : ١٦ — ٢
حزمه مع عماله ١٥١ : ٢٣ — ١٥٢ : ٣
حديث تحريقه ناساً من أهل الكوفة ١٥٣ : ٤ — ١٥٣ : ٩
كان لا يستكره الناس ١٥٣ : ١٠ — ١٥٤ : ١١

(٣٩) نظام الخلافة

إخفاق هذا النظام والعلة فى ذلك ١٥٥ : ٢ — ١٦٢ : ٥
من أسباب نجاح معاوية وتخلف على ١٦٢ : ٦ — ١٦٥ : ١٢

(٤٠) المؤامرة

ائتمار الخوارج بعلى ومعاوية وعمرو ١٦٦ : ٢ — ٢٢
إخفاق الصريمى فى قتل معاوية وابن بكر فى قتل عمرو ١٦٦ : ٢٣ — ١٦٧ : ٥
مقتل علىّ على يد ابن ملجم وحديث ذلك ١٦٧ : ٦ — ١٦٨ : ١٦

(٤١) علىّ بين أشياعه وأعدائه

غلو القصّاص فى أخبار على وأحاديث تأليهه ١٦٩ : ٢ — ١٧٣ : ١٣
الشيعة وظهورها ١٧٣ : ١٤ — ١٧٥ : ١٥

(٤٢) الحسن

موقفه من فتنة عثمان ١٧٦ : ٢ — ١٠
مشورته على أبيه بعد مقتل عثمان ١٧١ : ١١ — ١٩
عثمانيته ١٧١ : ٢٠ — ١٧٢ : ٤
من إيثار أبيه له ولأخيه الحسين ١٧٢ : ٥ — ١٦
كرهه للفتنة ١٧٦ : ١٧ — ١٧٧ : ٣
الحديث فى استخلاف أبيه له ١٧٧ : ٤ — ١٥
نهوضه للحرب واعتداء أحد الخوارج عليه ١٧٧ : ١٦ — ١٧٨ : ٥
حديث مبايعته معاوية ١٧٨ : ٦ — ١٧٩ : ١٢

(٤٣) الصلح

على والحسن بين ميول الناس ١٨٠ : ٢ — ٢٠
أثر الأمم المفتوحة فى العرب ١٨٠ : ٢١ — ١٨١ : ١١

٥ — ١٨٤ : ١٥
عمرو بن العاص بين معاوية والحسن ١٨٤ : ١٦ — ١٨٥ : ١٧
سخط أصحاب الحسن وأخيه الحسين على الصلح ١٨٥ : ١٨ — ١٨٦ : ١٧
أثر سياسة معاوية فى النفوس ١٨١ : ١٢ — ١٨٢ : ١١
قعود الحسن عن الحرب وتعجله الصلح والكتب المتبادلة بينه و بين معاوية ١٨٢ : ١١ — ١٨٣ : ٥
الحديث فى شروط الصلح ١٨٣

(٤٤) سياسة معاوية فى العراق

أخذهم بالشدة ١٨٧ : ٢ — ١٨٨ : ٢
توليته ابن شعبة الكوفة وابن عامر البصرة ١٨٨ : ٣ — ٧
ندم العراقيين على ما كان منهم للحسن ١٩٠ : ٧

(٤٥) الحسن ومعاوية

نشاط الشيعة ١٩١ : ٢ — ١٣
موقف الحسن من معاوية ١٩١ : ١٤ — ١٦
شىء من سيرة الحسن ١٩١ : ١٧ — ١٩٢ : ٩
موقف معاوية من الحسن ١٩٢ : ١٠ — ٢٠
حديث وفاة الحسن ١٩٢ : ٢١ — ١٩٤ : ٢
سعى معاوية لتنحية الحسين ١٩٤ : ٣ — ٧

(٤٦) الحسين

موازنة بينه وبين أخيه الحسن ١٩٥ : ٢ — ١٩٦ : ٣
نقض معاوية لبيعته مع الحسن وموقف عائشة ١٩٦ : ٤ — ٢٠
محاولة إثارة شيعته ١٩٦ : ٢١ — ١٩٧ : ٣
الشيعة بين سياسة الحسن والحسين ١٩٧ : ٤ — ٨

(٤٧) الشيعة وولاة معاوية

عبد الله بن عامر ١٩٨ : ٢ — ١٧
المغيرة بن شعبة ١٩٨ : ١٨ — ٢٠١ : ٢١

(٤٨) الشيعة وولاة معاوية أيضاً

زياد ، شيء عن تبنيه ، وسيرته ٢٢ : ٢ — ٢٠٦ : ١٥

(٤٩) الاستلحاق

ما نال معاوية منه ٢٠٧ : ٢ — ٦
ما نال زياد منه ٢٠٧ : ٧ — ٢٠٨ : ١٠
كلمة فى التبنى وشروطه ٢٠٨ : ١١ — ٢١١ : ١٨

(٥٠) زياد على البصرة

شدته على الناس وخطبته فيهم ٢١٢ : ٢ — ٢١٣ : ٥
تعقيب على الخطبة ٢١٣ : ٦ — ٢١٦ : ١١
موقف ابن الأهتم وابن قيس وابن أدية ٢١٦ : ١٢ — ٢١٧ : ٦

(٥١) مقتل حجر بن عدىّ

بين سيرة الخلفاء وسيرة معاوية وزياد ٢١٨ : ٢ — ٢١٩ : ٢
شيء عن حجر ٢١٩ : ٣ — ٢٢٠ : ٢
زياد وحجر ٢٢٠ : ٣ — ٢٢١ : ٢٠
معاوية وحجر ٢٢١ : ٢١ — ٢٢٢ : ٢٢
أثر مقتل حجر ٢٢٢ : ٢٣ — ٢٢٤ : ١١

(٥٢) استخلاف يزيد

حديث الاستخلاف وكيف تم ٢٢٥ : ٢ — ٢٢٧ : ١٩

(٥٣) زياد والخوارج

الخوارج قبل زياد ٢٢٨ : ٢ — ٨
شدة زياد على الخوارج ٢٢٨ : ٩ — ٢٢٩ : ١٣
حديث أبى بلال ٢٢٩ : ١٤ — ٢٣٠ : ١١
كلمة فى شعور الناس عن سياسة معاوية ٢٣٠ : ١١ — ٢٣٥ : ٢١

(٥٤) يزيد

شيء عن معاوية ٢٣٦ : ٢ – ٦
شيء عن يزيد ٢٣٦ : ٧–٢٣٧: ٦
الأربعة المكرهون على بيعة يزيد ٢٣٧ : ٧ – ١٢
الحسين بن على وبيعة يزيد ٢٣٧ : ١٣ – ٢٣٨ : ١٧
ابن زياد ومسلم بن عقيل ٢٣٨ : ١٨ – ٢٨

(٥٥) الحسين

تهيؤه للمسير إلى الكوفة ٢٣٩ : ٢ – ١٣
لقاؤه جيوش ابن زياد ومقتله ٢٣٩ : ١٣ – ٢٤٢ : ٨

(٥٦) بعد مقتل الحسين

استفحال الشر ٢٤٣ : ٢ – ٢٤٥ : ١٥

(٥٧) بعد مقتل الحسين أيضاً

ظهور عبد الله بن الزبير ٢٤٦ : ٢ – ١٥
حصاره بمكة ٢٤٦ : ١٦–٢٤٧ : ١٨
خاتمة يزيد وبنى أمية ٢٤٧ : ١٩ – ٢٤٨ : ٧

(٥٨) انتهاء الفتنة

حال المسلمين ٢٤٩ : ٢ – ٢٣

ومن الحق علىّ أن أسجل الاعتراف بالفضل والجميل للصديقين الكريمين إبراهيم الأبيارى وحامد عبد المجيد فكلاهما أعانني معونة صادقة على البحث عن المراجع وقراءة المخطوط منها . وانفرد الأستاذ إبراهيم الأبيارى بقراءة التجارب وتصحيحها . فلهما أصدق التحية وأخلص الشكر . وعسى أن يعينني الله على أن أعرف لهما بعض هذا الجميل .

رقم الإيداع	٢٠٠٦/٣٨٣٨	
الترقيم الدولى	977-02-6915-8	ISBN

١/٢٠٠٦/٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

لقد كان مقتل عثمان صدعًا فى جسم الأمة الإسلامية ، فكيف يرأب هذا الصدع بما يحقق للمسلمين وحدتهم واتفاق كلمتهم ؟

لقد جاء الإمام علىّ فى ظروف قاسية عنيفة ، واستقام له الأمر حيناً ، ولكن الأحداث جاءت على غير ما كان يشتهى ويشتهى له مناصروه .. فقُتل رابع الخلفاء كما قُتل ثالثهم من قبله . وانتهت الخلافة الرائدة إلى الملك الذى أقامه الأمويون ..

وهذا الكتاب يصور لنا عصر الخليفة الشهيد ، كما صوّر لنا عصر ابن عفان من قبل .

دار المعارف

٠١٧٨٢٨/٠١

تصميم الغلاف : شريفة أبو سيف